من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم

شرح وتعليق

طه عبد الله العفيفي

المجلد الثاني

دار الاعتصام



شرح وتعليق

طه عبد الله العفيفي

المجلد الثاني

١١ - ٢٠

دار الاعتصام



دار الإعتصام

٨ شارع حسين حجازى ـ ت٣٥٤٦٠٣١/٣٥٥١٧٤٨ ص ب
٤٧٠ القاهرة الرمز البريدى ١١٥١١ فاكسيميلى ٣٥٤٦٠٣١

للطبع والنشر والتوزيع

الإهداء

إلي الحبيب المصطفي صلوات الله وسلامه عليه الذي قال متحدثاً عن نفسه :

« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر .. وما من نبي يومئذ .. آدم فمن سواه إلاَّ تحت لوائي ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ، وأنا أول شافع وأول مشفع »(١) .

أقدم « المجلد الثاني » من وصاياه صلوات الله وسلامه عليه ..

وكلي أمل في أن ينفع الله تعالي به .. وأن يجعله سبحانه وتعالي حجة لنا لا علينا .. آمين .

المؤلف

* * *

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذي وقال : حسن صحيح . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

أخي المسلم .. أختي المسلمة :

والآن .. وبعد أن قرأتما « المجلد الأول » من « وصايا الرسول صلي الله عليه وسلم » ، من الجزء الأول إلي الجزء العاشر ، الذي هو كما علمتنا من الوصية الأولي إلي الوصية الرابعة والثلاثين . والذي أرجو أن تكونا قد انتفعتما ونفعتما بكل ما فيه من آثار وأخبار وأشعار موضوعية !!

إليكما كذلك « المجلد الثاني » من الوصايا ، الذي هو كما ستريا إن شاء الله تعالي من الجزء الحادي عشر إلي الجزء العشرين ، ومن الوصية الخامسة والثلاثين إلي الوصية الستين .

ولسوف تريان إن شاء الله تعالي ، أنني قد استطعت بتوفيق من الله تعالي - في هذا المجلد الثاني - أن أضع النقط فوق الحروف ، وذلك بتركيزي علي بعض المواضيع الهامة التي كلنا كمسلمين ومسلمات في أشد الحاجة إلي معرفتها والوقوف علي أبعادها .. حتي نكون من المنفذين لما فيها من أوامر ، والمجتنبين لما فيها من منهيات .. وذلك من خلال شرحي - السهل الميسر - لتلك الوصايا المحمدية التي أسأل الله تعالي أن ينفعنا بها كذلك حتي نكون إن شاء الله تعالي من هؤلاء الموفقين المنكرين لغيرهم بها .. فنكون بذلك من الذين قال الله تعالي فيهم :

« ومن أحسن قولاً ممن دعا إلي الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين »[1] .

وحتي نكون بذلك - إن شاء الله - من المخلصين الموفقين الذي سيهدي الله تعالي علي أيديهم .. كما يشير إلي هذا الحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم »[2] .

وفي الحديث يقول صلوات الله وسلامه عليه مرغباً في تعليم الناس الخير :

★ ★ ★

---

(١) فصلت : ٣٣ .

(٢) أخرجه أحمد من حديث معاذ ، وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد أنه قال ذلك لعلي كرم الله وجهه .

« إن الله سبحانه وملائكته وأهل سماواته وأرضه حتي النملة في جحرها وحتي الحوت في البحر : ليصلون علي معلم الناس الخير »[1] .

فليكن هذا هو هدفنا جميعاً حتي نفوز بهذا الخير الذي ما مثله خير .. وحتي نكون بذلك من الأحياء المشار إليهم في قول علي كرم الله وجهه :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم علي الهدي لمن استهدي أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبداً فالناس موتي وأهل العلم أحياء

ولهذا .. فقد قال أيضاً كرم الله وجهه : « من أمضي يومه ، في غير حق قضاه ، أو فرض أداه ، أو مجد بناه ، أو حمد حصله ، أو علم اقتبسه : فقد عق يومه ، وظلم نفسه » .

* * *

هذا .. وإذا كنت أقدم إليكم الآن « المجلد الثاني » الذي أرجو أن تجدوا فيه ضالتكم من الحكمة .. التي هي « ضالة المؤمن »[2] .

فإنني سأقدم إليكم قريباً إن شاء الله تعالي « المجلد الثالث » ، من الجزء الحادي والعشرين إلي الجزء الثلاثين ، ومن الوصية الستين إلي الوصية المائة .. والذي سيكون إن شاء الله تعالي خاتِمة لهذا الخير العظيم .. الذي أسأل الله تعالي أن يعينني علي تحقيقه حتي ينفع الله تعالي به إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها .. والذي أرجو كذلك أن يكون ثقلاً في ميزاني وميزان والدي « السيد عبد الله العفيفي » رحمه الله تعالي الذي أعدني لهذا الخير العظيم منذ نعومة أظفاري ..

فادعوا الله تعالي لي حتي أتمم هذا الخير .. وحتي أكون عند حسن ظنكم بي ..

والله أسأل أن يتقبل مني ومنكم هذا الدعاء ..

إنه تعالي علي كل شيء قدير وبالاجابة جدير ...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

المؤلف

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال : غريب . وفي نسخة حسن صحيح .

(٢) كما ورد في نص حديث شريف .

الوصية الخامسة والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم قال:

"سَافِرُوا تَصِحُّوا وَاغْزُوا تَسْتَغْنُوا"

أخرجه أحمد وفي سنده ابن لهيعه
لكن صححه المناوي، وحسنه السيوطي

● وَفي القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى: "فَامْشُوا في مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ" ويقول: "وَمَن يُهَاجِرْ في سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ في الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً"

فكن أخا الاسلام :

منفذاً لهذه الوصية العظيمة التي كما قرأت في نصها ، لو نفذناها لكنا أصحاء في أجسامنا وقلوبنا وعقولنا ، ولكانت النتيجة الحتمية هي الاستغناء عن غيرنا من الأعداء أو الأصدقاء .

وهذا هو ما نريد في شرحنا لتلك الوصية المحمدية ، أن نقف عليه ، وباقتناع منطقي يدفعنا بعد ذلك أو مع ذلك إلي السفر ، والغزو .

ولكي نبدأ الشرح — بتوفيق الله تعالي — فإنني أرى أولاً أن نقف ، على :

تعريف السـفر :

فالسفر لغة : قطع المسافة مطلقاً ، وشرعاً : قطع مسافة تتغير بها الأحكام ، من : قصر الصلاة ، وإباحة الفطر في رمضان ، وامتداد مدة المسح علي الخفين ، وسقوط الجمعة والعيدين والأضحية ، وحرمة الخروج علي المرأة الحرة بلا محرم أو زوج .

والذي يعنينا الآن في هذا الباب ، هو السفر اللغوي(١) ، الذي مضمونه الانتقال من بلد إلى بلد ، أو من وطن إلى وطن ، فإليك أولاً وتمهيداً لذلك :

أقسـام السـفر :

والسفر ثلاثة أقسام :

سفر طاعة : كالحج والجهاد .

وسفر مباح : كالتجارة .

وسفر معصية : كقطع الطريق .

وفي إحياء علوم الدين قسم — الإمام الغزالي رحمه الله — السفر إلى أربعة أقسام :

---

(١) أما السفر الشرعي فسندور حوله بعد ذلك .

القسم الأول : السفر في طلب العلم ، وهو إما واجب ، وإما نفل ، وذلك بحسب كون العلم واجباً أو نفلاً ...

القسم الثاني : السفر للحج أو الجهاد ، وهو سفر العبادة ..

القسم الثالث : السفر هرباً مما يقدح في البدن ، كالطاعون ، أو في المال كغلاء السعر أو ما يجري مجراه ولا حرج في ذلك ..

ثم يقول بعد ذلك بإيجاز كبير :

فهذه أقسام الأسفار ، وقد خرج منه :

أن السفر ينقسم إلي مذموم ، وإلي محمود ، وإلى مباح ، والمذموم ينقسم إلى حرام : كإباق ــ أى هرب ــ العبد ، وسفر العاق لوالديه أو لأحدهما . وإلى مكروه : كالخروج من بلد الطاعون . والمحمود ينقسم إلى واجب : كالحج وطلب العلم الذى هو فريضة علي كل مسلم(١) ، وإلي مندوب إليه : كزيارة العلماء وزيارة مشاهدهم .

وفى القرطبى ــ وحول تفسير الآية رقم ١٠٠ من سورة النساء(٢) في المسألة الخامسة ــ يقول :

قسم العلماء رضى الله عنهم الذهاب في الأرض قسمين : هرباً ، وطلباً .

فالأول : وهو الهرب ينقسم إلي ستة أقسام :

الأول : الهجرة وهي الخروج من دار الحرب إلي داز الإسلام ، وكانت فرضاً فى إيام النبي ﷺ ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة ، والتى انقطعت بالفتح هى القصد إلى النبى ﷺ حيث كان ، فإن بقى في دار الحرب عصى ، ويختلف في حاله .

الثاني : الخروج من أرض البدعة ، قال ابن القاسم : سمعت مالكاً يقول : لا يحل لأحد أن يقيم بأرض يسب فيها السلف :

---

(١) قال العلماء : ومسلمة .

(٢) الآية تقول ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

قال ابن العربي : وهذا صحيح ، فإن المنكر إذا لم تقدر أن تغيره فزل عنه ، قال الله تعالي : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكري مع القوم الظالمين** ﴾(١) .

الثالث : الخروج من أرض غلب عليها الحرام ، فإن طلب الحلال فرض علي كل مسلم .

الرابع : الفرار من الأذية في البدن ، وذلك فضل من الله رخّص فيه ، فإذا خشي على نفسه فقد أذن الله له في الخروج والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور . وأول من فعله إبراهيم عليه السلام ، فإنه لما خاف من قومه ، قال : ﴿ **إنى مهاجر إلى ربى** ﴾(٢) وقال : ﴿ **إنى ذاهب إلى ربي سيهدين** ﴾(٣) وقال الله تعالى مخبراً عن موسى عليه السلام : ﴿ **فخرج منها خائفاً يترقب** ﴾(٤) .

الخامس : خوف المرض فى البلاد الوخمة(٥) والخروج منها إلى الأرض النزهة(٦) ، وقد أذن النبى ﷺ للرعاة حين استوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المسرح(٧) فيكونوا فيه حتي يصحوا .

وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون ، فمنع الله سبحانه وتعالى الفرار منه بالحديث الصحيح عن نبيه ﷺ ، الذى يقول فيه :

« إن هذا الوجع أو السقم رجز، عذب به بعض الأمم قبلكم ، ثم بقى بعد فى الأرض فيذهب المرة ويأتى الأخرى فمن سمع به في أرض. فلا يقدمن عليه ، ومن وقع بأرض وهو بها فلا يخرجنه الفرار منه » الحديث متفق عليه واللفظ لمسلم .

---

(١) الأنعام : ٦٨ .
(٢) العنكبوت : ٢٦ .
(٣) الصافات : ٩٩ .
(٤) القصص : ٢١ .
(٥) أى التي فيها الوباء .
(٦) أى التى لا وباء فيها .
(٧) أى إلي الفضاء المتشبع بالهواء النقي .

السادس : الفرار خوف الأذية في المال ، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه ، والأهل مثله وأوكد .

وأما قسم الطلب ، فينقسم إلي قسمين :

طلب دين . وطلب دنيا ، فأما طلب الدين فتتعدد أنواعه إلي تسعة أقسام :

الأول : سفر العبرة ، قال الله تعالى :

﴿ **أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾(١) وهو كثير ، ويقال : إن ذا القرنين إنما طاف ليري عجائبها ، وقيل : لينفذ الحق فيها .

الثاني : سفر الحج . والأول ــ وهو سفر العبرة ــ وإن كان ندباً ، فهذا فرض .

الثالث : سفر الجهاد وله أحكامه(٢) .

الرابع : سفر المعاش ، فقد يتعذر علي الرجل معاشه مع الإقامة فيخرج في طلبه لا يزيد عليه ، من صيد أو احتطاب ، أو احتشاش ، فهو فرض عليه .

الخامس : سفر التجارة والكسب الزائد علي القوت وذلك جائز بفضل الله سبحانه وتعالى ، قال الله تعالى : ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم** ﴾(٣) يعني التجارة ، وهي نعمة من الله بها في سفر الحج ، فكيف إذا انفردت .

السادس : في طلب العلم ، وهو مشهور ، ــ ولسوف نقف بعد ذلك على فضله .

السابع : قصد البقاع ، قال ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلي ثلاثة

---

(١) الروم : ٩ ، فاطر : ٤٤ .
(٢) ويستطيع الأخ القاريء أن يقف علي تلك الأحكام في كتب التفسير والحديث .
(٣) البقرة : ١٩٨ .

مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » .

الثامن : قصد الثغور للرباط بها وتكثير سوادها للذب عنها .

التاسع : زيارة الإخوان في الله تعالي .

* * *

والآن وبعد أن وقفنا علي تعريف السفر وأهم أقسامه ، وقبل أن أواصل شرح المقصود من تلك الوصية العظيمة ، أرى أن أذكر الأخ القاريء ببعض الآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة ، والآثار الموضوعية المرغبة في أهم أنواع تلك الأسفار المحمودة التي إن كان من أهلها : صح جسده ، وكثر ماله ، ونما عقله ، وكان محبوباً عند الله ، وعند الناس ، ولا سيما إذا كان متوجاً كل هذا بالإيمان القويم ، والخلق الكريم ، فإليه :

فضل طلب العلم النافع

قال الله تعالى :﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط** ﴾(١) .

فقد بدأ سبحانه وتعالي بنفسه ، وثني بالملائكة ، وثلث بأهل العلم . وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً ، وجلاء ونبلاً .

وقال تعالى : ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾(٢) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام » .

---

(١) آل عمران : ١٨ .

(٢) المجادلة : ١١ .

وقال تعالى : ﴿ **قال الذي عنده علم من الكتاب**[1] **أنا آتيك به ...** ﴾ تنبيهاً على أنه قدر على ذلك بقوة العلم .

وفى فضل العلم ، يقول الرسول ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء » رواه أبو داوود والترمذى وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبى الدرداء .

« من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده » متفق عليه من حديث معاوية دون قوله : ويلهمه رشده . وهذه الزيادة عند الطبراني في الكبير .

« يستغفر للعالم ما في السماوات والأرض » . بعض حديث أبى الدرداء المتقدم الذى رواه أبو داوود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه .

وأى منصب يزيد علي منصب من تشغل ملائكة السماوات والأرض بالاستغفار له ، فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له .

« فضل العالم علي العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى » رواه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال : حسن صحيح .

وفى الآثار :

يقول على كرم الله وجهه ورضى الله عنه لكميل : « يا كميل .. العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق » .

وقال على أيضاً :

« العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه » .

وقال أبو الأسود الدؤلي : ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام علي الملوك :

---

(١) وهو آصف بن برخيا ، وقد كان وزيراً لسليمان عليه السلام ـــ والآية من سورة النمل : ٤٠ .

إن الأكابر يحكمون علي الورى | وعلى الأكابر يحكم العلماء

وقال أيضاً أبو الأسود ، نظماً :

العلم زين وتشريف لصاحبه | فاطلب هديت فنون العلم والأدبا
كم سيد بطل آباؤه نجب | كانوا الرؤوس فأمسى بعدهم ذنبا
ومقرف خامل الآباء ذى أدب | نال المعالي بالآداب ، والرتبا
العلم كنز وذخر لا فناء له | نعم القرين إذا ما صاحب صحبا
قد يجمع المال شخص ثم يحرمه | عما قليل فيلقي الذل والحوبا
وجامع المال مغبوط به أبدا | ولا يحاذر منه الفوت والسلبا
ياجامع العلم نعم الذخر تجمعه | لا تعدلن به درا ولا ذهبا

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خير سليمان بن داوود عليهما السلام بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأعطى المال والملك معه(١) .

وسئل ابن المبارك رضى الله عنه : من الناس ؟ فقال : العلماء ، قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد ، قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين .

وقال بعضهم : إن العلم قبس من نور الله ، وقد خلق الله النور كشافاً مبصراً ولّاداً للحرارة والقوة ، وجعل العلم مثله وضاحاً للخير ، فضاحاً للشر ، يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة .

وقال الإمام الشافعي رضى الله عنه : ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم ، فهو نور يهتدى به الحائر .

وقال الشاعر في هذا المعني :

بالعلم تحيا نفوس قط ما عرفت | من قبل ما الفرق بين الصدق والمين
العلم للنفس نور يستدل به | علي الحقائق مثل النور للعين

وقال أيضاً :

ولولا العلم ما سعدت نفوس | ولا عرف الحلال من الحرام

---

(١) أى مع العلم .

فبالعلم النجاة من المخازي وبالجهل المذلة والرغام(١)
هو الهادى الدليل إلى المعالى ومصباح يضىء به الظلام

ولهذا ، ومن أجل كل هذا ، فقد رغب سبحانه وتعالى في طلب العلم ، فقال :

﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ﴾(٢) .

كما رغب النبى ﷺ أيضاً في طلبه ، فقال : « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

و « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلي الجنة » رواه مسلم عن أبى هريرة .

و « من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما صنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتي الحيتان في الماء ، وفضل العالم علي العابد كفضل القمر علي سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » رواه أبو داوود والترمذى .

وقد رحل جابر بن عبد الله من المدينة إلي مصر مع عشرة من الصحابة ، فساروا شهراً في حديث بلغهم عن عبد الله بن أنيس الأنصاري يحدث به عن رسول الله ﷺ حتى سمعوه .

وكان سعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد .

وكان الشعبي رحمه الله يقول : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ، ما كان سفراً ضائعاً .

---

(١) الرغام بالفتح : التراب ، وأرغم الله أنفه ، أى ألصقه بالتراب .
(٢) التوبة : ١٢٢ .

فاذكر كل هذا أخا الإسلام :

واطلب العلم ولا تكسل فما أبعد الخيرات عن أهل الكسل
لا تقل قد ذهبت أربابه كل من سار علي الدرب وصل
في ازدياد العلم إرغام العدا وجمال العلم إصلاح العمل

وحسبك أنك ستكون بهذا من هؤلاء الموفقين الذين نفروا : ﴿ ... **ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾(١) .

* * *

فضل الحج والجهاد

والحج والجهاد في سبيل الله تعالى : من أفضل الأعمال التي إن تقرب بها العبد إلى الله تعالي ، كان من كبار الموفقين .

فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سئل النبى ﷺ : « أى العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور » متفق عليه .

والحج المبرور : هو الذي لا يرتكب صاحبه فيه معصية .

قال في إحياء علوم الدين :

« ويدخل في جملته ، زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام ، وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء ، والأولياء ، وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته(٢) .

---

(١) التوبة : ١٢٢ .

(٢) هذا علي شريطة أن تكون الزيارة زيارة شرعية : لا يطوف فيها حول القبر ، ولا يسأل صاحب القبر من دون الله ، لأن فعل هذا قد يؤدي إلى الشرك بالله ــ والعياذ بالله ــ مع ملاحظة أنه لا طواف في الشرع إلا حول الكعبة فقط ، ولا تقبيل إلا للحجر الأسود .

ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ، ولا يمنع من هذا ، قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلاّ إلي ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » .

ثم يقول في الإحياء مواصلاً كلامه :

لأن ذلك في المساجد ، فإنها متماثلة بعد هذه المساجد ، وإلاّ فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء في أصل الفضل ، وإن كان يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً ، بحسب اختلاف درجاتهم عند الله .

ثم أيضاً بعد ذلك يقول : وبالجملة زيارة الأحياء أولى من زيارة الأموات ، والفائدة من زيارة الأحياء طلب بركة الدعاء ، وبركة النظر إليهم ، فإن النظر إلي وجوه العلماء والصلحاء عبادة ، وفيه أيضاً حركة للرغبة في الاقتداء بهم ، والتخلق بأخلاقهم وآدابهم ، هذا سوى ما ينتظر من الفوائد العلمية المستفادة من أنفاسهم وأفعالهم ، كيف لا ومجرد زيارة الإخوان في الله فيه فضل عظيم ، وثواب كبير :

فعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته[1] ملكاً ، فلما أتى عليه ، قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لى في هذه القرية . قال : هل لك عليه من نعمة تربها[2] عليه ؟ قال : لا ، غير أنى أحببته في الله تعالى ، قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » رواه مسلم .

وفي التوراة : « سر أربعة أميال زر أخاً في الله » .

---

(١) المدرجة : أى الطريق .
(٢) أى تقوم بها وتسعى لصلاحها .

ثم يقول في الإحياء :

وأما البقاع فلا معنى لزيارتها سوى المساجد الثلاثة ، وسوى الثغور للرباط بها ، فالحديث ظاهر في أنه لا تشد الرحال لطلب بركة البقاع إلا إلي المساجد الثلاثة ..

وقد خرج ابن عمر من المدينة قاصداً بيت المقدس حتي صلى فيه الصلوات الخمس ، ثم كر راجعاً من الغد إلي المدينة ..

ومن أهم بركات الحج وأسراره ، ما أشار إليه الرسول ﷺ ، في تلك الأحاديث الشريفة ، التي منها قول الرسول ﷺ : « تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد ، والذهب ، والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب إلّا الجنة » أخرجه الترمذي في سننه بسنده عن عبد الله بن مسعود .

« من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » أخرجه البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة .

« إن الحاج حين يخرج من بيته لم يخط خطوة إلّا كتب له بها حسنة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا وقفوا بعرفات ، باهي الله بهم ملائكته ، يقول : أنظروا إلي عبادي ، أتوني شعثاً غبراً ، أشهدكم أني غفرت ذنوبهم وإن كانت عدد قطر السماء ، ورمل عالج »(١) .

« وإذا رمي الجمار لم يدر أحد ما له حتي يتوفاه الله تعالي يوم القيامة ، وإذا حلق شعره فله بكل شعرة سقطت من رأسه نور يوم القيامة ، فإذا قضي آخر طوافه بالبيت خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » رواه ابن حبان في صحيحه عن ابن عمر .

فاحرص أخا الأسلام علي السفر إلي مكةالمكرمة لأداء فريضة الحج التي فرضها الله عليك مرة واحدة في العمر .

---

(١) جمعه : « عوالج الرمال » وهو ما تراكم من الرمل ودخل بعضه في بعض .

وحسبك بهذا أنك ستفوز بتلك البركات التي وقفت عليها في الأحاديث الشريفة السابقة ، بل وحسبك أن تعلم أنك هناك ستلتقي بإخوانك المسلمين من كل بقاع الأرض ، والذين تستطيع معهم — في هذا المؤتمر الإسلامي الكبير — بحث جميع المشاكل ، والمصالح الخاصة بهم وببلادهم .

ولو وفق رؤساء المسلمين للاجتماع كل عام هناك ، لبحث كل ما يتعلق بأوطانهم من مؤامرات ، وخلافات : لاستطاعوا — ببركة هذا البيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً(1) — أن يتفقوا على حلول لتلك المشاكل ، وأن يتحدوا جميعاً في مواجهة تلك المؤامرات التي تحاك ضدهم ضد دينهم وأوطانهم ومواطنيهم ..

وأما عن الجهاد في سبيل الله : فهو ذروة سنام الإسلام ، كما جاء في حديث من أحاديث الرسول ﷺ .

وقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يخرجوا في سبيل الله لمواجهة أعدائهم ، فقال : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله** ﴾(2) .

وقال تعالى : ﴿ **لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلاً وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً** ﴾(3) .

وفي السنة ، ورد :

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، وروحة يروحها العبد في سبيل الله تعالى أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » متفق عليه .

---

(1) الآية : ١٢٥ من البقرة بلفظ : ﴿ **وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً** ﴾

(2) التوبة : ٤١ .

(3) النساء : ٩٥ .

وعن سلمان رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات فيه أجري عليه عمله الذي كان يعمل وأجري عليه رزقه وأمن الفتان » رواه مسلم .

وعن عثمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « رباط يوم في سبيل الله خير من ألف فيما سواه من المنازل » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

فاذكر كل هذا ، وكن علي أتم استعداد للخروج في سبيل الله لرفع راية الإسلام في أيِ مكان علي وجه الأرض : حتي إذا ما دعا داعي الجهاد ، كنت من المؤمنين الذين اشتري الله تعالي منهم ﴿ **أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾[1] وكنت كذلك من الذين سيفوزون إن شاء الله تعالي بإحدي الحسنيين : النصر أو الاستشهاد .

وحذار أن تكون كهذا الذي عناه الرسول ﷺ ، في قوله : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات علي شعبة من النفاق » رواه مسلم عن أبي هريرة .

* * *

فضل سفر التجارة والكسب

وحسب الأخ القاريء إذا أراد أن يقف علي فضل السعي علي الرزق ، أن يعلم أن الله تعالي قدم الذين يضربون في الأرض ابتغاء لفضله علي الذين يقاتلون في سبيله ، فقال : ﴿ **وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله** ﴾[2] .

وهذا شرف عظيم للعاملين .

---

(١) التوبة : ١١١ .

(٢) المزمل : ٢٠ .

وقد أمر الله تبارك وتعالي بالسعي علي الرزق فقال : ﴿ **فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور** ﴾[1] .

وفي الحديث الشريف يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« لأن يغدو أحدكم فيحتطب علي ظهره فيتصدق منه ويتسغن به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه » ورد في الصحيحين عن أبي هريرة .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقني ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وكان يقول : « ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إلي من موطن أتسوق فيه لأهلي أبيع وأشتري » .

ولهذا : فقد قال الإمام الشافعي رضي الله تعالي عنه مشيراً إلي أهمية السفر وإيجابياته :

ما في المقام لذي عقل وذي أدب
من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضاً عمن تفارقه
وانصب[2] فإن لذيذ العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده
إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب
الأسد لولا فراق الغاب[3] ما افترست[4]
والسهم لولا فراق القوس لم يصب

---

(١) الملك : ١٥ .
(٢) النصب : أي التعب .
(٣) جمع غابة .
(٤) أى ما اصطادت .

والشمس لو وقفت في الفلك[1] دائمة
لملها الناس من عجم ومن عرب
والتبر[2] كالترب[3] ملقي في أماكنه
والعود في أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عز مطلبه
وإن تغرب ذاك عز كالذهب

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، وكن من الآخذين بأسباب طلب الرزق ، وحسبك ما أشار إليه سبحانه وتعالي ، في قوله : ﴿ **ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة** ﴾[4] .

* * *

تعليق حول ما وقفنا عليه :

وما أريد أن أعلق به ، هو أننا إذا كنا قد وقفنا علي تعريف السفر ، وفضل السفر في طلب العلم النافع ، وفضل السفر إلي مكة لأداء فريضة الحج ، وفضل السفر إلي الثغور للرباط بها ، وفضل سفر التجارة والكسب .

فإنني أريد بعد ذلك أن أقول شيئاً ، وهو أن السفر المباح هذا ، بالإضافة إلي ما فيه من الفوائد الدنيوية والأخروية .

فيه كذلك من الفوائد الصحية الكثير والكثير ، لأن السفر بطبيعته مبني علي الحركة ، والحركة في حد ذاتها من أهم الأسباب التي تعود علي الإنسان بالصحة والعافية .

---

(١) الفلك : بتسكين اللام : جمع فلك وهو مدار النجوم .
(٢) التبر : أي الذهب في ترب . معدنه .
(٣) أي التراب .
(٤) أي : سعة في الرزق ــ والآية من سورة النساء : ١٠٠ .

وذلك لأن الجسم المتحرك ، هو الذي تنشط جميع أعضائه ، ويستطيع صاحبه أن يكون إيجابياً في جميع مراحل حياته .

أما الجسم الخامل ، فإن صاحبه سيظل طوال حياته مريضاً ، ومتخلفاً في جميع دروب الحياة الدنيوية ، التي هي السبيل إلي تحقيق السعادة الأخروية ، إن استطاع الإنسان أن يغتنم كل لحظة فيها ، بما يقدمه من أعمال صالحة تنفعه هناك : ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه** ﴾(١) .

ولله در علي رضي الله عنه ، فلقد قال : « من أمضي يومه في غير حق قضاه ، أو فرض أداه ، أو مجد بناه ، أو حمد حصله ، أو علم اقتبسه : فقد عق يومه وظلم نفسه » .

وقد يكون السبب المباشر في الكسل أو عدم الحركة الإيجابية : هو كثرة الطعام والشراب ، الذي هو أيضاً الأساس غالباً في كثير من الأمراض :

فإن الـــداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وإلي هذا يشير الرسول ﷺ في قوله : « المعدة بيت الداء » ، وقوله : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » . رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان في صحيحه .

ويقول لقمان الحكيم عليه السلام ، لولده : « يا بني إذا امتلأت المعدة ، نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة » .

ولهذا : فقد رأيت — والشيء بالشي يذكر — أن أذكر ببعض الحقائق الطبية(٢) المتعلقة بأهمية الحركة ونتائجها الإيجابية ، حتي ننشط ولا نكسل ، وحتي يتحقق المعني المراد من قول الرسول ﷺ : « سافروا تصحوا » .

فقد ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أخشي ما

---

(١) النبأ : ٤٠ .

(٢) كما في كتاب إرشاد الإنسان إلي صحة الأبدان ، تأليف المتوكل علي الله عابدين خير الله .

خشيت علي أمتي كبر البطن ومداومة النوم والكسل »(١) .

* * *

وأول تلك الحقائق الطبية ، عن :

منشأ الكسل

وخلاصة ما قيل في هذا ، هو أن منشأ الكسل يرجع إلي عدم تربية الأبناء بتحسين أحوالهم وتهذيب أخلاقهم ، وتعويدهم من الصغر على الأشغال والتجلد علي المشاق وتدريبهم علي اكتساب فضائل الرجال وهمة الأبطال ، وتنوير عقولهم وإرشادهم لما فيه صحة أبدانهم وحفظ أمور دينهم ، خصوصاً بترك محبة شهوة البطن بحيث أن الطفل لا يجعلها نهاية بغيته ومركز دائرة رغبته ، لأنها تدل علي الدناءة وقلة العقل والطيش ولا يتمتع صاحبها بالعيش الهنيء وتكون سبباً لضعف الهمة وقلة المروءة .

ولهذا ، فإن الإنسان إذا كان عفيف البطن سيكون متصفاً بالخصال الآتية :

لا يطرأ عليه ضرر في المعدة وفقد الصحة .

يكون بعيداً عن الشره وارتكاب الدناءة .

يكون محبوباً عند الناس لقناعته وعفة نفسه .

يكون مالكاً لنفسه الأمارة بالسوء ، رادعاً لها عن سيرها في سبيل الشهوات .

يكون متمتعاً بنور العقل وقوة الإدراك وصفاء الذهن وحضور الروية .

يكون قوياً علي الحركة وسرعة العمل لخفة جسمه وسلامة بطنه وغير ذلك من الفوائد الصحية والخصال الحميدة .

---

(١) رواه الدارقطني عن جابر رضي الله عنه .

هذا : ولا يخفي أن الكسالي قد يكونون إما نحفاء الأجسام ضعاف الأصوات . أو ضخام الأبدان متراخين تقعدهم كثرة الشحم عن المشي وسرعة الحركة ، وما أحسن قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي عنه : « إياكم والبطنة فإنها ثقل في الحياة ، نتن في الممات » كيف لا وأكثر من يتصف بها تراهم منغصي العيش محتاجين للدواء والطبيب لأن الأمراض والآفات العادية التي يقوي عليها غيرهم من الناس تتغلب عليهم لضعف كليتهم وفساد صحتهم .

ومن الحكمة الجزيلة الفائدة علي ردع النفس الخبيثة عن تجاوزها حد الشهوة البطنية ، قول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : « من كانت همته في بطنه فمقامه ما ينزل منه » .

* * *

وثاني تلك الحقائق الطبية ، عن :

مضـــار الكســـل

وخلاصة الكلام ، حول هذا الباب ، هو أن الكسل والترفه والتعود علي كثرة القعود وترك العمل ، مضر بالجسم ووظائف أعضائه ، ومؤد إلي ضعف الأعصاب واسترخاء العضل ، لأنه موجب لضعف الحركة العضوية وانحطاط القوة الحيوية ، فيكون سبباً لبلادة الذهن وخمود وظائف البدن ، وتأثره من البرد علي أخف أسبابه لضعف دورة الدم المؤدي لضعف حركة الأعضاء وهبوط حرارة الجسم .

وقد تبين أن الأعمال العضوية متوقفة علي قوة الدم وجريانه في أجزاء الجسم ، إذ هو الذي يحمل الأوكسجين من الرئتين إلي جميع أجزاء الجسم ويوصل الغذاء إلي هذه الأجزاء وينقل جميع ما تحلل واستهلك من أنسجتها إلي الأعضاء التي وظيفتها الإفراز ، والكسل موجب لضعف هذه الأمور الثلاثة المهمة التي يتوقف عليها أعمال الأعضاء المختلفة القائمة بضروريات الحياة

وخصائصها المتنوعة وأفعالها المتباينة إذ أنه كما تقدم يضعف الحركة العضوية ، فتضعف الوظائف الحيوية وأهمها الحركة النفسية التي بها يقل مقدار العنصر المقوي الممتص من الهواء الجوي ، ويترتب علي ذلك :

أولاً : برودة الدم وانحطاط قوة حيويته التي يترتب عليها خمول الحركة العضوية لنقص القوة المنبهة لها من الدم وهبوط الحرارة البدنية ، وحصول سوء التغذية العمومية .

ثانياً : عدم تطهر الدم وفساد كراته الحمراء بغاز حمض الكربونيك وغيره ، لأنه نظراً لضعف قوة الحركة النفسية يزداد مقدار هذا الغاز في الدم فيثبت علي كراته الحمراء ، ويضعف قوتها لامتصاص الأوكسجين وبذلك تضعف حيوية الدم .

ثالثاً : حبس فضلات الجسم بسبب خمول الأعضاء وقلة الاحتراق لأن وجود مقدار غير كاف من الأوكسجين في الدم يضعف القوة المنبهة ، وينشأ من ذلك فتور الحركة العضوية وقلة الاحتراق في العضلات البدنية .

رابعاً : ينبني علي ضعف الدم وتراكم غاز حمض الكربونيك علي كراته الحمراء ، حصول ضعف في المجموع العصبي والعضلي ، فتضعف ضربات القلب وجريان الدم ، وتثقل المنبهات الحيوية للدماغ والأعصاب المحركة والحساسة بسبب نقصان خواص الدم كالأوكسجين وعناصر التغذية ، وبذلك تنحط جميع الوظائف الحيوية ويحصل تكدرات في التغذية العمومية ، واسترخاء في جميع الأنسجة العضوية ، وخمول في القوي البدنية العقلية .

* * *

وثالث تلك الحقائق الطبية ، عن :

فوائد الرياضة البدنية

وفوائد الرياضة البدنية للصحة جليلة ونتائجها عظيمة :

ومن المعلوم أن الحياة ــ كما علمنا ــ لا تظهر إلاَّ بالحركة ، لأن كل عضو اشتمل عليه الجسم له فعل وكل فعل حيوي مفتقر إلي الحركة ، ولذا جعلها الله عامة في الأكوان وعلق عليها بقاء الحياة وبها أرزاق الحيوانات ، فقال تعالي : ﴿ **فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾[1] وجعل ارتباط الصحة بها فوائد عامة ومنافع خاصة ، فهي نعمة جليلة ، وحكمة بالغة جميلة .

والحركة في علم الصحة هي الرياضة البدنية التي كما عرفها الأستاذ ابن سينا عبارة عن حركة إرادية يضطر فيها المرء إلي التنفس القوي المتواتر ، ولذا كانت أمراً مهماً في حفظ الصحة ، وبرء المرض ، فإن المداومة بالرياضة الصحية أعظم سبب لزيادة قوة المريض وانتظام حركته لأن البدن يكتسب حالة أصلح لسهولة التنقية وجودة التغذية إذ الحركة البدنية معدة لتقوية التنفس وموازنته ولا يخفي أن التنفس هو الميزان الذي به تنتظم أعمال أعضاء الجسم وأجهزته ، ويحفظ تركيب الدم ويجدد قوته .

فمما هومقرر في علم الصحة ، وثابت بالتجربة والبراهين القوية ، أن الرياضة البدنية موجبة لانتظام سير الدورة الدموية وتقويتها ، وبذلك تتخلص الأعضاء الباطنية ومراكز الأعصاب من كثرة الدم والاحتقانات المختلفة التي ربما أبطأت بالأعضاء عن قيامها بأعمالها أو أوقفتها عن تأدية وظائفها .

ومن أعظم الفوائد الناشئة عن استعمال الرياضة البدنية تحليل فضلات الجسم النجسة وإذابتها وإخراجها من منافذها ومجاريها ، إذ بقاؤها فيه وتغلبها علي النافع موجب لاضطرابه وحرمانه من صحته ووقوعه في الضعف والكسل المؤديين إلي الخمول وعدم الحركة المفضي إلي عدم القدرة عليها في المستقبل ، فتستولي عليه الأمراض الجسمية والعقلية التي تكدر صفو معيشته ، وتحول بينه وبين التمتع بفوائد الحياة .

فالرياضة البدنية تكسب البدن صحة ونشاطاً ، والعقل قوة وذكاء ، والروح خفة وصفاء ، والنفس نزهة وانشراحاً : لأنها تعين الأعضاء علي أفعالها

---

(١) الملك : ١٥

فلا تخور قواها . وبذلك تنال دوام الصحة ، وكذا تجعل فيه قدرة علي تحمل التأثيرات الجوية ، وتكسب النفس سلطاناً علي الجسم فتجعل فيه ميلاً إلي العمل وترك الكسل ، وارتياحاً إلي الأعمال الشاقة .

* * *

ولكون استعمال الرياضة البدنية نافعاً لتقوية الجسم ولمعالجة بعض الأمراض ، اضطررت لتوضيح تأثيرها في الجسم ، فأقول تحت عنوان :

تأثير الرياضة في النفس

الرياضة البدنية تزيد حركة التنفس زيادة عظيمة حتي أنه بالجري عند التعود عليه تصل إلي سرعة عظيمة بدون تكلف ولا حصول تلهف ، وينتج عن هذه الحركات التنفسية جملة فوائد عظيمة ونتائج مقوية خصوصاً للصدر :

منها تجديد الهواء بسرعة في الرئتين ، وبذلك يكون الهواء الداخل فيهما أكثر من الهواء الذي يستنشقه الواقف الساكن .

ومنها زيادة توارد الدم الوريدي إلي الرئتين ، وهذا يقتضي زيادة توارده إلي البطين الأيمن ، ومن ثم تزداد حركات القلب ، ويسرع جريان الدم في عروق الجسم ، وبناء علي ذلك يحصل نشاط في ضربات القلب وتصير أقوي وأسرع .

ولمقاومة هذه السرعة القلبية سببان ، أحدهما : القوة العضلية القلبية . والثاني : زيادة السعة الرئوية وهما مكتسبان من ممارسة الرياضة البدنية .

ومن أهم أنواع الرياضة البدنيه :

أن يسافر الإنسان ، طلباً للعيش ، أو طلباً للعلم ، أو لأداء فريضة الحج ، أو لزيارة أخ في الله .. — كما عرفنا قبل هذا — :

إنه عندما سيتحرك من موطنه من أجل هذا الهدف الأسمي ، سيكون قد

أخذ بالأسباب المؤدية إلي قوته المادية ، والعقلية ، والروحية ، والبدنية . لأنه سيكون قد تحرك تحركاً مادياً ، وعقلياً وروحياً ، وبدنياً .

وسيكون بذلك ، قد استطاع أن يثبت وجوده في تلك الحياة الأولي بصورة عملية ، وبصورة إيجابية ، أهم ما يميزها ، أنه قد عرف قيمته في تلك الحياة كإنسان عاقل يمشي علي الأرض ، ويدرك تماما أهمية وجوده في تلك الحياة التي هي دار العمل ، والتي هي مزرعة الآخرة التي هي دار الحساب الذي بعده سيتحدد مصير الإنسان ، إذا كان من أهل الجنة أم من أهل النار .

ولهذا ، فإنني أريد أن أقول شيئاً :

وهو أننا إذا كنا إن شاء الله تعالي من هؤلاء العقلاء الذين يعرفون تماماً وباقتناع أهمية وجودهم في تلك الحياة :

فإنه لا بد لكي يؤكد كل منا هذا أن يكون صاحب منهج قويم يسير علي هداه ، بمعني أن يخطط لنفسه نظاماً سليماً[1] ، يستطيع من خلاله أن يري إذا كان موفقاً في حياته أم لا .

وذلك لن يكون إلا عن طريق السفر المباح الذي سيكتشف من خلاله ــ إذا كان مخلصاً في نيته ــ إذا كان من الرجال الذين عمروا الأرض وزرعوها ، أم من الذين خربوها وأفسدوا فيها .

ولذلك ، فقد قيل : وإنما سمي السفر سفراً لأنه يسفر عن الأخلاق .

فإن النفس في الوطن مع مواتاة الأسباب لا تظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة ، فإذا حملت وعثاء السفر ، وصرفت عن مألوفاتها المعتادة ، وامتحنت بمشاق الغربة ، انكشفت غوائلها ، ووقع الوقوف علي عيوبها فيمكن الاشتغال بعلاجها .

وكان بشر يقول : يا معشر القراء سيحوا تطيبوا فإن الماء إذا ساح طاب ، وإذا طال مقامه في موضع تغير .

---

(١) على أساس من الكتاب والسنة وإجماع الأمة .

وهذا هو المعني الذي وقفنا عليه سابقاً ، والذي يقول فيه الشافعي رضي الله عنه :

إني رأيت وقوف الماء يفسده
إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب

فليذكر الأخ القاريء كل هذا .

وليفهم من خلال ما وقف عليه ، معني قول الرسول ﷺ : « سافروا تصحوا .. » .

وإذا كان لنا بعد ذلك أن نقف علي معني قول الرسول ﷺ : « واغزوا تستغنوا » .

فإن الغزو هو الجهاد في سبيل الله تعالي .

والجهاد في سبيل الله تعالي — كما عرفنا قبل ذلك — هو ذروة سنام الإسلام ، كما جاء في نص حديث شريف رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

والجهاد في سبيل الله تعالي ، هو التجارة التي ستنجينا من العذاب الأليم .. كما يشير قول الله تبارك وتعالي :

﴿ ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم علي تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخري تحبونها، نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين ﴾[1] .

والجهاد في سبيل الله تعالي خير من الدنيا وما عليها :

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « رباط يوم

---

(١) الصف : ١٠ — ١٣ .

في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، وروحة يروحها العبد في سبيل الله تعالي أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » متفق عليه .

والجهاد ، أربع مراتب :

جهاد النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار ، وجهاد المنافقين :

فجهاد النفس أربع :
أن يجاهدها علي تعلم الهدي ودين الحق الذي لا سعادة لها في معاشها ومعادها إلّا به.

وأن يجاهدها علي العمل به بعد علمه .

وأن يجاهدها علي الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه ، وإلاَّ كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدي ولا ينفعه علمه ، ولا ينجيه من عذاب الله .

وأن يجاهدها علي الصبر علي مشاق الدعوة إلي الله وأذي الخلق . فمن يستكمل هذه المراتب الأربع يكن من الربانيين .

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان :

جهاده علي دفع ما يلقي من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان . وجهاده على دفع ما يلقى من الإرادات والشهوات .

قال تعالى : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾[1] .

فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين ، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات ، واليقين يدفع الشكوك والشبهات .

---

(١) السجدة : ٢٤ .

وأما جهاد الكفار والمنافقين ، فأربع مراتب : بالقلب ، واللسان ، والمال ، والنفس .

ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات علي شعبة من النفاق . كما جاء في نص حديث شريف .

ولا يتم الجهاد إلّا بالهجرة ، ولا الهجرة والجهاد إلّا بالإيمان .

والراجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة ، قال تعالي :

﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم ﴾(١) .

فعلى كل واحد هجرتان في كل وقت :

هجرة إلي الله عز وجل بالتوحيد والإخلاص والإنابة والتوكل والخوف والرجاء والمحبة والتوبة .

وهجرة إلي رسوله بالمتابعة والانقياد لأمره وتقديم خبره علي خبر غيره : « .. فمن كانت هجرته إلي الله ورسوله فهجرته إلي الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلي دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلي ما هاجر إليه »(٢) .

وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله ، وجهاد شيطانه ، وكل هذا فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد .

* * *

وأما جهاد الكفار والمنافقين ، فقد يكتفي به ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصوده، وأكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد كلها ، والخلق

---

(١) البقرة : ٢١٨ .

(٢) جزء من حديث صحيح رواه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوله : « إنما الأعمال بالنيات ... » .

متفاوتون في منازلهم عند ربهم تفاوتهم في مراتب الجهاد .

والذي يعنينا من كل تلك الأنواع ، هو جهاد الكفار والمنافقين :

فبمجاهدة الكفار والمنافقين يتحقق الخير الكثير ، الذي من أهمه الاستغناء بالغنائم ، كما حدث مثلاً في :

غزوة الخنـــدق

التى كانت في شوال سنة خمس ، والتي كان من أهم أسبابها : أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين علي المؤمنين يوم أحد وعلموا بميعاد أبي سفيان ورجوعه للعام المقبل خرج أشرافهم إلي قريش بمكة يحرضونهم علي غزو رسول الله ﷺ ويوالونهم عليه ، فأجابتهم قريش ثم خرجوا إلي غطفان وطافوا في قبائل العرب يدعونهم إلي ذلك ، فاستجاب لهم من استجاب ، فخرجت قريش في أربعة آلاف يقودهم أبو سفيان ، ووافاهم بنو سليم ، وأسد ، وفزارة ، وأشجع ، وجاءت غطفان بقيادة عيينة بن حصن ووافي الخندق من الكفار عشرة آلاف ..

فكانت النتيجة لتلك الغزوة أن أرسل الله علي المشركين جنداً من الريح والملائكة وكفي نبيه القتال وهزم الأحزاب وحده .

فدخل الرسول ﷺ المدينة ووضع السلاح، فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : إن الملائكة لم تضع بعد أسلحتها ، أنهض إلي غزو بني قريظة ، فنادى رسول الله ﷺ : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة » ، فخرج المسلمون سراعسا فقتلوا منهم من قتلوا ، وأسروا منهم من أسروا وأورثهم الله أرضهم وأموالهم ، وهاتان الغزوتان في سورة الأحزاب ، حيث يقول الله تعالي :

﴿ ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر

وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾(١) .

إلى قوله تعالي :

﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفي الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم(٢) **وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها ، وكان الله علي كل شيء قديراً ﴾**(٣) .

* * *

وكما حدث في :

غزوة خيبر

التي خلاصتها ، أن الرسول ﷺ لما قدم المدينة من الحديبية ، مكث بها عشرين ليلة ثم خرج غازياً إلى خيبر ، وكان الله تعالى قد وعده إياها في الحديبية ، بقوله : **﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ﴾**(٤) .

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلي قصرهم ، فغلب علي الزرع والنخل والأرض فصالحوه علي أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم إلّا السلاح ، ولما أراد أن يجليهم ، قالوا : يا محمد .. دعنا في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها فنحن أعلم بها منكم .

---

(١) الأحزاب : ٩ ــ ١١ .
(٢) الصياصى : هى الحصون الحربية .
(٣) الأحزاب : ٢٥ ــ ٢٧ .
(٤) الفتح : ٢٠ .

ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها ، فأعطاهم خيبر علي أن لهم الشطر من كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم ، وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم(١) .

وقد قسم الرسول ﷺ نصف خيبر علي أهل الخمس والغانمين ، وأبقي النصف لما ينزل به من أمور المسلمين .

والإمام مخير في الأرض المفتوحة عنوة ــ أى : قهراً ــ بين قسمها ووقفها ، وقسم بعضها ووقف البعض .

وقد فعل رسول الله ﷺ الأنواع الثلاثة ، فقسم قريظة والنضير ، ولم يقسم مكة ــ لأنها دار نسك لا تملك ، فهي حرم الرب الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ــ وقسم شطر خيبر وترك شطرها .

وفي الصحيحين وغيرهما أن رسول الله ﷺ أسهم للفارس ثلاثة أسهم : سهم له ، وسهمان لفرسه ، وللراجل ــ أى الماشي ــ سهماً .

وفي هذه الغزوة سبيت صفية بنت حيى بن أخطب فأسلمت واصطفاها النبى ﷺ لنفسه وأعتقها وجعل عتقها صداقها ..

ثم انصرف رسول الله ﷺ من خيبر إلي وادي القرى ، وكان بها جماعة من اليهود ، ففتحها عنوة ، وعاملهم على الأرض والنخيل وكذلك فدك ــ وهى أرض بخيبر فوق يثرب ــ .

قد يكون هذا هو المعني المراد من قول الرسول ﷺ : « واغزوا تستغنوا » : أى بتلك الغنائم التي تعود عليكم من الغزو .

* * *

---

(١) الخرص : حزر ما علي النخل من الرطب تمراً ..

ولكنني أميل إلى رأى آخر ، وهو أن المراد من قول الرسول ﷺ هذا ، والله أعلم :

غزو جميع ميادين العمل الشريفة ، التي لا شك أن العامل فيها — بإخلاص وأمانة — سيربح منها ومن ورائها الخير الكثير .

وإذا كنت أستنتج هذا فلأنني أريد من خلال هذا الاستنتاج أن أذكر بأهمية تلك الأعمال الشريفة ، التي منها أو من أهمها :

التجـــارة

فالتجارة من الأمور الضرورية للهيئة الاجتماعية ، وعليها تتوقف حياة كل أمة ، وهي السبب في تعليم الشعوب حب الاستقلال بالأفكار والأعمال ، وحب الاعتماد علي النفس وما امتازت دولة علي أخري إلّا وكان للتجارة الفضل الأكبر في سعادتها .

وهي ركن من أركان الحضارة ، وأصل من أصول التقدم وطريق إلي الغني والثراء ، وكل خير وهناء ، بها ترقي الصناعة ، وتتقدم الزراعة ، ويظهر أهل الجد والنشط والسعى والاجتهاد : يصنع الصانع فيجد من ينتفع بمصنوعاته شرقاً وغرباً ، ويزرع الزارع فيري من يستفيد من مزروعاته في بلاده وفي غير بلاده ، فيزداد الصانع نشاطاً وقوة ، والزارع جداً وسعياً ، فيعم الخير والهناء جميع الناس .

وليست كل أرض تقوم بحاجات أهلها ، وقلما تتوافر فيها موارد الحياة ، فمن الواجب أن يتبادل الناس فيأخذ كل ما يفتقر إليه من الآخر حتي يعيشوا فرحين مسرورين .

* * *

وقد قرأت الآتى تحت عنوان :

شـــروط التجارة

أهم ما يلزم للتاجر معرفة الشروط الآتية :

أن يكون عنده رأس المال الكافي لتجارته لا أن يستدينه بالأرباح ، أو الربا والعياذ بالله ..

وهذا لا شك سيكون سبباً في خسارة تلك التجارة وعدم نجاحها .

أن يكـــون مقتصـــــداً بحيث لا يمس رأس المال ، بل يجب أن يضيـــــف إليه قسماً من الربح لأن آفة التجارة دودة الإسراف ، وسماد أرضها الاقتصاد والتوفير .

أن يكون عالماً جيداً بأصول التجارة وخبيراً بأحوال السوق ، فعليه أن يعلم معدل الربح في كل صنف ، ويتحقق السعر الذي يباع به عادة ليعلم السعر الذي يجب أن يشتري به . وأن يكون ماهراً في شراء الأصناف أكثر من بيعها بحيث يشتريها بأرخص مما تباع ليكون ربحه مؤكداً ..

إلي آخر تلك الشروط التي من أهمها، أن يكون قانياً ، وقد قرأت أن لفظ « تاجز » يشتمل علي أربعة حروف وهي : التاء ، والألف ، والجيم ، والراء .

فالتاء : لا بـد أن يكون تقيـاً ، والألف : لا بـد أن يكون أميناً . والجيم : لا بد أن يكون جريئاً . والراء : لا بد أن يكون رحيماً .

ولقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، مثالاً للنشاط الإسلامي ، فلم يقعده مكانه من رسول الله عن أن يضرب في الأرض ، وينمي تجارته ، لأن في ذلك تنمية لموارد المجتمع الذي يعيش فيه ، وقد بلغ ماله أربعين ألف دينار ، فكان يعتق من ذلك المال المستضعفين ، وكان يعول منه فقراء المسلمين ، ولقد حفزه النشاط الإسلامي ، لأن يخرج في تجارة إلي « بصري »[1] وهو الحريص

---

(١) بصرى : بضم الباء : موضع بالشام تنسب إليها السيوف .
قال الشاعر : ‌ ‌ ‌ ‌ ٭ صحائف بصرى أخلصتها قيونها .

علي صحبة رسول الله ﷺ والدائم المرافقة له .

أخرج ابن عساكر عن أم سلمة ، قالت : لقد خرج أبوبكر علي عهد رسول الله ﷺ تاجراً إلي « بصري » .

حتي بعد أن ولى أمر المسلمين ، وصار خليفتهم . اندفع إلي السوق — كعادته — للمتاجرة والعمل ، فصده المسلمون عن ذلك ورأوا أن مثله في مكانته حرى بأن يفرغ نفسه لشئون أمته .

قال ابن سعد : لما استخلف « أبوبكر » أصبح غادياً إلي السوق على رأسه أثواب يتجر بها ، فلقيه عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح — فقالا : « كيف تصنع هذا ؟ وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالي ؟ قالا : نفرض لك ، ففرضوا له كل يوم شطر شاة » .

ويوم أن هاجر المسلمون تاركين ثراءهم وديارهم إلي المدينة إجابة لداعى الحق ، وتعزيزاً لكلمة الله : آخى الرسول ﷺ ، بين المهاجرين والأنصار .

فلما آخى بين « عبد الرحمن بن عوف » وبين « سعد بن الربيع » قال سعد لعبد الرحمن بن عوف : إن مالي شطران : لى شطر ولك شطر ، وإن لي زوجتين أطلق إحداهما لتتزوج منها .

فقال له عبد الرحمن : لا حاجة بي إلي مالك ، ولا إلي أهلك ، بارك الله لك فيهما ، ولكن دلني علي السوق .

وتاجر عبد الرحمن ، فأثرى في الإسلام ثراء ضخماً ، حتي لقد قدم له مرة سبعمائة بعير تحمل البر[١] ، والدقيق ، والطعام ، فلما دخلت المدينة سمع لأهلها رجة ، فتصدق بها ، وبما تحمل في سبيل الله .

وهكذا أخا الإسلام تستطيع بالتجارة الشريفة أن تؤدى دوراً إيجابياً في بناء المجتمع الإسلامي ، كما تستطيع كذلك الاستغناء بذلك عن الناس « واليد العليا خير من اليد السفلي » .

---

(١) أى القمح .

وقد قرأت في أثر من الآثار ، النص الآتي : « أحب الناس إلي الناس من استغني عن الناس ، وأبغض الناس إليهم من احتاج إليهم » .

كما قرأت أيضاً النص الآتي : « استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلي من شئت تكن أسيره ، وأحسن إلي من شئت تكن أميره » .

* * *

ومن أهم الأعمال الشريفة ، كذلك :

الصناعة

فالصناعة من مقتضيات الحضارة والتمدن ، وكلما ارتقي الناس في الحضارة والمدنية تزداد حاجتهم إلي المصنوعات . لذلك تعتبر الصناعة في البلاد المتمدينة من أهم أبواب الرزق ، والسواد الأعظم من الناس يعولون في المعيشة عليها والذي لا يجد باباً يسترزق منه يجنح إلي الصناعة لأنها ملجأ لكل طالب .

وقد قرأت النص الآتي ، تحت عنوان :

اشتغال الأنبياء والعلماء بالصناعة

ما من نبي ولا عالم من المتقدمين إلّا وكان له صنعة يقتات منها قصداً للتشريع إن كانت من نبي ، وطلباً للرزق إن كانت من غيره :

فقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن صنائع الأنبياء ، قال :

« كان آدم حراثاً ، وإدريس خياطاً مع كونه ملكاً عظيماً وحكيماً فريداً ــ وهو أول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وكان لا يغفل عن ذكر الله تعالى أثناء خياطته ــ ، وكان نوح عليه السلام نجاراً ــ وهو أول من صنع الفلك ــ وكذلك كان هود تاجراً ، وكذلك صالح ، وكان إبراهيم زراعاً ، وكان إسماعيل قناصاً[1] ، وكان إسحاق راعياً ، وكذلك يعقوب وشعيب

---

(١) قناصاً : أي صياداً .

وموسي ، وكان يوسف مشتغلاً بصناعة الساعات ويقال أنه صنع ساعة من خشب حينما كان في السجن ، وكان هارون وزيراً ، وكان إلياس نساجاً ، وكان داوود زراداً ـــ أى يعمل زرد ودروع الحديد ـــ ، وكان عيسي سياحاً ، وكان سيدنا محمد « صلي الله عليه وعليهم أجمعين » تاجراً ومجاهداً في سبيل الله ، ولذلك قال : « جعل رزقي تحت ظل رمحي » ، وكان عليه الصلاة والسلام يحب البكور ـــ أى السعي في أول النهار ـــ في طلب الرزق من حوائج الدنيا ، ويقول : اللهم بارك لأمتي في بكورها .

وكان النبي ﷺ يشجع العامل .

ولنستمع إلي علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو يحكي لنا ما يشير إلي هذا ، فيقول : « جعت يوماً فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدراً ـــ أي تراباً متلبداً ـــ تريد بله بالماء ، فبادلتها كل ذنوب ـــ دلو عظيمة من الماء ـــ على تمرة ، فملأت ستة عشر ذنوباً حتي مجلت يدي ـــ أى ظهر فيهما الإحمرار ـــ ثم جئت المرأة فبسطت كفي لتري أثر العمل ، فعدت لي ست عشرة تمرة ، فأتيت رسول الله ﷺ ، فأخبرته فأكل معي منها » .

وقد قرأت أن حكيماً كان يهذب بعض الصبيان فيقول لهم :

يا أكباد آبائكم تعلموا حرفة ولا تعتمدوا علي ما لديكم من ثروة أو متاع ، لأن من اعتمد عليها وقصر في تعليم نفسه هلك . واعلموا أن الذهب واللجين(١) منبع المتاعب ، ومصدر المصائب ، فإن لم يسلبها سالب أسرف فيها صاحبها وبذرها . أما الحرفة فكالبئر البكر لا ينضب ماؤها ، أو الأرض الخصبة لا يهلك زرعها ، ولو أن صاحب فن فقد ماله فلا يحزنه ذلك ، لأن في فنه ماله وعناه .

ولا يعزب عن أذهانكم أن الاكرام والتبجيل لا يكونان إلا لذي صنعة ،

---

(١) أى الفضة .

أما من لا صنعة له ، فتصيبه المذلة والهوان والفقر ، وقد جاء في الحكم : صنعة في اليد أمان من الفقر .

* * *

وأما عن :

الزراعــة

فهي الينبوع الأول للثروة ــ وعلى الأخص في مصر ــ فالبلاد الزراعية يكون أهلها في الغالب موسرين ، لأنهم لا يحتاجون إلى الواردات الأجنبية .

والزراعة هي الوسيلة العظمى والسبب القوي في بقاء الإنسان والحيوان وعيشتهما في هذه الحياة ، إذ منها يكون الغذاء والسكن واللباس والأثاث والمتاع وكل خير وهناء .

ومنها الأقوات والأدوية والروائح الذكية والعيدان العطرية والفواكه والملابس والوقود والخشب الذي نصنع منه السفن ونسقف به المساكن ونعمل منه الأبواب والنوافذ وغيرها ..

ومن أجمل ما قرأت ، تحت عنوان :

الكنز المدفون

ما خلاصته : أنه كان لرجل ثلاثة أولاد ، ولما قربت وفاته جمعهم ، وقال لهم : يا أولادي .. اليوم قد قرب الرحيل ، والبقاء في هذه الدنيا مستحيل ، فافهموا ما أقوله لكم ، واحفظوه كسواد أعينكم :

إني تارك لكم في أرضي كنزاً ترجعون إليه ، وتعتمدون في الشدائد عليه ، فعليكم باستخراجه منها ، ثم ودعهم وودع الدنيا معهم .

وبعد دفنه وإقامة مراسم المأتم ، لازموا الأرض صباحاً ومساءً وأخذوا يكثرون فيها من البحث والتنقيب — عن هذا الكنز — حتي جعلوا عاليها سافلها ، وبعد أن تعبوا الليالي والأيام لم يعثروا علي شيء فجلسوا باكين ساخطين ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت .

ثم اتفقوا علي أن يزرعوا الأرض ، فشرعوا في الزرع والسقي بجد ونشاط ، فكانت النتيجة لهذا الجد والنشاط أن جاءت الأرض بحاصلات كثيرة وخيرات عميمة ، فاستقامت أمورهم وانتظمت أحوالهم ، وفتح الله لهم أبواب الكسب وصاروا في حالة حسنة وثروة مستحسنة وعلموا أن والدهم لم يرد بالكنز المال المدفون ، ولا نفيس الجوهر المكنون ، بل أراد بالكنز الشغل والعمل بالزراعة التي هي منبع الثروة في البلاد ، وعليها تتوقف حياة العباد .

والفلاح الذي يبذل عافيته لتحصيل ما يفوق كفايته من الثمرات لتغذية أبناء نوعه وغيرهم من الحيوانات : أولي من غيره بالإكرام وأحق بالاحترام .

وقد ورد أن النبي ﷺ قال : « التمسوا الرزق من خبايا الأرض » رواه ابن عساكر عن عائشة مرفوعاً .

« ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو غيره من الناس إلا كان له به صدقة » حديث شريف رواه الترمذي عن أنس مرفوعاً .

* * *

فليذكر الأخ القاريء كل هذا ، وليعمل علي أن يكون مستغنياً عن غيره من الناس : بغزوه لتلك الأعمال الشريفة وحسبه أنه بهذا الغزو سيكون غنياً بالمال الذي سيصون به عرضه ، ويؤدي فرضه ، ويستغني عن القرض :

فقد سئل أحد الحكماء : لم تجمع المال وأنت حكيم ؟ فقال : لأصون به

العرض ، وأؤدي به الفرض ، وأستغني به عن القرض ، وفقد المال يصحبه قلة الاكتراث من الناس ، وتتبعه قلة الرغبة فيه والرهبة منه .

ومن لم يَكن موضع رغبة أو رهبة استخف به الناس . وفي هذا يقول الشاعر :

إن الغني إذا تكلم بالخطا قالوا صدقت وما نطقت محالا
أما الفقير إذا تكلم صادقاًقالوا كذبت وأبطلـــــوا ما قالا

إن الدراهم في المواطن كلها تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السلاح لمن أراد قتالا

وقال الشيرازي : لا تستهزيء بالمال وتنميته ، فإن المال آلة للمكارم ، وعون علي الدهر ، وقوة علي الدين ، ومألفة للإخوان ، ومعين علي حوادث الزمان ، وبهجة الدنيا وزينتها .

* * *

ولعلك الآن أخا الإسلام ــ وبعد هذا العرض السريع لأبعاد تلك الوصية ــ : فقد اقتنعت بضرورة تنفيذها ، وبضرورة العمل علي أن تكون من الحريصين علي الاستفادة بالسفر المباح الذي وقفت علي أهم أنواعه .

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً للعمل بتوجيهات الحبيب المصطفي صلوات الله وسلامه عليه ، الذي لا : ﴿ .. **ينطق عن الهوي . إن هو إلاَّ وحى يوحى . علمه شديد القوى** ﴾[1] والذي أمرنا الله تبارك وتعالي باتباعه ، فقال : ﴿ ... **واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾[2] وقال : ﴿ ... **وإن تطيعوه تهتدوا** .. ﴾[3] .

* * *

---

(١) النجم من الآية : ٣ التي أولها: ﴿ **وما ينطق** .. ﴾ إلي الآية : ٥ .
(٢) الأعراف : ١٥٨ .
(٣) النور : ٥٤ .

الوصية السادسة والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال :

ٱلسَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ ٱلعَذَابِ يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ ، فَإِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ سَفَرِهِ فَلْيُعَجِّلِ الرُّجُوعَ إِلَى أَهْلِهِ .

أخرجه مالك وأحمد والشيخان

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لما جاء في تلك الوصية المحمدية ، من توجيهات ضرورية ، خلاصتها كما قرأت أنك مطالب بالتعجيل بالرجوع من سفرك إلي أهلك بعد أن تقضي نهمتك ، أي حاجتك .

وقبل أن نناقش أبعاد تلك التوجيهات : فإنني أرى أولاً ــ كمدخل لهذا الموضوع ــ : أن نقف علي المعني المراد من قول الرسول ﷺ :

« السفر قطعة من العذاب » :

وحسب الإنسان إذا أراد أن يقف علي ضخامة هذا المعني ، أن يقرأ ما ورد عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وهو :

لولا أن الرسول ﷺ ، قال : « السفر قطعة من العذاب » ، لقلت : أن العذاب قطعة من السفر .

وذلك ــ كما تعلم ــ : لأن السفر فيه من المشقة ما فيه ، وقد تكون تلك المشقة جسمانية ، أو مالية ، أو عقلية ، أو تفكيرية .

وحسبها ــ أى المشقة ــ أنها ستمنع المسافر : طعامه ، وشرابه ، ونومه :

أى أن المسافر الذي ترك أهله ، وماله ، ووطنه من أجل هدف يملك عليه كل مشاعره ، وحواسه : لن يكون متذوقاً بسبب هذا ، لحلاوة أكل ، أو شرب أو نوم ..

وهذا هو المعنى المراد ــ والله أعلم ــ من قول الرسول ﷺ : « ... يمنع أحدكم طعامه ، وشرابه ، ونومه .. » :

ولهذا : فقد قال النبى ﷺ في دعاء له ، بعد أن ودع رجلاً مسافراً :

« اللهم ازو له الأرض[1] ، وهون عليه السفر » . من حديث أخرجه أحمد والنسائي والترمذي وحسنه عن أبي هريرة .

بل ولهذا ، ومن أجل كل هذا : فقد تفضل الله تعالي علي المسافر[2] :

في الطهارة برخصتين : مسح الخفين ، والتيمم .

وفي صلاة الفرض برخصتين : القصر والجمع .

وفي النفل برخصتين : أداؤه علي الراحلة ، وأداؤه ماشيسا .

وفي الصوم برخصة واحدة : وهي الفطر .

وقبل أن ندور حول تلك الرخص التي يحب الله تعالي أن تؤتي ، كما يحب أن تؤتي عزائمه ، كما جاء في نص حديث شريف :

عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ ، قال : « إن الله يحب أن تؤتي رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه » . أخرجه أحمد والبيهقي وابن خزيمة وابن حبان وصححاه .

* * *

فإنني أري أن نقف أولاً ، علي :

فضل السفر وآدابه

أما عن فضله بالإضافة إلي فوائده الدنيوية والأخروية العظيمة والكثيرة التي وقفنا علي أهمها ، فقد ورد فيه :

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ ، قال : « ما من خارج يخرج من بيته إلّا ببابه رايتان ، راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان ، فإن خرج لما يحب الله عز

---

(١) أى اجمعهما واطوها له وقرب له البعيد .

(٢) كما يقول في إحياء علوم الدين .

وجل(١) اتبعه الملك برايته ، فلم يزل تحت راية الملك(٢) حتي يرجع إلي بيته . وإن خرج لما يسخط الله(٣) اتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان(٤) حتي يرجع إلي بيته » .

أخرجه أحمد والبيهقي والطبراني في الأوسط بسند جيد .

وأما عن آداب السفر ، فقد ذكر النووى في كتاب الأذكار آداباً تطلب من المسافر قبل سفره ، فقال : إذا استقر عزمه علي السفر فليجتهد في تحصيل أمور ، منها :

أن يوصى بما يحتاج إلي الوصية به ، وليشهد على وصيته ، ويستحل كل من بينه وبينه معاملة في شيء أو مصاحبة ، ويسترضى والديه وشيوخه ومن يندب إلى بره واستعطافه ، ويتوب إلى الله ويستغفره من جميع الذنوب والمخالفات ، وليطلب من الله تعالى المعونة على سفره وليجتهد في تعلم ما يحتاج إليه في سفره .

فإن كان غازياً : تعلم ما يحتاج إليه الغازى من أمور القتال ، وغير ذلك من الدعوات وأمور الغنائم ، وتعظيم تحريم الهزيمة في القتال وما إلى ذلك ..

وإن كان حاجاً أو معتمراً :

تعلم مناسك الحج أو استصحب معه كتاباً بذلك ، ولو تعلمها واستصحب كتاباً كان أفضل .

وإن كان تاجراً : تعلم ما يحتاج إليه من أمور البيوع وما يصح منها وما يبطل ، وما يحل ويحرم ، ويستحب ويكره ، ويباح ، وما يرجح علي غيره . وإن كان متعبداً سائحاً معتزلاً للناس .

---

(١) كحج وجهاد وتجارة جائزة وعيادة مريض ، وصلة رحم .
(٢) كناية عن رعاية الله له وحفظه من الشيطان .
(٣) كسرقة وقتل بلا حق وزنا وقطع طريق وتجارة فيما يحرم بيعه .
(٤) كناية عن تسلط الشيطان عليه وارتكابه ما يغضب الله تعالي .

تعلم ما يحتاج إليه في أمور دينه . فهذا أهم ما ينبغي له أن يطلبه .

وإن كان ممن يصيد : تعلم ما يحتاج إليه الصيد وما يحل من الحيوان وما يحرم ، وما يحل به الصيد وما يحرم ، وما يشترط ذكاته ، وما يكفي فيه قتل الكلب أو السهم وغير ذلك .

وإن كان راعياً : تعلم ما يحتاج إليه مما قدمناه في حق غيره ممن يعتزل الناس ، وتعلم ما يحتاج إليه من الرفق بالدواب وطلب النصيحة لها ولأهلها والاعتناء بحفظها والتيقظ لذلك واستأذن أهلها في ذبح ما يحتاج إلي ذبحه في بعض الأوقات لعارض وغير ذلك .

وإن كان رسولاً من سلطان إلي سلطان أو نحوه : اهتم بتعلم ما يحتاج إليه من آداب مخاطبات الكبار وجوابات ما يعرض في المحاورات ، وما يحل له من الضيافات والهدايا وما لا يحل ، وما يجب عليه من مراعاة النصيحة وإظهار ما يبطنه ، وعدم الغش والخداع والنفاق ، والحذر من التسبب إلي مقدمات الغدر أو غيره مما يحرم وغير ذلك .

وإن كان وكيلاً أو عاملاً في قراض أو نحوه : تعلم ما يحتاج إليه مما يجوز أن يشتريه وما لا يجوز ، وما يجوز أن يبيع به وما لا يجوز ، وما يجوز التصرف فيه وما لا يجوز ، وما يشترط الاشهاد فيه وما لا يشترط ، وما يجوز له من الأسفار وما لا يجوز .

وعلي جميع المذكورين أن يتعلم من أراد منهم ركوب البحر الحال التي يجوز فيها ركوب البحر والحال التي لا يجوز . أ . هـ .

ويستحب أن يكون السفر يوم الخميس لقول كعب بن مالك :

« كان رسول الله صلي الله عليه وعلي آله وسلم إذا أراد أن يسافر لم يسافر إلاَّ يوم الخميس » .

أخرجه أحمد وأبو داوود في سنده أحمد بن لهيعة .

وقوله : « قلما كان رسول الله صلي الله عليه وعلي آله وسلم يخرج إذا أراد سفراً إلاَّ يوم الخميس » .

أخرجه أحمد والبخاري وأبو داوود بسند جيد .

ومنه يعلم أن الحصر في الرواية الأولي بالنظر إلي الغالب . وحكمة ذلك : أن الخميس يوم مبارك ترفع فيه أعمال العباد إلي الله تعالي .

ويستحب لمريد السفر طلب الوصية والدعاء من أهل الخير والصلاح .

ويستحب توديعه ، لحديث أبي هريرة : أن رجلاً جاء إلي النبي صلي الله عليه وعلي آله وسلم يريد سفراً ، فقال : يا رسول الله .. أوصني . قال : « أوصيك بتقوي الله والتكبير علي كل شرف »[1] فلما ولى الرجل ، قال النبى صلي الله عليه وعلي آله وسلم : « اللهم ازو له الأرض[2] وهون عليه السفر » أخرجه أحمد والنسائى والترمذى وحسنه .

ولقول سالم بن عبد الله بن عمر إذا أتاه الرجل وهو يريد السفر ، قال له : ادن أودعك كما كان رسول الله صلى الله عليه وعلي آله يودعنا ، فيقول : « استودع الله دينك[3] وأمانتك وخواتيم عملك » . أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذي وقال حسن صحيح والنسائى وزاد في رواية : « وأقرأ عليك السلام » . أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذى عن ابن عباس .

ولقول أنس بن مالك : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وعلي آله وسلم ، فقال : يا رسول الله .. إنى أريد سفراً فزودني . فقال : « زودك الله التقوى . قال : زدنى . قال : وغفر ذنبك . قال : زدني . قال : ويسر لك الخير حيثما كنت » . أخرجه الترمذي وحسنه ، والنسائى والحاكم .

ويستحب لمريد السفر أن يودع من يخلفه :

لحديث أبي هريرة أن رسول الله صلي الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « من أراد أن يسافر فليقل لمن يخلف : أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه » . أخرجه أحمد وابن السنى ، وكذا الطبرانى بلفظ : « أستودعك الله الذى

---

(١) الشرف ، بفتحتين: المكان المرتفع .
(٢) أى اجمعها له واطوها ، وقرب له البعيد .
(٣) أى اطلب منه حفظ دينك .

لا تخيب ودائعه » .

وعنه أيضاً : أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : «إذا أراد أحدكم سفراً فليسلم علي إخوانه فإنهم يزيدونه بدعائهم إلي دعائه خيراً » . أخرجه الشيخان وأحمد والطبراني في الأوسط .

ويستحب لمريد السفر أن يصلي ركعتين قبل خروجه يقرأ فيهما بعد الفاتحة ما شاء ، لحديث المقطم بن المقدام أن النبي صلي الله عليه وعلي آله وسلم ، قال : « ما خلف أحد عند أهله أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد سفراً » أخرجه الطبراني وكذا ابن أبي شيبة مرسلاً .

ولقول ابن مسعود : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقال : يا رسول الله .. إني أريد الخروج إلى البحرين في تجارة . فقال رسول الله صلى الله عليه وعلي آله وسلم : « صل ركعتين » أخرجه الطبرني في الكبير بسند رجاله موثقون . قاله الهيثمي .

ويستحب لمريد السفر اتخاذ رفيق يأنس به ويتعاون مع علي مشاق السفر :

لحديث ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم « نهى عن الوحدة أن يبيت الرجل وحده أو يسافر وحده » . أخرجه أحمد وحسنه السيوطي .

وعنه ، أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم ، ما سار راكب بليل وحده » . أخرجه أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجة .

ولحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « عبدالله بن عمرو » أن النبى صلى الله عليه وعلي آله وسلم ، قال : « الراكب شيطان[١] والراكبان شيطانان والثلاثة ركب »[٢] . أخرجه مالك وأحمد وأبو داوود والترمذي

---

(١) المراد بالراكب المسافر وحده ولو ماشياً ، وسمى شيطاناً ، لأنه أشبه الشيطان في الفعل والمخالفة .
(٢) الركب ، اسم جمع ، وقيل : جمع راكب ، أي الثلاثة فأكثرهم الذين يستحقون أن يسموا ركباً لكونهم محفوظين من الشيطان .

والنسائى وابن ماجة بسند حسن ، وصححه ابن خزيمة والحاكم . وأخرجه الحاكم أيضاً من حديث أبى هريرة وصححه .

وحكمة النهى عن ذلك ــ كما يقول الإمام محمود خطاب السبكي رحمه الله تعالى ــ : أن الواحد لو مات في سفره لم يجد من يقوم بشأنه ، وكذا الإثنان إذا ماتا أو مات أحدهما لم يجد الآخر من يعينه بخلاف الثلاثة ، ففي الغالب أنه لا يخشى عليهم شيء من ذلك : قال الطبري : وهذا الزجر زجر أدب وإرشاد لما يخشى على الواحد من الوحشة والوحدة وليس بحرام فالسائر وحده في فلاة وكذا البائت في بيت وحده لا يأمن الاستيحاش لاسيما إذا كان ذا فكرة رديئة وقلب ضعيف ..

ويستحب لمريد السفر أن يستشير فيه من يعلم منه النصيحة والشفقة والصلاح والاستقامة ، لقوله تعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾[1] ثم : يستخير الله تعالى ، فيصلى ركعتين من غير الفريضة ، ويدعو بدعاء الاستخارة ، وهو :

« .. اللهم أستخيرك[2] بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر[3] خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، أو قال : عاجل أمري وآجله[4] ، فاقدره لي ويسره لى ثم بارك لى فيه . وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى في ديني ومعاشي وعاقبة أمرى ، أو قال : عاجل أمرى وآجله فاصرفه عنى واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضني به » : قال : ويسمى حاجته ، أى يسمى حاجته عند قوله : « اللهم إن كان هذا الأمر » .

رواه البخارى من حديث جابر .

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .
(٢) أي أطلب منك الخيرية أو الخير .
(٣) يسمي حاجته هنا .
(٤) يجمع بينهما .

وللحديث مقدمة يقول فيها الرسول ﷺ : « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل .. » .

ويستحب وصية المقيم المسافر بالدعاء له في مواطن الخير ، ولو كان المقيم أفضل من المسافر ، لقول عمر رضى الله عنه : استأذنت النبى صلى الله عليه وعلي آله وسلم في العمرة فأذن لي ، وقال : « لا تنسنا يا أخي من دعائك » وفي رواية : « أشركنا يا أخي في دعائك » فقال : كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا . أخرجه أبو داوود والترمذي وقال : حسن صحيح .

ويستحب الدعاء في السفر ، فإنه مستجاب :

لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وعلي آله وسلم ، قال : « ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد علي ولده » . أخرجه أحمد وأبو داوود وابن ماجة والترمذي وحسنه والبخاري في الأدب .

ولحديث أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وعلي آله وسلم ، قال : « ثلاث دعوات لا ترد : دعوة الوالد لولده ، ودعوة الصائم ، ودعوة المسافر » . أخرجه الضياء المقدسي في المختارة والبيهقي .

ولحديث أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وعلي آله وسلم ، قال : « ثلاث دعوات مستجابات : دعوة الصائم ، ودعوة المظلوم ، ودعوة المسافر » . أخرجه البيهقي .

* * *

وإذا كنا قد وقفنا على فضل السفر وأهم آدابه وأصحها ، فإنني أرى كذلك أن نقف ، على :

أذكار السفر

التي يستحب للمسافر أن يدعو بها ، عند نهوضه ، وخروجه من بيته ،

وركوبه الدابة ونحوها ــ كسيارة ، ودراجة ، وسفينة ، وطائرة ــ وغير ذلك ، ليرضى عنه ربه ويحفظه في سفره ، وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة ، منها:

قول أنس رضى الله عنه : لم يرد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم سفراً قط إلّا قال حين ينهض من جلوسه :

« اللهم لك انتشرت ، وإليك توجهت ، وبك اعتصمت ، اللهم أنت ثقتي وأنت رجائي . اللهم اكفني ما أهمني وما لا أهتم له ، وما أنت أعلم به . اللهم زودني التقوي ، واغفر لي ذنبي ؛ ووجهني للخير أينما توجهت » . ثم يخرج . أخرجه ابن جرير .

وحديث عثمان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « ما من مسلم يخرج من بيته يريد سفراً أو غيره ، فقال حين يخرج : « بسم الله ، آمنت بالله ، اعتصمت بالله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، إلّا رزق خير ذلك المخرج ، وصرف عنه شر ذلك المخرج » .

أخرجه أحمد بسند فيه رجل لم يسم وبقيته ثقات .

وحديث على رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وعلي آله وسلم ، كان إذا أراد سفراً ، قال : « اللهم بك أصول وبك أجول ، وبك أسير » . أخرجه البزار وأحمد في زوائد المسند بسند رجاله ثقات .

وقول على بن ربيعة : رأيت علياً رضى الله عنه أتى بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله في الركاب ، قال : باسم الله . فلما استوي عليها ، قال : الحمد لله ، ﴿**سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون**﴾[1] ثم حمد الله ثلاثاً وكبر ثلاثاً ، ثم قال : سبحانك لا إله إلّا أنت قد ظلمت نفسي فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلّا أنت ، ثم ضحك ، فقلت :

---

(١) أى وما كنا مطيقين قهره وركوبه لولا تسخير الله إياه ، ومنقلبون : أي صائرون إلى ربنا بعد الموت ــ والآية من سورة الزخرف : ١٣ ، ١٤ .

م ضحكت يا رسول الله ؟ قال : « يعجب(١) الرب من عبده إذا قال : رب اغفر لي ، ويقول : علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري » أخرجه أحمد ، وأبو داوود ، والترمذي ، والنسائي بأسانيد صحيحه وابن حبان والحاكم وقال : صحيح علي شرط مسلم .

وحديث علي الأزدى أن ابن عمر علمه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلي السفر : كبر ثلاثاً ، ثم قال : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ اللهم : إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى ، اللهم : هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده ، اللهم : أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ، اللهم : إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل والمال » .

وإذا رجع قالهن وزاد فيهن : « آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي .

وقول ابن عباس : كان النبى صلى الله عليه وعلي آله وسلم إذا أراد أن يخرج إلي سفر ، قال : « اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ، اللهم إنى أعوذ بكم من الضبنة(٢) في السفر والكآبة في المنقلب . اللهم اطو لنا الأرض وهون علينا السفر .

وإذا أراد الرجوع ، قال : « آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون » .

وإذا دخل على أهله ، قال : « توباً توباً لربنا أوباً لا يغادر علينا حوباً »(٣) . أخرجه أحمد والطبراني والبزار بسند رجاله رجال الصحيح .

وقول عبد الله بن سرجس : كان النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا

---

(١) المراد : بيعجب الرب : رضاه .

(٢) الضبنة : بضم الضاد وكسرها وسكون الباء ، ما تحت يدك من مال وعيال ، والمراد التعوذ من كثرة العيال في السفر ، أو من صحبة من لا كفاية فيه من الرفاق .

(٣) الحوب بفتح الحاء وضمها وسكون الواو : أى الذنب .

خرج في سفره ، قال : اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، والحور بعد الكور[1] ودعوة المظلوم ، وسوء المنظر في المال والأهل .

وإذا رجع ، قال مثلها ، إلّا أنه يقول : « وسوء المنظر في الأهل والمال » . فيبدأ بالأهل .

أخرجه أحمد ومسلم والترمذي والنسائى وابن ماجة ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقول ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا غزا أو سافر فأدركه الليل ، قال : « يا أرض ربى وربك الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما خلق فيك ، وشر ما دب عليك . أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود[2] وحية وعقرب ، ومن شر ساكن البلد[3] ، ومن شر والد وما ولد » أخرجه أحمد وأبو داوود وابن النجار بسند جيد . وأخرجه أبو داوود والترمذي والحاكم عن ابن مسعود بسند صحيح .

وقول أسامة والد أبي المليح : كنت رديف[4] النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم علي حمار فعثر الحمار فقلت : تعس[5] الشيطان . فقال لى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « لا تقل تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت تعس الشيطان ، تعاظم الشيطان في نفسه ، وقال : صرعته بقوتي ، فإذا قلت : بسم الله تصاغرت إليه نفسه حتى يكون أصغر من ذباب » أخرجه أحمد وأبو داوود والطبراني .

وحديث خولة بنت حكيم السلمية أن النبى صلى الله عليه وعلي آله وسلم ، قال : « من نزل منزلاً ، ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات كلها من

---

(١) الحور بفتح فسكون : أى النقصان ، والكور بفتح فسكون : أى الزيادة . وقيل : الحور الفساد ، والكور الصلاح .

(٢) الأسود : العظيم من الحيات ، خص بالذكر لخبثه ، وقيل الأسود : أي الشخص .

(٣) أي الجن ، والوالد : إبليس ، وما ولد : أى الشياطين .

(٤) أى كان يركب خلفه .

(٥) أى أكب علي وجهه ، وهو دعاء بالهلاك .

شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك » . أخرجه ابن خزيمة ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ، وأحمد ، ومالك .

وقول جابر بن عبد الله : « كنا نسافر مع النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فإذا صعدنا : كبرنا ، وإذا هبطنا ، سبحنا » . أخرجه أحمد والبخاري والنسائى .

وقول ابن عمر : كنا نسافر مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فإذا رأى قرية يريد أن يدخلها ، قال : « اللهم بارك لنا فيها — ثلاث مرات — . اللهم ارزقنا جناها[1] وحببنا إلي أهلها وحبب صالحي أهلها إلينا » . أخرجه الطبراني في الأوسط بسند جيد .

قال في الدين الخالص : ويستحب للمسافر أن يقول بعد الصلوات ما يقوله غيره[2] ، وأن يزيد بعد الصبح ما في حديث أبي بردة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا صلى الصبح في سفر رفع صوته حتي يسمع أصحابه : « اللهم أصلح لي ديني الذي جعلته عصمة أمرى . اللهم أصلح لى دنياى التى جعلت فيها معاشى — ثلاث مرات — . اللهم أصلح لى آخرتى التى جعلت إليها مضجعى — ثلاث مرات — . اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك . اللهم إنى أعوذ بك — ثلاث مرات — لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » أخرجه ابن السنى .

* * *

والآن وبعد هذا التقديم الهام ، حول فضل السفر ، وآدابه ، وأذكاره .. نعود إلي تلك الرخص التى تفضل الله تبارك وتعالى بها على المسافر والتى أولها ، كما رتبها الإمام الغزالى فى الإحياء :

---

(١) أى ما يجتنى من الشجر ، وكأنه عبر بالجنى عن فوائد القرية المنتفع بها .

(٢) أى في ختام الصلاة .

المسح على الخفين

وتفصيل ذلك يتلخص فى الآتى ، وهو : أن الخف ، وهو حذاء من جلد يلبسه الرجل والمرأة ، إذا لبس على طهارة بعد الوضوء جاز للمسافر أن يمسح على خفيه ثلاثة أيام بلياليها ، دون أن ينزعهما ما دام قد لبسهما على وضوء .

فعن شريح بن هانىء رضى الله عنه ، قال : سألت عائشة رضى الله عنها عن المسح على الخفين ، فقالت : سل علياً فإنه أعلم بهذا منى ، كان يسافر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألته ، فقال : قال رسول الله ﷺ : « للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن ، وللمقيم يوم وليلة » رواه أحمد ومسلم .

وللمسح على الخفين شروط ، وهى :

أن يلبس الخف على وضوء .

أن يكون الخف طاهراً ، إذ لا يصح المسح على نجس أو متنجس .

أن يكون ساتراً للقدمين ، ولا يضر إن كان به خروق يسيرة .

أن يكون قوياً يمكن تتابع المشى فيه عادة .

وقد ضعف بعض الفقهاء هذين الشرطين الأخيرين ، منهم ابن تيمية ، لعدم ورود الأحاديث بهما ، والله أعلم بالصواب .

والمسح لغة[1] : إمرار اليد علي الشيء ، واصطلاحاً : إصابة اليد المبتلة أو ما يقوم مقامها أعلى الخف في المدة الشرعية التى وقفنا عليها بالنسبة للمسافر والمقيم . والخف الشرعى ، هو الساتر للكعبين الممكن تتابع المشى فيه عادة .

قال في الدين الخالص :

قال الحنفيون : فرضه مسح قدر ثلاثة أصابع من أصغر أصابع اليد علي

---

(١) كما يقول في الدين الخالص ج ١ .

ظاهر أعلى الخف من كل رجل . فلا يصح علي أسفله وعقبه وساقه وجوانبه .

لقول علي رضي الله عنه : « لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمسح على ظاهر خفيه » . أخرجه أبو داوود والبيهقي والدارقطني بسند صحيح .

وقال أيضاً في الدين الخالص ، تحت عنوان :

ما يبطل المسح علي الخفين

يبطل بواحد من ثلاثة :

ما يبطل به الوضوء اتفاقاً ، لأن المسح علي الخف بعض الوضوء .

ويبطل عند القائلين فيه بالتوقيت بمضى المدة للمقيم والمسافر إن لم يخف بغلبة الظن تلف رجله من البرد ونحوه إذا نزعه . فإن خاف ذلك لا يلزمه النزع ، ويمسح دائماً بلا توقيت حتي يأمن دفعاً للحرج. وحينئذ يصير الخف كالجبيرة فيستوعبه أو أكثره بالمسح .

ويبطل أيضاً عند الحنفيين والشافعي والجمهور : بنزع الخف أو انتزاعه ولو بخروج أكثر القدم إلى ساق الخف فى الأصح .

ولا عبرة بخروج عقبه ودخوله . وهو رواية عن أحمد . لحديث سعيد بن أبي مريم عن رجل من أصحاب النبى ﷺ في الرجل يمسح علي خفيه ثم يبلو له فينزعهما ، قال : يغسل قدميه . أخرجه البيهقي .

وهناك أحكام كثيرة تتعلق بالمسح علي الخفين ، منها ما هو في الإحياء حيث يقول الإمام الغزالي رحمه الله :

مهما مسح مقيماً ثم سافر ، أو مسافراً ثم أقام غلب حكم الإقامة فليقتصر على يوم وليلة ، وعدد الأيام الثلاثة محسوب من وقت حدثه بعد المسح علي الخف ، فلو لبس الخف في الحضر ومسح في الحضر ، ثم خرج وأحدث في السفر وقت الزوال مثلاً ومسح ثلاثة أيام ولياليهن من وقت الزوال إلى الزوال من اليوم الرابع ، فإذا زالت الشمس من اليوم الرابع لم يكن له أن يصلى إلّا بعد غسل الرجلين فيغسل رجليه ويعيد لبس الخف ويراعى

وقت الحدث ويستأنف الحساب من وقت الحدث ، ولو أحدث بعد لبس الخف في الحضر ، ثم خرج بعد الحدث فله أن يمسح ثلاثة أيام ، لأن العادة قد تقتضى اللبس قبل الخروج ، ثم لا يمكن الاحتراز من الحدث ، فأما إذا مسح في الحضر ثم سافر اقتصر علي مدة المقيمين .

كما يقول أيضاً بعد ذلك في الإحياء :

ويستحب لكل من يريد لبس الخف في حضر أو سفر ، أن ينكس الخف وينفض ما فيه حذراً من حية أو عقرب ، أو شوكة .

* * *

وأما الرخصة الثانية من رخص السفر ، فهى :

التيمم بالتراب بدلاً عن الماء عند العذر

والخلاصة التي نريد أن نقف عليها كذلك ، هي :

أن التيمم طهارة ترابية ، تسد مسد الطهارة المائية ، وضوءاً كانت أو غسلاً عند فقد الماء ، أو عدم القدرة علي استعماله ..

وهو عبارة عن ضربتين بالكفين ، علي الصعيد الطاهر ، ضربة للوجه ، وضربة لليدين إلي المرفقين .

ودليل مشروعيته ، قوله تعالى في سورة النساء :

﴿ وإن كنتم مرضى أو علي سفر أوجاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ، إن الله كان عفواً غفوراً ﴾[1] .

وسبب مشروعيته ، ما في حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت : خرجنا

---

(١) النساء : ٤٣ .

مع النبي ﷺ في بعض أسفاره حتي إذا كنا بالبيداء انقطع عقدى ، فأقام النبي ﷺ على التماسه ، وأقام الناس معه ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ، فأتى الناس إلي أبى بكر ، فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ؟! .. فجاء أبو بكر والنبى ﷺ واضع رأسه علي فخذى ، قد نام ، فعاتبنى وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يطعن بيده في خاصرتي ، فمايمنعني من التحرك إلّا مكان النبي ﷺ علي فخذى ، فقام حتى أصبح علي غير ماء ، فأنزل الله آية التيمم ، فقال أسيد بن حضير : ماهى أول بركتكم يا آل أبى بكر ، قالت : فبعثنا البعير الذى كنت عليه .. فوجدنا العقد تحته » . أخرجه مالك ومسلم .

والأعذار المبيحة للتيمم في السفر يوجزها في الإحياء ، فيقول : وإنما يتعذر الماء ، بأن يكون بعيداً عن المنزل بعداً لو مشى إليه لم يلحقه غوث القافلة ، إن صاح أو استغاث ، وهو البعد الذى لا يعتاد أهل المنزل في ترددهم لقضاء الحاجة التردد إليه ، وكذا إذا نزل علي الماء عدو أو سبع فيجوز التيمم ، وإن كان الماء قريباً ، وكذا إن احتاج إليه لعطشه في يومه أو بعد يومه لفقد الماء بين يديه فله التيمم ، وكذا إن احتاج إليه لعطش أحد رفقائه فلا يجوز الوضوء ويلزمه بذله إما بثمن أو بغير ثمن ، ولو كان يحتاج إليه لطبخ مرقة أو لحم أو لبل فتيت يجمعه به لم يجز له التيمم ، بل عليه أن يجتزىء بالفتيت اليابس ويترك تناول المرقة ، ومهما وهب له الماء وجب قبوله ، وإن وهب له ثمنه لم يجب قبوله ، لما فيه من المنة ، وإن بيع بثمن المثل لزمه الشراء ، وإن بيع بغبن لم يلزمه .

فإذا لم يكن معه ماء وأراد أن يتيمم فأول ما يلزمه طلب الماء مهما جوز الوصول إليه بالطلب وذلك بالتردد حوالي المنزل ، وتفتيش الرحل ، وطلب البقايا من الأواني والمطاهر .

فإن نسى الماء في رحله ، أو نسى بئراًبالقرب منهلزم إعادة الصلاة لتقصيره في الطلب .

وإن علم أنه سيجد الماء في آخر الوقت : فالأولي أن يصلى بالتيمم في أول الوقت فإن العمر لا يوثق به ، وأول الوقت رضوان الله .

تيمم ابن عمر رضى الله عنهما ، فقيل له : أتتيمم وجدران المدينة تنظر إليك ؟ فقال : أو أبقى إلي أن أدخلها .

ثم يقول في الإحياء : ومهما وجد الماء بعد الشروع في الصلاة لم تبطل صلاته ، ولم يلزمه الوضوء .

فلاحظ أخا الإسلام كل هذا ، بالإضافة إلى هذين الحكمين اللذين في هذين الحديثين :

عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى ، قال : خرج رجلان في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيمما صعيداً طيباً ، فصليا ثم وجد الماء في الوقت ، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة ولم يعد الآخر ، ثم أتيا رسول الله ﷺ ، فذكرا ذلك له . فقال للذى لم يعد : « أصبت السنة وأجزأتك صلاتك » وقال للذى توضأ وأعاد : « لك الأجر مرتين » . أخرجه النسائي وأبو داوود والدارمي والحاكم والدارقطنى .

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه : أنه لما بعث في غزوة ذات السلاسل ، قال : احتلمت في ليلة شديدة البرودة ، فأشفقت إن اغتسلت هلكت ، فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح ، فلما قدمنا علي رسول الله ﷺ ، ذكروا ذلك له ، فقال : « يا عمرو .. صليت بأصحابك وأنت جنب » ؟! فقلت : ذكرت قول الله عز وجل : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيماً** ﴾(١) . فتيممت ثم صليت ، فضحك رسول الله ﷺ ، ولم يقل شيئاً ، رواه أحمد وأبو داوود .

فمن هذين الحديثين تعلم أنه إذا خاف خروج الوقت ، إذا توضأ ، أو اغتسل ، فله أن يتيمم ويصلي ولا يعيد ، وقيل عليه الإعادة .

كذلك لا يعيد الصلاة من تيمم وصلى ، ثم وجد الماء .

وإذا كان الماء شديد البرودة ، ولم يقدر علي تسخينه ، بحيث لو توضأ لضره ، جاز له أن يتيمم .

---

(١) النساء : ٢٩ .

وكذلك : إذا احتاج الماء لشربه ، أو شرب حيوان محترم[1] ، جاز له أن يتيمم ، ويبقى الماء لينتفع به :

فعن علي رضى الله عنه ، قال في الرجل يكون في السفر ، فتصيبه الجنابة ، ومعه قليل من الماء ، يخاف أن يعطش : « فيتيمم ولا يغتسل » .

* * *

وإتماماً للفائدة ، إليك كذلك :

مبطلات التيمم : يبطل التيمم بما يبطل به الوضوء .

ويبطل بوجود الماء في الوقت ، فمن تيمم ووجد الماء قبل أن يصلي وجب عليه أن يتطهر به ولا يصلى بهذا التيمم .

وإذا وجده وهو في الصلاة تمادى فيها لحرمتها ثم تطهر وأعادها .

* * *

وأما عن الرخصة الثالثة ، وهى :

قصر الصلاة الرباعية المفروضة في السفر

فقد ثبت مشروعيته بالكتاب والسنة وإجماع الأمة :

ففي القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ، إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً ﴾[2] .

---

(١) كشاة ، أو جمل ، أو جواد (مثلاً) .

(٢) النساء : ١٠١ .

فمعنى تلك الآية هو :

﴿ **وإذا ضربتم في الأرض** ﴾ أي : سافرتم .

﴿ **فليس عليكم جناح** ﴾ أى : حرج وإثم .

﴿ **أن تقصروا من الصلاة** ﴾ الرباعية ، أى تصلوا الظهر ، والعصر والعشاء ، ركعتين .. أما صلاة الصبح فلا تقبل القصر ، لأنها قصيرة بطبيعتها ، وكذلك صلاة المغرب لا تقبل القصر لأنها وتر النهار .

وظاهر تلك الآية ، كما يقول في التفسير الوسيط ، هو : إباحة القصرُ(١) لمطلق السفر ، طال أم قصر ..

ولكن الفقهاء اختلفوا في تحديد مسافة القصر ومدته ، كما اشترط بعضهم أن يكون سفراً مباحاً .

وظاهر قوله تعالى : ﴿ **إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا** ﴾ : اشتراط الخوف في السفر في جواز القصر ، ولكن السنة النبوية بينت أنه يجوز القصر في السفر مع الأمن ، كما يجوز فيه عند الخوف .

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ جواباً لمن سأله عن القصر حالة الأمن : « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » .

وقد بين الله سبحانه وتعالى سبب الترخيص — في القصر في السفر — عند الخوف بقوله : ﴿ **إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً** ﴾ أى كانوا لكم أعداء ظاهري العداوة ، مجاهرين بها ، فتنبهوا لعداوتهم واحذروهم ، وكونوا متيقظين لهم في الصلاة وغيرها .

فالتقييدبالخوف غير معمول به ، كما تبين لك من خلال التلخيص السابق .

وحتى يتضح لك هذا ويتأكد ، إليك هذا الحديث الذي يقول فيه يعلي

---

(١) قصر الصلاة : أى ترك شيء منها .

ابن أمية :

« قلت لعمر بن الخطاب : أرأيت[١] إقصار الناس الصلاة ، وإنما قال عز وجل : ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ فقد ذهب ذلك اليوم ؟ فقال عمر : عجبت مما عجبت منه فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » رواه البخاري ومسلم وأبو داوود ، والترمذي ، والنسائى ، وابن ماجة ، وأحمد ، ومالك .

وأخرج ابن جرير عن أبي منيب الجرشي أنه قيل لابن عمر : قول الله تعالى : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض ﴾ الآية ، فنحن آمنون لا نخاف فنقصر الصلاة ؟ فقال : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة .. ﴾[٢] .

وعن عائشة ، قالت : قد فرضت الصلاة ركعتين ركعتين بمكة ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة زاد من كل ركعتين ركعتين إلاَّ في المغرب فإنها وتر النهار ، وصلاة الفجر لطول قراءتها ، وكان إذا سافر صلى الصلاة الأولى ، أى التي فرضت بمكة .

رواه أحمد والبيهقي وابن حبان وابن خزيمة ، ورجاله ثقات .

قال ابن القيم : وكان ﷺ يقصر الصلاة الرباعية ، فيصليها ركعتين من حين يخرج مسافراً إلي أن يرجع إلي المدينة ولم يثبت عنه أنه أتم الصلاة الرباعية ، ولم يختلف في ذلك أحد من الأئمة ، وإن كانوا قد اختلفوا في حكم القصر .

فقال بوجوبه : عمرو ، وعلى ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن عمر وجابر :

وهو مذهب الحنفية الذين يقولون : إن قصر الصلاة واجب علي المسافر ، ولا يجوز له الإتمام ، لقوله ﷺ :

---

(١) أى أخبرني عن سبب القصر وقد زال الخوف الذي هو سببه كما هو صريح الآية .
(٢) الأحزاب : ٢١ .

« فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر » .

فإذا أتم الصلاة أثم لتأخير السلام عن نهاية المفروض ، وهو القعود الأول في هذه الحالة ، ويعتبر متنفلاً بالركعتين الأخيرتين ، لأن الفرض إنما هو الركعتان الأوليان ، ولذا تبطل صلاته إن ترك القعود الأول في هذه الصورة لأنه ترك فرضاً من فرائض الصلاة .

وقال المالكية : القصر سنة مؤكدة آكد من صلاة الجماعة ، فإذا لم يجد المسافر مسافراً يقتدي به ، صلي منفرداً محافظة علي القصر ، ويكره أن يقتدي بالمقيم ، لأنه لو اقتدي به لزمه الإتمام فتفوت سنة القصر المؤكدة .

وقال الشافعية : القصر جائز ، وهو أفضل من الإتمام إن بلغ سفره ثلاث مراحل ولم يختلف في جواز قصره ، فإن كان السفر أقل من ثلاث فالإتمام أفضل ، وكذا لو كان ثلاثاً فأكثر وكان المسافر ملاحاً ، وهو : من له دخل في تسيير السفينة ، فإن الإتمام له أفضل لخلاف الإمام أحمد وقوله بعدم جواز القصر له ، وقد يجب القصر فيما إذا أخر المسافر الصلاة إلى آخر الوقت ، بحيث لا يسع الوقت الباقي منه الصلاة ألاّ مقصورة ، لأنه لو أتم لزم إخراج بعض الصلاة عن وقتها مع تمكنه من إيقاعها بتمامها في الوقت .

وقال الحنابلة : القصر جائز ، وهو أفضل من الإتمام ولا يكره الإتمام .

والخلاصة المفيدة التي نريد أن نقف عليها ، ـــ بعد ذلك ـــ وقبل أن نقف علي شروط صحة القصر ، هى :

أن قصر الصلاة الرباعية وهي الظهر والعصر والعشاء ، سواء أكان في حالة الخوف أم في حالة الأمن ، قد شرع في السنة الرابعة من الهجرة وقد ثبتت مشروعيته بالكتاب والسنة والإجماع .

وقد وقفنا قبل ذلك علي الآية الكريمة ، التى شرع الله تعالى صلاة القصر فيها ، كما قرأنا كذلك بعض الأحاديث الشريفة الواردة فى هذا .

وقد روى ابن أبي شيبة ـــ بالإضافة إلي ما وقفنا عليه ـــ أن النبى ﷺ ،

قال : « إن خيار أمتي من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والذين إذا استحسنوا استبشروا ، وإذا أساءوا استغفروا ، وإذا سافروا قصروا » .

وقد ثبت أنه ﷺ ، صلي إماماً بأهل مكة بعد الهجرة صلاة رباعية ، فسلم علي رأس ركعتين ثم التفت إلي القوم ، فقال : « أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر » .

وقد أجمعت الأمة علي مشروعية القصر في الصلاة الرباعية .

* * *

والآن إليك أهم شيء في هذا الموضوع ، وهو :

شروط صحة القصر

كما هو ثابت في الفقه علي المذاهب الأربعة ، بتصرف وإيجاز :

أولاً : أن يكون السفر مسافة تبلغ ستة عشر فرسخاً(١) ذهاباً فقط ، والفرسخ ثلاثة أميال ـــ الميل : ١٧٤٨ متراً ـــ والميل ستة آلاف ذراع بذراع اليد ، وهذه المسافة تساوي ثمانين كيلو ونصف كيلو ومائة وأربعين متراً ـــ أى مسيرة يوم وليلة بسير الإبل المحملة بالأثقال سيراً معتاداً ـــ ولا يضر نقصان المسافة عن المقدار المبين بشيء قليل كميل أو ميلين ، ولا يشترط أن يقطع هذه المسافة المذكورة ـــ يوم وليلة ـــ فلو قطعها في أقل منها ولو في لحظة صح القصر .

ويقول الحنفية : المسافة مقدرة بالزمن وهو ثلاثة أيام من أقصر أيام السنة ، ويكفي أن يسافر في كل يوم منها من الصباح إلي الزوال ، والمعتبر

---

(١) الفرسخ : ٥٥٤١ متراً .

السير الوسط ، أى سير الإبل ومشى الأقدام ، فلو بكر في اليوم الأول ومشى إلي الزوال ، وبلغ المرحلة ونزل وبات فيها ، ثم بكر في اليوم الثاني وفعل ذلك ، ثم فعل ذلك في اليوم الثالث فقد قطع مسافة القصر ، ولا عبرة بتقديرها بالفرسخ علي المعتمد ، ولا يصح القصر في أقل من هذه المسافة .

ويقول المالكية : إن نقصت المسافة عن القدر المبين بثمانية أميال ، وقصر الصلاة صحت صلاته ولا إعادة عليه علي المشهور .

ويستثني من اشتراط المسافة : أهل مكة ، ومنى ، ومزدلفة ، والمحصب ، إذا خرجوا في موسم الحج للوقوف بعرفة ، فإنه يسن لهم القصر في حال ذهابهم ، وكذا في حال إيابهم إذا بقي عليهم عمل من أعمال الحج التي تؤدي في غير وطنهم ، وإلا أتموا .

ثانياً : أن ينوي السفر ، ويشترط لنية السفر أمران :

أحدهما : أن ينوي قطع تلك المسافة بتمامها من أول سفره ، فلو خرج هائماً علي وجهه لا يدري أين يتوجه ، لا يقصر ولو طاف الأرض كلها ، لأنه لم يقصد قطع المسافة ، وكذلك لا يقصر إذا نوي قطع المسافة ولكنه نوي الإقامة أثناءها مدة قاطعة لحكم السفر .

وقد قال الحنفية في هذا : نية إقامة المدة القاطعة لحكم السفر لا تبطل حكم القصر إلّا إذا أقام بالفعل ، فلو سافر من القاهرة مثلاً ناوياً الإقامة بأسيوط مدة خمسة عشر يوماً فأكثر ، يجب عليه القصر في طريقه إلي أن يقيم .

ثانيهما : الاستقلال بالرأى ، فلا تعتبر نية التابع بدون نية متبوعه كالزوجة مع زوجها ، والجندي مع أميره ، والخادم مع سيده .

فلو نوت الزوجة مسافة القصر دون زوجها لا يصح لها أن تقصر ، وكذلك الجندي والخادم ونحوهما .

والمالكية : لم ينصوا علي هذا الشرط ، ولكن قواعد مذهبهم لا تأباه ، فإن شرط النية عندهم أن تكون جازمة ، ونية التابع معلقة علي نية المتبوع ضرورة أنه تابع له في سيره وعدمه ، فما لم ينو المتبوع قطع المسافة بتمامها

لا يتأتي للتابع أن يجزم النية بذلك ، فالمعتبر إذن نية المتبوع ، ونية التابع كالعدم كما هو رأى غيرهم من أهل المذاهب الثلاثة .

ولا يشترط في نية السفر البلوغ ، فلو نوى الصبى مسافة القصر قصر الصلاة .

والحنفية يقولون في هذا : يشترط في نية السفر أن تكون من بالغ ، فلا تصح نية الصبى ، فشروط نية السفر عندهم ثلاثة :

١ ــ نية قطع المسافة بتمامها من أول السفر .

٢ ــ الاستقلال بالرأى .

٣ ــ البلوغ .

ثالثاً : أن يكون السفر مباحاً[١] ، فلو كان السفر حراماً كأن سافر لسرقة مال أو لقطع طريق أو نحو ذلك ، فلا يقصر ، وإذا قصر لم تنعقد صلاته[٢] ، فإن كان السفر مكروهاً[٣] ففيه تفصيل المذاهب :

فالمالكية قالوا : يكره القصر في السفر المكروه .

والحنفية قالوا : يجب القصر في السفر المكروه أيضاً كغيره .

والشافعية قالوا : يجوز القصر في السفر المكروه .

والحنابلة قالوا : لا يجوز القصر في السفر المكروه ، ولو قصر لا تنعقد صلاته كالسفر المحرم .

وأما إذا كان السفر مباحاً[٤] ، ولكن وقعت فيه معصية[٥] فلا يمنع

---

(١) الحنفية لم يشترطوا ذلك ، فيجب القصر عندهم على كل مسافر ولو كان السفر محرماً ، ويأثم بفعل المحرم .

(٢) والمالكية قالوا : إذا كان السفر محرماً صح القصر مع الإثم .

(٣) أي إذا كان السفر لفعل مكروه للنهى عنه .

(٤) كالتجارة ونحوها .

(٥) كأن شرب فيه مسكراً أو زنى أو قذف أو اغتاب لأنه لم يقصد السفر لهذا .

القصر .

رابعاً : مجاوزة محل الإقامة ، علي تفصيل المذاهب ، وقد لخص الإمام محمود خطاب السبكي رحمه الله تعالي ، هذا الشرط الرابع ، في كتابه الدين الخالص ج ٤ فقال :

ويشترط مجاوزته محل إقامته من الجانب الذي خرج منه ، فلا يقصر قبل أن يفارق بيوت القرية أو المصر[١] من الجانب الذي خرج منه حتي لو كان ثمة محلة منفصلة عن المصر ، وقد كانت متصلة به ، لا يقصر ما لم يجاوزها . ولو جاوز العمران من جهة خروجه وكان بحذائه أبنية من الجانب الآخر يقصر إذ المعتبر جانب خروجه . ويدخل في محل الإقامة ربضه[٢] .

وكذا يشترط مجاوزة القرية المتصلة بربض المصر ، بخلاف المتصلة بفنائه ، فإنه لا يشترط مجاوزتها علي الصحيح . أما فناء المصر أو القرية فإن كان بينه وبينها أقل من غلوة[٣] ولم يكن بينهما مزرعة ، فلا بد من مجاوزته .

وإن كان بينهما مزرعة أو قدر غلوة فلا يشترط مجاوزته .

ودليل هذا : قول أنس : « صليت الظهر مع النبي صلى الله عليه وعلي آله وسلم بالمدينة أربعاً وبذي الحليفة ركعتين » أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داوود ، والترمذي ، والنسائى ، وابن ماجة .

وقول علي بن ربيعة : « خرجنا مع علي بن أبي طالب فقصرنا الصلاة ونحن نري البيوت » . أخرجه الحاكم ، وذكره البخاري معلقاً ، قال : وخرج علي رضى الله عنه فقصر وهو يري البيوت ، فلما رجع قيل له : هذه الكوفة . قال : لا .. حتي ندخلها ..

ثم يقول في الدين الخالص :

وبهذا قالت الأئمة الأربعة والأوزاعي وإسحاق وجماعة من التابعين .

---

(١) واحد من الأمصار ، والمراد : المدينة التي خرج منها .

(٢) وهو ما حوله من المساكن .

(٣) الغلوة، كشهوة: ثلاثمائة ذراع إلي أربعمائة ، أى تسعة وثلاثون ومائة متر إلي ستة وثمانية ومائة متر.

وروى مطرف وابن الماجشون عن مالك أنه لا يقصر حتي يجاوز ثلاثة أميال ، لظاهر قول أنس : « كان النبى ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو فراسخ يصلى ركعتين » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود .

قالوا : المراد به بيان المسافة التي يبدأ منها القصر .

قال ابن المنذر : ولا أعلم أن النبى صلي الله عليه وعلى آله وسلم قصر في سفر من أسفاره إلّا بعد خروجه من المدينة . أ . هـ .

خامساً : ألا يقتدي بمقيم أو مسافر يتم الصلاة ، فإن فعل ذلك وجب عليه الإتمام ، ولو دخل معه في التشهد الأخير .

وقد قال الحنفية : لا يجوز اقتداء المسافر بالمقيم إلّا في الوقت ، وعليه الإتمام حينئذ : لأن فرضه يتغير عند ذلك من اثنين لأربع :

أما إذا خرج الوقت فلا يجوز له الاقتداء بالمقيم ، لأن فرضه بعد خروج الوقت لا يتغير إلي أربع ، لأنه استقر في ذمته ركعتين فقط ، فلو اقتدي به بطلت صلاته لأن القعدة الأولي حينئذ في حق المسافر المقتدي فرض ، وهي في حق إمامه المقيم ليست كذلك ، والواجب أن يكون الإمام أقوى حالاً من المأموم في الوقت وبعده .

أما اقتداء المقيم بالمسافر فيصح مطلقاً .

وكذلك قال المالكية : إذ لم يدرك المسافر مع الإمام ركعة كاملة ، فلا يجب عليه الإتمام بل يقصر ، لأن المأمومية لا تتحقق إلا بإدراك ركعة كاملة مع الإمام .

سادساً : أن ينوي القصر عند كل صلاة تقصر ..

قال المالكية : تكفي نية القصر في أول صلاة يقصرها في السفر ولا يلزم تجديدها فيما بعدها من الصلوات ، فهي كنية الصوم أول ليلة من رمضان ، فإنها تكفي لباقي الشهر .

وقال الحنفية : أنه يلزم نية السفر قبل الصلاة ومتى نوى السفر ، كان فرضه ركعتين .. ولا يلزمه في النية تعيين عدد الركعات .

وتحت عنوان : **مسافة القصر** :

قرأت تلخيصاً مفيداً ، في كتاب الفقه الواضح ، يقول فيه كاتبه :

اختلف الفقهاء في تقدير مسافة القصر اختلافاً كثيراً .

فقدرها الحنفية بثلاثة أيام ، أو ليال ، من أقصر أيام السنة ، سيراً معتاداً .

واستدلوا بحديث خزيمة بن ثابت أن النبي ﷺ ، قال : « المسح علي الخفين للمسافر ثلاثة أيام ، وللمقيم يوم وليلة » . أخرجه أحمد وأبو داوود .

قالوا في الحديث إشارة إلي أن السفر التام الذي تتغير به الأحكام — لكونه مظنة المشقة المقتضية للتخفيف — هو للثلاثة ، والأخذ بها هو الأحوط ، وقد اعتبر الشرع هذا العدد في أحكام كثيرة .

وقدرها الشافعية ، والمالكية ، والحنابلة بمرحلتين ، سيراً وسطاً .. والمرحلتان أربعة برد ، والبريد أربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، فتكون المسافة بالأميال ثمانية وأربعين ميلاً :

أى نحو تسعة وثمانين كيلو متراً .

واستدلوا علي هذا التقدير بما روى عطاء بن أبي رباح أن ابن عمر ، وابن عباس ، كانا يصليان الرباعية ركعتين ، ويفطران في أربعة برد[1] ، فما فوق ذلك . أخرجه البيهقي بسند صحيح .

ويقول عطاء بن أبي رباح : قلت لابن عباس : أقصر الصلاة إلي عرفة ؟ فقال : لا ، ولكن إلي جدة ، وعسفان ، والطائف ، وإن قدمت إلي أهل ، أو ماشية ، فأتم . أخرجه الشافعي والبيهقي بسند صحيح .

وهذه الأماكن الثلاثة تبعد عن مكة بنحو أربعة برد .

* * *

---

(١) برد : بضمتين ، جمع بريد ، فتكون المسافة بالميل ثمانية وأربعين ميلاً ، وبالكيلو متر نحواً من تسعة وثمانين كيلو متراً .

كما يقول تحت عنوان : **مدة القصر .**

اتفق الفقهاء علي أن المسافر يقصر الصلاة ، حتي يقضى حاجته ، ويعود إلي بلده ، ما لم ينو الإقامة ، ولو مكث في سفره عدة شهور ، وذلك كأن ينتظر قضاء حاجته ، ويقول في نفسه غداً أسافر ، غداً أسافر .

فإن نوي الإقامة أيّاماً : فإن الفقهاء يختلفون في الأيام التي يقصر فيها الصلاة .

فذهب الحنفية إلي أنه لا يقصر الصلاة ، إن نوى الإقامة خمسة عشر يوماً فأقصر لقول[1] ابن عباس وابن عمر : إذا قدمت بلدة ، وأنت مسافر ، وفي نفسك أن تقيم خمس عشرة ليلة ، فأكمل الصلاة بها ، وإن كنت لا تدري متى تظعن[2] فأقصرها . أخرجه الطحاوي .

وذهب الشافعية : إلي أنه لا يقصر الصلاة ، إن نوى الإقامة ثمانية عشر يوماً ، لحديث عمران بن حصين ، قال : غزوت مع النبي ﷺ ، وشهدت معه الفتح ، فأقام بمكة ثماني عشرة ليلة ، لا يصلي إلاَّ ركعتين ، ويقول : « يا أهل البلد صلوا أربعاً ، فإنا قوم سفر »[3] أخرجه الشافعي مطولاً وأبو داوود .

وذهب المالكية ، وبعض الحنابلة : إلي أنه لا يقصر إن نوي الإقامة أربعة أيام فأكثر ، لقول سعيد بن المسيب : من أجمع[4] إقامة أربع ليال ، وهو مسافر ، أتم الصلاة . رواه مالك .

* * *

كما يقول تحت عنوان : **اقتداء المسافر بالمقيم :**

إن اقتدى المسافر بالمقيم أتم صلاته ، إن أدرك معه ركعة ، ولا يجوز

---

(١) نقله صاحب الدين الخالص عن كتاب فتح القدير لابن الهمام .
(٢) أى تسافر .
(٣) أى لستم مثلنا فأنتم مقيمون ونحن علي سفر .
(٤) أى من نوى الإقامة .

له أن يقصرها ، لأن المأموم يتبع إمامه وجوباً ، فلا يخرج من الصلاة قبله ، وإذا اقتدي مقيم بمسافر ، وقصر المسافر الصلاة ، بأن صلي الظهر ركعتين ــ مثلاً ــ فعلي المقيم أن يتم صلاته ، ولا يسلم مع إمامه ، لحديث عمران بن حصين المتقدم ، وفيه : أن رسول الله ﷺ مكث بمكة ثماني عشرة ليلة ، فكان يصلي ركعتين ، ويقول : « يا أهل البلد صلوا أربعاً ، فإنا قوم سفر » .

أى لا تخرجوا من الصلاة معنا ، بل أكملوها أربعاً ، فأنتم مقيمون ، ونحن علي سفر ، ولنا رخصة في قصر الصلاة ، ليست لكم ، والله أعلم .

* * *

وأما عن : **صلاة التطوع في السفر :**

أى عن السنة القبلية والبعدية ، وغيرهما : فقد قال ملخصاً ــ هذا في فقه السنة ــ :

ذهب الجمهور من العلماء إلي عدم كراهة النفل لمن يقصر الصلاة في السفر لا فرق بين السنن الراتبة وغيرها . فعند البخاري ومسلم ، أن النبي ﷺ اغتسل في بيت أم هانيء يوم فتح مكة وصلي ثماني ركعات .

وعن ابن عمر أنه ﷺ ، كان يسبح علي ظهر راحلته حيث كان وجهه يومىء برأسه .

وقال الحسن : كان أصحاب رسول الله ﷺ يسافرون فيتطوعون قبل المكتوبة وبعدها .

ويري ابن عمر وغيره ، أنه لا يشرع التطوع مع الفريضة لا قبلها ولا بعدها إلا من جوف الليل ، ورأى قوماً يسبحون ــ أي يصلون ــ بعد الصلاة ، فقال : لو كنت مسبحاً لأتممت صلاتي ، يا ابن أخي صحبت رسول الله ﷺ ، فلم يزد علي ركعتين ، وذكر عمر وعثمان ، وقال : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾(١) . رواه البخاري .

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

وجمع ابن قدامة بين ما ذكره الحسن وبين ما ذكره ابن عمر بأن حديث الحسن يدل علي أنه لا بأس بفعلها ، وحديث ابن عمر يدل علي أنه لا بأس بتركها .

والمختار(١) عند الحنفيين : أن المسافر إذا كان في حال أمن وقرار يأتي بالرواتب ، وإن كان في حال خوف وفرار لا يأتي بها . وبه يجمع بين الأحاديث .

* * *

وأما عن الرخصة الرابعة ، وهي :

الجمع بين الصلاتين في السفر

فخلاصة القول في هذا الموضوع ، هو : أن الفقهاء اتفقوا علي أنه لا يجوز الجمع بين الصبح والظهر ، ولا بين العصر والمغرب ..

ولكنهم اختلفوا في الجمع بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء فأجازه أكثر الفقهاء في الأحاديث الآتية(٢) .

بعرفة والمزدلفة :

أما بعرفة فإن الحجاج يجمعون بين الظهر والعصر ، جمع تقديم فيصلون الظهر ركعتين ، ثم يؤذنون للعصر فيصلونه ركعتين ، لأنهم علي سفر .

وأما بمزدلفة ، فإنهم يجمعون بين المغرب والعشاء جمع تأخير ، فيصلون المغرب ثلاث ركعات ، لأنها صلاة لا تقصر ، ويصلون العشاء ركعتين ، صلاة قصر .

---

(١) كما يقول في الدين الخالص ج ٤ .

(٢) كما لخص هذا في الفقه الواضح ج ٢ .

والجمع بعرفة والمزدلفة : سنة عن رسول الله ﷺ .

وفي السفر الطويل :

فإنه من نوى السفر إلي مكان ، سفراً تقصر الصلاة فيه : له أن يجمع بين الظهر والعصر ، أو بين المغرب والعشاء ، جمع تقديم ، أو تأخير :

فإن خرج من منزله قبل حضور وقت الظهر ، فله أن يؤخر صلاة الظهر إلي العصر ، ويجمعهما جمع تأخير .

وإن خرج قبل غروب الشمس : جمع المغرب والعشاء جمع تأخير .

وإن خرج بعد الغروب : جمع العشاء مع المغرب جمع تقديم .

هكذا كان يفعل رسول الله ﷺ :

فعن معاذ رضى الله عنه : « أن النبى ﷺ كان في غزوة تبوك إذا زاغت[1] الشمس قبل أن يرتحل ، جمع بين الظهر والعصر ، وإذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس ، أخر الظهر ، حتي ينزل للعصر ، وفي المغرب مثل ذلك ، وإن غابت الشمس قبل أن يرتحل ، جمع بين المغرب والعشاء ، وإن ارتحل قبل أن تغيب الشمس ، أخر المغرب ، حتي ينزل للعشاء ، ثم نزل فجمع بينهما » . رواه أبو داوود والترمذي .

* * *

وفي حال وجود المطر أو توقعه :

جوز الحنابلة الجمع بين المغرب والعشاء جمع تقديم وتأخير ، إذا كثر الوحل ، وكثر نزول المطر ، وشق علي الناس الوصول إلي المسجد .

---

(١) أى زالت عن وسط السماء ناحية الغرب ، وهو وقت وجوب الظهر

وجوز المالكية الجمع بين المغرب والعشاء جمع تقديم فقط ، بالمسجد ـــ أيضاً ـــ لنفس العذر .

روى البخاري أن النبى ﷺ جمع بين المغرب والعشاء في ليلة مطيرة .

* * *

وبسبب المرض أو العذر :

ذهب الإمام أحمد ، والقاضي حسين ، والخطابي ، والمتولي من الشافعية : إلي جواز الجمع تقديماً وتأخيراً ، بعذر المرض ، لأن المشقة فيه أشد من المطر ، قال النووى : وهو قوى في الدليل . وفي المغنى : والمرض المبيح للجمع هو : ما يلحقه بتأدية كل صلاة في وقتها مشقة وضعف .

وتوسع الحنابلة ، فأجازوا الجمع تقديماً وتأخيراً ، لأصحاب الأعذار ، وللخائف ، فأجازوه للمرضع التي يشق عليها غسل الثوب في وقت كل صلاة ، وللمستحاضة ، ولمن به سلس بول، ولعاجز عن الطهارة ، ولمن خاف علي نفسه ، أو ماله ، أو عرضه ، ولمن خاف ضرراً يلحقه في معيشته بترك الجمع(١) أ . هـ .

قال ابن تيمية : وأوسع المذاهب في الجمع مذهب أحمد ، فإنه جوز الجمع إذا كان شغل كما روي النسائي ذلك مرفوعاً إلي النبى ﷺ إلي أن قال : يجوز الجمع أيضاً للطباخ والخباز ونحوهما ممن يخشى فساد ماله .

* * *

فائدة هامة :

قال في المغنى : وإذا أتم الصلاتين في وقت الأولي ثم زال العذر بعد فراغه

---

(١) أنظر فقه السنة ج ٢ ص ٢٣٠ .

منهما قبل دخول وقت الثانية أجزأته ولم تلزمه الثانية في وقتها ، لأن الصلاة وقعت صحيحة مجزئة عما في ذمته وبرئت ذمته منها ، فلم تشتغل الذمة بها بعد ذلك ، ولأنه أدي فرضه حال العذر فلم يبطل بزواله بعد ذلك ، كالمتيمم إذا وجد الماء بعد فراغه من الصلاة .

* * *

وفائدة أخري :

وهى أنه يسن لمن جمع بين الصلاتين لسفر أو غيره أن يؤذن للأولي ويقيم لكل منهما ، لحديث جابر بن عبد الله : أن النبي ﷺ صلي الصلاتين بعرفة بأذان واحد وإقامتين ، وأتي المزدلفة فصلي بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما(١) ثم اضطجع حتي طلع الفجر . أخرجه مسلم والنسائي .

وبهذا : قالت الحنفية والشافعية والحنابلة ، وأبو ثور وعبد الملك بن الماجشون المالكي ، وقواه الطحاوي .

وقالت المالكية : يؤذن ويقيم لكل واحدة منهما غير أنه يخفض صوته بأذان الثانية مخافة التخليط علي الناس ..

وقال الثوري : يصليهما بإقامة واحدة ..

قال في الدين الخالص : والراجح القول الأول(٢) ..

* * *

(١) لم يسبح ، أى لم يتنفل بين المغرب والعشاء .
(٢) أنظر الدين الخالص ج ٤ ص ٧٩ .

وأما عن الرخصة الخامسة ، وهي :

التنفل راكباً

قال في الإحياء : كان رسول الله ﷺ : يصلي علي راحلته أينما توجهت به دابته ، وأوتر رسول الله ﷺ علي الراحلة(١) .

وليس علي المتنفل الراكب في الركوع والسجود إلاَّ الإيماء ، وينبغي أن يجعل سجوده أخفض من ركوعه ، ولا يلزمه الانحناء إلي حد يتعرض به لخطر بسبب الدابة ، فإن كان في مرقد فليتم الركوع والسجود فإنه قادر عليه .

وأما استقبال القبلة : فلا يجب لا في ابتداء الصلاة ولا في دوامها ، ولكن صوب الطريق بدلاً عن القبلة ، فليكن في جميع صلاته إما مستقبلاًللقبلة أو متوجهاً في صوب الطريق لتكون له جهة يثبت فيها ، فلو حرف دابته عن الطريق قصداً بطلت صلاته ، إلَّا إذا حرفها إلى القبلة ، ولو حرفها ناسياً وقصر الزمان لم تبطل صلاته ، وإن زال ففيه خلاف ، وإن جمحت به الدابة فانحرفت لم تبطل صلاته ، لأن ذلك مما يكثر وقوعه ، وليس عليه سجود سهو ، إذ الجماح غير منسوب إليه ، بخلاف ما لوحرف ناسياً ، فإنه يسجد للسهو بالإيماء .

وقد ثبت أن النبى ﷺ كان يصلي علي راحلته وهو مقبل من مكة إلي المدينة حيثما توجهت به وفيه نزلت : ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾(٢) . رواه أحمد ومسلم والترمذي وصححه .

* * *

---

(١) كما جاء في نص حديث صحيح رواه أحمد والشيخان ـــ وفيه بعد ذلك : « غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة » : أى المفروضة .

(٢) البقرة : ١١٥ .

وأما الرخصة السادسة ، وهي :

التنفل ماشـياً

ففي الإحياء يقول أيضاً : التنفل للماشي جائز في السفر ، ويومىء بالركوع والسجود ، ولا يقعد للتشهد ، لأن ذلك يبطل فائدة الرخصة ، وحكمه حكم الراكب ، لكن ينبغي أن يتحرم(١) بالصلاة مستقبلاً للقبلة ، لأن الانحراف في لحظة لا عسر عليه فيه ، بخلاف الراكب ، فإن في تحريف الدابة وإن كان العنان بيده نوع عسر ، وربما تكثر الصلاة فيطول عليه ذلك ، ولا ينبغي أن يمشي في نجسة رطبة عمداً ، فإن فعل بطلت صلاته ، بخلاف ما لو وطئت دابة الراكب نجاسة ، وليس عليه أن يشوش المشي علي نفسه بالاحتراز من النجاسات التي لا تخلو الطريق عنها غالباً ، وكل هارب من عدو ، أو سيل ، أو سبع ، فله أن يصلي الفريضة راكباً أو ماشياً كما ذكرناه في التنفل .

* * *

وفي فقه السنة(٢) ، أشار إلي حكم :

الصلاة في السفينة والقاطرة والطائرة

فقال : تصح الصلاة في السفينة والقاطرة والطائرة بدون كراهة حسبما تيسر للمصلي :

فعن ابن عمر ، قال : سئل النبي ﷺ عن الصلاة في السفينة ؟ قال : « صل فيها قائماً إلا أن تخاف الغرق » . رواه الدارقطني والحاكم علي شرط الشيخين .

---

(١) أى يكبر تكبيرة الإحرام وهو متوجه للقبلة ، ثم يسير بعد ذلك في اتجاهه وهو يصلي .
(٢) وكذا في الدين الخالص ج ٢ ص ١١٦ .

وعن عبد الله بن أبي عتبة ، قال : صحبت جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدري وأبا هريرة في سفينة ، فصلوا قياماً في جماعة ، أمهم بعضهم وهم يقدرون علي الجد(١) . رواه سعيد بن منصور .

وقد اتفق الأئمة الأربعة علي جواز الصلاة فرضاً وغيره في السفينة ونحوها ، فإن كانت واقفة أو مستقرة علي الأرض ، صحت الصلاة فيها وإن أمكنه الخروج منها اتفاقاً ، لأنها إذا استقرت كان حكمها حكم الأرض . ولا بد من الركوع والسجود والتوجه إلي القبلة في كل الصلاة . ويلزم أيضاً القيام في الفرض للقادر عليه .

وإن كانت سائرة فإن لم يمكنه الخروج إلي الشط وصلى قائماً بركوع وسجود ، أو قاعداً لعجزه عن القيام بأن كان يعلم أنه يدور رأسه لو قام : صحت صلاته اتفاقاً .

وإذا دارت السفينة ونحوها في أثناء الصلاة ، استدار إلي القبلة حيث دارت إن أمكنه ، لأنه قادر علي تحصيل هذا الشرط بغير مشقة ، فيلزمه تحصيله اتفاقاً . فإن عجز عن الاستقبال صلي إلي جهة قدرته ولا إعادة عليه عند الأئمة الثلاثة .

* * *

وأما عن الرخصة السابعة ، من رخص السفر ، وهي :

الفطر في رمضان

كما تشير الآية الكريمة التي يقول الله تبارك وتعالي فيها : ﴿ .. **فمن كان منكم مريضاً أو علي سفر فعدة من أيام أخر** .. ﴾(٢) .

---

(١) الجد بضم الجيم ، شاطىء النهر ، وكذا الجدة ، وبه سمى ثغر مكة : جدة .
(٢) البقرة : ١٨٤ .

وقد كان بعض الصحابة يصوم علي عهد رسول الله ﷺ ، وبعضهم يفطر متابعين في ذلك فتوي رسول الله ﷺ : قال حمزة الأسلمي : يا رسول الله .. أجد مني قوة علي الصوم في السفر فعل علي جناح ؟ فقال : « هى رخصة من الله تعالى ، فمن أخذ بها فحسن ، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه » رواه مسلم .

وعن أبي سعيد ، قال : سافرنا مع رسول الله ﷺ إلي مكة — ونحن صيام — قال : فنزلنا منزلاً ، فقال رسول الله ﷺ : « إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم ، فكانت رخصة فمنا من صام ، ومنا من أفطر ، ثم نزلنا منزلاً آخر ، فقال : إنكم مصبحو عدوكم ، والفطر أقوي لكم ، فأفطروا ، فكانت عزمة ، فأفطرنا ، ثم رأيتنا نصوم بعد ذلك مع رسول الله ﷺ في السفر » . رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

وقد اختلف الفقهاء في أيهما أفضل :

فرأى أبو حنيفة والشافعي ومالك : أن الصيام أفضل لمن قوي عليه ، والفطر أفضل لمن لا يقوي علي الصيام .

وقال أحمد : الفطر أفضل .

وقال عمر بن عبد العزيز : أفضلهما أيسرهما ، فمن يسهل عليه حينئذ ويشق عليه قضاؤه بعد ذلك فالصوم في حقه أفضل .

وحقق الشوكاني : فرأى أن من كان يشق عليه الصوم ، ويضره ، وكذلك من كان معرضاً عن قبول الرخصة ، فالفطر أفضل ، وكذلك من خاف علي نفسه العجب أو الرياء إذا صام في السفر فالفطر في حقه أفضل .

وما كان من الصيام خالياً عن هذه الأمور فهو أفضل من الإفطار .

وإذا نوى المسافر الصيام بالليل وشرع فيه جاز له الفطر أثناء النهار : فعن جابر أن رسول الله ﷺ خرج إلي مكة عام الفتح فصام حتي بلغ كراع الغميم(١)،

---

(١) اسم واد أمام عسفان .

وصام الناس معه ، فقيل له : إن الناس قد شق عليهم الصيام ، وإن الناس ينظرون فيما فعلت ، فدعا بقدح من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون إليه ، فأفطر بعضهم ، وصام بعضهم ، فبلغه أن ناساً صاموا ، فقال : « أولئك العصاة »(١) . رواه مسلم والنسائي والترمذي وصححه .

والسفر المبيح للفطر ، هو السفر الذي تقصر الصلاة بسببه ، ومدة الإقامة التي يجوز للمسافر أن يفطر فيها ، هي المدة التي يجوز له أن يقصر الصلاة فيها ، وقد تقدم جميع ذلك في مبحث قصر الصلاة .

وفي الإحياء ، يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ، حول تلك الرخصة السابعة :

فللمسافر أن يفطر إلاَّ إذا أصبح مقيمــا ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم .

وإن أصبح مسافراً صائماً ثم أقام فعليه الإتمام .

وإن أقام مفطراً فليس عليه الإمساك بقية النهار .

وإن أصبح مسافراً علي عزم الصوم لم يلزمه ، بل له أن يفطر إذا أراد ، والصوم أفضل من الفطر ، والقصر أفضل من الإتمام ، للخروج عن شبهة الخلاف ، ولأنه ليس في عهدة القضاء بخلاف المفطر فإنه في عهدة القضاء ، وربما يتعذر عليه ذلك بعائق فيبقي في ذمته إلاَّ إذا كان الصوم يضربه فالإفطار أفضل .

ثم يقول الإمام الغزالي بعد ذلك معلقاً علي جميع تلك الرخص التي وقفنا عليها :

فهذه سبع رخص ، تعلق ثلاث منها بالسفر الطويل ، وهى : القصر ، والفطر ، والمسح ثلاثة أيام .

---

(١) لأنه عزم عليهم فأبوا وخالفوا الرخصة .

وتتعلق اثنتان منها بالسفر طويلاً كان أم قصيراً . وهما : سقوط الجمعة ، وسقوط القضاء عند أداء الصلاة بالتيمم .

وأما صلاة النافلة ، ماشياً وراكباً ففيها خلاف والأصح جوازه في القصير .

والجمع بين الصلاتين : فيه خلاف ، والأظهر اختصاصه بالطويل .

وأما صلاة الفرض راكباً وماشياً للخوف فلا تتعلق بالسفر ، وكذا أكل الميتة ، وكذا أداء الصلاة في الحال بالتيمم عند فقد الماء ، بل يشترك فيها الحضر والسفر مهما وجدت أسبابها .

* * *

فليذكر الأخ القارىء كل تلك الأحكام التي وقفنا عليها ، والتي تتعلق بتلك الرخص التى شرعت كما عرفنا رحمة بالمسافر وتفضلاً من الله سبحانه وتعالي عليه .

مع ملاحظـــة :

أن الرخصة ، معناها : تسهيل أمر صعب لضرورة شرعية ، مثل جعل الصلاة الرباعية ركعتين في السفر .

وأن العزائم ، جمع عزيمة ، وهي : الأمر المطلوب فعله أو تركه ، علي جهة الوجوب .

وهناك ملاحظة أخرى ، أو حكم آخر ، أرى ضرورة أن تقف عليه الأخت المسلمة ، وأنت كذلك كزوج ، أو محرم لها ، وهو :

حكم سفر المرأة :

وخلاصة الإجابة علي هذا ، هو أنه لا يحل للمرأة السفر ولو للحج إلّا مع محرم أو زوج .

فعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفراً يكون ثلاثة أيام فصاعداً إلاَّ ومعها أبوها ، أو أخوها ، أو زوجها ، أو ابنها ، أو ذو محرم منها » رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلّا مع ذى محرم منها — وفي رواية : مسيرة يوم — وفي أخرى — مسيرة ليلة إلّا ومعها رجل ذو محرم منها » . رواه مالك والبخاري ومسلم ، وغيرهم ، وفي رواية لأبي داوود وابن خزيمة : « أن تسافر بريداً »(١) .

فهذه الأحاديث تشمل كل سفر ومنه الحج ، ولا تعارض(٢) آية : ﴿ ولله علي الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾(٣) .

لأن الأحاديث تضمنت أن المحرم في حق المرأة من جملة الاستطاعة علي السفر المطلقة في الآية .

والمحرم : كل من حرم عليه نكاح المرأة علي التأبيد لسبب مباح لحرمتها .

فبقيد التأبيد ، خرجت أخت امرأته ، وعمتها ، وخالتها ، وبنتها إذا فارق الأم قبل الدخول .

وبقيد لسبب مباح ، خرجت أم الموطوءة بشبهة وبنتها ، فإنه يحرم نكاحها علي التأبيد لكن لا لسبب مباح ، فإن وطء الشبهة لا يوصف بالإباحة ولا الحرمة ولا غيرهما من الأحكام الخمسة ، لأنه ليس فعلاً مكلفاً به .

وبقيد لحرمتها ، خرجت الملاعنة فإنها حرام علي التأبيد لا لحرمتها ، بل تغليظـا علي المتلاعنين .

---

(١) أى أربعة فراسخ ، والفرسخ : ثلاثة أميال ، والميل : ألف باع .
(٢) كما يقول في الدين الخالص ج ٤ .
(٣) آل عمران : ٩٧ .

واستثنى الحنابلة المحرم الكافر ، فإنه لا يعد محرماً لقريبته المسلمة عندهم ، لأنه لا يؤمن أن يفتنها عن دينها .

* * *

قال في الدين الخالص ، تحت عنوان :

(فائـــدة)

يستحب لمن له أكثر من زوجة وأراد السفر بإحداهن أن يقرع بينهن تطييباً لخاطرهن ، فمن خرج سهمها أخذها معه لحديث عائشة : أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان إذا أراد أن يخرج سفراً — يعني إلي سفر — أقرع بين أزواجه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه . أخرجه أحمد والبخاري .

وفي رواية : كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه . أخرجه الشيخان وأبو داوود وابن ماجة .

ثم يقول في الدين الخالص :

وكيفية القرعة أن يؤخذ خاتم هذا ، وخاتم هذا ، ويوضعان في جراب أو نحوه فيخرج واحد منهما .

وقيل : يكتب اسم كل في ورقة وتطوي ثم توضع في جراب ونحوه ، فمن خرجت ورقته فهو صاحب القرعة .

* * *

وبعد ، أخا الإسلام : إذا كان لنا أن نعود الآن ، وبعد أن وقفنا علي المعنى المراد من قول الرسول ﷺ : « السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه .. » . وتعرفنا من خلال هذا المعني علي فضل السفر وآدابه وأذكاره ، كما عرفنا رخص السفر ، وما يتعلق بهذا الموضوع من أدلة نقلية

وعقلية ، بالإضافة إلي الأحكام الموضوعية التي وقفنا عليها والتي تتعلق بكل هذا من أوله إلي آخره علي ضوء المراجع الصحيحة التي من أهمها : الفقه علي المذاهب الأربعة ، والدين الخالص ، وفقه السنة ، والفقه الواضح ، وغير ذلك من كتب الفقه المعتمدة .

إذا كان لنا أن نعود بعد ذلك إلي الوصية لكى نستكمل الجزء المتبقي منها ، وهو قول الرسول ﷺ :

« .. فإذا قضى أحدكم نهمته من سفره : فليعجل الرجوع إلي أهله » .

فالمعني الإجمالي ، هو : أنه من الواجب علي رب الأسرة المسافر ، إذا قضى نهمته ـ أى حاجته ـ من سفره : أن يعجل بالرجوع إلي أهله ، لأنه مسئول عنهم ولابد أن يعود سريعاً إليهم ، حتي يباشر مصالحهم ، ويسهر علي راحتهم :

ففي الحديث الشريف : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي »(١) .

وفي الحديث: « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »(٢) .

وقد وردت أحاديث كثيرة ترغب الإنسان في الإنفاق علي أهله ، فإليك بعضها :

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به علي مسكين ، ودينار أنفقته علي أهلك ، أعظمها أجراً الذي أنفقته علي أهلك » رواه مسلم .

وعن أبي مسعود البدرى رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « إذا أنفق الرجل علي أهله نفقة يحتسبها فهي له صدقة » . متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، قال : قال رسول

---

(١) رواه الترمذي .

(٢) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم ، عن ابن عمر .

الله ﷺ : « كفي بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » حديث صحيح رواه أبو داوود وغيره .

ورواه مسلم في صحيحه بمعناه ، قال : « كفي بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته » .

وعن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه في حديثه الطويل أن رسول الله ﷺ قال : « إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلاً أجرت بها ، حتي ما تجعل في في[1] امرأتك » متفق عليه .

* * *

فإذا كان الأخ المسلم المسافر سينفذ ــ بعون الله وتوفيقه ــ وصية الرسول ﷺ بمجرد قضاء نهمته من سفره :

فإنني أحب كذلك ، أن أزوده ببعض المستحبات ، التي ذكرها الإمام محمود خطاب السبكي رحمه الله تعالى ، تحت عنوان :

آداب الرجوع من السفر

يستحب لمن قدم من السفر : أن يبدأ بالمسجد فيصلي فيه ركعتي القدوم ، وأن يجلس من يقصد للسلام عليه في مكان بارز سهل علي زائريه ، وألاً يأتي أهله بغتة .

لقول جابر بن عبد الله : كنت مع رسول الله صلي الله عليه وعلي آله وسلم في سفر فلما قدمنا المدينة ، قال لي : « ادخل المسجد فصل ركعتين » . أخرجه الشيخان .

ولقول كعب بن مالك : « كان النبي صلي الله عليه وعلي آله وسلم ،

---

(١) أى فم امرأتك .

لا يقدم من سفر إلا نهاراً[1] في الضحى ، فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلي فيه ركعتين ، ثم جلس فيه فيأتيه الناس فيسلمون عليه » أخرجه أحمد والشيخان .

ولقول أنس بن مالك : « كان النبي صلى الله عليه وعلي آله وسلم لا يطرق أهله ليلاً ، كان يدخل عليهم غدوة[2] أو عشية »[3] . أخرجه أحمد والشيخان .

ولحديث جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ ، قال له : « إذا دخلت ليلاً : فلا تدخل علي أهلك حتي تستحد المغيبة[4] وتمتشط الشعثة[5] وإذا دخلت فعليك الكيس[6] الكيس » أخرجه البخاري ، وأبوداوودومسلم والترمذي ، والنسائى ، وأحمد .

ولحديث ابن عمر : « أن رسول الله ﷺ نزل العقيق[7] فنهي عن طروق النساء الليلة التي يأتي فيها ، فعصاه فتيان فكلاهما رأى ما يكره » . أخرجه أحمد بسند جيد ، وأخرجه الترمذي عن ابن عباس قال : لما نهاهم النبى ﷺ أن يطرقوا النساء ليلاً طرق رجلان بعد النهى فوجد كل واحد منهما مع امرأته رجلاً . أ هـ .

فقد أفادت هذه الأحاديث : أنه يكره لمن طال سفره أن يقدم علي امرأته ليلاً بغتة .

فأما من كان سفره قريباً تتوقع امرأته إتيانه ليلاً ، فلا بأس ، ففي رواية : « إذا أطال الرجل الغيبة » .

وكذا إذا علمت امرأته وأهله وقت قدومه فلا بأس بقدومه متي شاء ،

---

(١) التقييد بالنهار باعتبار الغالب ، وإلا ففي الحديث بعده : « كان يدخل عليهم غدوة أو عشية » .
(٢) الغدوة : ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس .
(٣) العشية : ما بعد الزوال إلي الغروب .
(٤) أي من غاب عنها زوجها . والاستحداد : معناه الاستعداد بالنظافة لتستقبله علي أحسن حال .
(٥) أى من تلبد شعرها .
(٦) الكيس : بفتح فسكون في الأصل العقل : أريد به هنا الجماع .
(٧) العقيق : موضع قرب المدينة مما يلي الحرة إلي منتهي البقيع .

لزوال سبب النهى وهو مفاجأة أهله قبل أن يتأهبوا لقدومه :

ويؤيده ما تقدم في حديث جابر من قوله ﷺ : « فلا تدخل علي أهلك حتي تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة » .

ويستحب لمن قدم من سفر ودخل بيته أن يقول ، ما في حديث ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا رجع من سفره فدخل علي أهله قال : « توباً توبا[1] ، لربنا أوبا[2] لا يغادر حوبا »[3] . أخرجه ابن السنى ، وكذا البزار وأبو يعلي ، بلفظ : فإذا دخل علي أهله ، قال : « أوباً أوبا ، لربنا توبا ، لا يغادر علينا حوبا » وأخرجه أحمد ، والطبراني في الكبير بسند رجاله رجال الصحيح .

* * *

ويستحب أن يقال لمن قدم من سفر : الحمد لله الذي سلمك ، الحمد لله الذي جمع الشمل بك ، ونحو ذلك :

فقد قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ في غزوة ، فلما دخل استقبلته فأخذت بيده ، قلت : الحمد لله الذي نصرك وأعزك وأكرمك . أخرجه ابن السني .

* * *

وأخيراً أخا الإسلام :

وبعد أن وقفنا علي أنواع السفر الدنيوي وآدابه ، وأذكاره وأحكامه :

---

(١) توباً : مصدر تاب منصوب علي تقدير : تب علينا توبا ، أو نسألك توباً
(٢) أوباً : من آب إذا رجع .
(٣) الحوب : الإثم .

أريد بعد ذلك ، أن أذكرك ونفسي ببعض المواعظ الهامة التي تتعلق بالسفر الأخروي الطويل ، الذي أشار إليه ، أو تحدث عنه الصحابي الجليل أبو الدرداء رضى الله عنه ، يوم أن وقف أمام الكعبة قائلاً لأصحابه : « أليس إذا أراد أحدكم سفراً يستعد له بزاد ؟ قالوا : نعم . قال : فسفر الآخرة أبعد مما تسافرون . فقالوا : دلنا على زاده . فقال : حجوا حجة لعظائم الأمور ، وصلوا ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور ، وصوموا يوماً شديداً حره لطول يوم النشور » .

* * *

وأولى تلك المواعظ التي أريد أن أزودك ونفسي بها لهذا السفر الطويل :

هي تلك الخطبة الجامعة التي يقول فيها أفضل الوعاظ صلوات الله وسلامه عليه : « أيها الناس .. إن لكم معالم[1] فانتهوا إلي معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلي نهايتكم ، إن المؤمن بين مخافتين ، بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله تعالي قاض عليه فيه ، فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت . والذي نفس محمد بيده ، ما بعدالموت من مستعتب[2] ولا بعد الدنيا من دار إلاّ الجنة أو النار » . ذكره أبو بكر الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن .

وثانية تلك المواعظ ، هي تلك الوصية الجامعة التي يقول فيها لقمان الحكيم لولده : « يا بني إنك منذ نزلت إلي الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة ، فدار أنت إليها تسير ، أقرب من دار أنت عنها ترحل » .

---

(١) جمع معلم ، كمذهب ، وهو في الأصل الدليل في الطريق ، والمراد به هنا حدود الشريعة المطهرة .

(٢) أي ليس بعد الموت استرضاء ، لأنه وقت جزاء لا وقت عمل : « فاليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » كما جاء في نص حديث شريف .

ومن وصاياه أيضاً عليه السلام لولده :

« يا بني إني موصيك بثمانية أمور ، إن أنت عملت بها كنت سعيداً في الدنيا والآخرة

احفظ قلبك في الصلاة ، واحفظ نظرك في بيوت الناس ، واحفظ لسانك في مجلس الناس ، واحفظ بطنك من حلقومك .

واذكر اثنين ، وانس اثنين : اذكر الله ، والموت . وانس إحسانك إلي الناس ، وإساءتهم إليك » .

* * *

وثالث تلك المواعظ ، هي كلام جامع لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، يقول فيه : « إن لكل سفر زاداً لا محالة ، فتزودوا ــ لسفركم من الدنيا إلي الآخرة ــ التقوي ، وكونوا كمن عاين ما أعد من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ، فوالله ما بسط أملاً من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ، ولا يمسي بعد صباحه ، ولربما كانت بين ذلك خطفات المنايا .. » .

ومن وصاياه أيضاً رضى الله عنه : « إن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً ، ولم يدع شيئاً من أموركم سدى ، إن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم والقضاء بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله عز وجل ، وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض ، فاشتر قليلاً بكثير ، وفانياً بباق ، وخوفاً بأمن .. » .

ومن كلامه أيضاً رضى الله عنه : « .. ألا إن الدنيا بقاؤها قليل ، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير ، وشابها يهرم ، وحيها يموت ، فلا يغرنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها ، فالمغرور من اغتر بها .

أين سكانها الذين بنوا مدائنها ، وشقوا أنهارها وغرسوا أشجارها ، وأقاموا فيها أياماً يسيرة ؟ غرتهم بصحتهم فاغتروا بنشاطهم ، فركبوا المعاصى ،

إنهم كانوا والله في الدنيا مغبوطين بالأموال ، علي كثرة المنع عليه محسودين علي جمعه ، ما صنع التراب بأبدانهم ، والرمل بأجسادهم ، والديدان بعظامهم وأوصالهم ، كانوا في الدنيا علي أسرة ممهدة ، وفرش منضودة ، بين خدم يخدمون ، وأهل يكرمون ، وجيران يعضدون ، ... ثم لم يلبثوا والله يسيراً ، حتي عادت العظام رميماً ، قد فارقوا الحدائق ، وساروا بعد السعة إلي المضائق ، وقد تزوجت نساؤهم وترددت في الطرق أبناؤهم ، وتوزعت الورثة ديارهم وتراثهم ، فمنهم والله الموسع له في قبره ، الغض الناضر فيه المتنعم بلذته .. » .

* * *

ورابعة تلك المواعظ ، هي ما قاله إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه ، عندما سئل : لم زهدت في الدنيا يا إبراهيم ؟ فقال : لثلاث :

الأول : رأيت الطريق طويلاً وليس معي زاد .

الثاني : رأيت القبر موحشاً وليس معي مؤنس .

الثالث : رأيت الجبار قاضياً ، وليس معي حجة ، ولا من يدافع عني .

* * *

فمن كل تلك المواعظ وغيرها من المواعظ النافعة ، يتضح لنا : أننا جميعاً وبدون استثناء في سفر إلي الله تبارك وتعالي مهما طالت إقامتنا في تلك الحياة الأولي التي أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء :

كما يقول سيدنا علي رضي الله عنه ، أن رجلاً اشترى بيتاً ، ثم ذهب إليه رضي الله عنه ، ليكتب له حجة هذا البيت ، فكتب عليه رضوان الله ، يقول : « هذه الدار اشتراها ميت من ميت : الحد الأول : إلي الموت ، والحد الثاني : إلي القبر ، والحد الثالث : إلي الحساب ، والحد الرابع : إما

إلي الجنة وإما إلي النار » .

فإذا كنا جميعاً — كما اتفقنا — في سفر إلي الله ، وإذا كنا بعد انتقالنا إلي الدار الآخرة . سنحتاج — هناك — إلى الزاد الحقيقي الذي سيكون عوناً لنا : ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتي الله بقلب سليم** ﴾[1] ، ﴿ .. **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ..** ﴾[2] ، ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه** ﴾[3] ، ﴿ **يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله** ﴾[4] ، ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾[5] .

فلا بد إذن ، وأن نعد أنفسنا لهذا اليوم ، قبل فوات الأوان ، وقبلَ أن نقول كما قال القائل الذي ظل نائماً ، وعندما جاءه الموت قال : ﴿ .. **رب لولا أخرتني إلي أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون** ﴾[6]

ولابد كذلك ، وأن ننفذ وصية الرسول ﷺ التي يقول فيها لأبي ذر رضى الله عنه : « أحكم السفينة فإن البحر عميق ، واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كئود[7] ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير » .

والله أسأل أن يبارك لنا جميعاً في أسفارنا ، وأن يختم لنا جميعاً بالإيمان ..

آمين .. آمين .. آمين .

* * *

---

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) النبأ : ٤٠ .
(٣) عبس : ٣٤ — ٣٧ .
(٤) الانفطار : ١٩ .
(٥) المطففين : ٦ .
(٦) المنافقون : ١٠ ، ١١ .
(٧) العقبة : المرقي الصعب ، الطريق في أعلي الجبال ، وكئود : أي شاقة المصعد ، صعبة المرتقي .

الوصية السابعة والثلاثون

عن أبي ذر جُنْدُب بن جُنَادَةَ وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال:

اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ.

رواه الترمذي. وقال حديث حسن. وفي بعض النسخ حسن صحيح.

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لهذا الحديث الجامع ، أو لتلك الوصية العظيمة الجامعة التي أوصي بها الرسول ﷺ أبا ذر ومعاذاً رضى الله عنهما ، والتي يحتمل أن تكون لأبي ذر وسمعها معاذ ، أو لمعاذ وسمعها أبو ذر ، أو لغيرهما وسمعاها ، وأفرد الضمير علي تقدير كل ، أو لكل من يتأتي توجيه الأمر إليه ليعم كل مأمور حتي لا يختص بها مخاطب دون آخر ، من تلك الأمة المحمدية إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولما كانت هذه الوصية ــ كما قرأت في شروحها الكثيرة ــ تشتمل علي ثلاثة حقوق : حق الله ، وحق المكلف ، وحق العباد :

فإنني أرى أن أقف معك من خلال شرحي لتلك الوصية ، علي تلك الحقوق التي أولها وأهمها :

حق الله

وهو قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « اتق الله حيثما كنت » : أى في الخلوة ، والجلوة ، والشدة ، والرخاء . أو في أى زمان أو مكان كنت فيه ، حتي تكون فعلاً من الذين يخشون الله .

وحسبك لكي تنفذ هذا أن تستحضر في قلبك أن الله تعالي مطلع عليك في جميع أحوالك ، كما تشير الآية الكريمة التي يقول الله تبارك وتعالي فيها : **﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدني من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم ﴾**[1] .

وهذا يستلزم أن يكون هناك حياء من الله تعالي ، كما جاء في وصية لسيدنا علي كرم الله وجهه يقول فيها لولده الحسن عليه رضوان الله :

---

(١) المجادلة : ٧ .

يا بني .. استح من ثلاث : استح من مطالعة الله إياك وأنت مقيم علي ما يكره ، واستح من الحفظة الكرام الكاتبين ، واستح من صالحي المؤمنين .

ويقول وهب مشيراً إلي هذا : الإيمان عريان ، ولباسه التقوي ، وريشه الحياء ، ورأس ماله العفة .

ومن أجمل ما قرأت في هذا — أيضاً — أن ثاران بن لقمان قال لأبيه ذات يوم : أى الخصال خير ؟ قال : الدين . قال : فإن كانت اثنتين ؟ قال : الدين والمال . قال : فإن كانت ثلاثاً ؟ قال : الدين والمال والحياء . قال : فإن كانت أربعاً ؟ قال : فالثلاثة وحسن الخلق . قال : فإن كانت خمساً ؟ قال : فالأربعة والسخاء . قال : فإن كانت ستاً ؟ قال : يا بني .. إذا اجتمعت فيه الخمس خصال ، فهو تقي نقي ، ولله ولى ، ومن الشيطان بري .

وحتى تكون إن شاء الله من الأتقياء حقاً ، فإنني أرى أن أقف معك كذلك علي بعض ما قيل في وصف التقوي :

فقد سئل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن التقوى ، فقال : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والقناعة بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقال بعضهم : تقوى الله تعالي أن لا يراك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك .

والتقوي : وصية الله للأولين والآخرين ، قال الله تعالي : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتو الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾(١) .

وأصل التقوي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه ، فتقوي العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه : من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك ، وهو فعل طاعته . واجتناب معاصيه .

وتارة تضاف التقوي إلي اسم الله عز وجل كقوله تعالي : ﴿ واتقوا الله

---

(١) النساء : ١٣١ .

الذي إليه تحشرون ﴾(١) وقوله تعالي : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون ﴾(٢) .

فإذا أضيفت التقوي إليه سبحانه وتعالي فالمعني اتقوا سخطه وغضبه وهو أعظم ما يتقي .

وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي : قال تعالي:﴿ويحذركم الله نفسه ﴾(٣) وقال تعالي : ﴿ هو أهل التقوي وأهل المغفرة ﴾(٤) : فهو سبحانه أهل أن يخشي ويهاب ويجل ويعظم في صدور عباده حتي يعبدوه ويطيعوه لما يستحقه من الإجلال والإكرام وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش وشدة البأس : وفي الترمذي عن أنس عن النبي ﷺ في هذه الآية : ﴿ هو أهل التقوي وأهل المغفرة ﴾ : قال الله تعالي : أنا أهل التقوي ، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً آخر فأنا أهل أن أغفر له .

وتارة تضاف التقوي ، إلي عقاب الله وإلي مكان ـــ عقابه ـــ كالنار ، وإلي زمانه : قال تعالي : ﴿ واتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴾(٥) وقال تعالي : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين ﴾(٦) ، وقال تعالي : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلي الله ﴾(٧) ، وقال تعالي : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾(٨) .

ويدخل في التقوي الكاملة : فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات ، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات ، وهي أعلي درجات التقوي ، قال الله تعالي : ﴿ الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى

---

(١) المائدة : ٩٦ .
(٢) الحشر : ١٨ .
(٣) آل عمران : ٢٨ .
(٤) المدثر : ٥٦ .
(٥) آل غمران : ١٣١ .
(٦) البقرة : ٢٤ .
(٧) البقرة : ٢٨١ .
(٨) البقرة : ٤٨ .

للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾(١) ، وقال تعالي : ﴿ .. **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال علي حبه ذوي القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾**(٢) .

قال معاذ بن جبل : ينادي يوم القيامة : أين المتقون ؟ فيقومون في كنف من الرحمن لا يحتجب منهم ولا يستتر ، قالوا له : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله في العبادة .

وقال الحسن : المتقون اتقوا ما حرم الله عليهم وأدوا ما افترض عليهم .

وقال عمر بن عبد العزيز : ليس تقوي الله بصيام النهار ولا بقيام الليل ولا التخليط فيما بين ذلك ، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله ، فمن رزق بعد ذلك خيراً فهو خير إلى خير .

وقال طلق بن حبيب : التقوي أن تعمل بطاعة الله علي نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله علي نور من الله تخاف عقاب الله .

وقال أبو الدرداء : تمام التقوي أن يتقى اللهَ العبدُ حتي يتقيه من مثقال ذرة ، وحتي يترك بعض ما يري أنه حلال خشية أن يكون حراماً ، يكون حجاباً بينه وبين الحرام ، فإن الله قد بين للعباد الذي يصيرهم إليه ، فقال : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾(٣) . فلا تحقرن شيئاً من الخير أن تفعله ولا شيئاً من الشر أن تتقيه .

وقال الحسن : ما زالت التقوي بالمتقين حتي تركوا كثيراً من الحلال مخافة

---

(١) البقرة : ١ — ٤ .
(٢) البقرة : ١٧٧ .
(٣) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

الحرام .

وقال موسي بن أعين : المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام فسماهم الله متقين .

وقال ابن مسعود ، في قوله تعالى : ﴿ .. **اتقوا الله حق تقاته** ﴾(١) ، قال : أن يطاع فلا يعصي ، ويذكر فلا ينسي ، وأن يشكر فلا يكفر .

وقد يغلب استعمال التقوي علي اجتناب المحرمات ، كما قال أبو هريرة وكان قد سئل عن التقوى ، فقال : هل أخذت طريقاً ذا شوك ؟ قال : نعم ، قال : فكيف صنعت ؟ قال : إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه ، قال : ذاك التقوى .

وأخذ هذا المعنى ابن المعتمر ، فقال :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقي
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

* * *

فإذا كانت تلك هى التقوى ـ بمعناها الكبير ـ فكن منفذاً لها علي هذا الأساس الذي وقفت عليه ، وحسبك أن تعلم بأن النبى ﷺ قد أوصى بها فقال في حديث أبي ذر الطويل الذى أخرجه ابن حبان وغيره : « أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله » .

وخرج الإمام أحمد من حديث أبى سعيد الخدرى ، قال : « قلت يا رسول الله .. أوصني ، قال : أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام » وأخرجه غيره ولفظه : « عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير » .

---

(١) آل عمران : ١٠٢ .

وفي الترمذي عن يزيد بن سلمة « أنه سأل النبي ﷺ ، قال : يا رسول الله .. إني سمعت منك حديثاً كثيراً فأخاف أن ينسيني أوله آخره فحدثني بكلمة تكون جماعاً ، قال : اتق الله فيما تعلم » .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في خطبته : أما بعد .. فإني أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الألحاف بالمسألة ، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته ، فقال : **﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين ﴾**(١) .

ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر دعاه فوصاه بوصيته ، وأول ما قال له : اتق الله يا عمر .

وكتب عمر إلي ابنه عبد الله : أما بعد .. فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل فإنه من اتقاه وقاه ، ومن أقرضه جزاه ، ومن شكره زاده ، واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك .

واستعمل علي بن أبي طالب رجلاً على سرية فقال له : أوصيك بتقوى الله عز وجل الذى لا بد لك من لقاه ولا منتهى لك دونه وهو يملك الدنيا والآخرة .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل : أوصيك بتقوى الله عز وجل التى لا يقبل غيرها ولا يرحم إلاَّ أهلها ولا يثيب إلاَّ عليها ، فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل ، جعلنا الله وإياك من المتقين .

ولما ولى ــ عمر بن عبد العزيز ــ خطب فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله خلف .

وقال رجل ليونس بن عبيد : أوصني ، فقال : أوصيك بتقوى الله

---

(١) الأنبياء : ٩٠ .

والإحسان ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وقال له رجل يريد الحج : أوصني ، فقال له : اتق الله . فمن اتقى الله فلا وحشة عليه .

وقيل لرجل من التابعين عند موته : أوصنا ، فقال : أوصيكم بخاتمة سورة النحل : ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾(١) .

وكتب رجل من السلف إلى أخ له : أوصيك بتقوى الله فإنها من أكرم ما أسررت ، وأزين ما أظهرت ، وأفضل ما ادخرت ، أعاننا الله وإياك عليها وأوجب لنا ولك ثوابها .

وكتب رجل منهم إلى أخ له : أوصيك وأنفسنا بالتقوى ، فإنها خير زاد الآخرة والأولى ، واجعلها إلى كل خير سبيلك ، ومن كل شر مهربك ، فقد تكفل الله عز وجل لأهلها بالنجاة مما يحذرون ، والرزق من حيث لا يحتسبون .

وقال شعبة : كنت إذا أردت الخروج قلت للحكم : ألك حاجة ، فقال : أوصيك بما أوصى به النبي ﷺ معاذ بن جبل : « اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى » .

وقال أبو ذر : « قرأ رسول الله ﷺ هذا الآية : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً** ﴾(٢) ثم قال : يا أبا ذر .. لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم » .

* * *

هذا : وإذا كان المعنى المراد من قول الرسول ﷺ : « اتق الله حيثما

---

(١) النحل : ١٢٨ .

(٢) الطلاق : ٢ .

كنت » — كما عرفت قبل ذلك — هو تقوى الله تعالى في السر والعلانية حيث يراك الناس وحيث لا يرونك :

فقد ورد في هذا من حديث أبي ذر رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال له : « أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيته » .

كما كان النبى ﷺ يقول في دعائه : « أسألك خشيتك في الغيب والشهادة » .

وإلى هذا المعنى يشير الله تعالى في قوله : ﴿ **واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾(١) .

وكان بعض السلف يقول لأصحابه : زهدنا الله وإياكم في الحرام زهد من قدر عليه في الخلوة ، فعلم أن الله يراه فتركه من خشيته .

وقال الشافعى : أعز الأشياء ثلاثة : الجود من قلة ، والورع من خلوة ، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف .

وكتب ابن السماك الواعظ إلى أخ له : أما بعد .. أوصيك بتقوى الله الذى هو نجيك في سريرتك ، ورقيبك في علانيتك ، فاجعل الله من بالك علي كل حال في ليلك ونهارك ، وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك ، واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلي سلطان غيره ، ولا من ملكه إلى ملك غيره ، فليعظم منه حذرك ، وليكثر منه وجلك والسلام .

وقال أبو الجلد : أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : قل لقومك : ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى ، إن كنتم ترون أنى لا أراكم فأنتم مشركون بى ، وإن كنتم ترون أنى أراكم فلم تجعلونى أهون الناظرين إليكم .

وكان وهب بن الورد يقول : خف الله علي قدر قدرته عليك ، واستح منه علي قدر قربه منك .

---

(١) النساء : ١ .

وقال له رجل : عظني ، فقال له : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، واتق الله حيثما كنت ، و :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل : على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

واعلم ، أن التقوى ثلاث مراتب :

الأولى : التقوى من العذاب المخلد صاحبه ، وذلك بالتبرى من الكفر ، وعليه قوله تعالى : ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾(١) فإن المراد بها لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله .

والثانية : التجنب عن كل ما فيه لوم ، حتى الصغائر عند قوم ، وهذا هو المعنى المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ **ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم** ﴾(٢) .

والثالثة : أن يتنزه العبد عن كل ما يشغل سره عن الحق ، وهو المعنى المراد بقوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته** ﴾(٣) .

واعلم : أن التقوي ــ كما يقول الإمام الغزالى رحمه الله تعالى ــ : كنز عزيز فإن ظفرت به : فكم تجد فيه من جوهر ورزق كريم ، وملك عظيم ، لأن خيرات الدنيا والآخرة جمعت فيها .

وتأمل معى في ختام حق الله قول القائل :

من عرف الله فلم تغنه معرفة الله فذاك الشقى
ما يصنع العبد بعز الغنى والعز كل العز للمتقى

---

(١) الفتح : ٢٦ .
(٢) المائدة : ٦٥
(٣) آل عمران : ١٠٢ .

وقول الآخر :

واتق الله فتقوى الله ما جاورت قلب امرىء إلا وصل
ليس من يقطع طرقاً بطلا إنما من يتقي الله البطل

* * *

وأما عن الحق الثاني ، وهو :

حق المكلف

الذي أوصى به الرسول ﷺ في قوله : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » .

فحسبك أولاً لكى تقف علي أبعاد هذا الحق ، وتفهم المراد منه : أن تقف على المعنى المراد من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾[1] .

قال القرطبي بتصرف واختصار :

قوله تعالى : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار** ﴾ : لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلاة المفروضة ، وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان ، وإليها يفزع في النوائب ، وكان النبى ﷺ إذا حزبه[2] أمر فزع إلى الصلاة ..

وقوله تعالى : ﴿ **طرفى النهار** ﴾ : قال مجاهد : الطرف الأول صلاة الصبح ، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر . وقيل : الطرفان الصبح والمغرب ، وقيل : الطرف الثاني العصر وحده . وقيل : الطرفان الظهر والعصر ، والزلف المغرب والعشاء والصبح . وحكى الماوردى : أن الطرف الأول صلاة الصبح باتفاق .

---

(١) هود : ١١٤ .

(٢) حزبه : نزل به هم ، أو أصابه غم .

وقوله تعالى : ﴿ **وزلف من الليل** ﴾ أى في زلف الليل ، والزلف ساعات القريبة بعضها من بعض .. وقيل : الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس ، فعلى هذا يكون المراد بزلف الليل صلاة العتمة ، وهو قول ابن عباس . وقال الحسن : المغرب والعشاء ، وقيل : المغرب والعشاء والصبح .

وقوله تعالى : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ : ذهب جمهور من الصحابة والتابعين إلي أن الحسنات ههنا هى الصلوات الخمس . وقال مجاهد : الحسنات ، قول الرجل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر . قال ابن عطية : وهذا علي جهة المثال في الحسنات ، والذى يظهر أن اللفظ عام في الحسنات ، خاص في السيئات ، لقول الرسول ﷺ : « ما اجتنبت الكبائر » .

ثم يقول القرطبي : سبب النزول يعضد قول الجمهور ، نزلت في رجل من الأنصار ، قيل : هو أبو اليسر بن عمرو . وقيل : اسمه عباد ، خلا بامرأة فقبلها وتلذذ بها فيما دون الفرج .

روى الترمذى عن عبد الله ، قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال : إنى عالجت امرأة في أقصى المدينة ، وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها وهأنذا فاقض في ما شئت ، فقال له عمر : لقد سترك الله ! لو سترت علي نفسك ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً ، فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه فتلا عليه : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ . فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ قال : « لا ، بل للناس كافة » . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وأخرج أيضاً عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة حرام ، فأتي النبى ﷺ فسأله عن كفارتها ، فنزلت : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ فقال الرجل : ألى هذه يا رسول الله ؟ قال : « لك ولمن عمل بها من أمتى » . قال الترمذي : هذا حديث صحيح .

وروى عن أبي اليسر ، قال : أتتني امرأة تبتاع تمراً ، فقلت : إن في البيت تمراً أطيب من هذا ، فدخلت معي في البيت ، فأهويت إليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت له ، فقال : استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً ، فلم أصبر ، فأتيت عمر فذكرت ذلك له ، فقال : استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً ، فلم أصبر ، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال : « أخلفت غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا » ؟! حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة ، حتى ظن أنه من أهل النار . قال : وأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى الله إليه : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ . قال أبو اليسر : فأتيته فقرأها على رسول الله ﷺ ، فقال أصحابه : يا رسول الله .. ألهذا خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : « بل للناس عامة » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

وقد روى أن النبى ﷺ أعرض عنه ، وأقيمت صلاة العصر ، فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام بالآية فدعاه فقال له : « أشهدت معنا الصلاة » ؟ قال : نعم ، قال : « اذهب فإنها كفارة لما فعلت » .

وقوله تعالى : ﴿ **ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ : أى القرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر ، وخص الذاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بالذكرى .

* * *

فالمراد بالحسنات في تلك الآية ، هو : الصلوات الخمس .

والمراد بالسيئات : الصغائر .

بدليل قول الرسول ﷺ : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، كفارة لما بينهن ، ما لم تغش الكبائر » . رواه مسلم .

وقد شبه النبى ﷺ الصلوات الخمس في محوها للذنوب ـــ الصغائر ـــ بنهر جار يغتسل منه المسلم في اليوم والليلة خمس مرات ، فيقول صلوات الله

وسلامه عليه : « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم ، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء !! قال : فكذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا » رواه البخارى ومسلم .

وقد روى مسلم — في صحيحه — عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « ما من امرىء تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها ، وخشوعها ، وركوعها إلاَّ كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله » .

وقبل أن ندور حول المعنى المراد من قول الرسول ﷺ : « إلاَّ كانت كفارة لما قبلها من الذنوب .. » .

فإننى أرى أولاً أن أركز على معنى قول الرسول ﷺ : « فيحسن وضوءها ، وخشوعها ، وركوعها » : لأن هذا يعتبر شرطاً أساسياً في تكفير الصلاة للذنوب الصغائر .

فمعنى قول الرسول ﷺ : « فيحسن وضوءها » أى : يتوضأ وضوءاً كوضوء الرسول ﷺ :

فقد ورد ، عن حمران بن أبان أنه قال : دعا عثمان رضى الله عنه بماء وهو على المقاعد فسكب على يمينه فغسلها — وفي رواية : « فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما » — ثم أدخل يمينه في الإناء فغسل كفيه ثلاثاً . ثم غسل وجهه ثلاث مرار ومضمض واستنشق واستنثر . وغسل ذراعيه إلى المرفقين ثلاث مرار . ثم مسح برأسه . وأمر بيديه على ظهر أذنيه . ثم غسل رجليه إلى الكعبين ثلاث مرار ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يقول : « من توضأ نحو وضوئى هذا ، ثم صلى ركعتين لا يحدث نفسه فيهما ، غفر له ما تقدم من ذنبه » وفي رواية : « غفر له ما كان بينهما وبين صلاته بالأمس » أخرجه أحمد والشيخان .

وعن عبد خير ، قال : جلس على رضى الله عنه بعدما صلى الفجر في

الرحبة(١) ، ثم قال لغلامه : ائتني بطهور ، فأتاه الغلام بإناء فيه ماء وطست(٢) ونحن جلوس ننظر إليه. فأخذ بيمينه من الإناء فأكفأه على يده اليسرى ، ثم غسل كفيه ، ثم أخذ بيده اليمنى من الإناء فأفرغ على يده اليسرى ، ثم غسل كفيه فعله ثلاث مرات، كل ذلك لا يدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاث مرات ، ثم أدخل يده اليمني فى الإناء فمضمض واستنشق ونثر بيده اليسرى ، فعل ذلك ثلاث مرات . وفى رواية : فتمضمض ثلاثاً واستنشق من كف واحدة ، ثم أدخل يده اليمنى في الإناء فغسل وجهه ثلاث مرات ، ثم غسل يده اليمنى ثلاث مرات إلى المرفق ، ثم غسل يده اليسرى ثلاث مرات إلى المرفق ، ثم أدخل يده اليمنى في الإناء حتى غمرها الماء ، ثم رفعها بما حملت من الماء ثم مسحها بيده اليسرى ، ثم مسح رأسه بيديه كلتيهما مرة . وفي رواية : فبدأ بمقدم رأسه إلى مؤخره ، ثم صب بيده اليمني ثلاث مرات على قدمه اليمنى ، ثم غسلها بيده اليسرى ، ثم صب بيده اليمنى علي قدمه اليسرى ، ثم غسلها بيده اليسرى ثلاث مرات ، ثم أدخل يده اليمنى فغرف فشرب فضل وضوئه(٣) . ثم قال : هذا طهور نبى الله صلى الله عليه وآله وسلم . أخرجه أحمد وأبو داوود والنسائى والدارمي بسند جيد .

* * *

فهذا الوضوء الحسن — كما رأيت — بالإضافة إلى أنه من أهم ما يجب عليك أن تلاحظه :

ورد في فضله أحاديث كثيرة ، منها :

حديث أبي هريرة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « إذا توضأ العبدُ المسلم أو المؤمن فغسل وجهه ، خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها

---

(١) الرحبة بفتحتان : موضع بالكوفة متسع .
(٢) الطست بفتح الطاء فسكون السين : إناء من نحاس .
(٣) الوضوء بفتح الواو : هو الماء الذى يتوضأ به ، والمراد : هو أنه أخذ غرفة من فضل وضوئه فشربها .

بعينه مع الماء ــ أو مع آخر قطر الماء ــ فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء ــ أو مع آخر قطر الماء ــ فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ــ أو مع آخر قطر الماء ــ حتى يخرج نقياً من الذنوب » . أخرجه مالك وأحمد ومسلم والترمذي وقال : حسن صحيح .

وحديث عبد الله الصنابحى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « إذا توضأ العبد المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه . فإذا استنثر ، خرجت الخطايا من أنفه . فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه[1] فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه ، فإذا مسح رأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه . ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له » أخرجه مالك وأحمد ومسلم والترمذي ، وقال : حسن صحيح .

وحديث أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « ألا أدلكم علي ما يكفر الله به الخطايا ويزيد به في الحسنات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : إسباغ الوضوء علي المكاره ، وكثرة الخطى إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة » . أخرجه أحمد وابن حبان .

وحديث عثمان بن عفان ، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « من توضأ فأسبغ الوضوء ثم مشى إلى صلاة مكتوبة فصلاها ، غفر له ذنبه » أخرجه أحمد ومسلم وابن خزيمة .

ومعنى قول الرسول ﷺ ، بعد قوله : « فيحسن وضوءها ، وخشوعها ، وركوعها » .

---

[1] الأشفار : جمع شفر ، بضم فسكون ، أصل منبت الشعر في الجفن .

فالمراد به أن تؤدى الصلاة بإحسان ، وأداء متقن لركوعها ، وسجودها : أى يؤدى الصلاة باطمئنان ويقيم ظهره في الركوع والسجود ، وإلاّ فإن صلاته لن تقبل منه :

فعن أبي يعلى شداد بن أوس رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الله كتب الإحسان علي كل شيء[1] ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » رواه مسلم .

وعن أبي قتادة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته . قالوا: يا رسول الله .. كيف يسرق من الصلاة ؟ قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها ، أو قال : لا يقيم صلبه في الركوع والسجود » رواه أحمد والحاكم .

وعن أبي عبد الله الأشعري أن رسول الله ﷺ ، رأي رجلاً لا يتم ركوعه وينقر في سجوده وهو يصلى ،فقال رسول الله ﷺ : « لو مات هذا علي حالته هذه مات على غير ملة محمد ﷺ » ثم قال رسول الله ﷺ : « مثل الذي لا يتم ركوعه وينقر في سجوده ، مثل الجائع يأكل التمرة والتمرتين لا يغنيان عنه شيئاً » رواه الطبراني في الكبير .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إن العبد إذا صلى فلم يتم صلاته خشوعها ولا ركوعها ، وأكثر الالتفات لم تقبل منه ، ومن جر ثوبه خيلاء ، لم ينظر الله إليه ، وإن كان على الله كريما » رواه الطبراني .

* * *

وقد قرأت في هذا المعنى :

أن عصام بن يوسف رحمه الله تعالى ، مر بحاتم الأصم وهو يتكلم في

---

(١) ومنه الإحسان في العبادة وأخصها الصلاة وذلك في الخشوع فيها والإتيان بها كاملة الأركان تامة الشروط .

مجلسه ، فقال : يا حاتم تحسن تصلى ؟ قال : نعم . قال : كيف تصلى ؟ قال حاتم : أقوم بالأمر ، وأمشى بالخشية ، وأدخل بالنية ، وأكبر بالعظمة ، وأقرأ بالترتيل والتفكر ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالتواضع ، وأجلس للتشهد بالتمام ، وأسلم بالنية ، وأختمها بالإخلاص لله عز وجل ، وأرجع على نفسي بالخوف ، أخاف أن لا يقبل منى ، وأحفظه بالجهد إلى الموت .

قال : تكلم فأنت تحسن تصلى .

* * *

فتلك الصلاة الخاشعة ، التي أحسن العبد قبلها وضوءها ، هي التي تكفر ما كان قبلها من الذنوب الصغائر ، التي هم اللمم ، كما جاء في تفسير قول الله تبارك وتعالى في سورة النجم :

﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلَّا اللمم** ... ﴾[1] :

فاللمم[2]: هي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلاَّ من عصمه الله وحفظه .

وقد اختلف في معناها :

فقال أبو هريرة وابن عباس والشعبى : اللمم ، كل ما دون الزنا .

وقال ابن مسعود وأبو سعيد الخدري وحذيفة ومسروق : إن اللمم ما دون الوطء من القبلة ، والغمزة ، والنظرة ، والمضاجعة ..

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : اللمم ما دون الشرك ..

وقال أبو إسحاق الزجاج : أصل اللمم والإلمام ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه ، ولا يقيم عليه ..

---

(١) النجم : ٣٢ .
(٢) كما جاء في القرطبي حول تفسير هذه الآية .

ومن الصغائر كذلك ، كما جاء في كتاب « الكبائر والصغائر » :

النظرة الأولي بشهوة ، والجلوس مع أجنبية ، واللعن ، وهجو المسلم : أي شتمه ، والإشراف على بيوت الناس[1] ، وهجران المسلم أكثر من ثلاثة أيام بلا عذر ، والضحك عمداً ، والجلوس قليلاً مع فاسق[2] ، والصوم في يوم منهي عنه[3] وكشف العورة بغير مرأى من الناس ، ووصال الصوم ، واستقبال القبلة واستدبارها ببول أو غائط ، وسفر المرأة وحدها ، والبيع عند أذان الجمعة ، ولعب الشطرنج إذا خلا من المقامرة ، واشتراط الأجرة علي الحديث والعلم ، والبول قائماً وفي المغتسل والطرق ، والأذان جنباً ، والعبث في الصلاة ..

فكل تلك الصغائر ، مع غيرها : يكفرها — كما عرفنا — الصلوات الخمس ، وكذلك الجمعة إلي الجمعة ، ورمضان إلي رمضان ، وإسباغ الوضوء علي المكاره — أي في البرد أو عند المرض — وتعليم القرآن ، والصدقات ، والاستغفار ، والطواف بالبيت ، وما يصيب المسلم من الآلام والأمراض مهما قل شأنها ، وغير ذلك مما هو وارد في كتب السنة الصحيحة .

على شريطة اجتناب الكبائر كما تشير الآية التي يقول الله تعالى فيها : **﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾**[4] .

وكما يشير الحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » رواه مسلم عن أبي هريرة .

وكما يشير نص الحديث الذي وقفنا عليه قبل ذلك ، وهو : « ما من امرىء تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها ، وخشوعها ، وركوعها :

---

(١) إذا وقع نظره علي بيت جاره دون تعمد فلم يصرفه ، أما النظر في داخل البيوت عمداً فهو من الكبائر .
(٢) أما اعتياد الجلوس مع الفاسق وصداقته ، فقد اعتبره بعضهم من الكبائر .
(٣) كصوم عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، والجمعة منفرداً .
(٤) النساء : ٣١ .

إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله » رواه مسلم .

* * *

والكبائر ، هى : الشرك ــ وهو من أكبر الكبائر ــ والزنا ، واللواط ، وشرب الخمر ، والسرقة ، والقتل عمداً بغير حق ، والردة ، ورجم الزاني المحصن ، والقذف ــ وهو رمى المحصنة بالفاحشة ــ ، وكتمان الشهادة ــ إذا تعين الأداء على الشاهد ، بأن لم يوجد غيره ــ وشهادة الزور ، واليمين الغموس ــ وهو حلف الحالف متعمداً الكذب ــ ، والفرار من الزحف ــ أى من مواجهة أعداء الله في ميدان القتال ــ ، وأكل الربا ــ وهو كل قرض جر نفعاً ، ويدخل فيه الإيداع في المصارف بفائدة ــ ، وأكل مال اليتيم ، والرشوة ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، والكذب علي الرسول ﷺ ، والإفطار في رمضان عمداً ، وتطفيف الكيل والوزن ، وتقديم الصلاة المكتوبة وتأخيرها عمداً ، وترك الزكاة ــ أى منعها تهاوناً ، أما استحلال منعها فكفر ، والسحر ، واليأس من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ، وأكل الميتة والخنزير ، والبغى في الأرض بالفساد ، وعدول الحاكم عن الحق ، والإصرار علي الصغيرة ، والإعانة علي المعاصى ، وقتل الإنسان نفسه ، وتصديق الكاهن والمنجم ، والطعن في الأنساب ، ورمي المسلم بالكفر ، والغش في البيع ، والكذب ــ وهو الإخبار بغير الواقع ــ ، وتبرج المرأة ، وتغيير خلق الله ، وتشبه المرأة بالرجل والرجل بالمرأة ، وصناعة التماثيل ، ولبس الحرير والذهب للرجال ..

وقد جمع أبو طالب المكى رحمه الله تعالى ، الكبائر علي النحو التالي :

أربع في القلب : وهى الشرك بالله تعالي ، والإصرار علي معصية الله تعالى ، والقنوط من رحمة الله تعالى ، والأمن من مكر الله تعالى .

وأربع في اللسان : وهى شهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات ،

واليمين الغموس[1] ، والسحر

وثلاث في البطن : وهى شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا وهو يعلم .

واثنتان في اليدين : وهما القتل ، والسرقة .

واثنتان في الفرج : وهما الزنا ، واللواط .

وواحدة في الرجل : وهى الفرار من الزحف .

وواحدة في جميع البدن : وهى عقوق الوالدين .

* * *

وقد ورد في الكبائر ، أحاديث شريفة ، منها ما ورد عن أبي بكرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر[2] . (ثلاثاً) قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ـــ وكان متكئاً فجلس[3] ، فقال ـــ : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال يكررها ، حتى قلنا : ليته سكت »[4] رواه البخاري ومسلم والترمذي .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ ، قال : « الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » رواه البخاري .

وفي كتاب النبى ﷺ الذي كتبه إلى أهل اليمن ، وبعث به مع عمرو بن حزم : « ... وإن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة : الإشراك بالله . وقتل النفس

---

(١) أي اليمين الكاذبة الفاجرة ، وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في الإثم ، ثم في النار .

(٢) أي أعظمها جرماً وأشدها إثماً من غيرها ، والاستفهام للتشويق والاهتمام .

(٣) أى اعتدل في جلسته اهتماماً بما سيقوله وتأكيداً له .

(٤) أى تمنياً أن يسكت إشفاقاً عليه لما رأوا من أثر انزعاجه من ذلك .

المؤمنة بغير حق ، والفرار من سبيل الله يوم الزحف ، وعقوق الوالدين ، ورمى المحصنة[1] ، وتعلم السحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم .. » رواه ابن حبان في صحيحه .

والذي نريد أن نعرفه الآن ، هو : أن الكبيرة ، أو الكبائر ، لا يكفرها إلاَّ التوبة ، أو فضل الله تعالي علي من شاء من عباده ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[2] .

قال محمد بن جرير الطبري : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله تعالي ، إن شاء عفا عن ذنبه ، وإن شاء عاقبه عليها ما لم تكن كبيرته شركاً بالله تعالى .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يقول : قال الله تعالى : « يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني ، غفرت لك علي ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان[3] السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب[4] الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

مع ملاحظة أن التوبة ، كما يقول الإمام النووى في رياض الصالحين ، لها شروط ، وهى : أنها إذا كانت تتعلق بحق الله تعالى ، فلها شروط ثلاثة :

الشرط الأول : أن يقلع عن المعصية .

الشرط الثاني : أن يندم علي فعلها .

الشرط الثالث : أن يعزم على ألا يعود إليها أبداً .

---

(١) المحصنة بفتح الصاد : أى العفيفة الحرة بكراً كانت أو ثيباً .

(٢) النساء : ٤٨ .

(٣) عنان : بفتح العين المهملة : قيل هو السحاب .

(٤) أى بما يقارب ملء الأرض خطايا .

ثم يقول بعد ذلك : فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة ، هذ الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كان مالاً أو نحوه رده إليه ، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه ، أو طلب عفوه ، وإن كان غيبة استحله منها ، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقي عليه الباقي .

فاذكر كل هذا ، أخا الإسلام ، وتب إلي الله تبارك وتعالي توبة نصوحاً(١) .

ففي القرآن الكريم يقول تبارك وتعالي :

﴿ ...وتوبوا إلي الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾(٢) .

﴿ يأأيها الذين آمنوا توبوا إلي الله توبة نصوحاً ﴾(٣) .

وفي السنة الشريفة ، ورد عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم .

وعن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ ، قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل علي راهب ، فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا . فقتله فكمل به مائة . ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل علي رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ، انطلق إلي أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ،

---

(١) قال قتادة : النصوح : الصادقة الناصحة ، وقيل : الخالصة .
(٢) النور : ٣١ .
(٣) التحريم : ٨ .

فانطلق حتي إذا كان نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ــ أى حكماً ــ فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدني فهو له .

فقاسوا فوجدوه أدنى إلي الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة » متفق عليه .

وفي رواية في الصحيح : « فكان إلى القرية الصالحة بشبر فجعل من أهلها » .

وفي رواية في الصحيح « فأوحي الله تعالي إلي هذه أن تباعدي ، وإلي هذه أن تقربي ، وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجدوه إلي هذه أقرب بشبر ، فغفر له » .

وفي رواية : « فنأى بصدره نحوها » .

فاذكر كل هذا ، واعلم : أن أصل التوبة في اللغة الرجوع ، يقال : تاب وأناب بمعني رجع ، فالتوبة الرجوع من الأوصاف المذمومة إلى الأوصاف المحمودة .

ويقال : من رجع عن المخالفات خوفاً من عذاب الله تعالى فهو تائب ، ومن رجع حياء من نظر الله تعالى فهو منيب ، ومن رجع تعظيماً لجلال الله فهو أواب .

ويقال : أول التوبة يقظة من الله تعالى تقع في القلب فيتذكر العبد تفريطه وإساءته وكثرة جناياته مع دوام نعم الله تعالي عليه ، فيعلم أن الذنوب سموم قاتلة يخاف منها حصول المكروه وفوات المحبوب في الدنيا والآخرة ، فإذا حصل له هذا العلم أثمر حالاً وهو الندم على تضييع حق الله تعالى ، ثم يثمر الندم عملاً وهو المبادرة إلى الخيرات ، وقضاء الواجبات ، ورد الظلامات ، والعزم علي إصلاح ما هو آت ..

فهذه الأمور الثلاثة إذا انتظمت فهي التوبة ..

وقد ورد في الآثار : أن الذنب إذا أتبع بثمانية أشياء ، كان العفو عنه مرجواً :

أربعة في القلب ، وهي : التوبة والعزم علي ألا يعـود ، وحب الإقلاع عنه ، وخوف العقاب ، ورجاء المغفرة عليه .

وأربعة في الجوارح ، وهو : أن يصلي أربع ركعات في المسجد ، ثم يستغفر الله تعالي سبعين مرة ، ويقول : سبحان ربي العظيم وبحمد مائة مرة ، ويتصدق بصدقة ، ثم يصوم يوماً :

قال الله تعالى : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾[1] .

* * *

فلتكن تلك هي توبتك ، وليكن هذا هو مفهومك للتوبة النصوح . وحسبك في النهاية أن تكون من الذين تحدث الله سبحانه وتعالي عنهم واستثناهم في قوله : ﴿ **إلّا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾[2] .

وقد وصف الله المتقين في كتابه بمثل ما وصي به النبي ﷺ في هذه الوصية في قوله عز وجل : ﴿ **وسارعوا إلي مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا علي ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم**

---

(١) هود : ١١٤ .
(٢) الفرقان : ٧٠ .

مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين ﴾(١) .

فوصف الله المتقين ــ في هذه الآية ــ بمعاملة الخلق بالإحسان إليهم بالإنفاق وكظم الغيظ والعفو عنهم ، فجمع بين وصفهم ببذل الندى واحتمال الأذى ، وهذا هو غاية حسن الخلق الذي وصى به النبي ﷺ .. ثم وصفهم بأنهم : ﴿ **إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** .. ﴾(٢) ثم تحدث عنهم بأنهم لم يصروا عليها .. فدل علي أن المتقين قد يقع منهم أحياناً كبائر وهى الفواحش ، وصغائر وهى ظلم النفس ، لكنهم لا يصرون عليها ، بل يذكرون الله عقب وقوعها ويستغفرونه ويتوبون إليه منها ، والتوبة : هى ترك الإصرار . ومعنى قوله تعالى : ﴿ **ذكروا الله** ﴾ أى : ذكروا عظمته وشدة بطشه وانتقامه وما يوعد به علي المعصية من العقاب ، فيوجب ذلك لهم الرجوع في الحال والاستغفار وترك الإصرار . وفي القرآن الكريم يقول تعالي : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾(٣) .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ ، قال : « إذا أذنب عبد ذنباً فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفر لي . قال الله : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب قد غفرت لعبدي ، ثم إذا أذنب ذنباً آخر .. إلي أن قال في الرابعة : فليعمل ما شاء » يعني ما دام علي هذه الحال كلما أذنب ذنباً استغفر منه .

وفي الترمذي من حديث أبي بكر الصديق رضى الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة » .

وأخرج الحاكم من حديث عقبة بن عامر : « أن رجلاً أتي النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله .. أحدنا يذنب ، قال : يكتب عليه ، قال : ثم يستغفر

---

(١) آل عمران : ١٣٣ ــ ١٣٦ .
(٢) آل عمران : ١٣٥ .
(٣) الأعراف : ٢٠١ .

منه ، قال : يغفر له ويثاب عليه ، قال : فيعود فيذنب ، قال : يكتب عليه ، قال : ثم يستغفر منه ويتوب ، قال : يغفر له ويثاب عليه ولا يمل الله حتي تملوا » .

وقيل للحسن : ألا يستحي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه ثم يعود ، ثم يستغفر ثم يعود ، قال : ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه ، فلا تملوا من الإستغفار .

* * *

ومما يكفر الخطايا : ذكر الله عز وجل .

فقد أخرج الإمام أحمد من حديث عن أبي ذر : « قلت يا رسول الله علمني عملاً يقربني من الجنة ويباعدني عن النار ، قال : إذا عملت سيئة فاعمل حسنة ، فإنها عشر أمثالها ، قال : قلت : يا رسول الله من الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : هي أحسن الحسنات » .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « من قال سبحان الله وبحمده في كل يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر »

وفيهما عنه أيضاً عن النبي ﷺ قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة : كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أفضل من ذلك » .

وفي المسند وكتاب ابن ماجة عن أم هانىء عن النبى ﷺ ، قال : « لا إله إلا الله لا تترك ذنباً ولا يسبقها عمل » .

وأخرج الترمذي عن أنس عن النبى ﷺ أنه مر بشجرة يابسة الورق ،

فضربها بعصاه فتناثر الورق ، فقال : « إن الحمد لله ، وسبحان الله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لتساقط من ذنوب العبد كما يتساقط ورق هذه الشجرة » .

وأخرجه الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر : تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها » .

وقد سئل الحسن عن رجل لا يتحاشي عن معصية إلا أن لسانه لا يفتر عن ذكر الله ، قال : إن ذلك لعون حسن .

وسئل الإمام أحمد عن رجل اكتسب مالاً من شبهة ، أصلاته وتسبيحه يحط عنه شيئاً ؟ فقال : إن صلى وسبح يريد به ذلك فأرجو ، قال الله تعالى : ﴿ .. خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ﴾(١) .

وقال مالك بن دينار : البكاء على الخطيئة يحط الخطايا كما يحط الريح الورق اليابس .

وقال عطاء : من جلس مجلساً من مجالس الذكر كفر به عشرة مجالس من مجالس الباطل .

وقال شويش العدوي وكان من قدماء التابعين : إن صاحب اليمين أمير . أو قال : أمين علي صاحب الشمال ، فإذا عمل ابن آدم سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها ، قال له صاحب اليمين : لا تعجل لعله يعمل حسنة ، فإن عمل حسنة ألقي واحدة بواحدة وكتبت له تسع حسنات ، فيقول الشيطان : يا ويله من يدرك تضعيف ابن آدم .

---

(١) التوبة : ١٠٢ .

وروي وكيع : حدثنا الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص ، قال : قال عبد الله ـــ يعني ابن مسعود ـــ : وددت عن أني صولحت على أن أعمل كل يوم تسع خطيئات وحسنة ، وهذا إشارة منه إلى أن الحسنة يمحى بها الخطيئات التسع ويفضل له ضعف واحد من ثواب الحسنة فيكتفى به . والله أعلم .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، وكن دائماً وأبداً على صلة بالله تعالى بفعل الخيرات وترك المنكرات ، حتى تكون تلقائياً من أهل الحسنات لا من أهل السيئات .

وحسبك أن تذكر دائماً وأبداً قول الله تبارك وتعالى الذى وقفت عليه قبل ذلك وهو : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾(١) .

وقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾(٢) .

وهناك قول أحب كذلك أن أختم به ذلك الحق ، يقول فيه أبو هريرة رضى الله عنه : « يدني الله العبد يوم القيامة فيضع عليه كنفه ، فيستره من الخلائق كلها ، ويدفع إليه كتابه في ذلك الستر ، فيقول : اقرأ يا ابن آدم كتابك ، فيقرأ فيمر بالحسنة فيبيض لها وجهه ويسر بها قلبه ، فيقول الله : أتعرف يا عبدي ؟ فيقول : نعم ، فيقول : إنى قبلتها منك ، فيسجد ، فيقول : ارفع رأسك وعد في كتابك ، فيمر بالسيئة فيسود لها وجهه ويوجل لها قلبه وترتعد منها فرائصه ويأخذه من الحياء من ربه ما لا يعلمه غيره ، فيقول الله : أتعرف يا عبدى ؟ فيقول : نعم يا رب ، فيقول : إنى قد غفرتها لك ،

---

(١) هود : ١١٤ .
(٢) الفرقان : ٧٠

فيسجد ، فلا يرى منه الخلائق إلا السجود حتى ينادى بعضهم بعضاً : طوبى لهذا العبد الذى لم يعص الله قط ولا يدرون ما قد لقى فيما بينه وبين ربه عز وجل مما قد وقفه عليه » .

ولهذا قال بلال بن سعد : إن الله يغفر الذنوب ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقفه عليها يوم القيامة وإن تاب .

فيا أيها المغرور قم وانتبه قد فاتك المطلوب والركب سار
إن كنت أذنبت فقم واعتذر إلى كريم يقبل الإعتذار
وانهض إلى مولى عظيم الرجا يغفر بالليل ذنوب النهار

* * *

وأما عن :

حق العبـاد

وهو قول الرسـول ﷺ : « وخالق الناس بخلق حسن » : فهو الحق الذى يجب على كل عبد مؤمن أن يكون مؤدياً له ، ومهتماً به :

وذلك لأن الأخلاق الحسنة هى أهم صفات المؤمنين ، الذين تحدث الله سبحانه وتعالى عنهم ، فى قوله :

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾(١) .

والمؤمن كما تحدث الرسول ﷺ : « كله منفعة ، إن شاورته نفعك ، وإن شاركته نفعك ، وإن ماشيته نفعك ، فأمره كله منفعة » .

---

(١) الأنفال : ٢ ــ ٤ .

والمؤمن ، كما وصفه أحد المؤمنين :

« بشره في وجهه ، وحزنه في قلبه ، أوسع صدراً ، وأخفى نفساً ، زاجراً عن كل شر ، آمراً بكل خير ، لا حقود ، ولا حسود ، ولا مرتاب ، ولا سباب ، ولا عياب ، يكره الرفعة ويبغض السمعة ، طويل الهم فى الآخرة(١) ، كثير الغم في الدنيا(٢) حليف الصمت ، عزيز الوقت ، لا متفاخر ، ولا متهتك ، ولا متكبر ، ضحكه تبسم ، واستفهامه تعلم ، ومراجعته تفهم ، لا يبخل ، ولا يعجل ، ولا يضجر ، ولا يجهل ، قليل المنازعة ، جميل المراجعة ، عدل إن غضب ، رفيق إن طلب ، خليص الود ، وثيق العهد ، وفي الوعد ، شفوق ، وصول ، حليم ، حمول ، قليل الفضول ، راض عن مولاه ، مخالف لهواه ، لا يغلظ على من يؤذيه ، ولا يخوض فيما لا يعنيه ، إن سب وأوذى لم يسب ، وإن طلب ومنع لم يغضب ، ولا يشمت بمصيبة ، ولا يذكر أحداً بغيبة ، هشاش بشاش ، لا فحاش ولا غشاش ، كظام بسام ، دقيق النظر ، عظيم الحذر ، فهذا هو المؤمن حقاً » .

نعم هذا هو المؤمن حقاً ، لأنه بتلك الصفات العظيمة ، قد استطاع أن يؤكد إيمانه بتلك الصورة العملية التى أشار إليها الرسول ﷺ فى قوله : « قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان ، وجعل قلبه سليماً ، ولسانه صادقاً ، ونفسه مطمئنة ، وخليقته مستقيمة » رواه ابن حبان عن أبى ذر .

والمؤمن خلقه مستقيم ، لأنه تخلق بأخلاق المثل الأعلى ، والأسوة الحسنة ، والقدوة الصالحة ، صلوات الله وسلامه عليه ، الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى : « صفوة آدم ، ومولد شيث ، وشجاعة نوح ، وحلم إبراهيم ، ولسان إسماعيل ، ورضا إسحاق ، وفصاحة صالح ، وحكمة لقمان ، وبشرى يعقوب ، وجمال يوسف ، وصبر أيوب ، وقوة موسى ، وتسبيح يونس ، وجهاد يوشع ، ونعمة داوود ، وهيبة سليمان ، ووقار إلياس ، وزهد عيسى ، وعلم الخضر » .

---

(١) أى دائماً وأبداً مهتماً بالآخرة وما فيها من حساب وعقاب .
(٢) أى كلما رأى فساداً وانحلالاً تراه باكياً حزيناً .

فكان أهلاً لأن يتوجه الله سبحانه وتعالى بأعظم تاج ، وهو : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾(١) .

وكان أهلاً لأن يجعله الله تعالى قدوة صالحة ، و ﴿ **أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾(٢) .

وكما يقول الشيخ محمد الغزالي أكرمه الله في كتابه « خلق المسلم » :

ولن تصلح تربية إلا إذا اعتمدت علي الأسوة الحسنة ، فالرجل السيىء لا يترك في نفوس من حوله أثراً طيباً .

وإنما يتوقع الأثر الطيب ممن تمتد العيون إلى شخصه ، فيروعها أدبه .. وتمشى بالمحبة الخالصة في آثاره .

بل لا بد — ليحصل التابع على قدر كبير من الفضل — أن يكون في متبوعه قدر أكبر ، وقسط أجل .

ثم يقول بعد ذلك :

وقد كان رسول الإسلام ﷺ بين أصحابه مثلاً أعلى للخلق الذى يدعو إليه ، فهو يغرس بين أصحابه هذا الخلق السامى ، بسيرته العطرة ، قبل أن يغرسه بما يقول من حكم وعظات :

فعن عبد الله بن عمرو ، قال : إن رسول الله ﷺ ، لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ، وكان يقول : « خياركم أحاسنكم أخلاقاً » رواه البخارى .

وعن أنس ، قال : « خدمت النبى ﷺ عشر سنين ، والله ما قال لى : أف قط ، ولا قال لشيء لم فعلت كذا ؟ وهلا فعلت كذا » رواه مسلم .

وعنه : « إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ ، فتنطلق به حيث شاءت ، وكان إذا استقبله الرجل فصافحه ، لا ينزع يده من يده ، حتى

---

(١) القلم : ٤ .
(٢) الأحزاب : ٢١ .

يكون الرجل هو الذي ينزع يده . ولا يصرف وجهه عن وجهه ، حتى يكون الرجل هو الذى يصرفه ، ولم ير مقدماً ركبتيه بين يدى جليس له »(١) رواه الترمذى .

وعن عائشة ، قالت : « ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه . وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط . إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم . وما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ولا خادماً ، إلا أن يجاهد في سبيل الله تعالى » رواه مسلم .

وعن أنس : « كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جذبته ، ثم قال : يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك ! فالتفت إليه رسول الله ، وضحك ، وأمر له بعطاء» . رواه البخارى .

وعن عائشة : قال رسول الله ﷺ : « إن الله رفيق ، يحب الرفق ، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف ، وما لا يعطى على سواه » رواه مسلم .

وسئلت عائشة : ما كان رسول الله يفعل في بيته ؟ قالت : « كان يكون في مهنة أهله ــ أى خدمتهم ــ فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة » رواه مسلم .

وعن عبد الله بن الحارث : ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ .. رواه الترمذى .

وعن أنس : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً ، وكان لى أخ فطيم ، يسمى أبا عمير ، لديه عصفور مريض اسمه النغير ، فكان رسول الله ﷺ يلاطف الطفل الصغير ، ويقول له : يا أبا عمير ، ما فعل النغير ؟ .. رواه البخاري .

والمعروف في شمائل الرسول ﷺ أنه كان سمحاً لا يبخل بشيء أبداً ، شجاعاً لا ينكص عن حق أبداً ، عدلاً لا يجور في حكم أبداً ، صدوقاً أميناً في

---

(١) يعنى أنه يتحفظ مع جلسائه فلا يتكبر .

أطوار حياته كلها .

وقد أمر الله المسلمين أن يقتدوا به في طيب شمائله وعريق خلاله ، فقال : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾(١) .

قال القاضي عياض : كان النبي ﷺ ، أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، لقد فزع أهل المدينة ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله راجعاً ، قد سبقهم إليه واستبرأ الخبر ، على فرس لأبى طلحة عرى والسيف في عنقه ، وهو يقول : لن تراعوا .

وقال على رضوان الله عليه : إنا كنا — إذا حمى البأس واحمرت الحدق — نتقى برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : ما سئل النبى ﷺ ، فقال لا .

وقد قالت خديجة : « إنك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق » .

وحمل إليه سبعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام إليها يقسمها ، فما رد سائلاً ، حتى فرغ منها .

وجاءه رجل فسأله ، فقال له : ما عندى شيء ، ولكن ابتع على ، فإذا جاءنا شيء قضيناه ، فقال له عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ! فكره النبى ﷺ ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا ، فتبسم ﷺ ، وعرف البشر في وجهه ، وقال : بهذا أمرت .

وكان رسول الله ﷺ يؤلف أصحابه ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم .

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

وكان ﷺ : يحذر الناس ويحترس منهم ، من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه .

وكان يتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسيه أن أحداً أكرم عليه منه .

من جالسه ، أو قاربه لحاجة صابره ، حتى يكون هو المنصرف عنه .

ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها ، أو بميسور من القول .

قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواء .

وكان دائم البشر ، سهل الطبع ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا عتاب ، ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يقنط منه .

وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويجاريهم ، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره .

ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر .

ويكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التي تحته ، ويعزم عليه في الجلوس عليها .

وكان يصل ذوى رحمه ، من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم .

وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة ، يعرض عمن تكلم بغير جميل .

وكان ضحك أصحابه عنده التبسم ، توقيراً له واقتداء به .

وكان مجلسه مجلس حلم وخير وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تخدش فيه الحرم .

وكان إذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رؤوسهم الطير ..

فإذا كانت تلك هى أخلاق الرسول ﷺ ، وأخلاق أصحابه الفضلاء الذين تأدبوا بآدابه ، وساروا على دربه .

فكلنا كذلك كمؤمنين وكمسلمين بالمعنى الصحيح : لابد أن نتخلق بتلك الأخلاق الحسنة التى هى أخلاق القرآن ، كما أشارت السيدة عائشة رضى الله عنها ، يوم أن سئلت عن خلق الرسول ﷺ ، قالت : كان خلقه القرآن ، ثم قرأت قول الله تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[1] .

أى أنه ﷺ ، كان متخلقاً بأخلاق القرآن ، بمعنى أنه كان منفذاً لأوامر القرآن ، ومتجنباً لنواهيه ، وكذلك كان أصحابه عليهم جميعاً رضوان الله ، الذين كثيراً ما كان النبى صلوات الله وسلامه عليه يرغبهم في مكارم الأخلاق ، فيقول لهم مثلاً : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه مالك .

ويقول : « تبسمك في وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة ، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة » رواه البخارى .

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » رواه البخارى .

« الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد ، والخلق السوء ، يفسد العمل كما يفسد الخل العسل » رواه البيهقي .

« إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام فى شىء ، وإن أحسن الناس إسلاماً ، أحسنهم خلقاً » رواه أحمد .

« ألا أخبركم بأحبكم إلى ، وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة ؟ — فأعادها مرتين أو ثلاثاً — قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : أحسنكم خلقاً » رواه أحمد .

---

(١) القلم : ٤ .

« ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، إن الله يكره الفاحش البذيء ، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة » رواه أحمد .

« إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، وأشرف المنازل ، وإنه لضعيف العبادة ، وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم » رواه الطبراني .

« إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » وفى رواية : « إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجات قائم الليل وصائم النهار » رواه أبو داوود .

« إن المسلم المسدد(١) ليدرك درجة الصوام القوام بآيات الله، بحسن خلقه وكرم طبيعته » رواه أحمد .

وعن أسامة بن شريك ، قال : كنا جلوساً عند النبى ﷺ كأنما على رؤوسنا الطير ، ما يتكلم منا متكلم ، إذ جاءه أناس ، فقالوا : من أحب عباد الله إلى الله تعالى ؟ قال : « أحسنهم خلقاً » رواه الطبراني .

كما كان ﷺ وهو المربى الفاضل ، يرهبهم من سوء الخلق ، فيقول كذلك : « ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صام وصلى وحج واعتمر ، وقال إنى مسلم : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » رواه مسلم .

وقال في رواية أخرى : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، — وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم — » .

« أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه ،

---

(١) التسديد : أى الاقتصاد في العبادة .

ورجل استأجر أجيراً فاستوفي منه العمل ولم يوفه أجره » رواه البخارى .

وعن أبي شريح الكلبي رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن » قيل : يا رسول الله .. لقد خاب وخسر ، من هذا ؟ قال : « من لا يؤمن جاره بوائقه » قالوا : وما بوائقه ؟ قال : « شره » رواه البخاري .

وذلك لأن الأخلاق الحسنة هي الأساس في ديننا ، ولهذا فقد قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه كما قرأنا قبل ذلك : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وحسبك أن تعلم ، مثلاً : أن الصلاة قد فرضها الله تعالى لتنهى عن الفحشاء والمنكر ، قال تعالى : ﴿ **وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾(١) .

وإن الزكاة قد شرعت لهدف أسمى يشير الله تعالى إليه في قوله : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾(٢) .

وإن الصوم كذلك له هدف أسمى أشار إليه سبحانه وتعالى ، في قوله : ﴿ **كتب عليكم الصيام كما كتب علي الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾(٣) .

وأنه لكى تؤدى فريضة الحج ، لا بد أن تلتزم هناك بالأخلاقيات الكريمة المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ **الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولي الألباب** ﴾(٤) .

* * *

(١) العنكبوت : ٤٥ .
(٢) التوبة : ١٠٣ .
(٣) البقرة : ١٨٣ .
(٤) البقرة : ١٩٧ .

فاذكر كل هذا أخا الإسلام وكن حسن الخلق مع الناس ، حتى لا يضيع ثوابك يوم القيامة ، فقد ورد في حديث صحيح رواه مسلم ، أن النبى ﷺ سأل أصحابه ذات يوم السؤال الآتى : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا : فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » رواه مسلم .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ونفذه ، واعلم : أن الجمع بين حقوق الله وحقوق عباده عزيز جداً لا يقوى عليه إلا الكمل من الأنبياء والصديقين .

قال الحارث المحاسبي : ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن الخلق مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الأمانة .

وفي الحديث القدسى يقول الله تعالى لداوود عليه السلام : « يا داوود .. أحب عبادى إلي تقى القلب ، نقى الكفين ، لا يأتى لأحد بسوء ، ولا يمشي بين الناس بالنميمة ، تزول الجبال ولا يزول ، أحبني وأحب من يحبني وحببني إلي عبادى ، قال داوود : يا رب وكيف يحببك إلى عبادك ؟ قال :يذكرهم بنعمى وآلائى ، يا داوود .. ما من عبد يعين مظلوماً أو يمشي معه فى مظلمته ألا ثبت قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام » .

وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن سعيد المقبرى ، قال : بلغنا أن رجلاً جاء إلى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، فقال : يا معلم الخير كيف أكون تقياً لله عز وجل كما ينبغى ؟ قال : بيسير من الأمر ، تحب الله بقلبك

كله ، وتعمل بكدحك وقوتك ما استطعت ، وترحم ابن جنسك كما ترحم نفسك ، قال : من بنى جنسى يا معلم الخير ؟ قال : ولد آدم كلهم ، وما لا تحب أن يؤتى إليك فلا تأته لأحد وأن تتقي لله عز وجل كما ينبغي له .

وقد روى عن السلف ، تفسير حسن الخلق .

فعن الحسن ، قال : حسن الخلق ، الكرم ، والبذلة ، والاحتمال .

وعن الشعبى ، قال : حسن الخلق : البذلة ، والعطية ، والبشر الحسن .

وعن ابن المبارك ، قال : هو بسط الوجه ، وبذل المعروف ، وكف الأذى .

وسئل سلام بن أبى مطيع عن حسن الخلق ، فأنشد شعراً ، فقال :

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله
ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله
هو البحر من أى النواحى أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

وقال الإمام أحمد : حسن الخلق ألا تغضب ولا تحقد .

وعنه أنه قال : حسن الخلق أن تحتمل ما يكون من الناس .

وقال إسحاق بن راهويه : هو بسط الوجه وألا تغضب ونحو ذلك .

وفى مسند الإمام أحمد من حديث معاذ بن أنس الجهنى عن النبى ﷺ ، قال : « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتصفح عمن شتمك » .

وأخرج الحاكم من حديث عقبة بن عامر الجهنى ، قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة ؟ تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » .

وأخرج الطبراني من حديث « علي » أن النبي ﷺ قال : « ألا أدلكم علي أكرم أخلاق أهل الدنيا والآخرة ؟ أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » .

وروى بسند حسن : عن الحسن(١) ، عن الحسن ، عن الحسن ، عن جد الحسن : أن أحسن الحسن ، الخلق الحسن .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، وأضف إلى ما وقفت عليه ــ كذلك ــ تلك الأقوال المأثورة التى أرجو أن تكون سبباً في حسن الخلق .

قال الجنيد رحمه الله تعالى : أربع ترفع العبد إلى أعالي الدرجات وإن قل عمله وعلمه : الحلم ، والتواضع ، والسخاء ، وحسن الخلق .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : لأن يصحبني فاجر حسن الخلق ، أحب إلى من أن يصحبني عابد سيىء الخلق .

وقال أبو حازم رحمه الله تعالى : من سوء الخلق في الرجل أن يدخل على أهله وهم سرور يضحكون فيتفرقوا خوفاً منه ، وكذلك من سوء خلقه هروب القطة منه ، وصعود الكلبة الحائط خوفاً منه .

وقيل لذى النون المصرى رحمه الله تعالى : من أكثر الناس هماً ؟ قال : أسوأهم خلقاً .

وحكى أنه كان لشقيق البلخى رحمه الله تعالى امرأة سيئة الخلق ، فقيل له : ألا تفارقها وهى تؤذيك بسوء خلقها ؟ فقال : إن كانت سيئة الخلق وأنا حسن الخلق ، ولو فارقتها صرت مثلها ومع هذا أخاف ألا يمسكها أحد غيري لسوء خلقها .

---

(١) الحسن الأول : ابن سهل ، والثاني : ابن دينار ، والثالث : البصرى ، والرابع : ابن على رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

وحكى أن رجلاً جاء إلى سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه يشكو إليه سوء خلق زوجته فوقف ببابه ينتظره فسمع امرأته تستطيل عليه بلسانها وهو ساكت لا يرد عليها ، فانصرف الرجل قائلاً : إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته ، فكيف حالى ؟ فخرج عمر رضى الله تعالى عنه فرآه مولياً فناداه : ما حاجتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين .. جئت أشكو إليك خلق زوجتى واستطالتها على ، فسمعت زوجتك كذلك ، فرجعت وقلت : إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالى ؟ فقال عمر رضى الله تعالى عنه :

إنى احتملتها لحقوق لها على : إنها طباخة لطعامى ، خبازة لخبزى ، غسالة لثيابي ، مرضعة لولدى ، وليس ذلك بواجب عليها ، ويسكن قلبي بها عن الحرام ، فأنا احتملتها لذلك .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين .. وكذلك زوجتى .

فقال سيدنا عمر : فاحتملها يا أخى فإنها مدة يسيرة .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام :

وخذ العفو عن جاهل قد بغى عليك تفز بالمقــام الأمين
وبالعرف فأمر وكن محسنا وواصل وأعرض عن الجاهلين

* * *

الوصية الثامنة والثلاثون

عن أبي ثعلبة الخُشَني جُرْثوم بن ناشر رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال :

إنَّ اللهَ تعالى فَرَضَ فرائضَ فَلَا تُضَيِّعُوها، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا.

حديث حسن رواه الدارقطني وغيره

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لتلك الوصية العظيمة ، أو لهذا الحديث العظيم الذي قال عنه بعضهم :

ليس فى الأحاديث حديث واحد أجمع بانفراده لأصول الدين وفروعه منه .

كما قال عنه ابن السمعاني : من عمل بهذا الحديث ، فقد حاز الثواب وأمن من العقاب ، لأن من أدى الفرائض ، واجتنب المحارم ، ووقف عند الحدود ، وترك البحث عما غاب عنه ، فقد استوفي أقسام الفضل ، وأوفى حقوق الدين ، لأن الشرائع لا تخرج عن هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث .

ولهذا ، فقد حكى عن أبي وائلة المزنى ، أنه قال :

جمع رسول الله ﷺ الدين في أربع كلمات ، ثم ذكر حديث أبى ثعلبة الذي ندور حوله :

وذلك لأن حديث أبى ثعلبة قسم فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه أحكام الله أربعة أقسام : فرائض ، ومحارم ، وحدود ، ومسكوت عنه ، وذلك يجمع أحكام الدين كلها .

وحسبنا ـــ بعد هذا التقديم ـــ لكى يتأكد لنا كل هذا ، ونقف على أهمية هذا الحديث ، وضرورة تنفيذه ، على أساس من الفقه :

أن نقف على معرفة أحكام الله الأربعة ، التى أولها :

الفرائض

وهى جمع الفرض ، والفرض في عرف الفقهاء : ما يجب على المكلف تحصيله بدليل شرعى صريح من الكتاب والسنة .

والفرض ـــ كذلك ـــ كما يعرفونه : ما يثاب المؤمن على فعله ، ويعاقب

على تركه .

وينقسم الفرض إلى :

فرض عين : وهو ما يجب على المكلف(١) تحصيله .

وفرض كفاية : وهو ما إذا قام به البعض ، سقط عن الباقين ، مثل صلاة الجنازة ، فإنها تجب على المكلفين ، الذين يحضرونها ، لكن إذا أداها بعضهم سقط التكليف عن الآخرين .

وينقسم الفرض — كذلك — إلى :

فرض مستقل بذاته : كصلاة الظهر ، وصوم رمضان .

وفرض داخل في غيره : كتكبيرة الإحرام، والركوع والسجود في الصلاة .

وقد يعرف الفرض الداخل في غيره : بأنه الذي يبطل بتركه العمل :

فمن ترك النية ، أو تكبيرة الإحرام ، أو الركوع ، أو السجود — مثلاً — بطلت صلاته بإجماع الأمة .

هذا(٢) : والفرض ، واللازم ، والمحتم ، والركن ، والواجب ، بمعنى واحد ، عند أكثر الفقهاء ، إلاَّ في باب الحج ، فإن الفرض ما يبطل الحج بتركه ، والواجب ما لا يبطل الحج بتركه ، ولكن يجبر بفدية .

ويرى الحنفيون ، ومن نحا نحوهم ، أن هناك فرقاً بين الفرض والواجب ، فالفرض عندهم : ما ثبت بدليل قطعى ، والواجب : ما ثبت بدليل ظنى ، وهو وسط بين الفرض والسنة .

وإذا كان لنا الآن — بعد هذا التقديم حول تعريف الفرض — : أن نقف على أهم الفرائض المتعلقة بالعبادات ، فإليك بيانها إجمالاً :

---

(١) المراد بالمكلف : أى المسلم البالغ العاقل .

(٢) كما يقول الشيخ محمد بكر إسماعيل صاحب (الفقه الواضح) .

حكم الاستنجاء

الاستنجاء : واجب على المشهور ، لأنه إزالة لنجاسة حلت بعضو من أعضاء البدن :

ويشرع الاستنجاء قبل الوضوء عند جمهور الفقهاء .

وإذا لم يجد المسلم ماء يستنجى به فليستجمر بالأحجار ، والأحجار التي يستجمر بها يستحب أن تكون وتراً ، ثلاثة ، أو خمسة ، أو سبعة .

* * *

حكم الوضوء

والوضوء : ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وهو شرط في صحة الصلاة ، والطواف بالكعبة ، ومن شك في مشروعيته فقد كفر .

قال تعالى في سورة المائدة : **﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ﴾**[1] .

وقال رسول الله ﷺ : « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » رواه البخارى ومسلم .

وقد أجمع المسلمون على أنه لا تصح صلاة عبد ولا يصح طوافه بالكعبة بغير وضوء .

وللوضوء فرائض أو أركان اختلف الفقهاء في عدتها ، وهى :

النية : وهى فرض عند المالكية والشافعية وشرط صحة عند الحنابلة ، وسنة مؤكدة عند الحنفية .

---

(١) المائدة : ٦ .

وغسل الوجه : وهو فرض بالإجماع ، وحده من منابت شعر الرأس المعتاد إلى أسفل الذقن طولاً ، ومن شحمة الأذن ، إلى شحمة الأذن عرضاً .

وغسل اليدين إلى المرفقين : وهو فرض باتفاق العلماء ، والمرفق هو المفصل البارز في منتصف الذراع .

ومسح الرأس : وهو فرض بالإجماع ، غير أنهم اختلفوا في القدر الواجب مسحه .

فقالت المالكية : يجب مسح جميعه ، ووافقهم أحمد بن حنبل .

وقالت الشافعية : مسح البعض فرض ، ومسح الباقي سنة ، ويتحقق البعض عندهم بشعرات .

وقالت الحنفية : مسح ربع الرأس فرض ، ومسح باقيه سنة .

والأولى : الأخذ بقول المالكية وأحمد ، فيمسح المتوضىء جميع رأسه احتياطاً ، والاحتياط في الدين واجب .

وغسل الرجلين : وهو فرض بالإجماع ، ويجب إدخال الكعبين[1] في الغسل مثل إدخال المرفقين في غسل اليدين .

والترتيب : وهو فرض عند الشافعية وأحمد ، وسنة مؤكدة عند غيرهما .. ومعناه : غسل الوجه ، ثم اليدين ، ثم مسح الرأس ، ثم غسل الرجلين ، كما جاء في نص الآية .

والموالاة : وهي فرض عند المالكية وبعض الحنابلة ، وسنة عند غيرهم .. ومعناها : تتابع غسل الأعضاء ، عضواً بعد عضو من غير مهلة ولا انتظار .

والتدليك : وهو فرض عند المالكية وبعض الفقهاء ، وسنة عند غير

---

(١) الكعبان : هما العظمتان البارزتان عند مفصل الساق والقدم .

المالكية لعدم التصريح به في الأحاديث الكثيرة الواردة في الوضوء والغسل ، والله أعلم .. والمراد به : إمرار اليد علي العضو مع الماء أو بعده .

وللوضوء : سنن ومستحبات نجملها ـــ كذلك ـــ فيما يلي :

التسمية : وصفتها أن يقول العبد عند بدء الوضوء : بسم الله والحمد لله . وغسل الكفين ثلاثاً في أول الوضوء ، والسواك ، والمضمضة ثلاثاً ، والاستنشاق وهو إدخال الماء في الأنف ، والاستنثار وهو إخراج الماء من الأنف ، وتخليل اللحية وهو إيصال الماء إلى منابت الشعر ، وتثليث غسل الفرائض ، وتخليل الأصابع عند غسل اليدين والرجلين ، والتيامن ، ورد مسح الرأس بحيث يرجع بيده إلى حيث بدأ، ومسح الأذنين ظاهرهما وباطنهما مرة واحدة بماء الرأس ، والاقتصاد في الماء ، والدعاء أثناء الوضوء بالدعاء الوارد ، وهو : « اللهم اغفر لى ذنبي ، ووسع لى في دارى ، وبارك لى في رزقى »(١) ، والدعاء بعد الفراغ من الوضوء بالدعاء الوارد ، مثل : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك »(٢) ، « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله »(٣) ، وصلاة ركعتين بعد الوضوء، والشرب من فضلة ماء الوضوء ..

* * *

حكم الغســـل

والغسل : وهو تعميم الجسد بالماء ، ولغة : الإسالة ، وشرعاً : إيصال الماء إلي جميع الجسد ، ودليله قول الله تعالى : ﴿ **وإن كنتم جنباً فاطهروا** ﴾(٤) .

---

(١) من حديث رواه النسائي وابن السني بإسناد صحيح .

(٢) من حديث أخرجه ابن السني والطبراني .

(٣) من حديث أخرجه أحمد ومسلم .

(٤) المائدة : ٦ .

ويفترض الغسل لأمور ستة :

الأول : خروج المنى وبروزه من حشفة الرجل ، وإلى فرج المرأة الظاهر بلذة ، ولو حكماً : كمحتلم رأى بللاً ولم يدرك الشهوة ، لكن إذا نزل المنى على سبيل المرض ، دون لذة فحكمه حكم البول ، لا يجب منه الغسل ، ولكن يجب منه الوضوء .

الثانى : التقاء الختانين ، فإذا التقى الختانان : ختان الرجل وختان المرأة .. وجب الغسل سواء نزل المنى أم لم ينزل ، وهذا بالنسبة للرجل والمرأة .

ويرى جمهور الفقهاء أن الرجل لو غيب حشفة ذكره في دبر أنثى عليه وعليها الغسل .

وإتيان المرأة في دبرها حرام .

الثالث : انقطاع الحيض والنفاس ، لقول الله تعالى : ﴿ **ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله** ﴾[1] .

الرابع : الولادة ولو بلا دم ، احتياطاً لأنها لا تخلو من أثر دم .

الخامس : الموت ، فقد أجمع العلماء على أنه يفترض على الأحياء فرض كفاية تغسيل الميت .. إلا الشهيد فإنه لا يغسل ، بل يكفن ويدفن في دمائه .
وكذلك السقط الذي لم يستهل صارخاً عند بعض الفقهاء .

السادس : إسلام الكافر ، فإنه يجب عليه أن يغتسل .

وللغسل فرائض ، وهى :

١ ــ **النية** : وهى فرض عند المالكية والشافعية ، وشرط عند الحنابلة ، وسنة مؤكدة عند الحنفية ، والنية محلها القلب ، وتكون عند أول عضو يغسل ، ويقصد المغتسل بنيته رفع الحدث الأكبر ، لإباحة ما كان الحدث

---

(١) البقرة : ٢٢٢ .

الأكبر مانعاً منه .

٢ ـ تعميم الجسد بالماء : وهو فرض بالاتفاق . والاغتسال معناه ، تعميم الجسد بالماء ، من منابت شعر الرأس ، إلى باطن القدمين .

٣ ـ الموالاة : وهو تتابع غسل الأعضاء ، عضواً بعد عضو من غير مهلة يجف فيها العضو الذى غسل قبله .. وهى فرض عند المالكية ، وسنة عند غيرهم .

٤ ـ التدليك : وهو فرض عند المالكية ، وسنة عند غيرهم .

٥ ـ تخليل الشعر : لأن كل شعرة تحتها جنابة ... وهو فرض عند المالكية ، سنة عند غيرهم .

٦ ـ المضمضة والاستنشاق : وهما فرضان عند الحنفية وأحمد ، وسنتان عند الجمهور من الشافعية والمالكية وغيرهم .

وللغسل ـ كذلك ـ سنن كثيرة نجملها فيما يأتي :

التسمية في أوله بأن يقول : « بسم الله والحمد لله » ، وغسل الكفين قبل إدخالهما في الماء ثلاثاً ، وغسل الفرج أولاً قبل الوضوء للغسل ، والوضوء فى أوله ، وتخليل شعر الرأس واللحية عند غير المالكية ، ويلحق بتخليل شعر الرأس واللحية تخليل أصابع اليدين والرجلين ، والبدء بالأعالى قبل الأسافل والميامن قبل المياسر ، وتثليث غسل الرأس وكذا سائر الجسد ، والاستتار حال الغسل ـ وهو واجب عند كثير من الفقهاء ـ والاقتصاد فى الماء .

* * *

حكم التيمم

والتيمم : طهارة ترابية ، تسد مسد الطهارة المائية ، وضوءاً كانت أو غسلاً عند فقد الماء ، أو عدم القدرة على استعماله ..

وهو عبارة عن ضربتين بالكفين ، على الصعيد الطاهر ، ضربة للوجه ، وضربة لليدين إلى المرفقين .

ودليل مشروعيته ، قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ، إن الله كان عفواً غفوراً** ﴾[1] .

وللتيمم فرائض ، أو أركان نجملها فيما يلي :

١ ــ النية : وتكون عند الضرب بالكفين على الصعيد ــ أى التراب ــ الطاهر .

٢ ــ الصعيد الطاهر : وقد اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز التيمم إلا على الصعيد الطاهر ، لأن الصعيد النجس ، أو المتنجس ، لا يطهر غيره ..

٣ ــ الضربة الأولى على الصعيد الطاهر : وأما الضربة الثانية فهى سنة : عند مالك وجمهور من الفقهاء ، وفرض : عند الشافعى وجمهور من الفقهاء وهو الأصح : لحديث جابر ، أن النبى ﷺ ، قال : « التيمم ضربة للوجه ، وضربة للكفين إلى المرفقين » . أخرجه الدارقطنى .

٤ ، ٥ ــ مسح الوجه واليدين إلى المرفقين : وهما فرضان بالاتفاق ، لقوله تعالى : ﴿ **فامسحوا بوجوهكم وأيديكم** ﴾ : ويجب عند مسح اليدين نزع الخاتم ، والأساور ، أو تحريكهما إن كانا واسعين .

٦ ــ الموالاة : وهى فرض عند المالكية ، في التيمم مطلقاً ، سواء أكان التيمم لحدث أصغر ، أو لحدث أكبر ، كما في الوضوء والغسل : وهى فرض عند الحنابلة في التيمم لحدث أصغر ، لأن الموالاة عندهم في الغسل غير واجبة على المشهور .

---

(١) النساء : ٤٣ .

٧ ـ الترتيب : وهو فرض عند الشافعية ، قياساً على الوضوء .

ومن سنن التيمم : التسمية ، والسواك ، والنفخ في اليدين ، قبل وضعهما على الوجه ، إن علق بهما تراب كثير ، والموالاة : خلافاً للمالكية والحنابلة ، والترتيب : خلافاً للشافعية .

* * *

حكم الصلاة

الصلاة : عماد الدين ، وركنه الركين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن ضيعها فقد هدم الدين .

قال رسول الله ﷺ : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » من حديث رواه الترمذي .

وقال رسول الله ﷺ : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » رواه البخارى ومسلم .

والصلاة تنقسم إلي ثلاثة أقسام :

١ ـ صلاة مفروضة فرض عين : وهى الصلوات الخمس .

٢ ـ وصلاة مفروضة فرض كفاية ، وهى : صلاة الجنازة .

٣ ـ وصلاة نافلة ، وهى : ما سوى ذلك ، فتشمل المسنونة والمستحبة .

والفرائض : كل ما أوجبه الله على عباده ، والصلاة من أعظمها .

والنوافل : ما زاد على الفرائض ، والصلاة في بابها ، من أعظمها أيضاً :

قال النبراوى فى شرح الأربعين النووية : « ... وأما الأفضل على الإطلاق بعد الشهادتين ، فهو الصلاة عندنا ، فنفلها أفضل النوافل ، وفرضها أفضل الفروض ، لما صح من قوله ﷺ : « الصلاة خير موضوع »(١) أى خير شيء وضعه الشارع .

وقد فرض الله علي كل مكلف(٢) ، من هذه الأمة ، خمس صلوات في اليوم والليلة ، وفرضيتها ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع :

قال تعالى : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل** ﴾(٣) .

وروى البخارى ومسلم في صحيحيهما من حديث طلحة بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ ، من نجد ، ثائر الرأس ، يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « خمس صلوات في اليوم والليلة . قال : هل على غيرهن ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع .. » الحديث .

وقد فرضت الصلاة ، على هذه الأمة ، في ليلة الإسراء والمعراج ، قبل الهجرة بنحو سنة ونصف .

وهى أول فريضة فرضت في الإسلام .

وللصلاة شروط لا تصح إلا بها :

الشرط الأول : الإسلام ، فلا تصح الصلاة من كافر ، وكذلك سائر العبادات لا تصح منه ، ولا تقبل ، وليس له عليها فى الآخرة من ثواب .

الشرط الثاني : الطهارة من الحدث الأصغر ، ومن الحدث الأكبر .

الشرط الثالث : الطهارة من الخبث ، فقد اتفق جمهور العلماء على أن طهارة الثوب ، والمكان ، والبدن : واجبة .

---

(١) أخرجه ابن حبان والحاكم ، وتمامه : « فمن شاء استكثر ومن شاء استقل » .
(٢) من المسلمين والمسلمات .
(٣) هود : ١١٤ .

الشرط الرابع : دخول الوقت ، فلا تجب الصلاة إلا إذا دخل وقتها ، ولا تصح إذا وقعت قبل دخول وقتها .

الشرط الخامس : استقبال القبلة مع الأمن والقدرة وذلك ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين .

قال الله تعالى : **﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾**(١) .

وقال رسول الله ﷺ للمسيء صلاته : « وإذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء(٢) ، ثم استقبل القبلة .. » الحديث رواه البخارى ومسلم .

الشرط السادس : ستر العورة : وقد اتفق العلماء على أن ستر العورة في الصلاة شرط فى صحتها ، مع القدرة والتذكر ، ولا بد أن يكون الساتر كثيفاً ، لا يظهر لون البشرة .

ولكل من الرجل والمرأة عورتان : عورة مغلظة ، وعورة مخففة .

أما عورة الرجل المغلظة : فهى قبله ، ودبره ، وأنثياه ــ خصيتاه ــ وما حولهما .

فإن صلى مكشوف القبل ، أو الدبر ، كلاً أو بعضاً ، بطلت صلاته .

وأما عورته المخففة : فمن السرة إلى الركبة ، فإن صلى مكشوف السرة ، أو الفخذين ، أو الظهر ، أو البطن : فصلاته صحيحة ، على الأصح مع الكراهة .

أما عورة المرأة المغلظة : فهى ما بين سرتها وركبتها .

وأما عورتها المخففة : فجميع بدنها ، إلا وجهها وكفيها .

---

(١) البقرة : ١٥٠ .

(٢) إسباغ الوضوء : أى إتمامه على المكاره ، أى على الرغم من وجود ما يكره معه استعمال الماء كالبرد وغيره .

فعلى المرأة إذا أرادت الصلاة ، أن تستر جميع بدنها ، من رأسها حتى ظاهر قدميها ، إلا وجهها وكفيها ، حتى ولو كانت تصلى وحدها في حجرة مظلمة .

فعن أم سلمة أنها سألت النبى ﷺ : أتصلى المرأة فى درع وخمار ، وعليها إزار ؟ فقال « نعم .. إذا كان الدرع سابغاً يغطى ظهور قدميها » رواه أبو داوود والحاكم .

والدرع : هو القميص . والخمار : هو ما يسمى بالطرحة .

وروى الطبراني في الأوسط عن أبي قتادة أن النبى ﷺ ، قال : « لا يقبل الله من امرأة صلاة حتى توارى زينتها ، ولا من جارية بلغت المحيض حتى تختمر » والجارية : أى الفتاة .

الشرط السابع : ترك الكلام ، وهو شرط في صحتها ، لما رواه زيد بن أرقم ، قال : « كنا نتكلم في الصلاة ، يكلم الرجل منا صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت : ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾[1] فأمرنا بالسكوت ، ونهينا عن الكلام » رواه البخارى ومسلم .

فمن تكلم في الصلاة بكلام خارج عنها ، بطلت صلاته ، سواء أكان الكلام عمداً ، أم سهواً ، على خلاف فى ذلك[2] .

الشرط الثامن : ترك الأفعال الكثيرة المؤدية إلى بطلان الصلاة[3] . وقد وضع المالكية والحنابلة قاعدة وهى : أنه إذا رآه الرائى ، ظن أنه في غير صلاة .

وللصلاة أركان ، أو فرائض ، لو سقط ركن منها بطلت الصلاة :

---

(١) قانتين : أى خاشعين ، والآية من سورة البقرة : ٢٣٨ .

(٢) يرى الشافعية أن من تكلم في الصلاة ناسياً ، لا تبطل صلاته قياساً على الأكل والشرب نسياناً في الصوم .

(٣) وقد قدرها الشافعية بثلاث حركات في الركعة الواحدة باليد ، أو ثلاث خطوات ، أو وثبة قوية .

وهى ستة عشر ركناً ، بعضها متفق على فرضيته ، وبعضها مختلف فيه ، وإليك بيان ما اتفق عليه منها ، وما اختلف فيه :

١ ـــ النية : وهى فرض عند جمهور الفقهاء ، لقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات » .

٢ ـــ تكبيرة الإحرام : وهى فرض بالإجماع ، لقوله ﷺ : « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » أخرجه أحمد والترمذى .

ولفظها : « الله أكبر » وسميت تكبيرة الإحرام ، لأن بها يدخل العبد في حرم الصلاة ، فلا يأتى بأقوال ينافي أقوالها ، ولا بأفعال تخالف أفعالها .

٣ ـــ القيام لتكبيرة الإحرام مع القدرة ، أما العاجز، فله أن يكبر قاعداً ، أو مضطجعاً ، حسب قدرته .

والقيام فرض ، في صلاة الفرض بالإجماع ، لقوله تعالى : ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾ أى مطيعين . والمراد القيام في الصلاة بإجماع المفسرين .

أما صلاة النوافل ، فالقيام فيها مستحب ، فمن صلى قائماً ، فله الثواب كله ، ومن صلى قاعداً فله نصف الثواب .

٤ ـــ قراءة الفاتحة : وهى فرض في صلاة الفرض والنفل ، على الإمام والمأموم والمنفرد ، مع القدرة على قراءتها ، لقوله ﷺ : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » أخرجه البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت .

وهذا مذهب الشافعية ، وجمهور آخر من الفقهاء .

ويرى المالكية ، والحنفية ، وفريق من الحنابلة أنها فرض على المنفرد والإمام ، ومستحب في حق المأموم واستدلوا بقول جابر رضى الله عنه : « من صلى ركعة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب لم يصل(١) إلا أن يكون وراء الإمام » أخرجه الترمذى .

---

(١) أى لم تصح صلاته .

وقال النووى فى شرح مسلم : وإذا لحن في الفاتحة لحناً يخل بالمعنى ، كضم تاء أنعمت[1] ، أو كسرها ، أو كسر كاف إياك ، بطلت صلاته ، وإن لم يخل بالمعنى : كفتح الباء من المغضوب عليهم ونحوه ، كره ولم تبطل صلاته أ . هـ .

لهذا يجب على المصلى أن يصح قراء الفاتحة ، حتى لا تبطل صلاته .

٥ ـ القيام لقراءة الفاتحة مع القدرة : وهو فرض بالإجماع فى صلاة الفرض ، مثل القيام لتكبيرة الإحرام لقوله تعالى : ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾ .

أما النفل فالقيام فيه مستحب ، فإن صلى قائماً ، أو جالساً بعذر ، فله الأجر كله ، وإن صلى جالساً بغير عذر ، فله نصف الأجر .. والله أعلم .

٦ ـ الركوع : وهو فرض بالإجماع في كل صلاة ، إلا صلاة الجنازة فإنه ليس فيها ركوع ولا سجود .. قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون** ﴾[2] .

ويتحقق الركوع عند جمهور الفقهاء بالانحناء ، بحيث تصل اليدان إلى الركبتين .

وأكمله عند الجميع يكون بتسوية الرأس والعجز ، والاعتماد بيديه على ركبتيه ، وتفريج أصابعه ، وبسط ظهره ، لقول أبى حميد الساعدى رضى الله عنه : « كان النبى ﷺ إذا ركع اعتدل ، ولم يصوب[3] ووضع يديه على ركبتيه » أخرجه النسائى .

٧ ـ الرفع من الركوع : وهو فرض عند الجمهور ، لقوله ﷺ للمسىء صلاته : « ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ، ثم ارفع حتى تطمئن قائماً » .

ويتحقق باعتدال القامة ، على نفس الهيئة ، التى كان عليها قبل الركوع ، وأثناء القراءة .

---

(١) فى سورة الفاتحة .

(٢) الحج : ٧٧ .

(٣) يميل رأسه إلى أسفل .

(٤) يرفعه حتى يكون أعلى من ظهره .

٨ ــ السجود : وهو فرض بالإجماع ، لقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ .

وتكريره في كل ركعة فرض بالسنة والإجماع .

ويتحقق السجود بوضع سبعة أعضاء على الأرض ، وهى : الوجه ، والكفان ، والركبتان ، والقدمان .

فعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب ــ أي أعضاء ــ وجهه ، وكفاه ، وركبتاه ، وقدماه » أخرجه مسلم .

فإذا لم يسجد العبد على عضو من هذه الأعضاء السبعة ، بطلت صلاته . واختلفوا في السجود على الأنف .. فقال أكثر الفقهاء : السجود عليه واجب ، لأنه ملحق بالجبهة ، ولقوله ﷺ : « لا صلاة لمن لا يصيب أنفه الأرض » أخرجه الدارقطنى .

وقال المالكية : لو سجد المصلى على وجهه دون أنفه ، صحت صلاته ، ولكن الأفضل أن يعيدها ، ما دام الوقت باقياً ، مراعاة للخلاف .

٩ ــ الجلوس بين السجدتين : وهو فرض عند الأئمة ، وينبغى أن يستقر المصلى بمقدار ما يقول : اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، واعف عنى ، واهدنى ، وارزقنى .. ثم يسجد السجدة الثانية .

١٠ ، ١١ ــ الجلوس الأخير والتشهد فيه :

وهما فرضان عند الشافعية وأحمد لما رواه الطبراني والبزار ، عن ابن مسعود ، قال : كان النبى ﷺ يعلمنا التشهد ، كما يعلمنا السورة من القرآن ، ويقول : « تعلموا ، فإنه لا صلاة إلا بتشهد » فدل هذا الحديث على أن التشهد فرض .

ويرى المالكية : أن التشهد الثاني سنة ، كالتشهد الأول ، والجلوس له أيضاً سنة ، إلا الجلسة الأخيرة ، بقدر السلام ، أى بقدر ما يقول المصلى : السلام عليكم ، عن يمينه فقط بحيث لو سلم وهو واقف لا تصح صلاته ..

١٢ ــ الصلاة على النبى ﷺ عقب التشهد الأخير .

وهى فرض عند الشافعية في التشهد الأخير ، دون الأول : لحديث فضالة ابن عبيد رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه والثناء عليه ، ثم يصلى على النبى ﷺ ، ثم يدعو بما شاء » أخرجه أحمد وأبو داوود .

ويرى المالكية والحنفية وجمهور الحنابلة أنها سنة : لحديث أبى هريرة رضى الله عنه : أن النبى ﷺ ، قال : « إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر ، فليتعوذ بالله من أربع : من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر المسيح الدجال »(١) أخرجه أحمد ومسلم .

فقالوا : قد أمر بالاستعاذة عقب التشهد ، ولم يذكر الصلاة على النبى ﷺ ، ولو كانت ركناً لذكرها ، ولأن الوجوب إنما يكون بدليل شرعى ، ولم يرد ، وحديث فضالة لا يدل على وجوبها لأنه ﷺ أمر فيه بالدعاء في آخر الصلاة : وهو غير واجب اتفاقاً(٢) .

١٣ ــ السلام : وهو فرض ، لقوله ﷺ : « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » . ولقوله ﷺ : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » رواه البخاري .

ولم يعرف أن النبى ﷺ قد ترك السلام في صلاة من الصلوات ، والتسليمة الأولى هى الفرض ، وينبغى أن تكون جهة اليمين .. والتسليمة الثانية سنة عند الجمهور .

ولا بد أن يكون السلام معرفاً بالألف واللام عند مالك وأحمد ، ولفظه : « السلام عليكم » فلا يجزىء « سلام عليكم » خلافاً للشافعية .

---

(١) وسمى بالمسيح لأنه يمسح الأرض ويقطعها في أربعين يوماً ، ولأنه ممسوح العين اليمنى : كما في الدين الخالص ج ١ .

(٢) كما يقول في الدين الخالص ، والفقه الواضح .

(٣) رواه البخاري .

والأكمل في السلام ، أن يقول المصلى : « السلام عليكم ورحمة الله » يميناً وشمالاً[1] .

١٤ ، ١٥ ـــ الطمأنينة والاعتدال في جميع الأركان : لقوله ﷺ للمسيء في صلاته : « .. ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ، ثم ارفع حتى تطمئن قائماً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم قم ، فإذا أتممت صلاتك على هذا فقد أتممتها ، وما انتقصت من هذا من شيء ، فإنما انتقصته من صلاتك » أخرجه أحمد .

والاعتدال معناه استواء الأعضاء ، فى الركوع والسجود والجلوس والقيام .

والطمأنينة معناها : استقرار الأعضاء ، وسكونها زمناً يسع تسبيحة علي الأقل عند المالكية وبعض الشافعية ، أو ثلاث تسبيحات على الأقل عند كثير من الفقهاء ، وهو الأصح .

١٦ ـــ ترتيب الأركان : وهو ركن بالإجماع ، لقوله ﷺ : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

وقد كانت صلاته ﷺ ، على هذا الترتيب المنقول عنه ، ولم يثبت عن أحد من الصحابة أن النبى ﷺ ، قد خالف هذا الترتيب ، فسجد ـــ مثلاً ـــ قبل أن يركع : فمن خالف هذا الترتيب بطلت صلاته إن تعمد ذلك . والله أعلم .

وللصلاة كذلك سنن ومستحبات ، وهي : رفع اليدين حذو المنكبين ، أو حذو الأذنين ، عند تكبيرة الإحرام أو قبلها ، ووضع اليمين علي الشمال فوق السرة ، وتحت الصدر .. وقد صح من طرق كثيرة ، أن رسول الله ﷺ ، كان إذا صلى ، وضع يده اليمنى على اليسرى .

وإذا كان بعض المالكية يري أن إرسال اليدين أولى من قبضهما : فقد

---

(١) الحديث أخرجه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه والدارقطنى وابن حبان والبزار .

جاء في الموطأ ما يخالف رأيهم هذا ، وهو أن الإمام مالك رحمه الله ، لم يزل يقبض يديه في الصلاة ، حتى لقى الله عز وجل .

والقبض هو وضع اليمين على الشمال فوق السرة .

والقبض عند جمهور الفقهاء والمحدثين ، أولى من الإرسال ، للأحاديث الكثيرة التي صحت عن رسول الله ﷺ ، والتي منها :

ما رواه البخاري ، عن سهل بن سعد قال : كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل يده اليمني علي ذراعه اليسرى في الصلاة .

وما رواه أحمد ، عن هلب الطائى ، قال : رأيت النبي ﷺ يضع اليمنى على اليسرى على صدره فوق المفصل .

ومن السنن : دعاء الاستفتاح قبل قراءة الفاتحة ، وهو سنة عند أكثر أهل العلم .. ومن الأحاديث الواردة في هذا ، ما رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا كبر في الصلاة سكت هنيهة — لحظة قصيرة — فقلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمى ، أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ، ما تقول ؟ قال : « أقول : اللهم باعد بينى وبين خطاياى ، كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من خطاياى ، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس . اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والماء والبرد » . والبرد — بفتح الراء — أى الندى .

ومن السنن : الاستعاذة ، ويستحب افتتاح القراءة بها ، لقوله تعالى : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾(١) قال ابن المنذر : جاء عن النبى ﷺ ، أنه كان يقول قبل البدء في القراءة : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

---

(١) النحل : ٩٨ .

والاستعاذة إنما تستحب في الركعة الأولى فقط ، باعتبار أن القراءة في الصلاة قراءة واحدة ، ويستحب أن تكون سراً ، عند أكثر أهل العلم .

ومن السنن : التأمين ، فيسن للفرد ، والإمام والمأموم أن يقول ، بعد قراءة الفاتحة : « آمين » .. ويرفع بها صوته ، ومعنى لفظ آمين : « اللهم استجب » .

ويستحب للمأموم ، أن يوافق تأمينه تأمين الملائكة وقد ورد أنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له :

فعن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « إذا قال الإمام : ﴿ **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ فقولوا آمين ، فإن من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » رواه البخارى .

ومن السنن : القراءة بعد الفاتحة ، سورة ولو قصيرة ، من القرآن ، أو آية تعدل أقصر سورة منه ، مثل سورة الكوثر وذلك في ركعتى الصبح ، والركعتين الأوليين في الظهر والعصر والعشاء ، وفي ركعتي الجمعة ، وفي ركعات النوافل :

فعن أبي قتادة رضي الله عنه: « أن النبى ﷺ ، كان يقرأ في الظهر في الأوليين بأم الكتاب[1] وسورتين ، وفي الركعتين الأخيرتين بأم الكتاب ، ويسمعنا الآية أحياناً ، ويطول في الركعة الأولى ما لا يطول في الثانية ، وهكذا في العصر ، وهكذا في الصبح » رواه البخارى ومسلم .

ومن السنن : السر فيما يسر فيه ، والجهر فيما يجهر فيه : فينبغى على المصلى أن يقرأ سراً في صلاة الظهر والعصر ، والركعة الأخيرة من المغرب ، والركعتين الأخيرتين من العشاء ، وفي صلاة النفل من النهار .

وأن يقرأ جهراً في ركعتى الصبح ، والركعتين الأوليين من المغرب ، والركعتين الأوليين من العشاء ، وركعتي الجمعة ، وركعتى العيد ، الفطر

---

(١) أى سورة الفاتحة .

والأضحى ، وفي النفل ليلاً .

وأقل السر أن يسمع الإنسان نفسه ، وعند مالك يكتفي بحركة اللسان ، وأقل الجهر أن يسمع الإنسان نفسه ومن يليه ، وأكثره لا حد له ، إلا أنه ينبغي على المصلي ألا يرفع صوته جداً ، وألا يخفضه جداً ، بل يكون وسطاً بين بين ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ .. **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً** ﴾[1] .

ولو أسر المصلي فيما يجهر فيه ، وجهر فيما يسر فيه : فلا شيء عليه ، بل متى ذكر ذلك ، فليعمل ما هو مطلوب منه من الإسرار والجهر .

ويرى المالكية : أنه من أسر فيما يجهر فيه ، أو العكس يسجد للسهو .

ومن السنن : تكبيرات الانتقال ، فهي سنة بلا خلاف ، وذلك بأن يكبر المصلي عند الشروع في الركوع ، وعند الشروع في السجود ، وعند الرفع منه ، وعند القيام .

أما عند الرفع من الركوع ، فإنه يقول : « سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد » وإن كان مأموماً وسمع الإمام ، يقول : « سمع الله لمن حمده » فليقل خلفه : « ربنا ولك الحمد » .

روى أحمد والنسائي ، عن ابن مسعود ، قال : رأيت رسول الله ﷺ ، يكبر في كل خفض ، ورفع ، وقيام ، وقعود .

ومن السنن : تفريج الأصابع في الركوع ، ووضع اليدين علي الركبتين ، وجعل الرأس مساوياً للظهر : وذلك لما روى عن عقبة بن عامر أنه ركع فجافى يديه على ركبتيه ، وفرج بين أصابعه من وراء ركبتيه ، وقال : « هكذا رأيت رسول الله ﷺ يصلى » رواه أحمد وأبو داوود .

ومعنى « جافى يديه » أبعد ذراعيه قليلاً عن ركبتيه ، ومعنى « تفريج الأصابع » أى تفريقها حول الركبتين .

---

(١) أى وسطاً . والآية من سورة الإسراء : ١١٠ .

ومن السنن : الذكر في الركوع ، فهو سنة عند الجمهور ، وذلك بأن يقول المصلي في ركوعه : « سبحان ربي العظيم » :

فعن عقبة بن عامر رضى الله عنه ، قال : لما نزلت : ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾(١) قال لنا النبي ﷺ : « اجعلوها في ركوعكم » رواه أحمد وأبو داوود .

وعن حذيفة ، قال : صليت مع رسول الله ﷺ ، فكان يقول في ركوعه : « سبحان ربي العظيم » رواه مسلم .

وأقل التسبيح عند جمهور الفقهاء ثلاث تسبيحات .. وهذا هو الأصح :

لحديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، أن النبي ﷺ ، قال : « إذا ركع أحدكم فليقل ثلاث مرات : سبحان ربي العظيم ، وإذا سجد فليقل : سبحان ربي الأعلى ثلاثاً ، وذلك أدناه » أخرجه أبو داوود والترمذي .

ومن السنن : الذكر عند الرفع من الركوع ، فقد ورد في حديث رواه أحمد عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « إذا قال الإمام : سمع الله لمن حمده ، فقولوا : ربنا ولك الحمد ، فإن من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » .

ويستحب الزيادة علي قول : « ربنا ولك الحمد » ، مثل : « حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، ملء السموات والأرض » كما جاء في نص حديث رواه أحمد والبخاري ، وحديث رواه أحمد ومسلم .

ومن السنن : رفع اليدين عند الركوع وعند الرفع منه ، فقد وردت أحاديث تفيد أن النبي ﷺ فعله في صلاته ، منها :

ما رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه ، قال : « كان رسول الله

---

(١) الحاقة : ٥٢ .

ﷺ ، إذا قام إلى الصلاة رفع يديه ، حتي يكونا حذو منكبيه ، ثم يكبر ، فإذا أراد أن يركع رفعهما مثل ذلك ، وإذا رفع رأسه من الركوع رفعهما كذلك ، وقال : سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد » .

ومن السنن : التسبيح والدعاء في السجود ، وهو سنة لما رواه عقبة بن عامر رضى الله عنه ، قال : لما نزلت : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾(١) قال رسول الله ﷺ : « اجعلوها في سجودكم » رواه أحمد .

وأما الدعاء في السجود فمطلوب .. لقوله ﷺ : « أقرب ما يكون أحدكم من ربه وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء » .

ومن السنن : ضم الأصابع في السجود وهو مستحب ، لما رواه الحاكم وابن حبان أن رسول الله ﷺ كان إذا ركع فرج بين أصابعه ،وإذا سجد ضم أصابعه .

ومن السنن : الجلوس الأول وقراءة التشهد فيه ، وهما سنتان عند جمهور الفقهاء .

ومن السنن : الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد الأخير ، وهى سنة عند جمهور الفقهاء ، ويرى بعض الشافعية أنها فرض .

وأفضل الصيغ الواردة في الصلاة عليه ، ما رواه مسلم عن أبى مسعود البدرى ، قال : قال بشر بن سعد : يا رسول الله .. أمرنا الله أن نصلى عليك ، فكيف نصلى عليك ؟ فسكت ، ثم قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك علي محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد ، والسلام كما علمتم » أى وبعدها تقولون : السلام عليكم كما علمتموه منى .

---

(١) الأعلى : ١ .

(٢) يرى الشافعية وأحمد : أنهما فرضان ، ويرى المالكية : أن التشهد الثاني سنة ، كالتشهد الأول ، والجلوس له أيضاً سنة ، إلا الجلسة الأخيرة بقدر السلام .. بحيث لو سلم وهو واقف لا تصح صلاته .

ومن السنن : الدعاء بعد التشهد الأخير ، وقبل السلام ، فيسن للمسلم أن يدعو بعد تشهده لنفسه وغيره ، بخيري الدنيا والآخرة .

فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، علمهم التشهد ، ثم قال فى آخره : « ثم ليختر من المسألة ـــ أى الدعاء ـــ ما شاء » رواه مسلم .

ومن السنن : القنوت ، وهو سنة عند الشافعية في صلاة الصبح دائماً ، وفي الوتر في النصف الأخير من رمضان ، وفي جميع الصلوات عند نزول البلاء .

وإن تركه المصلى سهواً ، سجد له قبل السلام سجدتين ، ويستحب الجهر فيه ، ويستحب رفع اليدين عند الدعاء ، وقيل لا يستحب ذلك ، ويستحب مسح الوجه باليدين ، وقيل يكره ذلك ، ويجزىء فيه أى دعاء يضرع به العبد إلى الله ، وذكر له دعاء مخصوص : ومحله ـــ عند الشافعية بعد الرفع من الركوع الأخير .

ويرى المالكية : أن القنوت مستحب ، إن نسيه المصلى لا يسجد له سجدتى السهو ، ويرون أنه قبل الركوع الأخير ، في صلاة الصبح ، ويستحب أن يكون سراً للإمام والمأموم معاً ، ويجزىء فيه أى دعاء ، ولهم فيه دعاء مأثور ، وهو : « اللهم إنا نستعينك ، ونستهديك ، ونستغفرك ، ونتوب إليك ، ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، ونخضع(١) لك ونخلع ونترك من يكفرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد(٢) ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكافرين ملحق ، وصلى الله علي النبى محمد » .

وروى أحمد وأصحاب السنن ، عن الحسن بن على ، قال : علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر : « اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافني فيمن

---

(١) أى نترك الأديان الباطلة ونرفض الشرك .

(٢) نسارع في طاعتك .

عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، فإنك تقضى ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت، وصلى الله علي النبى محمد » قال الترمذى : هذا حديث حسن .

ويرى الحنفية : أن القنوت سنة في الوتر دائماً ، ومحله بعد الرفع من الركوع .

ومن السنن : زيادة سجدة للتلاوة في صبح يوم الجمعة ، وهى سنة عند الشافعية مطلقاً ودائماً ، في صبح يوم الجمعة ، دون غيره من الصلوات .

وقال الحنفية وبعض الحنابلة : هى سنة بشرط ألا يداوم عليها حتى لا يعتقد العوام أنها من جملة أركان الصلاة .

وقال بعض المالكية : تكره إن تعمدها المصلى ، بأن قرأ آية السجدة متعمداً ليوقع السجدة .

واحتج القائلون بأنها سنة بما رواه مسلم في صحيحه وغيره عن ابن عباس : « أن النبى ﷺ كان يقرأ يوم الجمعة ، في صلاة الصبح ألم تنزيل(١) ، وهل أتى على الإنسان » .

وبما رواه الطبراني عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة : « ألم تنزيل .. السجدة »و « هل أتى على الإنسان » يديم ذلك .

* * *

صلاة الجمعة

وهى فرض عين على من توافرت فيه شروط الوجوب ، أى على المسلم ،

(١) أى سورة السجدة ، وسورة الإنسان .

العاقل ، البالغ ، الذكر ، الحر ، المقيم ، القادر علي الإتيان إلي المكان الذى تقام فيه الجمعة ، غير المعذور .

ودليل فرضيتها ، قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾[1] .

وما رواه الطبراني عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فقال : « إن الله تعالى قد كتب عليكم الجمعة ، في مقامي هذا ، في ساعتي هذه ، في شهري هذا ، في عامى هذا ، إلي يوم القيامة ، من تركها من غير عذر ، مع إمام عادل ، أو جائر ، فلا جمع الله شمله ، ولا بورك له في أمره ، ألا ولا صلاة له ، ولا حج له ، ألا ولا بر له ، ألا ولا صدقة له » .

وروى مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال عن قوم يتخلفون عن صلاة الجمعة : « لقد هممت أن آمر رجلاً يصلى بالناس ، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم »[2] .

وعن ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ، قال ــ وهو على أعواد منبره ــ : « لينتهين أقوام عن ودعهم[3] الجمعة ، أو ليختمن الله على قلوبهم ، وليكتبن من الغافلين » أخرجه أحمد والنسائى .

ويرى أكثر الفقهاء : أن خطبة الجمعة واجبة ، وهى شرط في صحة الجمعة ، واستدلوا ــ على رأيهم هذا ــ بقول الله تعالى : ﴿ .. **فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ : فالسعى إلي الخطبة واجب ، ولا يكون السعى واجباً إلا لشيء واجب فالخطبة واجبة ، وهذا بناء علي أن المراد بذكر الله في الآية الخطبة ،

---

(١) الجمعة : ٩ .
(٢) ومن رحمة الله تعالى بنا أن النبى ﷺ هم ولم يفعل .
(٣) أى تركهم .

لاشتمالها علي حمد الله ، والثناء عليه ، والتذكير بآياته .

وقد نقل الشيخ منصور بن إدريس وغيره عن عمر وعائشة رضى الله عنهما ، أنهما قالا « قصرت الصلاة من أجل الخطبتين ، فهما بدل الركعتين ، فالإخلال بإحداهما ،إخلال بإحدى الركعتين » .

* * *

الصلاة على الجنازة

وهى فرض كفاية على من حضرها من المكلفين .

فلو حضرت جنازة وصلى عليها بعض من حضرها سقط الوجوب علي من لم يصل عليها .

ودليل مشروعيتها : أن النبى ﷺ قد صلاها وأمر بها ، ولم يثبت أن النبى ﷺ امتنع عنها في حياته إلا إذا كان الميت عليه دين ، فإنه كان يأمر غيره بأن يصلى عليه إذا لم يكن للميت ما يوفي عنه دينه ، وذلك لتنفير المسلمين من الدين ، ومن المماطلة في سداده ..

* * *

الزكـــاة

وهي في عرف الشرع : القدر الواجب إخراجه لمستحقيه في المال الذي بلغ نصاباً معيناً بشروط مخصوصة .

وهى الركن الثالث من أركان الإسلام بعد الشهادتين والصلاة وقد قرنت بالصلاة في القرآن الكريم في اثنتين وثمانين آية .

وقد ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنة وإجماع الأمة : فمن أنكر وجوبها فقد كفر ، ووجب على الحاكم أن يأمره بالتوبة والرجوع عن إنكاره ، ويمهله ثلاثة

أيام يراجع فيها نفسه فإن تاب كان بها ، وإلا قتله كفراً[1] .

* * *

صـــوم رمضـــان

هو الركن الرابع من أركان الإسلام ، وفرضيته ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة :

قال الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب[2] عليكم الصيام كما كتب علي الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ .

وفي السنة : روى أحمد والبيهقي والنسائى ، عن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ ، قال ــ لما حضر رمضان ــ : « قد جاءكم شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه ، تتفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل[3] فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرم خيرها فقد حرم »[4] .

* * *

الحــــج[5]

وهو أحد أركان الإسلام الخمسة ، وفرض من الفرائض المعلومة من الدين بالضرورة .

---

(١) هناك أحكام كثيرة تتعلق بالزكاة وأنواعها تستطيع أن ترجع إليها في كتب الفقه المطولة .

(٢) أى فرض .. والآية من سورة البقرة : ١٨٣ .

(٣) أى تقيد .

(٤) أى حرم الخير كله .

(٥) وهو قصد مكة ، من أجل أداء مناسك الحج ، ومن أنكر وجوبه كفر وارتد عن الإسلام .

وقد ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة وإجماع الأمة :

قال تعالى : ﴿ ... **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا** ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾(٢) .

وقد أجمع العلماء على أن الحج لا يتكرر ، وأنه لا يجب في العمر إلا مرة واحدة – إلا أن ينذره فيجب الوفاء بالنذر – وما زاد فهو تطوع :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فقال : « يأيها الناس ، إن الله كتب(٣) عليكم الحج فحجوا » فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، ثم قال ﷺ : « لو قلت نعم ، لوجبت ، ولما استطعتم » ثم قال : « ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فقال : « يأيها الناس كتب عليكم الحج » فقام الأقرع ابن حابس ، فقال : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فقال : « لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ، ولم تستطيعوا ، الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع » رواه أحمد ، وأبو داوود ، والنسائى ، والحاكم وصححه .

وأما عن العمرة : وهى الزيارة للكعبة والطواف حولها ، والسعى بين الصفا والمروة ، والحلق ، أو التقصير :

فهى سنة : عند الأحناف ، ومالك لحديث جابر رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ ، سئل عن العمرة أواجبة هى ؟ قال : « لا .. وأن تعتمروا هو أفضل » رواه أحمد ، والترمذى ، وقال حديث حسن صحيح .

---

(١) آل عمران : ٩٧ .

(٢) البقرة : ١٩٦ .

(٣) أى فرض عليكم .

وهى فرض : عند الشافعية ، وأحمد لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾(١) فقد عطفت على الحج ، وهو فرض ، فهى فرض كذلك ، والأول أرجح .

وقد ذهب جمهور العلماء ، إلى أن وقت العمرة جميع أيام السنة ، فيجوز أداؤها في أى يوم من أيامها ، بعكس الحج ، لأن : ﴿ **الحج أشهر معلومات** ﴾(٢) . و « الحج عرفة »(٣) .

* * *

الجهاد في سبيل الله

فرض كفاية : إذا قام به البعض ، واندفع به العدو ، سقط عن الباقين .

قال في فقه السنة : ولا يكون الجهاد فرض عين إلا في الصور الآتية :

١ ـــ أن يحضر المكلف صف القتال ، فإن الجهاد يتعين في هذه الحال ، يقول الله سبحانه : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ...** ﴾(٤) .

ويقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار** ﴾(٥) .

٢ ـــ إذا حضر العدو المكان أو البلد الذي يقيم به المسلمون ، فإنه يجب على أهل البلد جميعاً أن يخرجوا لقتاله ، ولا يحل لأحد أن يتخلى عن القيام بواجبه نحو مقاتلته إذا كان لا يمكن دفعه إلا بتكتلهم عامة ، ومناجزتهم إياه :

---

(١) البقرة : ١٩٦ .
(٢) البقرة : ١٩٧ .
(٣) كما جاء في نص حديث صحيح .
(٤) الأنفال : ٤٥ .
(٥) الأنفال : ١٥ .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار** ﴾(١) .

٣ ــ إذا استنفر الحاكم أحداً من المكلفين ، فإنه لا يسعه أن يتخلى عن الاستجابة إليه :

لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما ، أن النبى ﷺ ، قال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » رواه البخارى .

أى : إذا طلب منكم الخروج إلي الحرب فاخرجوا .

ويقول الله سبحانه : ﴿ **يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل** ﴾(٢) .

ويجب الجهاد : علي المسلم ، الذكر ، العاقل ، البالغ ، الصحيح ، الذى يجد من المال ما يكفيه ويكفى أهله حتى يفرغ من الجهاد .

* * *

الفرائض(٣)

وهى جمع فريضة ، والفريضة ــ هنا ــ مأخوذة من الفرض بمعنى التقدير ، يقول الله سبحانه : ﴿ **فنصف ما فرضتم** ﴾(٤) أى قدَّرتم .

والفرض في الشرع هو النصيب المقدر للوارث ويسمى العلم بها علم الميراث وعلم الفرائض ، الذى أمرنا الرسول ﷺ بأن نتعلمه :

---

(١) التوبة : ١٢٣ .
(٢) التوبة : ٣٨ .
(٣) أى المواريث .
(٤) البقرة : ٢٣٧ .

فعن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تعلموا القرآن وعلموه الناس ، وتعلموا الفرائض وعلموها فإني امرىء مقبوض والعلم مرفوع ويوشك أن يختلف اثنان في الفريضة والمسألة فلا يجدان أحداً يخبرهما » ذكره أحمد .

وعن أبي هريرة أن النبى ﷺ قال : « تعلموا الفرائض وعلموها فإنها نصف العلم وهو ينسى ، وهو أول شيء ينزع من أمتى » رواه ابن ماجة والدارقطنى .

وقد كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام يورثون الرجال دون النساء ، والكبار دون الصغار ، وكان هناك توارث بالحلف ، فأبطل الله ذلك كله وأنزل :

﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس ، من بعد وصية يوصى بها أو دين ، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً ، فريضة من الله ، إن الله كان عليماً حكيماً ﴾(١) .

وسبب نزول هذه الآية ما جاء عن جابر ، قال : جاءت امرة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ بابنتيها من سعد ، فقالت : يا رسول الله .. هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك فى أحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ، ولا ينكحان إلا بمال . فقال : يقضى الله في ذلك . فنزلت آية المواريث . فأرسل رسول الله ﷺ إلي عمهما ، فقال : أعط ابنتي سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقى فهو لك » رواه البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى .

والمستحقون للتركة يرتبون علي النحو التالي في المذهب الحنفي(٢) :

---

(١) النساء : ١١ .

(٢) كما يقول في فقه السنة .

١ ــ أصحاب الفروض .
٢ ــ العصبة النسبية .
٣ ــ العصبة السببية .
٤ ــ الرد علي ذوى الفروض .
٥ ــ ذوو الأرحام .
٦ ــ مولى الموالاة .
٧ ــ المقر له بالنسب علي الغير .
٨ ــ الموصى له بأكثر من الثلث .
٩ ــ بيت المال .

ثم يقول في فقه السنة : أما ترتيب المستحق للتركة في قانون المواريث المعمول به في مصر ، فعلى النحو التالي :

١ ــ أصحاب الفروض .
٢ ــ العصبة النسبية .
٣ ــ الرد علي ذوى الفروض .
٤ ــ ذووالأرحام .
٥ ــ الرد علي أحد الزوجين .
٦ ــ العصبة السببية .
٧ ــ المقر له بالنسب علي الغير .
٨ ــ الموصى له بجميع المال .
٩ ــ بيت المال .

وتستطيع أن تقف علي تفصيل كل هذا في كتب الفقه المطولة ،كالدين الخالص ، وفقه السنة .

* * *

رد السلام

لأن الله تعالى أمر به فقال : ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ...** ﴾(١) .

* * *

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وقد أمر الله تعالى به كذلك ورغب فيه فقال : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون** ﴾(٢) .

* * *

البر بالوالدين

لأن الله تعالى أمر به ، فقال : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً** ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **وقضى ربك إلا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ...** ﴾(٤) .

إلى غير ذلك من الفرائض أو الواجبات التى أمرك الله تعالى بأدائها في قرآنه الكريم ، وعلى لسان نبيه المصطفى ﷺ ، الذى يأمرنا جميعاً هنا في تلك الوصية أو في هذا الحديث بألا نضيعها ، فيقول : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها » أى : لا تتركوها ، ولا تتهاونوا في أدائها ، بل قوموا بها كما فرضت عليكم ، ولا تؤخروها عن أوقاتها :

---

(١) النساء : ٨٦ .
(٢) آل عمران : ١٠٤ .
(٣) النساء : ٣٦ .
(٤) الإسراء : ٢٣ .

ففى القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى : ﴿ **فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾(١) وهم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها .

وقد صح أن النبى ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج : مر علي قوم ترضخ رؤوسهم وتكسر بالصخر ، وكلما رضخت عادت كما كانت ، فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة .

وروى الطبراني في الأوسط : عن أنس بن مالك رضى الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى الصلوات لوقتها وأسبغ لها وضوءها ، وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت وهى بيضاء مسفرة(٢) ، تقول : حفظك الله كما حفظتنى ، ومن صلاها لغير وقتها ولم يسبغ لها وضوءها ولم يتم لها خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها ، خرجت وهى سوداء مظلمة ، تقول : ضيعك الله كما ضيعتني ، حتى إذا كانت حيث شاءت لفت كما يلف الثوب الخلق(٣) ثم ضرب بها وجهه » .

وهكذا ، قس علي ذلك الفرائض التي لا تؤدى على أساس سليم ، ــ بدون إتقان أو خشوع ــ أو التي لا تؤدى نهائياً :

قال الحافظ المنذري(٤) : قد ذهب جماعة من الصحابة ومن بعدهم إلي تكفير من ترك الصلاة متعمداً حتى يخرج جميع وقتها ، منهم عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس ومعاذ بن جبل وجابر بن عبد الله وأبو الدرداء ــ رضى الله عنهم ــ ومن غير الصحابة : أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وعبد الله بن المبارك والنخعى والحكم بن عتيبة وأيوب السختياني وأبو داوود الطيالسي وأبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب وغيرهم رحمهم الله تعالى أ . هـ .

---

(١) الماعون : ٤ ، ٥ .
(٢) من أسفر الصبح أي أضاء .
(٣) أي البالي .
(٤) كما في الترغيب والترهيب للحافظ المنذري .

وذهب غيرهم(١) إلى فسق تارك الصلاة عمداً من غير جحود لفرضيتها :

ففريق أوجب تعزيره وحبسه إلى أن يصلى حتى لا يكون قدوة سيئة .
وأئمة المذاهب على وجوب قتله :

فمنهم ، من أوجب قتله كفراً كأحمد وإسحاق وابن المبارك .

ومنهم، من أوجبه حداً، وهو مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة وأصحابه أ.هـ.

ولعل في ذلك عبرة لمن يتهاونون في الصلاة ويسهون عن ذلك الركن الخطير.

وكذلك بالنسبة للزكاة، فقد قال الله تعالى مشيراً إلى عقاب الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله: ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾(٢).

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً(٣) أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه ـــ يعني شدقيه ـــ ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك » ثم تلا ـــ أى الرسول ﷺ ـــ هذه الآية : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة** ﴾(٤) الحديث رواه البخارى ومسلم .

وعن صيام رمضان ، يقول تبارك وتعالى في الحديث القدسي مرغباً فيه(٥) : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لي وأنا أجزي به » من حديث رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل .

ويقول النبى ﷺ محذراً ومرهباً : « من أفطر يوماً في رمضان في غير

---

(١) من كتاب « بداية المجتهد » .
(٢) التوبة : ٣٤ ، ٣٥ .
(٣) الشجاع : الحية الذكر ، وقيل مطلقاً ، والزبيبتان نكتتا سوداوان فوق عين الحية .
(٤) آل عمران : ١٨٠ .
(٥) وفي جميع أنواع الصيام .

رخصة رخصها الله له[1] لم يقض عنه صيام الدهر كله وإن صامه » رواه أبو داوود ، وابن ماجة ، والترمذى .

وعن الحج ، يقول النبى ﷺ : « من لم تحبسه حاجة ظاهرة ، أو مرض حابس ، أو سلطان جائر ، ولم يحج : فليمت إن شاء يهودياً ، وإن شاء نصرانياً » رواه البيهقي عن أبى أمامة .

وعن الحج ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله ، ورد كذلك عن حذيفة عن النبى ﷺ ، قال : « الإسلام ثمانية أسهم : الأسلام سهم[2] ، والصلاة سهم ، والزكاة سهم ، وحج البيت سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهي عن المنكر سهم ، والجهاد في سبيل الله سهم : وقد خاب من لا سهم له » رواه البزار .

وعن عقوق الوالدين ، يقول النبى ﷺ ، محذراً : « ثلاث لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » رواه الطبراني في الكبير ، عن ثوبان رضى الله عنه .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ولا تضيع فرائض الله ، التى أهمها كما عرفت الصلاة :

فقد ورد : عن عبد الله بن قرط رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله » رواه الطبراني في الأوسط .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » رواه أحمد ومسلم .

وحتى تكون حريصاً على أداء فريضة الصلاة ــ بالذات ــ في وقتها :

---

(١) كمرض أو سفر .

(٢) أى نصيب .

فإننى أوصيك بالإكثار من النوافل التى ستكون كذلك جبراً لأى تقصير حدث وأنت في الصلاة .

فقد روى البخارى في صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، عن ربه عز وجل ، قال : « من عادى لى ولياً ، فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة الصلاة : يقول ربنا لملائكته — وهو أعلم — : انظروا في صلاة عبدى ، أتمها ، أم نقصها ؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً ، قال : انظروا هل لعبدي من تطوع ؟ فإن كان له تطوع ، قال :أ تموا لعبدى فريضته من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك » رواه أبو داوود .

ومعنى : ثم تؤخذ الأعمال على ذلك ، أى : وكذلك ما نقص من صوم رمضان مثلاً : يجبر بصيام يوم عاشوراء ، أو صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وهكذا بالنسبة لبقية الفرائض ونوافلها .

مع ملاحظة : أن التطوع — شرعاً — هو ما يقوم به المسلم من عمل صالح ، يتقرب به إلى الله تبارك وتعالى ، زيادة على ما افترض عليه .

وأن الصلاة هى أعظم ما يتقرب به العبد إلى ربه عز وجل .

* * *

وأما عن :

الحــدود

التي نهى الرسول ﷺ عن تعديها ، في قوله : « وحد حدوداً فلا تعتدوها .»

فالمراد بها شرعاً : العقوبة المقدرة من الشارع ، زجراً ومنعاً عن المعصية .

والمعنى : أن الله تعالى جعل لكم حواجز وزواجر مقدرة تحجزكم وتمنعكم عما لا يرضاه :

روى النواس بن سمعان رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : ياأيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب ، قال : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ، والصراط : الإسلام . والسوران : حدود الله . والأبواب المفتحة : محارم الله . وذلك الداعى على الصراط : كتاب الله . والداعى من فوق : واعظ الله في قلب كل مسلم » أخرجه الإمام أحمد ، وهذا لفظه والنسائى في تفسيره ، والترمذى وحسنه .

فقد ضرب النبى ﷺ مثل الإسلام في هذا الحديث بصراط مستقيم ، وهو الطريق السهل الواسع الموصل سالكه إلى مطلوبه ، وهو مع هذا مستقيم لا عوج فيه ، فيقتضى ذلك قربه وسهولته ، وعلى جنبتي الصراط يمنة ويسرة سوران وهما حدود الله ، وكما أن السور يمنع من كان داخله من تعديه ومجاوزته ، فكذلك الإسلام يمنع من دخل فيه من الخروج عن حدوده ومجاوزتها ، وليس وراء ما حد الله من المأذون فيه إلا ما نهى عنه :

ولهذا : مدح سبحانه وتعالى الحافظين لحدوده ، وذم من لا يعرف حد الحلال من الحرام فقال تعالى : ﴿ ... **والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين** ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم** ﴾(٢) .

---

(١) التوبة : ١١٢ .

(٢) التوبة : ٩٧ .

والمراد أن من لم يجاوز ما أذن له فيه إلى ما نهى عنه فقد حفظ حدود الله ، ومن تعدى ذلك فقد تعدى حدود الله .

وقد تطلق الحدود ويراد بها نفس المحارم ، فيقال : لا تقربوا حدود الله كما قال تعالى : ﴿ **تلك حدود الله فلا تعتدوها** ﴾[1] .

والمراد النهى عن ارتكاب ما نهى عنه في الآية من محظورات الصيام والاعتكاف في المساجد ، ومن هذا المعنى ، وهو تسمية المحارم حدوداً ، قول النبى ﷺ : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا — أى اقترعوا — على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم[2] نجوا ونجوا جميعاً » رواه البخاري والترمذى .

فقد أراد بالقائم على حدود الله : المنكر للمحرمات والناهى عنها .

وفي حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ ، قال : « إنى آخذ بحجزكم : اتقوا النار ، اتقوا الحدود ، قالها ثلاثاً » أخرجه الطبراني والبزار .

فقد أراد بالحدود محارم الله ومعاصيه .

ومنه قول الرجل الذي قال للنبى ﷺ : « فإنى أصبت حداً فأقمه على » .

وقد تسمى العقوبات المقدرة الرادعة عن المحارم المغلظة حدوداً ، كما يقال : حد الزنا ، وحد السرقة ، وحد شرب الخمر . ومنه قول النبى ﷺ ، لأسامة : « أتشفع في حد من حدود الله » ؟ يعنى في القطع في السرقة ، وهذا هو المعروف من أسماء الحدود في اصطلاح الفقهاء :

واعلم أن الحدود متنوعة : منها حد الزنا ، وهو الرجم إن كان الفاعل

---

(١) البقرة : ١٨٧ .

(٢) من أخذت على يديه ، أى منعته عما يريد فعله كأنك أمسكت يده .

محصناً[1] ، والجلد مائة ، والتغريب إلى مسافة القصر عاماً إن كان غير محصن .

ومنها : حد السرقة ، وهو قطع اليد اليمنى في أول مرة ، والرجل اليسرى في المرة الثانية ، واليد اليسرى في المرة الثالثة ، والرجل اليمنى في المراة الرابعة[2] . وقطع اليد يكون من الكوع ، والرجل من الكعب .

ومنها : حد القذف بالزنا ، وهو ثمانون جلدة .

ومعنى : ﴿ **فلا تعتدوها** ﴾ [3] : أى لا تتركوها ، ولا تتجاوزوا القدر الذى قدره الشارع فيها ، فلا تزيدوا عليه ، ولا تنقصوا عنه .

وأما ما روى من أن عمر رضى الله تعالى عنه جلد شارب الخمر ثمانين جلدة[4] ، فهو اجتهاد منه لزيادة التنكيل[5] حيث أكثر الناس من شرب الخمر فى زمنه .

* * *

وأما عن :

المحـــارم

التى عناها الرسول ﷺ ، في قوله : « وحرم أشياء فلا تنتهكوها » :

فالمراد بها المحرمات التى حرمها الله تعالى علينا ، والتي منها ، ما في قول الله تبارك وتعالى :

---

(١) أى متزوجاً .

(٢) كما في القرطبي في تفسير الآية ٣٨ من سورة المائدة ، ثم يقول : « ثم إن سرق خامسة : يعزر ويحبس » .

(٣) البقرة : ٢٢٩ .

(٤) وفي القرطبي ، يقول : وقد أتى عمر بسكران في رمضان فضربه مائة ، ثمانين حد الخمر وعشرين لهتك حرمة الشهر .

(٥) أى ليكون عبرة لغيره .

﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن حتى يبلغ أشده ﴾(١) .

وقول الله تبارك وتعالى : **﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله .. ﴾**(٢) .

وقول الله تعالى : **﴿ ... وأحل الله البيع وحرم الربا ... ﴾**(٣) .

وقوله تعالى : **﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينـزل به سلطاناً وأن تقولـوا على الله ما لا تعلمون ﴾**(٤) .

وقول الله تعالى : **﴿ ... يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبـات ويحرم عليهم الخبائث ... ﴾**(٥) .

إلى غير ذلك من المنهيات التى نهى الله تعالى عنها في كتابه ، وعلى لسان نبيه المصطفى ﷺ في كثير من الأحاديث الشريفة التى منها :

ما أخرجه الشيخان عن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ : أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله نداً(٦) وهو خلقك » قلت : إن ذلك لعظيم ، قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك » .

---

(١) الأنعام : ١٥١ ، ١٥٢ .
(٢) البقرة : ١٧٣ .
(٣) البقرة : ٢٧٥ .
(٤) الأعراف : ٣٣ .
(٥) الأعراف : ١٥٧ .
(٦) أى شريكاً في عبادتك له .

وما رواه مالك والبخارى ومسلم ، عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ ، قال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

وما رواه البخارى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى(١) ثم غدر ، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه العمل ولم يوفه أجره » .

وما رواه أحمد ، عن المقداد بن الأسود رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ ، لأصحابه : « ما تقولون في الزنا » ؟ قالوا : حرام حرمه الله ورسوله فهوحرام إلي يوم القيامة . قال : فقال رسول الله ﷺ : « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » قال : « فما تقولون في السرقة » ؟ قالوا : حرام حرمها الله ورسوله فهى حرام ، قال : « لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره » .

وما رواه البخارى ومسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا(٢) ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، التقوى ههنا ويشير إلى صدره ــ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم علي المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » واللفظ لمسلم .

وما رواه البخارى وغيره ، عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » .

---

(١) أى أعطى عهداً بى ، والغدر ترك الوفاء .

(٢) التحسس بالحاء والتجسس : البحث عن العورات .

وما رواه البخارى ومسلم ، عن أبى بكر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ؟ ثلاثاً . قلنا : بلى ، قال : « الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين » وكان متكئاً فجلس فقال : « ألا وقول الزور وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

وما رواه البخارى ومسلم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ، قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم .. يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

* * *

والذى نريد أن نقف عليه الآن ، هو :

ما هو الحلال وما هو الحرام والمتشابه

ولكى نقف على التعريف بكل على حدة ، فإننى أرى أن نقف أولاً على هذا الحديث الشريف الذى رواه البخارى ومسلم :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ[1] لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت ، صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

فهذا الحديث[2] : تنبني عليه أحكام الإسلام كلها ، فقد قسم الرسول

---

(١) أى طلب البراءة من الخطأ والعار .

(٢) كما يقول صاحب كتاب « الفقه الواضح » فضيلة الشيخ محمد بكر إسماعيل ـــ أكرمه الله .

ﷺ في هذا الحديث الأحكام إلى حلال نين ، بينته الشريعة في نصوصها ، وإلى حرام بين بينته الشريعة كذلك ، وإلى أمور أخرى اشتبه على كثير من الناس حكم الله فيها ، وهى من المتشابهات التي ينبغى على المسلم الورع اتقاؤها ، صيانة لدينه وعرضه . وجعل النبى ﷺ مدار صحة الأديان والأبدان على صلاح القلب ، وسلامته من الآفات .

قال النووى في شرح مسلم : أجمع العلماء على عظم وقع هذا الحديث ، وكثرة فوائده ، وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام أ . هـ .

والحلال : عند جمهور الفقهاء : هو المباح الذي لم يرد دليل من الشرع يحرمه .

والحرام : هو المحظور الذى ورد دليل من الشرع يحرمه .

ثم يقول في الجزء الأول من « الفقه الواضح » ، وتحت هذين التعريفين أربع حقائق :

الحقيقة الأولى :

أن الأصل في الأشياء الإباحة[1] . فكل شىء لم ينص الشارع على تحريمه ، فهو حلال ، لا نسأل عنه .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان ، فلاتبحثوا عنها » .

قال النبراوى في شرح هذا الحديث : « هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ ، الموجزة البليغة . بل قيل : ليس في الأحاديث حديث أجمع لأصول الدين وفروعه منه ، لأنه قسم أحكام الله تعالى إلى أربعة أقسام : فرائض ، ومحارم ، وحدود ، ومسكوت عنها ، وذلك يجمع أحكام الدين كلها » .

---

(١) هذا مذهب أكثر العلماء .

الحقيقة الثانية :

إن الحلال ما أحله الله ورسوله ، لا ما أحله الإنسان بعقله وهواه .

وأن الحرام ما حرمه الله ورسوله ، لا ما حرمه الإنسان بعقله وهواه .

وعلى هذا : فلا يجوز لأحد كائناً من كان ، أن يقول في دين الله ما لم يقله الله ورسوله ، وأن يفتي في دينه بغير علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير ، فإن القول على الله ــ بغير علم ــ افتراء عظيم ، وجرم كبير .

ولقد شدد النكير على كل من تسوّل له نفسه الأمارة بالسوء أن يتجرأ على الفتيا بغير علم ، طمعاً في دنيا يصيبها ، أو جاه يحصل عليه ، أو منصب يعتليه ، أو ليقال : إنه عالم ، أو خوفاً من أن يقال : إنه جاهل .

فقال جل وعلا في سورة الأعراف : ﴿ **قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾[1] .

وقال تعالى في سورة يونس : ﴿ **قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم ، أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون** ﴾[2] .

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم** ﴾[3] .

وقال رسول الله ﷺ : « من كذب على متعمداً ، فليتبوأ مقعده من النار » رواه مسلم وغيره .

---

(١) الأعراف : ٣٣ .
(٢) يونس : ٥٩ ، ٦٠ .
(٣) النحل : ١١٦ ، ١١٧ .

فاربأ بنفسك أيها المسلم أن تقول في دين الله بغير علم ، مهما كان مشربك، ومهما كان شأنك ومنصبك ، حتى ولو كنت من كبار العلماء : حتى لا تقع تحت هذا الوعيد ، ويحق عليك غضب الله ورسوله ، أعاذنا الله وإياك منه .

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يتحرجون من الإفتاء في دين الله أشد التحرج ، إلى الحد الذي كان أحدهم إذا سأله سائل عن مسألة في دين الله ، اهتز واضطرب ، وأحاله إلى غيره ، فقال : اذهب إلى فلان فإنه أعلم منى .

وهكذا كان يصنع التابعون :

فقد روى أن كل فقيه من الفقهاء المشهورين ، كان يقول بعد تقرير حكم الله في المسألة : هذا ما وصل إليه علمى ، فإن وجدتم في كتاب الله ، أو سنة رسول الله ﷺ ما يخالف قولى ، فخذوا به ، واضربوا بقولي عرض الحائط .

وقيل : إن الإمام مالكاً سئل عن مائة مسألة ، فأجاب عن أربع منها ، وقال في الباقيات : الله أعلم ، فعوتب في ذلك ، فقال : من قال الله أعلم ، فقد أفتى .

وهو بهذا يريد أن ينجو بنفسه من غضب الله وعذابه .

الحقيقة الثالثة :

إن الله تبارك وتعالى ما أحل لعباده إلا الطيبات ، وما حرم عليهم إلا الخبائث .

قال تعالي في سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ البقرة : ١٧٢ .

وقال تعالى في سورة المائدة : ﴿ **يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات ...** ﴾ المائدة : ٤ .

وقال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم**

عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ الأعراف : ١٥٧ .

الحقيقة الرابعة :

أنه لا يجوز للعبد أن يحرم على نفسه شيئاً أباحه الله له من غير ضرورة ، فإن ذلك يعد اعتداء على دينه ، وتعدياً لحدوده .

قال جل وعلا في سورة المائدة : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون** ﴾ المائدة : ٨٧ ، ٨٨ .

وأما المتشابه :

فهو : ما اختلف الناس في حله لسبب من الأسباب المنصوص عليها في كتب الفقه المطولة ، كتعارض الأدلة ، وذلك كأن يكون في المسألة دليل يفيد الحل ، ودليل يفيد الحرمة ، والدليلان متساويان في الصحة . أى : ليس دليل أرجح من دليل ، فتظل المسألة وسطاً بين الحل والتحريم .

فحينئذ يكون ترك هذا المتشابه مطلوباً شرعاً ، وقاية للدين ، وحماية للعرض ، كما قال الصادق المصدوق ﷺ في الحديث : « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » .

* * *

وأما المسكوت عنه :

وهو الذي عناه الرسول ﷺ ، بقوله : «وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان ، فلاتبحثوا عنها » .

فالمراد به : ما لم يذكر حكمه بتحليل ولا إيجاب ولا تحريم ، فيكون معفواً عنه لا حرج على فاعله ..

وفي الحديث يقول النبى ﷺ ، عندما سئل عن الحج في كل عام : « ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

ومثله قوله ﷺ في حديث سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه : « إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » .

وقد دل القرآن على مثل هذا أيضاً في مواضع كقوله تعالى : ﴿ **قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً** ﴾ الأنعام : ١٤٥ .

فهذا يدل على أن ما لم ينص على تحريمه فليس بمحرم ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ **وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه** ﴾ الأنعام : ١١٩ .

فعنفهم علي ترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه معللاً بأنه قد بين لهم الحرام وليس هذا منه ، فدل على أن الأشياء على الإباحة وإلا لما لحق اللوم بمن امتنع من الأكل مما لم ينص له علي حكمه بمجرد كونه لم ينص على تحريمه .

وقوله ﷺ : « وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان » : يعنى أنه — سبحانه — إنما سكت عن ذكرها رحمة بعباده ورفقاً حيث لم يحرمها عليهم حتي يعاقبهم علي فعلها ، ولم يوجبها عليهم حتي يعاقبهم علي تركها بل جعلها عفواً ، فإن فعلوها فلا حرج عليهم ، وإن تركوها فكذلك . وفي حديث أبي الدرداء ، ثم تلا : ﴿ **وما كان ربك نسياً** ﴾ مريم : ٦٤ .

وقوله : « فلا تبحثوا عنها » : يحتمل اختصاص هذا النهى بزمن النبى ﷺ لأن كثرة البحث والسؤال عما لم يذكر قد يكون سبباً لنزول التشديد فيه بإيجاب أو تحريم .

وقد يدخل في ذلك قوله ﷺ : « هلك المتنطعون ، قالها ثلاثاً » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود مرفوعاً . والمتنطع هو المتعمق البحاث عما لايعنيه .

ومما يدخل في النهى عن التعمق والبحث عنه : أمور الغيب الخبرية التي أمرنا بالإيمان بها ولم يبين كيفيتها ، وبعضها قد لا يكون له شاهد فى هذا

العالم المحسوس ، فالبحث عن كيفية ذلك هو مما لا يعني وهو مما ينهى عنه ، وقد يوجب الحيرة والشك ويرتقي إلي التكذيب .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « لا يزال الناس يسألون حتى يقال : هذا خلق الله ، فمن خلق الله ، فمن وجدمن ذلك شيئاً فليقل : آمنت بالله » .

وأخرجه البخاري أيضاً ، ولفظه : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا من خلق كذا حتي يقول : من خلق ربك ، فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته » .

قال إسحاق بن راهويه : لا يجوز التفكر في الخالق ، ويجوز للعباد أن يتفكروا في المخلوقين بما سمعوا فيهم ولا يزيدون علي ذلك لأنهم إن فعلوا تاهوا . ثم يقول : وقال الله عز وجل : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ... ﴾[٢] فلا يجوز أن يقال : كيف تسبيح القصاع[١] والأخونة والخبز والمخبوز والثياب المنسوجة ؟ وكذا هذا قد صح العلم فيهم أنهم يسبحون ، فذلك إلى الله أن يجعل تسبيحهم كيف شاء وكما شاء ، وليس للناس أن يخوضوا في ذلك إلا بما علموا ولا يتكلموا في هذا وشبهه إلا بما أخبر الله ولا يزيدوا علي ذلك .

* * *

ولهذا فقد رأيت في ختام هذا الشرح الإيجابي لتلك الوصية العظيمة أن أزودك بتلك القصيدة الروحية ، التي ستري من خلالها كيف تكون التساؤلات المفيدة التي يقول فيها كاتبها الموحد[١] .

كل العجائب صنعة العقل الذى ... هو صنعة الله الذى سواكا
والعقل ليس بمدرك شيئاً إذا ... ما الله لم يكتب له الإدراكا
لله في الآفاق آيات لعلـ ... ـل أقلها هو ما إليه هداكا
ولعل ما في النفس من آياته ... عجب عجاب لو ترى عيناكا
والكون مشحون بأسرار إذا ... حاولت تفسيراً لها أعياكا

---

(١) الإسراء : ٤٤ . (٢) جمع قصعة .

قل للطبيب تخطفته يد الردى   يا شافي الأمراض من أرداكا ؟
قل للمريض نجا وعوفي بعدما   عجزت فنون الطب من عافاكا ؟
قل للصحيح يموت لا من علة   من بالمنايا ، يا صحيح دهاكا ؟
قل للبصير وكان يحذر حفرة   فهوى بها من ذا الذي أهواكا ؟
بل سائل الأعمى خطا بين الزحا   م بلا اصطدام من يقود خطاكا ؟
قل للجنين يعيش معزولاً بلا   راع ومرعى : ما الذى يرعاكا ؟
قل للوليد بكى وأجهش بالبكا   ء ، لدى الولادة : ما الذى أبكاكا ؟
وإذا ترى الثعبان ينفث سمه   فاسأله : من ذا بالسموم حشاكا ؟
واسأله : كيف تعيش أو   تحيا ، وهذا السم يملأ فاكا ؟
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت   شهداً ، وقل للشهد : من حلاكا ؟
بل سائل اللبن المصفى كان بـ   ـين دم وفرث ، ما الذي صفاكا ؟
وإذا رأيت الحى يخرج من حنا   يا ميت فاسأله : ما أحياكا ؟
قل للهواء تحسه الأيدي ويخـ   ـفى عن عيون الناس : من أخفاكا ؟
قل للنبات يجف بعد تعهد   ورعاية : من بالجفاف رماكا ؟
وإذا رأيت النبت في الصحراء ير   بو وحده فاسأله : من أرباكا ؟

* * *

وإذا رأيت البدر يسرى ناشراً   أنواره فاسأله : من أسراكا ؟
واسأل شعاع الشمس يدنو وهي أبـ   ـعد كل شيء ماالذى أدناكا ؟
قل للمرير من الثمار من الذى   بالمر من دون الثمار غذاكا ؟
وإذا رأيت النخل مشقوق النوى   فاسأله : من يا نخل شق نواكا ؟
وإذا رأيت النار شب لهيبها   فاسأل لهيب النار : من أوراكا ؟
وإذا ترى الجبل الأشم مناطحاً   قمم السحاب فسله: من أرساكا؟
وإذا ترى صخراً تفجر بالميا   ه، فسله: من بالماء شق صفاكا؟
وإذا رأيت النهر بالعذب الزلا   ل جرى فسله: من الذى أجراكا؟
وإذا رأيت البحر بالملح الأجا   ج طغى، فسله : من الذى أطغاكا؟
وإذا رأيت الليل يغشى داجيا   فاسأله: من ياليل حاك دجاكا؟
وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحياً   فاسأله من ياصبح صاغ ضحاكا ؟

الوصية التاسعة والثلاثون

عن محمود بن لبيد قال:
خرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

أَيُّهَا النَّاسُ: إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ.
قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ (1)
قَالَ: يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ (2) جَاهِدًا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ.

رواه ابن خزيمة في صحيحه

(١) شِرْكُ السَّرائر: جَمْع سَرِيرَة وَهِيَ السِّرّ الَّذِي يُكْتَم . وَمَا يُسِرّهُ الإِنسَان مِنْ أَمْرِهِ وَالنِّيَّةِ .
(٢) فيزين صَلَاتَه جَاهِدًا ، أَى مجتهدًا فى ذلِكَ وَمُهتَمًّا بِهِ .

وَقَد وَرَد فى الحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

قَالَ رَجُل يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَقِفُ المَوْقِفَ أُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ وَأُرِيدُ أَنْ يُرَى مَوْطِنِي

فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

رواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لهذا التحذير المحمدى الذى يعتبر — لو أمعنت النظر فيه — أهم تحذير يجب عليك أن تحذره ، لأنه يتعلق بشرك السرائر الذى — للأسف الشديد — وقع فيه كثير منا بقصد أو بغير قصد ، وذلك بسبب الغرائز النفسية الأمارة بالسوء ، أو بسبب التزيين الشيطاني الذى أساسه أو سببه حب الشهوات ، والميل إلى النزوات ، وحب الظهور ..

وحتى يتضح لنا هذا ، فإننى أحب أولاً أن أقف معك على :

أنواع الشرك

وهو ثلاثة أنواع[1] : شرك أكبر ، وشرك أصغر ، وشرك خفى .

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾[2] .

وقوله تعالى :

﴿ وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار ﴾[3] ..

والشرك الأكبر أربعة أنواع :

النوع الأول : شرك الدعوة ، والدليل قوله تعالى :

﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾[4] .

النوع الثانى : شرك النية ، والدليل قوله تعالى :

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها

---

(١) كما جاء في كتب التوحيد .

(٢) النساء : ١١٦ .

(٣) المائدة : ٧٢ .

(٤) العنكبوت : ٦٥

لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾(١) ..

النوع الثالث : شرك الطاعة ، والدليل قوله تعالى :

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون ﴾(٢) ..

وتفسيرها الذي لا إشكال فيه : طاعة العلماء والعباد في المعصية ، لا دعاؤهم إياهم ، كما فسرها النبي ﷺ لعدى بن حاتم لما سأله ، فقال : لسنا نعبدهم ، فذكر له أن عبادتهم طاعتهم في المعصية(٣) .

النوع الرابع : شرك المحبة ، والدليل قوله تعالى :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ... ﴾(٤) ..

وأما النوع الثاني من أنواع الشرك الثلاثة ، فهو الشرك الأصغر ، أو هو الرياء ، ودليله قوله تعالى :

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾(٥) .

والنوع الثالث : هو الشرك الخفى ، والدليل عليه قوله ﷺ :

« الشرك أخفي في أمتى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء » .

وكفارته قوله ﷺ :

« اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً أعلمه ، وأستغفرك من

---

(١) هود : ١٥ ، ١٦ .

(٢) التوبة : ٣١ .

(٣) كما ورد في حديث رواه الترمذى .

(٤) البقرة : ١٦٥ .

(٥) الكهف : ١١٠ .

الذنب الذى لا أعلم »(١) .

* * *

والذي يعنينا ــ بعد ذلك ــ من تلك الأنواع الثلاثة ــ الأكبر ، والأصغر ، والخفى ــ هو النوع الثاني ، الذي وضحه النبى ﷺ ، في قوله : « يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه » . وقد يكون هوالنوع الثالث ، لأنه الخفى الذى وصفه الرسول ﷺ بأنه شرك السرائر .

وحسب الأخ المسلم إذا أراد أن يكون مجتنباً لهذا الشرك الخفى ، أن يعلم أنه محبط للأعمال ، وإلى هذا قد يشير الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ **وقدمنا إلي ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً** ﴾(٢) .

أى كالغبار المفرق ، أو مثله في عدم النفع به .

قال ابن كثير : وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعى ، أما الإخلاص فيها ، وإما المتابعة لشرع الله ، فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية ، فهو باطل .

وقد أشار الله سبحانه وتعالى أيضاً إلي هذا محذراً من الرياء ونتائجه وعواقبه الوخيمة ، فقال :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى(٣) كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه**

(١) رواه الحاكم وأبو نعيم عن عائشة .

(٢) هو شعاع الشمس إذا دخل في الكوة .. لو ذهبت تقبض عليه لم تستطع . والآية في سورة الفرقان : ٢٣ .

(٣) المن أن يعتدى علي من أحسن بإحسانه ويري أنه واجب عليه حقاً ، والأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أسدى إليه ، ورئاء الناس ابتغاء سمعتهم ، وصفوان : حجر أملس ، والوابل : المطر الشديد ، والصلد : الصلب الأملس ، وقوله : ﴿ **لا يقدرون على شيء مما كسبوا** ﴾ أى لا يجدون له ثواباً فى الآخرة كما لا يوجد على الصفوان شيء من التراب لإذهاب المطر إياه .

تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[1] .

﴿ إن المنافقين يخادعون الله[2] وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين[3] بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾[4] .

﴿ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا ﴾[5] .

﴿ فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون . ويمنعون الماعون ﴾[6] .

* * *

وقد ورد في السنة كثير من الأحاديث الشريفة المحذرة من الرياء في الأعمال ، والمرغبة في نفس الوقت في الإخلاص الذى هو ضد الرياء ، فإليك بعضها :

عن ابن عباس رضى الله عنهما : قال : قال رجل : يا رسول الله .. إنى أقف الموقف أريد وجه الله وأريد أن يري موطني[7] ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ حتى نزل : ﴿ .. **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[8] .**

وعن جندب بن عبد الله ، قال قال النبى ﷺ :

---

(١) البقرة : ٢٦٤ .
(٢) المراد : عاملوه معاملة المخادع .
(٣) الذبذبة : تردد الشيء المعلق في الهواء .
(٤) النساء : ١٤٢ ، ١٤٣ .
(٥) النساء : ٣٨ .
(٦) الماعون : أى المعلونة وقيل غير ذلك — والآية من سورة الماعون : ٤ — ٧ .
(٧) الموطن : المشهد من مشاهد الحرب .
(٨) الكهف : ١١٠ .

« من سمَّع سمَّع به ومن يراء يراء الله به »(١) رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » رواه الترمذى في التفسير في جامعه وابن ماجة .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ، قال : « قال الله عز وجل : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لى عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه برىء وهو للذى أشرك »(٢) رواه ابن ماجه ورواته ثقات .

وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك(٣) حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال فلان جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ، ورجل تعلم العلم وعمله وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمت وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك(٤) . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار » رواه مسلم والنسائى والترمذى وحسنه وابن ماجه .

* * *

---

(١) سمع وراءى به : أى فضحه .
(٢) أى أن عمله للذى أشركه مع الله ، لأن الله برىء منه .
(٣) أى في سبيلك .

وقد ضرب العلماء العاملون على ذلك مثلاً ، فقالوا : مثل الذي يعمل للرياء والسمعة كمثل رجل خرج إلى السوق وملأ كيسه بقطع من الحصى أو ما شابه ذلك . فأخذ الناس يقولون : ما أملأ كيس هذا الرجل[1] .. ولكنه إذا أراد أن يشترى شيئاً لا يعطى به شيء .. وكذلك الذي يعمل للرياء والسمعة ، لا منفعة له سوى مقالة الناس ولا ثواب له في الآخرة .

وقد قرأت كذلك أن رجلاً من العباد[2] علم أن قوماً يعبدون شجرة .. فأخذ فأساً وذهب ليقطعها ، فقابله إبليس في الطريق إليها ، فسأله : إلى أين أنت ذاهب ؟ قال : إنى ذاهب إلى الشجرة التي علمت أنها تعبد من دون الله لأقطعها ، فقال له إبليس : لن تقطعها .. فقال العابد : لا بد من قطعها .. ثم قاتل العابد إبليس فصرعه .. فلما رأى إبليس أن العابد قد صرعه بقوة إيمانه وإخلاصه ، احتال عليه فقال له : إنك رجل فقير ومحتاج إلى المال ، فارجع إلى محرابك ودع أمر الشجرة لأحد غيرك ، ولو شاء الله تعالى قطعها لأرسل رسولاً لقطعها ، ثم قال له : ولك منى مقابل هذا ديناران كل ليلة .. فاقتنع العابد بهذا ثم عاد .. ففي الليلة الأولى وجد الدينارين ، وفي الليلة الثانية وجد الدينارين ، وفي الليلة الثالثة لم يجد شيئاً .. فخرج غاضباً ليقطع الشجرة .. فقابله إبليس ، فقال له : إلى أين ؟ قال : إنى ذاهب لأقطع الشجرة .. فقال له : لن تقطعها .. فيرد عليه العابد قائلاً : لا بد من قطعها .. ثم قاتله فصرعه إبليس .. فتعجب العابد ، ثم قال لإبليس : لماذا غلبتك أولاً ثم غلبتني ثانياً ؟ فيقول له إبليس : لأن غضبك أولاً كان لله ، وغضبك ثانياً كان للدينارين .

* * *

ومن هذا يتبين لنا أهمية الإخلاص ، الذي ورد في وصفه أنه : سر بين العبد وربه ، وأنه : ما لا يكتبه الملكان ، ولا يفسده الشيطان ، ولا يطلع عليه الإنسان .

---

(١) أى ما أكثر نقوده .

(٢) وكان من بنى إسرائيل .

ولهذا ، فقد قال الله تعالى :

﴿ **إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً** ﴾(١) .

﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين** ﴾(٢) .

﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء(٣) ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة** ﴾(٤) .

وحتى تكون مخلصاً في نيتك ، وبعيداً عن الرياء والسمعة ، إليك كذلك هذه الأحاديث الشريفة التي أرجو أن تكون دائماً نصب عينيك حتي تنتفع بها ..

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلي ما هاجر إليه » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلي أجسامكم ولا إلي صوركم ولكن ينظر إلي قلوبكم » رواه مسلم .

« لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة(٥) لخرج عمله كائناً ما كان » رواه البخاري ومسلم .

وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية(٦) ويقاتل رياء أى ذلك يكون في سبيل الله ؟ فقال ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله » أخرجه البخارى ومسلم .

---

(١) النساء : ١٤٦ .   (٢) الزمر : ٢ .

(٣) جمع حنيف وهو المائل إلى الإسلام الثابت عليه والحنيف عند العرب من كان علي دين إبراهيم عليه السلام .

(٤) القيمة : الملة المستقيمة ، والدين هنا العبادة بجميع أنواعها — والآية من سورة البينة : ٥ .

(٥) الكوة بالفتح والضم لغة فيها: أى نقب البيت .

(٦) أي يقاتل عصبية دفعاً لعار أو أنفة .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ، قال: « إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا علي نياتهم » رواه البخاري ومسلم .

وعن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ ، قال : « إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتي ما تجعل في فم امرأتك » رواه البخارى .

* * *

هذا .. وإذا كان الرسول ﷺ قد أشار في الوصية إلي الرياء الذي قد يحدث غالباً في الصلاة ، وإذا كان قد حذر منه بصفة خاصة ، فإن السبب في هذا هو أن الصلاة ـــ كما علمت قبل ذلك ـــ هى عماد الدين ، وهى أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة :

فعن عبد الله بن قرط رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله » رواه الطبراني في الأوسط بإسناد لا بأس به .

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام واحذر أن تكون مرائياً بصلاتك حتى لا تفسد صلاتك جميع أعمالك يوم القيامة .. وتكون مع الهالكين

وحسبك إذا أردت أن تكون مخلصاً في صلاتك : أن تصلى كهذا الرجل الصالح ـــ وهو حاتم الأصم رضى الله عنه ـــ فلقد سأله عصام بن يوسف رحمه الله يوم أن مر به وهو يتكلم في مجلسه فقال له : يا حاتم تحسن تصلى ؟ قال : نعم . قال : كيف تصلي ؟ فقال حاتم ؟ أقوم بالأمر ، وأمشى بالخشية ، وأدخل بالنية ، وأكبر بالعظمة ، وأقرأ بالترتيب والتفكر ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالتواضع ، وأجلس للتشهد بالتمام ، وأسلم بالنية ، وأختمها بالإخلاص لله عز وجل ، وأرجع علي نفسي بالخوف ، أخاف أن لا يقبل منى ، وأحفظه بالجهد إلي الموت .

واحذر أن تترك العمل الصالح مخافة الرياء ، فقد قال العلماء : ترك العمل

مخافة الرياء رياء[1] .

أى : ما دمت صادقاً في نيتك .. فلا خوف عليك وعلي عملك من كلام الناس ..

وليكن شعارك دائماً وأبداً هو :

﴿ .. إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له .. ﴾[2] .

جعلنى الله تعالى وإياك من المخلصين وتقبل منا جميعاً خالص الأعمال .. آمين .

* * *

---

(١) أعنى مخافة أن يقال عنك أنك فعلت كذا وكذا من الأعمال الصالحة .
(٢) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

الوصية الأربعون

عن أبي علي، رجل من بني كاهل، قال:
خطبنا أبو موسى الأشعري فقال:

يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك
فإنه أخفى من دبيب النمل

فقام إليه عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب
فقالا:
والله لتخرجن مما قلت[1]، أو لنأتين عمر مأذونًا لنا أو
غير مأذون. فقال: بل أخرج مما قلت:
خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم
فقال:

يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك
فإنه أخفى من دبيب النمل[2]

فَقَال لَـهُ مَن شَاءَ اللَّهُ أَن يَقُول :
وَكَيفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخفى مِن دَبيبِ
النَّمل يَارَسُولَ اللَّه ؟
قَالَ ، قُولُوا :[3]
اللّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِن أَن
نُشرِكَ بِكَ شَيئًا نَعلَمُهُ ،
وَنَستَغفِرُكَ لِمَا لَانَعلَمُه .

رواه أحمد والطبرانى ، ورواته إلى أبى على محتج بهم فى الصحيح .
وأبوعلى وثقه ابن حبّان ، ولم أر أحدًا جرحه ورواه أبويعلى
بنحوه من حديث حذيفة إلاّ أنه قال فيه : يقول كل يوم ثلاث مرات .

---

(١) لتخرجَنَّ مِمَّا قلت : أَى تذكرلنا دليلاً عَليـهِ
تخرج بـهِ مِن تبعـة ماقلت .

(٢) أخفى من دبيب النمل : كأن تقول أنـا فى
حِمَى الله وَحِمَاك أو متوكل عَلى الله وَعليك .

(٣) قال قولوا : أى كل صباح ومساء ليكون ذلك كفارة لما وقعتم فيه من الشرك بدون علم .

- اللّـه يدرى كل ما تضمر
يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع
خداع من يطوى ومن ينشر

- فلنكن من المخلصين لله تعالى كما أمرنا سبحانه فى قوله : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) .

* * *

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً — كذلك — بهذه الوصية العظيمة التي تشير — أيضاً — إلى خطورة الشرك الذي وصفه الرسول ﷺ بأنه أخفي من دبيب النمل .

والتي يوصينا فيها الرسول ﷺ بأن نستعيذ به ونستغفره — كل يوم ثلاث مرات — من الشرك ما نعلمه منه وما لا نعلم .

وإذا كان الرسول ﷺ يحذر من الشرك ثم يوصينا بعدذلك بهذا الدعاء الذى نستطيع به — إن شاء الله — أن نتقى هذا الشرك الذى — كما عرفنا — هو أخفي من دبيب النمل :

فإن هذا معناه أن النبى ﷺ يحذرنا . بل ويوصينا بأمر خطير لا بد أن يكون دائماً وأبداً هو شاغلنا الشاغل .. لأنه يتعلق بصلب العقيدة الصحيحة التي هى الأساس في جميع العبادات .. والتي بدونها لا تساوى تلك العبادة شيئاً .

وحتى يتضح لنا هذا ، فقد رأيت أن أقف معك على المراد من قول الله تعالى :

﴿ .. فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[1] .

وقد ذكر القرطبي حول تفسير هذه الآية كلاماً عظيماً جاء فيه ما مضمونه :

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ أى : يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ، قال ابن عباس : نزلت في جندب بن زهير العامرى ، قال : يا رسول الله .. إنى أعمل العمل لله تعالى ، وأريد وجه الله تعالى ، إلا أنه إذا اطلع عليه سرنى ، فقال النبى ﷺ : « إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شورك فيه » فنزلت الآية .

---

(١) الكهف : ١١٠ .

وقال طاووس، قال رجل : يا رسول الله .. إني أحب الجهاد في سبيل الله تعالى وأحب أن يرى مكاني .. فنزلت هذه الآية . وقال مجاهد : جاء رجل للنبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله .. إني أتصدق وأصل الرحم ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى ، فيذكر ذلك مني وأحمد عليه فيسرني ذلك وأعجب به ، فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ .

ثم يقول القرطبي : والكل مراد ، والآية تعم ذلك كله وغيره من الأعمال ..

كما يقول : وقال الماوردي وقال جميع أهل التأويل : معنى قوله تعالى : ﴿ **ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ أنه لا يرائى بعمله أحدا .

وروى الترمذي الحكيم رحمه الله تعالى في « نوادر الأصول » قال : حدثنا أبي رحمه الله تعالى قال : حدثنا مكى بن إبراهيم قال : حدثنا عبد الواحد بن زيد بن عبادة بن نسى قال : أتيت شداد بن أوس في مصلاه وهو يبكى ، فقلت : ما الذى أبكاك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ يوماً ، إذ رأيت بوجهه أمراً ساءنى فقلت : بأبي أنت وأمى يا رسول الله .. ما الذى أرى بوجهك ؟ قال : « أمراً أتخوفه على أمتى من بعدى » قلت : ما هو يا رسول الله ؟ قال : « الشرك والشهوة الخفية » . قلت : يا رسول الله .. أو تشرك أمتك من بعدك ؟ قال: « يا شداد .. أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ولكنهم يراءون بأعمالهم » قلت : والرياء أشرك هو ؟ قال : « نعم » قلت : فما الشهوة الخفية ؟ قال : « يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوات الدنيا فيفطر » . قال عبد الواحد : فلقيت الحسن ، فقلت : يا أبا سعيد .. أخبرني عن الرياء أشرك هو ؟ قال : نعم ، أما تقرأ : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ .

---

(١) المؤمنون : ٦٠ .

وروى إسماعيل بن إسحاق قال : حدثنا محمد بن أبي بكر قال : حدثنا المعتمر بن سليمان عن ليث عن شهر بن حوشب ، قال : كان عبادة بن الصامت وشداد بن أوس جالسين ، فقالا : إنا نتخوف علي هذه الأمة من الشرك والشهوة الخفية ، فأما الشهوة الخفية فمن قبل النساء . وقالا : سمعنا رسول الله ﷺ يقول : « من صلى صلاة يرائى بها فقد أشرك ، ومن صام صياماً يرائى به فقد أشرك » ثم تلا : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ .

وقال سهل بن عبد الله : وسئل الحسن عن الإخلاص والرياء فقال : من الإخلاص أن تحب أن تكتم حسناتك كما تحب أن تكتم سيئاتك ، فإن أظهر الله عليك حسناتك تقول : هذا من فضلك وإحسانك ، وليس هذا من فعلى ولا من صنيعى ، وتذكر قوله تعالى :

﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ .

﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون** ﴾[1] .

أى : يؤتون الإخلاص ، وهم يخافون ألا يقبل منهم ، وأما الرياء : فطلب حظ النفس من عملها في الدنيا ، قيل له : كيف يكون هذا ؟ قال : من طلب بعمل بينه وبين الله تعالي سوى وجه الله تعالي والدار الآخرة فهو رياء . وقال علماؤنا رضى الله تعالى عنهم : وقد يفضى الرياء بصاحبه إلي استهزاء الناس به ، كما يحكى أن طاهر بن الحسين قال لأبى عبد الله المروزى : منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد الله ؟ قال : دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم ، فقال : يا أبا عبد الله ، سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين .

وحكى الأصمعى أن أعرابياً صلى فأطال وإلي جانبه قوم ، فقالوا : ما أحسن صلاتك ؟! فقال : وأنا مع ذلك صائم .

---

(١) المؤمنون : ٦٠ .

أين هذا من قول الأشعث بن قيس وقد صلى فخفف ، فقيل له : إنك خففت ، فقال : إنه لم يخالطها رياء ، فخلص من تنقصهم بنفى الرياء عن نفسه ، والتصنع من صلاته ..

وروى الترمذى الحكيم حدثنا أبي رحمه الله تعالى ، قال : أنبأنا الحمانى ، قال : أنبأنا جرير عن ليث عن شيخ بن معقل بن يسار قال : قال أبو بكر وشهد به علي رسول الله ﷺ ، قال : ذكر رسول الله ﷺ الشرك ، قال : « هو فيكم أخفى من دبيب النمل ، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره ، تقول : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم ، تقولها ثلاث مرات » .

وقال عمر بن قيس الكندى : سمعت معاوية تلا هذه الآية علي المنبر : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** .. ﴾ فقال : إنها لآخر آية نزلت من السماء .

وقال عمر : قال النبى ﷺ : « أوحى إلى أنه من قرأ : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً** ﴾ رفع له نور ما بين عدن إلى مكة حشوه الملائكة يصلون عليه ويستغفرون له » .

وقال معاذ بن جبل : قال لى النبى ﷺ : « من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه ، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء » أ . هـ . القرطبي بتصرف .

* * *

فمن كان هذا أخا الإسلام يتبين لنا بوضوح خطورة الشرك الذى هو الرياء المحبط للأعمال :

وإذا كنت أقول هذا .. فلأنني أريد أن أذكر كذلك ، ببيان :

ما يحبط العمل من الرياء الخفى والجلى وما لا يحبط

كما يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه « إحياء علوم الدين »

تحت هذا العنوان :

إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ، ثم ورد عليه وارد الرياء ، فلا يخلو إما أن يزد عليه بعد فراغه من العمل ، أو قبل الفراغ . فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار ، فهذا لا يفسد العمل . إذ العمل قد تم علي نعت الإخلاص ، سالماً عن الرياء ، فما يطرأ بعده فنرجو أن لا ينعطف عليه أثره ، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ، ولم يتمن إظهاره وذكره ، ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله ، ولم يكن منه إلاَّ ما دخل من السرور والارتياح علي قلبه . نعم .. لو تم العمل علي الإخلاص من غير عقد رياء ، ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار ، فتحدث به وأظهره ، فهذا مخوف .

وفي الآثار والأخبار ما يدل علي أنه محبط : فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلاً يقول : قرأت البارحة البقرة ، فقال : ذلك حظه منها .

وروى عن رسول الله ﷺ ، أنه قال لرجل قال له : صمت الدهر يا رسول الله ، قال له : « ما صمت ولا أفطرت » . فقال بعضهم : إنما قال ذلك لأنه أظهره ، وقيل : هو إشارة إلي كراهة صوم الدهر . وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله ﷺ ، ومن ابن مسعود ، استدلالاً على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له ، لما آن ظهر منه التحدث به ، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلاً لثواب العمل . بل الأقيس أن يقال أنه مثاب علي عمله الذى مضى ، ومعاقب علي مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها ، بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة ، فإن ذلك قد يبطل الصلاة ، ويحبط العمل . وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً ، وكان قد عقد على الإخلاص ، ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء ، فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل ، وإما أن يكون رياء باعثاً علي العمل ، فإن كان باعثاً علي العمل وختم العبادة به ، حبط أجره ، ومثاله أن يكون في تطوع ، فتجددت له نظارة ، أو حضر ملك من الملوك ، وهو يشتهى أن ينظر إليه ، أو يذكر شيئاً نسيه من ماله ، وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة ، فاستتمها خوفاً من مذمة الناس ، فقد بطل أجره . وعليه الإعادة إن كان في فريضة . وقد قال ﷺ : « العمل كالوعاء إذا

طاب آخره طاب أوله » أى النظر إلى خاتمته . وروى أنه من راءى بعمله ساعة ، حبط عمله الذي كان قبله . وهذا منزل علي الصلاة في هذه الصورة لا على الصدقة ، ولا على القراءة . فإن كل جزء من ذلك مفرد ، فما يطرأ يفسد الباقي دون الماضي ، والصوم والحج من قبيل الصلاة . وأما إذا كان وارد الرياء . بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب ، كما لو حضر جماعة في أثناء الصلاة ، ففرح بحضورهم وعقد الرياء ، وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم ، وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضاً : فهذا رياء قد أثر في العمل ، وانتهى باعثاً على الحركات . فإن غلب حتى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب ، وصار قصد العبادة مغموراً ، فهذا أيضاً ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه . لأنا نكتفي بالنية السابقة عند الإحرام ، بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها .

ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظراً إلي حالة العقد ، وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه .

ولقد ذهب الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى إلى الإحباط في أمر هو أهون من هذا ، وقال : إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس ، — يعنى سروراً — هو كحب المنزلة والجاه ، قال : وقد اختلف الناس في هذا ، فصارت فرقة إلي أنه محبط لأنه نقض العزم الأول ، وركن إلي حمد المخلوقين ، ولم يختم عمله بالإخلاص ، وإنما يتم العمل بخاتمته ، ثم قال : ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد في العمل ، ولا آمن عليه . وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس ، والأغلب علي قلبي أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء . ثم قال : فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى أنهما حالتان ، فإذا كانت الأولى لله لم تضره الثانية ، وقد روى أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله .. أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه ، فيطلع عليه ، فيسرني . قال : « لك أجران .. أجر السر وأجر العلانية »[1] ثم تكلم عن الخبر والأثر فقال : أما الحسن فإنه أراد بقوله لا يضره ، أى : لا يدع العمل ، ولا يضره الخطرة وهو يريد الله . ولم

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان .

يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره . وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل ، يرجع حاصله إلي ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ ، وليس في الحديث أنه قبل الفراغ .

الثاني : أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل ، لا سرور بسبب حب المحمدة والمنزلة ، بدليل أنه جعل له به أجراً ، ولا ذاهب من الأمة إلى أن للسرور بالمحمدة أجراً وغايته أن يعفى عنه ، فكيف للمخلص أجر وللمرائي أجران ! .

الثالث : أنه قال أكثر من يروى الحديث يرويه غير متصل إلي أبي هريرة ، بل أكثرهم يوقفه علي أبي صالح . ومنهم من يرفعه . فالحكم بالعمومات الواردة في الرياء .. إلخ .

* * *

فاذكر أخا الإسلام كل هذا حتى لا تحبط أعمالك بسبب هذا الرياء الذي كما عرفت هو أخفي من دبيب النمل ، ولتقصد دائماً وأبداً وجه الله تعالى حتى يقبل الله تعالى منك أعمالك .

وإذا أردت أن تتقي الشرك هذا ، أو الرياء هذا .. فحسبك أن تستعين بالله تعالى علي هذا بهذا الدعاء الذي أوصانا جميعاً به في نهاية الوصية ، وهو :

« اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك به شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه » .

أسأل الله تعالي أن يتقبل منا جميعاً هذا الدعاء .. آمين .

* * *

الوصية الواحدة والأربعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار وتواضعوا لمن تعلمون منه.

رواه الطبراني الأوسط بسند ضعيف

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لهذه الوصية العظيمة التي إن نفذتها كنت من الأحياء لا من الأموات ..

فالناس موتى وأهل العلم أحياء .

وحسبك إذا أردت أن تتأكد من هذا ، أو إذا أردت أن تقف على أبعاد هذا المعنى الكبير أو المغزى الخطير ، أن تقف على المعنى المراد من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ .. **إنما يخشى الله من عباده العلماء** .. ﴾[1] .

فالمعنى[2] : أن خشية الله شرطها العلم والمعرفة به ـــ سبحانه ـــ فمن اشتدت معرفته لربه كان أخشاهم له ، ولذا ورد في الحديث : « أنا أخشاكم لله وأتقاكم له » ، ثم يقول : وقرىء شذوذاً : برفع الجلالة ونصب العلماء ، والمعنى : إنما يعظم الله من العباد العلماء ، وإنما كان كذلك لكونهم أعرف الناس بربهم وأتقاهم له ، فالواجب على الناس تعظيمهم واحترامهم اقتداء بالله تعالى ، فإن الله أخبر أنه يعظمهم ويجلهم ..

ونستطيع من خلال هذا التفسير الواضح ، أن نعرف من هم العلماء الحقيقيون الأحياء بأخلاقهم وآثارهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. إنهم العارفون بالله ، الذين ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من العلم والمعرفة إلا بالتقوى التي هي : « الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، والرضا بالقليل »[3] .

وإلى هذا يشير الله تعالى في قوله : ﴿ **واتقوا الله ، ويعلمكم الله** ... ﴾ .

يقول القرطبي : قوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم** ﴾[4] وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علمه ، أى يجعل في قلبه نوراً

---

(١) فاطر : ٢٨ . بفتح هاء لفظ الجلالة ، وضم همزة العلماء .

(٢) كما في حاشية الصاوي على الجلالين ، وتفسير البيضاوي .

(٣) من كلام سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

(٤) البقرة : ٢٨٢ .

يفهم به ما يلقي إليه ، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقاناً ، أى فيصلاً يفصل به بين الحق والباطل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** ﴾(١) . ثم يقول ــ والله أعلم :

وحسبي هنا ــ والشيء بالشيء يذكر ــ أن أذكر بعالم فاضل ملأ بقاع الأرض علماً ــ وهو الإمام الشافعي رضى الله عنه ــ فلقد ورد في سيرته العطرة ، أنه كان من شدة ذكائه إذا أراد أن يقرأ في كتاب وضع كمه الأيسر فوق الصفحة اليسري حتي لا يحفظها قبل اليمني .

ورد أنه ذات يوم ــ وقد كان غلاماً صغيراً في سن السابعة أو أكثر من ذلك بقليل ــ جلس في مجلس الإمام مالك رضى الله عنه ــ بالمدينة المنورة ــ وكان الإمام مالك يقرأ في درسه أحاديث الرسول ﷺ في مسجده ، وكانت عادته إذا ذكر الحديث أن يقول : عن فلان عن فلان عن صاحب هذا المقام ، ثم يشير إلي قبر الرسول ﷺ ، فرأى وهو يشير إلي القبر ، الشافعى يعبث بثمرة من الحصير بعد أن بلها بريقه فوق يده .. فحزن الإمام مالك .. ثم انتظر حتى أنهى درسه الذى قرأ فيه أربعين حديثاً ثم ناداه ، فأقبل وجلس بين يديه ، فعاتبه قائلاً له : لماذا كنت تعبث أثناء تلاوة حديث رسول الله ﷺ ؟ .. فقال : يا سيدي ما كنت أعبث وإنما كنت أسجل بريقي ما تقول حتى لا أنسي .. لأنني فقير ولا أملك الدرهم الذى أشتري به القرطاس والقلم .. فتعجب الإمام ثم قال له : إذا كنت صادقاً فاقرأ ولو حديثاً واحداً من الأحاديث الأربعين التي قرأتها في درس الليلة .. فجلس الشافعي كما كان يجلس أستاذه الإمام ، وقال : عن فلان عن فلان عن صاحب هذا المقام وأشار إليه كما أشار الإمام ثم قرأ الأربعين حديثاً !! ..

وفي يوم من الأيام رأى أن ذكاءه قد ضعف ولم يعد في الدرجة التي كان عليها من قبل ، فقال مخاطباً نفسه : لا بد وأن يكون هناك سبب لهذا .. فماذا فعل لكي يعرف هذا السبب ؟ .. ذهب إلى أستاذه الإمام وكيع وشكى له سوء حفظه ، وإلى هذا يشير رضى الله عنه في قوله :

---

(١) الأنفال : ٢٩ .

شكوت إلي وكيع سوء حفظي فأرشدني إلي ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

وقد يتساءل الأخ المسلم ، وما هى المعصية التي ارتكبها الشافعى ، والتي كانت سبباً في ضعف ذكائه ؟ فأقول : قيل في هذا أنه في تلك الليلة التي حدث فيها هذا ، كان قد أكل كثيراً فنام قبل أن يقرأ الورد الذي اعتاد أن يقرأه قبل أن ينام .

وتلك ملاحظة هامة لا بد أن تلاحظها ــ أخا الإسلام ــ لأنه كما قال لقمان الحكيم لولده : « إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة » وكما ورد في الأثر : « من أكل كثيراً نام كثيراً وحرم من خير كثير » .

مع ملاحظة كذلك ، ما قاله الشافعي رضى الله عنه في ذكر الشروط التي لا بد أن تكون مستوفياً لها إذا أردت أن تكون من أهل العلم النافع ، وهى :

أخى لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد ودرهم وصحبة أستاذ ، وطول زمان

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، واجعله أساساً في طلبك للعلم النافع .

مع ضرورة تنفيذ ما أوصاك به الرسول ﷺ في تلك الوصية التي ندور حولها ، وهو أن تكون من أهل السكينة والوقار والتواضع لمن تتعلم منه .

وهذا كله لن يتحقق إلا إذا علمت أولاً وأخيراً أن العلم بحر لا شاطىء له ، أو كما قال الإمام على كرم الله وجهه : « العلم نهر ، والحكمة بحر ، فالعلماء جول النهر يطوفون ، والحكماء وسط البحر يغوصون ، والعارفون في سفن النجاة يسيرون » .

وهذا معناه أنك لا بد أن تفهم أنك ستظل طالباً للعلم إلي آخر لحظة في حياتك ، أو من المهد إلى اللحد .

وحسبك أن تقرأ قول الله تبارك وتعالي لأعلم خلقه محمد صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ .. **وقل ربي زدني علماً** ﴾(١) .

وقوله تعالي لجميع خلقه : ﴿ .. **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾(٢) .

وحسبك كذلك حتي يتضح لك هذا ، وحتي تكون متواضعاً في طلب العلم ، ولو كنت حاصلاً علي أعلى الشهادات العلمية .

حسبك أن تستفيد من هذا الدرس القرآني الذي سجله الله تبارك وتعالي في سورة الكهف(٣) ، والذي كان بين سيدنا موسي ، والعبد الصالح « الخضر » عليهما الصلاة والسلام ، لأنه يعتبر من أهم الدروس التي يجب علينا كمؤمنين أن نتعظ بها كما يشير قول الله تعالى : ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾(٤) .

والخلاصة التي يحسن بنا أن نقف عليها ، هي : أن الله تعالى كان قد أمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يقف خطيباً بين بنى إسرائيل لكى يذكرهم بأيام الله ــ وكان هذا بعد أن ظهر موسي وقومه على أرض مصر ، وبعد أن استقرت بهم الدار ــ فخطب قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون ، وأهلك عدوهم ، واستخلفهم فى الأرض ، ثم قال : وكلم الله نبيكم تكليماً ، واصطفاه لنفسه ، وألقي عليه محبة منه ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، فجعلكم أفضل أهل الأرض(٥) ، ورزقكم العز بعد الذل ، والغنى بعد الفقر ، والتوراة بعد أن كنتم جهالاً . فقال له رجل من بنى إسرائيل : عرفنا الذي تقول ، فهل علي وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبى الله ؟ قال : لا(٦) .. فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه .. فبعث الله جبريل

---

(١) طه : ١١٤ .

(٢) الإسراء : ٨٥ .

(٣) من الآية : ٦٠ ــ ٨٢ .

(٤) هود : ١٢٠ .

(٥) أى في زمانهم .

(٦) لأنه يعرف جيداً حقيقة نفسه ، فهو نبى الله وكليمه ورسوله ، وهذا هو السبب في قوله : لا .

ليقول له : أن يا موسي وما يدريك أين أضع علمى ؟ بلى .. إن لى عبداً بمجمع البحرين(١) أعلم منك(٢) .. الحديث(٣) .

فلما سمع موسى هذا تشوفت نفسه الفاضلة ، وهمته العالية ، لتحصيل علم ما لم يعلم ، وللقاء مع من قيل فيه : إنه أعلم منك . فعزم فسأل سؤال الدليل وكيف السبيل ، فأمر بالارتحال علي كل حال ، وقيل له : احمل معك حوتاً في مكتل(٤) فحيث يحيا وتفقده فثم السبيل ، فانطلق مع فتاه(٥) لما واتاه ، مجتهداً طلباً قائلاً : ﴿ **لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً** ﴾(٦) ، أى : سأظل أبحث عن هذا العبد الصالح حتى لو استمر البحث عنه لمدة ثمانين عاماً أو أكثر من ذلك إلى أن أصل إليه إن شاء الله .

وكان سيدنا موسى عليه السلام قد قال لفتاه(٧) : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت ، فقال الفتى : ما كلفت كثيراً ، ثم تناوباً أو تعاوناً معاً بعد ذلك في حمل الحوت إلى أن وصلا فعلاً إلى مجمع البحرين ، وهناك وفي ظل صخرة نام سيدنا موسى ليستريح قليلاً من عناء السفر .. فحدث أثناء ذلك أن تضرب(٨) الحوت وموسى نائم ، فقال فتاه : لا أوقظه ، حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره ، وتضرب الحوت حتى دخل البحر ، فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره في حجر .

وفى رواية : وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق ، فلما استيقظ ــ موسى ــ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : ﴿ **آتنا غداءنا لقد لقينا**

---

(١) أي ملتقاهما ، وقيل هو بحر فارس والروم .. وقيل موسى والخضر وقيل غير ذلك .
(٢) ارجع إلي القرطبي في تفسير سورة الكهف .
(٣) قاله ابن عباس بتصرف .
(٤) هو الزنبيل والمراد به ما يحمل فيه الحوت وهو من الخوص .. مثلاً .
(٥) وهو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليه السلام ، ويقال : هو ابن أخت موسى عليه السلام ، وقد كان ملازماً له ليتعلم منه .
(٦) الكهف : ٦٠ .
(٧) كما في البخاري .
(٨) تضرب : أى اضطرب وتحرك إذ عادت إليه الحياة في المكتل .

من سفرنا هذا نصباً ﴾(١) ، فقال له فتاه : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾(٢) .

وقيل : أن النسيان كان منهما لقوله تعالى : ﴿ نسياً ﴾(٣) . فنسب النسيان إليهما ، ولكن الفتى كان مؤدباً ، ولهذا نسب النسيان إلى نفسه ولم ينسبه إلى أستاذه موسى عليه الصلاة ، كما يشير أيضاً قول الله تعالى على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾(٤) فقد نسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله ، مع أن كليهما من الله تعالى .. ولكنه الأدب الذى لا بد أن تلاحظه مع معلمينا .. فقديماً قالوا : « من علمنى حرفاً صرت له عبداً » .

ثم قال الفتى لسيدنا موسى : ﴿ واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾(٥) أى عجباً للناس ، لأن موضع العجب أن يكون حوت قد مات فأكل شقه الأيسر ثم عاد إلى الحياة بعد ذلك .

ومن غريب ما روى في البخارى ، عن ابن عباس من قصص هذه الآية : أن الحوت إنما عاد إلى الحياة لأنه مسه ماء عين هناك تدعى عين الحياة ما مست قط شيئاً إلا عاد إلى الحياة . وفي التفسير أن العلامة كانت أن يحيا الحوت ، فقيل : لما نزل موسى بعد ما أجهده السفر على صخرة إلى جنب عين الحياة أصاب الحوت شيء من ذلك الماء فحيى . وذكر صاحب كتاب « العروس » أن موسى عليه السلام توضأ من عين الحياة فقطرت من لحيته على الحوت قطرة فعاد إلى الحياة ، والله أعلم .

---

(١) النصب أى التعب ، وقيل أن موسى لم يجد النصب إلا بعد أن جاوز المكان الذى أمر الله به ــ والآية من سورة الكهف : ٦٢ .

(٢) الكهف : ٦٣ .

(٣) كما تشير الآية : ٦١ من سورة الكهف .

(٤) الشعراء : ٨٠ .

(٥) الكهف : ٦٣ .

(٦) الكهف : ٦٤ .

ثم كان بعد أن قال الفتى لسيدنا موسى : ﴿ **واتخذ سبيله في البحر عجباً** ﴾ أن قال له سيدنا موسى بدون غضب أو تعنيف كما يحدث من بعض المعلمين : ﴿ **ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾[1] . أى رجعا يقصان آثارهما لئلا يخطئا طريقهما . وفي البخاري : فوجدا خضراً على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجى بثوبه ، قد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه ، فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضك من سلام ؟! .. من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ؟ قال : جئت لتعلمني مما علمت رشداً .. الحديث . وقال الثعلبي في كتاب « العرائس » : إن موسى وفتاه وجدا الخضر وهو نائم على طنفسة خضراء على وجه الماء وهو متشح بثوب أخضر فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه فقال : وأنى بأرضنا السلام ؟! ثم رفع رأسه واستوى جالساً وقال : وعليك السلام يا نبى بني إسرائيل ، فقال له موسى : وما أدراك بى ؟ ومن أخبرك أني نبى بني إسرائيل ، قال : الذى أدراك بى ودلك على ، ثم قال : يا موسى لقد كان لك في بنى إسرائيل شغل ، قال موسى : إن ربى أرسلني إليك لأتبعك وأتعلم من علمك ، ثم جلسا يتحدثان ، فجاءت خطافة وحملت بمنقارها من الماء ، وذكر الحديث الذي جاء فيه : أن الخضر عليه السلام قال لموسي عليه السلام : ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

وإلى هذا يشير الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ **فوجدا عبداً من عبادنا** ﴾[2] وهو الخضر عليه السلام في قول الجمهور ، وبمقتضى الأحاديث الثابتة .. ﴿ **آتيناه رحمة من عندنا** ﴾[2] وهى النبوة ، وقيل : النعمة . ﴿ **وعلمناه من لدنا علماً** ﴾[2] أى علم الغيب . قال ابن عطية : كان علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه ، لا تعطى ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها ، وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم .

ثم يشير القرآن إلى ما حدث بعد هذا فيقول : ﴿ **قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً** ﴾[3] أى : هل يتفق لك ويخف

---

(١) الكهف : ٦٤ .
(٢) الكهف : ٦٥ .
(٣) الكهف : ٦٦ .

عليك ؟ وهذا سؤال الملاطف ، والمخاطب المستنزل المبالغ في حسن الأدب .
قال القرطبي : في هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب ، ولا يظن أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه ، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول ، والفضل لمن فضله الله ، فالخضر إن كان ولياً فموسى أفضل منه ، لأنه نبي والنبي أفضل من الولي ، وإن كان الخضر نبياً فموسى فضله الله بالرسالة ، والله أعلم .

فكان جواب الخضر عليه السلام : ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾(١) أي أنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي ، لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه ، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه ، ولا طريق الصواب ، وهو المعنى المراد من قوله تعالى : ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾(٢) والأنبياء لا يقرون على منكر ، ولا يجوز لهم التقرير ، أي لا يسعك السكوت جرياً على عادتك وحكمك . فيكون جواب سيدنا موسى على هذا : ﴿ .. ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾(٣) أي سأصبر بمشيئة الله ﴿ ولا أعصي لك أمراً ﴾(٣) أي قد ألزمت نفسي طاعتك . فيوافق الخضر على مصاحبة موسى له ، غير أنه يشترط عليه شرطاً ، وهو قوله تعالى : ﴿ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾(٤) أي حتى أكون أنا الذي أفسره لك ، وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحبة ، فلو صبر ودأب لرأى العجب ، لكنه أكثر من الاعتراض ، فتعين الفراق والإعراض .

ويحكي القرآن بعد ذلك بقية ما حدث في تلك الرحلة المباركة ، فيقول :

﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ، قال أخرقتها لتغرق أهلها(٥) لقد جئت شيئاً إمراً(٦) . قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً .

(١) الكهف : ٦٧ .
(٢) الكهف : ٦٨ .
(٣) الكهف : ٦٩ .
(٤) الكهف : ٧٠ .
(٥) ولم يقل لتغرقني لأن الذي غلب عليه في الحال فرط الشفقة عليهم ، ومراعاة حقهم .
(٦) أمراً ، معناه عجباً ، وقيل : منكراً .

قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس(١) لقد جئت شيئاً نكراً(٢) . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً . قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني(٣) ، قد بلغت من لدني عذراً(٤) . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية(٥) استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض(٦) فأقامه ، قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بيني وبينك(٧) ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا . أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها(٨) وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا أن يبدلهما ربهما(٩) خيراً منه زكاة(١٠) وأقرب رحماً(١١) . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري ، ذلك تأويل(١٢) ما لم تسطع عليه صبرا ﴾(١٣) .

ثم بعد ذلك وبعد انتهاء تلك الرحلة الخالدة ، وقبل أن يفارق الخضر موسى عليهما السلام يطلب سيدنا موسى من سيدنا الخضر أن يوصيه ، فيقول له سيدنا الخضر .

---

(١) أى أقتلت نفساً زكية لم تعمل الحنث ، أو الخبث ..

(٢) أى بين الفساد لأن مكروهه قد وقع .

(٣) لن أتبعك .

(٤) أى بلغت مبلغاً تعذر به في ترك مصاحبتي .

(٥) قيل هى أبلة ، وقيل أنطاكية ، وقيل هى قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة .

(٦) أى كان مائلاً فأقامه الخضر بيده .

(٧) ورد في الحديث الشريف : « يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما » .

(٨) أى اجعلها ذات عيب .

(٩) أى أن يرزقهما الله ولداً .

(١٠) أى ديناً وصلاحاً .

(١١) أى رحمة .

(١٢) أى تفسير .

(١٣) الكهف : ٧١ — ٨٢ .

« كن بساماً ولا تكن ضحاكاً . ودع اللجاجة ، ولا تمش في غير حاجة ، ولا تعب على الخطائين خطاياهم ، وابك على خطيئتك يا ابن عمران » .

* * *

فلتكن أخا الإسلام مستفيداً بهذا الدرس القرآنى دائماً وأبداً حتى تنفذ وصية الرسول ﷺ ، فتكون من أهل العلم المتوجين بالسكينة والوقار والتواضع ، وتكون بذلك من العلماء العاملين الذين انتفعوا ونفعوا ، وحسبك في النهاية ترغيباً لك في طلب العلم ونشره أن تذكر دائماً وأبداً هذين الحديثين الشريفين :

عن معاوية رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية(١) ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » رواه مسلم .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا جميعاً من الراسخين في العلم ، الذين تفقهوا في دينهم وكان العلم حجة لهم لا عليهم .. آمين .

* * *

---

(١) أى لا تنقطع .

الوصية الثانية والأربعون :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إياكم والتعريس[1] على جواد[2] الطريق والصلاة عليها ، فإنها مأوى الحيات والسباع ، وقضاء الحاجة عليها ، فإنها من الملاعن[3].

رواه ابن ماجه

---

(١) التعريس : هو النزول للراحة آخر الليل .

(٢) جواد الطريق : هو ما اتسع منها ، جمع جادة ويقابلها ثنيات الطريق .

(٣) فإنها الملاعن : أي الجالبة للعن لمن فعل ذلك .

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لهذا التحذير المحمدي الوارد في تلك الوصية ، والذى مضمونه كما هو واضح في نصها : أنه ليس من الخير للإنسان أن ينام أو يستريح آخر الليل[1] على جواد الطريق وهو ما اتسع منها ، وإنما من الخير له أن ينام في مكان يستره ويحميه من الحيات والسباع التي كثيراً ما تأوى إلى تلك الأماكن المتسعة من الطرق ليلاً لتأكل ما فيها وتلتقط ما يسقط من المارة .

والرسول ﷺ في هذا التحذير أو بهذا التوجيه يؤكد لنا نحن المؤمنين ـ إن شاء الله ـ حرصه علينا وحبه لنا ، كما يشير قول الله تعالى :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[2] .

ومن حرصه علينا صلوات الله وسلامه عليه : هذا الذى يحذرنا منه حتى لا نتعرض للتهلكة ، أو حتى لا نكون سبباً في إشغال الطريق ، وإعاقة السير عليه ، أو عدم تمكين الغير من سهولة الاهتداء إليه .

ولهذا ، فقد ورد النهى صراحة عن التعريس[3] في طريق الدواب .

فعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سافرتم في الخصب[4] ، فاعطوا الإبل حظها من الأرض[5] ، وإذا سافرتم في الجدب[6] ، فأسرعوا عليها السير[7] ، وبادروا بها نقيها[8] ، وإذا عرستم[9]

---

(١) وهو التعريس المشار إليه في الحديث .
(٢) التوبة : ١٢٨.
(٣) يقال : عرس القوم بالتشديد ، أى نزلوا للاستراحة ثم يرتحلون .
(٤) أى في زمن جودة المرعى وكثرته .
(٥) أى بأن تمكنوها من رعى النبات .
(٦) أى زمان يبس الأرض وقلة المرعى .
(٧) أى قبل أن ينهكها الجوع .
(٨) أى أسرعوا حتى تصلوا مقصدكم قبل أن يذهب مخها من ضنك السير والتعب .
(٩) أى نزلتم آخر الليل للاستراحة .

فاجتنبوا الطريق فإنها طريق الدواب ، ومأوى الهوام(۱) بالليل » رواه مسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي .

ومع هذا التحذير ، فقد ورد الترغيب كذلك في إماطة الأذى عن الطريق :

فعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع(۲) وستون — أو سبعون — شعبة(۳) : أدناها(٤) إماطة الأذى عن الطريق(٥) وأرفعها(٦) قول : لا إله إلا الله »(۷) .

رواه البخاري ومسلم وأبوداوود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

* * *

وعن أبي ذر رضى الله عنه ، قال : قال النبى ﷺ : « عرضت على أعمال أمتي حسنها وسيئها(۸) ، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق ، ووجدت في مساوىء أعمالها النخامة(۹) تكون في المسجد لا تدفن »(۱۰) رواه مسلم وابن ماجة .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك فأخره(۱۱) ، فشكر الله له(۱۲) فغفر له »(۱۳) رواه

---

(۱) أى لأن الحشرات وذوات السموم والسباع وغيرها تمشى على الطريق بالليل لتأكل ما فيها وتلتقط ما يسقط من المارة .
(۲) البضع بكسر فسكون : من الثلاثة إلى التسعة .
(۳) الشعبة بضم فسكون : الطائفة من الشيء والقطعة منه .
(٤) أى أقلها شأناً .
(٥) أى إزاحته وإزالته .
(٦) أى أفضلها وأعظمها شأناً .
(۷) لأنها كلمة التوحيد التي خلق الله الأشياء جميعاً من أجلها وبعث الرسل وأنزل الكتب للدعوة إليها .
(۸) أى شريفها وقبيحها .
(۹) أى البصقة التي تخرج من أقصى الحلق .
(۱۰) أى لا تدفن في الأرض وتستر حتى لا تؤذي المصلين .
(۱۱) أى أبعده عن الطريق .
(۱۲) أى رضى عمله هذا وقبله منه .
(۱۳) أى حط عنه ذنوبه وخطاياه .

البخاري ومسلم .

وفى رواية لمسلم ، قال : « لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة[1] في شجرة قطعها من ظهر الطريق[2] كانت تؤذى المسلمين » .

وفي أخرى له : « مر رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق ، فقال : والله لأنحين[3] عن المسلمين لا يؤذيهم[4] ، فأدخل الجنة »[5] .

ورواه أبو داوود ، ولفظه قال : قال رسول الله ﷺ : « نزع[6] رجل لم يعمل خيراً قط[7] غصن شوك عن الطريق : أو قال : كان في شجرة فقطعه ، وما كان موضوعاً ، فأماطه عن الطريق ، فشكر الله ذلك له ، فأدخله الجنة » .

ولهذا كان من الخير أن لا يشغل الطريق بأى شيء يعوق السير فيه ، وكان من الخير أن ينحى كل ما يؤذى المارة[8] من طريقهم .

بل ليس من الخير أن يصلى الإنسان في عرض الطريق ، وإنما من الخير أن يصلي في مكان جانبي وأن يتخذ له سترة .

فقد ورد في الحديث الشريف : « إذا صلى أحدكم فليصل إلي سترة وليدن منها » .

والسترة[9] : هى ما يجعله المصلى بين يديه لمنع المرور ، وإنما تسن للإمام

---

(١) أي يتمتع في نعيمها .
(٢) يعني من وسطه .
(٣) أى لأبعدنه .
(٤) أى حتى لا يسبب لهم أذى .
(٥) يعني كان هذا العمل القليل الذي شكره الله له سبباً في دخوله الجنة .
(٦) النزع هو الأخذ بشدة .
(٧) جملة « لم يعمل » صفة لرجل .
(٨) كالحجر والشوكة والعظم والنجاسة ونحو ذلك .
(٩) كما في الفقه على المذاهب الأربعة .. فارجع إليه إذا أردت أن تقف على آراء المذاهب في هذا الموضوع في باب (مبحث سنن الصلاة الخارجة عنها) .

والمنفرد إن خشيا مرور أحد بين يديهما . وأما المأموم فسترة الإمام سترة له ، ويشترط فيا أن تكون طول ذراع فأكثر ، أما غلظها فلا حد لأقله ، ويستحب أن يميل عنها : يميناً أو يساراً بحيث لا يقابلها ، وأن يكون مستوياً مستقيماً ، وأن يقرب منها قدر ثلاثة أذرع من ابتداء قدميه ، فإن وجد ما يصلح أن يكون سترة ولكن تعسر غرزه بالأرض لصلابته ، وضعه بين يديه عرضاً ، وهو أولى من وضعه طولاً ، فإن لم يجد شيئاً أصلاً خط خطاً بالأرض كالهلال ، وهو أولى من غيره من الخطوط ، ويصح الاستتار بظهر الآدمي[1] غير الكافر والمرأة الأجنبية ، ويصح بالسترة المغصوبة[2] وإن حرم الغصب ، وكذا السترة النجسة[3] ، ويصح اتخاذ السترة من جدار أو عصا أو أثاث أو نحو ذلك بلا ترتيب بينها ، فله أن يستتر بإحداها مع وجود غيرها .

ويحرم المرور بين يدي المصلي ، ولو لم يتخذ سترة بلا عذر ، كما يحرم على المصلي أن يتعرض بصلاته لمرور الناس بين يديه ..

فعن أبي الجهم عبد الله بن الحارث بن الصمة الأنصاري رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه[4] لكان أن يقف[5] أربعين[6] خير له من أن يمر بين يديه . قال أبو النضر : لا أدري قال أربعين يوماً ، أو شهراً ، أو سنة » رواه البخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه ورواه البزار ، ولفظه :

سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « لو يعلم المار بين يدي المصلي[7] ماذا

---

(١) عند الشافعية : لا يصح الاستتار بالآدمي مطلقاً ، وعند الحنابلة يصح الاستتار بالآدمي مطلقاً بظهره أو غيره .

(٢) عند الحنابلة لا يصح الاستتار بالمغصوبة والصلاة إليها مكروهة .

(٣) عند المالكية : لا يصح الاستتار بالنجس كقصبة المرحاض .

(٤) أي من الإثم في هذا المرور .

(٥) قوله « أن يقف » في تأويل مصدر خبر كان مقدماً ، والتقدير لكان وقوفه .

(٦) قال النووي : معناه لو يعلم ما عليه من الإثم لاختار الوقوف أربعين على ارتكاب ذلك الإثم ، ويعني الحديث النهي الأكيد والوعيد الشديد .

(٧) أي أمامه في موضع سجوده .

عليه لكان لأن يقوم أربعين خريفاً(١) خير له من أن يمر بين يديه » ورجاله رجال الصحيح ، قال الترمذي : وقد روى عن أنس أنه قال : « لأن يقف أحدكم مائة عام خير له من أن يمر بين يدي أخيه وهو يصلي » .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان أحدكم يصلي فلا يدع(٢) أحد يمر بين يديه ، فإن أبي فليقاتله ، فإن معه القرين »(٣) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح ، وابن خزيمة في صحيحه .

وإذا كان الرسول ﷺ ، قد أشار في الوصية إلي جواد الطريق — أى ما اتسع منها — علي أنها مأوى الحيات والسباع ، فإننى أحب وإتماماً للفائدة أن أذكر ببعض الأحاديث الشريفة الواردة في هذا الموضوع .

فعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله ﷺ « من قتل وزغة(٤) في أول ضربة(٥) ، فله كذا وكذا حسنة ، ومن قتلها في الضربة الثانية فله كذا وكذا دون الحسنة الأولى(٦) ، ومن قتلها في الضربة الثالثة فله كذا وكذا حسنة لدون الثانية » رواه مسلم وأبو داوود والترمذي وابن ماجة .

وفي رواية لمسلم : « من قتل وزغا في أول ضربة كتبت له مائة حسنة ، وفي الثانية دون ذلك ، وفي الثالثة دون ذلك » .

وفي أخرى لمسلم وأبي داوود أنه قال : « في أول ضربة سبعين حسنة »(٧) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يخطب علي المنبر ،

---

(١) أى سنة .

(٢) أى فلا يترك ولا يسمح .

(٣) أى الشيطان الذي يحرضه علي المرور ويشجعه عليه .

(٤) الوزغة : حشرة مؤذية يقال لها : سام أبرص .

(٥) يعنى : من أول ضربة .

(٦) يعنى أقل منها ، وفي رواية « لدون الأولى » .

(٧) قال الحافظ : وإسناد هذه الرواية الأخيرة منقطع لأن سهيلاً قال : حدثتنى أختى عن أبي هريرة ، وفي بعض نسخ مسلم : أخي ، وعند أبي داوود : أخي أو أختى على الشك ..

يقول : « اقتلوا الحيات ، واقتلوا ذا الطفيتين والأبتر ، فإنهما يطمسان البصر ، ويسقطان الحبل . قال عبد الله : فبينا أنا أطارد حية أقتلها ناداني أبو لبابة : لا تقتلها ، قلت : إن رسول الله ﷺ أمر بقتل الحيات ، قال : إنه نهى بعد ذلك عن ذوات البيوت ، وهن العوامر »(١) رواه البخارى ومسلم ، ورواه مالك وأبو داوود والترمذي بألفاظ متقاربة .

وفي رواية لمسلم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بقتل الكلاب ، يقول : « اقتلوا الحيات والكلاب ، واقتلوا ذا الطفيتين والأبتر ، فإنهما يلتمسان البصر ، ويستسقطان الحبالى » .

قال سالم : قال عبد الله بن عمر : فلبثت لا أترك حية أراها إلا قتلتها ، فبينا أنا أطارد حية(٢) يوماً من ذوات البيوت مر بي زيد بن الخطاب وأبو لبابة ، وأنا أطاردها ، فقالا : مهلاً يا عبد الله ؟ فقلت : إن رسول الله ﷺ أمر بقتلهن ، قال : إن رسول الله ﷺ نهى عن ذوات البيوت .

وفي رواية لأبي داوود ، قال : إن ابن عمر وجد بعدما حدثه أبو لبابة حية في داره فأمر بها ، فأخرجت إلى البقيع(٣) . قال نافع : فرأيتها بعد في بيته(٤) .

وفي رواية لمالك ومسلم وأبي داود : « إن هذه البيوت عامر ، فإذا رأيتم منها شيئاً ، فحرجوا عليها ثلاثاً(٥) ، فإن ذهب ، وإلا فاقتلوه فإنه كافر .. » .

[توضيـــح] :

الطفيتان بضم الطاء المهملة وإسكان الفاء : هما الخطان الأسودان في

---

(١) أى سكان من الجن .
(٢) يعني أجرى وراءها لأقتلها .
(٣) وهو مقبرة المدينة .
(٤) يعنى أنها عادت إلى الدار ثانية .
(٥) أى شددوا عليها في الخروج .

ظهر الحية .

والأبتر : هو الأفعى ، وقيل جنس أبتر كأنه مقطوع الذنب وسمه شديد جداً وقيل : هو صنف من الحيات أزرق مقطوع الذنب إذا نظرت إليه الحامل ألقت حملها .

وقوله « يلتمسان البصر » : معناه يطمسانه بمجرد نظرهما إليه بخاصية جعلها الله فيهما .

* * *

قال الحافظ : فذهبت طائفة من أهل العلم إلي قتل الحيات أجمع ، في الصحاري والبيوت بالمدينة ، وغير المدينة ، ولم يستثنوا في ذلك نوعاً ولا جنساً ولا موضعاً ، واحتجوا في ذلك بأحاديث جاءت : لحديث ابن مسعود الذي جاء فيه أن رسول الله ﷺ قال : « اقتلوا الحيات كلهن ، فمن خاف ثأرهن(١) فليس منى »(٢) رواه أبو داوود والنسائي والطبراني بأسانيد رواتها ثقات ..

ولحديث أبي هريرة الذي جاء فيه أن النبى ﷺ قال : « ما سالمناهن منذ حاربناهن(٣) ، ـــ يعنى الحيات ـــ ومن ترك قتل شيء منهن خيفة(٤) فليس منا » رواه أبو داوود وابن حبان في صحيحه .

ولحديث ابن عباس رضي الله عنهما الذى جاء فيه أن رسول الله ﷺ قال : « من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا ، ما سالمناهن منذ حاربناهن »(٥) رواه أبو داوود ، ولم يجزم موسى بن مسلم رواية بأن عكرمة رفعه إلي ابن عباس .

---

(١) أى انتقامهن .
(٢) أى ليس متبعاً لهديى وطريقتى .
(٣) يعنى أن الحرب بيننا وبينهم متصلة بلا هدنة .
(٤) أى خوفاً من أذاها .
(٥) وهو موافق لحديث أبي هريرة .

ثم يقول الحافظ : وقالت طائفة : تقتل الحيات أجمع إلا سواكن البيوت بالمدينة وغيرها فإنهن لا يقتلن لما جاء في حديث أبي لبابة وزيد بن الخطاب من النهى عن قتلهن بعد الأمر بقتل جميع الحيات .

وقالت طائفة : تنذر سواكن البيوت في المدينة وغيرها ، فإن بدين(١) بعد الإنذار قتلن ، وما وجد منهن في غير البيوت يقتل من غير إنذار(٢) ، وقال مالك : يقتل ما وجد منها في المساجد واستدل هؤلاء بقوله ﷺ : « إن لهذه البيوت عوامر ، فإذا رأيتم منها شيئاً فحرجوا عليها ثلاثاً ، فإن ذهب ، وإلا فاقتلوه » ، واختار بعضهم أن يقول لها ما ورد في حديث أبي ليلي الذي جاء فيه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : وكان قد سئل عن جنان البيوت ، هل يجوز قتلها أم لا ؟ .

« إذا رأيتم منهن شيئاً في مساكنكم فقولوا : أنشدكم العهد(٣) الذي أخذ عليكم نوح ، أنشدكم العهد الذي أخذ عليكم سليمان أن لا تؤذونا(٤) ، فإن عدن(٥) فاقتلوهن » رواه أبو داوود والترمذي والنسائي كلهم من رواية ابن أبي ليلى عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلي عن أبيه ، وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وعن نافع قال : « كان ابن عمر يقتل الحيات كلهن(٦) حتى حدثنا أبو لبابة أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل جنان البيوت فأمسك(٧) » رواه مسلم .

وقال مالك : يكفيه أن يقول : أحرج عليك بالله واليوم الآخر أن لا تبدو لنا(٨) ولا تؤذينا ، وقال لها : أنت في حرج إن عدت إلينا ، فلا تلومينا

---

(١) أي ظهرن .
(٢) وهذا هو الصحيح المطابق للأحاديث .
(٣) أي نسألكم ونطلب منكم أن تفوا بالعهد الذي أخذ عليكم .
(٤) يعني أن لا تتعرضوا لنا بأذي ومكروه .
(٥) أي رجعن إلى البيت ولم ينصرفن أو عدن إلى إيذائكم .
(٦) أخذاً بعموم الأمر بقتلهن ولم يكن قد علم بالاستثناء .
(٧) أي كف عن قتلهن .
(٨) أي لا تظهر لنا .

أن نضيق عليك بالطرد والتتبع . وقالت طائفة : لا تنذر إلا حيات المدينة فقط لما جاء في حديث أبي سعيد الذي جاء فيه أن رسول الله ﷺ قال : « .. إن بالمدينة جناً قد أسلموا ، فإذا رأيتم منهم شيئاً ، فآذنوه ثلاثة أيام(١) ، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه ، فإنما هو شيطان » .

وأما حيات غير المدينة في جميع الأرض والبيوت فتقتل من غير إنذار لأننا لا نتحقق وجود مسلمين من الجن ثم(٢) ، ولقوله ﷺ : « خمس من الفواسق تقتل في الحل والحرم ، وذكر منهن الحية » .

وقالت طائفة : يقتل الأبتر وذو الطفيتين من غير إنذار سواء كن بالمدينة وغيرها ، لحديث أبي لبابة : سمعت رسول الله ﷺ : نهى عن قتل الجنان التي تكون في البيوت إلا الأبتر وذو الطفيتين . ولكل من هذه الأقوال وجه قوى ، ودليل ظاهر ، والله أعلم(٣) .

وأما عن قضاء الحاجة على الطريق ، فإنه كما علمت في نص الوصية من الملاعن ، أى من الأمور التي تجلب اللعن لفاعلها ، والتى منها كما عرفت « التعريس عليّ جواد الطريق ، والصلاة عليها » إلى أن يقول في نص الوصية « وقضاء الحاجة ، فإنها الملاعن » .

وقد ورد النهى عن قضاء الحاجة في طريق الناس وظلهم ، لما فيه من أذيتهم :

فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « اتقوا اللاعنين(٤) ، قالوا : وما اللاعنان يا رسول الله ؟ قال : الذى يتخلى(٥) في طريق الناس أو ظلهم » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود .

---

(١) يعنى أطلبوا منه الخروج والانصراف .
(٢) أى هناك ، ولكن يكفي احتمال أن بعضهم أسلم فتنذرهم أولاً بالخروج فإن أبوا قوتلوا .
(٣) ارجع إلي الترغيب والترهيب للمنذري صفحة ٨٧٤ ج ٣ .
(٤) أى الأمران اللذان يحملان الناس على اللعن وذلك أن من فعلهما لعن وشتم عادة .
(٥) أى يقضى حاجته ، وسمى قضاء الحاجة بالتخلى لأنه يكون عادة في الخلاء وهو الأرض الفضاء .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الملاعن الثلاث : البراز(١) في الموارد ، وقارعة الطريق(٢) ، والظل » رواه أبو داوود وابن ماجه ، وأخرجه أيضاً الحاكم وصححه ، وكذلك صححه ابن السكن ، قال الحافظ ابن حجر : وفيه نظر لأن أبا سعيد لم يسمع من معاذ ولا يعرف بغير هذا الإسناد قاله ابن القطان .

وعن حذيفة بن أسيد رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « من آذى المسلمين في طريقهم وجبت عليه لعنتهم »(٣) رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن .

* * *

ومن كل هذه الأحاديث يتأكد لنا مرة أخرى حرص الرسول ﷺ علينا وعلى سلامتنا وعدم تعرضنا لمجرد اللعن من غيرنا ، وذلك بهذا النهى الصريح : عن التخلى في طريق الناس وظلهم .

* * *

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، وليكن متجنباً لأسباب اللعنة من الناس ، وذلك بتنفيذه لوصية الرسول ﷺ ، فلا ينام ولا يستريح على جواد الطريق ، ولا يصلي عليها، ولا يتخلي في طريق الناس وظلهم .

وحسبه إن فعل ذلك أنه سيكون قد راعى حقوق الناس ومشاعرهم .

وسيكون أيضاً في نفس الوقت قد أدى للطريق حقه أو حقوقه :

فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « إياكم والجلوس في الطرقات ، قالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها ، فقال رسول الله ﷺ : فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : غض البصر وكف الأذى(٤) ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » متفق عليه .

أسأل الله تعالى أن يجنبنا جميعاً أسباب الطرد من رحمته .. آمين .

---

(١) هو في الأصل اسم للفضاء الواسع وكني به عن قضاء الحاجة .

(٢) أى وسطه وقيل أعلاه والمراد نفس الطريق .

(٣) يعني استحق منهم أن يدعو عليه باللعنة والطرد من رحمة الله .

(٤) الذي منه ما حذر منه الرسول ﷺ في وصيته والذي أرجو أن نكون قد عرفناه وعقدنا العزم على كفه عن الناس .

الوصية الثالثة والأربعون

عن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

استقيموا ولن تحصوا[1]، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة[2]، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن[3].

رواه ابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

---

(١) استقيموا ولن تحصوا: أى اثبتوا وداوموا على فعل ما أمرتم به من فرائض العبادات ونوافلها لكن فى قصد واعتدال

بلا مبالغة ولا تفريط فإنكم لن تستطيعوا إحصاء ذلك ولا بلوغ نهايته .

(٢) خير أعمالكم الصلاة : أى أنها أحب الأعمال إلى الله عز وجل وأكثرها ثواباً لكم . فعليكم بالمحافظة عليها .

(٣) ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن : أى أن إسباغ الوضوء والمحافظة عليه كلما انتقض علامة من علامات الإيمان .

◉ وحسبك أن تعلم أن الوضوء هو الأساس الذى لابد وأن تكون محسناً له . وقد ورد أن السيدة نفيسة رضى الله عنها قالت : رحم الله الشافعى فلقد كان يحسن الوضوء .

* * *

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لهذه الوصية العظيمة التي بدأها الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأهم ما يجب علينا أن نلاحظه ونحققه ، وهو الثبات علي الأمر ، والمداومة علي فعل ما أمرنا به من فرائض العبادات ونوافلها ، في قصد واعتدال بلا مبالغة ولا تفريط ، لأننا لن نستطيع إحصاء ذلك ولا بلوغ نهايته .

وتفصيل هذا الإجمال هو أننا كمؤمنين لابدأن نثبت على الحق الذي آمنا به ، بمعنى أن نكون علي ثقة كاملة بأن الله تعالى واحد لا شريك له ، وأنه سبحانه وتعالى متصف بالصفات الجليلة القديمة الثابتة بالأدلة التفصيلية ، وهى ثلاث عشرة(١) :

١ ــ **الوجود** : أى أنه تعالى موجود بلا ابتداء قبل وجود جميع الحوادث من عرش وكرسى وسموات وسائر العالم « والدليل » على ذلك خلقه تعالى السموات وما فيها من الكواكب والملائكة ، والأرض وما فيها من الجبال والرمال والأشجار والأحجار والبحار والأنهار والحيوانات والجمادات ، لأن الصنعة لا بد لها من صانع موجود ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديراً** ﴾(٢) ، ومن البدهي أن موجد الشيء لا يكون معدوماً ، لأن المعدوم لا يعطي الوجود .

٢ ــ **القدم** : أى أنه تعالى لا ابتداء لوجوده ، وأنه لم يسبقه عدم ، لقوله تعالى : ﴿ **الله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل** ﴾(٣) ، إذ معناه : أن كل شيء غير الله مخلوق لله ، فلا يجوز أن يكون غيره خالقاً له ، لأنه لو كان مخلوقاً لكان محتاجاً لغيره ، كيف وهو ذو الغنى المطلق ، وفقر كل شيء إليه محقق ؟ وعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : إني عند النبي صلي الله عليه وآله وسلم إذ جاءه قوم من بني تميم ، فقال : « اقبلوا البشرى يابني تميم »(٤) ، قالوا : بشرتنا فأعطنا ، فدخل ناس من أهل اليمن ، فقال :

---

(١) كما جاء في الدين الخاص ج ١ بتصرف واختصار .
(٢) الفرقان : ٢ . (٣) الزمر : ٦٢ .
(٤) المراد بهذه البشارة أن من أسلم نجا من الخلود في النار ثم يجازي علي وفق عمله .

« اقبلوا البشري يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم » قالوا : قبلنا . جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟ قال : « كان[1] الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه علي الماء[2] ، ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء[3] » أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ، والبخاري في التوحيد ، وهذا لفظه .

٣ ــ **البقاء** : أى أنه لا انتهاء لوجوده تعالى ، وأنه لا يلحقه عدم ، لقوله تعالى : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾[4] ، ولأن من ثبت قدمه استحال عدمه ، فهو الأزلي القديم بلا بداية ، والأبدى الباقي بلا نهاية .

٤ ــ **مخالفته تعالى للحوادث** : ومعناها عدم مماثلته سبحانه لشيء منها ، لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال ، لقوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير** ﴾[5] ، ولأنه لو ماثل شيئاً منها لكان حادثاً مثلها والحدوث مستحيل في حق الخالق عز وجل .

٥ ــ **قيامه تعالى بنفسه** : أى أنه تعالى موجود بلا موجد ، وغنى عن كل ما سواه ، وأنه متصف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص ، لقوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد** ﴾[6] .

وقوله تعالى : ﴿ **والله الغني وأنتم الفقراء** ﴾[7] ، ولأنه لو احتاج إلى شيء لكان حادثاً وحدوثه محال لما تقدم ، فاحتياجه محال .

٦ ــ **الوحدانية في الذات والصفات والأفعال** : أى أن ذاته ــ سبحانه وتعالى ــ ليست مركبة ، وليس لغيره ذات تشبه ذاته ، وأنه ليس

---

(١) كان هنا بمعنى الوجود الأزلي .

(٢) أى لم يكن تحت العرش إلا الماء الذي خلق قبله ، ففى حديث أبي رزين العقيلي مرفوعاً : « إن الماء خلق قبل العرش » أخرجه أحمد والترمذي وصححه .

(٣) أى قدر كل الكائنات وأثبتها في اللوح المحفوظ .

(٤) القصص : ٨٨ .

(٥) الشوري : ١١ .

(٦) فاطر : ١٥ .

(٧) محمد : ٣٨ .

له صفتان من جنس واحد كقدرتين وعلمين ، وليس لغيره صفة كصفته ، وأن الأفعال كلها خيرا وشرها اختياريها واضطراريها مخلوقها لله وحده بلا شريك ولا معين، قال تعالى : ﴿ **وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾(١) .

وقال : ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾(٢) .

٧ ــ **الحياة** : وهى صفة قديمة قائمة بالذات العلية تصحح لموصوفها الاتصاف بالعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر ، وما إلي ذلك من الصفات اللائقة به تعالى « وحياته » ليست بروح ، ودليلها قوله تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾(٣) وقوله : ﴿ **وتوكل على الحى الذى لا يموت** ﴾(٤) .

٨ ــ **العلم** : وهو صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالي تحيط بكل موجود : واجباً كان أو جائزاً ، وبكل معدوم : مستحيلاً كان أو ممكناً. فهو تعالى يعلم وجود ذاته وصفاته وأنها قديمة لا تقبل العدم ، ويعلم أنه لا شريك له وأن وجود الشريك محال ، ويعلم جواز حدوث الممكن وعدمه ، ويعلم في الأزل عدد من يدخل الجنة ومن يدخل النار جملة واحدة فلا يزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه ، ويعلم أفعالهم وكل ما يكون منهم ، ويعلم أنه عالم بكل الأمور لا تخفى عليه خافية ، قال تعالى : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾(٥) وقال : ﴿ **إن الله بكل شىء عليم** ﴾(٦) .

ولأنه تعالى لو لم يكن عالماً لكان جاهلاً ، ولو كان جاهلاً لكان حادثاً ، وحدوثه محال لما سبق ، فالجهل عليه تعالى محال ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

---

(١) البقرة : ١٦٣ .
(٢) الصافات : ٩٦ .
(٣) آل عمران : ٢ .
(٤) الفرقان : ٥٨ .
(٥) الملك : ١٤ .
(٦) الأنفال : ٧٥ .

هذا .. وعلم الله تعالى ليس كسبياً ولا يوصف بكونه ضرورياً أو نظرياً أو بديهياً أو يقينياً أو تصورياً أو تصديقياً لأنه صفة قديمة لا تعدد فيها ولا تكثر .

٩ ــ **الإرادة**: وهى صفة وجودية قديمة بذاته تعالى تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه كوجود المخلوق في زمن دون غيره ، وفي مكان دون آخر ، وهكذا ، لقوله تعالى : ﴿ **وربك يخلق ما يشاء ويختار** ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **فعال لما يريد** ﴾(٢) .

١٠ ــ **القدرة** : وهي صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه ، لقوله تعالى : ﴿ **وهو علي كل شيء قدير** ﴾(٣) .

وقوله : ﴿ **وكان الله علي كل شيء مقتدرا** ﴾(٤) .

ولأنه لو لم يكن قادراً لكان عاجزاً ، وعجزه محال ، كيف وهو خالق كل شيء ؟ ..

١١ ــ **السمع** : وهو صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالي تحيط بكل موجود واجباً أو ممكناً صوتاً أو لوناً أو ذاتاً أو غيرها ، فهو يسمع دبيب النملة السوداء علي الصخرة الملساء في الليلة الظلماء بلا أذن ولا صماخ .

١٢ ــ **البصر** : وهو صفة وجودية قديمة قائمة بالذات العلية تحيط بكل موجود ــ واجباً أو جائزاً جسماً أو لوناً أو صوتاً أو غيرها بلا حدقة ــ إحاطة العلم والسمع ، والدليل علي أنه تعالى سميع بصير قوله تعالى : ﴿ **إن الله سميع بصير** ﴾(٥) .

ولأنه تعالي لو لم يكن سميعاً بصيراً لكان أصم أعمى وهو نقص ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

---

(١) القصص : ٦٨ .
(٢) البروج : ١٦ .
(٣) الملك : ١ .
(٤) الكهف : ٤٥ .
(٥) الحج : ٧٥ ، ولقمان : ٢٨ .

١٣ ـــ الكلام : وهو صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تدل على كل موجود واجباً أو جائزاً ، وعلى كل معدوم محالاً أو جائزاً ، وليس كلامه تعالى بحرف ولا صوت ، ولا يوصف بجهر ولا سر ولا تقديم ولا تأخير ولا وقف ولا سكوت ولا وصل ولا فصل ، لأن هذا كله من صفات الحوادث ، وهى محالة عليه تعالى ودليله قوله تعالى : ﴿ **وكلم الله موسى تكليماً** ﴾[١] .

ولأنه تعالى لو كان غير متكلم لكان أبكم ، والبكم نقص محال في حقه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، والقرآن والتوراة والإنجيل والزبور وباقي الكتب المنزلة تدل على بعض ما يدل عليه الكلام القديم ، قال تعالى : ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾[٢] .

وقال : ﴿ **ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله** ﴾[٣] .

قال في الدين الخالص : وله تعالى صفات غير ذلك كالجلال والجمال والعزة والعظمة والكبرياء والقوة ـــ وهى غير القدرة ـــ والوجه والنفس والعين واليد والأصابع والقَدَم والمحبة والرضا والفرح والضحك والغضب والكراهة والعجب والمكر ونحو ذلك مما ورد في الكتاب والسنة ، فيجب الإيمان به بلا كيف ، فنقول : له تعالي يد لا كالأيدي ، ونفوض معرفة ذلك وتفصيله إلي الله تعالى ولا نؤول أن يده تعالي قدرته أو نعمته وأمثال ذلك ، لأن فيه إبطال الصفة التي دل عليها الكتاب والسنة ، ولكن نقول يده صفة بلا كيف ، وهكذا . وغضبه ومكره واستهزاؤه غير انتقامه وغير إرادة الانتقام . بل من صفاته بلا كيف وهذا مذهب السلف في المتشابهات ، وبه نقول .. ثم يقول : هذا ما يلزم اعتقاده ومعرفته تفصيلاً من الواجب في حقه تعالي .

---

(١) النساء : ١٦٤ .

(٢) الكهف : ١٠٩ .

(٣) لقمان : ٢٧ .

وأما الواجب معرفته إجمالاً فهو أن يعتقد المكلف أن الله تعالى متصف بكمالات موجودة تليق به تعالى لا نهاية لها يعلمها الله تعالى تفصيلاً ويعلم أنها لا نهاية لها ، لأنه لو انتفي عنه تعالى شيء من الكمال الذي يليق به لكان ناقصاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، والنقص محال في حقه لاستلزامه الحدوث المحال عليه تعالى .

ويجب الإيمان كذلك بأنه يستحيل في حقه تعالي بالأدلة السابقة ثلاث عشرة صفة مقابلة للصفات الواجبة له تعالى علي الترتيب السابق ، وهي : العدم والحدوث ــ وهو الوجود بعد العدم ــ والفناء ، ومماثلته تعالى للحوادث ــ في الذات ــ بأن يكون جسماً مركباً أو حالاً في مكان أو مخصوصاً بزمان أو موصوفاً بالكبر أو الصغر أو يكون له شبيه .

وفي الصفات : بأن تكون حياته كحياة الحوادث وعلمه كعلمهم وهكذا .

وفي الأفعال ، بأن لا يكون مؤثراً في شيء ، وإنما له مجرد الكسب . تعالي الله عن ذلك علواً كبيراً ، فهو لا يماثل موجوداً ولا يماثله موجود ، ولا يحده مقدار ولا تحويه الأقطار ، لقوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[1] .

ومن المستحيل في حقه تعالى : احتياجه لموجد أو ذات يقوم بها . والتعدد ــ في الذات ــ بأن يكون مركباً يقبل الإنقسام أو يكون هناك ذات كذاته .

وفي الصفات : بأن يكون له صفتان من جنس واحد كقدرتين وعلمين ، أو يكون لغيره صفة كصفته .

وفي الأفعال : بأن يكون لغيره تأثير في شيء من الأشياء بطبعه أو بقوة مودعة فيه . فليست النار محرقة بطبعها ولا بقوة خلقت فيها . وإنما الخالق للإحراق هو الله تعالى عند خلقه النار ولو شاء خلق النار دون الإحراق لكان ، كما حصل لخليله سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وليس الماء مروياً بطبعه ولابقوة خلقت فيه وإنما الخالق للرى هو الله تعالي عند شرب الماء ، وليس الملبوس ساتراً وواقياً للبرد أو الحر بنفسه ولا بقوة خلقت فيه ، بل الخالق لما ذكر هو الله تعالى عند لبس الثياب . فمن يعتقد تأثير شيء من

---

(١) الشورى : ١١ .

الأسباب في مسببه بطبعه فهو كافر ، أو بقوة خلقها الله فيه فهو فاسق . ومن اعتقد عدم تأثيرها وأن الله هو المؤثر ولكن يستحيل خلق السبب بدون مسببه أو عكسه فهو مؤمن يخشي عليه إنكار معجزات الأنبياء فيكفر ، أو إنكار كرامات الأولياء فيفسق .

والاعتقاد الصحيح : اعتقاد أن المؤثر في السبب والمسبب هو الله تعالي مع إمكان تخلف أحدهما عن الآخر خرقاً للعادة .

ومن المستحيل في حقه تعالى : الموت وما في معناه كالنوم والإغماء ، قال الله تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو ، الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم** ﴾[1] .

ومنه : الجهل وما في معناه ، كالظن والشك والوهم والغفلة والذهول والنسيان .

ومنه : وجود شيء من الحوادث بلا إرادته تعالى بأن يكون بطريق الطبع أو العلة ، فلا يقع في الملك والملكوت قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، إلا بقضائه وقدره .

ومنه : العجز عن ممكن ما ، والصمم وما في معناه كسمعه الجهر دون السر ، وكاختصاصه بالأصوات دون الذوات وسائر الموجودات .

ومنه:العمى وما في معناه كالعشا[2] وهو عدم الإبصار ليلاً ، والجهر[3] وهو عدم الإبصار نهاراً .

ومنه : البكم : وهو الخرس وما في معناه كالفهاهة والعي والسكوت ، وكون كلامه تعالى بحروف وأصوات .

ثم يقول بعد ذلك في الدين الخالص :

هذا ما دلت علي استحالته في حق الله تعالى الأدلة التفصيلية ، وهي أدلة

---

(١) البقرة : ٢٥٥ .

(٢) بفتحتين مقصوراً .

(٣) بفتحتين .

الواجب التفصيلي ، ويجب على كل مكلف أن يعتقد بعد ذلك أن الله تعالى منزه عن كل نقص كما أنه متصف بكل كمال .

ثم يقول : ويجوز في حقه تعالي فعل كل ممكن أو تركه فهو متفضل بالخلق والاختراع والتكليف والإنعام والإحسان لا عن وجوب ولا إيجاب ، فلا يجب عليه شيء مما ذكر ، ولا يستحيل عليه تعالي فعل ما يضر عباده ، بل يجوز أن يفعله بهم بطريق العدل ، إذ للمالك أن يتصرف في ملكه بما يشاء ، فهو الخالق للإيمان والطاعة والسعادة والعافية ، وسائر النعم فضلاً منه وإحساناً كم يشير قوله تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾(١) .

وقوله : ﴿ **وما الله يريد ظلماً للعباد** ﴾(٢) .

وهو سبحانه الخالق للكفر والمعاصي والشقاوة والأمراض والفقر ونحو ذلك عدلاً منه في مملوكه ، قال تعالى : ﴿ **والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم** ﴾(٣) .

وقال : ﴿ **وربك يخلق ما يشاء ويختار** ﴾(٤) .

وقال : ﴿ **فعال لما يريد** ﴾(٥) .

وقال : ﴿ **من يضلل الله فلا هادى له** ﴾(٦) .

وقال : ﴿ **لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون** ﴾(٧) .

فيجوز في حقه تعالى عقلاً تعذيب المطيع عدلاً منه لأنه الخالق للطاعة مع تنزهه عن الانتفاع بها ، وإنما ينتفع بها العبد الذي وفقه الله لكسبها ، وإثابة العاصي فضلاً منه لأنه الخالق للمعصية مع تنزهه عن التضرر بها ، وإنما يتضرر

---

(١) البقرة : ١٨٥ .
(٢) غافر : ٣١ .
(٣) البقرة : ١٠٥ .
(٤) القصص : ٦٨ .
(٥) هود : ١٠٧ .
(٦) الأعراف : ١٨٦ .
(٧) الأنبياء : ٢٣ .

بها من خذله الله باكتسابها عدلا منه ، قال تعالى : ﴿ **ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً** ﴾[1] .

وقال : ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد** ﴾[2] .

وقال : ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك علي الله بعزيز** ﴾[3] .

ثم يقول : ومن الجائز إنزال الكتب وإرسال الرسل مبينين للناس ما نزل إليهم مبشرين الطائعين بالجنة والنعيم المقيم ، ومنذرين العاصين بالنار والعذاب الأليم ، ... إلي أن يقول :

ومما تقدم تعلم أنه يجب علي كل مكلف أن يعتقد أن الله تعالى متصف بصفات الجلال والكمال التي تليق بعظمته تعالى الواردة في الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، وأنه تعالى منزه عن كل نقص ، وعن مشابهة الحوادث ، تعالى الله عن ذلك .

* * *

هذا .. وإن كنت قد بدأت بهذا قبل التركيز علي موضوع الاستقامة التي يوصينا بها الرسول ﷺ — في الحديث الذي ندور حوله — فلأنه[4] هو الأساس الذي لا بد أن يسبق موضوع الاستقامة ، والذي علي أساسه تستطيع أن تقول ربي الله ، أو أن تقول آمنت بالله علي أساس من العلم والمعرفة ، كما يشير قول الله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة** ﴾[5] . أى عند الموت تبشرهم بقوله تعالى :

---

(١) الكهف : ٤٩ .

(٢) فصلت : ٤٦ .

(٣) فاطر : ١٦ ، ١٧ .

(٤) أى الإيمان بالله تعالى علي الأساس الذي وقفنا عليه .

(٥) فصلت : ٣٠ .

﴿ **ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون** ﴾[1] . وفي التفسير أنهم إذا بشروا بالجنة ، قالوا : وأولادنا ماذا يأكلون وما حالهم بعدنا ؟ فيقال لهم : ﴿ **نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾[2] . وكما يشير الحديث الصحيح الذي رواه مسلم ، والذي جاء في نصه :

عن أبي عمرو — وقيل أبي عمرة — سفيان بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قلت يا رسول الله .. قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك ، قال : « قل : آمنت بالله ثم استقم » .

أى : استقم كما أمرت ونهيت ، لأن الاستقامة معناها : ملازمة الطريق بفعل الواجبات وترك المنهيات ، كما يشير قول الله تعالى لنبيه ومصطفاه صلوات الله وسلامه عليه ، ومن تاب معه :

﴿ **فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير** ﴾[3] .

فقد قال في « ظلال القرآن » كلاماً عظيماً ، جاء في مضمونه ، ما يلي :

هذا الأمر للرسول ﷺ ، ومن تاب معه : ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾ .. أحس — عليه الصلاة والسلام — برهبته وقوته ، حتى روى عنه أنه قال مشيراً إليه : « شيبتني هود .. » . فالاستقامة : الاعتدال والمضى على المنهج دون انحراف ، وهو في حاجة إلى اليقظة الدائمة ، والتدبر الدائم ، والتحري الدائم لحدود الطريق ، وضبط الانفعالات البشرية التي تميل الاتجاه قليلاً أو كثيراً .. ومن ثم فهى شغل دائم في كل حركة من حركات الحياة .

ثم يقول : وإنه لمما يستحق الانتباه هنا أن النهى الذي أعقب الأمر بالاستقامة ، لم يكن نهياً عن القصور والتقصير ، إنما كان نهياً عن الطغيان

---

(1) فصلت : ٣٠ .
(2) فصلت : ٣١ .
(3) هود : ١١٢ .

والمجاوزة .. وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظة وتحرج قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحول هذا الدين من يسر إلى عسر ، والله يريد دينه كما أنزله الله ، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو ، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين علي طبيعته كالتفريط والتقصير ، وهى التفاتة ذات قيمة كبيرة ، لإمساك النفوس علي الصراط ، بلا انحراف إلى الغلو أو الإهمال على السواء .

وهذا الكلام الأخير الذي وقفنا عليه ، هو المراد من قول الرسول ﷺ في نص الوصية : « ولن تحصوا » أى فلن تستطيعوا إحصاء ذلك ولا بلوغ نهايته .

ولهذا ، فقد ورد النهى والترهيب من الغلو — وهو مجاوزة الحد — حتى بالنسبة للوضوء :

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده — عبد الله بن عمرو — قال : جاء أعرابي إلي النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسأله عن الوضوء ، فأراه ثلاثاً ثلاثاً وقال : « هذا الوضوء[1] ، من زاد علي هذا فقد أساء وتعدى وظلم » أخرجه أحمد والنسائى ، وابن ماجة وابن خزيمة من طرق صحيحة ، وصححه ابن خزيمة وغيره ، وأخرجه أبو داوود بلفظ : « فمن زاد علي هذا أو نقص فقد أساء وظلم » .

ففيه : دلالة علي أن الزيادة في الغسل عن الثلاث اعتداء وفاعله مسىء بتركه المطلوب ، ومتعد حد السنة ، وظالم بوضع الشىء في غير موضعه ولا خلاف في كراهته .

وقس علي ذلك جميع العبادات التي فرضها الله تعالي عليك ، والتي أمر الله تعالي بأدائها بكل يسر ، كما يشير قوله تعالى : ﴿ **طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾[2] .

---

(١) أى هذا هو الوضوء المشروع .
(٢) طه : ١ ، ٢ .

وقوله : ﴿ .. يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[1] .

وقد ورد في السنة كذلك ما يرغب في هذا ، ويرهب من عكسه وهو الغلو :

فعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ « دخل عليها وعندها امرأة ، قال : من هذه ؟ قالت : هذه فلانة تذكر من صلاتها ، قال : مه[2] عليكم بما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا . وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه » متفق عليه .

ومه : كلمة نهى وزجر ، ومعنى لا يمل الله ، أى : لا يقطع ثوابه عنكم وجزاء أعمالكم ويعاملكم معاملة الملل حتي تملوا فتتركوا ، فينبغي لكم أن تأخذوا ما تطيقون الدوام عليه ليدوم ثوابه لكم وفضله عليكم .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : « جاء ثلاثة رهط[3] إلي بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها ، وقالوا : أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبدا ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس منى » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « هلك المتنطعون » ــ قالها ثلاثاً ــ رواه مسلم .

المتنطعون : أى المتعمقون المتشددون في غير موضع التشديد .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « إن الدين يسر ولن يشاد الدين إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة

---

(1) البقرة : ١٨٥ .

(2) « مه » مبني علي السكون اسم لفعل الأمر معناه : اكفف .

(3) الرهط : ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة .

وشيء من الدلجة » رواه البخاري ، وفي رواية له : « سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة ، القصد القصد تبلغوا » .

قوله : « الدين » هو مرفوع علي ما لم يسم فاعله ، وروى منصوباً ، وروى : لن يشاد الدين — بالفتح — أحد ، وقوله ﷺ : إلا غلبه ، أي : غلبه الدين وعجز ذلك المشاد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه ، والغدوة سير أول النهار ، والروحة آخر النهار ، والدلجة آخر الليل ، وهذا استعارة وتمثيل ومعناه استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون وتبلغون مقصودكم ، كما أن المسافر الحاذق(١) يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها فيصل المقصود بغير تعب ، والله أعلم .

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، وليتق الله في نفسه ، وأهله ، وكل عضو من أعضاء جسده ، فقد ورد في الحديث الصحيح :

« إن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك عليك حقاً .. » .

وذلك كذلك حتى لا يسب نفسه ، فعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ ، قال : « إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتي يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه » متفق عليه .

* * *

وإذا كان الرسول ﷺ قد قال بعد ذلك في نص الوصية — التي ندور حولها — : « واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة » :

فإنه بهذا صلوات الله وسلامه عليه : يلفت قلوبنا إلي أهمية الصلاة

---

(١) الحاذق : أي الماهر .

ودرجتها بالنسبة لبقية العبادات المفروضة عيناً ، وذلك حتي نكون علي علم بهذا ، وحتي نكون كذلك في نفس الوقت من المحافظين عليها ، وفي أوقاتها ، كما أمرنا الله تعالى في قوله : ﴿ **حافظوا علي الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين** ﴾(١) .

فقد أمر الله تعالي المؤمنين في هذه الآية الكريمة بالمحافظة علي الصلوات الخمس بوجه عام ، وعلي الصلاة الوسطى بوجه خاص .

وذلك لأن الصلوات الخمس بصفة عامة ، كما جاء في نص الوصية هي أحب الأعمال إلي الله تبارك وتعالى ، بل هي خير موضوع(٢) ، أي : خير شيء وضعه الشارع .

ولهذا فهي في نظر الإسلام ــ بالإضافة إلي أنها الركن الثاني من أركانه ــ هي الحد الفاصل بين المسلم والكافر ، والبار والفاجر ، وهي منه بمنزلة الرأس من الجسد ، فمن أداها كما ينبغي ، فهو مسلم بار ، ومن تركها فهو كافر فاجر .

فقد روى الطبراني في الأوسط بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهور له ، ولا دين لمن لا صلاة له ، إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد » .

ومن أجل ذلك وحتى نحافظ علي الصلاة ، أو علي ديننا(٣) ، فإنني أرى ــ والشيء بالشيء يذكر ــ أن أذكر الأخ المسلم والأخت المسلمة بالأحكام الفقهية المتعلقة بترك الصلاة .

فقد قال الفقهاء(٤) : من ترك الصلاة ، وهو منكر لفرضيتها ، غير معترف

---

(١) البقرة : ٢٣٨ .

(٢) كما جاء في نص حديث أخرجه ابن حبان والحاكم ، ونصه : « الصلاة خير موضوع ، فمن شاء استكثر ومن شاء استقل » .

(٣) كما أشار حديث ابن عمر .

(٤) كما جاء ملخصاً في كتاب الفقه الواضح .

بوجوبها ، فهو كافر ، مرتد عن الإسلام ، لا تجرى عليه الأحكام الشرعية ، وليس له من الحقوق ما للمسلمين .

فلا يرث ولا يورث ، ولا يصح — إن كان رجلاً — أن يتزوج بمسلمة ، وإن كانت امرأة ، فلا يصح أن يتزوجها مسلم ، وإذا مات لا يغسل ، ولا يكفن ، ولا يصلى عليه ، ولا يدفن في مقابر المسلمين .

وعلى الحاكم أن يأمره بها ، فإن صلى فبها ونعمت ، وإلا : قتله كفراً .

والأحاديث المصرحة بكفر تارك الصلاة كثيرة ، منها :

ما رواه جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » رواه مسلم .

وعن بريدة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » رواه أحمد .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبى ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً ، فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً ، وبرهاناً ، ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها : لم يكن له نور ، ولا برهان ، ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون ، وفرعون ، وهامان ، وأبي بن خلف » . رواه أحمد ، وقال معلقاً عليه : من تركها بسبب الرياسة حشر مع فرعون ، ومن تركها بسبب السياسة : حشر مع هامان(١) ، ومن تركها بسبب جمع المال : حشر مع قارون ، ومن تركها من أجل الجدال والخصام : حشر مع أبي بن خلف(٢) . أ . هـ .

وقد اختلف الفقهاء فيمن ترك الصلاة كسلاً ، وهو معترف بوجوبها :

فقال الحنابلة : هو كافر .

وقال الجمهور : هو فاسق .

---

(١) لأن هامان كان وزيراً لفرعون يدبر شئون الملك .

(٢) لأنه كان يجادل الرسول ﷺ كثيراً في شأن البعث والحياة بعد الموت .

واستدل الحنابلة بالأحاديث المتقدمة ، فجعلوها عامة ، في من تركها مطلقاً .

وقد حمل الجمهور هذه الأحاديث علي من تركها منكراً لفرضيتها ، واستدلوا على ذلك بعموم قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[1] .

وتارك الصلاة تكاسلاً ليس مشركاً ، وبالتالي فهو متعرض لرحمة الله عز وجل .

لكن مع حكم الجمهور عليه بالفسق ـــ دون الكفر ـــ يرون أن الحاكم يجب عليه أن يحمله علي الصلاة بمختلف الوسائل ، حتى يقيمها ، فقال الحنفية : يجب علي الحاكم أن يجلسه ويضربه حتى يصلى ، وقال المالكية والشافعية وجماعة من الفقهاء : يجب على الحاكم أن يمهله ثلاثة أيام ، فإن صلى فبها .. ، وإلا قتله حداً ، لا كفراً .

والفرق بين من قتل كفراً ، ومن قتل حداً ، أن الأول : لا تجرى عليه الأحكام الشرعية ، فلا يغسل ، ولا يكفن ، ولا يصلي عليه ، ولا يدفن في مقابر المسلمين .

وأن الثاني : تجري عليه الأحكام الشرعية ، فيغسل ويكفن ، ويصلي عليه ، ويدفن في مقابر المسلمين ، والله أعلم .

وأما عن الصلاة الوسطى التي أمرنا الله تعالي بالمحافظة عليها بصفة خاصة كما جاء في نص الآية ، وهى : ﴿ **حافظوا** .. ﴾ :

فقد اختلف الفقهاء في تعيينها علي عشرة أقوال ، أو أكثر ، فقال جماعة : هى صلاة الصبح ، لما فيها من المشقة ، ولأنها صلاة تثقل علي كثير من الناس ، وممن قال بهذا : عمر بن الخطاب ، ومعاذ بن جبل ، وابن عباس ، وابن عمر ، وجابر ، ومالك ، والشافعي ، رضى الله عنهم .

---

(١) من وصايا الرسول .

وقال جمع غفير من الفقهاء والمحدثين : هي صلاة العصر ، وقد رجح كثير من المحققين هذا الرأى الأخير ، لورود الأحاديث الصحيحة الصريحة بذلك .

فقد روى مسلم وأحمد وأبو داوود أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب : « حبسونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً » .

وروى ابن جرير من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « الصلاة الوسطى صلاة العصر » .

ولما كان أشهر الأقوال كما عرفت هو أن الصلاة الوسطى هى الصبح أو العصر ، فقد ورد الترغيب في هذين الوقتين :

فعن أبي موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « من صلى البردين(١) دخل الجنة » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبي زهيرة عمارة بن روينة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها » يعنى الفجر والعصر ، رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تجتمع ملائكة الليل ، وملائكة النهار في صلاة الفجر ، وصلاة العصر ، فيجتمعون في صلاة الفجر ، فتصعد ملائكة الليل ، وتثبت ملائكة النهار ، ويجتمعون في صلاة العصر ، فتصعد ملائكة النهار وتبيت ملائكة الليل ، فيسألهم ربهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون ، فاغفر لهم يوم الدين » رواه ابن خزيمة ، والبخاري ومسلم بنحوه .

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، وليكن من المحافظين على الصلوات والصلاة الوسطى ، وحسبه ترغيباً له في كل هذا ، هذه الأحاديث الشريفة :

عن حنظلة الكاتب رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) يعني صلاة الصبح والعصر .

« من حافظ على الصلوات الخمس ركوعهن وسجودهن ومواقيتهن وعلم أنهن حق من عند الله دخل الجنة ـــ أو قال : وجبت له الجنة ـــ أو قال : حرم على النار » رواه أحمد بإسناد جيد .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ : أي العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أى ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » قال : حدثني بهن رسول الله ولواستزدته لزادني ، رواه البخاري ومسلم .

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى الصلوات لوقتها وأسبغ لها وضوءها وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت وهى بيضاء مسفرة(١) تقول : حفظك الله كما حفظتني ، ومن صلاها لغير وقتها ولم يسبغ لها وضوءها ولم يتم لها خشوعها ولا ركوها ولا سجودها خرجت وهى سوداء مظلمة تقول : ضيعك الله كما ضيعتني ، حتى إذا كانت حيث شاءت لفت كما يلف الثوب الخلق(٢) ثم ضرب بها وجهه » رواه الطبراني في الأوسط .

وهذا الحديث الأخير يحذرنا من أمر خطير ، أشار إليه الرسول ﷺ في كثير من الأحاديث التي منها :

ما ورد عن أبي قتادة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته ، قالوا : يا رسول الله كيف يسرق من الصلاة ؟ قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها ، أو قال : لا يقيم صلبه في الركوع والسجود » رواه أحمد والحاكم .

وعن أبي عبد الله الأشعري أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً لا يتم ركوعه وينقر في سجوده وهو يصلي فقال رسول الله ﷺ : « لو مات هذا على حالته هذه مات على غير ملة محمد ﷺ ، ثم قال رسول الله ﷺ : مثل الذى لا يتم

---

(١) من أسفر الصبح : أى أضاء .

(٢) بفتح اللام : أى البالي .

ركوعه وينقر في سجوده مثل الجائع يأكل التمرة والتمرتين لا يغنيان عنه شيئاً » رواه الطبراني في الكبير .

وعن أبي مسعود البدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجزىء صلاة الرجل حتي يقيم ظهره في الركوع والسجود » رواه أحمد وأبو داوود واللفظ له .

فعلي الأخ المسلم أن يلاحظ هذا ، حتي يكون خاشعاً في صلاته ومطمئناً في ركوعه وسجوده ، وليكن حريصاً كذلك علي صلاة الجماعة في المساجد :

فعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل في جماعة تضعف علي صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلي المسجد لا يخرجه إلا الصلاة : لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلي لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه ما لم يحدث(١) : اللهم صل عليه اللهم ارحمه(٢) ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » رواه الشيخان .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ(٣) بسبع وعشرين درجة » رواه البخارى ومسلم .

* * *

وأما عن آخر عنصر في تلك الوصية ، وهو قول الرسول ﷺ : « .. ولن يحافظ علي الوضوء إلا مؤمن » .

فإن المراد به كما هو واضح في مضمونه : أن المؤمن هو الذى يحافظ علي وضوئه ، بمعني أنه يجدد وضوءه كلما انتقض ، مع الإسباغ والإحسان ، وهذا من المندوبات .

---

(١) أى ما لم ينتقض وضوءه .
(٢) هذا بيان لصلاة الملائكة .
(٣) الفذ : أى المنفرد .

ولما كان كل هذا يحتاج إلي توضيح ، فإنني أرى وإتماماً للفائدة أن أذكر الأخ المسلم أولاً بالمواضع التي يندب الوضوء فيها وذلك حتي يكون علي علم بها ، وحتى يعرف الفرق بين المفروض والمسنون ،وهي(١) .

١ ــ **الوضوء لكل صلاة** : فقد اتفق العلماء على أنه يندب تجديد الوضوء لكل صلاة لقول أنس : « كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ عند كل صلاة ، قيل له : فأنتم كيف تصنعون؟ قال : كنا نصلى الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث » أخرجه الجماعة(٢) إلا مسلماً ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات »(٣) أخرجه أبو داوود والترمذي وابن ماجه بسند ضعيف(٤) .

وإنما يندب تجديده عندالحنفيين إذا صلى بالأول أو تبدل المجلس . وعند المالكية إذا صلى بالأول أو طاف . وعند الشافعية إذا صلى بالأول غير سنة الوضوء . ففى الحديثين دليل علي استحباب الوضوء لكل صلاة ، وعليه يحمل حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لولا أن أشق علي أمتي لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء ومع كل وضوء بسواك » أخرجه أحمد والنسائى بسند صحيح .

٢ ــ **الوضوء لذكر الله تعالى** : فقد أجمع المسلمون علي أنه يجوز للمحدث أن يذكر الله تعالى بكل أنواع الذكر ، ما عدا القرآن للمحدث حدثاً أكبر ، وفي كل الأماكن والأحوال ما عدا محل القاذورات وحال الجماع ، فإنه يكره فيهما ، وأصل ذلك قول عائشة : كان رسول الله صلى الله

---

(١) كما جاء في الدين الخالص ج ١ مختصراً وبتصرف .

(٢) وهم : مالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(٣) أى كتب الله له به ثواب عشر وضوءات فإن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . وقد وعد الله بالمضاعفة إلى سبعمائة ضعف .

(٤) انظر ص ٦٣ ج ١ تحفة الأحوذى .

عليه وآله وسلم يذكر الله على كل أحيانه . أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود وابن ماجه والترمذى وحسنه ، وقال في العلل : سألت عنه البخارى فقال صحيح .

وقال على رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخرج من الخلاء فيقرئنا ويأكل معنا اللحم ولم يكن يحجزه عن القرآن شيء ليس الجنابة . أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذي والنسائى وابن ماجه وصححه الترمذى وابن السكن .

واتفقوا علي أنه يندب الوضوء لذكر الله تعالى ، لحديث محمد بن جعفر : أنه سئل عن رجل يسلم عليه وهو غير متوضىء ، فقال : حدثني سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بن دعامة عن الحسن البصري عن الحضين بن المنذر عن المهاجر بن قنفذ : أنه سلم على النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى توضأ فرد عليه وقال : « إنه لم يمنعني أن أرد عليك إلا أنى كرهت أن أذكر الله إلا على طهارة » ..

قال قتادة : فكان الحسن من أجل هذا يكره أن يقرأ أو يذكر الله عز وجل حتي يتطهر . أخرجه أحمد وابن ماجه وكذا أبو داوود والنسائى بلفظ : « وهو يبول » بدل « وهو يتوضأ » .

وقال أبو جهيم بن الحارث : أقبل النبى صلى الله عليه وآله وسلم من نحو بئر جمل[1] فلقيه رجل فسلم عليه فلم يرد عليه حتى أقبل على جدار فمسح بوجهه ويديه[2] ثم رد عليه السلام . أخرجه أحمد والشيخان والنسائى وأبو داوود .

٣ ــ **الوضوء لتناول ما مسته النار** : فقد قال الأئمة الأربعة والجمهور : لا ينتقض الوضوء بتناول ما مسته النار ، وعليه العلماء بعد الصدر الأول ، لقول ميمونة : أكل النبى ﷺ من كتف شاة ثم قام فصلى ولم

---

(١) « جمل » بفتحتين ، وفي رواية بئر الجمل وهو موضع قرب المدينة .
(٢) أى تيمم صلوات الله وسلامه عليه .

يتوضأ . أخرجه أحمد والشيخان .

وقال عمرو بن أمية الضمرى : رأيت النبى ﷺ يأكل يحتز من كتف شاة فأكل منها ، فدعى إلى الصلاة فقام وطرح السكين(١) وصلى ولم يتوضأ . وأخرجه أحمد والشيخان .

وقال جابر : كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ ترك الوضوء مما غيرت النار . أخرجه أبو داوود والنسائى وصححه ابن خزيمة وابن حبان والنووى .

هذا .. وقد اتفق الأئمة الأربعة والجمهور علي أنه يندب الوضوء مما مست النار ، وعليه تحمل الأحاديث الواردة بالأمر بالوضوء منه جمعاً بين الأحاديث ، كحديث إبراهيم بن عبد الله بن قارظ قال : مررت بأبي هريرة وهو يتوضأ فقال : أتدري مم أتوضأ ؟ .. من أثوار أقط(٢) أكلتها ، لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « توضأوا مما مست النار » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائى وابن ماجه .

وحديث أبي موسي الأشعري أن النبي ﷺ قال : « توضأوا مما غيرت النار لونه » أخرجه أحمد والطبراني في الأوسط بسند رجاله ثقات .

٤ ــ الوضوء للنوم : فإنه يستحب عند الأئمة الأربعة والجمهور لمن أراد النوم أن ينام علي طهارة كاملة ، لحديث البراء بن عازب أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك . اللهم آمنت بكتابك الذي

---

(١) في الحديث جواز قطع اللحم بالسكين ، وذلك عند الحاجة إليه لصلابة اللحم أو كبر القطعة ، قالوا : ويكره من غير حاجة . أنظر ص ٤٥ ج ٤ صحيح مسلم بشرح النووى .

(٢) الأثوار بالثاء المثلثة جمع ثور وهو القطعة من الأقط ، بفتح فكسر وقد تسكن القاف : وهو لبن مخيض يطبخ ثم يترك حتي يجمد .

أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت . فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به » . قال : فرددتها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما بلغت : اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ، قلت :ورسولك... قال : « لا .. ونبيك الذي أرسلت » .

أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجة .

والحديث وإن كان خطاباً للبراء ، فالمراد منه العموم فيشمل جميع المكلفين . فقد قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن ينام وهو جنب غسل فرجه وتوضأ وضوءه للصلاة . أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجة .

وعن ابن عمر أنه ﷺ سئل : أينام أحدنا وهو جنب ؟ قال : نعم .. ويتوضأ إن شاء . أخرجه ابن خزيمة وابن حبان .

٥ ــ وضوء الجنب للأكل أو للشرب : فقد قالت الشافعية وجماعة: يستحب للجنب الوضوء إذا أراد أن يأكل أو يشرب ، لقول عائشة : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان جنباً فأراد أن يأكل أو ينام توضأ . أخرجه أحمد ومسلم .

وعن عمار بن ياسر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رخص للجنب إذا أراد أن يأكل أو يشرب أو ينام أن يتوضأ وضوءه للصلاة . أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذي وصححه .

ولذا .. يكره للجنب النوم والأكل والشرب والجماع قبل الوضوء الكامل . ولا يستحب هذا الوضوء للحائض والنفساء لأنه لا يؤثر في حدثهما ولا يصح الوضوء مع استمراره . أما إذا انقطع حيضها فتصير كالجنب يستحب لها الوضوء في هذه المواضع(١) .

---

(١) أنظر ص ١٥٦ ج ٢ مجموع للنووى .

وقال الحنفيون ومالك وأحمد : لا يستحب للجنب الوضوء إذا أراد أن يأكل أو يشرب وإنما يغسل يديه فقط ، لقول عائشة :«كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد أن ينام وهو جنب توضأ وضوءه للصلاة ، وإذا أراد أن يأكل أو يشرب غسل يديه ، ثم يأكل أو يشرب». أخرجه أحمد والنسائى وهو حديث صحيح رجاله ثقات .

وقالت : كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد أن يأكل وهو جنب غسل يديه . أخرجه أبو داوود والطحاوى .

وقال سعيد بن المسيب : إذا أراد الجنب أن يأكل غسل يديه ومضمض فاه .

وأجابوا عن حديث عمار بأن فيه الترخيص بالوضوء للجنب إذا أراد الأكل ، وهو لا يفيد الاستحباب ، ويمكن الجمع بين الروايات بأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان تارة يتوضأ وضوءه للصلاة وتارة يقتصر عل غسل اليدين ، ولا يخفي حسن التأسي بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم .

٦ ــ الوضوء لمعاودة الجماع : قال الحنفيون والشافعي وأحمد والجمهور: يستحب لمن جامع أهله وأراد المعاودة أن يتوضأ ، لحديث أبي سعيد أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « إذا أتى أحدكم أهله(١) ثم أراد أن يعود فليتوضأ » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وكذا ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وزادوا : « فإنه أنشط للعود » وفي رواية للبيهقي وابن خزيمة : « فليتوضأ وضوءه للصلاة » .

والأمر عند الجمهور محمول علي الاستحباب ، لقول عائشة : كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يجامع ثم يعود ولا يتوضأ . أخرجه الطحاوي .

وقولها : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان له حاجة إلي أهله اتاهم ثم يعود ولا يمس ماء . اخرجه احمد .

---

(١) أى إذا جامع أحدكم زوجته ثم أراد بعد ذلك أن يجامعها مرة أخري .

وقالت الظاهرية وابن حبيب : يجب الوضوء علي المعاود إبقاء للأمر علي ظاهره . لكن قد علمت أنه محمول على الاستحباب ، وحمله أبو يوسف علي الإباحة ، وحمله المالكية علي الوضوء اللغوى وهوغسل الفرج ، والأظهر قول الجمهور .

٧ ـــ **الوضوء قبل الغسل** : فقد اتفق العلماء على أنه يستحب الوضوء قبل الغسل ولو مسنوناً ، غير أن الأفضل عند الحنفيين إكماله إن كان يغتسل في محل لا يجتمع فيه الماء بأن كان يغتسل علي مرتفع أو بالوعة ، وعليه يحمل قول عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة . أخرجه مالك وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

وإن كان يغتسل في مكان يجتمع فيه الماء كطشت فالأفضل تأخير غسل القدمين وعليه يحمل قول ميمونة : سترت النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو يغتسل من الجنابة فغسل يديه ثم صب بيمينه على شماله فغسل فرجه وما أصابه ثم مسح بيده علي الحائط أو الأرض ثم توضأ وضوءه للصلاة غير رجليه ثم أفاض عليه الماء ثم نحى رجليه فغسلهما . أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه والبيهقي .

وقال مالك : الأفضل تقديم غسل الرجلين إلا إذا كان المكان غير نظيف فالأفضل التأخير ، وقال الشافعية والحنابلة : الأفضل تتميم الوضوء علي الأصح المختار عندهم عملاً بظاهر الروايات المستفيضة عن عائشة في تقديم وضوء الصلاة فإن ظاهرة كمال الوضوء . والأمر في هذا واسع فإنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقدم غسل رجليه تارة ويؤخره أخرى .

٨ ـــ **الوضوء من حمل الميت** : فقد قال الحنفيون والشافعى وأحمد : يندب الوضوء من حمل الميت . وقال ابن حزم بوجوبه ، لحديث عمرو بن عمير عن أبي هريرة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « من غسل ميتاً فليغتسل ، ومن حمله فليتوضأ » أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذي والنسائي والبيهقي . وقال : عمرو بن عمير إنما يعرف بهذا الحديث وليس بالمشهور .

وأخرجه عن صالح مولى ابن التوءمة عن أبي هريرة . وقال : صالح مولى ابن التوءمة : ليس بالقوى ، والروايات المرفوعة في هذا الباب عن أبي هريرة غير قوية لجهالة بعض رواتها وضعف بعضهم . والصحيح عن أبي هريرة من قوله موقوفاً .

ولذا قال المزنى : الوضوء من مس الميت وحمله غير مشروع لأنه لم يصح فيهما شيء .

ورد : بأن الحديث قد روى من عدة طرق يقوى بعضها بعضاً ، ولذا حسنه الترمذي وصححه ابن حبان وابن حزم ورواه الدارقطنى بسند رواته موثقون ، فإنكار النووى تحسينه معترض ، قال الذهبي : هو أقوى من عدة أحادي احتج بها الفقهاء .

٩ ــ الوضوء للغضب : فقد قال الأئمة الأربعة والجمهور : يستحب الوضوء للغضب ، لحديث عطية العوفي أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء : فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » أخرجه أحمد وأبو داوود .

وقال الحنفيون : ولو كان متوضئاً واشتد غضبه ندب له الغسل .

١٠ ــ الوضوء للخروج من خلاف العلماء : يندب للحنفي أن يتوضأ إذا لمس امرأة أو مس ذكره أو أكل لحم جزور وغير ذلك مما ينقض الوضوء عند بعض العلماء ويندب للمالكى وغيره أن يتوضأ من القيء وخروج نجس من غير السبيلين ، وقهقهة في الصلاة وغير ذلك مما ينقض الوضوء عند غيرهم .

* * *

وإتماماً للفائدة ، وحتي يتضح لك هذا ، إليك كذلك :

نواقض الوضوء عند الأئمة الأربعة

أ ــ عند الحنفيين سبعة : كل ما خرج من أحد السبيلين حال الصحة .

وكل نجس خرج من البدن إن سال إلي مكان يلزم تطهيره . والقيء ملء الفم . والنوم مضطجعاً أو متكئاً أو مستنداً إلي ما لو أزيل لسقط . وغلبة العقل بالإغماء أو الجنون أو السكر . وقهقهة بالغ يقظان في صلاة ذات ركوع وسجود . ومباشرة فاحشة .

ب — وعند المالكية نواقضه ستة : الخارج المعتاد من أحد السبيلين حال الصحة ومن الريح والهادى(١) علي المعتمد . وغيبة العقل بجنون أو إغماء أو سكر أو نوم ثقيل . ولمس مشتهاة إن قصد اللذة أو وجدها(٢) . ومس الذكر(٣) بشرطه . والشك في الحدث أو سببه . والردة .

جـ — وعند الشافعية نواقضه أربعة : كل ما يخرج من أحد السبيلين إلا المنى(٤) . وغلبة العقل بجنون أو إغماء أو سكر أو صرع أو نوم لم تتمكن فيه المقعدة . ولمس رجل يشتهي امرأة أجنبية تشتهي بلا حائل . ومس قبل أو دبر آدمي بلا حائل .

د — وعند الحنابلة نواقضة ثمانية : كل ما خرج من أحد السبيلين . وكل نجس كثير من سائر الجسد . وغلبة العقل — بجنون أو إغماء أو سكر أو صرع أو نوم لم تتمكن فيه المقعدة — ومس فرجه أو فرج آدمى بلا حائل . ولمس ذكر أو أنثى بشرة الآخر — إن كان اللمس بشهوة وإلا فلا — والردة . وأكل لحم الإبل . وتغسيل الميت علي ما تقدم بيانه .

* * *

هذا .. مع ملاحظة أن الوضوء — بصفة عامة(٥) — يكفر الذنوب ،

---

(١) وهو ماء أبيض يخرج قرب الولادة .

(٢) واللامس والملموس عند مالك في ذلك سواء .

(٣) المس الناقض عندهم يكون بباطن الكف أو جنبه أو بباطن الأصابع أو بجنبها أو برؤوسها . لا بظهر كف ، ولا ذراع .

(٤) لأن خروج المنى يوجب الغسل .

(٥) كما يقول صاحب كتاب « الفقه الواضح » ج ١ ص ٥٢ أكرمه الله .. وهو فضيلة الشيخ محمد بكر إسماعيل .

ويمحو الخطايا ، ويضاعف الأجر ، ويرفع الدرجات . وهو سلاح المؤمن ، يدفع به عن نفسه هواجس النفس ووساوس الشيطان . ويشعر المؤمن وهو متوضيء براحة نفسية ، وانشراح في صدره ، ونشاط في بدنه لا يجده وهو على غير وضوء .

كما أن الوضوء يطفى جزوة الغضب ، ويسطع نوره علي وجه المؤمن ، وقد ورد في فضله أحاديث كثيرة منها :

ما رواه عبد الله الصنابحي[1] رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا توضأ العبد فتمضمض : خرجت الخطايا من فيه ، فإذا استنثر : خرجت الخطايا من أنفه ، فإذا غسل وجهه : خرجت الخطايا من وجهه حتي تخرج من تحت أشفار[2] عينيه ، فإذا غسل يديه : خرجت الخطايا من يديه حتي تخرج من تحت أظفار يديه ، فإذا غسل رأسه : خرجت الخطايا من رأسه حتي تخرج من أذنيه ، فإذا غسل رجليه : خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه . ثم كان مشيه إلي المسجد نافلة له »[3] أخرجه مالك وأحمد والنسائى والحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وليس له علة .

والمراد بالخطايا ــ المشار إليها في الحديث ــ الذنوب الصغائر ، أما الكبائر فلا تكفرها إلا التوبة .

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه : خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء . فإذا غسل يديه : خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء . فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب » أخرجه مالك وأحمد ومسلم والترمذي وقال : حسن صحيح .

---

(١) بضم الصاد وكسر الباء : نسبة إلي صابح ، بطن من مراد .

(٢) الأشفار : جمع شفر بضم فسكون : أصل منبت الشعر في الجفن .

(٣) أى زائدة في الأجر .

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « ألا أدلكم علي ما يكفر الله به الخطايا ويزيد به في الحسنات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إسباغ الوضوء علي المكاره[1] ، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة » أخرجه أحمد وابن حبان .

وفي رواية أخري عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « ألا أدلكم علي ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : إسباغ الوضوء علي المكاره ، وكثرة الخطى إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط »[2] رواه الترمذي ومسلم .

ومعنى ذلك أن المواظبة علي الطهارة ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة يعدل الجهاد في سبيل الله .

* * *

فليذكرالأخ المسلم كل هذا ، حتي يكون محافظاً على الوضوء ، وحتي يكون بتلك المحافظة على الوضوء من المؤمنين حقاً ، والله أسأل أن يوفقني وإياكم للوفاء بهذا ، فهو سبحانه ولى التوفيق .. آمين .

* * *

---

(١) أى إتمامه علي المكاره ، أى علي الرغم من وجود ما يكره استعمال الماء كالبرد وغيره .
(٢) الرباط معناه المرابطة للجهاد في سبيل الله .

الوصية الرابعة والأربعون

عن أبي أمامة رضي الله عنه . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

تَسَوَّكُوا فَإِنَّ السِّوَاكَ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ ، مَا جَاءَنِي جِبْرِيلُ إِلَّا أَوْصَانِي بِالسِّوَاكِ حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي ، وَلَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَفَرَضْتُهُ عَلَيْهِمْ ، وَإِنِّي لَأَسْتَاكُ حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أُحْفِيَ مَقَادِمَ فَمِي.(1)

رواه ابن ماجه

(١) أن أُحْفِيَ مَقادِمَ فِمِي : أُحْفِي مِن الإحْفَاء وَهُو الاسْتئصَال . وَمقادِم الفم هي الأسنان المتقدمَة ، وَالمرَاد : أي خشيت أن أذهبهَا من كثرة السّواك .

● وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ . رواه مسلم والترمذي وَالنسائي

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي تشير إلى فضل استعمال السواك الذى هو من سنن الفطرة :

فقد ورد عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ ، قال : « عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، والاستنشاق بالماء ، وقص الأظافر ، وغسل البراجم[1] ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء[2] ، والمضمضة » . أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائى وابن ماجه ، وحسنه الترمذي .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، في قوله تعالى : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات** ﴾[3] قال : « ابتلاه بالطهارة ، خمس في الرأس ، وخمس في الجسد ، في الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس ، وفي الجسد : تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء » أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح[4] .

والسواك كما جاء في نص الوصية « مطهرة للفم مرضاة للرب » وقد ورد بالإضافة إلي هذا كذلك :

عن عائشة رضى الله عنهاأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » أخرجه أحمد والنسائى والترمذى وابن حبان والحاكم والبيهقي والدارمي .

وهو بكسر السين يطلق علي الفعل وعل العود الذى يتسوك به .

والمراد به : استعمال عود أو نحوه فى الأسنان ، لتذهب الصفرة وغيرها

---

(١) البراجم بفتح الموحدة وكسر الجيم : هى عقد الأصابع ومفاصلها .

(٢) يعني الاستنجاء بالماء .

(٣) البقرة : ١٢٤ .

(٤) أنظر ص ١٩٧ ج ١ المنهل العذب .

عنها ، والكلام[1] ينحصر في ستة مباحث :

أ ـ **حكمه** : وهو مستحب عند الوضوء والصلاة مطلقاً في المسجد وغيره وعند القيام من النوم ، وعند تغير الفم ، وعند دخول البيت : .

لحديث أبي هريرة أن النبي ﷺ ، قال : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » أخرجه مالك وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وعنه أن النبى ﷺ ، قال : « لولا أن أشق علي أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء » أخرجه مالك والشافعى والبيهقي والحاكم وصححه .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم لا يرقد من ليل ولا نهار فيستيقظ إلا يتسوك قبل أن يتوضأ . أخرجه أحمد وأبو داوود .

وعن المقدام بن شريح عن أبيه قال : قلت لعائشة : بأى كان يبدأ النبى صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل بيته ؟ قالت : بالسواك . أخرجه مسلم والنسائى وأبو داوود وابن ماجه .

والسواك مستحب في جميع الأوقات لكن في خمسة أوقات أشد :

• عند الصلاة سواء أكان تطهراً بماء ، أو بتراب[2] ، أو غير متطهر كمن لا يجد ماء ولا تراباً .

• عند الوضوء .

• عند قراءة القرآن .

• عند الاستيقاظ من النوم .

• عند تغير الفم . وتغيره يكون بأشياء ، منها : ترك الأكل والشرب ، ومنها : أكل ما له رائحة كريهة . ومنها : طول السكوت . ومنها : كثرة

---

(1) كما يقول في الدين الخالص ج ١ ص ١٧٠ .

(2) أى عندما يتيمم بالتراب .

الكلام(١) . وقد قامت الأدلة علي استحبابه في جميع هذه الحالات .

ب ــ آلته : ويحصل الاستياك بكل طاهر خشن يزيل الوسخ والأفضل أن يكون بالأراك والزيتون .

لحديث أبي خيرة الصباحى ، قال : كنت في الوفد فزودنا رسول الله ﷺ بالأراك ، وقال : « استاكوا بهذا » أخرجه البخارى في التاريخ .

وقال معاذ بن جبل : سمعت النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « نعم السواك الزيتون من شجرة مباركة يطيب الفم ، ويذهب بالحفر(٢) . وهو سواكى وسواك الأنبياء من قبلى » أخرجه الطبراني في الأوسط .

ويحصل فضله بالأصبع عند فقد السواك ، أو فقد أسنانه ، أو ضرر بفمه : لحديث النضر بن أنس عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « يجزىء من السواك الأصابع » أخرجه البيهقي وقال حديث ضعيف والضياء في المختارة وقال : إسناده لا بأس به .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : يا رسول الله .. الرجل يذهب فوه(٣) أيستاك ؟ قال : « نعم » قلت: كيف يصنع ؟ قال : « يدخل أصبعه في فيه » أخرجه الطبراني في الأوسط .

وعن أنس رضى الله عنه أن رجلاً من الأنصار قال : يا رسول الله ..إنك رغبتنا في السواك فهل دون ذلك من شيء ؟ قال : أصبعاك سواك عند وضوئك تمرهما على أسنانك » أخرجه البيهقي .

جـ ــ كيفيته : يستحب أن يستاك في اللسان طولاً، وفي الأسنان عرضاً : لحديث أبي بردة عن أبيه ــ أبي موسى ــ قال : « أتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نستحمله فرأيته يستاك على لسانه وهو يقول :

---

(١) أنظر ص ١٤٢ ج ٣ صحيح مسلم بشرح النووى .

(٢) الحفر بفتح فسكون ، أو بفتحتين : داء يفسد الأسنان .

(٣) أى تذهب أسنانه.

أه أه[1] ــ يعني يتهوع » أخرجه أبو داوود وكذا البخاري بلفظ : فوجدته يستن بسواك بيده يقول : أع أع والسواك في فيه[2] كأنه يتهوع .

وعن عطاء أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إذا شربتم فاشربوا مصاً ، وإذا استكتم فاستاكوا عرضاً » أخرجه أبو داوود في المراسيل .

والسنة إمساك السواك باليمين وخنصرها تحت طرفه الأسفل . والثلاثة الباقية فوقه ، والإبهام أسفل رأسه : كما رواه ابن مسعود .

د ــ **الاستياك بسواك الغير** : اتفق العلماء علي جواز الاستياك بسواك الغير بإذنه : لحديث عائشة رضى الله عنها ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستن ــ أى يستاك ــ وعنده رجلان أحدهما أكبر من الآخر ، فأوحى إليه في فضل السواك ، أن كبر .. أعط السواك أكبرهما . أخرجه أبو داوود بسند حسن .

وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « أرانى[3] أتسوك بسواك فجاءنى أحدهما أكبر من الآخر ، فناولت السواك الأصغر منهما ، فقيل لي كبر فدفعته للأكبر منهما » أخرجه أحمد والشيخان والبيهقي .

هـ ــ **تنظيفه** : يسن غسل السواك بعد استعماله : لقول عائشة رضى الله عنها : كان نبى الله صلى الله عليه وآله وسلم يستاك فيعطيني السواك لأغسله ، فأبدأ به فأستاك ، ثم أغسله وأدفعه إليه . أخرجه أبو داوود والبيهقي بسند جيد .

و ــ **السواك للصائم** : يستحب للصائم أن يستاك أول النهار وآخره : لحديث عاصم بن عبيد الله عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه ، قال : رأيت النبى ﷺ ما لا أحصى يتسوك وهو صائم . أخرجه أحمد وأبو داوود والبيهقي والدارقطني وقال عاصم بن عبد الله : غيره أثبت منه[4] ، والترمذي

---

(١) « أه » بضم أو فتح فسكون .

(٢) أى في فمه .

(٣) أراني بفتح الهمزة وفي رواية مسلم : أراني في المنام فهو من الرؤيا ..

(٤) أنظر ص ٢٤٨ الدارقطني .

وقال : حسن .

والعمل علي هذا عند أهل العلم لا يرون بالسواك للصائم بأساً ، إلا أن بعضهم كرهوا السواك للصائم بالعود الرطب وكرهوا له السواك آخر النهار ، ولم ير الشافعي بالسواك بأساً أول النهار وآخره ، وكره أحمد وإسحاق السواك آخر النهار(١) .

وباستحبابه للصائم مطلقاً قال الحنفيون ومالك والثورى ، ومشهور مذهب الشافعية وأحمد : أنه يكره السواك للصائم بعد الزوال مستدلين بحديث أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « لخلوف(٢) فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » أخرجه مالك وأحمد والشيخان والنسائى وابن ماجه .

قالوا : وجه الاستدلال أنه إذا استاك يزول هذا الخلوف ، لكنه غير مسلم ، فإن المراد من الحديث مدح الصائم من حيث صيامه ، حتي إن رائحة فمه التي من شأنها أن تكون كريهة ، مرضية عند الله عز وجل ، يثاب عليها أكثر ما يثاب من تطيب برائحة المسك المحبوبة شرعاً ..

* * *

هذا .. مع ملاحظة أن الاستياك ـــ بالإضافة إلي ما علمت ـــ سنة من سنن الحبيب المصطفي ﷺ ، فكن حريصاً على استعماله علي هذا الأساس الذى وقفت عليه حتى تكون من أحبابه صلوات الله وسلامه عليه .. قولاً وعملاً .

* * *

---

(١) أنظر ص ٤٦ ج ٢ تحفة الأحوذى .

(٢) أى تغيرت رائحته ، يقال خلف فم الصائم خلوفاً من باب قعد : أى تغيرت ريحه .

وإذا كنا قد وقفنا من خلال تلك الأحكام علي فضيلة السواك الذي إن واظب المسلم عليه في جميع أوقاته كان محافظاً علي صحة أسنانه التي إن مرضت كانت ــ غالباً ــ سبباً في كثير من الأمراض التي لا يحمد عقباها :

فإني أرى بعد ذلك وإتماماً للفائدة : أن أذكر ببحث يتعلق بوظائف الأسنان وكونها من ضروريات صحة الإنسان ، حيث يقول كاتبه(١) :

« أعلم أن الأسنان من أجل نعم الله علي الإنسان لأنها معينة للمعدة علي جودة الهضم الذي هو من ضروريات حياته كما أنها حلية فمه وهي من بديع حلاه، يكفيها شرفاً أنها حاكت اللؤلؤ منظراً وأنها الواسطة الكبرى في تحسين الألفاظ ، لأن مدار مخارج أغلب الحروف علي الأسنان .

ثم هي وإن اتحدت في تحضير ما يرد عليها من الغذاء وجعله قابلاً للدخول في المعدة إلا أنه اقتضت إرادة الله جعل تلك الأسنان متنوعة ووضع كل نوع منها في المكان المخصص له حتى يتأتى له القيام بما هو مفروض عليه ، إذ خص الله سبحانه وتعالي كل نوع منها بحسب شكله وصلابته بوظيفة يقوم بها ، فجعل الثنايا أى القواطع لتقطيع الوارد عليها ، والأنياب لتمزيقه ، والأضراس لهرسه وطحنه ، ولا تتم جودة المضغ إلا بمجموع تلك الأعمال لأن جميع الأسنان تكون معينة بعضها لبعض ومشتركة في أداء هذه الوظيفة الضرورية لصيرورة الغذاء بحالة مناسبة للدخول في القناة الهضمية وسهولة هضمه ، وإجادة المضغ سنة نبوية أمر بها ﷺ ، إذ ورد في الحديث الشريف أن النبى ﷺ كان يصغر اللقمة ويطيل المضغ .

ومن جملة نعم الله علي الإنسان ما أبدعه في كيفية وضع الفكين وإتقان تركيبهما ، فترك الفك الأعلى ثابتاً لا يتحرك أبداً ، والأسفل يتحرك بكل سهولة ذات اليمين وذات الشمال ومن أعلى إلى أسفل وبالعكس ، حتى يتأتى للأسنان الاشتراك في عمل المضغ . واللسان وقتئذ يكون آلة لتقليب الغذاء داخل الفم حيث يطوف في جوانبه ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة .

---

(١) الأستاذ المتوكل علي الله عابدين خير الله في كتابه « إرشاد الإنسان إلى صحة الأبدان » رحمه الله .

فانظر أيها الإنسان كيف أنعم الله عليك بهذه الآلات وأودع فيها من الحكم التي لا يقدر قدرها إلا مدبر الكائنات ، على أنا نرى بعض الجهلاء يستعملون تلك الآلات في غير ما خلقت لأجله ، فيكسرون بها الأجسام الصلبة ويرفعون بالقواطع أجساماً كالكرسى رفعاً رأسياً كما رأيتهم رأى العين ونهيهم عن ذلك وهم يتفاخرون بذلك بين أمثالهم ولا يدرون عاقبة هذا الفعل الوخيم وما ينجم عنه من المضار كخلل أصولها أو كسر شيء من تيجانها خصوصاً أصحاب البنية الضعيفة حيث تكون لثتهم ضعيفة صفراء رخوة أو محمرة مظلمة « أسكروبوطية » والداهية العظمى والطامة الكبرى إذا حصل الكسر في الأضراس التي جعلها الله سبحانه وتعالى للإنسان بمثابة رحى يطحن بها ما يتناوله من الأغذية فيسهل عليه بذلك ازدرادها وهضمها ، فسبحانه ما أشفقه علي عبده ، وما أضر الإنسان علي نفسه بجهله .

ولأجل وقايتها وحفظها طلاها خالقها بطلاء لماع زجاجي صلب هو المينا وله رونق وبهجة،فإن فقدته يبقى جزؤها العظمى عرضة للتلف حيث يصير سهل التفتت سريع السقوط ، فيتأسف الإنسان عليها غاية الأسف لأنه ليس له غنى عنها إذ لا يتأتي له بدونها مضغ الطعام تماماً الذى هو أول عمل هضمى ، فيقع في سوء الهضم الذي متى أزمن كان سبباً لأمراض شديدة يعسر شفاؤها ، وأخطار عظيمة معدية ومعوية تنهك جسمه وتضعف بدنه وربما لا يتخلص منها إلا بالموت ، وكثيراً ما تمتد العلل إلي ما سواها من الأحشاء .. فالحذر الحذر من إهمال استعمال الأسنان في غير وظيفتها إذ استعمالها ضروري في صحة الإنسان .

وليعلم أنه من الأمور التي تكون سبباً في ابتلاء الأسنان بالنوازل والالتهابات اللثوية والآلام العصبية هو كثرة التدخين فإنه يؤثر علي مينا الأسنان ، ويولنها ويؤثر علي اللثة فيضعفها كما يضعف أعصابها .

ومما يضر بالأسنان ضرراً عظيماً : أكل الحلوي ، فإنه إذا بقي شيء بالفم وحول الأسنان تخمر بسرعة ونشأ منه حمض يسمى بحمض اللبنيك.وهو من أشد الأسباب في إتلاف الأسنان وتسوسها .

وكذلك أكل الفواكه التي لم يتم نضجها خصوصاً الحامضة منها ، لأنها

تضر بالطلاء الواقي لها ، إذ أن تأثير الحوامض عليه شبيه بتأثير عصارة الليمون علي قشرة رقيقة من الصدف أو الرخام .

وكذلك استعمال المشروبات الروحية ـ كالخمر وما كان علي شاكلتها ـ وكذا الشديدة الحرارة كالقهوة ومغلي الكراوية وما أشبهه ، أو الشديدة البرودة كالمشروبات المثلجة وأكل الدندرمة وما يماثلها . أو إدخال البارد على الحار ، والحار علي البارد فإن استعمال مثل هذه يؤثر علي أصول الأسنان وطلائها لأن في ذلك من تعاقب طبيعتين مختلفتي الأثر فيورث ذلك تشقق مينا الأسنان لاختلاف درجة الحرارة مرة واحدة فتتلف ويتعرى العاج ويصير معرضاً لتأثير الهواء مباشرة ، ومن ذلك كله تتلف الأسنان ولا يدري صاحبها كيف تلفت .

ومن هنا يعلم تأثير الجو البارد علي الأسنان ومقدار ضرره بها ضرراً عظيماً ، ولذ كان الأوفق عدم التنفس من الفم خصوصاً في أوقات البرد بل ولا في غيره » .

ثم يقول بعد ذلك باختصار وتصرف :

«أماأعظم الوسائط المستعملة في صيانة الأسنان ، فنقول : يجب أن تغسل الأسنان بعد تناول كل طعام بماء ليس شديد البرودة ولا شديد الحرارة ويستعاض الصابون بقليل من الدقيق ومن ملح الطعام المسحوق جيداً لأن الصابون كثيراً ما يغش بمواد مضرة بالأسنان وإن كان لا بد من استعماله فيلزم التحقق أولاً من جودته ، وثانياً لا يترك شيء منه علي الأسنان ويتحقق من ذلك بملامسة الأسنان بالأصبع .

وإذا كان عند الإنسان استعداد إلي تجمع المادة اللزجة التي من شأنها أن تتراكم علي اللثة والأسنان يضاف علي الماء الفاتر المستعمل لتنظيف الأسنان قليل من الملح » .

إلي أن يقول : « ومما يوقف سيرها ويمنع تجمعها ويطهر الأسنان من الجراثيم العفنة ويمنع الرائحة الكريهة من الفم استعمال السواك ، وكفي بالتسويك فضلاً ومنفعة ورود الأحاديث النبوية والشهادات الصادقة من

المجربين المداومين على استعماله ، فلقد قال ﷺ إن « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » .. إلخ .

وينبغي تخلل الأسنان(١) عقب كل طعام لإزالة المواد المتخللة بينها قبل أن تتخمر وتؤثر فيها ويكون ذلك بالخلال أو نحوه لا بشيء صلب لئلا يكسر شيئاً من ميناها » .

* * *

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، وليكن حريصاً كل الحرص — للأسباب التي وقف عليها — على تنفيذ وصية الرسول ﷺ .

وحسبه ترغيباً له في تنفيذها — بالإضافة إلى ما وقف عليه في فضل التسوك من الأعاديث ، وما وقف علي من إشارات في هذا البحث السابق : أن يقرأ بعد ذلك بعمق ما قاله الرسول ﷺ في بقية الوصية : « .. ما جاءني جبريل إلا أوصاني بالسواك حتى لقد خشيت أن يفرض علي وعلى أمتي ، ولولا أني أخاف أن أشق على أمتي لفرضته عليهم ، وإني أستاك حتى خشيت أني أحفي مقادم فمي » .

ففي هذا ترغيب عظيم في استحباب استعمال السواك اقتداء برسول الله ﷺ الذي يقول : « من أحيا سنتى فقد أحبني ، ومن أحبني كان معى في الجنة » .

* * *

---

(١) بعود الخلة أو نحوه .

الوصية الخامسة والأربعون

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

إِذَا سَمِعْتُمُ المُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا. ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِيَ الوَسِيلَةَ (١) فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ

الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ.

رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى

---

(١) الوَسِيلة : اسم لما يتوصل به إلى المطلوب ومنه قوله تعالى :
" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ " يعنى اطلبوا كل مَا يقربكم إلى الله عز وجل من الأعمال الصالحة.

(٢) فَمَن سَأَل لى الوَسِيلة : أى سَأَل الله لى الوَسِيلة ، كما فى روَايَة أخرى.

★★★

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لهذه الوصية العظيمة التى ترغبنا في خير كبير كلنا لا بد كمؤمنين : أن نعمل علي تحقيقه والفوز بثوابه .

وحسبنا ــ كما قرأنا في نص الوصية ــ أن الله تعالى سيصلى علينا ــ أى يرحمنا ــ وأننا سنكون إن شاء الله تعالى يوم القيامة بذلك ضمن هؤلاء المؤمنين الذين سيشفع لهم الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه .

إجابة الأذان

وإذا كان الرسول ﷺ قد بدأ وصيته بقوله : « إذا سمعتم المؤذن ، فقولوا مثل ما يقول .. » فقد ورد في هذا :

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه ، أن النبي ﷺ ، قال : « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن » رواه البخاري ومسلم .

وعن عمر رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « إذا قال المؤذن : الله أكبر الله أكبر ، فقال أحدكم : الله أكبر الله أكبر ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله . قال : أشهد أن لا إله إلا الله . ثم قال : أشهد أن محمداً رسول الله . قال : أشهد أن محمداً رسول الله . ثم قال : حى علي الصلاة . قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال : حى على الفلاح . قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال : الله أكبر الله أكبر . قال : الله أكبر الله أكبر . ثم قال : لا إله إلا الله . قال : لا إله إلا الله ، من قلبه دخل الجنة » رواه مسلم وأبو داوود .

قال النووى : قال أصحابنا : « وإنما استحب للمتابع أن يقول مثل ما يقول المؤذن في غير الحيعلتين(١) فيدل علي رضاه به ، وموافقته علي ذلك . أما الحيعلة فدعاء إلى الصلاة ، وهذا لا يليق بغير المؤذن ، فاستحب للمتابع ذكر آخر ، فكان لا حول ولا قوة إلا بالله ، لأنه تفويض محض إلى الله تعالى » . ثم يقول :

---

(١) أي قول المؤذن حي على الصلاة ، حي على الفلاح .

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة » . قال أصحابنا : ويستحب متابعته لكل سامع ، من طاهر ، ومحدث ، وجنب ، وحائض ، وكبير ، وصغير ، لأنه ذكر ، وكل هؤلاء من أهل الذكر » انتهى كلام النووى .

ويستثني من هذا من هو على الخلاء[1] ، أو على الجماع ، فإذا فرغ تابعه ، وإذا سمعه وهو في قراءة ، أو ذكر ، أو درس ، أو نحو ذلك ، قطعه وتابع المؤذن ، ثم عاد إلى ما كان عليه إن شاء .

وإن كان في صلاة فرض ، أو نفل ، قال الشافعى والأصحاب : لا يتابعه ، فإذا فرغ منها قاله .

وفي كتاب المغنى : « من دخل المسجد ، فسمع المؤذن استحب له انتظاره ليفرغ ويقول مثل ما يقول ، جمعاً بين الفضيلتين ، وإن لم يقل كقوله ، وافتتح الصلاة فلا بأس » نص عليه أحمد .

وقد روى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، قال : « من قال حين يسمع النداء : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، رضيت بالله رباً ، وبمحمد رسولاً ، وبالإسلام ديناً : غفر له » رواه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه وأبو داوود .

وظاهر هذه الرواية يدل على أنه يقول هذا الذكر حال الأذان عقب سماعه الشهادتين . ويحتمل أنه يقوله بعد تمام الأذان ، إذ لو قال ذلك حال الأذان لفاته إجابة المؤذن في بعض كلمات الأذان .

* * *

---

(١) أي من يتبول في المرحاض أو في الفضاء ..

ويستحب كذلك :

إجابة الإقامة

قال في الدين الخالص ج ٢ تحت هذا العنوان : يستحب إجابة المقيم بأن يقول السامع كما يقول المقيم ، إلا في الحيعلتين فيقول بدلهما : لا حول ولا قوة إلا بالله . وإلا قد قامت الصلاة ، فيقول بدلهما : أقامها الله وأدامها :

لحديث شهر بن حوشب عن أبي أمامة ، أو عن بعض أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم أن بلالاً أخذ في الإقامة ، فلما أن قال : قد قامت الصلاة ، قال النبى صلى الله تعالى عليه وعلي آله وسلم : « أقامها الله وأدامها » وقال في سائر الإقامة كنحو حديث عمر في الأذان .

رواه أبو داوود والبيهقي ، وقال : وهذا إن صح شاهد لما استحسنه الشافعي رحمه الله من قولهم : « اللهم أقمها وأدمها واجعلنا من صالح أهلها عملاً » أ . هـ . وبهذا قال الحنفيون والشافعية والحنابلة .

وقال المالكية : الإقامة لا تحكى . والراجح : القول الأول ، للحديث المذكور . وهو وإن كان ضعيفاً ، لأن في سنده محمد بن ثابت وهو ضعيف . وشهر بن حوشب وهو مختلف في عدالته ، فضعفه لا يضر ، فإن الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال باتفاق العلماء .

مع ملاحظة كذلك أن تقول عند قول المؤذن في صلاة الصبح : « الصلاة خير من النوم » : صدقت وبررت[١] . ولك أن تقول كما قال المؤذن ، لحديث عمر السابق ، وهذا أفضل .

ومع ملاحظة كذلك أنه من الخير :

الدعاء بين الأذان والإقامة

فعن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ ، قال : « لا يرد الدعاء بين الأذان

---

(١) برر كعلم : أى صدقت في دعوتك إلى الطاعة وصرت باراً أى تقياً . وهذا قاله بعض الفقهاء ولم نقف له على دليل . قال الدميرى : وادعى ابن الرفعة أن خبراً ورد فيه ، ولا يعرف ما قاله أ . هـ .

والإقامة » رواه أبو داوود والنسائى ، وزاد الترمذي في روايته : قالوا : ماذانقول يارسول الله؟ قال: « سلوا الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة » .

وعند عبد الله بن عمرو ، أن رجلاً قال : يا رسول الله .. إن المؤذنين يفضلوننا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « قل كما يقولون ، فإذا انتهيت فسل تعطه » رواه أحمد وأبو داوود .

ويستحب أن يقال بعد أذان المغرب ، ما ورد عن أم سلمة رضى الله عنها ، قالت : علمنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم عند أذان المغرب : « اللهم إن هذا إقبال ليلك ، وإدبار نهارك ، وأصوات دعاتك فاغفر لى » أخرجه أبو داوود والبيهقي والترمذي ، وقال : حديث غريب .

* * *

ثم إذا كان الرسول ﷺ ، قد قال بعد ذلك في نص الوصية : « .. ثم صلوا على ، فإنه من صلى على صلاة ، صلى الله عليه بها عشراً .. » : فإنه بهذا صلوات الله وسلامه عليه يذكرنا بفضل وثواب الصلاة والسلام عليه .

وذلك حتى نكثر من الصلاة والسلام عليه تنفيذاً لأمر الله تعالى في قوله :

﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ، ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾(١) .

فالمقصود من هذه الآية ـــ كما يقول ابن كثير ـــ : أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى ، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلى عليه ، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه(٢) ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلى جميعاً .

وإلى هذا يشير الإمام محمد خطاب السبكى رحمه الله تعالى ، مذكراً

---

(١) الأحزاب : ٥٦ .

(٢) الصلاة من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ومن المؤمنين دعاء .

ومرغباً في الصلاة والسلام على هذا النبى العظيم الذى كان على خلق عظيم :

طه الذي عم الأنام بفضله ساد النبيين الأولى من قبله
هو صفوة البارى وخاتم رسله يأأيها المستمسكـون بحبلـه
إن تبتغوا أجراً يكون جزيلا صلوا عليه بكرة وأصيلا

* * *

الله أدناه إليه وقربا فعلا مقاماً لم ينله أولو النبا
وله يقول أبشر فأنت المجتبى أهلا وسهلا بالحبيب ومرحبا
أنت الذى تستوجب التفضيلا صلوا عليه بكرة وأصيلا

* * *

ملأت نبوته الوجود وأظهرا بحسامه الدين الصحيح فأسفرا
واستبشرت فرحاً ببعثته الورى ومحا الضلال كما بذلك خبرا
نص الكتاب مفصلاً تفصيلا صلوا عليه بكرة وأصيلا

* * *

والسحب لا تحكى عطاياه فما أنداه بحراً بالسخاء وأكرما
أنعم بمن أسنى الكمال له انتمى مولاه قد صلى عليه وسلما
من لم يصل عليه كان بخيلا صلوا عليه بكرة وأصيلا

* * *

كما يقول رحمه الله تعالى :

صلوا علي من بدت فينا بشائره الهاشمي الذي طابت عناصره

هو النبى الذى شاعت رسالته في الخلق طرا[1] وقد عمت مآثره
هو الرسول الذى تسعى الملوك له على الرؤوس فتأتيهم مفاخره
هذا الطبيب لهذا الناس كلهم يشفى العليل وللمكسور جابره
صلى عليه إله العرش ما طلعت شمس وما ناح فوق الغصن طائره

* * *

وحسبنا ترغيباً لنا في الإكثار من الصلاة والسلام على الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أن نقرأ كذلك هذه الأحاديث الشريفة :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشراً » رواه مسلم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة » رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وعن أوس بن أوس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا علي من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة على . قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ — قال : يقول بليت — قال : إن الله حرم علي الأرض أجساد الأنبياء » رواه أبو داوود بإسناد صحيح .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على » رواه الترمذي وقال حديث حسن .

وعنه رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا قبرى عيداً وصلوا على فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » رواه أبو داوود بإسناد صحيح .

وعنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « ما من أحد يسلم على إلا رد الله

---

(١) أى جمعا .

على روحى حتى أرد عليه السلام » رواه أبو داوود بإسناد صحيح .

وعن على كرم الله وجهه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « البخيل من ذكرت عنده فلم يصل على » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن فضالة بن عبيد الله رضى الله عنه ، قال : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجد الله تعالى ولم يصل على النبى ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « عجل هذا » ثم دعاه ، فقال له أو لغيره : « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه سبحانه والثناء عليه ، ثم يصلي علي النبى ﷺ ثم يدعو بعد بما يشاء » رواه أبو داوود والترمذي وقال حديث صحيح .

هذا .. وإذا كان الرسول ﷺ قد أوصانا في الوصية بعد الأذان بأن نصلى عليه ، فإنه من الأفضل أن تكون صلاتنا عليه بالوارد عنه صلوات الله وسلامه عليه .

فعن أبى محمد كعب بن عجرة رضى الله عنه ، قال : خرج علينا النبى ﷺ ، فقلنا : يا رسول الله .. قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل عل محمد وعلي آل محمد كما صليت علي آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك علي محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » متفق عليه .

وعن ابن مسعود البدرى رضى الله عنه ، قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة رضى الله عنه فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله ، فكيف نصلى عليك ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا : اللهم صل علي محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد . والسلام كما قد علمتم » رواه مسلم .

وعن أبى حميد الساعدى رضى الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله .. كيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل علي محمد وعلى أزواجه

وذريته كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد » متفق عليه .

* * *

وقد أشار الشيخ علي محفوظ رحمه الله تعالى في كتابه « الإبداع في مضار الابتداع » إلى البدع المتعلقة بالجهر بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ بعد الأذان فقال :

ومن البدع المختلف في حسنها وذمها الصلاة والسلام علي النبي عقب الأذان جهراً .. وكان ابتداء حدوث ذلك في أيام السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب وبأمره في مصر وأعمالها لسبب مذكور في كتب التاريخ .. ثم يقول : ونقول : لا كلام في أن الصلاة والسلام على النبي ﷺ عقب الأذان مطلوبان شرعاً لورود الأحاديث الصحيحة بطلبها من كل من سمع الأذان لا فرق بين مؤذن وغيره ، كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ ، يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على فإن من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشراً » .. الحديث . لكن لا مع الجهر ، بل بأن يسمع نفسه أو من كان قريباً منه ، إنما الخلاف في الجهر بهما على الكيفية المعروفة والصواب أنها بدعة مذمومة بهذه الكيفية التي جرت بها عادة المؤذنين من رفع الصوت بها كالأذان والتمطيط والتغنى فإن ذلك إحداث شعار ديني على خلاف ما عهد عن رسول الله ﷺ وأصحابه والسلف الصالح من أئمة المسلمين وليس لأحد بعدهم ذلك ، فإن العبادة مقصورة عل الوارد عنه ﷺ بإجماع الأئمة ، فلا تثبت باستحسان أحد من هؤلاء ولا بإحداث سلطان عادل أو جائر .

قال في المدخل : عطس رجل بجانب سيدنا عبد الله بن سيدنا عمر ، فقال : الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . فقال سيدنا عبد الله : الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ؟ ما هكذا علمنا رسول الله أن نقول إذا عطسنا ، بل علمنا أن نقول : الحمد لله رب العالمين . انتهى .

فهذا الصحابي الكبير أنكر على من صلى وسلم على النبي ﷺ عقب العطاس لعدم وروده عن رسول الله ﷺ ، ومن ثم قال العلامة ابن حجر في فتاويه الكبرى : من صلى على النبي ﷺ قبل الأذان أو قال : محمد رسول الله بعده معتقداً سنيته في ذلك المحل ينهى ويمنع منه لأنه تشريع بغير دليل ، ومن شرع بغير دليل يزجر ويمنع . انتهى . وهذا العلامة ابن حجر حكم علي من صلى على النبي ﷺ قبل الأذان أو قال محمد رسول الله بعده بأنه شرع في دين الله تعالى وأنه يمنع من ذلك ويزجر ، وما ذلك إلا لقبح ما فعل ، وأن الوقوف عند ما ورد به الشرع أولى .

ثم يقول في الإبداع : وبهذا ظهر لك ما يقع من كثير من المؤذنين عقب أذان الفجر من قولهم : ورضى الله تباك وتعالي عنك يا شيخ العرب ونحو ذلك من الألفاظ — بأعلى صوت — وأنها بدعة مذمومة لم تعرف من طريق مشروع .

فلنكن إن شاء الله تعالى من أهل الاتباع لا من أهل الابتداع ، وحسبنا أن نعمل بشرع الرسول ﷺ الذى تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها :

شرع النبى سره جليل   شرع النبي نوره جميل
شرع النبى فضله جزيل   شرع النبي ما له مثيل
شرع النبى أتى به جبريل

شرع النبى صاحب الأنوار   شرع النبى صفوة الغفار
شرع النبى سيد الأخيار   شرع النبى مهبط الأسرار
شرع النبى بالهدى كفيل

شرع النبى يبرىء السقيما   شرع النبى يرأب[1] الكليما[2]
شرع النبى يكرم الكريما   شرع النبى يضع اللئيما
شرع النبى للعلا سبيل

---

(١) يرأب : أى يصلح .
(٢) الكليم : أى الجريح .

دين الرسول منهج شريف دين الرسول منهج حنيف
دين الرسول قدره منيف دين الرسول للتقى أليف
دين الرسول مجده أثيل(١)

سن الحبيب سنة جليلة سن الحبيب سنة جميلة
سن الحبيب سنة فضيلة سن الحبيب سنة أصيلة
سن الحبيب ما الهدى ينيل

سن الحبيب ما بدا ضياء سن الحبيب ما بدا شفاء
سن الحبيب ما غدا بهاء سن الحبيب ما غدا علاء
فكل شهم نحوه يميل

فليحظ بالخيرات شخص سلكا طريق من قلوبنا قد ملكا
وليدخل النيران من تهتكا ما دام أن لم يرضها متنسكا
شرابه وزاده التنكيل(٢) .

* * *

وأما عن :

الوسيلة

التي يوصينا الرسول ﷺ بأن نسألها له من الله تبارك وتعالى ، فالمراد بها هنا — في نص الوصية — : أعلى منزلة في الجنة ، وقد ورد هذا في حديث جابر :

أن النبى ﷺ ، قال : من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » أخرجه أحمد والبخارى وأبو داوود والترمذي والنسائى وابن ماجه .

والدعوة ، بفتح الدال : المراد بها الأذان ، سمى بذلك لاشتماله على كلمة التوحيد والدعوة إلى الصلاة .

---

(١) أثيل : كعظيم وزنا ومعنى .
(٢) من قصيدة للإمام محمود خطاب السبكى رحمه الله من كتابه « المقامات العلية » .

والتامة : أى التي لا يدخلها تغيير ولا تبديل إلى يوم القيامة .

والوسيلة : ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به . وهى في الحديث ــ كما عرفنا ــ أعلى منزلة في الجنة .

والفضيلة : المرتبة الزائدة على سائر مراتب الخلق ، ويحتمل أن تكون مرادفة للوسيلة أو مغايرة لها .

وقوله : « مقاماً محموداً » بالتنكير ، وفي رواية : « المقام المحمود » بالتعريف : أى الذى يحمده عليه الأولون والآخرون ، وهو مقام الشفاعة في فصل القضاء المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾(١) ، والحكمة في سؤال ذلك للنبى ﷺ مع تحقق وقوعه : إظهار شرفه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، وبيان عظم منزلته ﷺ .

وحسبنا أن نقف علي هذا من خلال قول الله تبارك وتعالى لأصحابه عليهم جميعاً رضوان الله :

﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً** ﴾(٢) : أى إذا أردتم مخاطبته لا تقولوا له يا محمد ــ مجردة هكذا ــ ولكن قولوا له : يا نبى الله ، يا رسول الله .. مع أنهم في الأمم السابقة كانوا يخاطبون أنبياءهم بأسمائهم ولم ينهوا عن ذلك كما يشير قوله تعالى:

﴿ **يا نوح قد جادلتنا** ﴾(٣) .

﴿ **يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين** ﴾(٤) .

﴿ **قالوا يا هود ما جئتنا ببينة** ﴾(٥) .

﴿ **قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك** ﴾(٦) .

---

(١) الإسراء : ٧٩ .
(٢) النور : ٦٣ .
(٣) هود : ٣٢ .
(٤) الأعراف : ٧٧
(٥) هود : ٥٣ .
(٦) مريم : ٤٦ .

﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾(١) .

ومن خلال هذين الحديثين الشريفين :

عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر . وما من نبى يومئذ : آدم فمن سواه إلا تحت لوائى ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ، وأنا أول شافع وأول مشفع » أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذى ، وقال : حسن صحيح .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قد سمع ناساً من أصحابه يتذاكرون في تفاضل الأنبياء ، فقال : « قد سمعت كلامكم وعجبكم . إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى نجى الله وهو كذلك ، وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك . إلا أنا حبيب الله ولا فخر(٢) ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة ، فيفتح الله لى فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر »

فمن هذا نعلم أن النبى صلوات الله وسلامه عليه هو أفضل خلق الله على الإطلاق :

وأفضل الخلق بعد نبينا صلى الله عليه وآله وسلم : سيدنا إبراهيم ، ثم سيدنا موسى ، ثم سيدنا عيسى ، ثم سيدنا نوح ، ثم سيدنا آدم أبو البشر ، ثم باقى الرسل على تفاضل بينهم ، ثم سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم رؤساء الملائكة كجبريل وإسرافيل ، ثم رؤساء الأمة المحمدية : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على ـــ عليهم جميعاً رضوان الله ـــ ثم باقى العشرة ـــ أى

---

(١) المائدة : ١١٢ .

(٢) أى : ينفي عن نفسه ﷺ التفاخر .

المبشرين بالجنة ، وهم[1] : طلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد ابن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجراح . عليهم رضوان الله وقد ورد هذا فى حديث أحمد والترمذى وابن حبان وغيرهم أنه ﷺ ، قال : « أبو بكر فى الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلى في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ، وسعد ابن أبى وقاص في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة ، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة » ــ ثم أهل بدر ، ثم أهل أحد ، ثم أهل بيعة الرضوان ، ثم عامة الملائكة أ . هـ . من الدين الخالص . بتصرف وإضافات .

الله زاد محمداً تكريماً وحباه فضلاً من لدنه عظيماً
واختصه في المرسلين كريماً ذا رأفة بالمؤمنين رحيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

جلت معانى الهاشمى المرسل وتجلت الأنوار منه لمجتلى
وسما به قدر الفخار المعتلى فاحتل في أفق السماء مقيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

حاز المحامد والمدائح أحمد وزكت منابته وطاب المحتد[2]
وتأثلت[3] علياؤه والسؤدد مجداً صميماً حادثاً وقديما
صلوا عليه وسلموا تسليما

شمس الهداية بدرها الملتاح[4] قطب الجلالة نورها الوضاح
غيث السماحة للذى يرتاح بشرى المسيح دعاء إبراهيما[6]
صلوا عليه وسلموا تسليما

أوصاف سيدنا النبى الهادى ما نالها أحد من الأمجاد

---

(١) بالإضافة إلى الخلفاء الراشدين الأربعة السابق ذكرهم .
(٢) المحتد بفتح فسكون فكسر : الأصل والطبع .
(٣) تأثلت : أى تأصلت .
(٤) الملتاح : أى اللامع الواضح .
(٥) الهيم بكسر فسكون : أى العطاش .
(٦) أى أنه ﷺ : « دعوة إبراهيم وبشرى عيسى » عليهما السلام كما جاء في نص حديث أخرجه أحمد بسند حسن وله شواهد تقويه .

فالرسل في هدى وفي إرشاد قد سلموا لنبينا تسليمـــا
صلوا عليه وسلموا تسليما
آياتـه بهرت سنـا وسنـــاء[1] وأفادت القمرين منه ضياء[2]
فمحا بنور رشاده الظلمـاء وهدى به الله الصراط قويما
صلوا عليه وسلموا تسليما

ولهذا كان من الخير لنا : أن نسأل الله تعالى له ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ الوسيلة التي لا تنبغي إلا له صلوات الله وسلامه عليه ـــ بلا منازع ـــ حتى نفوز بشفاعته ، كما يشير قوله صلوات الله وسلامه عليه في آخر الوصية : « فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له الشفاعة »[3] ، أى : وجبت له شفاعة النبى صلى الله عليه وعلي آله وسلم ، واستحقها يوم القيامة ، وهى تختلف باختلاف المقامات .

هذا .. ويطلب كذلك ممن سمع الإقامة أن يقول : « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة : صل على محمد وآته سؤله يوم القيامة » .

فقد كان أبو هريرة رضى الله عنه يقوله إذا سمع المؤذن يقيم . أخرجه ابن السنى . وهو في حكم المرفوع لأنه يقال من قبل الرأى .

* * *

هذا .. وإذا كنا قد وقفنا علي موضوع الوسيلة ، وعرفنا أن معناها بالنسبة للوصية هو أعلى منزلة في الجنة ، وأن معناها العام ، هو : ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به :

فإننى أحب كذلك وإتماماً للفائدة : أن أذكرك بموضوع :

---

(١) « آياته » : أى معجزاته ، « بهرت » : أى ظهرت حتى غلب ظهورها، « سنا » بالقصر : أى ضوء القمر ، « وسناء » بالمد : أى رفعته .
(٢) « القمران » أى الشمس والقمر .
(٣) الشفاعة : طلب الخير للغير .

التوسل بالصالحين

أشار إليه صاحب كتاب « الإبداع في مضار الابتداع »(١) ضمن حديثه عن آداب زيارة القبور .. حيث يقول رحمه الله :

« ومن البدع : إهمال آداب الزيارة ، فمن ذلك التسليم على صاحب القبر ، بما كان يعلمه النبي ﷺ للصحابة إذا خرجوا لزيارة القبور ، بأن يقولوا : السلام عليكم يا أهل الديار من المسلمين والمؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية » ، ثم يدنو من الميت دنوه منه حياً عند زيارته ولا يستلم القبر ولا يقبله ، ثم يقوم في قبلة الميت ويستقبله بوجهه عند السلام عليه ، وعند الدعاء له يستقبل القبلة ، وهو مخير في أن يقوم في ناحية رجليه إلى رأسه أو قبالة وجهه ، ثم يثنى على الله تعالى بما حضره من الثناء ، ثم يصلى على النبي ﷺ ، ثم يدعو للميت بما أمكنه وبالمأثور أحب ، وأن يجتهد في الدعاء له فإنه أحوج الناس إليه لانقطاع عمله » .

ثم يقول : « هذا هو المأثور عنه ﷺ في زيارته لأهل البقيع ، وكذلك يدعو الله عند هذه القبور في نازلة نزلت به أو بالمسلمين ويتضرع إلى الله تعالى في زوالها وكشفها عنه وعنهم ، وهذه صفة زيارة القبور عموماً ، فإن كان المزور ممن ترجى بركته ، فسيأتي الكلام عليه في مقام التوسل » .

ثم يقول : خاتمة : يتصل بهذا المطلوب ثلاث مسائل ينبغي للمريد أن يكون فيها على بصيرة .

المسألة الأولى : الرحلة لزيارة مشاهد الخير وقبور الصالحين من الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء ، حرمها قوم منهم الجويني إمام الحرمين ، والقاضي حسين من الشافعية ، والقاضي عياض من المالكية ، وشيخ الإسلام ابن تيمية من الحنابلة ، واستدلوا بما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأبي سعيد قال ﷺ : « لا تشد الرحال إلا لثلاث مساجد : المسجد

---

(١) وهو الشيخ علي محفوظ رحمه الله .. وهذا الكتاب طبق ما قرره المجلس الأعلى من مناهج التعليم في السنة الأولى والثانية لقسم الوعظ والخطابة بالأزهر الشريف من عام ١٣٤٤ هـ .

الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » ، وبأن زيارة الأولياء بدعة لم تكن في زمن السلف ، وبأن الرحلة إلى الزيارة تؤدى لارتكاب كثير من المحظورات كاختلاط الرجال بالنساء وحضور أمكنة اللهو التي تقام عادة عند الولى المعتاد الرحلة إليه وسماع الغناء الممنوع سماعه .

وأجازها قوم منهم الإمام أبو حامد الغزالي . لقوله ﷺ : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا »(١) وأجابوا عن أدلة المانعين بما لا ينهض — ومن علم المنكرات التي ترتكب في موالد الأولياء لا يشك في المنع . وحيث كان الزائر عاجزاً عن تغيير المنكر فالأولى بل الواجب عليه ألا يزور في زمن تلك المفاسد .

المسألة الثانية : الاستغاثة بالمخلوق ، وكذا الاستعانة به ، إن كان ذلك فيما يقدر عليه نحو الحيلولة بينه وبين عدوه .ودفع الصائل عنه من لص أو سبع . وكأن يحمل معه متاعه أو يعلف دابته ، فلا ريب في جوازهما إذا كان ذلك مع اعتقاد أن لا مغيث ولا معين على الإطلاق إلا الله تعالى . وإذا حصل شيء من ذلك علي يد غيره فالحقيقة له سبحانه — أما ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى فلا يستغاث فيه إلا به كغفران الذنوب ، والهداية ، وإنزال المطر والرزق ، كما قال تعالى : ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾(٢) .

وقال : ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾(٣) والاستغاثة طلب الغوث وهو إزالة الشدة كالاستنصار وطلب النصرة فلا يكون إلا عند الشدائد بخلاف الاستعانة فإنها طلب المعونة في شدة أو غيرها . ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ .. **فاستغاثه الذى من شيعته علي الذى من عدوه** ﴾(٤) .

وقوله : ﴿ .. **وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر** ﴾(٥) .

---

(١) أخرجه الشافعي وأحمد ، وأخرجه الحاكم بلفظ : « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبرة » وقال : حديث صحيح علي شرط مسلم .

(٢) آل عمران : ١٣٥ .

(٣) القصص : ٥٦ .

(٤) القصص : ١٥ .

(٥) الأنفال : ٧٢ .

وقوله تعالى : ﴿ .. وتعاونوا على البر والتقوى ﴾[1] .

المسألة الثالثة : الاستشفاع وهو طلب الشفاعة من الغير بمعنى سؤال فعل الخير وترك الضر عن غير السائل الشفيع لأجل الغير على سبيل الضراعة ، فلا نزاع فيه لأحد من المسلمين إلا الشفاعة من الكبائر عند المعتزلة : فإنه ثبت بالسنة المتواترة وإجماع الأمة أن نبينا ﷺ هو الشافع المشفع . وأنه يشفع للخلائق يوم القيامة . وأن الناس يستشفعون به ويطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربه ، قال ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأعطيت الشفاعة ، وكل نبى بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » متفق عليه من حديث جابر .

وفي سنن أبى داوود أن رجلاً قال للنبى ﷺ : إنا نستشفع بالله عليك ، ونستشفع بك على الله ، فقال : « شأن الله أعظم من ذلك أنه لا يستشفع به على أحد من خلقه » ، فأقره على قوله : نستشفع بك على الله ، وأنكر عليه قوله : نستشفع بالله عليك .

وأما التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأحد من خلقه في مطلب يطلبه العبد من ربه ، فأجازه بعضهم إذا كان بمعنى الشفاعة كما ذكره عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما قال : « كنا إذا أجدبنا نتوسل بنبينا إليك فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا » فلا يخفى أن توسلهم به هو استسقاؤهم بحيث يدعو ويدعون معه فهو شفيع لهم .

وأجازه بعضهم وإن لم يكن بمعنى الشفاعة ، بل بمعنى التوصل بجاه الوسيلة نحو القسم على الله بنبيه ﷺ فيكون في حياته وبعد موته وفي حضرته ومغيبه ، إلا أن الشيخ ابن عبد السلام خصه به صلى الله عليه وسلم : للحديث الصحيح أن أعمى أتى للنبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله .. إنى أصبت في بصرى فادع الله لى . فقال له النبى ﷺ : « توضأ وصل ركعتين

---

(١) المائدة : ٢ .

ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد .. يا محمد إنى أستشفع بك في رد بصرى ، اللهم شفع النبى في ، وقال : فإن كان لك حاجة فمثل ذلك . فرد الله بصره » أخرجه النسائى والترمذى وصححه وابن ماجه وغيرهم .

والمختار عدم اختصاص التوسل بهذا المعنى به ﷺ ، فإن التوسل إلى الله بأهل الفضل والعلم في التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة إذ لا يكون الفاضل فاضلاً إلا بأعماله ، وقد ثبت أن النبى ﷺ حكى عن الثلاثة الذين انطبقت علهم الصخرة أن كل واحد منهم توسل إلى الله تعالى بأعظم عمل عمله فارتفعت الصخرة .

فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم .

قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق[1] قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بى طلب الشجر يوماً فلم أرح[2] أوقظهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون[3] عند قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه .

قال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلى ، وفي رواية : كنت أحبها كأشد ما يحب الرجل النساء ، فأردتها على نفسها[4]

---

(١) بفتح فسكون فكسر ، أى : ما كنت أقدم عليها في شرب نصيبها من اللبن أقارب ولا رفيقاً ــ والغبوق كصبور : ما يشرب بالعشى .

(٢) بضم الهمزة وكسر الراء : أى أرجع من أراح رباعياً .

(٣) أى يضجون من الجوع .

(٤) أى أراد أن يفعل بها الفاحشة .

فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بيني وبين نفسها(١) ، ففعلت حتى إذا قدرت عليها ، وفي رواية : فلما قعدت بين رجليها ، قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج .

وقال الثالث : اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره(٢) حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين ، فقال : يا عبد الله أدِّ إلى أجرى ، فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق . فقال : يا عبد الله لا تستهزىء بي ، فقلت لاأستهزيء بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون(٣)»متفق عليه .

ثم يقول بعد ذلك : فلو كان التوسل بالأعمال غير جائز لما سكت النبى ﷺ عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم .

ومن هذا تعلم أن المقصود في كل ذلك هو الله عز وجل وغيره شفيع فقط إذا أذن له الله ، وقد يغفل عن هذا العوام ، فتراهم إذا نزل بهم أمر خطير وخطب جسيم في بر أو بحر تركوا دعاء الله تعالى ودعوا غيره فينادون بعض الأولياء كسيدى أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقي والسيدة زينب رضى الله عنهم ، ولا تسمع منهم أحداً يخص مولاه بتضرع ودعاء ، وقد لا يخطر له على بال أنه لو دعا الله وحده ينجو من تلك الشدائد .

---

(١) أى على أن تمكنني من نفسها .

(٢) أى استثمرته له في البيع والشراء وما إلى ذلك .

(٣) وقد علق الشيخ محمد منير الدمشقي على هذا ، فقال : أقول : استدل المؤلف حفظه الله بهذا الحديث على جواز التوسل بأعمال الغير الصالحة كما ذهب إليه الشوكاني في كتابه «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد» وليس كذلك ، فإن الحديث يدل على جواز التوسل بعمل الرجل نفسه الصالح لا بعمل غيره ، وليس في الحديث تعرض لعمل الغير ، وقد رددنا على الشوكاني في تعليقنا على كتاب الدر النضيد ، فراجعه انتهى . إدارة الطباعة المنيرية .. فلاحظ هذا التعليق الموضوعى .

ولا ريب أن السبب الأعظم الذى نشأ عنه هذا الاعتقاد وهذه الغفلة هو ما زينه الشيطان للناس من رفع القبور وبناء القباب وصنع المقاصير وعمل التوابيت ووضع الستور عليها وتزيينها بأبلغ زينة وتحسينها على أكمل وجه ، فإن الجاهل إذا وقعت عينه علي قبر من القبور قد بنيت عليه قبة ، فدخلها ورأى علي القبور الستور الرائعة ، والسرج المتلألئة وقد صعدت حولها مجامير الطيب : فلا ريب أنه يمتلىء قلبه تعظيماً لصاحب هذا القبر ويضيق ذهنه عن تصور ما لهذا الولى من المنزلة ويدخله من الروع والمهابة له ما يغرس في قلبه من العقائد الوهمية التي هي من أعظم مكايد الشياطين للمسلمين وأشد وسائله إلي إضلال العباد مايزلزله عن الإسلام قليلاً قليلا حتي يطلب من صاحب هذا القبر ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وهذا عين الضلال » .

ثم يقول : « وقد يجعل الشيطان طائفة من بنى آدم ــ شياطين الإنس ــ يقفون علي ذلك القبر يخدعون من يأتي إليه من الزائرين يهولون عليهم الأمر ويصنعون أموراً من أنفسهم وينسبونها إلى صاحب الضريح علي وجه يخفى علي البسطاء .

وقد يختلقون من حكايات الكرامات له ما الله أعلم به ويبثونها في الناس ويكررونها في مجالسهم فتشيع وتستفيض ويتلقاها بقلب سليم من يحسن الظن بأصحاب الأضرحة ويقبل عقله ما يروى عنهم من الأكاذيب فيرويها كما سمعها ويتحدث بها في مجالسه فيقع البسطاء في بلية عظيمة من الاعتقاد ويزعم كثير من قصار النظر أن الأولياء يتصرفون بعد وفاتهم بنحو شفاء المريض وإنقاذ الغريق والنصر على الأعداء ورد الضائع وغير ذلك مما يكون في عالم الكون والفساد علي معنى أن الله تعالى فوض إليهم ذلك وتراهم لهذا يرفعون إليهم شكواهم في عرائض مكتوبة يضعونها في الأضرحة ، وربما كان صاحب هذا الضريح في حال حياته لا يستطيع الأخذ بيد المظلوم ، ولكن الناس بعد الممات يجعلون له التصرف في الملك والملكوت . وقد قال عيسى عليه السلام : ﴿ .. وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد ﴾[1] .

---

(١) المائدة : ١١٧ .

هذا .. مع ملاحظة أننا لا ننكر الكرامة لأنها من قبيل الجائز عقلاً ، وقد وقعت لأناس من الصالحين ونطق بوقوعها الكتاب العزيز — في شأن الذي مر علي قرية وهى خاوية على عروشها ، ومريم ، وأصحاب الكهف ، والذى عنده علم من الكتاب . وثبت أيضاً بالآثار الصحيحة لبعض الصحابة والتابعين والسلف الصالح من بعدهم رحم الله الجميع .

وأثبتن للأوليـاء الكرامـة ومن نفاها فانبذن كلامه

ونحن المؤمنين نحب الصالحين ونسأل الله تعالى دائماً وأبداً أن ينفعنا بهم ويحشرنا معهم ، لأنهم : ﴿ .. **أولياء الله** ﴾ الذين ﴿ .. **لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾(١) .

ولكننا في نفس الوقت نحبهم حباً إيجابياً لا سلبياً ، بمعنى أننا نتخلق بأخلاقهم ونتأدب بآدابهم ونسير علي نهجهم حتى نكون أهلاً للانتساب إليهم ، وحتى نحشر معهم وفى زمرتهم إن شاء الله تعالى .

أنـا وإن كرمت أوائلنـا لسنا على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعـل مثـل ما فعلـوا

* * *

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، ولتكن وسيلته دائماًوأبداًإلى الله تعالى ، هى عمله الصالح ، كما يشير قول الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون** ﴾(٢) .

وذلك لأن العمل الصالح هو السبيل إلى فلاحك ونجاحك في الدنيا والآخرة كما يشير قول الله تعالى :

﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾(٣) .

---

(١) يونس : ٦٢ ، ٦٣ . (٢) المائدة : ٣٥ .
(٣) النحل : ٩٧ .

ولا تنس في النهاية الوصية الجامعة التي قال فيها الحبيب المصطفى ﷺ لكل فرد مؤمن من أفراد أمته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، في شخص عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما[1] :

« احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشى لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح ، وفي رواية غير الترمذى : « احفظ الله تجده أمامك ، تعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا » .

* * *

مع ملاحظة أن معنى :

« احفظ الله » أى احفظ أوامره التي أوجبها ، ونواهيه التى حرمها فتقف عند أوامره بالامتثال ، وعند نواهيه بالاجتناب فلا يراك حيث نهاك : « يحفظك » في دنياك ودينك ونفسك وأهلك .

و «تجاهك» بضم التاء وكسرها وفتح الهاء : أي أمامك ، أي تجده معك بالحفظ والإحاطة والتأييد والإعانة . وخص الإمام من بين الجهات الست إشعاراً بشرف المقصد ، وبأن الإنسان مسافر إلى الآخرة غير مقيم في الدنيا ، والمسافر إنما يطلب أمامه لا غير .

« فاسأل الله » يعطك ما سألت فهو أحق أن يقصد ، فإن خزائن الجود بيده وأزمتها إليه . وكذلك لا تنسى المعنى المراد من قوله ﷺ :

---

(١) وقد كان خلف النبى ﷺ أى على بغلته كما جاء في نص الحديث .

« فاستعن بالله » : أى اطلب المعونة في تحصيل المؤونة الدنيوية والأخروية من الله إذ لا معين سواه والأسباب العادية هو الذى سببها فلا تعتمد بقلبك إلا على الذى خلقها وسخرها .

وتذكر دائماً وأبداً قول القائل :

وإذا لم يكن عون من الله للفتى　　فأول ما يجنى علي اجتهاده

وقول الآخر :

وإذا العناية لاحظتك عيونها　　نم فالمخاوف كلهن أمـــان

* * *

وليكن دعاؤك دائماً وأبداً ولا سيما عقب كل صلاة[1] ، هو :

« اللهم أعنى على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك »[2] آمين .

* * *

---

(١) أى في ختام الصلاة .

(٢) رواه أبو داوود والنسائى بإسناد صحيح .

الوصية السادسة والأربعون

عن أبي قِرْصافة .

أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

ابْنُوا ٱلْمَسَاجِدَ ، وَأَخْرِجُوا ٱلْقُمَامَةَ مِنْهَا ، فَمَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِداً بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ .

فقال رجل : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهَذِهِ ٱلْمَسَاجِدُ الَّتِي تُبْنَى فِي الطَّرِيقِ ؟

قال : نَعَمْ ، وَإِخْرَاجُ ٱلْقُمَامَةِ مِنْهَا مُهُورُ الْحُورِ الْعِينِ[1] .

رواه الطبراني في الكبير

(١) الحُور العِين : الحور جمع حوراء ، وهى الشديدة بياض العين والشديدة سوادها ، والعين جمع عيناء ، وهى الواسعة العينين.

● فلنكن إن شاء الله تعالى مِن عمّار المساجد بأموالنا وأنفسنا كلما كانت هناك دعوة إلى بنائها وكلما نادى المؤذن قائلاً :

حَيّ عَلَى الصَّلَاة . حَيّ عَلَى الفَلَاح

حتى نؤكد بهذا إيماننا فقد ورد فى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ المَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ .

ثم تلا قول الله تعالى :

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .

● ولنكن كذلك من المحافظين على نظافة المسجد وذلك بإخراج القمامة منه وجعلها ترغيباً لنا فى هذا أنه من مهور الحور العين فى الجنة إن شاء الله.

فكن أخا الإسلام :

من المنفذين لما أوصاك به الرسول ﷺ في هذه الوصية العظيمة .

وحسبك ترغيباً لك أولاً في :

فضل بناء المساجد
في الأمكنة المحتاجة إليها

أن تقرأ معى بفهم هذه الأحاديث الواردة :

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال عند قول الناس فيه[1] حين بنى مسجد رسول الله ﷺ : إنكم أكثرتم على[2] وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله[3] بنى الله له بيتاً في الجنة ، وفي رواية : بنى الله له مثله في الجنة » رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

وعن أبى ذر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من بنى لله مسجداً قدر مفحص قطاة[4] بنى الله له بيتاً في الجنة » رواه البزار واللفظ له ، والطبرانى في الصغير ، وابن حبان في صحيحه .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من بنى لله مسجداً يذكر فيه[5] بنى الله له بيتاً في الجنة » رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه .

وعن محمود بن لبيد ، عن عثمان بن عفان ، قال : سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) أى حين أنكروا عليه ما أحدثه في المسجد من توسيعه وتجصيصه وسقفه بخشب الساج .

(٢) أى أكثرتم من لومى وتثريبى بسبب ذلك .

(٣) يعنى يطلب به ثواب الله ورضاه .

(٤) مفحص القطاة : هو الموضع الذى تفحص عنه التراب لتبيض فيه .والمراد أنه صغير جداً .

(٥) أى بإقامة الصلوات الخمس فيه ، وتلاوة القرآن ومدارسته ، وعقد مجالس العلم والحديث .

يقول : « من بنى مسجداً لله ، بنى الله له مثله[1] في الجنة » حديث متفق علي صحته .

* * *

هذا .. وإذا كان النبي ﷺ قد أمر أو رغب في بناء المساجد ، فقد نهى في نفس الوقت عن زخرفتها :

فعن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أمرت بتشييد المساجد » وقال ابن عباس : لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى[2] .

والمراد من التشييد[3] : رفع البناء وتطويله ، ومنه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ في بروج مشيدة ﴾[4] وهي التي طال بناؤها ، يقال : شاد الرجل بناءه يشيده ، وشيده يشيده . وقيل : البروج المشيدة : الحصون المجصصة ، والشيد : الجص .

وأمر عمر ببناء مسجد ، وقال : أكن الناس من المطر ، وإياك أن تحمر وتصفر ، فتفتن الناس[5] .

وروى أن عثمان رأى أترجة من جص معلقة في المسجد فأمر بها فقطعت .

وقول ابن عباس : لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى ، معناه أن اليهود والنصارى إنما زخرفوا المساجد عندما حرفوا وبدلوا أمر دينهم ، وأنتم تصيرون إلي مثل حالهم ، وسيصير أمركم إلي المراءاة بالمساجد ، والمباهاة

---

(١) وهذا من باب التقريب ، وإلا فما في الجنة لا مثيل له ، فقد أعد الله تعالى لعباده الصالحين في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علي قلب بشر .

(٢) هو في سنن أبي داوود ص ٤٤٨ في الصلاة : باب في بناء المسجد ، وسنده صحيح ، وأخرج البخارى في صحيحه ١ / ٤٤٩ قول ابن عباس تعليقاً .

(٣) كما جاء في شرح السنة للبغوى ج ٢ .

(٤) النساء : ٧٨ .

(٥) علقه البخارى ١ / ٤٤٨ ، قال الحافظ وهو طرف من قصة تجديد المسجد النبوى .

بتشييدها وتزيينها .

قال أبو الدرداء : إذا حليتم مصاحفكم ، وزوقتم مساجدكم ، فالدمار عليكم .

وعن أنس ، أن النبي ﷺ ، قال : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد »[1] .

وعنه أيضاً ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أشراط الساعة أن يتباهى الناس فى المساجد »[2] .

ويقول صالح بن رستم : قال أبو قلابة :

غدونا مع أنس بن مالك إلى الزاوية ، فحضرت صلاة الصبح ، فمررنا بمسجد ، فقال أنس : لو صلينا في هذا المسجد ، فقال بعض القوم : حتى نأتى المسجد الآخر ، فقال أنس : أى مسجد ؟ قالوا : مسجد أحدث الآن ، فقال أنس : إن رسول الله ﷺ قال : « سيأتى على أمتى زمان يتباهون في المساجد ، ولا يعمرونها إلا قليلا »[3] .

* * *

وهذا الجزء الأخير في هذا الحديث الشريف ، وهو : « ولا يعمرونها إلا قليلا » هو ما أريد أن أركز عليه ، وذلك حتى لا يكون هناك تركيز علي زخرفة المساجدبتلك الصورة التي حولت أغلب المساجد إلى شبه « متاحف »

---

(١) أبو داوود في الصلاة (٤٤٩) : باب بناء المسجد ، وإسناده صحيح ، وصححه ابن حبان (٣٠٨) وأخرجه ابن ماجه (٧٣٩) في المساجد: باب تشييد المساجد .

(٢) رواه النسائى ٢ / ٣٢ في المساجد : باب المباهاة في المسجد ، والدارمى ١ / ٣٢٦ في الصلاة : باب تزويق المساجد ، وإسناده صحيح .

(٣) رجاله ثقات ، إلا أن صالح بن رستم كثير الخطأ ، وقدعلقه البخارى بنحوه ١ / ٢٤٩ من قول أنس ، وقال الحافظ : وهذا التعليق رويناه موصولاً في « مسند أبي يعلي » ، و « صحيح ابن خزيمة » من طريق ابن قلابة أن أنساً قال : سمعته يقول : « يأتي على أمتى زمان يتباهون بالمساجد ، ثم لا يعمرونها إلا قليلا » .

يؤمها أكثر الناس ـــ فضلاً عن غيرهم من الأجانب ـــ من أجل السياحة لا من أجل العبادة ، بل وبتلك الصورة التي قد تفسد صلاة أكثر المتعبدين فيها عندما يشغلون بما فيها من نقوش أثناء الصلاة .

ولهذا قال النووى في المجموع : يكره زخرفة المسجد ونقشه وتزيينه ، للأحاديث المشهورة ، ولئلا تشغل قلب المصلى .

وقال الأوزاعى : ينبغى أن يحرم لما فيه من إضاعة المال لا سيما إن كان من مال المسجد .

وقال ابن الحاج في المدخل : وينبغى للإمام أن يغير ما أحدثوه من الزخرفة في المحراب وغيره ، فإن ذلك من البدع ومن أشراط الساعة .

وقال ابن القاسم : وسمعت مالكاً يذكر مسجد المدينة وما عمل من التزويق في قبلته ، فقال : كره الناس ذلك حين فعل ، لأنه يشغلهم بالنظر إليه . وسئل مالك عن المساجد هل يكره أن يكتب في قبلتها بالصبغ مثل آية الكرسى و « قل هو الله أحد » والمعوذتين ؟ فقال : أكره أن يكتب في قبلة المسجد شيء من القرآن والتزويق ، وقال : إن ذلك يشغل المصلى ا . هـ .

مع ملاحظة : أن أول من زخرف المساجد هو الوليد بن عبد الملك ، وسكت عليه أهل العلم خوف الفتنة .

* * *

فعلى الإخوة المؤمنين الذين ينوون بناء المساجد أو المشاركة فيها أن يلاحظوا كل هذا ، حتي يتقبل الله منهم بناءها أو المشاركة في هذا البناء ، وحتى لا يكونوا سبباً في انشغال العباد أثناء الصلاة بسبب تلك الزخارف المبتدعة التي لاتمت إلى الهدف من بناء المساجد بصلة ، والتي تعتبر إسرافاً وتبذيراً ، وحسبهم أن يتذكروا دائماً وأبداً قول الله تعالى : ﴿**إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين**﴾[1]

---

(١) الإسراء : ٢٧ .

وقوله : ﴿ .. إنه لا يحب المسرفين ﴾[1] .

* * *

وليكن تركيزنا جميعاً نحن المؤمنين علي تعمير المساجد ، بمعنى أن نحافظ علي أداء الفرائض الخمس فيها ، كلما نادى المنادى قائلاً : « حى علي الصلاة .. حى علي الفلاح » .

* * *

وقد ورد الترغيب في :

فضل إتيان المساجد

فعن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، قال : « من غدا إلي المسجد أو راح ، أعد الله له نزلا[2] من الجنة كلما غدا أو راح » حديث متفق على صحته[3] .

وعن أبى موسى ، قال : قال النبى ﷺ : « أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى ، والذى ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذى يصلى ثم ينام » حديث متفق علي صحته[4] .

وعن أبى سعيد الخدرى ، أو عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله

---

(١) الأعراف : ٢١ .

(٢) النزل بضم النون والزاى : المكان الذي يهيأ للنزول فيه ، وبسكون الزال : ما يهيأ للقادم من الضيافة ونحوها .

(٣) البخارى ٢ / ١٢٤ من صلاة الجماعة : باب فضل من غدا إلي المسجد ومن راح ، ومسلم (٦٦٩) في المساجد : باب المشى إلى الصلاة تمحى به الخطايا .

(٤) البخاري ٢ / ١١٦ في صلاة الجماعة : باب فضل صلاة الفجر في جماعة ، ومسلم (٦٦٢) في المساجد : باب فضل كثرة الخطى إلى المساجد .

ﷺ : « سبعة يظلهم الله في ظله(١) يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ بعبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال ، فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » حديث متفق على صحته(٢) .

وعن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسة وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ ، فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلي المسجد لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة » حديث متفق على صحته(٣) .

وعن بريدة الأسلمي عن النبي ﷺ ، قال : « بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » حديث صحيح(٤) .

* * *

فإذا كان الترغيب المحمدى هذا سيكون سبباً إن شاء الله في حرصك على صلاة الجماعة في المسجد ، فإنني أحب بالإضافة إلي ما وقفت عليه أن أزودك كذلك ببعض المندوبات المتعلقة بهذا ، والتي منها :

---

(١) معناه : إدخاله إياهم في رحمته ورعايته ، وقيل : المراد منه ظل العرش .

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٦٦٥) في المساجد : باب فضل كثرة الخطى إلى المساجد .

(٣) البخارى ٢ / ١١٢ ، ١١٤ في الجماعة : باب فضل صلاة الجماعة ، وفي البيوع : باب ما ذكر في الأسواق ، وفي المساجد : باب الصلاة فى مسجد السوق ، ومسلم (٦٤٩) في المساجد : باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة .

(٤) رواه أبو داوود (٥٦١) في الصلاة : باب ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلام ، والترمذى (٢٢٣) في الصلاة : باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة .

١ ــ ما يقال عند الخروج إلى المسجد :

فقد روى عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من خرج من بيته إلي الصلاة ، فقال : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك[١] ، وبحق ممشاى[٢] هذا ، فإنى لم أخرج أشرا ولا بطرا[٣] ، ولا رياء ولا سمعة[٤] ، وخرجت اتقاء سخطك[٥] ، وابتغاء مرضاتك[٦] ، فأسألك أن تعيذني من النار ، وأن تغفر لى ذنوبي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت : أقبل الله عليه بوجهه ، واستغفر له سبعون ألف ملك » رواه ابن ماجه .

٢ ــ ما يسن لمن أراد دخول المسجد :

يسن لمن أراد دخول المسجد أن يتفقد نعليه ويمسح ما فيهما من أذى :

فعن أبي سعيد : أن النبي ﷺ ، قال : « إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر فإن رأى في نعليه قذراً أو أذى فليمسحه وليصل فيهما » أخرجه أبو داوود وغيره بسند صحيح وحسنه النووى .

٣ ــ ما يقال عند دخول المسجد والخروج منه :

ويسن لمن أراد دخول المسجد أن يدخل برجله اليمنى أولاً ، وأن يدعو بما في حديث من هذه الأحاديث الآتية :

عن أبي حميد وأبي أسيد[٧] أن النبي ﷺ ، قال : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك . وإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » أخرجه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه .

---

(١) أى يجيبهم بمقتضى وعده في قوله : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ (غافر : ٦٠) فهو حق أوجبه على نفسه
(٢) أى مكان التمشى أو موضع المرور .
(٣) الأشر والبطر بمعنى واحد وهو الطغيان وكفر النعمة .
(٤) السمعة : أى الشهرة وحسن الأحدوثة .
(٥) يعنى خوف الوقوع فيما يوجب سخطك ونقمتك .
(٦) أى طلباً لرضاك وحسن مثوبتك .
(٧) حميد وأسيد مصغران .

وكذا أبو داوود بلفظ : « إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم ليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك . وإذا خرك فليسلم على النبى صلى الله عليه وعلي آله وسلم وليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » وأخرجه أحمد والنسائى وابن حبان والبيهقي بلفظ :

« إذا دخل أحدكم المسجد فليصل على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك . وإذا خرج فليسلم على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » .

وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان إذا دخل المسجد ، قال : « بسم الله ، اللهم صل على محمد . وإذاخرج ، قال : بسم الله ، اللهم صل على محمد » أخرجه ابن السنى .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان إذا دخل المسجد ، قال : « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم . قال : فإذا قال ذلك ، قال الشيطان : حفظ منى سائر اليوم » أخرجه أبوداوود بسند جيد .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم** ﴾(١) ، قال : هو المسجد إذا دخلته فقل : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

مع ملاحظة : أن الخروج من المسجد يكون بالرجل اليسرى ، على أن تلبس النعال الأيمن قبل الأيسر .

٤ ــ تحية المسجد :

فإنه يطلب ممن دخل المسجد غير المسجد الحرام ألا يجلس حتى يصلى ركعتين تحية المسجد .

---

(١) النور : ٦١ .

فعن أبي قتادة أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « إذا جاء أحدكم المسجد فليصل سجدتين[1] من قبل أن يجلس » أخرجه السبعة[2] والبيهقي .

وكذا الأثرم في سننه بلفظ :

« أعطوا المساجد حقها . قالوا : وما حقها ؟ قال : تصلوا ركعتين قبل أن تجلسوا » وأخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين » .

وأخرجه البيهقي في السنن وابن عدى في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة بلفظ .

« إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين . وإذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين ، فإن الله جاعل له من ركعتيه في بيته أجراً » .

قال في الدين الخالص ج ٣ ص ٢٨٤ :

وهذه الأحاديث تدل علي مشروعية تحية المسجد فى كل وقت حتى وقت خطبة الجمعة . وبه قال الشافعية وابن عيينة وابن المنذر وداوود وإسحاق بن راهويه والحسن البصرى ، لعموم هذه الأحاديث ، ولحديث جابر بن عبد الله ، قال : جاء سليك الغطفاني يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخطب فجلس فقال له : « يا سليك .. قم فاركع ركعتين وتجوز فيهما ، ثم قال : إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما » أخرجه الشيخان ، وكذا الطبراني في الكبير بلفظ :

« صل ركعتين وتجوز فيهما. وإذا جاء أحدكم والإمام يخطب يوم الجمعة فليصل ركعتين وليخففهما » .

وأما أحاديث النهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب الشمس ، فمحمولة على ما لا سبب له من الصلوات لحديث أم سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ينهى

---

(١) أي ركعتين .

(٢) وهم أحمد والبخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجة .

عنها ــ أى عن الركعتين بعد العصر ــ ثم رأيته يصليهما . الحديث أخرجه الشيخان وأبو داوود مطولاً .. في بحث « قضاء الرواتب » .

وقال الحنابلة : تسن وقت الخطبة وتحرم في أوقات النهى ولا تنعقد .

وقال الحنفيون وابن سيرين وعطاء بن أبى رباح والليث وشريح والأوزاعى : تكره تحية المسجد في أوقات النهى وحال خطبة الجمعة .

وقال المالكية : تكره بعد صلاة الصبح والعصر وتحرم حال الخطبة ووقت طلوع الشمس وغروبها ، لحديث ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « إذا دخل أحدكم المسجد والإمام علي المنبر فلا صلاة ولا كلام حتى يفرغ الإمام » أخرجه الطبراني وفي سنده أيوب بن نهيك منكر الحديث ، وقالوا : أحاديث الأمر بالصلاة لدخول المسجد عامة مخصوصة بأحاديث النهى عن الصلاة في أوقات النهى ، ودعوى أن أحاديث النهى محمولة على ما لا سبب له ، لا دليل عليها ..

وصلاته ــ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ــ ركعتى الظهر بعد العصر مختصة به ، لقول أم سلمة قالت له: «أفنقضيها إذا فاتتا؟ قال: لا ». أخرجه أحمد والبيهقي مطولاً .. ولو سلم عدم الاختصاص لما كان في ذلك إلا جواز قضاء سنة الظهر لا جواز قضاء جميع ذوات الأسباب وأما أمره صلى الله عليه وعلي آله وسلم سليكاً بصلاة الركعتين ، فأجابوا عنه بوجوه كلها ضعيفة . ويعارضها ما تقدم في الحديث الصحيح عن جابر بن عبد الله من قوله صلى الله عليه وعلي آله وسلم : « إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما » أخرجه الدارقطنى ، وهو يرد ما قيل من أن قصة سليك واقعة عين لا عموم لها . وأقوى دليل لمن قال بعدم جواز الصلاة حال الخطبة حديث أبي هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت » أخرجه الجماعة[1] ، ووجه الدلالة أنه إذا منع من هذه الكلمة مع كونها أمراً بمعروف ونهياً عن منكر في زمن يسير وهو واجب ، فلأن يمنع من الركعتين مع كونهما

---

(١) وهم : مالك وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائى وابن ماجه .

مسنونتين وفي زمن طويل من باب أولى ، ورد : بأن هذا قياس في مقابلة النص فلا يعول عليه .

فالراجح القول بمشروعية تحية المسجد حال الخطبة ، ويؤيده أن النبى ﷺ قطع الخطبة وهى فرض وأمر سليكاً بالصلاة ، وهذا يدل دلالة قاطعة على تأكيد صلاة ركعتى التحية إذ معلوم أن الفرض وهو الخطبة لا يقطع إلا لفرض مثله أو لمتأكد فعله .

هذا .. ولا تفوت التحية بالجلوس ولو طال عند الحنفية والمالكية ، لما تقدم أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمر سليكا بالصلاة بعد جلوسه ، ولحديث أبى ذر أنه دخل المسجد فقال له النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « أركعت ركعتين ؟ قال : لا . قال : قم فاركعهما » أخرجه ابن حبان في « باب تحية المسجد لا تفوت بالجلوس » .

ثم يقول في « الدين الخالص » بعد أن ذكر آراء بقية الأئمة حول هذا الموضوع ، ما خلاصته :

قال في « الهدى » كان من هدى النبى ﷺ أن الداخل إلى المسجد يبتدىء بركعتين تحية للمسجد ثم يسلم على القوم ، فتكون تحية المسجد قبل تحية أهله ، فإن تلك حق الله تعالى ، والسلام على الخلق حق لهم ، وحق الله تعالى في مثل هذا أحق بالتقديم ، بخلاف الحقوق المالية فإن فيها نزاعاً معروفاً عند الفقهاء ، وكانت عادة القوم معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم هكذا يدخل أحدهم المسجد فيصلى ركعتين ثم يسلم على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ هذا ، وأن يلاحظ كذلك : أن ما تقدم من طلب صلاة تحية المسجد إنما هو في غير المسجد الحرام أما هو[1] فتحيته الطواف ، إلا لمن أراد الجلوس قبل الطواف ، فإنه يشرع له أن يصلى التحية .

وأنه يسن للقادم من سفر أن يبدأ بالمسجد فيصلى فيه ركعتين ، لقول

---

(١) أى المسجد الحرام .

كعب بن مالك : كان النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين . أخرجه الشيخان ، ولقول جابر : « كنت مع النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى غزاة واشترى منى جملاً بأوقية ثم قدم قبلى ، وقدمت بالغداة فوجدته على باب المسجد ، قال : الآن قدمت ؟ قلت : نعم . قال : فادخل فصل ركعتين » أخرجه الشيخان وأبو داوود والنسائى .

وينبغى لمن يدخل المسجد لصلاة أو غيرها أن ينوى الاعتكاف .

٥ ــ الجلوس في المسجد للطاعة :

فقد ورد أن السعى إلى المساجد والجلوس فيها للطاعة من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ، وذلك في عدة أحاديث منها :

حديث أبي هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « إن للمساجد أوتاداً(١) الملائكة جلساؤهم ، إن غابوا يفتقدونهم ، وإن مرضوا عادوهم ، وإن كانوا في حاجة أعانوهم » . وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « جليس المسجد على ثلاث خصال : أخ مستفاد ، أو كلمة محكمة ، أو رحمة منتظرة » .

أخرجه أحمد والمنذرى . وفي سنده ابن لهيعة ، متكلم فيه ، وأخرجه الحاكم دون قوله : جليس المسجد .. إلخ من حديث عبد الله بن سلام ، وقال صحيح على شرط الشيخين .

قال في الدين الخالص تعليقاً على هذا الحديث :

فقد دل الحديث على فضل من لازم المسجد ، وأنه لا يعدم صحبة أخ صالح يستفيد منه نصيحة أو مساعدة أو بيان آية قرآنية أو مسألة علمية ، أو رجاء رحمة من رب البرية ، فقد ثبت أن الجالس في المسجد تدعو له الملائكة بالمغفرة والرحمة ، ودل على أن الملائكة تجالسه ، فإن غاب بحثوا عنه ،

---

(١) الأوتاد : جمع وتد بكسر التاء وتفتح ، والمراد بهم من يكثرون الجلوس في المساجد للطاعة .
(٢) أصل الدراسة التعهد للشيء ، وذلك شامل لجميع ما يناط بالقرآن من التعليم والتعلم .

وإن مرض عادوه . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

وحديث أبي هريرة — أيضاً — أن النبي ﷺ ، قال : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطى إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » أخرجه مالك وأحمد والنسائي والترمذي .

وإذا كان الانتظار — في المسجد — من أجل انتظار الصلاة مع الجماعة ، فإنه من الخير كذلك أن يستغل وقت الانتظار هذا في حلقة من حلقات العلم النافع التي رغب النبي ﷺ في مدارسة العلم فيها ، فقال :

« .. ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه[1] بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده .. » الحديث رواه مسلم .

* * *

هذا .. وإذا كنت ستقيم في المسجد من أجل انتظار الصلاة ، أو من أجل العلم — كما عرفنا — فإنه ينبغي عليك أن تقف كذلك على :

ما تصان عنه المساجد

وذلك حتى تكون إن شاء الله تعالى من المؤمنين الذين يعملون على صيانتها من كل ما ينافي احترامها ، وما بنيت من أجله ، فإليك بعض ما أشار إليه — صاحب الدين الخالص ج ٣ — تحت هذا العنوان الذى وقفت عليه :

١ — يطلب صيانتها من الأقذار كالبول والحجامة والفصد والبزاق وغيرها ، لحديث أنس أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « إن هذه

(١) أصل الدراسة التعهد للشيء ، وذلك شامل لجميع ما يناط بالقرآن من التعليم والتعلم .

المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر ، إنما هي لذكر الله وقراءة القرآن » أخرجه مسلم .

قال النووى في المجموع : « ويحرم البول والفصد والحجامة في المسجد في غير إناء ، ويكره الفصد والحجامة فيه في إناء . وفي تحريم البول في إناء في المسجد وجهان ، أصحهما يحرم ، ويحرم إدخال النجاسة إلى المسجد ، فأما من على بدنه نجاسة أو به جرح ، فإن خاف تلويث المسجد حرم عليه دخوله ، وإن أمن لم يحرم » ا . هـ .

٢ ـــ ويلزم صيانة المسجد عن الروائح الكريهة ، فيحرم على من تناول ذا رائحة كريهة كثوم وبصل دخول المسجد قبل إزالتها ، لحديث جابر أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « من أكل الثوم والبصل والكراث ، فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » أخرجه الشيخان ، وكذا أحمد بلفظ : « من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا ، أو قال : فليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته » وأخرجه النسائي والترمذي .

والمراد : تناول ما ذكر وهونيىء لأنه ذو الرائحة الخبيثة المؤذية ، بخلاف ما إذا كان مطبوخاً فلا يشمله النهى ، لذهاب تلك الرائحة منه ، ولقول على رضى الله عنه : نهى عن أكل الثوم إلا مطبوخاً ، ولحديث معاوية بن قرة عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم نهى عن هاتين الشجرتين ـــ يعنى الثوم والبصل ـــ وقال : « من أكلهما فلا يقربن مسجدنا »... وقال : « إن كنتم لا بد آكليها فأنضجوهما طبخاً » أخرجهما أبو داوود .

٣ ـــ ويكره لمن به بخر وصنان قوي دخول المسجد وحضور الجماعات ، لما يترتب على ذلك من إيذاء الناس والملائكة ، بل ينبغى أن يحرم ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » أخرجه الشيخان من حديث جابر .

٤ ـــ ويكره إخراج الريح في المسجد اختياراً ، صوناً له عن الرائحة الكريهة ، ولما يترتب عليه من إيذاء من المسجد ، ولحديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الملائكة تصلى على أحدكم ما دام في مصلاه الذى

صلى فيه ما لم يحدث ، تقول : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه » أخرجه الشيخان ، وأبو داوود والنسائى ، وكذا ابن ماجه من حديث أبى صالح عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « إن أحدكم إذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذى صلى فيه ، يقولون : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ، اللهم تب عليه ، ما لم يحدث فيه ما لم يؤذ فيه » ، ولحديث أبى رافع عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « لا يزال العبد في صلاة ما دام في مصلاه ينتظر الصلاة ، تقول الملائكة : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه . حتى ينصرف أو يحدث ، فقيل: وما يحدث ؟ قال : يفسو أو يضرط »[1] أخرجه مسلم وأبو داوود .

٥ ــ ويكره تحريماً رفع الصوت في المسجد بنشد الضالة[2] ، لحديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد ، فليقل لا أداها الله إليك ، فإن المساجد لم تبن لهذا » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داوود وابن ماجه ، ولحديث بريدة الأسلمى أن رجلاً نشد في المسجد ، فقال : من دعا للجمل الأحمر بعد الفجر ؟ فقال النبى ﷺ : « لا وجدته لا وجدته ، إنما بنيت هذه المساجد لما بنيت له » أخرجه أحمد ومسلم وابن ماجه .

وفي الحديثين : دلالة على جواز الدعاء على ناشد الضالة في المسجد بعدم ردها إليه معاملة له بنقيض قصده حيث فعل ما لا يجوز فعله في المسجد من رفع الصوت بما لم يعد له المسجد من العبادة والذكر والصلاة وتعليم العلم ونحو ذلك ، فعن عاصم بن عمر بن قتادة أن عمر سمع ناساً من التجار يذكرون تجارتهم والدنيا في المسجد ، فقال إنما بنيت هذه المساجد لذكر الله ، فإذا ذكرتم تجارتكم ودنياكم فاخرجوا إلى البقيع .

---

(١) مضارع ضرط من باب تعب وضرب والاسم ضرط ككتف .

(٢) الضالة ، بتشديد اللام ، الضائعة من كل ما يقتنى . يقال ضل الشىء إذا ضاع ، وضل عن الطريق إذا حاد . وإنشادها ، تعريفها ، ونشدها طلبها .

أخرجه ابن أبي شيبة بسند جيد . قال ابن رسلان : « ويلحق بذلك من رفع صوته في المسجد بما يقتضى مصلحة ترجع للرافع صوته » ا . هـ .

ولذا قال الحنفيون : يحرم السؤال في المسجد مطلقاً ، لأنه كنشد الضالة ، ويكره الإعطاء فيه مطلقاً ، لأنه يحمل علي السؤال ، وقيل : يكره إعطاؤه إن تخطى الرقاب ، وقال أبو مطيع البلغى : لا يحل أن يعطى سؤال المساجد .

وقال الجمهور : يجوز السؤال في المسجد وإعطاء الصدقة فيه إلا إذا ألح السائح وتخطى الرقاب فيحرم السؤال والإعطاء ، واختار صاحب المحيط أنه إن سأل لأمر لا بد منه ولا ضرر فلا بأس وإلا كره .

أما الإعطاء بلا سؤال فهو جائز اتفاقاً ، فقد روى البيهقي أنه ﷺ أمر سليكاً الغطفاني بالصلاة يوم الجمعة حال الخطبة ليراه الناس فيتصدقوا عليه ، وأنه أمرهم بالصدقة وهو علي المنبر .

٦ ــ ولا يجوز رفع الصوت في المسجد ولو بالقرآن والذكر لقول أبى سعيد الخدري: اعتكف رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر وقال : « ألا إن كلكم مناج ربه ، فلا يؤذين بعضكم بعضاً ، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة » أخرجه أحمد وأبو داوود والنسائى والبيهقي والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

وعلى هذا اتفقت كلمة الفقهاء :

قال في الدر المختار : يحرم في المسجد رفع الصوت بذكر إلا للمتفقهة أ . هـ .

٧ ــ ويجب أن يصان المسجد عن دخول الصبيان والمجانين إذا خيف تلويثه ، لحديث واثلة بن الأسقع أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراركم » .. الحديث أخرجه ابن ماجه والمنذرى بسند ضعيف .

ولذا قال الحنفيون : يحرم إدخال الصبيان والمجانين المسجد إذا غلب تنجيسهم إياه وإلا فيكره .

وقال النووى في المجموع : ويكره إدخال البهائم والمجانين والصبيان الذين لا يميزون المسجد ، لأنه يخشى تلويثهم إياه . ولا يحرم ذلك لأنه ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلى حاملاً أمامة بنت زينب ، وطاف على بعيره . ولا ينفى هذا الكراهة ، لأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم فعله لبيان الجواز .أ . هـ .

٨ــ ويكره الاحتراف في المسجد بعمل دنيوى كخياطة وحياكة وغزل ونحوها .

قال القاضى عياض : والراجح منع الصنائع التي يختص بنفعها آحاد الناس ويكتسب بها . فلا يتخذ المسجد متجراً . وأما المثاقفة كإصلاخ آلات الجهاد ونحوها مما لا امتهان للمسجد في عمله فلا بأس أ . هـ .

وقال النووى في المجموع : يكره أن يجعل المسجد مقعداً لحرفة كالخياطة ونحوها ، لحديث أنس أن النبى ﷺ ، قال : « إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر ، إنما هى لذكر الله وقراءة القرآن » أخرجه مسلم . فأما من ينسخ فيه شيئاً من العلم أو اتفق قعوده فيه فخاط ثوباً ولم يجعله مقعداً للخياطة فلا بأس به أ . هـ .

٩ : ١٢ ــ وينبغي صيانة المسجد عن البيع والشراء وإنشاد الشعر والتحلق[١] يوم الجمعة ، لحديث أبى هرير أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « إذا رايتم من يبيع أو يبتاع في المسجد ، فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد فيه ضالة ، فقولوا : لا رد الله عليك ضالتك » أخرجه النسائى في عمل اليوم والليلة ، والترمذى وحسنه ، وابن حبان والحاكم وصححه .

---

(١) التحلق : جلوس الناس مستديرين على هيئة الحلقة ، ونهى عنه قبل صلاة الجمعة ، لما يترتب عليه من قطع الصفوف ..

ولحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ عبد الله بن عمرو ـ قال : نهى رسول الله ﷺ عن الشراء والبيع في المسجد وأن تنشد فيه الأشعار ، وأن تنشد فيه الضالة . ونهى عن التحلق(١) قبل الصلاة يوم الجمعة .

أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذى والنسائى . غير أن النسائى لم يذكر نشد الضالة ، وصححه الترمذى .

وقد أخذ الحنابلة بظاهر هذا الحديث وغيره : فأفتوا بحرمة البيع والشراء في المسجد ولا فرق عندهم بين المعتكف وغيره ولو قل البيع واحتيج إليه . قال أحمد : إنما هذه بيوت الله لا يباع فيها ولا يشترى ، وفي « كشاف القناع » : ورأى عمران القصير رجلاً يبيع في المسجد فقال : يا هذا إن هذا سوق الآخرة ، فإن أردت البيع فاخرج إلى سوق الدنيا ا . هـ .

هذا وإذا كان غير الحنابلة قد قالوا بكراهية البيع والشراء في المسجد لأسباب ذكروها ، وهى إذا عم المسجد وغلب عليه عند الأحناف ، ولغير المعتكف مطلقاً عند الشافعية ، وإذا كانا بغير رفع صوت ، وإلا فهو حرام عند المالكية لجعل المسجد سوقاً :

فإنه من الأحوط عدم الوقوع في هذه المخالفة لأن المساجد كما تبين لنا من خلال كل هذا ليست من أسواق الدنيا .

١٣ ـ وأما إنشاد الشعر في المسجد فالمنهى عنه ما كان على سبيل التفاخر والهجاء ومدح من لا يستحق المدح ، وذم من لا يستحق الذم .

أما ما فيه أمر بمعروف ونهى عن منكر وبيان لأحكام الدين وترغيب في العمل بها ، ومدح من يستحق المدح وذم من يستحق الذم وحث علي الزهد والمكارم ، فإنشاده في المسجد جائز حسن . وقد ورد ما يؤيد هذا في السنة ، فعن سعيد بن المسيب رضى الله عنه أنه قال : مر عمر بن الخطاب في المسجد وحسان فيه ينشد فلحظ(٢) إليه فقال : كنت أنشده فيه وفيه من هو خير

---

(١) التحلق : جلوس الناس مستديرين على هيئة الحلقة ، وينهى عنه قبل صلاة الجمعة ، لما يترتب عليه من قطع الصفوف ..

(٢) أى نظر إليه نظرة إنكار .

منك . ثم التفت إلى أبي هريرة فقال : أنشدك الله[1] أسمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : « أجب عني ، اللهم أيده بروح القدس[2] ؟ قال : نعم » أخرجه أحمد والشيخان .

ولقول عائشة : « كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ينصب لحسان منبراً في المسجد فيقوم عليه يهجو الكفار » أخرجه الترمذي وصححه ، والحاكم وقال صحيح الإسناد .

ومحل جواز إنشاد الشعر في المسجد — كما يقول في « الدين الخالص »[3] — : ما لم يشوش على مصل أو قارىء أو ذاكر وإلا منع مطلقاً .

١٤ — ويكره تحريماً إقامة الحدود في المسجد صوناً له وحفظاً لحرمته .

وقد ورد في هذا عن حكيم بن حزام أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « لا تقام الحدود في المساجد ولا يستقاد فيها »[4] أخرجه أحمد وأبو داوود والدارقطني والحاكم وابن السكن والبيهقي بسند لا بأس به . قاله الحافظ في التلخيص ، وقال في بلوغ المرام : إسناده ضعيف .

وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « لا تقام الحدود في المساجد ، ولا يقتل الوالد بالولد » أخرجه أحمد والحاكم والترمذي .

وبهذا قال الحنفية والشافعية : حملاً للنهي على الكراهة . وحمله المالكية والحنابلة على الحرمة ، فقالوا : يحرم إقامة الحدود والتعزير الشديد في المساجد .

١٥ — ويكره تحريماً إلقاء القمل ودفنه حياً في المسجد .

لحديث الحضرمي بن لاحق عن رجل من الأنصار أن رسول الله صلى الله

---

(١) أي أسألك بالله .

(٢) المراد بروح القدس بضمتين : جبريل عليه السلام .

(٣) ج ٣ ص ٣٢٣ الطبعة الأولى .

(٤) الاستقادة ، طلب القود وهو القصاص .

عليه وعلى آله وسلم ، قال : « إذا وجد أحدكم القملة في ثوبه فليصرها[1] ولا يلقها في المسجد » أخرجه أحمد بسند رجاله ثقات ، وأخرجه البيهقي بلفظ : « إذا وجد أحدكم القملة وهو يصلي فلا يقتلها ، ولكن يصرها حتى يصلي » .

أما دفنه في المسجد بعد قتله فلا بأس به :

لقول أبي مسلم : دخلت على أبي أمامة وهو يتفلى في المسجد ويدفن القمل في الحصى .. الحديث أخرجه أحمد والطبراني بسند جيد .

ولقول مالك بن يخامر : رأيت معاذ بن جبل يقتل القمل والبراغيث في المسجد . أخرجه الطبراني في الكبير بسند رجاله ثقات .

ولحديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « إذا وجد أحدكم القملة في المسجد فليدفنها أو ليمطها عنه » أخرجه الطبراني في الأوسط .

١٦ ــ ويكره أن يحفر في المسجد بئر لأنه لا يؤمن من دخول النساء والصبيان وتقذير المسجد ، إلا أن كان البئر قديماً كزمزم فإنه يترك .

١٧ ــ ويكره غرس الشجر في المسجد لأنه تشبيه له بالبيعة والكنيسة وفيه شغل لمكان الصلاة إلا أن تكون فيه منفعة للمسجد بأن كانت أرضه نزة[2] لا تستقر فيه الأعمدة فيغرس الشجر ليتحول إليه النز .

والخلاصة كما يقول في كشف القناع : يحرم غرس شجر في مسجد ، لأن منفعته مستحقة للصلاة ، فتعطيلها عدوان ، فإن فعل قلعت الشجرة فإن لم تقلع فثمرها للمساكين أ . هـ .

١٨ ــ ويكره تطيين المسجد وبناؤه وتجصيصه بطين ولبن[3] وجص

(١) يصرها بفتح فضم فشد الراء : أي فليقبض عليها في ثوبه حتي يخرجها من المسجد .
(٢) أي رطبة ينز منها الماء .
(٣) أي طوب اللبن الذي لم يحرق بالنار .

نجس وتنويره بزيت نجس . والظاهر التحريم في الكل قاله في كشف القناع .

١٩ ــ ويكره اللغط في المسجد وحديث الدنيا ، قال ابن الحاج في المدخل : إنما يجلس في المسجد للصلاة والتلاوة والذكر والتفكر أو تدريس العلم ، بشرط عدم رفع الصوت وعدم التشويش على المصلين والذاكرين .

وفي حديث ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « يأتي على الناس زمان يحلقون في مساجدهم وليس همهم إلا الدنيا ، وليس لله فيهم حاجة فلا تجالسوهم » أخرجه ابن حبان ، وكذا الحاكم من حديث أنس قال صحيح الإسناد .

والخلاصة كما يقول النووى في المجموع : يجوز التحدث بالحديث المباح في المسجد وبأمور الدنيا وغيرها من المباحات ، وإن حصل فيه ضحك ونحوه مادام مباحاً :

لحديث جابر بن سمرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يقوم من مصلاه الذى صلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام . قال : وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم . أخرجه مسلم أ . هـ .

٢٠ ــ ويكره لمن بالمسجد إسناد ظهره إلى القبلة ، بل السنة أن يستقبلها في جلوسه ، لحديث أبي هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلي آله وسلم ، قال : « إن لكل شيء سيداً ، وإن سيد المجالس قبالة القبلة » أخرجه الطبراني بسند حسن .

وحديث ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وعلي آله وسلم ، قال : « أكرم المجالس ما استقبل به القبلة » أخرجه الطبراني في الأوسط ، وأخرجه هو وابن عدى عن ابن عباس .

وعنه أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « أشرف المجالس ما استقبل به القبلة » أخرجه الطبراني .

٢١ ــ ولا يجوز أخذ شيء من أجزاء المسجد كحجر وحصاة وتراب

وغيرها كالزيت والشمع الذى يسرج فيه ، لحديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « إن الحصاة لتناشد[1] الذى يخرجها من المسجد » أخرجه أبو داوود .

ولقول سعيد بن جبير : « الحصاة تسب وتلعن من يخرجها من المسجد » .

وقول سليمان بن يسار : « الحصاة إذا خرجت من المسجد تصيح حتى ترد إلى موضعها » أخرجهما ابن أبى شيبة .

قال في « الدين الخالص » معقباً على هذا :

« وفي ذكر التنفير من إخراج الحصى من المسجد ، ومحله في المساجد غير المفروشة . أما المفروشة فيطلب تنقيتها من الحصى ونحوه . لما يترتب علي بقائها فيها من تعفيش المسجد وضرر المصلى بالسجود عليها » .

وقال في « كشف القناع » : ويكره في المسجد الخوض والفضول من الكلام وحديث الدنيا والارتفاق بالمسجد ، وإخراج حصاه وترابه للتبرك به وغيره ، ولا يستعمل الناس حصوه وقناديله وسائر ما وقف لمصالحه في مصالحهم كالأعراس والأعزية وغير ذلك ، لأنها لم توقف لذلك » ا . هـ . ملخصاً .

وقال : « وينبغى لمن أخذ شيئاً من المسجد مما يصان عنه ألا يلقيه فيه ، لأنه يطلب خلو المسجد منه بخلاف حصباء ونحوها من أجزاء وتراب المسجد وطينه ، لأن استبقاء ذلك فيه مطلوب » أ . هـ .

٢٢.ـــ ويمنع الناس في المساجد من استطراق[2] حلق الفقهاء والقراءة صيانة لحرمتها .

---

(١) أى تسأل وتقسم علي من يخرجها من المسجد أن لا يخرجها منه لأنها لا تحب مفارقته ، لأنه محل العبادة والرحمة .

(٢) أى المرور من وسط الحلقة التي يدرسون فيها .

وفي الحديث : « لا حمى إلا في ثلاثة : البئر والفرس وحلقة القوم » أخرجه القاضى عياض مرسلاً بسند جيد .

فأما حمى البئر فهو منتهى حرمها . وأما طول الفرس فهو ما دار عليه برسنه(١) إذا كان مربوطاً . وأما حلقة القوم فهو استدارتهم في الجلوس للتشاور .

٢٣ ـــ ويكره لمن بالمسجد ينتظر الصلاة تشبيك أصابعه :

لقول أبي سعيد الخدرى : دخلت المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فإذا رجل وسط المسجد محتبياً مشبكاً أصابعه بعضها في بعض ، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فلم يفطن الرجل لاشارته فالتفت صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى أبي سعيد فقال : « إذا كان أحدكم في المسجد فلا يشبكن فإن التشبيك من الشيطان ، وإن أحدكم لا يزال في صلاة ما كان فى المسجد حتى يخرج منه » أخرجه أحمد بسند حسن .

قال في « الدين الخالص » : وحكمة النهى عن التشبيك أنه من الشيطان ، وأنه يجلب النوم وهو من مظان الحدث ، وأن صورته تشبه صورة الاختلاف المنهى عنه بقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم للمصلين : « ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم » .

٢٤ ـــ ويكره تحريماً اتخاذ المسجد طريقاً لغير عذر ، كأن لا يجد طريقاً غيره أو يكون إماماً به إلى المسجد :

لقول النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « لا يبقين في مسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر » أخرجه الشيخان(٢) .

وقال المالكية: يكره كثرة المرور فيه إن كان بناؤه سابقاً على الطريق وإلا فلا كراهة .

---

(١) البرسن بفتحتين : الحبل .

(٢) هو بعض حديث لفظه عند البخارى عن أبي سعيد الخدرى .

وقال الحنفيون : يفسق من اعتاد المرور فيه لغير عذر بلا نية اعتكاف ، بخلاف ما لو مر فيه مرة أو مرتين أو نوى الاعتكاف فلا يفسق .

وقال الحنابلة : يكره اتخاذه طريقاً للطاهر والجنب . وكذا الحائض إن أمن تلويثه إلا لحاجة . ومنها كونه طريقاً قريباً .

وقال الشافعية : يجوز المرور فيه للطاهر مطلقاً وللجنب لحاجة وإلا كره كما يكره للحائض ولو لحاجة إن أمنت تلويث المسجد وإلا حرم .

* * *

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ كل هذا وأن يعمل على تنفيذه حتي يكون من المؤمنين الذين يصونون المساجد ، والذين يعرفون حرمتها .

مع ملاحظة كذلك أنه يلزم تطهير المساجد من أدران المحدثات والعوائد .

ولهذا ، فإنني أريد أن أذكرك بالإضافة إلى ما وقفت عليه بما ذكره الإمام محمود خطاب السبكى في الدين الخالص ج ٣ ، تحت عنوان :

بدع المساجد

وهى كثيرة كاتخاذ المحاريب فيها ، وزخرفتها ، وتعدد الجماعة فيها ، .. ثم قال : ومنها :

١ ــ **كثرتها في البلد لغير حاجة** .. لأنه كما يقول : يجب بناء المساجد في الأمصار والقرى وغيرها بحسب الحاجة ، وهى أحب البقاع إلى الله تعالى ، وأبغضها إلى الله الأسواق .

ومن المحدث : كثرة المساجد في الجهة الواحدة لغير حاجة ، لما فيه من تفريق الجمع ، وتشتيت شمل المصلين ، وتعديد الكلمة وفوات حكمة مشروعية الجماعة . وهى اتحاد الكلمة وائتلاف القلوب والتعاون والتعاضد . قال في « كشف القناع » : ويحرم أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد إلا لحاجة كضيق الأول وخوف فتنة باجتماعهم في مسجد واحد أ . هـ .

وقال في « المنتهى » : ويحرم بناء مسجد يراد به الضرر لمسجد يقربه .. أ . هـ .

٢ ــ غلق المساجد : لأن المساجد بنيت للطاعة في كل وقت ، والجلوس فيها مستحب للعبادة كاعتكاف وقراءة قرآن أو علم وسماع موعظة وانتظار صلاة .

وعليه : فالسنة فتح المساجد في كل الأوقات إلا لضرورة كما كان الحال في عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم والخلفاء الراشدين والسلف الصالح ، وأما غلقها نهاراً في غير أول الوقت فبدعة ممنوعة قد تؤدى إلى تضييع الصلاة ، فإنه لا يتيسر لكل واحد الذهاب إلى المسجد في أول الوقت . وفي غلقها صد عن سبيل الله وسعى في خراب المساجد مما بنيت له ، قال تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها** ﴾[١] .

ومن التخريب : منع المصلين والمتعبدين من دخولها . وقد نشأ من ذلك بدعة أخرى مذمومة ، وهى ما اعتاده خدم المساجد من طرد المصلين أو طلاب العلم بعد صلاة العشاء . ومن كان في صلاة ألجأوه إلى تخفيفها ، وفي هذا تهويش على المتعبدين وصد عن طاعة الله ، قال في « البحر الرائق » : « وكره غلق باب المسجد لأنه يشبه المنع من الصلاة . وقيل : لا بأس به إذا خيف علي متاع المسجد » أ . هـ .

أما غلقها لضرورة كخوف امتهانها وخشية ضياع شيء منها ، فجائز إن لم تدع حاجة إلى فتحها كتعليم العلم أو وجود معتكف فيها يتأذى بغلقها ، وإلا حرم إلا أن تيقن امتهانها أو ضياع شيء من أثاثها ، فيجوز غلقها حينئذ . فإن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

قال النووى في « المجموع » : « لا بأس بإغلاق المسجد في غير وقت الصلاة لصيانته أو لحفظ آلاته ، هكذا قالوا . وهذا إذا خيف امتهانها وضياع ما فيها ولم يدع إلى فتحها حاجة . أما إذا لم يخف من فتحها مفسدة ، ولا انتهاك حرمتها وكان في فتحها رفق بالناس فالسنة فتحها » أ . هـ .

---

(١) البقرة : ١١٤ .

وقال في « كشف القناع » : « ويباح غلق أبوابه في غير أوقات الصلاة ، لئلا يدخله من يكره دخوله إليه كمجنون وسكران وطفل لا يميز » أ . هـ .

٣ ـــ الرقص والغناء : وفي ذلك يقول السيوطى في كتاب الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع : ومن ذلك ـــ يعنى المحدثات ـــ : الرقص والغناء في المساجد وضرب الدف أو الرباب وغيرهما من آلات الطرب ، فمن فعل ذلك في المسجد فهو مبتدع ضال مستحق للطرد والضرب ، لأنه استخف بما أمر الله بتعظيمه ، قال تعالى : ﴿ **في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه** ﴾[١] أى يتلي فيها كتابه ، وبيوت الله هى المساجد . أ . هـ .

٤ ـــ ومن ذلك وضع كرسى مرتفع في المسجد : يتلى عليه شيء من القرآن بصوت مرتفع يوم الجمعة وقبل إقامة الصلاة في غيرها ، فيحصل من التشويش على المصلين مما لا يمكن معه أداء الصلاة على وجهها .

قال ابن الحاج في المدخل : ومن هذا الباب الكرسى الكبير يوضع في الجامع لكى يقرأ القارىء عليه ولا ضرورة تدعو لذلك لوجهين :

الأول : أنه يشغل من المسجد موضعاً كبيراً وهو وقف على المصلين .

الثاني : أنهم يقرأون عند اجتماع الناس لانتظار الصلاة ، فمنهم المصلى ، ومنهم التالي ، ومنهم الذاكر ، ومنهم المفكر . فإذا قرأ القارىء قطع عليهم ما هم فيه ، وقد نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن رفع الصوت بالقراءة في المسجد بقوله : « لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن »[٢] وهو نص في عين المسألة . أ . هـ . بتصرف .

٥ ـــ الاحتفال فيها بالمولد وغيره :

وذلك كما يقول في الدين الخالص : لأنه قد جرت العادة بالاحتفال

---

(١) النور : ٣٦ .

(٢) هو بعض حديث أخرجه أحمد والبزار والطبراني بسند صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما .

بالمولد وغيره في المساجد ، وهو أمر محدث قبيح لم يقع من السلف ولم يستحسنوه ، وفيه عدة مفاسد :

منها : إضاعة الأموال بكثرة الوقود في المساجد وإيقاد المصابيح في الأضرحة ، وهو من الإسراف والتبذير المنهى عنه .

وفى الحديث : « إن الله كره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » أخرجه الشيخان عن المغيرة بن شعبة .

وقد أشار النووي إلى هذا فقال في المجموع : من البدع المنكرة ما يفعل في كثير من البلدان من إيقاد القناديل الكثيرة العظيمة السرف في ليال معروفة من السنة كليلة نصف شعبان ، فيحصل بسبب ذلك مفاسد كثيرة .

منها : مضاهاة المجوس في الاعتناء بالنار والإكثار منها .

ومنها: إضاعة المال في غير وجهه .

ومنها : ما يترتب علي ذلك في كثير من المساجد من اجتماع الصبيان وأهل البطالة ولعبهم ورفع أصواتهم وامتهانهم المساجد وانتهاك حرمتها وحصول أوساخ فيها وغير ذلك من المفاسد التي يجب صيانة المسجد من أفرادها . أ . هـ .

ومنها : استعمال الأغانى وآلات الطرب على الوجه المحرم بالإجماع .

ومنها : قراءة القرآن على غير الوجه المشروع فيرجعون فيه كترجيع الغناء ، ولا يراعون فيه ما يجب له من الاستماع والإنصات والاحترام ، وهو مخالف لما وصف الله به المؤمنين في قوله : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ..** ﴾[1] .

وقوله : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ..** ﴾[2] .

---

(١) الأنفال : ٢ .
(٢) المائدة : ٨٣ .

ومنها : إقامة حلقات الذكر المحرف في المساجد مع ارتفاع أصوات المنشدين والتصفيق الحاد من رئيس الراقصين ، وقد يضربون على البازة ونحوها أثناء الذكر وفي المسجد ، وكل هذا ممنوع بإجماع العلماء ، ولم يكن في عهد السلف الصالح .

ومنها : اتخاذ قبور الأنبياء والأولياء عيداً وهو ممنوع شرعاً ، لحديث أبي هريرة أن النبى ﷺ ، قال : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا على أينما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » أخرجه أبو داوود بسند حسن .

٦ ــ **ومن البدع المذمومة** : زيادة النور في المساجد والمآذن ليلة أول جمعة من رجب ، وليلة السابع والعشرين منه ، وليلة نصف شعبان ، وليالي رمضان ، وليلتى العيد وغيرها من ليالى المواسم المحدثة ، فإنها إسراف وتبذير لم يكن في زمن السلف الصالح(١) .

* * *

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ كل هذا حتى لا يقع فيه ، وحتى يكون كذلك من المؤمنين المعمرين لبيوت الله المحافظين على حرمتها على أساس من هذا الفقه الذى وقفنا عليه والذى أرجو أن يكون دائماً وأبداً في ذاكرتنا ونصب أعيننا .

* * *

وإذا كان النبى ﷺ قد رغبنا ــ كما جاء في نص الوصية التي ندور حولها ــ في إخراج القمامة من المساجد ، فقال : « وإخراج القمامة منها مهور الحور العين » :

---

(١) وهناك بدع أخرى تستطيع أن تقف عليها وبتوسع في الدين الخالص ج ٣ ، والإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ رحمه الله .

فإنني أرى الآن أن أقف معك أولاً على أهم ما يتعلق بالحور العين ، وهو : ما ذكره القرطبي في كتابه « التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة » حيث يقول ما مضمونه :

أن الآدميات في الجنة على سن واحد وأما الحور العين فأصناف مصنفة صغار وكبار على ما اشتهت أنفس أهل الجنة .

ثم يروى بعد ذلك حديثاً رواه الترمذى عن على رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها ، قال يقلن : نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له » . وفي الباب : عن أبي هريرة وأبي سعيد وأنس قال أبو عيسى : حديث على حديث غريب .

وقالت عائشة رضي الله عنها : أن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا : نحن المصليات وما صليتن ، ونحن الصائمات وما صمتن ، ونحن المتوضئات وما توضأتن ، ونحن المتصدقات وما تصدقن . قالت عائشة : فغلبنهن . والله أعلم .

وذكر ابن وهب عن محمد بن كعب القرظى أنه قال : والله الذى لا إله إلا هو لو أن امرأة من الحور العين أطلعت سوارها من العرش لأطفأ سوارها نور الشمس والقمر فكيف المسوَّرة وأن ما خلق الله شيئاً تلبسه إلا عليه مثل ما عليها من ثياب وحلى .

وقال أبو هريرة : إن في الجنة حوراء يقال لها العيناء ، إذا مشت مشي حولها سبعون ألف وصيف « عن يمينها وعن يسارها كذلك » وهى تقول : أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟ .

وقال ابن عباس : إن في الجنة حوراً ، يقال لها لعبة لو بزقت في البحر لعذب ماء البحر كله ، مكتوب على نحرها : من أحب أن يكون له مثلى فليعمل بطاعة ربي عز وجل .

وروى عن النبى ﷺ أنه وصف حوراء ليلة الإسراء فقال : ولقد رأيت جبينها كالهلال في طول البدر منها ألف وثلاثون ذراعاً ، في رأسها مائة ضفيرة ما بين الضفيرة والضفيرة سبعون ألف ذؤابة ، والذؤابة أضوأ من البدر مكلل بالدر وصفوف الجواهر ، على جبينها سطران مكتوبان بالدر والجواهر ، في السطر الأول : بسم الله الرحمن الرحيم . وفي السطر الثانى : من أراد مثلى فليعمل بطاعة ربي . فقال جبريل : يا محمد هذه وأمثالها لأمتك ، فأبشر يا محمد وبشر أمتك وأمرهم بالاجتهاد .

* * *

وهذا الذى قاله جبريل عليهْ السلام لنبينا محمد ﷺ هو وأمثاله من الأعمال الصالحة : مهور الحور العين وإلى هذا يشير الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون ﴾[1] .

فـ « مطهرة » : نعت للأزواج ، ومطهرة في اللغة : أجمع من طاهرة وأبلغ ، ومعنى هذه الطهارة من الحيض والبصاق وسائر أقذار الآدميات . ذكر عبد الرزاق ، قال : أخبرني الثورى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد : مطهرة ، قال : لا يبلن ولا يتغوطن ولا يلدن ولا يحضن ولا يمنين ولا يبصقن .

وقد ذكر القرطبي في كتابه « التذكرة » بعض الأخبار التي منها : ما روى عن ثابت أنه قال : كان أبي من القوامين لله في سواد الليل ، قال : رأيت ذات ليلة في منامي امرأة لا تشبه النساء ، فقلت لها : من أنت ؟ فقالت : حوراء أمة الله ، فقلت لها : زوجيني نفسك ، فقالت : اخطبني من عند ربي وأمهرني ، فقلت : وما مهرك ؟ فقالت : طول التهجد .

---

(١) البقرة : ٢٥ .

وأنشد في هذا :

يا خاطب الحوراء في خدرها	وطالباً ذاك على قدرهـا
انهض بجد لا تكـن وانيـا	وجاهد النفس علي صبرها
وجـانب النـاس وارفضهـم	وحالف الوحدة في ذكرها
وقم إذا الليل بدا وجهه	وصم نهاراً فهو من مهرها
فلـو رأت عيناك إقبـالا	وقد بدت رمانتا صدرهـا
وهـى تماشى بين أتـرابها	وعقدهـا يشرق في نحرهـا
لهان في نفسك هذا الذى	تراه في دنياك من زهرها

* * *

فلتذكر أخا الإسلام كل هذا ، ولتكن من المؤمنين عمارى المساجد الذين يحرصون على إخراج القمامة منها حتى يفوزوا بالحور العين ، اللاتى يقلن كما ورد في حديث شريف(١) : « نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، ونحن المقيمات فلا نظعن ، طوبى لمن كان لنا وكنا له » .

* * *

وليذكر كذلك هذا الحديث القدسي الذى جاء فيه :

« إن بيوتى في الأرض المساجد وزوارى فيها عمارها ، فطوبي لمن تطهر في بيته وزارني في بيتى ، وحق على المزور أن يكرم زائره » .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من عباده المؤمنين المعمرين لبيوته المكرمين برحمته ومغفرته .. آمين .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في صفة أهل الجنة بسند ضعيف .

الوصية السابعة والأربعون

عن معدان بن أبي طلحة رضي الله عنه قال :
لقيت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقلت :

أخبرني بعمل أعمله يدخلني الجنة [1]

أو قال قلت :

بأحب الأعمال إلى الله

فسكت . ثم سألته فسكت . ثم سألته الثالثة
فقال :
سألت ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

عليك بكثرة السجود ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط بها عنك خطيئة .

رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه

(١) يُدخِلني اللّه بهِ الجَنَّة : أى بسببه . والمراد أن الأعمال أمارات فقط . ودخول الجنة إنما هو بمحض فضل الله ورحمته .

- وقد ورد فى الحديث الشريف عن حنظلة الكاتب رضى الله عنه قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عَليه وَسلّم يقول :

مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ رُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيتِهِنَّ وَعَلِمَ أَنَّهُنَّ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ دَخَلَ الجَنَّةَ . أو قال : وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ . أو قال : حُرِّمَ عَلَى النَّارِ .

رواه أحمد بإسناد جيد

- فلنكن إن شاء الله تعالى من المحافظين على الصلوات الخمس حتى نكون أهلاً لدخول الجنة مع الذين أنعم الله عليهم .

فكن أخا الإسلام :

كهذا الصحابي الموفق الذى سأل رسول الله ﷺ عن العمل الذي به أو بسببه يكون أهلاً لدخول الجنة التي فيها لعباد الله الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

* * *

وإذا كان الصحابي الجليل قد سأل عن هذا الخير ، أو عن أحب الأعمال إلى الله تبارك وتعالى ، ثم أجابه الرسول ﷺ بعد ذلك بقوله : « عليك بكثرة السجود .. » .

فإن المراد بالإكثار من السجود هو الصلاة التى هى خير الأعمال وأحبها إلى الله :

فعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ ، قال : « ما أذن الله لعبد فى شيء أفضل من ركعتين يصليهما ، وإن البر ليذر(٢) فوق رأس العبد ما دام في صلاته » الحديث رواه أحمد والترمذى وصححه السيوطي.

وقال مالك في الموطأ : بلغنى أن النبى ﷺ ، قال : « استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

* * *

وإذا كانت كثرة السجود في الصلاة ــ فرضها ونفلها ــ من الأعمال الموصلة إلى الجنة : فقد ورد هذا ــ بضمان الرسول ﷺ ــ :

---

(١) أى ينثر .

عن ربيعة بن مالك الأسلمى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « سل » فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة ، فقال : « أو غير ذلك » ؟ قلت : هو ذاك قال : «فأعني على نفسك بكثرة السجود » رواه مسلم .

وجملة : « فأعنى علي نفسك بكثرة السجود » : معناها أنه لا بـد أن يجد ويجتهد في تحقيقه ، وذلك بالإكثار من التقرب إلى الله تعالى بالصلوات فرضها ونفلها .. ولا بـد أن يستعين بالله تعالى على هذا ، لأنه كما يقول الشاعر :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

روى البخارى في صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، عن ربه عز وجل ، قال : « من عادى لى ولياً ، فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

والفرائض : هى كل ما أوجبه الله على عباده ، والصلاة من أعظمها .

والنوافل : ما زاد على الفرائض ، والصلاة في بابها من أعظمها أيضاً .

قال النبراوى في شرح الأربعين النووية :

.. وأما الأفضل على الإطلاق بعد الشهادتين ، فهو الصلاة عندنا ، فنفلها أفضل النوافل ، وفرضها أفضل الفروض ، لما صح من قوله ﷺ : « الصلاة خير موضوع[1] ، فمن شاء استكثر ومن شاء استقل » أخرجه ابن حبان والحاكم .

والصلاة — في نظر الإسلام — هى الحد الفاصل بين المسلم والكافر ،

---

(١) أى خير شيء وضعه الشارع .

والبار والفاجر ، وإنها من الإسلام بمنزلة الرأس من الجسد ، فمن أداها كما ينبغي ، فهو مسلم بار ، ومن تركها فهو كافر فاجر .

روى الطبراني في الأوسط بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهور له ، ولا دين لمن لا صلاة له ، إنما موضع الصلاة من الدين ، كموضع الرأس من الجسد » .

والصلاة نور يتلألأ في قلب المؤمن ، ويسطع علي وجهه ، وينعكس على جوارحه .. نور يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، نور يمشي به المؤمن في الناس ، فيرى به ما لا يراه الناظرون ، نور يسعى بين يديه ، وعن يمينه يوم القيامة :

قال رسول الله ﷺ : « الطهور[١] شطر[٢] الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن — أو تملأ — ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها » رواه مسلم .

وروى ابن حبان بإسناد حسن ، عن أبي الدرداء رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « من مشى في ظلمة الليل إلي المساجد آتاه الله نوراً يوم القيامة » .

وروى الطبراني عن أبي الدرداء — أيضاً — أن رسول الله ﷺ ، قال : « من مشى في ظلمة الليل إلى المسجد ، لقي الله عز وجل بنور يوم القيامة » .

* * *

---

(١) الطهور — بضم الطاء — معناه : التطهر ، وأما الطهور — بفتح الطاء — فهو : ما يتطهر به من ماء أو تراب .

(٢) الشطر هو : النصف .

وأنت كمسلم[1] بالغ عاقل : مطالب شرعاً ـــ فقط ـــ بأداء ما فرض الله عليك من الصلوات :

كالصلوات الخمس والجمعة :

لحديث طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه ، قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ من قبل نجد ثائر الرأس يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : « خمس صلوات في اليوم والليلة ، قال : هل على غيرهن ؟ قال : لا .. إلا أن تطوع »[2] الحديث أخرجه مالك والشيخان .

ولهذا .. فإننى أحب أن أذكرك إتماماً للفائدة ، بأقسام الصلاة :

وهى ثلاثة عند الأحناف : فرض ، وواجب ، ونفل .. وهو يشمل المسنون والمندوب .

وعند غيرهم : فرض ونفل .

فالفرض قسمان :

أ ـــ عيني وهو ما يلزم بتحصيله كل من كُلف به ، كالصلوات الخمس والجمعة .

ب ـــ وفرض كفائي وهو ما يلزم تحصيله في ذاته ، فإن أداه البعض سقط الطلب عن الجميع ، كصلاة الجنازة وإلا أثم الكل .

والواجب قسمان :

أ ـــ واجب لعينه وهو ما لا يتعلق وجوبه بعارض كالوتر وصلاة العيدين وسجدة التلاوة .

ب ـــ واجب لغيره وهو ما يتعلق وجوبه بعارض كسجدتى السهو وركعتى الطواف وقضاء نفل أفسده والمنذور .

---

(١) أو مسلمة بالغة عاقلة .

(٢) تطوع ، بتشديد الطاء والواو ، أصله تتطوع بتاءين أدغمت ثانيتهما في الطاء ، ويجوز تخفيف الطاء بحذف إحدى التاءين .

والنفل قسمان : مؤكد كركعتى الفجر ، وغير مؤكد كأربع قبل العصر .

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ هذا ، حتى يعرف الفرق بين الفرض والواجب والسنة وحتى يكون كذلك متفقهاً في دينه .

* * *

وعليه كذلك أن يلاحظ أنه مطالب ــ خدمة لنفسه ــ بالإضافة إلى أدائه للصلوات الخمس أداء متقناً : بالإكثار من التطوع ، وذلك حتى يجبر ما عسى أن يكون قد وقع في الفرائض من نقص :

فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ، يقول ربنا لملائكته وهو أعلم : انظروا في صلاة عبدى أتمها أم نقصها ؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً قال : انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فإن كان له تطوع ، قال : أتموا لعبدى فريضته من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك » رواه أبو داوود .

* * *

والتطوع ينقسم إلى تطوع مطلق ، وإلى تطوع مقيد .

أما التطوع المطلق ، فإنه يقتصر فيه على نية الصلاة ، قال النووى : فإذا شرع في تطوع ولم ينو عدداً فله أن يسلم من ركعة وله أن يزيد فيجعلها ركعتين أو ثلاثاً أو مائة أو ألفاً أو غير ذلك . ولو صلى عدداً لا يعلمه ثم سلم صح بلا خلاف .. اتفق عليه أصحابنا ونص عليه الشافعى في الإملاء .

وروى البيهقي بإسناده أن أبا ذر رضى الله عنه صلى عدداً كثيراً فلما سلم قال له الأحنف بن قيس رحمه الله : هل تدرى انصرفت على شفع أم على وتر ؟

قال : إن لا أكن أدرى فإن الله يدرى ، إنى سمعت خليلى أبا القاسم ﷺ يقول : « ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة » رواه الدارمي في مسنده بسند صحيح إلا رجلاً اختلفوا في عدالته .

وأما التطوع المقيد فإنه ينقسم إلي ما شرع تبعاً للفرائض ويسمى السنن الراتبة ، ويشمل سنة الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء وقد ورد في هذا عدة أحاديث ، منها ما ورد(١) :

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : حفظت من النبى ﷺ عشر ركعات : « ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب في بيته ، وركعتين بعد العشاء في بيته ، وركعتين قبل صلاة الصبح » رواه البخارى .

وعن المغيرة بن سليمان ، قال : سمعت ابن عمر يقول : « كانت صلاة رسول الله ﷺ أن لا يدع ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل الصبح » رواه أحمد بسند جيد .

وعن أم حبيبة بنت أبي سفيان أن النبى ﷺ ، قال : « من صلى في يوم وليلة اثنتى عشرة ركعة بنى له بيت في الجنة : أربعاً قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل صلاة الفجر » رواه الترمذى وقال حسن صحيح ، ورواه مسلم مختصراً .

وهذا بالنسبة للسنن المؤكدة(٢) ، أما بالنسبة لغير المؤكدة(٣) ، فقد ورد كذلك فيها :

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله

---

(١) كما جاء في فقه السنة ج ٢ .

(٢) السنة المؤكدة : هى ما ثبتت مواظبة النبى ﷺ عليها ، واشتد إلحاحه في طلبها ، ورغب فيها ، مع عدم وجود ما يدل علي وجوبها .

(٣) وغير المؤكدة : هى التي تركها النبى في بعض الأحيان ولم يرغب فيها كثيراً ، ويسميها بعض الفقهاء : مندوباً ، أو مستحباً .

امرءاً صلى قبل العصر أربعاً » رواه أحمد وأبو داوود والترمذى وحسنه وابن حبان وصححه ، وكذا صححه ابن خزيمة .

وروى البخارى عن عبد الله بن مغفل أن النبى ﷺ قال : « صلوا قبل المغرب ، صلوا قبل المغرب » ثم قال في الثالثة : « لمن شاء » كراهية أن يتخذها الناس سنة .

وفي رواية لابن حبان : أن النبى ﷺ صلى قبل المغرب ركعتين . وفي مسلم عن ابن عباس ، قال : كنا نصلى ركعتين قبل غروب الشمس وكان رسول الله ﷺ يرانا فلم يأمرنا ولم ينهنا . قال الحافظ في الفتح : ومجموع الأدلة يرشد إلى استحباب تخفيفهما كما في ركعتي الفجر(١) .

وروى الجماعة من حديث عبد الله بن مغفل أن النبى ﷺ قال : « بين كل أذانين صلاة » ثم قال في الثالثة « لمن شاء » .

ولابن حبان من حديث ابن الزبير أن النبى ﷺ قال : « ما من صلاة مفروضة ألا وبين يديها ركعتان » .

وهذا يشير إلى أنه من السنة أن تصلى ركعتين قبل العشاء .

مع ملاحظة كذلك أنه من السنة الفصل بين الفريضة والنافلة بمقدار ختم الصلاة :

فعن رجل من أصحاب النبى ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى العصر ، فقام رجل يصلى فرآه عمر فقال له : اجلس فإنما هلك أهل الكتاب أنه لم يكن لصلاتهم فصل . فقال رسول الله ﷺ : « أحسن ابن الخطاب » رواه أحمد بسند صحيح .

* * *

---

(١) فقد ورد عن عائشة أنها قالت : كان قيام رسول الله ﷺ في الركعتين قبل صلاة الفجر قدر ما يقرأ فاتحة الكتاب . رواه أحمد والنسائى والبيهقي ومالك والطحاوى .

وأما الوتر فإنه كذلك سنة مؤكدة حث عليه الرسول ﷺ ورغب فيه :

فعن علي رضى الله عنه أنه قال : إن الوتر ليس بحتم[1] كصلاتكم المكتوبة ، ولكن رسول الله ﷺ أوتر ، ثم قال : « يا أهل القرآن أوتروا ، فإن الله وتر[2] يحب الوتر » رواه أحمد وأصحاب السنن وحسنه الترمذى ورواه الحاكم أيضاً وصححه .

وقد أجمع العلماء على أن وقت الوتر لا يدخل إلا بعد صلاة العشاء وأنه يمتد إلى الفجر .

ويستحب تعجيله لمن ظن أنه لا يستيقظ آخر الليل ، وتأخيره لمن ظن أنه يستيقظ آخره .

وأما عن عدد ركعات الوتر ، فقد روى الترمذى فيه ، عن النبى ﷺ أنه أخبر بأن الوتر : بثلاث عشرة ركعة ، وإحدى عشرة ركعة ، وتسع ، وسبع ، وخمس ، وثلاث ، وواحدة .

قال إسحاق بن إبراهيم : معنى ما روى عن النبى ﷺ كان يوتر بثلاث عشرة ركعة أنه كان يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة مع الوتر ، يعنى من جملتها فنسبت صلاة الليل إلي الوتر .

ويجوز أداء الوتر ركعتين ركعتين[3] ثم صلاة ركعة بتشهد وسلام ، كما يجوز الكل بتشهدين وسلام ، فيصل الركعات بعضها ببعض من غير أن يتشهد إلا في الركعة التى هي قبل الأخيرة فيتشهد فيها ثم يقوم إلي الركعة الأخيرة فيصليها ويتشهد فيها ويسلم ، ويجوز أداء الكل بتشهد واحد وسلام في الركعة الأخيرة ، كل ذلك جائز وارد عن النبى ﷺ[4] .

---

(١) حتم : أى لازم .

(٢) أى أنه تعالى واحد يحب صلاة الوتر ويثيب عليها . قال نافع : وكان ابن عمر لا يصنع شيئاً ألا وتراً .

(٣) أى يسلم على رأس كل ركعتين .

(٤) راجع الجزء الثانى من فقه السنة للوقوف على تفصيل هذا .

ويجوز القراءة في الوتر بعد الفاتحة بأي شيء من القرآن ، قال علي : « ليس من القرآن شيء مهجور فأوتر بما شئت ، ولكن المستحب إذا أوتر بثلاث أن يقرأ في الأولى : بعد الفاتحة : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ وفي الثانية : ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ وفي الثالثة : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ والمعوذتين » :

لما رواه أحمد وأبو داوود والترمذى وحسنه عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « كان رسول الله ﷺ يقرأ في الركعة الأولى بـ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ وفي الثانية بـ ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ وفي الثالثة : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ ، والمعوذتين » .

وكذلك بالنسبة لسنة الفجر ، فإنه من السنة بعد الفاتحة أن تقرأ في الركعة الأولى : ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ وفي الثانية : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ ، وبالنسبة لسنة المغرب البعدية ، فعن ابن مسعود أنه قال : ما أحصى ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين بعد المغرب وفي الركعتين قبل الفجر بـ ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ و ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه .

وأما عن القنوت في الوتر ، فإنه يشرع في جميع السنة ، لما رواه أحمد وأهل السنن وغيرهم من حديث الحسن بن على رضى الله عنه قال : علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر : « اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فإنك تقضى ولا يُقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، وصلى الله علي النبى محمد » قال الترمذى : هذا حديث حسن . قال :

ولا يعرف عن النبى ﷺ في القنوت شىء أحسن من هذا[1] .

* * *

---

(١) وهناك كلام آخر من الأفضل أن ترجع إليه لتقرأه بالتفصيل في الجزء الثانى من فقه السنة .

وهناك سنن أخرى من الخير كذلك أن تؤديها وتحرص على الفوز بثوابها ، وهى :

١ ـ قيام الليل

وهو من أعظم القربات وأحبها إلى الله تبارك وتعالى ، وقد أمر الله به نبيه محمداً ﷺ فقال : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾(١) .

وهذا الأمر ـ كما يقول في فقه السنة ـ وإن كان خاصاً برسول الله ﷺ إلا أن عامة المسلمين يدخلون فيه بحكم أنهم مطالبون بالاقتداء به ﷺ .

وقد رغب الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين في قيام الليل ، فقال مبيناً أن المحافظين عليه هم المحسنون المستحقون لخيره ورحمته :

﴿ **إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون(٢) . وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾(٣) .

وقال مادحاً إياهم ومثنياً عليهم وناظماً لهم في جملة عباده الصالحين الذين يستحقون رحمته :

﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً** ﴾(٤) .

إلى آخر الآيات القرآنية التي شهد الله سبحانه وتعالى لهم فيها بالإيمان بآياته ، ونفى التسوية بينهم وبين غيرهم ممن لم يتصف بوصفهم .

أما ما جاء في سنة رسول الله ﷺ ترغيباً فيه ، فهاك بعضه :

---

(١) الإسراء : ٧٩ .
(٢) يهجعون : أي ينامون .
(٣) الذاريات : ١٥ ـ ١٨ .
(٤) الفرقان : ٦٣ ، ٦٤ .

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله .. أخبرني بعمل يدخلنى الجنة ويباعدني عن النار ، قال : « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير(١) : الصوم جنة(٢) ، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم تلا : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾(٣) ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه . قلت : بلى يا رسول الله ، قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه وقال : كف عليهذا . قلت : يانبي الله . وإنا لمؤاخذون بمانتكلم به؟ فقال ثكلتك أمك(٤) وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

وقد قرأت حول قوله ﷺ : « وصلاة الرجل » : إنما خصه بالذكر لأن السائل كان رجلاً ، أو لأن الخير كان غالباً في الرجال إذ أن أكثر أهل النار النساء ، فالمرأة مثل الرجل في ذلك . وقوله : « في جوف الليل » لأن الصلاة فيه مطلقاً أفضل منها في النهار ، لأن الخشوع والتضرع فيه أسهل وأكمل ، ومن ثم كانت باباً عظيماً من أبواب الخير لأنه يتوصل بها إلى صفاء السر ودوام الشهود والذكر ، ثم هى فيه بعد النوم أفضل منها فيه قبله وتحصل فضيلة قيامه بصلاة ركعتين لخبر « من قام من الليل قدر حلب شاة كتب من قوام الليل » . واختلفوا في أفضل أجزائه ، والذى دلت عليه الأحاديث الصحيحة ما ذهب إليه إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه من أنه إن جزأه نصفين ، فالنصف الثاني أفضل ، وإن جزأه أثلاثاً فالثلث الأخير أفضل ، أو أسداساً فالسدس الرابع

---

(١) وفي رواية : ألا أدلك على أبواب الجنة .

(٢) أى وقاية .

(٣) السجدة : ١٦ ، ١٧ .

(٤) أى فقدتك أمك ..

والخامس أفضل ، وهذا هو الأكمل على الإطلاق لأنه الذى واظب عليه النبى ﷺ ، وقيل فيه : أفضل الصلاة صلاة داوود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه . وقوله : « ثم تلا » — أى رسول الله ﷺ — احتجاجاً على فضل صلاة الليل : ﴿ **تتجافى جنوبهم** ﴾ أى تتنحى وترتفع ﴿ **عن المضاجع** ﴾ أى مواضع الاضطجاع للنوم .. قيل : وهذا كناية عن الصلاة بين المغرب والعشاء ، وقيل : عن انتظار العشاء لأنهم كانوا يؤخرونها إلى نحو ثلث الليل . وقيل : عن صلاة العشاء والصبح في جماعة ، والجمهورعلى أنه كناية عن صلاة النوافل بالليل وهو الذي دل عليه سياق الحديث والآية حيث قال : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ..** ﴾ إلخ . فهو دال على أنهم أخفوا عملهم فجوزوا بما أخفى لهم من قرة الأعين ، وإنما يتم إخفاؤه بالصلاة في جوف الليل لأن المصلى حينئذ ترك نومه ولذاته وآثر ما يرجوه من ربه عليهما فحق له أن يجازى بذلك الجزاء العظيم ، وفي الصحيحين يقول الله تبارك وتعالى : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. » الحديث ، وقد جاء أن الله تعالى يباهى بقوام الليل في الظلام الملائكة ، يقول : « انظروا إلى عبادى قد قاموا في ظلمة الليل حين لا يراهم أحد غيرى أشهدكم أنى قد أبحتهم دار كرامتى » ولا شك ولا خفاء أن الليل محل الخلوة والاختصاص ، ومجالسة الأحبة ، ومطية المحبين كما قيل :

وما الليل إلا للمحب مطية ... وميدان سبق فاستبق تبلغ المنى

وفي رواية لمسلم : « إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيراً من أمور الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك في كل ليلة » وقيل : أوحى الله إلى داوود عليه السلام : « كذب من ادعى محبتي إذا جن ليله نام عنى » وقيل : إذا جن الليل بظلامه يقول الله تعالى : « يا جبريل حرك أشجار المعاملة ، فإذا حركها قامت القلوب على باب المحبوب » وقيل :

ببابك عبد من عبيدك مذنب ... كثير الخطايا جاء يسألك العفوا
فأنزل عليه العفو يا من بفضله ... على قوم موسى أنزل المن والسلوى

وذكروا أن رابعة العدوية رضى الله عنها ، كانت إذا صلت العشاء قامت إلى سطح لها ، وشدت عليها درعها وخمارها ، ثم تقول : إلهى غابت النجوم ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها . وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يدك ، ثم تقبل على صلاتها حتى إذا طلع الفجر قالت : هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعرى ، أقبلت منى ليلتى فأهنى ، أم رددتها فأعزى .. وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبى من محبتك .. ثم تنشد وتقول :

يا سرورى ومنيتى وعمادى	وأنيسى وغايتى ومرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجائى	أنت لى مؤنس وشوقك زادى
أنت لولاك يا حياتى وأنسى	ما تشتت في فسيح البلاد
لك كم منة وكم لك فضل	من عطاء ونعمة وأيادى
حبك الآن بغيتى ونعيمى	وجلاء لعين قلبى الصادى
إن تكن راضياً على فإنى	يا منى القلب قد بدا إسعادى

* * *

فكن أخا الإسلام من الحريصين على قيام الليل ، وحسبك ترغيباً لك فيه بالإضافة إلى ما وقفت عليه :

ما قاله سلمان الفارسى رضى الله عنه ، وهو قول رسول الله ﷺ : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، ومقربة إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم ، ومطردة للداء عن الجسد » .

وقال سهل بن سعد : « جاء جبريل إلى النبى ﷺ ، فقال : يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس » .

وورد كذلك عن عبد الله بن سلام أن رسول الله ﷺ ، قال : « أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل

والناس نيام : تدخلوا الجنة بسلام » رواه الحاكم وابن ماجه والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .

* * *

مع ملاحظة كذلك أنه يسن لمن أراد قيام الليل :

ـــ أن ينوى عند نومه قيام الليل :

فعن أبى الدرداء أن النبى ﷺ ، قال : « من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم فيصلى من الليل فغلبته عينه حتى يصبح كتب له ما نوى ، وكان نومه صدقة عليه من ربه » رواه النسائى وابن ماجه بسند صحيح .

ـــ وأن يمسح النوم عن وجهه عند الاستيقاظ ويتسوك وينظر في السماء ثم يدعو بما جاء عن رسول الله ﷺ ، فيقول : « لا إله إلا أنت سبحانك ، أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علماً ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور » .

ثم يقرأ الآيات العشر من أواخر سورة آل عمران : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾[1] إلى آخر السورة ، ثم يقول :

« اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت الله لا إله إلا أنت » .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ .

ـــ وأن يفتتح صلاة الليل بركعتين خفيفتين ، ثم يصلى بعدهما ما شاء :

فعن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يصلى افتتح صلاته بركعتين خفيفتين » رواه مسلم .

وعن أبي هريرة أن النبى ﷺ ، قال : « إذا قام أحدكم من اليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين » رواه مسلم .

ـــ وأن يوقظ أهله :

فعن أبي هريرة أن النبى ﷺ ، قال : « رحم الله امرءاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء ، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء » .

وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ ، قال : « إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا أو صلى ركعتين جميعاً كتب في الذاكرين والذاكرات » رواهما أبو داوود وغيره بإسناد صحيح .

ـــ وأن يترك الصلاة ويرقد إذا غلبه النعاس حتى يذهب عنه النوم :

فعن عائشة أن النبي ﷺ ، قال : «إذا قام أحدكم من اليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع » رواه مسلم .

وقال أنس : دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين ، **فقال : « ما هذا » ؟ قالوا : لزينب تصلي ، إذا كسلت أو فترت أمسكت به .** فقال : « حلوه .. ليصل أحدكم نشاطه فإذا كسل أو فتر فليرقد » متفق عليه .

ـــ وأن لا يشق على نفسه بل يقوم من الليل بقدر ما تتسع له طاقته ، ويواظب عليه ولا يتركه إلا لضرورة .

فعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خذوا من الأعمال ما **تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا »**(١) رواه البخاري ومسلم .

---

(١) أى أن الله تعالى لا يقطع الثواب حتى تقطعوا العبادات .

ورويا ــ كذلك ــ عنها أن رسول الله ﷺ سئل أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : « أدومه وإن قل » .

ــ وأيضاً ، لاحظ :

أن صلاة الليل تجوز في أول الليل ووسطه وآخره ما دامت الصلاة بعد صلاة العشاء :

فعن أنس رضى الله عنه في وصف الرسول ﷺ أنه قال : « ما كنا نشاء أن نراه من الليل مصلياً إلا رأيناه ، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه ، وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئاً ، ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئاً » رواه أحمد والبخارى والنسائى .

قال الحافظ : لم يكن لتهجده ﷺ وقت معين بل بحسب ما يتيسر له القيام .

ولكن الأفضل تأخيرها إلى الثلث الأخير :

فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » رواه الجماعة .

وقال أبو مسلم لأبي ذر : أى قيام الليل أفضل ؟ قال : سألت رسول الله ﷺ كما سألتنى فقال : « جوف الليل الغابر[1] وقليل فاعله » رواه أحمد بإسناد جيد .

وليس لصلاة الليل عدد مخصوص ولا حد معين ، فهى تتحقق ولو بركعة الوتر بعد صلاة العشاء :

فعن سمرة بن جندب رضى الله عنه ، قال : « أمرنا رسول الله ﷺ أن

---

(١) الغابر : الباق أو نصف الليل .

نصلى من الليل ما قل أو كثر ونجعل آخر ذلك وتراً » رواه الطبراني والبزار .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أنه قال : أمرنا رسول الله ﷺ بصلاة الليل ورغب فيها حتى قال : « عليكم بصلاة الليل ولو ركعة » رواه الطبراني في الكبير والأوسط .

والأفضل المواظبة على إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة ، وهو مخير بين أن يصلها وبين أن يقطعها :

قالت عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا غيره عن إحدى عشرة ركعة ، يصلى أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثاً ، فقلت : يا رسول الله .. أتنام قبل أن توتر ؟ فقال : « يا عائشة .. إن عيني تنامان ولا ينام قلبي » رواه البخاري ومسلم .

ورويا أيضاً عن القاسم بن محمد ، قال : سمعت عائشة رضى الله عنها ، تقول : كانت صلاة رسول الله ﷺ من الليل عشر ركعات ويوتر بسجدة .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام وكن منفذاً له حتى لا تحرم من هذا الخير العظيم الذى به ستحيا حياة طيبة في الدنيا والآخرة إن شاء الله ، والذى به كذلك ستكون من عباد الرحمن : ﴿ **الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً** ﴾[1] .

اغتنم ركعتين في ظلمة الليل إذا كنت فارغاً تستريحا
وإذا ما هممت بالخوض الباطل فاجعل مكانه تسبيحا

---

(١) الفرقان : ٦٣ ، ٦٤ .

واغتنام السكوت أفضل من خوّض وإن كنت بالحديث فصيحا

* * *

وأما الصلاة الثانية التي أنصحك كذلك بالتقرب إلى الله تعالى بها ، فهي :

٢ ـ صلاة الضحى

فقد ورد في فضلها :

عن أبي ذر رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ ، « يصبح على كل سلامى(١) من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، ويجزى(٢) من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » رواه أحمد ومسلم وأبو داوود .

وعن بريدة أن رسول الله ﷺ ، قال : « في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل عليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة قالوا : فمن الذى يطيق ذلك يا رسول الله ؟ قال : « النخامة في المسجد يدفنها أو الشيء ينحيه عن الطريق ، فإن لم يقدر فركعتا الضحى تجزىء عنه » .

قال الشوكاني معلقاً على هذين الحديثين الشريفين : « والحديثان يدلان على عظم فضل الضحى وكبر موقعهـا وتأكد مشروعيتها وأن ركعتيها تجزيان عن ثلاثمائة وستين صدقة ، وما كان كذلك فهو حقيق بالمواظبة والمداومة . ويدلان أيضاً : على مشروعية الاستكثار من التسبيح والتحميد والتهليل ،

---

(١) أى عظام البدن ومفاصلة .

(٢) يجزى ـ بفتح أوله ـ أى يكفي ، أو بضمه ويكون من الإجزاء .

والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ودفن النخامة ، وتنحية ما يؤذى المار عن الطريق وسائر أنواع الطاعات ليسقط بذلك ما على الإنسان من الصدقات اللازمة في كل يوم » .

وهى عبادة مستحبة ، فمن شاء ثوابها فليؤدهـا وإلا فلا تثريب عليه في تركها :

فعن أبى سعيد رضى الله عنه ، قال : « كان ﷺ يصلى الضحى حتى نقول لا يدعها ، ويدعها حتى نقول لا يصليها » رواه الترمذى وحسنه .

ويبتدىء وقتها بارتفاع الشمس قدر رمح وينتهى حين الزوال ولكن المستحب أن تؤخر إلى أن ترتفع الشمس ويشتد الحر :

فعن زيد بن أرقم رضى الله عنه ، قال : خرج النبى ﷺ على أهل قباء(١) وهم يصلون الضحى ، فقال : « صلاة الأوابين(٢) إذا رمضت الفصال(٣) من الضحى » رواه أحمد ومسلم والترمذى .

وأقل ركعاتها اثنتان كما تقدم في حديث أبى ذر وأكثر ما ثبت من فعل رسول الله ﷺ ثمانى ركعات ، وأكثر ما ثبت من قوله اثنتا عشرة ركعة . وقد ذهب قوم ـــ منهم أبو جعفر الطبرى وبه جزم الحليمي والرويانى من الشافعية ـــ إلى أنه لا حد لأكثرها . قال العراقي في شرح الترمذى : لم أر عن أحد من الصحابة والتابعين أنه حصرها في اثنتى عشرة ركعة ، وكذا قال السيوطى .

* * *

وكذلك أنصحك ، بـ :

---

(١) مكان بينه وبين المدينة نحو ميلين .

(٢) أي الراجعين إلى الله .

(٣) رمضت : أي احترقت . والفصال جمع فصيل وهو ولد الناقة ، أي إذا وجدت الفصال حر الشمس . ولا يكون ذلك إلا عند ارتفاعها .

٣ ـ صلاة التسبيح

فهي كما قال عبد الله بن المبارك رضى الله عنه ، صلاة مرغب فيها ، ويستحب أن يعتادها ـ العبد المؤمن ـ في كل حين ولا يتغافل عنها .

وحسب هذا العبد الموفق ـ إن شاء الله ـ إذا أراد أن يحافظ علي صلاة التسبيح أن يقرأ الحديث الآتى :

عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ للعباس بن عبد المطلب : « يا عباس ، يا عماه ، ألا أعطيك ، ألا أمنحك ، ألا أحبوك[١] ، ألا أفعل بك عشر خصال[٢] ، إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك أوله وآخره ، وقديمه وحديثه ، وخطأه وعمده ، وصغيره وكبيره ، وسره وعلانيته ، عشر خصال : أن تصلى أربع ركعات تقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة[٣] ، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة فقل وأنت قائم : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر خمس عشرة ، ثم تركع فتقول وأنت راكع عشراً[٤] ، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً ، ثم تهوى ساجداً فتقول وأنت ساجد عشراً ، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً ، ثم تسجد فتقولها عشراً ، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً[٥] . فذلك خمس وسبعون في كل ركعة ، تفعل ذلك في أربع ركعات . وإن استطعت أن تصليها في كل يوم فافعل ، فإن لم تستطع ففى كل جمعة مرة ، فإن لم تفعل ففى كل سنة مرة ، فإن لم تفعل ففى عمرك مرة » رواه أبو داوود وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه والطبراني . قال الحافظ : وقد روى هذا الحديث من طرق كثيرة ، وعن جماعة من الصحابة ، وأمثلها حديث عكرمة هذا ، وقد صححه جماعة منهم الحافظ أبو بكر الآجرى ، وشيخنا أبو محمد عبد الرحيم المصرى ، وشيخنا الحافظ أبو الحسن المقدسي رحمهم الله .

---

(١) أى أخصك .

(٢) أى أعلمك ما يكفر عشرة أنواع من ذنوبك .

(٣) أى سورة دون تقييد .

(٤) أى بعد ذكر الركوع ، وهو سبحان ربى العظيم ـ ثلاثاً ـ وكذلك السجود .

(٥) أي في جلسة الاستراحة قبل القيام .

وأهم من كل هذا أخا الإسلام : أن تكون صلاتك ـــ سواء أكانت فرضاً أم نفلاً ـــ صلاة متقنة بتلك الصورة الخاشعة التى أشار الله سبحانه وتعالى إليها في قوله : ﴿ **قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾(١) :

وإلا فإن الله سبحانه وتعالى سيرفض صلاتك هذه ، وستكون كذلك كالمسيء في صلاته :

فعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : « دخل رجل المسجد فصلى ، ثم جاء إلى النبى ﷺ يسلم ، فرد عليه السلام ، وقال : ارجع فصل ، فإنك لم تصل ، فرجع ففعل ذلك ثلاث مرات . قال : فقال : والذى بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني . قال : إذا قمت إلى الصلاة ، فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها » رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي عبد الله الأشعرى أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً لا يتم ركوعه وينقر في سجوده وهو يصلى ، فقال رسول الله ﷺ : « لو مات هذا على حالته هذه مات على غير ملة محمد ﷺ » ، ثم قال رسول الله ﷺ : « مثل الذى لا يتم ركوعه وينقر في سجوده ، مثل الجائع يأكل التمرة والتمرتين لا يغنيان عنه شيئاً » رواه الطبرانى في الكبير .

وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن العبد إذا صلى فلم يتم صلاته خشوعها ولا ركوعها ، وأكثر الالتفات لم تقبل منه ، ومن جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه وإن كان على الله كريماً » رواه الطبراني .

وعن أبي مسعود البدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجزىء

---

(١) المؤمنون : ١ ، ٢ .

صلاة الرجل حتي يقيم ظهره في الركوع والسجود » رواه أحمد وأبو داوود واللفظ له .

وعن أبي قتادة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته ، قالوا : يا رسول الله .. كيف يسرق من الصلاة ؟ قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها ، أو قال : لا يقيم صلبه في الركوع والسجود » رواه أحمد والحاكم .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى تكون خاشعاً فى صلاتك ، وحتى يقبلها الله تعالى منك كما عرفت .

* *

وحسبك إذا أردت أن تكون موفقاً في صلاتك : أن تصلى كرسول الله ﷺ الذى يقول في الحديث الصحيح : « صلوا كما رأيتموني أصلي » .

فعن عبد الله بن غنم رضى الله عنه : أن أبا مالك الأشعرى جمع قومه ، فقال : يا معشر الأشعريين ، اجتمعوا واجمعوا نساءكم ، وأبناءكم ، أعلمكم صلاة النبى ﷺ التي كان يصلي لنا بالمدينة ، فاجتمعوا ، وجمعوا نساءهم وأبناءهم ، فتوضأ ، وأراهم كيف يتوضأ فأحصى[1] الوضوء إلى أماكنه حتى أفاء الفىء[2] ، وانكسر الظل ، قام فأذن ، فصف الرجال في أدنى الصف ، وصف الولدان خلفهم ، وصف النساء خلف الولدان ، ثم أقام الصلاة ، فتقدم فرفع يديه فكبر ، فقرأ بفاتحة الكتاب ، وسورة يسرها ، ثم كبر فركع ، فقال : سبحان الله وبحمده ــ ثلاث مرات ــ . ثم قال : سمع الله لمن حمده ،

---

(١) أى أتمه وأتقنه .

(٢) أى انتشر الظل .

واستوى قائماً ، ثم كبر وخر ساجداً ، ثم كبر فرفع رأسه ، ثم كبر فسجد ، ثم كبر فانتهض قائماً ، فكان تكبيره في أول ركعة ست تكبيرات ، وكبر حين قام إلى الركعة الثانية ، فلما قضى صلاته ، أقبل إلى قومه بوجهه ، فقال : « احفظوا تكبيرى ، وتعلموا ركوعي وسجودى ، فإنها صلاة رسول الله ﷺ التي كان يصلى لنا ، كذا الساعة من النهار ، ثم إن رسول الله ﷺ أقبل إلي الناس بوجهه ، فقال : يأيها الناس ، اسمعوا واعقلوا ، واعلموا أن لله عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء ، ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم ، وقربهم من الله ، فجاء رجل من الأعراب ، من قاصية الناس ، وألوى بيده إلى نبى الله ﷺ ، فقال : يا نبى الله .. ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم ، وقربهم من الله ؟! انعتهم لنا — أى صفهم لنا — فسر وجه النبى ﷺ لسؤال الأعرابي ، فقال رسول الله ﷺ : هم ناس من أفياء الناس(١) ، ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة . تحابوا في الله ، وتصافوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسهم عليها ، فيجعل وجوههم نوراً ، وثيابهم نوراً ، ويفزع الناس يوم القيامة ، ولا يفزعون وهم أولياء الله ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن .

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، وكن منفذاً له على أساس من الفقه ، لأن الصلاة مركبة من فرائض وسنن لا بد أن تعرف الفرق بينها .. لأن معرفة ذلك سيجعلك على علم بما يفسد الصلاة ، وما يجعلها صحيحة .. ولا سيما بالنسبة للأحكام المتعلقة بسجود السهو وما إلى ذلك من أحكام لا بد أن تقف عليهاحتى تكون من الذين أراد الله بهم خيراً ، ففى الحديث الشريف : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » .

والصلاة كما ورد كذلك في الحديث الشريف : « عماد الدين » أو « عمود الدين » .

* * *

---

(١) أى عامتهم .

(٢) طرفا النهار : أوله وآخره ، فيشمل صلاة الصبح والظهر والعصر على التحقيق .

هذا .. وإذا كان الرسول ﷺ قد قال ـــ بعد ذلك ـــ في نص الوصية بعد أن أوصانا بكثرة السجود :

« .. فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط بها عنك خطيئة » :

ففى القرآن الكريم ، يقول تبارك وتعالى مشيراً إلى هذا :

﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار[1] وزلفاً من الليل[2] ، إن الحسنات[3] يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ﴾[4] .

وفي الحديث الشريف ورد كذلك :

عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة ، فأتى النبى ﷺ ، يسأل عن كفارتها ، فأنزل الله تعالى : **﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾** فقال : يا رسول الله .. ألى هذه ؟ قال : « بل لأمتى » . أخرجه الترمذى وأحمد .

وعن على قال : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً ، نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى منه ، وحدثنى أبو بكر ، وصدق أبو بكر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يذنب ذنباً ، ثم يتوضأ فيصلى ركعتين ، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له » . وقرأ هاتين الآيتين : **﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾[5]** .

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾[6] أخرجه أحمد والترمذى .

---

(١) طرفا النهار : أوله وآخره ، فيشمل صلاة الصبح والظهر والعصر على التحقيق .
(٢) وزلفاً من الليل : أى وفي أوائله ، فيشمل المغرب والعشاء .
(٣) أى الصلوات الخمس .
(٤) هود : ١١٤ .
(٥) النساء : ١١٠ .
(٦) آل عمران : ١٣٥ .

وعن عثمان عن النبى ﷺ ، قال : « من أتم الوضوء ، كما أمره الله فالصلوات المكتوبات كفارات لما بينهن » . أخرجه الإمام أحمد في المسند .

وعن إبان بن عثمان ، قال : قال عثمان : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « أرأيت لو أن بفناء أحدكم نهراً يجرى ، يغتسل منه كل يوم خمس مرات ما كان يبقى من درنه ؟(١) قالوا : لا شيء . قال : الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن » أخرجه أحمد وابن ماجه والشيخان .

* * *

وقد روى مسلم في صحيحه عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من امرىء تحضره صلاةمكتوبة ، فيحسن وضوءها ، وخشوعها ، وركوعها ، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ ، قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » رواه مسلم وغيره .

ففي هذين الحديثين الأخيرين يشير النبى ﷺ إلى ملاحظة هامة ، وهى أنه لا بد لكى تكون الصلاة ـــ بالذات ـــ مكفرة لسيئاتك الصغائر : لا بد أن تكون أساساً مجتنباً للكبائر(٢) ، وهي ما ورد ذكرها في الأحاديث الآتية :

عن أبي بكر رضى الله عنه ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ ، فقال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ـــ ثلاثاً ـــ : الإشراك بالله، وعقوق الوالدين ، ألا وشهادةالزور وقول الزور . وكان متكئاً فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » رواه البخارى ومسلم .

---

(١) أى قذره ووسخه .

(٢) وهى جمع كبيرة .. وهى ما ورد فيها تحذير شديد وغلظت عقوبتها .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : ذكر رسول الله ﷺ الكبائر ، فقال : : « الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس . وقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : قول الزور ، أو قال : شهادة الزور » رواه البخارى ومسلم .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن أعرابياً جاء إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله .. ما الكبائر ؟ قال : « الإشراك بالله ، قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس ، قلت ، وما اليمين الغموس ؟ قال : الذي يقتطع مال امرىء مسلم ، يعنى بيمين هو فيها كاذب » رواه البخارى والترمذى .

* * *

وقد جمع أبو طالب المكى رحمه الله تعالى الكبائر على النحو التالى :

أربع في القلب ، وهى : الشرك بالله تعالى ، والإصرار على معصية الله تعالى ، والقنوط من رحمة الله تعالى ، والأمن من مكر الله تعالى .

و أربع في اللسان ، وهى : شهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، واليمين الغموس ، والسحر .

وثلاث في البطن ، وهى : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا وهو يعلم .

واثنتان في اليدين ، وهما : القتل والسرقة .

واثنتان في الفرج ، وهما : الزنا واللواط .

وواحدة في الرجل ، وهى : الفرار من الزحف .

وواحدة في جميع البدن ، وهى : عقوق الوالدين .

* * *

فهذه الكبائر ــ كما قرأت قبل ذلك في الحديثين ــ وكما يقول الله تعالى

في الآية الكريمة : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾[1] :

لابد أن تجتنبها إذا أردت أن يغفر الله تعالى لك الصغائر التي منها : النظرة الثانية ، واللهو واللعب .. وما إلى ذلك من الأمور التي قد تحدث كثيراً من الإنسان في غدوه ورواحه ـــ إلا من عصمه الله ـــ .

ومع ملاحظة أن الصغائر يكفرها الوضوء ، والصلوات ، والاستغفار ، وقراءة القرآن ، وذكر الله تعالى بصفة عامة ، والصدقات .. إلخ كما ورد في الأحاديث الشريفة .

أما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة الصادقة .

وقد أجمع العلماء على أن التوبة واجبة من كل ذنب . فإن كانت معصية بين العبد وربه ، ولا تتعلق بحق آدمى ، فلها شروط ثلاثة :

أن يقلع عن المعصية ، وأن يندم على فعلها ، وأن يعقد العزم على ألا يعود إليها أبداً .

أما إن كانت المعصية تتعلق بحق آدمى ، فلها شروط أربعة . الثلاثة الماضية : والرابع : أن يبرأ من حق صاحبها .

فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه ، وإن كانت غيبة أو نميمة استحله منها ـــ أى طلب منه المسامحة ـــ .

وإن كان حد قذف ، أو نحوه مكنه من القصاص ، أو طلب عفوه .

وقد قال العلماء كذلك : التوبة واجبة على الفور من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته مما تاب منه ، وبقى عليه ما لم يتب منه .

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، وليكن دائم التوبة والاستغفار كرسول الله ﷺ الذي يقول في الحديث الصحيح : « توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة » .

---

(1) النساء : 31 .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة : « رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم » حديث صحيح .

*

وإذا كانت الصلاة كما عرفت هى الأساس في هذا الخير وفي هذا الفلاح والنجاح الذي وقفت عليه :

فإننى أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى وإياك لكثرة السجود حتي نفوز برضا الرب المعبود سبحانه وتعالى الذى يقول كما ورد في الحديث القدسى(١) :

« .. وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه .. » فاذكر كل هذا أخا الإسلام :

﴿ .. **واسجد واقترب** ﴾(٢) .

* * *

(١) الذى رواه البخارى في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل . وقد ذكرناه قبل ذلك في أول شرح الوصية .

(٢) العلق : ١٩ .

الوصية الثامنة والأربعون

عن رجل من بني عبد القيس يقال له عياض أنه سمع النبي صَلّى اللّه عَلَيه وَسَلّم يقول :

" عَلَيكُم بِذِكر[1] رَبِّكُم وَصَلُّوا صَلاتَكُم فِي أَوَّلِ وَقتِكُم فَإِنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُ لَكُم الأَجر "

رواه الطبراني في الكبير

---

(١) عَليكم بذكر ربكم : أي الزموه وَواظبوا عَليه وَأكثروا منه .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة ، ومنفذاً لها ، حتى يضاعف الله لك الأجر ، وحتى تفوز بذلك فوزاً عظيماً في دنياك وأخراك .

وإذا كان الرسول ﷺ قد بدأ وصيته بالترغيب في ذكر الله تعالى ، فإن هذا معناه أن ذكر الله تعالى هو من أعظم القربات إلي الله تبارك وتعالى ، بل هو : طب القلوب ودواؤها ، وعافية الأبدان وشفاؤها ، ونور الأبصار وضياؤها .. به تطمئن القلوب ، وتنفرج الكروب ، وتغفر الخطايا والذنوب .

ولهذا ، فقد أوصانا النبى ﷺ بالمواظبة عليه ، والإكثار منه ، فقال في نص الوصية : « عليكم بذكر ربكم »[1] .

بل لهذا ، أمر الله تعالى به ، وحث عليه ، ورغب فيه ومدح أهله .. فقال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾[2] .

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[3] .

﴿ فاذكروني أذكركم ﴾[4] .

كما قال تعالى في الحديث القدسي الذى رواه البخارى ومسلم : « أنا عند ظن عبدى بى[5] ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرنى في نفسه ذكرته في نفسى ، وإن ذكرنى في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة »[6] .

---

(١) الذكر : هو ما يجرى علي اللسان والقلب ، من تسبيح الله تعالى وتنزيهه وحمده والثناء عليه ووصفه بصفات الكمال ونعوت الجلال والجمال .

(٢) الأحزاب : ٤١ ، ٤٢ .

(٣) الرعد : ٢٨ .

(٤) البقرة : ١٥٢ .

(٥) أي إن ظن أن الله يقبل دعاءه وهو يدعوه قبله ، ومن استغفره وظن أن الله يغفر له غفر الله له .. وهكذا .

(٦) أى أنه كلما زاد إقبال العبد على ربه كان الله له بكل خير أسرع .

وقد ورد الترغيب في الذكر وفضله علي لسان الرسول ﷺ في كثير من الأحاديث الشريفة :

فعن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « ما عمل آدمى عملاً قط أنجى له من عذاب الله ، من ذكر الله عز وجل » رواه أحمد .

وعن عبد الله بن بسر رضى الله عنه: أن رجلاً قال : يا رسول الله .. إن شرائع الإسلام قد كثرت فأخبرني بشيء أتشبث به[1] ؟ قال : « لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله »[2] رواه الترمذي واللفظ له ، وقال : حديث حسن غريب ، وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وعن أبي موسى رضى الله عنه ، قال : قال النبى ﷺ : « مثل الذي يذكر ربه ، والذى لا يذكر الله ، مثل الحى والميت » رواه البخارى ومسلم، إلا أنه قال : « مثل البيت الذى يذكر الله فيه .. » .

وعن أبي الدرداء رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق[3] ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .. قال : ذكر الله » رواه الترمذى وأحمد والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

وقد استشكل بعض العلماء[4] تفضيل الذكر علي الجهاد مع ورود الأدلة الصحيحة أنه أفضل الأعمال ، وقد جمع بعض أهل العلم بين ما ورد من الأحاديث المشتملة علي تفضيل بعض الأعمال على بعض آخر ، وما ورد منها مما يدل علي تفضيل البعض المفضل عليه : بأن ذلك باعتبار الأشخاص

---

(١) أى أتمسك به .

(٢) أى لا يزال يلهج به ويردده حتى يجرى مع ريقه .

(٣) أى الدراهم المضروبة من الفضة — بكسر الراء — .

(٤) كما جاء في كتاب « تحفة الذاكرين » لمحمد بن على بن محمد الشوكانى اليمانى الصنعانى . طبعة الحلبي ص ١٤ .

والأحوال ، فمن كان مطيقاً للجهاد قوى الأثر فيه فأفضل أعماله الجهاد ، ومن كان كثير المال فأفضل أعماله الصدقة ، ومن كان غير متصف بإحدى الصفتين المذكورتين ، فأفضل أعماله الذكر والصلاة ونحو ذلك ، ولكنه يدفع هذا تصريحه ﷺ بأفضلية الذكر علي الجهاد نفسه في هذا الحديث . وفي الأحاديث الأخرى :

كحديث أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عند الترمذى : « أن رسول الله ﷺ سئل : أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً . قال : قلت : يا رسول الله ومن الغازى في سبيل الله ؟ قال : لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتي ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون الله كثيراً أفضل منه درجة » قال الترمذى بعد إخراجه : حديث غريب .

وكحديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً ، وفيه : « ولا شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله . قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع » أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقي من رواية سعيد بن سنان .

ومما يدل كذلك على أن الذكر أفضل من الصدقة ، ما أخرجه أحمد والترمذى وابن ماجه، وقال الترمذى حديث حسن من حديث ثوبان . قال : « لما نزلت : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ..** ﴾ الآية . قال : كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، فقال بعض أصحابه : أنزلت في الذهب والفضة لو علمنا أى المال خير فنتخذه ، فقال : أفضله لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة(١) مؤمنة تعينه علي إيمانه » .

ومما يدل علي ذلك في الجهاد والصدقة وغير ذلك ما أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : « أن رجلاً سأله : أى المجاهدين أعظم أجراً ؟ قال : أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك ورسول الله ﷺ يقول :

---

(١) في نسخة : وامرأة ، وفي رواية : « تعين أحدكم علي أمر الآخرة » ــ والآية من سورة التوبة : ٣٤ .

أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً ، قال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما :يا أبا حفص .. ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال رسول الله ﷺ : أجل » .

وعند أحمد : أنه ﷺ ، قال : « إن ما تذكرون من جلال الله عز وجل من التهليل والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل يذكرن بصاحبهن ، أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكر به » ؟ .

فكل هذه الأحاديث — مع غيرها — تذكر بفضل الذكر والذاكرين كما تبشر كذلك بمستقبلهم عند الله تبارك وتعالى الذى يقول :

﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[1] .

وقال تعالى في وصف أولى الألباب الذين ينتفعون بالنظر في آياته : **﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾**[2] :

قال : مجاهد : لا يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً .

* * *

وحول حد الذكر الكثير : سئل ابن الصلاح عن القدر الذي يصير به من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، فقال : إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحاً ومساء في الأوقات والأحوال المختلفة ليلاً ونهاراً : كان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات .

وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما في هذه الآيات ، قال : إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ، وعذر أهلها في حال العذر ، غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهى إليه . ولم

---

(١) الأحزاب : ٣٥ .
(٢) آل عمران : ١٩١ .

يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على تركه ، فقال : « اذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم » بالليل والنهار ، في البر والبحر ، وفي السفر والحضر والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال .

وقال سعيد بن جبير : كل عامل لله بطاعة لله فهو ذاكر لله .

وقال عطاء : مجالس الذكر هى مجالس الحلال والحرام ، كيف تشترى وتبيع ، وتصلى وتصوم ، وتنكح وتطلق وتحج .. إلخ .

وقال القرطبي : مجلس ذكر يعنى مجلس علم وتذكير ، وهى المجالس التي يذكر فيها كلام الله وسنة رسوله ، وأخبار السلف الصالحين ، وكلام الأئمة الزهاد المتقدمين المبرأة عن التصنع والبدع والمنزهة عن المقاصد الردية والطمع .

ولهذا .. فقد ورد عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : يا رسول الله .. وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر » أخرجه الترمذى .

وأخرج الطبراني في الكبير ، من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عنه ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس العلم »(١) .

وأخرج الترمذى وقال : غريب من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة؟ قال : المساجد . قيل : وما الرتع ؟ قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .

وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو يعلي ، والطبراني والبزار ، والحاكم في المستدرك ، وقال صحيح الإسناد ،والبيهقي من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ ، فقال : أيها الناس .. إن لله سرايا من الملائكة ، تحل وتقف على مجالس الذكر في الأرض فارتعوا في رياض

---

(١) وفي إسناده رجل مجهول .

الجنة . قالوا : وأين رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر ، فاغدوا وروحوا في ذكر الله ، وذكروا أنفسكم ، من كان يريد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله ينزل العبد عنده حيث أنزله تعالى في نفسه » قال المنذرى : والحديث حسن .

قال في تحفة الذاكرين ــ بعد ذكر هذه الأحاديث ــ : ولا مخالفة بين هذه الأحاديث ، فرياض الجنة تطلق على حلق الذكر ، ومجالس العلم ، والمساجد ، ولا مانع من ذلك . انتهى .

وأما قوله في حديث أبي هريرة رضى الله عنه : « قيل : وما الرتع ؟ قال : سبحان الله .. إلخ » ففيه ما يدل على أن هذا الذكر له مزية تشرف على سائر الأذكار . ولا ينافى ما يدل عليه قوله : حلق الذكر من العموم ، ولا ينافى أيضاً ما في الحديث الآخر حيث قال : مجالس العلم .

والحاصل أن الجماعة المشتغلين بذكر الله عز وجل أى ذكر كان ، والمشتغلين بالعلم النافع وهو علم الكتاب والسنة ، وما يتوصل به إليهما : هم يرتعون في رياض الجنة .

* * *

فلتذكر أخا الإسلام كل هذا ، ولتكن حريصاً دائماً وأبداً على طلب العلم النافع ، ومعرفة الحلال والحرام :

فلولا العلم ما سعدت نفوس ولا عرف الحلال من الحرام

وحسبك ترغيباً لك في هذا : هذه الأحاديث الشريفة المرغبة في طلب العلم النافع وتعليمه لطالبيه :

فعن معاوية رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » رواه البخارى ومسلم وابن ماجه .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من نفس

عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلي الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم[1] الملائكة ، ونزلت عليهم السكينة[2] ، وغشيتهم الرحمة[3] ، وذكرهم الله فيمن عنده[4] ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » رواه مسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال : صحيح علي شرطهما .

وعن عمر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم[5] يهدى صاحبه إلى هدى ، أو يرده عن ردى[6] ، وما استقام دينه حتى يستقيم عمله » رواه الطبراني في الكبير واللفظ له ، والصغير إلا أنه قال فيه : « حتى يستقيم عقله » وإسنادهما متقارب .

وعن أبي ذر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر لأن تغدو[7] فتعلم[8] آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة ، ولأن تغدو فتعلم من العلم عمل به أو لم يعمل به[9] خير من أن تصلى ألف ركعة » رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) أى أحاطت بهم وقعدت حولهم .
(٢) أى الأمن والطمأنينة .
(٣) أى غطتهم وغمرتهم .
(٤) يعنى في الملأ الأعلى .
(٥) بمعنى الزيادة ، أى علم زائد على القدر الواجب الذى لا يسع أحداً جهله .
(٦) أى يبعده عن أسباب التهلكة وموجبات الغواية .
(٧) أى تذهب في وقت الغدو وهو أول النهار .
(٨) أى تتعلم فحذفت إحدى التاءين للتخفيف .
(٩) ولا بد أن يعمل به لأنه كما يقولون : علم بلا عمل كشجرة بلا ثمر .

« الدنيا ملعونة ملعون ما فيها[1] إلا ذكر الله ، وما والاه[2] ، وعالماً ومتعلماً » رواه الترمذى ، وابن ماجه ، والبيهقي ، وقال الترمذى : حديث حسن .

وعن أبي أمامة قال : ذكر لرسول الله ﷺ رجلان : أحدهما عابد ، والآخر عالم ، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « فضل العالم علي العابد كفضلي على أدناكم » ، ثم قال رسول الله ﷺ : « إن الله وملائكته ، وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت ليصلون علي معلم الناس الخير » رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح ، ورواه البزار من حديث عائشة مختصراً ، قال : « معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر » .

* * *

فليكن هذا الترغيب المحمدى أخا الإسلام سبباً فى حبك للعلم ونشره ، وليكن كذلك ذكراً تتقرب به إلي الله تعالى حتى تلقاه .

وحسبى حتى تكون من المجدين والمجتهدين في طلب العلم أن أسوق إليك كذلك هذه الأقوال :

يقال : من ذهب إلى عالم وجلس عنده ولم يقدر على حفظ شيء مما قاله إلا أعطاه الله سبع كرامات ، أولاها : فضل المتعلمين ، وثانيتها : ما دام عنده جالساً كان محبوساً عن الذنوب والخطايا ، وثالثتها : إذا خرج من منزله نزلت عليه الرحمة ، ورابعتها : إذا جلس عنده نزلت الرحمة على العالم فتصيبه ببركته ، وخامستها : تكتب له الحسنات ما دام مستمعاً ، وسادستها : تحفهم الملائكة بأجنحتها وهو فيهم ، وسابعتها :كل قدم يرفعها ويضعها تكون كفارة للذنوب ، ورفعاً للدرجات ، وزيادة في الحسنات .

---

(١) يعنى مما يلهى ويبعد عنه ذكر الله من متاعها وزينتها .

(٢) من الموالاة وهى : الموافقة والطاعة .

وقال عمر رضى الله عنه : إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة ، فإذا سمع العلم خاف الله واسترجع من ذنوبه ، فينصرف إلى منزله ، وليس عليه ذنب ، فلا تفارقوا مجالس العلماء ، فإن الله لم يخلق علي وجه الأرض أكرم من مجالسهم .

وقال بعض العلماء : ولو لم يكن لحضور مجلس العلم منفعة سوى النظر إلى وجه العالم لكان الواجب علي العاقل أن يرغب فيه ، فكيف وقد أقام النبى ﷺ العلماء مقام نفسه ، فقال : « من زار عالماً فكأنما زارنى ، ومن صافح عالماً فكأنما صافحني ، ومن جالس عالماً فكأنما جالسنى ، ومن جالسنى فى الدنيا أجلسه الله تعالى معى يوم القيامة في الجنة » .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، واذكر كذلك قول القائل :

تعلم فإن العلم زين لأهله ... وفضل وعنوان لكل المحامد
وكن مستفيداً كل يوم زيادة ... من العلم واسبح في بحور الفوائد
تفقه فإن الفقه أفضل قائد ... إلى البر والتقوى وأعدل قاصد
هو العلم الهادى إلى سنن الهدى ... هو الحصن ينجى من جميع الشدائد
فإن فقيهاً واحداً متورعاً ... أشد علي الشيطان من ألف عابد

وقول قائل :

تصبر على مر الجفا من معلم ... فإن رسوب العلم في نفراته
ومن لم يذق ذل التعلم ساعة ... تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه ... فكبر عليه أربعاً لو فاته
حياة الفتى والله بالعلم والتقى ... إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

* * *

وليكن مثلك في طلب العلم والشغف به ، هو الإمام الشافعى رضى الله

عنه ، الذى قال عنه الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه :

ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعى ، فقال له ابنه : أى رجل كان الشافعى حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟ فقال الإمام أحمد : يا بنى ، كان الشافعى كالشمس للدنيا ، والعافية للناس ، فانظر يا بنى هل من هذين خلف ؟ ..

وإذا كان الإمام أحمد يقول هذا ، فلأنه كان صديقاً حميماً للشافعى ، كما كان كذلك يعرفه عن قرب :

وحتى يتضح لك هذا ، إليك كذلك هذا المضمون الذى سترى منه كيف كان الشافعى مشغولاً بطلب العلم ليلاً ونهاراً :

فقد نزل الشافعى ضيفاً على « أحمد بن حنبل » وكانت ابنة لأحمد ، تسمع أخبار الشافعى ، وتتشوق إلى رؤية صلاحه ، وعبادته ، فرقبت عبادته بالليل وذكره في الأسحار — أثناء استضافته في بيتهم — لكن الشافعى أصبح مستلقياً على ظهره حتى الفجر ، وابن حنبل مشغول بذكره وعبادته ، فلما أصبحت فقالت لأبيها : رأيتك تعظم الإمام الشافعى !! وما رأيت له في هذه الليلة : لا صلاة ، ولا ذكراً ، ولا ورداً .

فبينما هما في الحديث ، قام الإمام الشافعى ، فقال له الإمام أحمد : كيف كانت ليلتك ؟ قال : ما رأيت ليلة أطيب منها !! ولا أبرك ولا أربح . فقال أحمد : وكيف ذلك ؟ قال : لأنى رتبت في هذه الليلة مائة مسألة ، وأنا مستلق علي ظهرى ، كلها في منافع المسلمين ، ثم ودعه ومضى .

فقال أحمد بن حنبل لابنته : هذا الذى عمله الليلة وهو نائم ، أفضل مما عملته وأنا قائم ! ..

ولعل ما قاله الإمام أحمد بن حنبل ، هو ما أريد الوصول إليه حتى ندرك أهمية العلم ، وحتى نشعر بأعظم لذة ونحن نطلبه ، كهذا الذي يقول :

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى ... من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلى طربـاً لحل عويصة ... أشهر وأحلى من مدامة ساق

وصرير أقلامى على أوراقها أحلي من اللوكاة والعشاق
أأبيت سهران الدجا وتبيته نوماً وتبغى بعد ذاك لحاقي

* * *

واعلم أن قراءة القرآن ، والاستماع إليه بإنصات ، والتدبر في معانيه ، ودراسةمقاصده ، والوقوف علي ما فيه من أوامر ونواهٍ .. إلخ : يعتبر من أعظم الأذكار ، بل هو أعظم الأذكار .

وذلك لأن القرآن العظيم(١) ، هو كلام الله .. الذى أنزله سبحانه وحياً — علي قلب عبده ورسوله محمد ﷺ — بواسطة الروح الأمين « جبريل » لينذر به من كان حياً ويحق القول علي الكافرين ، وليخرج به الناس من الظلمات إلي النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، فلن يتقرب متقرب إلى الله بأحب إليه من تلاوة القرآن وتدبره ومدارسته ثم تعليم ذلك لغيره ..

وإذا كنا قد عرفنا هذا إجمالاً .. فقد ورد ذلك تفصيلاً على لسان الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه :

فعن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى ﷺ :

قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » رواه البخارى ومسلم ، وأبو داوود والترمذى ، والنسائى وابن ماجه وغيرهم .

ففي هذا الحديث : الحث علي تعلم القرآن وتعليمه ، وقد سئل الثورى عن الجهاد وإقراء القرآن فرجح الثانى واحتج بهذا الحديث .. قاله في الفتح .

قال الشرقاوى : لا ريب أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمل لنفسه ولغيره ، جامع بين النفع القاصر ، والنفع المتعدى .

وفي التعليق علي هذا الحديث في « الترغيب والترهيب » يقول الشارح :

---

(١) كما يقول فضيلة الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله في شرحه للترغيب والترهيب (هامش كتاب قراءة القرآن) .

لا يقال إن من لازم هذا أفضلية المقرىء على الفقيه ، لأن المخاطبين بذلك كانوا فقهاء الناس ، إذ كانوا يدرون معانى القرآن بالسليقة أكثر من دراية من بعدهم بالاكتساب . وخيركم في الحديث أفعل تفضيل بمعنى أخيركم أى أكثركم نفعاً وأرفعكم منزلة ، وتعلم القرآن يدخل فيه حفظه وتجويده وإقامة حروفه وإعرابها ، ويدخل فيه كذلك مدارسته وتفهم معانيه وتدبر آياته ومعرفة المقاصد الأساسية التى نزل من أجلها ، ومعرفة أحكامه وحلاله وحرامه .. إلخ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « ما اجتمع قوم[1] في بيت من بيوت الله[2] ، يتلون كتاب الله[3] ويتدارسونه[4] فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » رواه مسلم وأبو داوود وغيرهما .

قال النووى : وفي هذا دليل لفضل الاجتماع على تلاوة القرآن في المسجد[5] وهو مذهبنا ومذهب الجمهور ، وقال مالك : يكره ، وتأوله بعض أصحابه .

ويلحق بالمسجد في تحصيل هذه الفضيلة الاجتماع في مدرسة ورباط ونحوهما إن شاء الله تعالى ويدل عليه الحديث المطلق الي تناول جميع المواضع : « لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

---

(١) القوم : الجماعة من الناس وجمعه أقوام وأقاوم وأقاويم . وقوم الرجل أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جد واحد ، ولا يطلق القوم إلا على الجماعة من الرجال .

(٢) وهى المساجد .

(٣) التلاوة : أى القراءة باللسان .

(٤) أى يتدبرون معانيه ويتفهمون أغراضه ومراميه .

(٥) على أن تكون القراءة للتعليم والتعلم .. وإذا قرأ وحده تعبداً فإن هذا يكون سراً دون التشويش على أحد من المتعبدين .

وعن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة : ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو[1] ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة[2] ريحها طيب ، وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر » .

وفي رواية : مثل « الفاجر » بدل « المنافق » . رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه .

قال في عمدة القارىء : « اعلم أن هذا التشبيه والتمثيل في الحقيقة وصف اشتمل على معنى معقول صرف لا يبرزه عن مكنونه إلا تصويره بالمحسوس المشاهد ، ثم إن كلام الله المجيد له تأثير في باطن العبد وظاهره ، وإن العباد متفاوتون في ذلك ، فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك التأثير وهو المؤمن القارىء ، ومنهم من لا نصيب له البتة وهو المنافق الحقيقي ، ومنهم من تأثر ظاهره دون باطنه وهو المرائى أو بالعكس وهو المؤمن الذى لم يقرأ .

وإبراز هذه المعانى وتصويرها في المحسوسات ما هو مذكور في الحديث ، ووجه التشبيه في المذكورات مركب منتزع من أمرين محسوسين : طعم وريح ، وقد ضرب النبى ﷺ المثل بما تنبته الأرض ويخرجه الشجر للمشابهة التي بينها وبين الأعمال ، فإنها من ثمرات النفوس » إلخ .. أ . هـ .

والحاصل كما يقول الشارح في الترغيب والترهيب : « أن النبى ﷺ يضرب المثل للمؤمن الذى يقرأ القرآن بالأترجة وهى ثمرة جمعت بين حلاوة الطعم وطيب الرائحة ، فشبه بها المؤمن القارىء في طيب مخبره وحسن مظهره وتعدى نفعه إلى الغير ، وفي الفتح « خص صفة الإيمان بالطعم ، وصفة التلاوة بالريح لأن الإيمان ألزم للمؤمن عن القرآن إذ يمكن حصول الإيمان بدون القراءة ، وكذلك الطعم ألزم للجوهر من الريح ، فقد يذهب ريح الجوهر

---

(١) المؤمن طيب في نفسه بسبب ما في قلبه من الإيمان .

(٢) وهى كل نبت طيب الريح من أنواع الشموم .

ويبقى طعمه . وقيل : إن الجن لا تقرب البيت الذي فيه الأترج فيناسب أن يمثل به القرآن الذى لا يقربه الشياطين وغلاف حبه أبيض فيناسب قلب المؤمن » أ . هـ .

وأيضاً قال النووي معلقاً على الحديث في شرح مسلم : « فيه فضيلة حافظ القرآن واستحباب ضرب الأمثال لإيضاح المقاصد » ا . هـ .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » .

وفي رواية : « والذى يقرؤه ، وهو يشتد عليه[1] له أجران » رواه البخارى ومسلم واللفظ له ، وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجة .

قال النووى : « السفرة جمع سافر ككاتب وكتبة ، والسافر الرسول ، والسفرة الرسل لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله وقيل : السفرة الكتبة ، والبررة المطيعون من البر وهو الطاعة ، والماهر الحاذق الكامل الحفظ الذى لا يتوقف ولا يشق عليه القراءة بجودة حفظه وإتقانه . وقال القاضي: يحتمل أن يكون معنى كونه مع الملائكة أنه له في الآخرة منازل يكون فيه رفيقاً للملائكة السفرة لاتصافه بصفتهم من حمل كتاب الله تعالى . قال : ويحتمل أن يراد أنه عامل بعملهم وسالك مسلكهم .

وأما الذى يتتعتع فيه فهو الذى يتردد في تلاوته لضعف حفظه فله أجران : أجر بالقراءة وأجر بتعتعته في تلاوته ومشقته .

قال القاضي وغيره من العلماء: «وليس معناه أن الذي تتعتع عليه له من الأجر أكثر من الماهر به ، بل الآخر أفضل وأكثر أجراً لأنه مع السفرة وله أجور كثيرة ولم يذكر هذه المنزلة لغيره . وكيف يلحق به من لم يعتن بكتاب الله تعالى وحفظه وإتقانه وكثرة تلاوته وروايته كاعتنائه حتى مهر فيه والله أعلم » أ . هـ .

---

(١) أى تثقل عليه القراءة لعدم حفظه وإتقانه أو لأن لسانه غير عربي ..

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « يجيء صاحب القرآن يوم القيامة ، فيقول القرآن : يا رب حله ، فيلبس تاج الكرامة ، ثم يقول : يا رب زده ، فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : يا رب ارض عنه ، فيرضى عنه ، فيقال له : اقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة » .

رواه الترمذى ، وحسنه ، وابن خزيمة ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ، قال : « من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه(٣) غير أنه لا يوحى إليه(٤) . لا ينبغى لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد(٥) ، ولا يجهل مع من جهل(٦) ، وفي جوفه كلام الله (٧) » رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « الصيام والقرآن يشفعان(٨) للعبد ، يقول الصيام : رب إنى منعته الطعام والشراب بالنهار فشفعنى فيه ، ويقول القرآن : رب منعته النوم بالليل فشفعنى فيه ، فيشفعان »(٩) رواه أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الجوع ، والطبراني في الكبير

---

(١) أمر من الرقى وهو الصعود .
(٢) الترتيل هو القراءة بتؤدة وتمهل .
(٣) أى جعلها مندرجة وداخلة بين جنبيه .
(٤) أى لا ينقصه من النبوة إلا الوحى .
(٥) يعنى يغضب مع من غضب ، يقال وجد عليه يجد وجدا وموجدة غضب .
(٦) الجهل : ضد الحلم .
(٧) أى لا ينبغى أن يفعل ذلك في حال وجود كلام الله في جوفه .
(٨) أى يطلبان له المغفرة ودخول الجنة .
(٩) أى أن الله بفضله ورحمته يستجيب لهما ويقبل شفاعتهما فيه .

والحاكم واللفظ له ، وقال : صحيح على شرط مسلم . وقال شارح الجامع الصغير إسناده حسن .

* * *

ثم أختم بعد ذلك مجموعة هذه الأحاديث الشريفة التى أرجو أن تكون سبباً في إكثارك من تلاوة القرآن والتدبر فيه : بحديث شريف أرجو كذلك أن يكون سبباً في حبك لتلاوة القرآن والاستماع إليه :

عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن أسيد بن حضير(١) بينما هو في ليلة يقرأ في مربده(٢) إذ جالت(٣) فرسه ، فقرأ ثم جالت أخرى ، فقرأ ثم جالت أخرى أيضاً . قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحيى(٤) فقمت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأسى فيها أمثال السرج(٥) عرجت(٦) في الجو حتى ما أراها . قال : فغدوت على رسول الله ﷺ . فقلت : يا رسول الله .. بينما أنا البارحة في جوف الليل أقرأ في مربدى إذ جالت فرسي ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير(٧) ، قال : فانصرفت وكان يحيى قريباً منها فخشيت أن تطأه ، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها(٨) ، فقال رسول الله ﷺ : تلك الملائكة تستمع لك(٩) ، ولو قرأت(١٠) لأصبحت

---

(١) وهو سيد الأوس بعد سعد بن معاذ رضى الله عنهما .
(٢) المربد للتمر هو البيدر كالبيدر للحنطة .
(٣) أى اضطربت ..
(٤) وهو ابن أسيد وكان نائماً إلى جنب الفرس .
(٥) جمع سراج وهو المصباح .
(٦) يعنى صعدت ، والعروج هو الصعود .
(٧) يعنى أنه ﷺ تمنى أن يستمر فى قراءته ويتابعها ليفوز بما حصل له من استماع الملائكة لقراءته .
(٨) يعنى ظلت تصعد حتى غابت عن نظرى .
(٩) أى تنزلت من السماء لكى تستمع لقراءتك .
(١٠) أى : لو داومت القراءة إلى الصباح .

يراها الناس ما تستتر منهم »[1] . رواه البخارى ومسلم ، واللفظ له .

ورواه الحاكم بنحوه باختصار ، وقال فيه : « فإذا أمثال المصابيح ، قال : مدلاة بين السماء والأرض ، فقال : يا رسول الله .. ما استطعت أن أمضى[2] ، قال : تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن ، أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب »[3] وقال : صحيح على شرط مسلم .

* * *

فهذا معناه — كما تبين لك من خلال كل هذا الذى وقفت عليه : أن قراءة القرآن هى أقرب القربات ، وأفضل الطاعات ، وخير الأذكار .. وخير ذلك ما كان على ترتيب المصحف من أول الفاتحة والبقرة وآل عمران .. إلخ ، كلما ختم القارىء مصحفاً بدأ بآخر ، وقد سماه الرسول ﷺ الحال المرتحل ، أى : كلما حل ارتحل .

* * *

هذا .. ولا تقبل العبادة والتلاوة إلا إذا كانت وفق الأحكام الشرعية التى وردت لنا عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته جيلاً عن جيل ، فقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال : « اقرأوا القرآن بلحون العرب » .

وورد : « جودوا القرآن » .

وورد : « أن من لم يجود القرآن فهو آثم ، والتجويد هو إتقان القراءة طبقاً لأحكام اللغة وآدابها ، وليس المقصود هو التمطيط والغناء وإخراج الحروف عن مواضعها ، فإن هذا إثم وضلال ، ولا تقبل معه عبادة ولا تلاوة .

---

(١) قال العينى : فيه جواز رؤية بنى آدم للملائكة .

(٢) يعنى أن أستمر فى قراءتى ..

(٣) يريد أن يقول له لو واصلت القراءة لرأيت خيراً كثيراً .

ويجب تعلم أحكام القراءة لأحكام أداء التلاوة ، وخاصة في الصلاة ، وخاصة للأئمة : فقد قال ابن الجزرى : أجمع من تعلمه من العلماء على أنه لا تصح صلاة قارىء — أى متقن للقراءة — خلف أمى ، وهو من لا يحسن القراءة .

والتجويد حلية التلاوة ، وزينة القراءة .

فادرسه أخا الإسلام ، واحفظ متونه التي منها — على سبيل المثال — : « تحفة الأطفال في تجويد القرآن » ، « متن الجزرية في التجويد » .

* * *

ولتكن قراءتك دائماً وأبداً بتدبر ، حتى تفهم المراد من كلام الله تعالى في قرآنه ، وإلا كنت من هؤلاء الغافلين الذين طبع الله تعالى على قلوبهم، كما يشير إلى هذا قوله تعالى :

﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾(١) ، أى بل علي قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون .

وفي حديث مرفوع أن النبى ﷺ قال : « إن عليها أقفالاً كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها » ، وأصل القفل اليبس والصلابة ..

وحسبك أن تفهم المراد من قول الشافعى رضى الله عنه : « لو تدبر الناس سورة العصر لكفتهم » .

* * *

واعلم أن أفضل الأماكن التى يتلى فيها القرآن هى :

أولاً : المساجد الثلاثة التى أخبر الرسول ﷺ بفضل الصلاة فيها على

---

(١) محمد : ٢٤ .

غيرها ، وهى : المسجد الحرام بمكة ، مسجد الرسول ﷺ بالمدينة ، المسجد الأقصى بالقدس .

ثانياً : يلي هذا في الفضل ، جميع المساجد المنتشرة في البلاد لقول الله تعالى : ﴿ **في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾[1] .

ثالثاً : ويلحق بالمساجد ، مكان صلاة الشخص في أى مكان صلى فيه إذا أراد أن يقرأ بعد الصلاة القرآن .

* * *

مع ملاحظة أنه تحرم القراءة في أماكن قضاء الحاجة كالمراحيض والخرائب التي يتخذها الناس مباول ، وكذا ما خصص لإلقاء القاذورات وخلافها .

وتحرم القراءة في أماكن اللهو والفجور كبيوت الدعارة وحانات الخمر ...

* * *

وأما الأوقات التي يكون للقراء فيها مزيد فضل :

فمنها : ما هو على مدار اليوم : وهما الفجر والعصر ، لما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « **يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله — وهو أعلم بكم — كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون** » ،

---

(١) النور : ٣٦ ، ٣٧ .

فهذان الوقتان تشهدهما الملائكة ، كما يشير أيضاً إلى هذا قول الله تعالى : ﴿ **إن قرآن الفجر**(١) **كان مشهوداً** ﴾(٢) أي تشهده الملائكة .

ومنها : ما كان على مدار الأسبوع :

وهى : الإثنين والخميس والجمعة :

فقد ورد أن النبى ﷺ كان يخص الإثنين والخميس بالصوم ، وعندما سئل عن ذلك ، قال : « أما يوم الإثنين فيوم ولدت فيه ويوم بعثت فيه ، وأما يوم الخميس فيوم ترفع فيه أعمال العباد ، وأحب أن يرفع عملى وأنا صائم » .

وأما عن يوم الجمعة ، فقد قال الرسول ﷺ عنه : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة »(رواه مسلم) .

ومنها : ما هو على مدار الشهر : وهى الليالي البيض من كل هلال ــ شهر عربي ــ وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، وكذلك أول الهلال ، لأن الرسول ﷺ كان يصوم هذه الأيام ..

ومنها : ما هو على مدار السنة وهى كثيرة : شهر رمضان وفيه العشر الأواخر لإمكان وقوع ليلة القدر في أول ليلة منها .. وشهر رمضان هو شهر القرآن كما أخبر بذلك سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ..** ﴾(٣) .

ومنها العشر الأول من ذى الحجة ، لقول الرسول ﷺ : « ما العمل في أيام أفضل من العمل في هذه العشر » قالوا : ولا الجهاد ؟ قال : « ولا الجهاد ، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء » رواه البخاري عن ابن عباس .

---

(١) أى القرآن الذى يقرأ في صلاة الفجر تشهده الملائكة .

(٢) الإسراء : ٧٨ .

(٣) البقرة : ١٨٥ .

ومنها : أول الشهر المحرم ، ويوم عاشوراء منه ، وشهر ربيع الأول ، وشهر رجب وفيه ليلة السابع والعشرين ، وشهر شعبان .. وذلك لفضل هذه الأيام .

وقراءة القرآن مطلوبة في كل وقت ،باعتبارها ذكراً لله عز وجل .. وقد كان الرسول ﷺ يذكر الله في كل أحواله .. إلا أن الأوقات المذكورة لها مزيد فضل وكرامة عند الله عز وجل يضاعف فيها الحسنات ، وقد ورد في الحديث الشريف :

« وإن لله عز وجل في أيام دهركم نفحات فاغتنموها » أو : « ألا فتعرضوا لها » كما قال صلوات الله وسلامه عليه .

* * *

ويستحب كذلك الجلوس في حلق الذكر التي من أهمها — كما عرفت — مجالس تعليم القرآن ، ومجالس العلم النافع ، ومجالس الذكر بصفة عامة :

فعن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » قالوا : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : « حلق الذكر ، فإن لله تعالى سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم » .

وروى مسلم عن معاوية أنه قال : خرج رسول الله ﷺ على حلقة من أصحابه فقال : « ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا . قال : أما أنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتانى جبريل فأخبرني أن الله تعالى يباهى بكم الملائكة » .

* * *

أفضل الأذكار بعد القرآن

وهناك أذكار صحيحة وردت كذلك عن النبى ﷺ من الخير أن تتقرب

إلى الله تبارك وتعالى بها ، فإليك نصها :

عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن النبى ﷺ ، قال : « ما قال عبد : لا إله إلا الله قط مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى إلى العرش(١) ما اجتنبت الكبائر » رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن غريب .

وعنه أن النبى ﷺ ، قال : « جددوا إيمانكم . قيل : يا رسول الله .. وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول : لا إله إلا الله » رواه أحمد بإسناد حسن .

وعن جابر رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ ، قال : « أفضل الذكر : لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمد لله » رواه النسائى وابن ماجه والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

* * *

وهناك كلام هام جداً ذكره — صاحب الدين الخالص(٢) — وهو فضيلة الشيخ محموذ خطاب السبكى رحمه الله تعالى ، تحت عنوان :

كلمة التوحيـــد

رأيت كذلك أن أزودك بها— إتماماً للفائدة — فإليك :

كلمة التوحيد ، هى : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ويتعلق بها خمسة أمور :

أ — ضبطها : ينبغى ترقيق حروفها ما عدا لام الله ، وأن تمد « لا » مداً طبيعياً إلى ست حركات ، وتحقق همزة إله ، وتمد لامه مداً طبيعياً ، وتفتح

---

(١) أى حتى يصل هذا القول إلى العرش ، وهذا كقول الله تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ (فاطر : ١٠) .

(٢) فى الجزء الأول صفحة ١٢٧ .

هاؤها فتحاً بيناً بلا إشباع . وتحقق همزة « إلا » بلا إشباع وتشدد لامها ، ويفخم لفظ الجلالة ، وتضم الهاء وصلاً ، وتسكن وقفاً ، وحينئذ : يجوز مد لفظ الجلالة إلى ست حركات .

ب ـ فضل لا إله إلا الله : قد ورد في فضلها أحاديث كثيرة منها :
حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « عبد الله بن عمرو » أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » أخرجه مالك والترمذى واللفظ له ، وقال : حديث غريب .

وحديث جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « أفضل الذكر : لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمد لله »(1) أخرجه أحمد والنسائى والترمذى وقال : حسن غريب وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه .

وحديث أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « قال موسى عليه الصلاة والسلام : يا رب علمنى ما أذكرك به ، وأدعوك به . فقال : يا موسى .. قل : لا إله إلا الله . قال موسى عليه الصلاة والسلام : يا رب كل عبادك يقولون هذا . قال : قل : لا إله إلا الله . قال : لا إله إلا أنت . إنما أريد شيئاً تخصنى به . قال : يا موسى .. لو أن السموات السبع في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة ، لمالت بهن لا إله إلا الله » أخرجه النسائى وابن حبان .

وحديث عبد الله بن عمرو أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله تملؤه ، ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه » أخرجه الترمذي .

---

(1) أطلق على الحمد دعاء على سبيل التجوز ، لأن الحمد يتضمن الدعاء لقوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ (إبراهيم : ٧) أى : فمن حمد الله تعالى كأنه يقول : رب أدم على نعمتك وزدنى منها .

جـ ــ حكم النطق بكلمة التوحيد : يجب على من نشأ مؤمناً ، أن يذكرها في العمر مرة ناوياً أداء الواجب ، وإلا فهو عاص . ثم ينبغي له الإكثار من ذكرها عارفاً معناها مستحضراً ما احتوت عليه لينتفع بذكرها دنيا وأخرى ، فتتفجر ينابيع الحكمة من قلبه ، ويرى لها من الأسرار والعجائب إن شاء الله تعالى ما لا يدخل تحت الحصر .

وأما الكافر الذي يريد الدخول في الإسلام ، فذكره لها ليس شرطاً في صحة إيمانه ولا جزءاً من مفهومه ، وإنما جعل الشرع النطق بالشهادتين شرطاً لازماً لإجراء الأحكام الدنيوية على المؤمن كالصلاة خلفه ، والصلاة عليه ، ودفنه في مقابر المسلمين ، وتزوجه مسلمة ، فإذا لم ينطق بهما لعذر كالخرس ، أو لم يتمكن من النطق بهما ، بأن مات عقب إيمانه بقلبه ، أو اتفق له عدم النطق بهما بعد الإيمان بقلبه فهو مؤمن عند الله وناج في الآخرة ، وأما من امتنع عن النطق بهما عناداً بعد أن عرض عليه ذلك فهو كافر والعياذ بالله تعالى ، ولا عبرة بتصديقه القلبي مع هذا الامتناع .

د ــ تضمنها العقائد : كل ما تقدم من العقائد يندرج في كلمة التوحيد ، وذلك أن معنى لا إله إلا الله : « لا معبود بحق إلا الله » ، ويلزم هذا المعنى أن يكون غنياً عن كل ما سواه ، وأن يفتقر إليه كل ما عداه .

ويلزمه كونه غنياً عن كل ما سواه :

أ ــ وجوب الوجود له والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس والسمع والبصر والكلام ، وعدم الغرض في فعل ما أو حكم كذلك ، وعدم التأثير بالقوة المودعة ، وعدم وجوب فعل عليه تعالى .

ب ــ واستحالة العدم والحدوث ، والفناء ، والمماثلة للحوادث ، والاحتياج لموجد أو ذات يقوم بها . والصمم ، والعمى ، والبكم .

فهذه عشرون عقيدة . منها الواجب له تعالى ، ومنها المستحيل في حقه تعالى .

ويلزم كونه مفتقراً إليه كل ما عداه :

أ ــ وجوب الوحدانية له تعالى في الذات والصفات والأفعال ، والحياة والعلم والإرادة والقدرة ، وحدوث العالم ، وعدم التأثير بالعلة والطبع والتولد .

ب ــ واستحالة التعدد في الذات والصفات والأفعال اتصالاً وانفصالاً علي ما تقدم ، والموت والجهل والكراهية والعجز ، وقدم العالم والتأثير بالعلة والطبيعة والتولد .

فهذه أربع عشرة عقيدة ما بين واجب له تعالى ومستحيل عليه تعالى .

ومعنى « محمد رسول الله » : ثبوت الرسالة له صلى الله عليه وآله وسلم ، يندرج تحته :

أ ــ وجوب الأمانة والتبليغ والصدق ، واتصافه بما لا نقص فيه ، سواء أكان واجباً كالفطانة وعدم دناءة الآباء والأمهات ، أم جائزاً كالمرض والجوع .

ب ــ وإيماننا بجميع الأنبياء والكتب والملائكة واليوم الآخر ، والقضاء والقدر .

جـ ــ واستحالة الخيانة والكتمان والكذب . واتصافه بما فيه نقص كالبلادة والجنون والعمى .

فهذه أربع عشرة عقيدة تضم لما تقدم تكون جملتها ثماني وأربعين عقيدة.

* * *

ثم يقول بعد ذلك صاحب الدين الخالص رحمه الله تعالى مشيراً إلى بعض الملاحظات الهامة المتعلقة بالذكر ، تحت عنوان :

كيفية الذكر وفضله

قد علمت أن هذه الكلمة ــ وهى لا إله إلا الله ــ من أفضل الأذكار

وأشرفها عند الله تعالى: فينبغي للعاقل أن يعنى بها ، فيكون حالة الذكر علي طهارة متطيباً متجملاً مستقبلاً القبلة ، ويتحرى الانفراد عن الخلق ما استطاع ويستحضر المعنى بقدر الإمكان . ولا يترك الذكر عند عدم حضور قلبه . بل يذكر متحلياً ببقية الآداب راجياً أن تغشاه نفحة إلهية تنقله من الغفلة إلى الحضور ، ومن الحضور إلى المشاهدة ، وألا يتصرف في شيء من حروفها بزيادة أو نقصان . بل يقتصر على الوارد شرعاً . وليحذر مما عليه غالب الناس اليوم من تحريف الذكر والإلحاد في أسمائه تعالى ، فإنه حرام بالإجماع ولا سند لهم في ذلك إلا قولهم : وجدنا أشياخنا هكذا يذكرون ، وهذا لا يصدر إلا من الجهلة الذين لا يميزون الغث من السمين . فعلى المؤمن ألا يخرج في ذكره وكل أعماله عما جاء به الكتاب العزيز ، ونطقت به السنة المطهرة .

هذا .. واعلم : أن الذكر حقيقة هو ما يجرى على اللسان والقلب ، وأكمله ما كان فيه استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفى النقائص عنه ، والمراد به ما يشتمل التسبيح والتحميد وتلاوة القرآن والاستغفار والصلاة على النبى ﷺ وغير ذلك . قال الفخر الرازى : المراد بذكر اللسان الألفاظ الدالة على التسبيح والتحميد والتمجيد ، والذكر بالقلب : التفكر في أدلة الذات والصفات والتكاليف من الأمر والنهى ، وفي أسرار مخلوقات الله ، والذكر بالجوارح : هو أن تصير مستغرقة بالطاعات ، ولذا سمى الله تعالى الصلاة ذكراً في قوله : ﴿ .. **فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾[1] .

هذا .. والذكر سبعة أقسام : ذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر القلب الخوف والرجاء ، وذكر الروح التسليم والرضا .

* * *

---

(١) الجمعة : ٩ .

ثم ذكر بعض الأحاديث الشريفة التى أرجو أن تنتفع بها وتجعلها ورداً لك ، وهى :

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال :

« من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة : كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك » أخرجه الجماعة(١) إلا النسائى وأبا داوود .

وعنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة : حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر(٢) » أخرجه مالك وأحمد والشيخان والترمذى وابن ماجه .

وعن مكحول عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله(٣) ، فإنها كنز من كنوز الجنة » قال مكحول : فمن قال لا حول ولا قوة إلا بالله ولا منجى من الله إلا إليه ، كشف الله عن سبعين باباً من الضر أدناها الفقر .

أخرجه الترمذى ، وقال إسناده ليس بمتصل لأن مكحولاً لم يسمع من أبي هريرة ، وأخرجه النسائى مطولاً بسند رجاله ثقات ، ورفع : ولا منجي من الله إلا إليه .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « الباقيات الصالحات : لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والله أكبر ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » أخرجه النسائى وابن حبان والحاكم وصححه .

---

(١) وهم : مالك وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٢) الزبد بفتحتين من البحر وغيره كالرغوة .

(٣) عن ابن مسعود مرفوعاً : « ألا أخبرك بتفسير لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله » أخرجه ابن النجار .

ووود كذلك ، في :

فضل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وغير ذلك

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » رواه الشيخان والترمذى .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » رواه مسلم والترمذى .

وعن أبي ذر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ قلت : أخبرني يا رسول الله . قال : إن أحب الكلام إلى الله : سبحان الله وبحمده » رواه مسلم والترمذى . ولفظه : « أحب الكلام إلى الله عز وجل ما اصطفى الله لملائكته : سبحان ربى وبحمده ، سبحان ربى وبحمده » .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « من قال : سبحان ربى العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة » رواه الترمذى وحسنه .

وعن أبي سعيد أن النبى ﷺ ، قال : «استكثروا من الباقيات الصالحات » . قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « التكبير ، والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » رواه النسائى والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

وعن عبد الله رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لقيت إبراهيم ليلة أسرى بى ، فقال : يا محمد أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان(١) وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ،

---

(١) قيعان : جمع قاع أى أنها مستوية منبسطة واسعة .

ولا إله إلا الله ، والله أكبر » رواه الترمذي والطبراني ، وزاد : « ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وعند مسلم : أن النبي ﷺ ، قال : « أحب الكلام إلى الله أربع — لا يضرك بأيهن بدأت — : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » رواه البخاري ومسلم .

أى : أجزأتاه عن قيام تلك الليلة ، وقيل : كفتاه ما يكون من الآفات تلك الليلة ، وقال ابن خزيمة في صحيحه « باب ذكر أقل ما يجزىء من القراءة في قيام الليل » ثم ذكره .

وعن أبي سعيد رضى الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ فشق ذلك عليهم ، وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : الله الواحد[1] الصمد ثلث القرآن » رواه البخارى ومسلم والنسائى .

وورد كذلك ، من :

الذكر المضاعف وجوامعه

عن جويرية رضى الله عنها ، أن النبي ﷺ خرج من عندها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة . فقال : « ما زلت على الحال التى فارقتك عليها ؟ قالت : نعم . قال النبي ﷺ : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته » رواه مسلم وأبو داوود .

ودخل رسول الله ﷺ على امرأة وبين يديها نوى أو حصى ، تسبح الله

---

(١) يقصد سورة الإخلاص .

به ، فقال : « أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا ، أو أفضل : سبحان الله عدد ما خلق في السماء ، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض ، وسبحان الله عدد ما خلق بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك » رواه أصحاب السنن والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ حدثهم أن عبداً من عباد الله قال : « يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك . فعضلت[1] بالملكين ، فلم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا إلى السماء فقالا : يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ؟ قال الله ــ وهوأعلم بما قال عبده ــ ماذا قال عبدى ؟ قالا : يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك . فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقاني فأجزيه بها » رواه أحمد وابن ماجه .

* * *

فضل الدعـــاء

واعلم : أن الدعاء ذكر وزيادة . وقد ورد الأمر به ، قال تعالى : ﴿ .. **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم** ﴾[2] .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « من لم يسأل الله يغضب عليه » أخرجه الترمذي والبخارى في الأدب والحاكم وصححه .

وعن أنس مرفوعاً : « الدعاء مخ العبادة » أخرجه الترمذى وفيه ابن لهيعة فيه مقال . وعنه مرفوعاً : « لا يرد الدعاء بين الأذان والإقامة » أخرجه أحمد والثلاثة وابن حبان وصححه وحسنه الترمذى وزاد : قالوا : فما نقول يا رسول الله ؟ قال : « سلوا الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة » .

---

(١) فعضلت : أى اشتدت وعظمت .

(٢) غافر : ٦٠ .

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه أن النبى صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، قال : « سيد الاستغفار أن يقول : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت . أبوء لك[1] بنعمتك على ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت : من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسى ، فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح ، فهو من أهل الجنة » رواه أحمد والبخارى والدارمى وأبو داوود والترمذى والنسائى .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسى وحين يصبح : « اللهم إنى أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة . اللهم إنى أسألك العفو والعافية في ديني ودنياى وأهلى ومالى . اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى[2] واحفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » أخرجه النسائى وابن ماجه واللفظ له ، والحاكم وصححه .

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم علمها هذا الدعاء :

« اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم . اللهم إنى أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك . وأعوذ بك من شر ما عاذ به عبدك ونبيك . اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل . وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل . وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لى خيراً » أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححاه .

وقال طلق بن حبيب : جاء رجل إلى أبي الدرداء فقال : قد احترق

---

(١) أى : اعترف .

(٢) العفو : محو الذنوب . والعافية : السلامة من الأسقام والبلايا . والعورات : العيوب . والروعات : الفزعات ، فالمعنى : ادفع عنى خوفاً يقلقني ويزعجنى وأن أغتال .

بيتك . فقال : ما احترق ، لم يكن الله ليفعل ذلك بكلمات سمعتهن من النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، من قالها أول نهاره لم تصبه مصيبة حتى يمسي، ومن قالها آخر النهار لم تصبه مصيبة حتى يصبح : « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً . اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » أخرجه ابن السنى .

وفي بعض الروايات أنه قال : انهضوا بنا ، فقام وقاموا معه ، فانتهوا إلى داره ، وقد احترق ما حولها ، ولم يصبها شيء .

* * *

وهناك أذكار كثيرة تستطيع أخا الإسلام الوقوف عليها[1] والتقرب إلى الله تبارك وتعالى بها في جميع المناسبات والأحوال ..

* * *

وحسبى في النهاية أن أذكرك بهذا الأثر الذى جاء فيه : أن رجلاً مر على رجل أعمى وبه كثير من الأمراض فسمعه يقول : الحمد لله الذي عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه .. فلما سمعه يقول هذا ، قال له متعجباً : يا أخى ما الذى عافاك الله منه ؟ لقد رأيت جميع المصائب وقد أصابتك !؟ فقال له : إليك عنى يا بطال ، فإنه عافانى إذ أطلق لساناً يوحده ، وقلباً يعرفه ، وفي كل وقت يذكره .. ثم قال :

حمدت الله ربى إذ هدانى ... إلى الإسلام والدين الحنيف
فيذكره لسانى كل وقت ... ويعرفه فؤادى باللطيف

---

(١) في أمهات الكتب التي منها : « الترغيب والترهيب » ، « رياض الصالحين » ، « تحفة الذاكرين » ، « الأذكار للنووى » .

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، حتى تكون من الذاكرين لا من الغافلين ، و :

تمسك بحبل الشرع واضرب بسيفه ... رؤوس المعاصي واتخذ منه جوشنا
وبادر إلى إنكار ما كان خارجاً ... عن الحق واحذر أن تكون مداهنا
ولا تجعل الذكر النفيس وسيلة ... إلى عرض الدنيا المعرض للفنا
ولا تجعل المقصود منه تكسباً ... فتنحط قدراً من علاك وتفتنا
ولا تتخذه للرياسة سلمـــا ... فتغضب مربوبا ورباً مهيمنا

* * *

ولتكن كذلك مكثراً من الصلاة على الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ولا سيما في يوم الجمعة ، فضلاً عن بقية الأيام :

فقد روى أبو داوود والنسائى عن أوس رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فأكثروا علي من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة على » فقالوا : يا رسول الله .. وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ — أى بليت — قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

وفي سنن أبى داوود عن أبى هريرة رضى الله عنه بإسناد صحيح : أن رسول الله ﷺ ، قال : « ما من أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » .

* * *

وحسبك إن فعلت ذلك أنك ستكون من أولى الناس برسول الله ﷺ :

فقد روى الترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة » قال الترمذى : حديث حسن : أى أحقهم بشفاعته وأقربهم مجلساً منه .. صلوات الله وسلامه عليه .

بل وستكون كذلك ، فقد فزت بالخير العظيم المشار إليه في الأحاديث الشريفة الآتية :

روى الإمام أحمد عن أبى طلحة الأنصارى ، قال : « أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس يرى في وجهه البشر ، فقالوا : يا رسول الله .. أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البشر . قال : « أجل .. أتانى آت من ربى عز وجل ، فقال : من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها » قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « من سره أن يكال له بالمكيال الأوفى — إذا صلى علينا أهل البيت — فليقل : اللهم صل على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته ، وأهل بيته : كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » رواه أبو داوود والنسائى .

وعن أبي بن كعب رضى الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام ، فقال : يأأيها الناس اذكروا الله ، اذكروا الله جاءت الراجفة[1] تتبعها الرادفة[2] جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه ، قلت : يا رسول الله .. إنى أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتى ؟ قال : ما شئت . قلت : الربع ؟ قال : ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك . قلت : النصف ؟ قال : ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك . قلت : فالثلثين ؟ قال : ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك . قلت : أجعل لك صلاتى كلها[3] . قال : « إذن تكفى همك ويغفر لك ذنبك » رواه الترمذى .

* * *

(١) الراجفة : النفخة الأولى .
(٢) الرادفة : النفخة الثانية .
(٣) أى اجعل مجالسى كلها في الصلاة والسلام عليك .

هذا .. وإذا كان الله تبارك وتعالى قد أمرنا بهذا ،في قوله تعالى : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبي ، ياأيها الذين آمنوا صلوا علي وسلموا تسليماً** ﴾(١) .

فإن المقصود من هذه الآية ـــ كما قال ابن كثير ـــ : أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى ، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلى عليه ، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين ، العلوى والسفلى .

وقال البخارى : قال أبو العالية : « صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء » .

وقال أبو عيسى الترمذي : وروى عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم ، قالوا : « صلاة الرب الرحمة ، وصلاة الملائكة الاستغفار » .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، واعلم أنه من الواجب عليك أن تصلى وتسلم عليه ، كلما ذكر صلوات الله وسلامه عليه .. استناداً إلى هذا الأمر الذى ينصرف إلى الوجوب في هذه الآية الكريمة .. وقد ذهب إلى وجوب هذا طائفة من العلماء ، منهم الطحاوى والحليمى واستدلوا على ذلك بما رواه الترمذى وحسنه :

عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ ، قال : « رغم أنف رجل(٢) ذكرت عنده فلم يصل على ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة » .

ولحديث أبى ذر : أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن أبخل الناس من ذكرت عنده فلم يصل على » .

---

(١) الأحزاب : ٥٦ .
(٢) أى ذل وانقاد .

وقد أشار إلى هذا محيى السنة الشيخ محمود خطاب السبكى رحمه الله تعالى ، حيث يقول في كتابه : « المقامات العلية » :

والسحب لا تحكى عطاياه فما أنداه بحراً بالسخاء وأكرما
أنعم بمن سنى الكمال له انتمى مولاه قد صلى عليه وسلما
من لم يصل عليه كان بخيلا
صلوا عليه بكرة وأصلا

* * *

وقد ذهب آخرون — من العلماء — إلى وجوب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة ، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس ، بل تستحب :

لحديث أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ ، قال : « ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة[1] يوم القيامة ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم » رواه الترمذي وقال : حسن .

* * *

واستحب العلماء كذلك كتابة الصلاة والسلام عليه كلما ذكر اسمه صلوات الله وسلامه عليه ، إلا أنه لم يرد في ذلك حديث يصح الاحتجاج به .

وذكر الخطيب البغدادى ، قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كثيراً ما يكتب اسم النبى ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة . قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظاً .

وحول الجمع بين الصلاة والتسليم :

قال النووى : إذا صلى على النبى ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، ولا يقتصر على أحدهما ، فلايقول : صلى عليه فقط ، ولا : عليه السلام فقط .

---

(١) الترة : معناها الحسرة أو النقص ، أو التبعة .

وتستحب الصلاة على الأنبياء والملائكة استقلالاً .

وأما غير الأنبياء : فإنه يجوز الصلاة عليهم تبعاً باتفاق العلماء . وقد تقدم قوله ﷺ : « اللهم صل على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين » .. إلخ .

وتكره الصلاة عليهم استقلالاً ، فلا يقال : عمر ﷺ .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، ثم إليك في ختام هذا العرض المبارك المتعلق بالصلاة على الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه هذين الحديثين الشريفين اللذين قرأتهما في فقه السنة تحت عنوان :

صيغة الصلاة والسلام عليه

روى مسلم عن أبي مسعود الأنصارى أن بشير بن سعد قال : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله ، كيف نصلى عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد . والسلام كما علمتم » .

وروى ابن ماجه ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه . قالوا له : فعلمنا ، قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ، ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقدمين ، وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير ، وقائد الخير ، ورسول الرحمة . اللهم ابعثه مقاماً يغبطه به الأولون . اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم ، إنك حميد مجيد .

وهناك صيغ أخرى في كتب السنة الصحيحة تستطيع أن ترجع إليها .. إن شئت الاستزادة من هذا الخير الذي ما بعده خير ..

ولله در القائل المحب لرسول الله ﷺ :

إن شئت من بعد الضلالة تهتدى صل على الهادى البشير محمد
يا فوز من صلى عليه فإنه يحوى الأمانى بالنعيم السرمد
يا قومنا صلوا عليه فتظفروا بالبشر والعيش الهنى الأرغد
صلوا عليه وارفعوا أصواتكم يغفر لكم في يومكم قبل الغد
ويخصكم رب الأنام بفضله بأفاضل الجنات يوم الموعد
صلى عليه الله جل جلاله ما لاح فى الآفاق نجم الفرقد

* * *

هذا بالإضافة إلى إنك ستفوز مع المصلين على المرسلين بعشر كرامات :

إحداهن : صلاة الملك الغفار .
الثانية : شفاعة النبى المختار .
الثالثة: الاقتداء بالملائكة الأبرار .
الرابعة : مخالفة المنافقين والكفار .
الخامسة : محو الخطايا والأوزار .
السادسة : قضاء الحوائج والأوطار .
السابعة : تنوير الظواهر والأسرار .
الثامنة : النجاة من النار .
التاسعة : دخول دار القرار .
العاشرة : سلام الملك الغفار ..

* * *

وأما عن العنصر الثانى والأخير من الوصية العظيمة التى ندور حولها ، وهو : « .. وصلوا صلاتكم فى أول وقتكم .. » .

فهو المشار إليه في الآية الكريمة ، التي يقول الله تبارك وتعالى فيها : ﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** ﴾[1] : أى فرضاً مؤقتاً بوقت لا يصح أن تتقدم عليه ، أو تتأخر عنه ، إلا لضرورة شرعية ، وهى :

أولاً ـ النوم : فمن نام عن الصلاة ـ ولم يكن هناك من يوقظه مثلاً ـ حتى خرج وقتها ، لا يكون آثماً ، بل عليه أن يصلى متى استيقظ ، ما دامت نيته عند النوم كانت متجهة لإدراك الصلاة ، قبل خروج وقتها .

فعن أبي أبي قتادة رضي الله عنه ، قال : « سرنا مع رسول الله ﷺ ، ليلة ، فقال بعض القوم : لو عرست بنا[2] يا رسول الله ؟ قال : أخاف أن تناموا عن الصلاة .

فقال بلال : أنا أوقظكم . فاضطجعوا ، وأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه ، فنام ، فاستيقظ النبى ﷺ ، وقد طلع حاجب الشمس . فقال : يا بلال .. أين ما قلت ؟ فقال بلال : ما ألقيت على نومة مثلا قط ! قال : إن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردها عليكم حين شاء . يابلال قم فأذن بالناس بالصلاة . فتوضأ . فلما ارتفعت الشمس ، وابيضت : قام فصلى بالناس جماعة » رواه البخارى ومسلم .

وفي رواية لأبى داوود والترمذى والنسائى : فقال الرسول ﷺ : « أما إنه ليس في النوم تفريط ، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يدخل وقت الصلاة الأخرى » .

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه : « فلم يستيقظ حتى طلعت الشمس ، فقال النبى ﷺ : ليأخذ كل رجل برأس راحلته ، فإن هذا منزل حضرنا فيه الشيطان . قال : ففعلنا » .

ثانياً ـ الإغماء : فمن أغمى عليه ، ولم يفق ، حتى خرج الوقت ،

---

(١) النساء : ١٠٣ .

(٢) التعريس : هو البيات ليلاً

فليصله متى أفاق ، ولا إثم عليه .. وذلك لأن الإغماء كالنوم في ستر العقل ، وفقد الوعى .

ثالثاً ــ النسيان : لقوله ﷺ : « من نسى صلاة فليصل إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك » أخرجه البخارى ومسلم .

رابعاً ــ جهاد العدو : فإن شغل المسلمون بقتال العدو .. ولم يتمكنوا من أداء الصلاة على أى وجه من الوجوه ــ كصلاة الخوف مثلاً ــ حتى خرج وقتها ، فليصلوها متى تمكنوا .

فعن جابر رضى الله عنه : « أن عمر رضى الله عنه . جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس ، فجعل يسب كفار قريش ، وقال : يا رسول الله .. ما كدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب . فقال رسول الله ﷺ : « والله ما صليتها » . فقمنا إلى بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا . فصلى العصر ، بعدما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب » . أخرجه البخارى .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ يوم الخندق عن أربع صلوات ، حتى ذهب من الليل ما شاء الله . فأمر بلالاً فأذن ، ثم أقام ، فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ثم أقام فصلى المغرب ، ثم أقام فصلى العشاء .. أخرجه الترمذى والنسائى .

* * *

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ هذا ، حتى لا يؤخر الصلاة عن وقتها ، إذا لم يكن هناك عذر من هذه الأعذار .

وإلا كان من المشار إليهم في الآية الكريمة التى يقول الله تعالى فيها : ﴿ **فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾[1] :

فهم كما ذكر القرطبى : عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ، أن النبى

---

(١) الماعون : ٤ ، ٥ .

ﷺ ، قال — في تفسيرها — : « الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها » .

وقد روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى الصلاة لوقتها ، وأسبغ لها وضوءها ، وأتم لها قيامها وخشوعها ، وركوعها وسجودها ، خرجت بيضاء مسفرة ، تقول : حفظك الله كما حفظتنى ، ومن صلاها لغير وقتها ، ولم يسبغ لها وضوءها ، ولم يتم لها خشوعها ، ولا ركوعها ، ولا سجودها ، خرجت وهى سوداء مظلمة ، تقول : ضيعك الله كما ضيعتنى ، حتى إذا كانت حيث شاء الله ، لفت كما يلف الثوب الخلق ثم ضرب بها وجهه » رواه الطبراني في الأوسط .

* * *

هذا مع ملاحظة :

أولاً : أن لكل صلاة من الصلوات الخمس وقتاً معلوماً ، **تؤدى فيه** ، كما أشارت الآية الكريمة التي يقول الله تبارك وتعالى فيها : ﴿ **فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ، فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** ﴾[١] .

وقد بينت السنة المطهرة هذه الأوقات ، ووضعت لها معالمها في أحاديث كثيرة :

منها الحديث الذي يعرف بحديث أمامة جبريل الذي قال عنه البخاري بأنه أصح شيء في المواقيت ، وهو :

ما رواه جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه جاءه جبريل ، فقال له : قم فصله ، فصلى الظهر حين زالت الشمس ، ثم جاءه العصر ، فقال : قم فصله ، فصلى العصر حين صار ظل كل شيء مثله ، ثم جاءه المغرب ، فقال : قم فصله ، فصلى المغرب حين وجبت الشمس[٢] ثم

---

(١) النساء : ١٠٣ .

(٢) وجبت الشمس : أى غربت .

جاءه العشاء، فقال له: قم فصله، فصلى العشاء حين غاب الشفق، ثم جاءه الفجر حين برق الفجر، ثم جاءه من الغد للظهر، فقال له: قم فصله، فصلى الظهر حين كان ظل كل شيء مثله، ثم جاءه العصر، فقال: قم فصله، فصلى العصر حين صار ظل كل شيء مثليه، ثم جاءه المغرب وقتاً واحداً لم يزل عنه[1]، ثم جاءه العشاء حين ذهب نصف الليل — أو قال ثلث الليل — فصلى العشاء، ثم جاءه حين أسفر جداً، فقال: قم فصله، فصلى الفجر، ثم قال: « ما بين هذين الوقتين وقت » رواه أحمد والنسائى والترمذى.

وما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن وقت الصلوات، فقال: « وقت صلاة الفجر: ما لم يطلع قرن الشمس الأول[2]، ووقت صلاة الظهر: إذا زالت الشمس عن بطن السماء ما لم يحضر العصر، ووقت صلاة العصر: ما لم تصفر الشمس ويسقط قرنها الأول، ووقت صلاة المغرب: إذا غابت الشمس، ما لم يسقط الشفق، ووقت صلاة العشاء: إلى نصف الليل ».

* * *

وتوضيحاً لهذا .. فإننى أحب أن أزودك بهذا التلخيص الذي أوجزه صاحب كتاب: « الفقه الواضح » لما جاء في هذين الحديثين الشريفين الصحيحين، بعيداً عن الإطناب الذى لا يتسع له المقام، فإليك:

وقت الظهر:

يبدأ وقت الظهر باتفاق الفقهاء، إذا زالت الشمس عن وسط السماء، أى مالت جهة الغرب كما ثبت في حديث جبريل وغيره من الأحاديث .. ولكن الخلاف وقع في بيان نهايته، فقال الشافعية: ينتهى وقت الظهر بحضور

---

(١) أى لم يتحول عنه.

(٢) قرنها الأول: جانبها وهو أول ما يظهر منها.

وقت العصر ، لقوله ﷺ في الحديث المتقدم الذي رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص : « ووقت صلاة الظهر إذا زالت الشمس عن بطن السماء ما لم يحضر العصر » .

وقال مالك وجمهور من الفقهاء : وقت الظهر يدخل في وقت العصر بمقدار ما يصلى المصلى أربع ركعات ، فهما وقتان مشتركان ، واستدلوا بما جاء في حديث أمامة جبريل من أن النبى ﷺ صلى وراء جبريل العصر في اليوم الأول حين صار ظل كل شيء مثله ، وصلى وراءه الظهر في اليوم الثاني حين صار ظل كل شيء مثله . أى : في نفس الوقت الذي صلى فيه العصر في اليوم الأول : وفي هذا دلالة على أن الوقتين متداخلان .

وقت العصر :

يدخل وقت العصر بصيرورة ظل الشيء مثله بعد الزوال ، لحديث جبريل السابق .

وهو مذهب مالك والشافعى وأحمد وجمهور غفير من فقهاء الحنفية ، وينتهى وقت العصر بغروب الشمس على الأصح .

لحديث أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، قال : « من أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر » أى : أدركه حاضراً . أخرجه أصحاب السنن ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وقت المغرب :

ويدخل وقت المغرب بغروب الشمس باتفاق الفقهاء ، لحديث سلمة بن الأكوع : « أن النبى ﷺ كان يصلى المغرب إذا غربت الشمس وتوارت بالحجاب » أخرجه أصحاب السنن إلا النسائى .

واختلفوا في آخره ، فمشهور مذهب المالكية أن وقتها المختار ينتهى بمضى ما يسعها بعد الأذان ، والإقامة ، وتحصيل شروطها ، وهى الطهارة من الحدث والخبث ، وستر العورة ، واستقبال القبلة ، لحديث أمامة جبريل

المتقدم ، وفيه أن جبريل صلى بالنبى ﷺ في اليومين في وقت واحد ، فدل هذا الحديث على أن المغرب ليس لها إلا وقت واحد مختار ، وهو الوقت الذي يتهيأ فيه الإنسان للصلاة بعد الأذان والإقامة من تحصيل شروطها المتقدمة .

ومشهور مذهب الشافعية والحنابلة ، وقول آخر لمالك ، أن وقتها يمتد إلى قبيل مغيب الشفق الأحمر أى قبل دخول وقت العشاء بقليل ، لحديث ابن عمرو أن النبى ﷺ قال : « الشفق : الحمرة ، فإذا غاب الشفق وجبت العشاء » أخرجه الدارقطنى .

وهذا الحديث يفيد أن وقت المغرب يمتد حتى حضور وقت العشاء ، وهو مغيب الشفق الأحمر ، وينتهى وقتها الاختيارى من غروب الشمس إلى قبيل وقت العشاء بمقدار ما يسع ركعة بتمامها .

وقت العشـاء :

يدخل وقت العشاء إذا غاب الشفق الأحمر ، وينتهى وقتها الاختيارى ، إذ جاء ثلث الليل ، أو نصفه على خلاف في ذلك بين الفقهاء ، تبعاً لاختلاف الروايات .

ويخرج وقتها بطلوع الفجر الصادق .

وقت الصبح :

يبدأ وقت الصبح من طلوع الفجر الصادق ، وينتهى بطلوع الشمس .

وهذا بإجماع جمهور الفقهاء . واختلفوا في وقته المختار .

فقال مالك والشافعى وأحمد :

يستحب المبادرة بصلاة الصبح أول الوقت لقول عائشة رضى الله عنها : « إنْ كان رسول الله ﷺ ليصلى الصبح فينصرف النساء متلفعات بمروطهن لا يُعرفن من الغلس » ـــ أى الظلمة ـــ أخرجه مسلم .

ويرى الحنفية : أن الإسفار بالصبح أفضل ، لحديث رافع بن خديج أن

النبى ﷺ ، قال : « أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر » رواه أحمد والنسائى والترمذي .

والإسفار : هو الوضوح البين الذي يمكن فيه مشاهدة الأشياء بوضوح .

ويرى كثير من المالكية : أن التعجل أفضل إذا لم يكن المصلى ينتظر جماعة ، والتأخير إلى الإسفار إذا كان الغرض منه تكثير الجماعة جمعاً بين الأحاديث التى تبدو متعارضة .

* * *

وثانياً : ومن خلال ما وقفنا عليه في الحديثين ، وفي هذا التوضيح التفصيلي لأوقات الصلاة : يتبين لنا أن لكل صلاة وقتين :

وقت أداء .. ووقت قضاء .

وأن وقت الأداء له ثلاثة أوقات :

وقت بداية ، ووقت وسط ، ووقت نهاية ، وإلى هذا يشير الرسول ﷺ في قوله :

« أول الوقت رضوان الله ، ووسط الوقت رحمة الله ، وآخر الوقت عفو الله عز وجل » أخرجه الدارقطنى .

وكما أوجز أيضاً صاحب كتاب « الفقه الواضح » :

وقت البداية يسميه الفقهاء الفضيلة ، لأنه من الأفضل للعبد أن يؤدي الصلاة فيه ، حتى ينال رضوان الله عز وجل .

وقد سئل النبى ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « الصلاة لوقتها » : أى في أول وقتها . أخرجه الحاكم والدارقطنى .

ووقت الوسط يسميه الفقهاء وقت توسعة ، أو وقت اختياري . وهو ما يلي وقت الفضيلة . أى بعد الوقت الذى يشمل الأذان والإقامة ، وتحصيل

شروط الصلاة ، من طهارة ، وستر عورة ، واستقبال قبلة .

وسماه الفقهاء بذلك لأنه وقت موسع ، يجوز للعبد أن يؤخر الصلاة عن وقت الفضيلة إليه ، دون أن يتعرض لسخط الله وغضبه .

وأما نهاية الوقت فيسميه الفقهاء وقت الضرورة . أى لا يجوز تأخير الصلاة إليه إلا لضرورة شرعية ــ كتلك الأعذار التي وقفنا عليها قبل ذلك .

ووقت الضرورة ، هو الوقت الذى لا يسع إلا صلاة ركعة بتمامها ، بعد تحصيل شروط الصلاة ، يقدر بربع ساعة على وجه التقريب .

هذا .. فإذا خرج الوقت ، وجاء وقت صلاة أخرى ، فقد أصبحت الصلاة التي فات وقتها قضاء ؟ أى ديناً في ذمة العبد ، يجب عليه الوفاء به ، ويعتبر بهذا التأخير عاصياً لله عصياناً . الله أعلم بتقديره .

فليحذر الأخ المسلم الوقوع في هذا العصيان .. وليكن إن شاء الله تعالى من المحافظين على الصلوات والصلاة الوسطى في وقت الأداء لا فى وقت القضاء ، تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾(١) .

فقد أمرنا الله تعالى في هذه الآية بالمحافظة علي الصلوات بوجه عام ، وعلى الصلاة الوسطى بوجه خاص .

وقد ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبى ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً ، وبرهاناً ، ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ، ولا برهان ، ولا نجاة ، وكان يوم القيامة ، مع قارون ، وفرعون ، وهامان ، وأبى بن خلف » .

رواه أحمد ، وقال معلقاً عليه : من تركها بسبب الرياسة حشر مع فرعون ، ومن تركها بسبب السياسة حشر مع هامان(٢) ، ومن تركها بسبب

---

(١) البقرة : ٢٣٨ .

(٢) لأن هامان كان وزيراً لفرعون يدبر شئون الملك ، قال تعالى : ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحاً .. ﴾ الآية (غافر : ٣٦) .

جمع المال حشر مع قارون ، ومن تركها من أجل الجدال والخصام حشر مع أبي ابن خلف[1] أ . هـ .

* * *

وإذا أردت أن تعرف :

ما هى الصلاة الوسطى ؟

فقد اختلف الفقهاء في تعيينها على عشرة أقوال ، أو أكثر .. فقال جماعة : هى صلاة الصبح .. لما فيها من المشقة ، ولأنها صلاة تثقل على كثير من الناس : وممن قال بهذا : عمر بن الخطاب ، ومعاذ بن جبل ، وابن عباس ، وابن عمر ، وجابر ، ومالك والشافعى .

* * *

وقال جمع غفير من الفقهاء والمحدثين : هى صلاة العصر .. وقد رجح كثير من المحققين هذا الرأى الأخير ، لورود الأحاديث الصحيحة الصريحة بذلك :

منها : ما رواه مسلم وأحمد وأبو داوود ، أن رسول الله ﷺ ، قال يوم الأحزاب : « حبسونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً » .

وروى ابن جرير من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « الصلاة الوسطى صلاة العصر » .

* * *

---

(١) لأن أبي بن خلف كان يجادل الرسول ﷺ في شأن البعث والحياة بعد الموت .

كما ورد كذلك الترغيب في صلاة الصبح وصلاة العصر :

فعن أبي موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « من صلى البردين دخل الجنة » رواه البخارى ومسلم .

يعنى : صلاة الصبح وصلاة العصر .

وعن أبي زهيرة عمارة بن رونية رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » .

يعنى : الفجر والعصر . رواه مسلم .

وعن جندب بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى الصبح فهو في ذمة الله ، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء ، فإن من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ، ثم يكبه على وجهه في نار جهنم » رواه مسلم .

« معناه ــ والله أعلم ــ أن الذى أدى صلاة الصبح في أول وقته جماعة فهو في أمان الله وعهده ، ورعايته ، وحفظه وصيانته ، والله تعالى القوى المعتمد ، ويريد النبى ﷺ ألا يقصر أى مسلم في تأدية هذا الفرض ، خشية أن يقع تارك صلاته تحت عقاب الله ، ويكون مطالباً بالوفاء والأداء ، والله إن شاء أخذه أخذ عزيز مقتدر ، وأخرجه من كنف رحمته ، وسياج رأفته ، ورماه في جهنم على وجهه منكسساً مدحوراً »[1] .

وعن أبي بصرة الغفارى رضى الله عنه ، قال : صلى بنا رسول الله ﷺ العصر بالمخمص[2] ، وقال : « إن هذه الصلاة عرضت على من كان قبلكم فضيعوها ، ومن حافظ عليها كان له أجره مرتين » الحديث .. أخرجه مسلم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تجتمع ملائكة الليل ، وملائكة النهار في صلاة الفجر ، وصلاة العصر ، فيجتمعون في صلاة الفجر ، فتصعد ملائكة الليل ، وتبيت ملائكة النهار ، ويجتمعون في

---

(١) جاء هذا الشرح بهامش الترغيب والترهيب للحافظ المنذري ج ١ ص ٢٩١ تعليق مصطفى محمد عمارة طبعة الحلبي .

(٢) اسم طريق .

صلاة العصر ، فتصعد ملائكة النهار ، وتبيت ملائكة الليل ، فيسألهم ربهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون ، فاغفر لهم يوم الدين » رواه ابن خزيمة ، ورواه البخارى ومسلم بنحوه .

وروى البخارى ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل ، فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله تعالى ، انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها : فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا : أصبح خبيث النفس كسلان » .

وفى رواية ابن ماجه ، قال : « ... فيصبح طيب النفس ، قد أصاب خيراً ، وإن لم يفعل أصبح كسلان ، خبيث النفس لم يصب خيراً » .

* * *

فاذكر أخا الإسلام كل هذا ، وحافظ علي الصلوات الخمس ، وعلى الصلاة الوسطى .. حتي تفوز بهذا الخير العظيم الذى وقفت عليه ، وحتى تكون كذلك من الذين ستشهد لهم الملائكة عند ربهم ، وتطلب لهم الرحمة والمغفرة ليكن حرصك بصفة خاصة على صلاة الصبح وصلاة العصر :

فهما صلاتان ــ كما عرفت ــ تشهدهما الملائكة وفيهما من الفضل والخير ما قد علمت .

وإذا أردت أخا الإسلام أن يضاعف لك الأجر .. كما رغبك الرسول ﷺ ــ وإيانا ــ في نهاية الوصية التي ندور حولها ، في قوله : « فإن الله يضاعف لكم » .

كن حريصاً ومواظباً على :

فهى أولاً وقبل كل شيء : سنة مؤكدة عند أكثر الفقهاء ، لا يتخلف عنها من الذكور المكلفين ــ لغير عذر قاهر[1] ــ إلا منافق ، بيِّن النفاق ، أو ضعيف الإيمان .

روى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : « من سرَّه أن يلقى الله غداً مسلماً ، فليحافظ علي هؤلاء الصلوات ، حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى[2] ، وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم في بيوتكم ــ كما يصلى هذا المتخلف في بيته ــ لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور[3] ، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد ، إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ، ويرفعه درجة ، ويحط عنه بها سيئة ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين[4] حتى يقام في الصيف » .

وفي رواية : لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق ، قد علم نفاقه ، أو مريض . إن كان الرجل ليمشى بين رجلين ، حتى يأتي الصلاة . وقال : إن رسول الله ﷺ علمنا سنن الهدى ، وإن من سنن الهدى الصلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه . رواه مسلم ، وأبو داوود ، والنسائى وابن ماجه .

وعن جابر رضى الله عنه ، قال : « أتى ابن أم مكتوم النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله .. إن منزلى شاسع[5] ، وأنا مكفوف البصر ، وأنا أسمع الأذان ، قال : فإن سمعت الأذان فأجب ، ولو حبواً ، أو زحفاً » رواه أحمد والطبراني.

---

(١) أنظر بعض الأعذار القاهرة فيما سبق ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

(٢) قال النووي: روى بضم السين وفتحها ، وهما بمعنى متقارب أى طرائق الهدى ج ٥ ص ١٦٦ صحيح مسلم .

(٣) الطهور بضم الطاء : القيام بالتطهر ، أما الطهور بفتح الطاء : فهو ما يتطهر به من ماء أو تراب .

(٤) أى يمشى بين رجلين يسندانه .

(٥) أى بعيد عن المسجد .

وفي رواية للطبراني عن أبي أمامة قال : ـــ يعني ابن أم مكتوم ـــ يا رسول الله .. بأمي وأمي ، أما كا تراني قد دبرت سني[١] ، ورق عظمي[٢] ، وذهب بصري ، ولي قائد ، لا يلايمني[٣] قياده إياي ، فهل تجد لي رخصة أصلي في بيتي الصلوات ، فقال لي رسول الله ﷺ : « هل تسمع المؤذن في البيت الذي أنت فيه ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال رسول الله ﷺ : ما أجد لك رخصة ، ولو يعلم هذا المتخلف عن الصلاة في الجماعة ما لهذا الماشي إليها[٤] ، لأتاها ولو حبواً على يديه ورجليه » .

* * *

وهذا .. معناه كما يقول معلقاً على هذا ـــ في الفقه الواضح ـــ : أن صلاة الجماعة مظهر من مظاهر الإسلام الحميدة ، وشعيرة من شعائره العظيمة :

وقد شرعت من أجل أن يلتقى المسلمون من أهل البلد ، أو المدينة ، في صعيد واحد ، خمس مرات في اليوم والليلة ، فتقوي بينهم روابط الألفة والمحبة ، وليطلع المسلم على أحوال أخيه ، ويتحسس حاجته ، فيقضيها له إن استطاع ، ولكي يأتي المسلم إلى المسجد ، وهو بيت العلم والعبادة ، فيتعلم أمور دينه ودنياه ، ويقوى يقينه ، ولا يخفى ما لصلاة الجماعة من فضل عظيم ، فهي تزيد في الثواب على صلاة المنفرد ، بسبع وعشرين درجة ، وإن له بكل خطوة يخطوها ، إلى المسجد حسنة ، ورفع درجة ، ومحو خطيئة ، وإن الملائكة لتستغفر له ما دام ينتظر الصلاة :

فعن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « صلاة

---

(١) أي كبرت سني .
(٢) أي ضعف جداً .
(٣) أي لا يرأف بي ولا يطاوعني .
(٤) أي من الخير والبركة .

الجماعة أفضل من صلاة الفذ[١] بسبع وعشرين درجة » رواه مالك والبخاري ومسلم والترمذى والنسائى .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل في جماعة تضعف[٢] على صلاته في بيته ، وفي سوقه[٣] ، خمساً وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه[٤] إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة[٥] لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة[٦] ، وحط عنه بها خطيئة[٧] ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه[٨] ما دام في مصلاه ما لم يحدث[٩] : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه[١٠] ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » رواه البخارى واللفظ له ، ومسلم وأبو داوود ، والترمذى وابن ماجه .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويكفر به الذنوب ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : إسباغ الوضوء على المكاره[١١] ، وكثرة الخطى إلى المساجد ، وانتظار الصلاة ، فذلكم الرباط »[١٢] رواه مسلم .

* * *

---

(١) أي المنفرد الذي يصلي وحده .

(٢) أي تزيد أضعافاً .

(٣) أى محل بيعه وشرائه .

(٤) هذا بيان منه ﷺ لسبب تلك المضاعفة .

(٥) يعنى لم يقصد بخروجه إلا أداء الصلاة في جماعة .

(٦) أى أعطى بها حسنة ، فإن الحسنات تقتضى علو الدرجات .

(٧) الحط معناه الإسقاط أى أزيلت عنه بها خطيئة وهي الذنب .

(٨) أى تدعو له وتستغفر .

(٩) أى ينتقض وضوءه بفساء أو ضراط .

(١٠) هذا بيان لكيفية صلاة الملائكة عليه .

(١١) إى إتمام الوضوء عند البرد والألم والمرض ..

(١٢) أى الوقوف على الحدود لحماية بلاد المسلمين .. وقد شبه النبى ﷺ المنتظر للصلاة بالمرابط لأنه يجاهد نفسه وجهاد النفس أكبر من جهاد العدو .

هذا بالإضافة إلى أن اعتياد صلاة الجماعة في المسجد دليل على الإيمان الصادق :

فعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد(١) فاشهدوا له بالإيمان(٢) . قال الله عز وجل : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾(٣) . رواه الترمذى واللفظ له ، وقال : حديث غريب ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحيهما والحاكم ، كلهم من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

* * *

فاذكر أخا الإسلام كل هذا ، واحرص على تعمير المساجد بالمواظبة على صلاة الجماعة فيها كلما نادى المؤذن ، قائلاً : حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، ولا سيما في صلاة العشاء والصبح :

فعن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل(٤) ، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله(٥) » رواه مالك ومسلم واللفظ له ، وأبو داوود ولفظه :

« من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف ليلة ، ومن صلى العشاء

---

(١) يعنى يواظب على حضور الجماعات في المساجد ، ويطيل المكث فيها ، حتى يخيل لمن رآه أنه مقيم بها .
(٢) أى : فإن تلك أمارة قوية على صدق إيمانه .
(٣) هذه جملة حاصرة أفادت قصر عمارة المساجد على المؤمنين لأن غير المؤمن لايتعلق قلبه بالمساجد ولا يحب دخولها ولا يهتم بتشييدها ولا يعنى بإنارتها ولا تنظيفها ولا بعمارتها بذكر الله والصلاة فيها ـــ والآية من سورة التوبة : ١٨ .
(٤) يعنى أنه يكتب له بذلك ثواب من قام نصف الليل .
(٥) المراد أنه صلى الصبح في جماعة وكان قد صلى العشاء في جماعة أيضاً فيكون كمن قام الليل كله ، يعنى يكتب له ثواب ذلك .

والفجر في جماعة كان كقيام ليلة »[1] رواه الترمذي كرواية أبي داوود ، وقال : حديث حسن صحيح ، قال ابن خزيمة في صحيحه :

باب فضل صلاة العشاء والفجر في جماعة وبيان : أن صلاة الفجر في الجماعة أفضل من صلاة العشاء في الجماعة ، وأن فضلها في الجماعة ضعف فضل العشاء في الجماعة[2] . ثم ذكره بنحو لفظ مسلم ، ولفظ أبي داوود والترمذي يدفع ما ذهب إليه[3] والله أعلم .

* * *

وورد أيضاً عنه ﷺ في الترغيب في صلاة العشاء والصبح في جماعة :

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر[4] ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً ، ولقد هممت[5] أن آمر بالصلاة فتقام[6] ثم آمر رجلاً فيصلى بالناس[7] ، ثم أنطلق معى برجال معهم حزم[8] من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة[9] فأحرق عليهم بيوتهم بالنار » رواه البخارى ومسلم . وفي رواية لمسلم : أن رسول الله ﷺ فقد ناساً في بعض الصلوات ، فقال :

---

(١) وهذه الرواية تعتبر مفسرة لرواية مسلم التى قبلها .

(٢) فقد فهم ابن خزيمة أن قوله : « فكأنما صلى الليل كله » مترتب على صلاة الصبح كما بينته رواية أبى داوود والترمذى .

(٣) يعنى يعارضه ويبطله .

(٤) لأنهما يكونان في وقت الغفلة ولذة النوم .

(٥) اللام واقعة في جواب القسم ، أى والله لقد هممت ، وجاء في البخارى وغيره « والذى نفسى بيده لقد هممت ... » والهم قيل : العزم ، وقيل : مرتبة دونه .

(٦) بألفاظ الإقامة المعروفة .

(٧) أى الذين حضروا المسجد للصلاة .

(٨) جمع حزمة وهى مجموعة من العيدان .

(٩) أى لا يحضرونها مع الجماعة في المسجد .

لقد هممت أن آمر رجلاً يصلى بالناس ، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فآمر بهم فيحرقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم ، ولو علم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً لشهدها » يعنى صلاة العشاء .

وفى بعض روايات الإمام أحمد لهذا الحديث : « لولا ما في البيوت من النساء والذرية : أقمت صلاة العشاء ، وأمرت فتيانى يحرقون ما في البيوت بالنار »[1] .

وحول هذا الحديث الذى رواه أبو هريرة بالإضافة إلى رواياته الأخرى ، يقول الشوكانى معلقاً في نيل الأوطار :

« والحديث استدل به القائلون بوجوب صلاة الجماعة ، لأنها لو كانت سنة لم يهدد تاركها بالتحريق ، ولو كانت فرض كفاية لكانت قائمة بالرسول ﷺ ومن معه » .

والجمهور[2] على أن الجماعة سنة ، وأجابوا عن حديث الباب بأجوبة منها :

١ ــ أنها لو كانت شرطاً أو فرضاً لبيَّن ذلك عند التوعد .

٢ ــ أن الحديث دل على وجود متخلفين عن الجماعة ، ولو كانت فرضاً لما تخلفوا عنها .

٣ ــ أنه ترك تحريقهم بعد التهديد ، ولو كانت واجبة ما عفا عنهم .. ولهذا قال القاضى عياض ومن تبعه : ليس في الحديث حجة لأنه همَّ ولم يفعل . وزاد النووى : ولو كانت فرض عين لما تركهم .

٤ ــ أن الحديث ورد في حق المنافقين ، فلا يتم به الاستدلال ، لقوله في صدر الحديث : « أثقل صلاة على المنافقين » لكن المراد نفاق المعصية لا نفاق الكفر .

* * *

---

(١) قال الشوكانى : في إسناده أبو معشر ، وهو ضعيف .

(٢) كما يقول الشيخ خليل الهراس رحمه الله في تعليقه على الحديث في الترغيب والترهيب ج ١ ص ٣٥٣ .

وإذا كان الرسول ﷺ قد حذر من التخلف عن الجماعة في صلاة العشاء والفجر بصفة خاصة :

فلأنهما[1] يكونان في وقت الغفلة ولذة النوم : فصلاة العشاء تأتى بعد عودة الإنسان من عمله بالنهار وميله إلى الراحة وتناول طعام العشاء، وصلاة الصبح كذلك تكون عند لذة النوم في آخر الليل لا سيما لمن يطول سهرهم في أول الليل ، وكذلك كل منهما تكون في وقت ظلمة فيشق المشى إليها .

* * *

فليكن كل هذا التذكير كذلك ترهيباً للأخ المسلم حتى لا يتخلف عن صلاة الجماعة بصفة عامة ، اللهم إلا إذا كان هناك عذر كتلك الأعذار التي ذكرها الفقهاء[2] ، والتى منها :

العاجز عن الإتيان إلى المكان الذي تقام فيه — الصلاة — : بأن كان مريضاً ، أو مقعداً ، أو أعمى لا يجد من يقوده ، ولا يهتدي بنفسه إلى محل الجامع ..

ويلحق بالعاجز من كان له عذر يمنعه من الحضور إليها — فى المسجد — بأن كان ممرضاً ، يحتاج إليه المريض ، ولو تركه يزداد مرضه ، أو يتأخر شفاؤه ، أو كان طبيباً يجرى عملية جراحية — مثلاً — أو كان محبوساً لا يستطيع الخروج من حبسه ، ونحو ذلك من الأعذار الضرورية ، والدين يسر ، والطاعة على قدر الطاقة .. قال تعالى : ﴿ **وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾[4] .

---

(١) كما جاء في هامش الترغيب والترهيب تعليقاً على حديث أبي هريرة السابق .

(٢) كما أشار ذلك في « الفقه الواضح » تحت عنوان من تجب عليه الجمعة ومن لا تجب .. وقياساً عليه جميع الأوقات .

(٣) الحج : ٧٨ .　　(٤) البقرة : ١٨٥ .

واحذر أن تفوتك ، إذا لم يكن هناك عذر من الأعذار السابقة : صلاة الجمعة ، والاستماع إلى خطبتها :

فقد روى الطبراني عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فقال : « إن الله تعالى قد كتب عليكم الجمعة ، في مقامى هذا ، في ساعتى هذه ، في شهرى هذا ، في عامى هذا ، إلى يوم القيامة ، من تركها من غير عذر ، مع إمام عادل ، أو جائر ، فلا جمع الله شمله ، ولا بورك له فى أمره ، ألا ولا صلاة له ، ولا حج له ، ألا ولا بر له ، ولا صدقة له » .

وروى مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ ، قال عن قوم يتخلفون عن صلاة الجمعة : « لقد هممت أن آمر رجلاً يصلى بالناس ، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » .

* * *

فلنذكر جميعاً كل هذا ، ولنذكر كذلك قول القائل :

ألا في الصلاة الخير والفضل أجمع ... لأن بها الأرقاب لله تخضع
وأول فرض في شريعة ديننا ... وآخر ما يبقى إذا الدين يرفع
فمن قام لتكبير لاقته رحمة ... وكان كعبد باب مولاه يقرع
وكان لرب العرش حين صلاته ... نجيا فيا طوبى له حين يخشع

* * *

جعلنا الله من المكثرين من الذكر ، والمحافظين والحريصين على أداء الصلاة فى أول وقتها .. حتى يضاعف لنا سبحانه وتعالى الأجر ..

إنه سبحانه وتعالى ولى التوفيق ..

* * *

الوصية التاسعة والأربعون

عن ابن عمر رضي الله عنهما
أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال :

اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم[1] ولا تتخذوها قبوراً[2].

رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي

(١) في بيوتكم : أي صلوا فيها بعض صلاتكم وهي النافلة ولا تهجروها بالكلية .

(٢) ولا تتخذوها قبوراً : وذلك لأن القبر لا يصلى فيه . قال النووي (معناه صلوا فيها ولا تجعلوها كالقبور مهجورة من الصلاة ، والمراد به صلاة النافلة ، أي صلوا النوافل في بيوتكم).

فكن أخا الإسلام :

من الحريصين علي تنفيذ ما أوصاك به الرسول ﷺ في هذه الوصية العظيمة ، التى أوصاك فيها :

أولاً : بأن تعمل من جانبك على أن يكونَ بيتك مبار كاً ، وذلك بالإكثار فيه من ذكر الله ، وأداء نوافل الصلاة فيه .. وقد ورد الترغيب في هذا :

فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قضى أحدكم الصلاة(١) في مسجد فليجعل لبيته نصيباً من صلاته ، فإن الله جاعل في بيته من صلاته خيراً »(٢) رواه مسلم وغيره ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه من حديث أبي سعيد .

وعن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، قال : « مثل البيت الذى يذكر الله فيه ، والبيت الذي لا يذكر الله فيه : مثل الحى والميت » رواه البخارى ومسلم .

ففى هذا الحديث الشريف : شبه النبى ﷺ البيت الذى لا يذكر الله عز وجل فيه بجسد ميت لا روح فيه : لأن ذكر الله عز وجل حياة القلوب والأرواح والبيوت أيضاً ، فأيما بيت خلا من ذكر الله عز وجل فهو كالقبر المهجور ، أو كالبيت الخرب الذى خلا من ساكنيه .

قال النووى : فيه الندب إلى ذكر الله تعالى في البيت ، وأنه لا يخلى من الذكر وفيه جواز التمثيل ، وفيه أنْ طول العمر في الطاعة فضيلة ، وإن كان الميت ينتقل إلى خير لأن الحى يستلحق به ويزيد عليه بما يفعله من الطاعات .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ : « أيما أفضل : الصلاة في بيتى ، أو الصلاة في المسجد ؟(٣) قال : ألا ترى إلي

---

(١) المراد بها صلاة الفريضة .

(٢) لأنه ستحصل فيه البركة بذكر الله والصلاة وتنزل عليه الرحمة وتدخله الملائكة ، وينفر منه الشيطان ، ويتعود من فيه من الخدم والأولاد على أداء الصلاة .. إلخ .

(٣) والسؤال إنما هو عن النافلة لأن الفريضة في المسجد أفضل باتفاق .

بيتى ما أقربه من المسجد[1] ؟ فلأن أصلى في بيتي أحب إلى من أن أصلى في المسجد إلا أن تكون صلاة مكتوبة »[2]. رواه أحمد وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه .

وعن أبي موسى رضى الله عنه ، قال : خرج نفر من أهل العراق إلى عمر ، فلما قدموا عليه سألوه عن صلاة الرجل في بيته[3] ، فقال عمر : سألت رسول الله ﷺ ، فقال : « أما صلاة الرجل في بيته فنور[4] ، فنوروا بيوتكم » رواه ابن خزيمة في صحيحه .

وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « صلوا أيها الناس في بيوتكم[5] ، فإن أفضل صلاة المرء في بيته[6] إلا الصلاة المكتوبة » رواه النسائى بإسناد جيد ، وابن خزيمة في صحيحه .

وعن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أراه[7] رفعه . قال : « فضل صلاة الرجل في بيته على صلاته حيث يراه الناس[8] كفضل الفريضة على التطوع »[9] رواه البيهقي ، وإسناده جيد إن شاء الله تعالى .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا بيوتكم ببعض صلاتكم » رواه ابن خزيمة في صحيحه .

* * *

---

(١) يعنى ما أشد قربه من المسجد إذ هو لاصق به وأبوابه مفتوحة في المسجد .
(٢) فإن هذه أفضل في المسجد بالإجماع .
(٣) يعنى هل هى أفضل أم الصلاة في المسجد
(٤) أى له ولأهل بيته بما يتلى فيها من القرآن وذكر الله عز وجل .
(٥) وذلك حين رآهم يصلون النافلة في المسجد .
(٦) لأنها تكون أبعد عن الرياء وأقرب إلى الخشوع والإخلاص .
(٧) يعنى أعلمه فهو من الرؤية بمعنى العلم ..
(٨) أى في المسجد على مرأى من الناس .
(٩) يعنى أن فضل النافلة التى يؤديها في البيت حيث لا يراه أحد على النافلة التى تؤدى في المسجد هو كفضل الفريضة على التطوع .. وهذا أمر لا شك فيه .

فمن هذه الأحاديث الشريفة ، يتبين لنا أفضلية صلاة التطوع في البيت ، على المسجد ، وذلك لبعد المصلى فيها عن الرياء ، ومحبطات الأعمال :

فعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضى الله عنه ، خرج إلى المسجد فوجد معاذاً عند قبر رسول الله ﷺ يبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ ، قال : « اليسير من الرياء شرك(١) ، ومن عادى أولياء الله(٢) فقد بارز الله بالمحاربة(٣) ، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء(٤) الذين إن غابوا لم يفتقدوا(٥) ، وإن حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى(٦) يخرجون من كل غبراء مظلمة(٧) » رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي في كتاب «الزهد» وغيره ، وقال الحاكم : صحيح ولا علة له .

فحسب المصلى — لغير المكتوبة — في بيته أن يكون بعيداً عن الرياء في العمل الذى هو من أكبر محبطات الأعمال ، فقد ورد كذلك :

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إن أول الناس يُقضى(٨) يوم القيامة عليه : رجل استشهد(٩) ، فأُتى به فعرفه نعمته(١٠) فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟(١١) قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : هو جرىء(١٢) ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقى في النار(١٣) ورجل تعلم العلم

---

(١) بمعنى أنه شرك في العمل لا في الاعتقاد ، ويسمى الشرك الأصغر وهو محبط للعمل ..

(٢) وهم الذين آمنوا وكانوا يتقون .

(٣) فإن حربه لأولياء الله عز وجل كأنه حرب لله إذ هم حزب الله وجنده فالمتعرض لهم بسوء مستخف بالله سبحانه .

(٤) جمع خفى ، وهو الذى يجتهد في إخفاء عمله بعيداً عن الرياء وحب الظهور .

(٥) أى لا يسأل عنهم أحد لعدم شهرتهم .

(٦) لأن الله نور بصائرهم فانكشفت لهم مواطن الهدى .

(٧) أى ينجون ويتخلصون من كل ضلالة عمياء .

(٨) أى يحكم عليه بعد الحساب والسؤال .

(٩) أى قتل في المعركة مع الكفار .

(١٠) أى حدثه الله بما أنعم به عليه في الدنيا وذكره بها .

(١١) سؤال عن موقفه بإزاء هذه النعم ، هل شكرها وأدى حقها أم جحدها وأنكرها .

(١٢) أى : تمدح ويثنى عليك الناس بالشجاعة والإقدام .

(١٣) بسبب هذا الرياء ، كما يشير إلى هذا قول الله تعالى : ﴿ **فسوف يعلمون . إذ الأغلال في أعناقهم** =

وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فماعملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك[1] القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم[2] ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فماعملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل[3] تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك[4] . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار » رواه مسلم والنسائى ، ورواه الترمذى وحسنه ، وابن حبان في صحيحه كلاهما بلفظ واحد .

* * *

وصلاة التطوع في البيت كذلك تنيره : لأن الصلاة أساساً ، نور يتلألأ في قلب المؤمن ، ويسطع على وجهه ، وينعكس على جوارحه .. نور يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، نور يمشى به المؤمن في الناس ، فيرى به ما لا يرى الناظرون ، نور يسعى بين يديه ، وعن يمينه يوم القيامة :

قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن — أو تملأ — ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها » رواه مسلم .

= والسلاسل يسحبون . في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ (غافر : ٧٠ — ٧٢) .

(١) أى في سبيلك وابتغاء وجهك .

(٢) أى : ليمدحك الناس بالعلم والمعرفة .

(٣) أى وجه وطريق .

(٤) أى من أجلك ورغبة فيما عندك .

وروى ابن حبان بإسناد حسن ، عن أبي الدرداء رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « من مشى في ظلمة الليل إلي المساجد آتاه الله نوراً يوم القيامة » .

فهذا النور المشار إليه في الحديثين إذا وجد في بيت المؤمن — بسبب الإكثار من صلاة التطوع فيه — كان سبباً في أن البيت هذا سيكون دائماً وأبداً — ما دامت صلاة التطوع مقامة فيه — ممتلئاً بالبركات والخيرات التى ستأتى تبعاً لهذا النور الذي به سيسعد المؤمن في دنياه وأخراه .. بل وسيسعد أهله كذلك تبعاً له .

وذلك لأن أولاده ، ولا سيما — الصغار — منهم ، عندما سيرونه وهو يؤدى صلاة التطوع أمامهم سيتعلمون منه هيئة الصلاة ، ويتشربون حبها ، فينشأون على حب الدين الذى عماده الصلاة .

وهو أصلاً كمؤمن مطالب : بأن يأمر بالصلاة كل من له عليه حق الولاية ، من قريب ، أو من بعيد .. كما يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ، لا نسألك رزقاً ، نحن نرزقك ، والعاقبة للتقوى ﴾[1] .

وقد قال صاحب كتاب « الفقه الواضح » معلقاً على هذه الآية كلاماً هاماً ، وهو أن :

الأولياء كما يجب عليهم حماية من يعولون من الأخطار لوقاية أجسامهم من الأضرار ، وحفظ أموالهم من الضياع ، يجب عليهم كذلك حفظ دينهم ، فهو عصمة أمرهم ، وسبيل سعادتهم ، في الدنيا والآخرة ، وأول شيء يترتب عليه حفظ الدين : هو الصلاة ، فالصلاة — كما علمت — من الدين بمنزلة الرأس من الجسد .

والأمر في الآية ، للنبى ﷺ .. والأهل فيها هم : أمته جميعاً . كما قال القرطبي في تفسيره[2] .

---

(١) طه : ١٣٢ .

(٢) ص ٢٦٣ ج ١١ طبعة دار الكتب .

غير أن لفظ الأهل يراد به ــ في الغالب ــ الأقارب .. ويطلق كثيراً على الزوجة .

ولا بأس أن يراد بالأهل في الآية كل مسلم تستطيع أن تأمره بالصلاة .. فالمسلمون جميعاً إخوة والأخوة أهل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب . بل هو من أهم الواجبات ، ولا ريب أن ترك الصلاة من أكبر المنكرات .. لهذا وجب على ولى أمر المسلمين ــ على الخصوص ــ أن يأمر تارك الصلاة بإقامتها فإن أقامها ، فبها ونعمت ، وإلا حمله عليها قسراً[1] ، وذلك بأن يعذب بالضرب والسجن ، ولو أدى تعذيبه وسجنه إلى موته .

ويجب أن يقوم بهذا الأمر ــ أى الأمر بإقامة الصلاة ــ العلماء ــ أيضاً ــ فهم أولياء الأمر شرعاً ، وهم شركاء الوالى في إصلاح شئون المسلمين ، وهم المسئولون أمام الله ، عن كل انحراف ، وعن كل فريضة من فرائض الإسلام .

ثم يقول بعد ذلك ، حول أمر الزوج زوجته بالصلاة[2] :

والزوجة من الأهل ، بل يطلق لفظ الأهل عليها كثيراً ــ كما عرفت ــ لهذا يجب على الزوج أن يأمرها بالصلاة ، إذا لم تكن تصلي ، من أول ليلة تدخل عليه فيها ، أمراً لا هوادة فيه .

فإن امتثلت لأمر الله ، فذلك توفيق من الله ، يحمد عليه .. وإلا : وجب عليه ــ أولاً ــ أن يعظها ، ويذكرها بعذاب الله عز وجل ، ويحذرها مقته وغضبه ، فإن قبلت النصح ، فبها .. وإلا : وجب عليه أن يهجرها في المضجع ، فإن خضعت لأمر الله وأقامت الصلاة ، فبها .. وإلا : وجب عليه ضربها ، حتى تفيء إلى أمر الله ، وتقيم الصلاة .

فالزوجة : هى ربة البيت ، وهى مدرسة لأولادها ، وهى الأمينة علي

---

(١) أى بالقوة .

(٢) كما جاء في القرطبي .. وغيره .

مال زوجها وعرضه .. فإن أقامت الصلاة صح دينها وصلح حالها ، واقتدى بها أولادها ، فصلوا بصلاتها ، فيكون بيتها مثلاً للبيوت المؤمنة .

والمرأة التي تستنكف أن تقيم الصلاة ، أو تتكاسل عن أدائها ، امرأة لا دين لها ، وبالتالى ، لا أمان ، ولا أمانة لها .

وقد أوصانا النبى ﷺ : أن ننكح ذات الدين ، فقال : « .. فاظفر بذات الدين تربت يداك »(١) .

ومعنى الظفر : نهاية البغية .

أى : وليكن أسمى ما تبتغيه من الزوجة : دينها ، فإن لم تفعل تربت يداك أى افتقرت حتى تلتصق يداك بالتراب ، من شدة الحاجة .

* * *

فليذكر الأخ المسلم كل هذا الذي ذكرته به ، وليكن دائماً وأبداً آمراً لأهله بالصلاة ، ولا سيما أولاده الصغار ، كما أمره الرسول ﷺ بهذا في قوله : « مروا أولادكم بالصلاة إذا بلغوا سبعاً ، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً ، وفرقوا بينهم في المضاجع » رواه أحمد وأبو داوود .

* * *

وإذا كانت الزوجة الصالحة هي الساعد الأيمن للزوج المؤمن على تربية الأبناء تربية إسلامية صحيحة : فإننى أنصح الأخ المسلم بأن يدعو الله تعالى بهذا الدعاء الذي كان سيدنا داوود عليه السلام يتضرع إلى الله تعالى به ، والذى أسأل الله تعالى أن يتقبله منه كذلك(٢) ، وهو : « اللهم إنى أسألك أربعاً وأعوذ بك من أربع : أسألك لساناً صادقاً ، وقلباً خاشعاً ، وبدناً

---

(١) الحديث بتمامه أخرجه البخاري .

(٢) كما تقبله سبحانه وتعالى من عبده داوود عليه السلام .

صابراً ، وزوجة تعينني على أمر دنياي وأمر آخرتي .. وأعوذ بك : من ولد يكون على سيداً ، ومن زوجة تشيبني قبل وقت المشيب ، ومن مال يكون مشبعة لغيري بعد موتى ويكون حسابه فى قبرى ، ومن جار سوء إن رأى حسنة كتمها وإن رأى سيئة أذاعها وأفشاها » .

وإذا كانت صلاة ـــ التطوع ـــ في البيت ـــ فضلاً عن صلاة المكتوبة إذا لم تستطع أن تذهب إلى المسجد لصلاة الجماعة بسبب عذر من الأعذار الشرعية التى وقفت عليها ـــ إذا كانت ستكون سبباً في أن البيت سيكون منيراً أو مستنيراً بسبب أداء الصلاة فيه ، وسيكون كذلك مباركاً ببركات الصلاة ورحمات الله التى ستغمره وستجعله دائماً وأبداً روضة من رياض الجنة .

فكذلك الصلاة في البيت ستكون سبباً في أن الشياطين ـــ من الإنس والجن ـــ لن يكون لهم قرار أو استقرار في هذا البيت الصالح الذى يذكر فيه الله سبحانه وتعالى .

وإذا كنت أقول : يذكر فيه الله .. فلأن الصلاة ذكر ، بل هى : الذكر الأكبر ، كما يشير إلى هذا ، قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون** ﴾[1] .

فقد قيل : ـــ كما جاء في القرطبي ـــ ذكركم الله في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضل من كل شيء . وقيل : المعنى ، أن ذكر الله أكبر مع المداومة ، من الصلاة في النهى عن الفحشاء والمنكر .

وقيل : أى ، ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم . قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قرة وسلمان والحسن ، وهو اختيار الطبرى .

---

(١) العنكبوت : ٤٥

وقال ابن عباس : معناه ، ذكر الله لكم بالثناءعليكم ، والرحمة بكم ، أى : أعظم من ذكركم له تعالى بالطاعة :

كما يشير إلى هذا ، قول الله تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون** ﴾(١) .

وهذا ، معناه — كما قلت — أن البيت الذى يذكر فيه الله تعالى — في الصلاة — لن يقترب الشيطان منه .

فقد قرأت في كتاب : « الوابل الصيب من الكلم الطيب » لابن قيم الجوزية تحت عنوان :

الفصل السادس : في أذكار الخروج من المنزل

فى السنن عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال — يعنى إذا خرج من بيته — : بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له : كفيت ووقيت وهديت ، وتنحى عنه الشيطان ، فيقول لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى » .

وفي مسند الإمام أحمد : « بسم الله ، آمنت بالله ، اعتصمت بالله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله » حديث حسن .

وفى السنن الأربع ، عن أم سلمة قالت : ما خرج رسول الله ﷺ من بيتي إلا رفع طرفه إلى السماء ، فقال : « اللهم إنى أعوذ بك أن أَضل أو أُضل ، أو أَزل أو أُزل ، أو أظلم أو أُظلم ، أو أَجهل أو يُجهل علي » قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

* * *

وتحت عنوان :

---

(١) البقرة : ١٥٢ .

الفصل الرابع : في أذكار دخول المنزل

في صحيح مسلم ، عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء .

وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله ، قال الشيطان : أدركتم المبيت ، فإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه ، قال : أدركتم المبيت والعشاء » .

وفي سنن أبي داوود عن أبي مالك الأشعرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا ولج[1] الرجل بيته فليقل : اللهم إنى أسألك خير المولج وخير المخرج ، بسم الله ولجنا ، وبسم الله خرجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا . ثم ليسلم على أهله » .

وفى الترمذى ، عن أنس : قال لى رسول الله ﷺ : « يا بنى .. إذا دخلت على أهلك فسلم تكن بركة عليك وعلى أهل بيتك » قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

* * *

كما أشار ابن القيم أيضاً إلى :

الأذكار التى تطرد الشياطين

فقال ، فى « الفصل العشرين » : قد تقدم[2] : أن من قرأ آية الكرسى عند نومه لم يقربه الشيطان ، وأن من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه ، ومن قال في يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، كانت له حرزاً من الشيطان يومه كله . وقد قال الله تعالى : ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾[3] ، وكان النبى ﷺ يقول : « **أعوذ بالله السميع**

---

(1) أى دخل .

(2) كما يقول في الكلم الطيب فارجع إليه .

(3) المؤمنون ٩٧ ، ٩٨ .

العليم ، من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » وقال سبحانه وتعالى :
﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم ﴾(١)
والأذان يطرد الشيطان ، بل وقد ثبت في الصحيح أن الشيطان يهرب من الأذان ، قال سهل بن أبى صالح : أرسلنى أبى إلى بنى حارثة ومعى غلام ــ أو صاحب ــ لنا فنادى مناد من حائط باسمه ، فأشرف الذى معى على الحائط فلم ير شيئاً ، فذكرت ذلك لأبي فقال : لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ، ولكن إذا سمعت صوتاً فناد بالصلاة ، فإنى سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الشيطان إذا نودى بالصلاة ولى وله حصاصى » .

وفى رواية : « إذا سمع النداء ولى وله ضراط ، حتى لا يسمع التأذين » .. الحديث .

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي رجاء عن أبي بكر الصديق، قال : قال رسول الله ﷺ : « استكثروا من لا إله إلا الله والاستغفار ، فإن الشيطان قال قد أهلكتهم بالذنوب وأهلكوني بقول لا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك منهم أهلكتهم بالأهواء حتى يحسبون أنهم مهتدون فلا يستغفرون » .

ومن أعظم ما يندفع به شره : قراءة المعوذتين وأول الصافات ، وآخر الحشر .

* * *

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، وليكن منفذاً له حتىيكون في حصانة هو وأهله من كيد الشيطان الرجيم الذي حذرنا الله سبحانه وتعالى من كيده ، فقال :

﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع

---

(١) فصلت : ٣٦ .

عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[1] .

وحسبك — كما علمت — أن تكثر من صلاة التطوع في بيتك كما كان يفعل رسول الله ﷺ .

فقد ذكر صاحب « الدين الخالص » رحمه الله في الجزء الثانى ، تحت عنوان :

مكان التطوع

أنه يستحب تأدية النفل المطلق في البيت اتفاقاً ، وكذا الرواتب عند الجمهو ، ولا فرق بين راتبة النهار والليل .

لحديث عبد الله بن شقيق قال : سألت عائشة عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من التطوع ، فقالت : كان يصلى قبل الظهر أربعاً في بيتي ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يرجع إلى بيتي فيصلي ركعتين ، وكان يصلي بالناس المغرب ثم يرجع إلى بيتي فيصلى ركعتين وكان يصلي بهم العشاء ثم يدخل بيتي فيصلي ركعتين » . الحديث .. أخرجه أحمد ، وأبو داوود والترمذي والنسائي .

وعن بعض السلف : الأفضل فعلها كلها في المسجد .

وعن مالك والثورى : الأفضل فعل نوافل النهار في المسجد ، وراتبة الليل في البيت .

وعن أحمد تفصيل : قال ابن قدامة في المغنى : قال الأثرم : سئل أحمد عن ركعتين بعد الظهر أين يصليان ؟ قال : في المسجد ، أما الركعتان قبل الفجر وبعد المغرب في بيته . وذكر حديث ابن إسحاق : « صلوا هاتين الركعتين في بيوتكم » . قيل لأحمد : فإن كان منزل الرجل بعيداً ؟ قال : لا أدرى ، وذلك لما روى سعد بن إسحاق عن أبيه عن جده « كعب بن عجرة » أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أتاهم في مسجد بنى عبد الأشهل فصلى المغرب

---

(١) الأعراف : ٢٧ .

فرآهم يتطوعون بعدها .فقال : « هذه صلاة البيوت »(١) . أخرجه أحمد وأبو داوود والنسائي والطحاوى . وفي سنده إسحاق بن كعب وهو مجهول تفرد به.

وعن رافع بن خديج ، قال : أتانا النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم في بنى عبد الأشهل فصلى بنا المغرب في مسجدنا ثم قال : « اركعوا هاتين الركعتين في بيوتكم » رواه ابن ماجه والأثرم أ . هـ . بتصرف .

وحديث رافع في سنده عبد الوهاب بن الضحاك عن إسماعيل ابن عياش ، وروايته ضعيفة عند الشاميين .

وقال ابن أبي ليلى : لا تصح راتبة المغرب البعدية إلا في البيت أخذاً بظاهر الأمر في هذه الأحاديث واستحسنه أحمد ، فعن محمود بن لبيد ، قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بنى عبد الأشهل فصلى بهم المغرب ، فلما سلم قال : « اركعوا هاتين الركعتين في بيوتكم » . قال أبو عبد الرحمن : قلت لأبى : إن رجلاً قال : من صلى ركعتين بعد المغرب في المسجد لم تجزه إلا أن يصليهما في بيته ، لأن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « هذه صلاة البيوت » قال : من هذا ؟ قلت : محمد بن عبد الرحمن ، قال : ما أحسن ما قال . أخرجه أحمد .

والظاهر ما ذهب إليه الجمهور حملاً للأمر على الاستحباب .

ويؤيده حديث زيد بن ثابت أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته فى مسجدي هذا إلا المكتوبة » أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي .

وحديث عبد الله بن سعد ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم :أيهما أفضل ، الصلاة في بيتي أم الصلاة في المسجد ؟ قال : « ألا ترى إلى بيتى ما أقربه من المسجد ؟ فلأن أصلى في بيتي أحب إلي من أن

---

(١) أقول : إذا كان سيجلس بعد صلاة المغرب في المسجد لكي يستمع إلى درس ديني إلى العشاء كما يحدث غالباً فى أكثر المساجد .. فإنه من الجائز أن يصلى السنة في المسجد .. أو إذا كان كذلك لن يعود إلى بيته لسبب من الأسباب .. والله أعلم .

أصلي في المسجد إلا أن تكون صلاة مكتوبة » أخرجه أحمد وابن خزيمة وابن ماجه والترمذي في الشمائل ، وهذا لفظه .

وحديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً » أخرجه أحمد والشيخان وأبو داوود والترمذي وقال : حسن صحيح .

وفى رواية : « اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم » وأخرجه أحمد عن زيد ابن خالد الجهنى .

وحديث صهيب بن النعمان أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « فضل صلاة الرجل في بيته على صلاته حيث يراه الناس كفضل المكتوبة على النافلة » أخرجه البيهقي والطبراني في الكبير .

والمراد بالمكتوبة الواجبة بأصل الشرع وهى الصلوات الخمس دون المنذورة .

فهذه الأحاديث : تدل على أن صلاة التطوع ومنه راتبة المغرب في البيوت أفضل منها في المسجد ، ولو كان فاضلاً كالمسجد الحرام ومسجد المدينة . فلو صلى فيه نافلة كانت بألف صلاة ، ولو صلاها في بيته كانت أفضل من ألف صلاة .

أما المكتوبة : فصلاتها في المسجد أفضل في حق الرجال .

أما النساء فالأفضل في حقهن الصلاة ولو فرضاً في البيوت ، وإن أبيح لهن حضور الجماعات .

فعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قال : « لا تمنعوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن » أخرجه أحمد وأبو داوود والبيهقي وابن خزيمة وصححه .

* * *

ثم يقول بعد ذلك في الدين الخالص : هذا ، والحكمة في طلب تأدية النافلة في البيت ـــ ما أشرنا إليه قبل ذلك ، وهو ـــ أنه أخفى وأبعد عن الرياء ومحبطات العمل ، ولتنزل في البيت الرحمة والملائكة ، وينفر منه الشيطان كما جاء في الحديث ، وهذا في غير ما ورد الشرع بصلاته في غير البيوت .

كركعتى الطواف والإحرام ، وتحية المسجد ، والتراويح ، وصلاة الاستسقاء ، والكسوف والعيدين .

فعلى الأخ المسلم أن يلاحظ كل هذا ، وأن يلاحظ كذلك أنه يجوز :

صلاة التطوع جماعة

سواء أكانت الصلاة في البيت ، أو في المسجد :

فعن عتبان بن مالك أنه قال : « يا رسول الله .. إن السيول لتحول بيني وبين مسجد قومى ، فأحب أن تأتينى فتصلى في مكان من بيتى أتخذه مسجداً . فقال : سنفعل ، فلما دخل ، قال : أين تريد ؟ فأشرت له إلى ناحية من البيت . فقام رسول الله ﷺ ، فصففنا خلفه ، فصلى بنا ركعتين » رواه البخارى ومسلم

وقال ابن عباس : « صليت مع النبى ﷺ ذات ليلة ، فقمت عن يساره ، فأخذ برأسي من ورائى ، فجعلنى عن يمينه » رواه البخارى وغيره .

والأحاديث ـــ كما يقول في « الفقه الواضح » ـــ الواردة في جواز التنفل جماعة ، واستحبابه كثيرة .

ومن المعروف شرعاً ، أن ثواب الجماعة ، أكثر من ثواب الفرد .

* * *

وكذلك ، يجوز :

صلاة التطوع قائماً وقاعداً

قال في الفقه الواضح : تقدم أن قلنا في فروض الصلاة : أن القيام ركن ،

من أركان الصلاة المفروضة ، دون النافلة ، فإنها تجوز من قيام ، ومن قعود ، بعذر ، أو بغير عذر ، عند جمهور الفقهاء .

إلا أنه لو صلاها المسلم قاعداً ، من غير عذر ، كان له نصف الأجر :

لحديث عبد الله بن بريدة بن عمران بن حصين أنه سأل النبى ﷺ عن صلاة الرجل قاعداً ؟ فقال : « صلاته قائماً ، أفضل من صلاته قاعداً ، وصلاته قاعداً على النصف من صلاته قائماً ، وصلاته نائماً على النصف من صلاته قاعداً » أخرجه البخارى وغيره .

ثم يقول : ولا تجوز صلاة النفل للمسلم وهو نائم ، إلا لعذر .

قال الخطابي : « أما قوله : وصلاته نائماً على النصف من صلاته قاعداً ، فإنى لا أعلم أنى سمعته إلا في هذا الحديث . ولا أحفظ عن أحد من أهل العلم أنه رخص فى صلاة التطوع نائماً ــ يعنى مع القدرة على القعود ــ كما رخص فيها قاعداً ، وإن صحت هذه اللفظة عن النبى ﷺ ، ولم تكن من كلام بعض الرواة ، فإن التطوع مضطجعاً للقادر على القعود ، جائز بهذا الحديث » إنتهى . بتصرف(١) .

هذا .. ويجوز صلاة التطوع بعضه من قيام ، وبعضه من قعود ، كأن يقرأ جالساً ، ثم يقوم : فيقرأ بعض آيات ، ثم يركع ، كما فعل الرسول ﷺ :

قالت عائشة رضى الله عنها : « ما رأيت رسول الله ﷺ يقرأ في شيء من صلاة الليل جالساً قط ، حتى دخل في السن(٢) ، فكان يجلس فيها ، فيقرأ حتى إذا بقي أربعون أو ثلاثون آية ، قام فقرأها ثم ركع » أخرجه مسلم وغيره .

قال بهذا الأئمة الأربعة ، بمقتضى هذا الحديث وغيره .

ثم يقول تحت عنوان :

---

(١) الدين الخالص ج ٥ ص ٢٧٨ .

(٢) أى : كبرت سنه .

فائدة

اختص النبي ﷺ بجواز صلاة الفرض قاعداً ، بلا عذر ، وبأن تطوعه قاعداً بلا عذر ، كتطوعه قائماً فى الأجر .

لقول ابن عمر رضى الله عنهما : حدثت أن النبى ﷺ ، قال : « صلاة الرجل قاعداً ، نصف الصلاة ، فأتيته فوجدته يصلى جالساً ، فوضعت يدي على رأسه ، فقال : مالك يا عبد الله بن عمر ؟ قلت : حدثت يا رسول الله .. أنك قلت : صلاة الرجل قاعداً ، نصف الصلاة ، وأنت تصلى قاعداً !! قال : أجل .. ولكنى لست كأحد منكم » أخرجه مسلم وأبو داوود .

هذا .. مع ملاحظة أن النبى ﷺ ما كان يصلى قاعداً ، إلا لعذر ، كما صرحت بذلك عائشة رضى الله عنها في الحديث السابق ، وفيه قالت : « ما رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فى شيء من الليل جالساً قط ، حتى دخل في السن » .

* * *

وإتماماً للفائدة ، فإننى أرى كذلك أن أوقفك ، على :

الأوقات المنهى عن التنفل فيها

وهي ـــ كما لخصها في الفقه الواضح ـــ : أوقات نهى رسول الله ﷺ عن التنفل فيها :

١ ـــ ٢ : الوقت ما بين صلاة الصبح ، وطلوع الشمس . والوقت ما بين صلاة العصر ، وغروب الشمس .

وفى رواية للبخارى ومسلم عنه « أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تشرق . وبعد العصر حتى تغرب » :

وهذا النهى لمن كان قد صلى الصبح والعصر .

أما من لم يكن قد صلى الصبح ، أو العصر ، فلا بأس أن يصلى نفلاً ، مثل : سنة الفجر ، وسنة العصر ، قال بذلك جمهور الفقهاء .

٣ ـــ ٤ ـــ ٥ : الوقت من طلوع الشمس حتى ترتفع قدر رمح ، ووقت الاستواء ـــ وهو الوقت الذى تكون فيه الشمس في وسط السماء ـــ أى قبل الظهر بدقائق ، وعند غروب الشمس .

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه ، قال : « ثلاث ساعات ، كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصلى فيهن ، أو نقبر موتانا : حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع ، وحين يقوم قائم الظهيرة(١) . وحين تضيف الشمس للغروب(٢) » رواه مسلم .

ويجمع هذه الأوقات الخمسة ، حديث عمرو بن عنبسة رضى الله عنه ، قال : « قلت : يا نبى الله .. أخبرني عن الصلاة . قال : صل صلاة الصبح ، ثم أقصر عن الصلاة ، حتى تطلع الشمس حتى ترتفع ، فإنها تطلع ، حين تطلع بين قرنى شيطان ، وحينئذ يسجد لها الكفار ، ثم صل ، فإن الصلاة مشهودة محضورة ، حتى يستقل الظل بالرمح ، ثم أقصر عن الصلاة ، فإنه حينئذ تسجر جهنم ، فإذا أقبل الفيء فصل ، فإن الصلاة مشهودة محضورة ، حتى تصلى العصر ، ثم أقصر عن الصلاة ، حتى تغرب الشمس ، فإنها تغرب بين قرني شيطان ، وحينئذ يسجد لها الكفار » رواه مسلم .

هذا .. والنهى عن التنفل في هذه الأوقات الخمسة عام ، يشمل جميع النوافل .

خلافاً للشافعية ، فإنهم قالوا : إن النهى منصب على النفل ، الذى ليس له سبب .

أما النفل الذى له سبب ، مثل تحية المسجد ، وسنة الوضوء ، وسجدة التلاوة ، فإنه لا يكره في هذه الأوقات .

ووافقهم الحنابلة في جواز صلاة تحية المسجد ، والإمام على المنبر ..

---

(١) أى عند الاستواء ، وهو توسط الشمس في السماء .

(٢) أى : عندما تميل إلى الغروب .

وخالفوهم فيما سوى ذلك .

٦ ـــ التنفل عند إقامة الصلاة : وهو منهى عنه ، بدليل قوله ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة ، فلا صلاة إلا المكتوبة » رواه مسلم عن أبي هريرة .. أى : فلا تصلوا إلا الصلاة المفروضة ، التى أقام لها المؤذن .

وقد اختلف الفقهاء فيمن صلى ركعتين ، عند إقامة الصلاة ، هل تنعقد صلاته ، وتكون صحيحة ، أو لا تنعقد ، ولا تصح ؟ ..

قولان :

فمن قال بصحتها ، جعل النهى على الكراهة ، ونفى الكمال . ومن قال بعدم صحتها ، حمل النهى على التحريم ، وعدم الصحة ، أى : إذا أقيمت الصلاة ، فلا تصح صلاة ، إلا الصلاة المفروضة .

واختلفوا أيضاً فيمن شرع في صلاة النافلة ، قبل الإقامة ، ولم يتم صلاته . هل يقطعها ، أو يتمها ؟ ..

قال كثير من الفقهاء : يتمها ما دام قد شرع فيها قبل الإقامة ، ولا يقطعها ، لقوله تعالى : ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾[1] ما لم يخف فوات ركعة مع الإمام .

وقيل : لا يقطعها ، حتى ولو خاف فوات ركعة مع الإمام ، لأنه عمل صالح ، نهانا الله عن إبطاله فى قوله جل وعلا : ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ .

وقال جماعة من الفقهاء : يقطع الصلاة ، ما لم يركع ، فإن ركع ، فقد انعقدت الصلاة ، فلا ينبغي أن يقطعها ، بل يتمها ، ويخففها ، حتى يدرك الصلاة مع الإمام ، قبل أن يركع للركعة الأولى .

هذا .. وقد استثنى بعض الفقهاء على اختلاف مذاهبهم من النهى ركعتى الفجر ، فقالوا : من سمع الإقامة لصلاة الصبح ، ولم يكن قد ركع ركعتى الفجر المسنونة ، فله أن يركعهما خارج المسجد ، أو داخله ، ما لم يخف

---

(١) سورة محمد : ٣٣ .

فوات ركعة مع الإمام .

واستدلوا على ذلك بفعل بعض الصحابة ، مثل عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن مسعود .

فعن زيد بن أسلم رضى الله عنه : « أن ابن عمر رضى الله عنهما ، جاء والإمام يصلى الصبح ولم يكن صلى الركعتين قبل صلاة الصبح ، فصلاهما في حجرة حفصة[1] وصلى مع الإمام » .

وقال أبو عثمان الأنصاري : « جاء عبد الله بن عباس ، والإمام في صلاة الغداة[2] ، ولم يكن صلى الركعتين ، فصلى الركعتين خلف الإمام[3] ، ثم دخل معه » . أخرج هذين الأثرين الطحاوي .

وقال أبو موسى : « أقيمت الصلاة ، فتقدم عبد الله بن مسعود إلى أسطوانة[4] في المسجد ، فصلى ركعتين ، ثم دخل ، يعنى في الصلاة » أخرجه الطبرانى في الكبير ورجاله ثقات .

وذهب جمهور كبير من الفقهاء إلى تعميم النهى ، في كل صلاة ، لعموم قوله ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة ، فلا صلاة إلا المكتوبة » .

ولقول أبي موسى رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً صلى ركعتى الغداة ، حين أخذ المؤذن يقيم : فغمز النبى ﷺ منكبه ، وقال : « ألا كان هذا قبل هذا » ؟ أخرجه الطبراني ورجاله ثقات .

وهذا القول هو الأصح ، لورود الأحاديث المصرحة بنهيه ﷺ عن صلاة

---

(١) وهى أخته ، زوجة الرسول ﷺ ، رضى الله عنها .
(٢) أى صلاة الصبح .
(٣) يعنى وراءه في آخر المسجد منفرداً ثم اقتدي به في صلاة الصبح .
(٤) أى في مكان في المسجد .

التطوع مطلقاً ، عند إقامة الصلاة ، ولا سيما حديث أبي موسى هذا ، فإن فيه نهى الرسول ﷺ الرجل عن صلاة ركعتى الغداة حين رآه قد صلاهما عند شروع المؤذن في الإقامة ، وقال له : « ألا كان هذا قبل هذا » ؟ .

٧ ــ الصلاة والإمام يخطب :

فقد اتفق الأئمة على حرمة الصلاة ، والإمام يخطب فى حق من كان جالساً قبل صعود الإمام على المنبر ، لأن التنفل مستحب ، وسماع الخطبة فرض ، والفرض مقدم على المستحب .

واختلفوا في من لم يكن قد صلى الصبح ، وذكره أثناء الخطبة .

فقال المالكية : يقوم لصلاة الصبح ، لأن صحة الجمعة تتوقف على صلاته ، بناء على أن الترتيب بين الصلوات واجب ، إذا كانت خمس صلوات فأقل . وبذلك قال الحنفيون أيضاً .

واختلفوا فيمن أتى المسجد ، والإمام على المنبر ، ولم يكن قد صلى تحية المسجد .

فقال المالكية والحنفية : يجلس لسماع الخطبة ، ولا يصلى تحية المسجد ، لأن التحية سنة ، وسماع الخطبة فرض ، والفرض مقدم على السنة . ولأن النبى ﷺ قد نهى عن الكلام أثناء الخطبة ، حتى ولو كان أمراً بمعروف ، أو نهياً عن منكر ، فتحية المسجد من باب أولى .

وجوز الشافعية والحنابلة ، لمن أتى المسجد ، ولم يكن قد صلى التحية أن يركع ركعتين خفيفتين ، والإمام يخطب ، مستدلين بحديث سليك الغطفاني الذي أتى يوم الجمعة ، ورسول الله ﷺ يخطب ، فجلس ، فقال له : يا سليك .. قم فاركع ركعتين : وتجوز فيهما . ثم قال : « إذا جاء أحدكم يوم الجمعة ، والإمام يخطب ، فليركع ركعتين ، ولتجوز فيهما »(٢) .

---

(١) أى يخففهما .

ثم تساءل بعد ذلك في « الفقه الواضح » :

هل النهى للكراهة أو للتحريم ؟ .. ثم قال :

اختلف الفقهاء في هذا النهي عن الصلاة في هذه الأوقات المتقدم ذكرها . هل هو للكراهة ، أو للتحريم .

للشافعية قولان : قول بأن النهى للكراهة التنزيهية[1] ، وقول بأنه لكراهة التحريم[2] .

وقال المالكية : النهى عن الصلاة بعد صلاة الصبح والعصر للكراهة .

وأما النهى عن الصلاة عند طلوع الشمس ، وعند غروبها ، فللتحريم . لما فيه من التشبه بعباد الشمس . وكذلك التنفل عند إقامة الصلاة ، وعندما يكون الإمام على المنبر يوم الجمعة .

* * *

هذا .. وإذا كان الرسول ﷺ ، قد قال — كما علمنا — في نص الوصية. التي ندور حولها : « اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً » .

فإنه في هذا الحديث: بعد أن رغبنا في صلاة غير المكتوبة في بيوتنا — باستثناء ما وقفت عليه قبل ذلك — : ينهانا كذلك عن أن نتخذها قبوراً . أى : لا تجعلوها كالقبورمهجورة من الصلاة . أو كالجسد الذى لا روح فيه كما أشار النبى ﷺ إلى هذا .. في حديث شريف ورد :

عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، قال : « مثل البيت الذى يذكر الله فيه ، والبيت الذى لا يذكر الله فيه : مثل الحى والميت » رواه البخارى ومسلم .

---

(١) كراهة تنزيهية ، أى : إلى الحلال أقرب .

(٢) كراهة تحريمية ، أى : هى إلى الحرام أقرب .

قال في الترغيب والترهيب معلقاً على هذا الحديث :

فلله هذا المثل الرائع الذى يضربه لنا سيد الناطقين بالضاد(١) ، والذي أوتى جوامع الكلم صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه حيث يشبه البيت الذى لا يذكر الله عز وجل فيه بجسد ميت لا روح فيه ، لأن ذكر الله عز وجل حياة للقلوب والأرواح وللبيوت أيضاً ، فأيما بيت خلا من ذكر الله فهو كالقبر المهجور أو كالبيت الخرب الذى خلا من ساكنيه .

* * *

فمن هذا يتبين لنا المراد من نهى الرسول ﷺ ، وهو كما علمنا ألا نجعل بيوتنا كالقبور مهجورة من الصلاة غير المكتوبة .

وهذا معناه أن العبد الموفق ، هو الذي يذكر نفسه دائماً وأبداً بحياة القبور التى لا بد أن يعتبر بها ، كثابت البناني رحمه الله تعالى الذي يقول :

دخلت المقابر لأزور القبور وأعتبر بالموتى ، وأتفكر في البعث والنشور وأعظم نفسى لعلها ترجع عن الغى والغرور ، فوجدت أهل القبور صموتاً لا يتكلمون ، وفرادى لا يتزاورون ، فأيست من مقالهم ، واعتبرت بأحوالهم .. فلما أردت الخروج إذ أبصرت من يقول لى : يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها .. فكم فيها من نفس معذبة أو منعمة .

وكان يزيد الرقاشى يقول في كلامه : أيها المقبور في حفرته ، المتخلى في القبر بوحدته ، المستأنس في بطن الأرض بأعماله ، ليت شعرى بأى أعمالك

---

(١) لأن اللغة العربية هى اللغة الوحيدة التي فيها حرف الضاد .. على مستوى جميع اللغات المختلفة .

استبشرت ، وبأي أحوالك اغتبطت ، ثم يبكي حتى يبل عمامته ، ويقول : استبشر ـــ والله ـــ بأعماله الصالحة ، واغتبط ـــ والله ـــ بإخوانه المعاونين له على طاعة الله ، وكان إذا نظر إلى القبر صرخ كما يصرخ الثور .

* * *

وحسب الأخ المسلم أن يقرأ ويفهم هذا الحديث الذي رواه الترمذي .

عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : دخل رسول الله ﷺ مصلاه فرأى ناساً يكثرون ، فقال : « أما أنكم لو أكثرتم من ذكر هازم اللذات : الموت . فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه . فيقول : أنا بيت الغربة ، وأنا بيت الوحدة ، وأنا بيت التراب ، وأنا بيت الدود . فإذا دفن العبد المؤمن . قال له القبر : مرحباً وأهلاً أما إن كنت لأحب من يمشى على ظهرى إلى ، فإذ وليتك اليوم وصرت إلى فستري صنيعى بك فيتسع له مد بصره ، ويفتح له باب إلى الجنة . وإذا دفن العبدُ الفاجر أو الكافر قال له القبر : لا مرحباً ولا أهلاً . أما إن كنت لأبغض من يمشى على ظهرى إلى . فإذ وليتك اليوم وصرت إلى فستري صنيعي بك قال : فيلتئم عليه حتى يلتقي وتختلف أضلاعه » قال : قال رسول الله ﷺ بأصابعه فأدخل بعضها في جوف بعض . قال : « ويقيض الله له تسعين تنيناً أو قال تسعة وتسعين لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا . فتنهشه حتى يفضى به إلى الحساب » قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » . قال أبوعيسى : هذا حديث غريب .

وقد روى ابن ماجه ، عن هانىء بن عثمان ، قال : كان عثمان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكى من هذا ؟ قال : إن رسول الله ﷺ ، قال : « إن القبر أول منازل الآخرة . فإن نجا منه أحد ، فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » .

قال : قال رسول الله ﷺ : « ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه »

أخرجه الترمذي وزاد رزين قال : وسمعت عثمان ينشد على قبر شعراً :

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة   وإلا فإني لا أخالك ناجيا

* * *

فتذكر كل هذا أخا الإسلام ، و :

تزود من معاشك للمعاد   وقم لله واعمل خير زاد
ولا تجمع من الدنيا كثيراً   فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم   لهم زاد وأنت بغير زاد؟

* * *

الوصية الخمسون

عن أبي عمارة البراء بن عازب رضي الله عنهما قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

يَا فُلَانُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ
فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي
إِلَيْكَ (١)، وَوَجَّهْتُ (٢) وَجْهِي إِلَيْكَ
وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ
ظَهْرِي (٣) إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً (٤)
إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ
إِلَّا إِلَيْكَ (٥)، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ
الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي

أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ،(٦) وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ خَيْرًا.

متفق عليه

وفي رواية الصحيحين:

عن البراء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ(٧) وَقُلْ، وَذَكَرَ نَحْوَهُ، ثُمَّ قَالَ:

وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ.

(١) **أسلمت نفسي إليك** : استسلمت لحكمك وانقدت لأمرك وأذعنت لما تجريه علي من قضائك وقدرك .

(٢) **ووجهت وجهي إليك** : أخلصت ديني إليك ولم أجعل لك شريكاً من خلقك .

(٣) **وألجأت ظهري إليك** : استندت إليك واستعنت بك في كل ما يعجزني .

(٤) **رغبة ورهبة إليك** : طمعاً في رحمتك وفضلك وخوفاً من عذابك .

(٥) **لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك** : لا خلاص ولا مهرب من عذابك إلا إليك .

(٦) **على الفطرة** : على الإسلام الصحيح الخالص من الشرك .

(٧) **على شقك الأيمن** : لأنه قد ثبت طبياً أن النوم على الجانب الأيمن أنفع للقلب .. بالإضافة إلى وصية الرسول .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذا الدعاء المبارك الذي أوصانا به الرسول ﷺ جميعاً في شخص هذا الصحابى الذى ورد ذكره في الدعاء على أنه فلان ، إشارة إلى أن الوصية هذه موجهة إلى كل فلان من أصحاب الرسول ﷺ وأحبابه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإذا كنا إن شاء الله تعالى كأحباب لرسول الله ﷺ سننفذ الدعاء هذا عندما نأوى إلى مضاجعنا .. حتى إن متنا في أى ليلة من الليالي .. متنا على الفطرة وإن أصبحنا في أى صباح أصبنا خيراً :

فإننى أرى وقبل أن نقف على المعنى الإجمالي لهذا الدعاء الجامع : أن نقف أولاً على المعنى المراد من كل فقرة من فقراته .. حتى نردد الدعاء ونحن نفهمه .. وندرك أبعاده :

فقد جاء في أول الحديث أن النبى ﷺ ، قال للصحابى الذى أوصاه :

إذا أويت إلى فراشك ، فقل : أى : إذا أردت أن تنام وأنت طاهر كما جاء في رواية البراء : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، وقل .. » وفي رواية لأبي داوود : « إذا أويت إلى فراشك وأنت طاهر فتوسد يمينك .. » .

وهكذا كان يفعل الرسول ﷺ إذا أراد أن ينام : فقد جاء في زاد المعاد : أن النبى ﷺ « كان إذا أوى إلى فراشه للنوم ، قال : باسمك اللهم أحيا وأموت . وينام على شقه الأيمن ويضع يده اليمنى تحت خده الأيمن ، ثم يقول : اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك . وإذا انتبه من نومه قال : الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور . ثم يتسوك .. وكان ينام أول الليل ويقوم آخره ، وربما سهر أول الليل في مصالح المسلمين ، وكانت تنام عيناه ولا ينام قلبه ، وإذا نام لم يوقظوه حتى يكون هو الذي يستيقظ » أ . هـ .

اللهم أسلمت نفسى إليك : أى : استسلمت لحكمك وانقدت لأمرك ، وأذعنت لما تجريه على من قضائك وقدرك .

ووجهت وجهى إليك :

أى : أخلصت دينى إليك ، ولم أجعل لك شريكاً من خلقك .

وفوضت أمرى إليك :

أى : رددته إليك ، فلا حول ولا قوة إلا بك : فاكفنى همه ، وأصلحه بما شئت .

وألجأت ظهرى إليك :

أى : استندت إليك ، واستعنت بك في كل ما يعجزني .. وقيل : اعتمدت عليك في جميع أمورى ، وأسندتها إليك ، كما يعتمد الإنسان بظهره إلى ما يستند إليه[١] .

رغبة ورهبة إليك :

أى : طمعاً في رحمتك وفضلك وخوفاً من عذابك .. وقيل : أى الرغبة في ثوابك ومغفرتك ، والرهبة من عقابك وسخطك .

لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك :

أى : لا خلاص ولا مهرب من عذابك إلا إليك . « ولا ملجأ » مهموز من ألجأت ، ولا منجى هو غير مهموز من النجاة .

آمنت بكتابك الذى أنزلت :

أى : بالقرآن .. وقيل : جميع الكتب المنزلة .

وبنبيك الذى أرسلت :

أى : أرسلته إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً . فصلوات الله وسلامه عليه .

فإنك إن مت من ليلتك ، مت على الفطرة :

أى : على الإسلام الصحيح الخالص من الشرك .

وإن أصبحت أصبت خيراً :

أى : أصبت خيراً بترديدك لهذا الدعاء الجامع الذى مضمونه كما هو واضح لك : التفويض الكامل لله رب العالمين .

---

(١) ولله المثل الأعلى .

فإذا كان هذا هو المعنى الإجمالى لفقرات هذا الدعاء المبارك : فإننى أحب أن أذكرك وقبل التعليق عليه : بأن هناك أدعية أخرى وردت كذلك في « الترغيب والترهيب » تحت عنوان :

ما يقال من الذكر عند النوم

فعن عروة بن نوفل عن أبيه رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال لنوفل : « اقرأ : ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ ثم نم على خاتمتها ، فإنها براءة من الشرك » رواه أبو داوود ، واللفظ له ، والترمذى ، والنسائى متصلاً مرسلاً ، وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد :

وفى رواية عن حجاج بن أرطأة : حدثنا شريك عن أبي إسحاق عن عروة بن نوفل عن الحارث بن جبلة ، قال : قلت : يا رسول الله .. علمنى شيئاً أقوله عند منامى ، فقال له .. إلخ الحديث .

* * *

والرسول ﷺ يوصيه في هذا الحديث :

بأن يقرأ عند نومه السورة التى أولها : ﴿ **قل يأيها الكافرون ..** ﴾ .

وبأن لا يتكلم بعد قراءتها بأي كلام دنيوى ، أو من كلام الناس : فإنها براءة : أى خلاص ونجاة ، من الشرك .. ولهذا كان النبى ﷺ يقرأ بها في الركعة الأولي من سنة الفجر ، وسنة المغرب وركعتى الطواف ، ويقرأ في الركعة الثانية بسورة الإخلاص : وذلك لأنهما تضمنتا نفى الألوهية عن كل ما سوى الله عز وجل وإثباتها لله وحده .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ ، قال : « خصلتان ــ أو خلتان(١) ــ لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلا دخل الجنة ، هما يسير ، ومن يعمل بهما قليل :

---

(١) « أو » شك من الراوى ، والخصلة والخلة بفتح الخاء فيهما يعنى الخلق أو الصفة .

يسبح في دبر كل صلاة عشراً ، ويحمد عشراً ، ويكبر عشراً ، فذلك خمسون ومائة باللسان ، وألف وخمسمائة في الميزان .

ويكبر أربعاً وثلاثين إذا أخذ مضجعه ويحمد ثلاثاً وثلاثين ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين : فذلك مائة باللسان ، وألف في الميزان(١) .

فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها . قالوا : يا رسول الله .. كيف هما يسير ، ومن يعمل بهما قليل ؟ قال: « يأتى أحدكم — يعنى الشيطان — في منامه فينومه قبل أن يقوله ، ويأتيه في صلاته فيذكره حاجة قبل أن يقولها » .

رواه أبو داوود واللفظ له والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ، والنسائى وابن حبان في صحيحه ، وزاد بعد قوله :

« وألف وخمسمائة في الميزان ، قال رسول الله ﷺ : أيكم يعمل في اليوم والليلة ألفاً وخمسمائة سيئة » .

* * *

ففي هذا الحديث يوصينا النبى ﷺ كعباد مسلمين إذا أردنا أن ندخل الجنة : بأن نحافظ علي خصلتين ، العمل بهما سهل وهين ، وهما :

أن يسبح عقب كل صلاة عشراً ، ويحمد عشراً ، ويكبر عشراً .. ثم يقول بعد ذلك : فذلك خمسون ومائة باللسان ، وألف وخمسمائة في الميزان :

وذلك لأنهن ثلاثون في كل صلاة ، والصلوات خمس ، فيكون المجموع حينئذ مائة وخمسين .. ولأن الحسنة بعشر أمثالها ، فإذا ضرب مائة وخمسون في عشر كان المجموع ألفاً وخمسمائة .

وبأن يكبر أربعاً وثلاثين إذا أخذ مضجعه — أى إذا أراد أن ينام — ويحمد ثلاثاً وثلاثين ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين .. ثم يقول بعد ذلك : فذلك مائة باللسان ، وألف في الميزان .

---

(١) لأن الحسنة بعشر أمثالها .

وفي نسخة : « فتلك » إشارة لمجموع التكبير ، والتحميد ، والتسبيح . والحسنة كما عرفنا قبل ذلك بعشر أمثالها ..

ثم إذا كان النبي ﷺ ، قد أجاب على السؤال الذى وجه إليه ، وهو : كيف هما يسير ، ومن يعمل بهما قليل ؟ . فقال : يأتى أحدكم — أى الشيطان — في منامه فينومه قبل أن يقوله : أى يهدهده كما يهدهد الصبى ويحبب إليه النوم . ويأتيه في صلاتها فيذكره حاجة قبل أن يقولها : أى : حتى تحمله الحاجة على أن ينصرف بعد السلام مباشرة قبل أن يقول تلك الكلمات .

وإذا كان الرسول ﷺ ، قد قال في رواية ابن حبان : « وأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفاً وخمسمائة سيئة » :

فإن المراد هو أن الذنوب مهما كثرت لن تبلغ عدد الحسنات التي كسبها المصلى بقوله هذه الكلمات .

* * *

فلتذكر أخا الإسلام كل هذا حتى تحافظ على هذا الخير وتفوز بكل هذا الثواب .

وعن العرباض بن سارية رضى الله عنه أن النبي ﷺ : كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، ويقول : « إن فيهن آية خير من ألف آية » . رواه أبو داوود والترمذي واللفظ له ، وقال : حديث حسن غريب ، والنسائى ، وقال : قال معاوية يعنى ابن صالح :

« إن بعض أهل العلم كانوا يجعلون المسبحات ستاً : سورة الحديد ، والحشر ، والحواريين[1] ، وسورة الجمعة ، والتغابن ، و ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ .

* * *

ففي هذا الحديث — كما علمنا — : أخبار بأن الرسول ﷺ كان يقرأ

(١) يعني السورة التي ذكر فيها الحواريون وهي سورة : الصف .

المسبحات قبل أن يرقد .. وهى : السور المبتدأة : بسبح لله ، أو يسبح لله .. وقد علمت أن بعض أهل العلم كانوا يجعلونها ستاً .. وقد ذكر في هامش الترغيب والترهيب ، أنها : الحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن ..

ثم إذا كان النبى ﷺ قد قال في نهاية الحديث عن المسبحات : « إن فيهن آية خير من ألف آية » :

فهذه الآية هى قوله تعالى في سورة الحديد : ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم** ﴾[1] : فإن هذه الأسماء الحسنى الأربعة دلت على إحاطته تعالى التامة بجميع خلقه زمانا ومكاناً وعلماً .

فلنفز كذلك بخيرات المسبحات .

* * *

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من قال حين يأوى إلى فراشه : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر : غفرت له ذنوبه ، أو خطاياه ، وإن كانت مثل زبد البحر » رواه النسائى وابن حبان في صحيحه واللفظ له ، وعند النسائى .

« سبحان الله وبحمده ، وقال في آخره : ولو كانت أكثر من زبد البحر » .

* * *

ففي هذا الحديث ـــ كما قرأنا ـــ : يرغبنا النبى ﷺ في أن نقول قبل أن

---

(١) الحديد : ٣ .

نأوى إلى مضاجعنا : لا إله إلا الله وحده لا شريك له :

فوحده لا شريك له ، بعد كلمة التوحيد تأكيد لما دل عليه الاستثناء من انفراده سبحانه وتعالى بالوحدانية .

له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير :

أى أن له وحده الملك التام الذى لا يغالب عليه ، وله الحمد التام الذى لا يلحقه ذم ولا نقص .. وهو قادر على كل شيء .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم :

فهى : كما ورد في حديث أبي موسى الأشعرى : كنز من كنوز الجنة ، ففى الحديث قال له الرسول ﷺ : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة » ؟ قال : بلى . قال : « قل : لا حول ولا قوة إلا بالله » .

سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر .

فهو كذلك « أفضل الكلام » ، ففى الحديث : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع لا يضرك بأيهن بدأت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » وقد ورد : أنهن الباقيات الصالحات .

ثم إذا كان النبى ﷺ يقول بعد ذلك في ترغيبه : « غفرت له ذنوبه ــ أو خطاياه ــ وإن كانت مثل زبد البحر » .

أو كما جاء في رواية النسائى :

« غفرت له ، ولو كانت أكثر من زبد البحر » :

فهذا معناه أنه من الخير أخا الإسلام أن تنفذ هذا الخير حتى يغفر الله لك ذنوبك ولو كانت مثل زبد البحر أو أكثر منه .. والله ذو الفضل العظيم .

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يأخذ مضجعه(١) ، فيقرأ سورة من كتاب الله : إلا وكل الله به

---

(١) يعنى يأوى إلى فراشه وينام فيه .

ملكاً ، فلا يقربه شيء يؤذيه ، حتى يهب من نومه متى هب »[1] رواه الترمذى ، ورواه أحمد ، إلا أنه قال :

« بعث الله له ملكاً يحفظه من كل شيء يؤذيه حتي يهب متى هب » وزواة أحمد رواة الصحيح .

* * *

ففي هذا الحديث يرغبك كمسلم عندما تأوى إلى فراشك لتنام فيه : بأن تقرأ أى سورة من كتاب الله تعالى .. مخبراً إياك بأنك إن فعلت ذلك : وكل الله بك ملكاً يحفظك ــ وأنت نائم ــ من كل أنواع المؤذيات : أى : من شياطين الإنس والجن والوحوش والحشرات والهوام ، ونحو ذلك .. حتى تهب من نومك .

* * *

فحسبك هذا أخا الإسلام ترغيباً لك في هذا الخير الذي به كما عرفت في نهاية الحديث سيظل الحفظ مستمراً لك حتى تستيقظ .

وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « إذا أوى الرجل إلى فراشه ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : اختم بخير ، ويقول الشيطان : اختم بشر ، فإن ذكر الله ثم نام بات الملك يكلؤه ، وإذا استيقظ ، قال الملك : افتح بخير ، وقال الشيطان : افتح بشر ، فإن قال : الحمد لله الذى رد على نفسى ولم يمتها في منامها ، الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا .. إلى آخر الآية[2] ، الحمد لله الذى يمسك السماء أن تقع علي الأرض إلا بإذنه[3] :

---

(1) هب : أى انتبه من نومه .

(2) نص الآية في سورة فاطر : ٤١ ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليماً غفوراً ﴾ .

(3) نص الآية في سورة الحج : ٦٥ ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجرى في البحر بأمره ويمسك السماء .. ﴾ الآية .

فإن وقع عن سريره فمات دخل الجنة » رواه أبو يعلى بإسناد صحيح ، والحاكم ، وزاد في آخره :

« الحمد لله الذي يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير » . وقال صحيح على شرط مسلم .

* * *

ففي هذا الحديث ، يخبر النبي ﷺ : بأنه إذا أوى الرجل إلى فراشه ابتدره ــ أى أسرع إليه ــ ملك وشيطان .. فيقول الملك لهذا الرجل : اختم بخير ــ أى اجعل خاتمة عملك قبل النوم خيراً بذكر الله ، وتلاوة القرآن ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .. ونحو ذلك ــ . ويقول له الشيطان : اختم بشر ــ أى أن الشيطان يزين له السوء والفجور لتكون خاتمة عمله شراً .. ثم يقول الرسول ﷺ : فإن ذكر الله ثم نام ، بات الملك يكلؤه ــ أى يحرسه ويحفظه ــ . وإذا استيقظ ، قال الملك : افتح بخير ــ أى ابدأ عمل يومك ــ وقال الشيطان : افتح بشر .. ثم يقول الرسول ﷺ بعد ذلك:

الحمد لله الذى رد على نفسى ــ أى : أعادها إلى بعد ما قبضها ــ ولم يمتها في منامها ــ أى : لم يمسكها عنده سبحانه بل أرسلها .

الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ــ أى : من أن تزولا .. فهو سبحانه بقدرته : يحفظهما من الزوال وهو العدم والسقوط .

الحمد لله الذي يمسك السماء أن تقع علي الأرض إلا بإذنه ــ فهو سبحانه يحمد نفسه علي كال قدرته في حفظ السماء وإمساكها حتى لا تسقط علي الأرض ، ولكنه لو أذن بذلك وشاءه لوقع .

الحمد لله الذي يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير

* * *

ثم إذا كان الرسول ﷺ ، يقول بعد ذلك مرغباً في هذا الخير : فإن وقع عن سريره فمات دخل الجنة .

أى : لو قدر عليه أن يخر عن سريره في نومه هذا ، وكان قد قال هذه الكلمات ، فإنه يغفر له ويدخل الجنة .

فإننى أرجو أن يكون هذا ترغيباً لك في تنفيذ هذا الخير .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ونفذه قبل أن تأوى إلى فراشك ، حتى تفوز بتلك النتائج العظيمة التي من أهمها كما علمت حفظ الله تعالى ورعايته لك .. ومغفرته ورضوانه .

وحسبك كذلك إذا كنت ستنام على طهارة .. أن تقرأ معى هذه الأحاديث التي أرجو كذلك أن تكون سبباً في ترغيبك :

فعن ابن عمر رضى الله عنهما : قال : قال رسول الله ﷺ : « من بات طاهراً بات في شعاره[1] ملك ، فلا يستيقظ إلا قال الملك : اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهراً » رواه ابن حبان في صحيحه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « طهروا هذه الأجساد طهركم الله[2] ، فإنه ليس من عبد يبيت طاهراً إلا بات معه في شعاره ملك ، لا ينقلب ساعة من الليل[3] إلا قال : اللهم اغفر لعبدك فإنه بات طاهراً » رواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد .

وعن أبي أمامة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) الشعار بكسر الشين المعجمة : هو ما يلي بدن الإنسان من ثوب وغيره .
(٢) جملة دعائية .
(٣) أى لا يقوم من نومه في أى لحظة من الليل إلا قال له الملك ..

« من أوى(١) إلى فراشه طاهراً يذكر الله(٢) حتى يدركه النعاس(٣) لم ينقلب ساعة من ليل يسأل الله خيراً من خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه » رواه الترمذي عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة ، وقال : حديث حسن .

* * *

ولا تنس أخا الإسلام — في النهاية — وبعد أن تستيقظ من نومك أن تقرأ الدعاء الوارد في هذا الحديث الشريف حتي تفوز بالخير المشار إليه فيه :

فعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « من تعار(٤) من الليل ، فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، الحمد لله ، وسبحان الله ولا إله إلاالله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : اللهم اغفر لى ، أو دعا استجيب له ، فإن توضأ ثم صلى قبلت صلاته » رواه البخارى وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

* * *

أسأل الله تعالى أن يوفقنا للفوز بهذا الخير الذي نحن في أشد الحاجة إليه في دنيانا وأخرانا .. كما أسأله سبحانه وتعالى أن يختم لنا به .. آمين .

* * *

---

(١) أى ذهب لينام .
(٢) قوله « طاهراً يذكر الله » : كلاهما حال من فاعل أوى .
(٣) أى يغلبه النوم .
(٤) تعار : بتشديد الراء : أى استيقظ .

الوصية الواحدة والخمسون

عن علي رضي الله عنه قال لابن أعبد :
ألا أحدثك عني وعن فاطمة رضي الله عنها
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت
من أحب أهله إليه ، وكانت عندي ؟
قلت : بلى . قال :

إِنَّهَا جَرَّتْ بِالرَّحَا (١) حَتَّى أَثَّرَتْ
فِي يَدِهَا ، وَاسْتَقَتْ بِالقِرْبَةِ (٢)
حَتَّى أَثَّرَتْ فِي نَحْرِهَا ، وَكَنَسَتِ
الْبَيْتَ حَتَّى اغْبَرَّتْ (٣) ثِيَابُهَا
فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ خَدَمٌ (٤) فَقُلْتُ :

لَوْ أَتَيْتِ أَبَاكِ فَسَأَلْتِهِ خَادِمًا.

فَأَتَتْهُ فَوَجَدَتْ عِنْدَهُ حُدَّاثًا[5]

فَرَجَعَتْ، فَأَتَاهَا مِنَ الْغَدِ فَقَالَ:

مَا كَانَ حَاجَتُكِ ؟ فَسَكَتَتْ،

فَقُلْتُ: أَنَا أُحَدِّثُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ:

جَرَّتْ بِالرَّحَا حَتَّى أَثَّرَتْ فِي

يَدِهَا، وَحَمَلَتْ بِالْقِرْبَةِ حَتَّى

أَثَّرَتْ فِي نَحْرِهَا، فَلَمَّا أَنْ

جَاءَكَ الْخَدَمُ أَمَرْتُهَا أَنْ تَأْتِيَكَ

فَتَسْتَخْدِمَكَ[6] خَادِمًا يَقِيهَا

حَـرَّمَاهِيَ فِيـهِ. قَـالَ:
اتَّقِي اللَّهَ يَافَاطِمَةُ، وَأَدِّي فَرِيضَـةَ
رَبِّكِ، وَاعْمَلِي عَمَلَ أَهْلِكِ [٧]
وَإِذَا أَخَذْتِ مَضْجَعَكِ فَسَبِّحِي
ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدِي ثَلَاثًا
وَثَلَاثِينَ، وَكَبِّرِي أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ
فَتِلْكَ مِائَةٌ، فَهِيَ خَيْرٌ لَكِ
مِنْ خَادِمٍ.
قَالَتْ: رَضِيتُ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.
زَادَ فِي رِوَايَةٍ "وَلَمْ يُخْدِمْهَا" [٨]

رواه البخاري ومسلم وأبو داود واللفظ له ، والترمذي مختصرًا ، وقال : وفي الحديث قصة ولم يذكرها .

---

(١) جَرَّت الرحَا : أي أدارتها وَطحنت بهَا .

(٢) وَاستقت بالقربة : أي ملأت بها الماء لبيتهَا .

(٣) حَتى اغبرت ثيابهَا : أي اتسخت من الغبار .

(٤) فأتى النبي خَدَم : أي عَبيد وإمَاء مِنَ السَّبي .

(٥) فوجَدَت عندَه حُدَّاثًا : أي رجَالاً يتحَدثون .

(٦) فتستخدمك : أي تطلب منك خَادمًا .

(٧) وَاعملي عَمَل أهلك : أي قومي بشئون بيتك من إدارة الرحا وسقاية الماء كما كنت تقومين .

(٨) وَلم يخدمهَا : أي وَلم يُعطهَا خادمًا .

فكن أخا الإسلام :

دارساً لنص هذه الوصية ، أو هذا الحديث .. حتى تتعظ به كما اتعظ الآباء والأجداد من الأصحاب الفضلاء وغيرهم من التابعين والسلف الصالح الذين : تحدث الله سبحانه وتعالى عنهم في قوله : ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ..** ﴾[1] .

فكانوا لهذا رجالاً بمعنى الكلمة وكانوا كذلك من الفطناء الذين تحدث عنهم القائل في قوله :

إن لله عبـــاداً فطنـــاً طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحى وطنا
جعلوهـــــا لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

* * *

وإذا كنت أقول هذا في بداية شرحي لهذا الحديث : فإن هدفي من هذا ، هو أن يعلم الأخ المسلم أن كل هذه الدنيا بما فيها من عرض زائل لا يساوي عند الله جناح بعوضة بل إن تسبيحة واحدة لله تعالى خير من الدنيا وما فيها .. وقد قرأت توضيحاً لهذا :

أن سليمان عليه السلام ، كان ذات يوم يركب بساطه الذي كان يحمله الريح .. وكان حوله في الجو عدد كبير من جنده .. من الجن والإنس والطيور على اختلاف ألوانها وأشكالها .. فمر بموكبه هذا ، على فلاح يزرع في حقله .. فلما نظر الفلاح إلى أعلى ورأى الموكب هذا ، قال : سبحان من أعطاكم ملكاً يا آل داوود .. فنقل الريح الكلمة هذه إلى أذني سليمان عليه السلام .. فأمر الريح بأن يتوقف وينزل بالبساط إلى حقل هذا الفلاح ..

---

(١) النور : ٣٧ ، ٣٨ .

فلما فعل الريح هذا ، ورأى الفلاح الموكب في حقله .. ارتعدت فرائصه .. فقال له سيدنا سليمان مهدئاً من روعه : لا تخف يا رجل .. وقل مرة أخرى ما قلته وأنا أمر فوق حقلك .. فردد الفلاح الكلمة مرة أخرى .

فقال له سيدنا سليمان :

أما علمت يا هذا .. أن تسبيحة واحدة منك : خير من ملك آل داوود .

* * *

ولهذا .. نرى أن فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، عندما جرت بالرحى حتى أثرت في يدها ، واستقت بالقربة حتى أثرت في نحرها ، وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها .. فذهبت إلى أبيها رسول الله ﷺ ـــ بتوجيه من زوجها وابن عمها على كرم الله وجهه ـــ لتطلب منه خادماً من العبيد والإماء حتى يعينها في كل شئون البيت ..

فما كان من رسول الله ﷺ : إلا أن أوصاها بأعظم الوصايا ، التي هى خير من خادم .. كما قال لها .. بل هى خير من الدنيا وما فيها .. لأنها أساس كل خير وفلاح ونجاح .. وهى كذلك من أهم أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ..

فقد أوصاها :

أولاً : بالتقوى .. وهى ـــ كما علمنا قبل ذلك ـــ وكما جاء في نص حديث شريف : « رأس الأمر كله » ، وهى كذلك كما قال على كرم الله وجهه : الغنى بلا مال ، والهيبة بلا سلطان ، والعز بلا عشيرة .. فقد ورد أنه قال : « من أراد غنى بلا مال ، وهيبة بلا سلطان ، وعزاً بلا عشيرة : فليتق الله ، فإن الله يأبى أن يذل إلا من عصاه » .

ولهذا عندما قيل لأحد الصالحين عند موته : أوصنا ، قال :

عليكم بآخر آية من سورة النحل ، وهى : ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾[1] : فمعنى اتقوا ، أى : تحرزوا وتركوا ما نهى الله

---

(١) النحل : ١٢٨ .

عنه ، وأحسنوا : أى : أطاعوا وفعلوا ما أمر الله تعالى به .

وفي الصحيح في سؤال جبريل عليه السلام للنبى ﷺ ، قال : يا رسول الله .. ما الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، والله سبحانه وتعالى مع جميع خلقه بعلمه وقدرته ، ومعناه : أنه عالم بالكل ، قادر على الكل .

فحسبنا إذن أن نكون من الأتقياء بمعنى أن نكون من الذين يتقون الله تبارك وتعالى ، على أساس هذا الوصف الدقيق الذى وصف به على كرم الله وجهه التقوى ، فقال : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، والرضا بالقليل .

وحسبنا إن كنا كذلك إن شاء الله ، أن نكون من هؤلاء الذين جعل الله تعالى لهم من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، كما يشير إلى هذا قول الله تعالى : ﴿ .. **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾[1] .

وأن نكون كذلك من الذين خاطبهم الله تعالى في قوله :

﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به** .. ﴾[2] .

هذا بالإضافة إلى ما يشير إليه قول الله تعالى :

﴿ .. **فإن الله يحب المتقين** ﴾[3] .

وقوله : ﴿ **الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾[4] .

فإذا كانت هذه التقوى ، وإذا كانت هذه هى نتائجها :

---

(١) الطلاق : ٢ ، ٣ .

(٢) الحديد : ٢٨ .

(٣) آل عمران : ٧٦ .

(٤) يونس : ٦٣ ، ٦٤ .

فإنه من الخير لنا في دنيانا وأخرانا أن نكون من أهل التقوى .

وإذا كان النبي ﷺ قد أوصى ابنته الزهراء رضى الله عنها بهذا .. فإن هذا ولا شك كان سبباً في سعادتها وسعادة كل أفراد أسرتها .. بل وجميع أحفادها إن شاء الله تعالى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. ماداموا سيتقون الله تعالى مثلها .. وما داموا كذلك سينفذون :

الثانية : مثلها ، وهى : أداء فريضة الصلاة .. بل وأداء جميع فرائض الله التي فرضها علينا ، وجعلها أساساً للإسلام ، كما يشير إلى هذا الحديث الشريف :

« بنى الإسلام علي خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » رواه البخارى ومسلم .

كما روى البخارى في صحيحه ، عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، عن ربه عز وجل ، قال :

« من عادى لى ولياً ، فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التي يبطش بها، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

والصلاة ــ كما عرفنا ــ هى أفضل الفروض ، لما صح من قوله ﷺ : « الصلاة خير موضوع ، فمن شاء استكثر ومن شاء استقل » أخرجه ابن حبان والحاكم .

وحسب المؤدى لفريضة الصلاة ــ فضلاً عن التقرب إلى الله تعالى بنوافلها ــ أن يفوز بهذا الخير المشار إليه في قول الله تعالى :

﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾(١) .

---

(١) المؤمنون : ١ ، ٢ .

وقوله : ﴿ .. وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾[1] .

قال القرطبي : لا سيما وإن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله ، وهذا أبلغ في المقصود ، وأتم في المراد ، فإن الموت ليس له سن محددة ، ولا زمن مخصوص ، ولا مرض معلوم ، وهذا مما لا خلاف فيه . وروى عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد ، واصفر لونه ، فكلم في ذلك ، فقال : إنى واقف بين يدي الله تعالى ، وحق لى هذا مع ملوك الدنيا ، فكيف مع ملك الملوك ؟ .. فهذه صلاة تنهى ـــ ولا بد ـــ عن الفحشاء والمنكر ، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء[2] لا خشوع فيها ، ولا تذكر ، ولا فضائل ، كصلاتنا ـــ وليتها تجزيء ـــ فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان ، فإن كان على طريقه معاص تبعده من الله تعالى ، تركته الصلاة يتمادى على بعده ، وعلى هذا يخرج الحديث المروى عن ابن عباس ، وابن مسعود ، والحسن ، والأعمش ، قولهم : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم تزده من الله إلا بعداً ، ولم يزد بها إلا مقتاً[3] » انتهى . تفسير القرطبي جـ ١٣ ص ٣٤٨ طبعة دار الكتب المصرية .

وأنه سيفوز كذلك بدخول الجنة :

فعن أبي قتادة بن ربعى ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ ، قال : « قال الله عز وجل ـــ : افترضت على أمتك خمس صلوات ، وعهدت عندى عهداً : أنه من حافظ عليهن لوقتهن أدخلته الجنة ، ومن لم يحافظ عليهن ، فلا عهد له عندى » أخرجه ابن ماجه جـ ١ ص ٢٢١ .

وعن أبي قتادة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إنى افترضت على أمتك خمس صلوات ، وعهدت عندى عهداً :

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .

(٢) أى يقصد منها إسقاط الفرض وكفى ، دون النظر إلى مرضاة الله تعالى ، والتقرب إليه بها .

(٣) أى بغضاً وسخطاً .

أنه من جاء يحافظ عليهن ، لوقتهن ، أدخلته الجنة ، ومن لم يحافظ عليهن فلا عهد له عندى » من سنن أبي داوود جـ ١ صفحة ١٢٣ .

* * *

ثم إذا كان النبى ﷺ ـــ بعد ذلك ـــ يوصى ابنته الزهراء رضى الله عنها : بأن تعمل عمل أهلها ـــ من إدارة الرحى، وسقاية الماء ، وكنس البيت ، كما كانت تفعل ـــ فإنه بهذا يؤكد حبه لها ، لأنها بهذا الفعل ستكون ربة بيت بالمعنى الصحيح ، وستكون بذلك قدوة لجميع المسلمات من ربات البيوت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها :

لأن ربة البيت المثالية هى التى تقوم بشئون بيتها ، معتمدة في هذا على قوتها وخبرتها التى انتقلت بها من بيت أبويها : حتى لا تكون مكلفة لزوجها فوق طاقته ، وحتى لا تدخل بيتها من الخدم أو الخادمات من يعرض البيت لهزة أخلاقية أو اجتماعية ، أو أسرية .. ربما كانت سبباً في هدم هذا البيت من أساسه ، ولا شك أن الزوج وزوجته قد سمعا أو قد قرآ مثل هذا في الصحف اليومية عن الخدم والخادمات .

ثم إن الزوجة المثالية لا بد وأن تكون فاعلة كل ما يرضى زوجها ويسعده : حتى يشهد لها بهذا ويحبها .. كما أشار إلى هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، في هذا المضمون الذى جاء في نصه :

أن أعرابياً كان يعاتب زوجته ، فعلا صوتها صوته ، فساءه ذلك منها ، وأنكره عليها ، ثم قال : والله لأشكونك إلى أمير المؤمنين .

وما أن كان بباب أمير المؤمنين ينتظر خروجه ، حتى سمع امرأته تستطيل عليه ، وتقول : اتق الله يا عمر فيما ولاك ، وهو ساكت لا يتكلم .

فقال الرجل في نفسه وهو يهم بالانصراف : إذا كان هذا هو حال أمير المؤمنين ، فكيف حالى ؟ وفيما هو كذلك ، خرج عمر .. ولما رآه ، قال له : ما حاجتك يا أخا العرب ؟ فقال الأعرابي : يا أمير المؤمنين .. جئت إليك

أشكو خلق زوجتى ، واستطالتها على ، فرأيت غندك ما زهدنى ، إذ كان ما عندك أكثر مما عندى ، فهممت بالرجوع ، وأنا أقول : إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته ، فكيف حالى ؟ فتبسم عمر رضى الله عنه وقال : « يا أخا الإسلام .. إنى احتملتها لحقوق لها على : إنها طباخة لطعامى ، خبازة لخبزى ، مرضعة لأولادى ، غاسلة لثيابي ، وبقدر صبرى عليها يكون ثوابي » .

فمن هذا الكلام العمرى : نفهم أن الزوجة الصالحة بطبيعتها لا بد أن تكون عوناً لزوجها لا حرباً عليه .

ومن أجمل ما قرأت في هذا : ما أوصت به « أمامة بنت الحارث » ابنتها وهى تؤهلها لبيت الزوجية ، فقالت لها :

أى بنية .. إن الوصية لو تركت لعقل وأدب ، أو مكرمة في حسب لتركت ذلك منك ، ولزويته عنك ، ولكن الوصية تذكرة للعاقل ، ومنبهة للغافل .

أى بنية ، إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها ، لكنت أغنى الناس عن الزوج ، ولكن للرجال خلق النساء ، كما لهن خلق الرجال .

أى بنية .. إنك قد فارقت الحواء الذى منه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك ملكاً ــ بكسر اللام ــ فكوني له أمة يكن لك عبداً ، واحفظى عنى خلالاً عشراً ، تكن لك دركاً وذكراً :

فأما الأولى والثانية : فالمعاشرة له بالقناعة ، وحسن السمع والطاعة ، فإن القناعة راحة القلب ، وحسن السمع والطاعة رأفة الرب .

وأما الثالثة والرابعة : فلا تقع عيناه منك على قبيح ، ولا يشم أنفه منك إلا طيب الريح . واعلمى ، أى بنية ، أن الماء أطيب الطيب المفقود ، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود .

وأما الخامسة والسادسة : فالتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النومة مغضبة .

وأما السابعة والثامنة : فالاحتفاظ بماله ، والرعاية على حشمه ــ ذى

قرباه ـــ وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال من حسن التقدير ، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تفشي له سراً ، ولا تعصي له أمرا ، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره ، وإن عصيت أمره أوغرت صدره .

واتقي الفرح لديه إن كان ترحا(١) ، والاكتئاب عنده إذا كان فرحا ، فإن الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير .

واعلمي أنك لن تصلي إلى ذلك منه حتى تؤثري هواه على هواك ، ورضاه على رضاك ، فيما أحببت وكرهت » .

وزوجة المرء عون يستعين بها	على الحياة ونور في دياجيها
مسلاة فكرته إن بات في كدر	مدت له لتواسيــه أياديها
في الحزن فرحته تحنو فتجعله	ينسى بذلك آلاماً يعــانيها
كم زوجة ذات عقل غير مسرفة	تدبر الـدار تدبيراً ينــجيها
تعامل الزوج في أحوال عسرته	وفي اليسار بما في النفس يشفيها
والزوج يدأب في تحصيل عيشته	دأباً ويجهد منه النفس يشقيها
إن عاد للبيت يلقى ثغر زوجته	يفتر عما يسر النفس يحييها
هذى القرينة هذى من تحن لها	نفس الأبي ولكن أين نلفيها
وزوجها ملك والدار مملكة	والصفو والسعد يجرى في نواحيها

* * *

هذا .. وإذا كنا نطالب الزوجة الصالحة بأن تكون عوناً لزوجها ، ومؤدية لشئون بيتها : فإننا نطالب الزوج الصالح بأن يكون كذلك عوناً لها .. وحسبه إن فعل ذلك إن شاء الله تعالى أن يعلم أن النبي ﷺ ـــ وهو أفضل خلق الله على الإطلاق ـــ كان يتعاون مع أهل بيته في بعض شئون البيت :

---

(١) أي كان حزيناً .

فقد سئلت عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله ﷺ يفعل في بيته ؟ قالت : « كان يكون في مهنة أهله ــ أى في خدمتهم ــ فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة » رواه مسلم .

* * *

وحسبه إن فعل ذلك أن يكون كهذا الحاكم المؤمن « سعيد بن عامر » : الذي كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ــ في عهده ــ قد ولاه على أهل حمص ..

ثم حدث بعد ذلك أن أرسل أمير المؤمنين عمر ، إلى أهل حمص ، ليكتبوا له أسماء الفقراء لديهم ليعطيهم .. فكتبوا في أول القائمة اسم حاكمهم « سعيد بن عامر » .. فتعجب عمر ، ثم سألهم عن سبب هذا ؟ فقالوا له : إنه فقير ، لأنه ينفق ما لديه على المساكين ، ويقول لهم : ماذا أصنع وقد أصبحتم في حسابي ؟ لقد أضاعنى عمر . فقال عمر للوفد : والله ما أضعته ، ولكنه أجهدنا معه . وكيف هو معكم ؟ فقالوا : نعيب عليه أربع خلال :

لا يخرج إلينا إلا ضحى ، ولا نراه بالليل ، ويحتجب يوماً في الشهر ، ويصيبه إغماء بين حين وحين .

فعجب عمر وأعطاهم مالاً حملوه إليه ليستعين به على حوائجه .. فوزعه على فقراء الجيش .. ثم أرسل له عمر وسأله عن الأربع خلال ، فأجاب :

يا أمير المؤمنين .. أما خروجى ضحى : فليس لى خادم ، وزوجتى مريضة ، فأنا أعمل لها عملها بعد الفجر حتى يضحى النهار .

وأما احتجابي بالليل : فإنى جعلت النهار للناس والليل لله .

وأما اليوم الذي احتجب فيه في الشهر : فليس لى إلا ثوب واحد أغسله في هذا اليوم حتى يجف فألبسه .

وأما الإغماء ، فكلما تذكرت الشهيد خبيب بن عدى حين قتل وأنا

يومئذ كافر وقد شهدت مقتله[1] .. ندمت أن لم أكن أسلمت يومئذ حتى أدفع عنه السوء .

فكان عمر كلما تذكر « سعيداً » بكى وبكى وبكى .. فرحمه الله رحمة واسعة وأكثر الله من أمثاله حتى يعود للإسلام مجده التالد .

* * *

فإذا كان الأخ الرجل سيعين زوجته .. فإن هذا لن يكون عيباً فيه ، وإنما هو التواضع في أسمى معانيه :

وإن شئت ، فقل هى المعاشرة الحسنة التى لا بد أن نتعلمها من المثل الأعلى صلوات الله وسلامه عليه الذي يقول :

« خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » رواه ابن حبان في صحيحه .

وقد ذكر الإمام ابن القيم في كتابه « زاد المعاد » ، تحت عنوان :

هديه ﷺ في معاشرة أهله

صح عنه من حديث أنس : « حبب إلي من دنياكم : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى في الصلاة » :

وإذا كان هذا قد صح عن النبى ﷺ كما قرأنا ، فإن معناه : أن النبى ﷺ كان يحب زوجاته أمهات المؤمنين ليكون قدوة لأصحابه في حسن المعاشرة لزوجاتهم ، وذلك لأن بعضهم كان يحتقر المرأة ، وكان ينظر إليها على أنها سلعة ، أو على أنها جارية تباع وتشترى ، كأثر من آثار الجاهلية الذى

---

(١) وكان هذا قبل أن يدخل في الإسلام .

يشير الله سبحانه وتعالى إليه في قوله : ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ..** ﴾[1] الآية . فأراد النبي ﷺ بقوله هذا ، أن يكون قدوة صالحة في احترام الزوجة الصالحة ، فهو القائل صلوات الله وسلامه عليه : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » .

ثم إن الإسلام لم يفرق بين الذكر وبين الأنثى في نتائج الأعمال الصالحة .. قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[2] فليلاحظ الأخ المسلم هذا ــ أ . هـ .

وكان ﷺ يطوف على نسائه في الليلة الواحدة ، وكان يقسم بينهن في المبيت والإيواء والنفقة ، وأما المحبة : فكان يقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك » .

وطلق وراجع وآلى إيلاء مؤقتاً بشهر ، ولم يظاهر أبداً .

وكان مع أزواجه حسن المعاشرة وحسن الخلق وكان يسرب إلي عائشة بنات الأنصار يلعبن معها ، وإذا هويت شيئاً لا محذور فيه تابعها عليه ، وإذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه في موضع فمها وشرب ، وكان يتكيء في حجرها ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها ، وربما كانت حائضاً ، وكان يأمرها وهي حائض فتتزر ثم يباشرها ، وكان يقبلها وهو صائم ، ويريها الحبشة وهم يلعبون في مسجده وهي متكئة على منكبيه تنظر ، وسابقها في السفر على الأقدام مرتين ، وتدافعا في خروجهما من المنزل .

وكان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ــ أي أخذها معه في سفره ــ وكان يقول : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » .

وكان ربما مد يده إلي بعض نسائه في حضرة باقيهن ، وكان إذا صلى

---

(١) النحل: ٥٨ .
(٢) النحل : ٩٧ .

العصر دار على نسائه فدنا منهن واستقرأ أحوالهن ، فإذا جاء الليل انقلب إلى بيت صاحبة النوبة فخصها بالليل . قالت عائشة : كان لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندهن في القسم ، وكان يقسم لثمان منهن دون التاسعة ، وهي « سودة » لما كبرت وهبت نوبتها لعائشة ، وكان ﷺ يقسم لعائشة يومها ويوم « سودة » .

وكان يأتي أهله آخر الليل وأوله ، وإذا جامع أول الليل ، فربما اغتسل ونام وربما توضأ ونام . وكان يطوف على نسائه بغسل واحد ، وربما اغتسل عند كل واحدة .

وكان إذا سافر وقدم لم يطرق أهله ليلاً وينهى عن ذلك .. أ . هـ .

* * *

فعلى الزوجين الصالحين أن يلاحظا هذا وينفذاه ، حتى يدوم الحب والتعاون والتراحم والتعاطف .. بل والسكن بينهما .. كما يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة .. ﴾[1] .

* * *

وأن يلاحظ كذلك أنه لا مانع شرعاً من وجود الخادم أو الخادمة في المنزل ما دام هناك اليسر ــ الموافق لهذا ــ على أساس من الاحتياطات والتحفظات اللازمة شرعاً ، والتي منها ، بل من أهمها : ما أشارت إليه الآية الكريمة :

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن

---

(١) الروم : ٢١ .

ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾[1] .

ففى الآية ٣١ — كما قرأت — ، وفي قوله تعالى : **﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن .. ﴾** إلخ : توجيه يتضمن نهى النساء المؤمنات عن كشف الزينة الخفية — كزينة الأذن والشعر والعنق والصدر والساق — أمام الرجال الأجانب الذين رخص لها أمامهم في إبداء الوجه والكفين **﴿ ما ظهر منها ﴾** .

وقد استثنى من هذا النهى اثنا عشر صنفاً من الناس ، وهم علي الترتيب :

١ — بعولتهن : أى أزواجهن ، فللرجل أن يرى من زوجته ما يشاء ، وكذلك المرأة . وفي الحديث : « احفظ عورتك إلا من زوجتك » .

٢ — آباؤهن : ويدخل فيهم الأجداد من قبل الأب والأم .

٣ — آباء أزواجهن : فقد أصبح لهم حكم الآباء بالنسبة إليهن .

٤ — أبناؤهن : ومثلهم أبناء ذُريتهم من الذكور والإناث .

٥ — أبناء أزواجهن : لضرورة الاختلاط الحاصل ، ولأنها بمنزلة أمهم في البيت[2] .

٦ — إخوانهن : سواء أكانوا أشقاء أو من الأب أو من الأم .

٧ — بنو إخوانهن : لما بين الرجل وعمته من حرمة أبدية .

٨ — بنو أخواتهن : لما بين الرجل وخالته من حرمة أبدية .

---

(١) النور : ٣٠ ، ٣١ .

(٢) قال القرطبي : سوى بين المحارم في إبداء الزينة ، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما في نفوس البشر ، وتختلف مراتب ما يبدى لهم ، فيبدى للأب ما لا يجوز إبداؤه لوالد الزوج .

٩ ـــ نساؤهن : أى النساء المتصلات بهن نسباً أو ديناً . أما المرأة غير المسلمة فلا يجوز لها أن ترى من زينة المسلمة إلا ما يراه الرجل .

١٠ ـــ ما ملكت أيمانهن : أى عبيدهن وجواريهن لأن الإسلام جعلهم كأعضاء في الأسرة . وخصه بعض الأئمة بالإماء دون الذكور .

١١ ـــ التابعون غير أولى الإربة من الرجال : وهم الأجراء والأتباع الذين لا شهوة لهم في النساء لسبب بدنى أو عقلى . المهم أن يتوافر هذان الوصفان : التبعية للبيت الذى يدخلون على نسائه ، وفقدان الشهوة الجنسية .

١٢ ـــ الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء : وهم الصغار الذين لم يثر في أنفسهم الشعور الجنسي ، فإذا لوحظ عليهم ظهور هذا الشعور لم يبح للمرأة أن تبدى أمامهم زينتها الخفية ـــ وإن كانوا دون البلوغ ـــ . ولم تذكر الآية الأعمام والأخوال : لأنهم بمنزلة الآباء عرفاً . وفي الحديث : « عم الرجل صنو أبيه » رواه مسلم .

* * *

وبعد ذلك يقول صاحب كتاب « الحلال والحرام في الإسلام »[1] ، معلقاً تحت عنوان :

عورة النســاء

ومما تقدم نعلم أن كل ما لا يجوز للمرأة إبداؤه من جسدها، فهو عورة يجب سترها ، ويحرم كشفها .

فعورتها بالنسبة للرجال الأجانب عنها ، وكذلك النساء غير المسلمات : جميع بدنها ما عدا الوجه والكفين ، على ما اخترناه ، إذ أبيح كشفهما ـــ كما

---

(١) وهو الدكتور يوسف القرضاوى ـ أكرمه الله .

قال الرازى ــ للحاجة في المعاملة والأخذ والعطاء ، فأمرن بستر ما لا تؤدى الضرورة إلى كشفه ، ورخص لهن في كشف ما اعتيد كشفه ، وأدت الضرورة إلى إظهاره ، إذ كانت شرائع الإسلام حنيفية سمحة . قال الرازي : ولما كان ظهور الوجه والكفين كالضروري ، لا جرم اتفقوا على أنهما ليسا بعورة . أما القدم : فليس ظهورها بضروري ، فلا جرم اختلفوا ، هل هى عورة أم لا ؟ (تفسير الفخر الرازى ج ٢٣ ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦) .

وعورتهما بالنسبة للأصناف الإثنى عشر المذكورين في آية النور تتحد مواضع الزينةمثل الأذن والعنق والشعر والصدر والذراعين والساقين ، فإن إبداء هذه الزينة لهؤلاء الأصناف قد أباحته الآية .

وما عدا ذلك مثل الظهر والبطن والسوأتين والفخذين ، فلا يجوز إبداؤه لامرأة أو لرجل إلا للزوج .

وهذا الذي يفهم من الآية أقرب مما ذهب إليه بعض الأئمة ، أن عورة المرأة بالنسبة إلى المحارم ما بين السرة والركبة فقط . وكذلك عورتها بالنسبة إلى المرأة ، بل الذي تدل عليه الآية أدنى إلى ما قاله بعض العلماء : أن عورتها للمحرم ما يبدو منها عند المهنة . فما كان يبدو منها عند عملها في البيت فللمحارم أن ينظروا إليه .

ولهذا أمر الله نساء المؤمنين أن يستترن عند خروجهن بجلباب سابغ كاس ، يتميزن به عمن سواهن من الكافرات والفاجرات ، وفي هذا أمر الله نبيه أن يؤذن في الأمة بهذا البلاغ الإلهى العام :

﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾(١) .

والجلاليب : جمع جلباب ، وهو ثوب واسع كالملاءة تستتر به المرأة .

وكان بعض نساء الجاهلية إذا خرجن من بيوتهن كشفن عن بعض

---

(١) الأحزاب : ٥٩ .

محاسنهن ، من مثل النحر والعنق والشعر ، فيتبعهن الفساق والعابثون ، فنزلت الآية الكريمة تأمر المرأة بإرخاء بعض جلبابها عليها ، حتى لا ينكشفَ شيء من تلك المفاتن من جسدها ، وبهذا يعرف من مظهرها أنها عفيفة مؤمنة ، فلا يتعرض لها ماجن أو منافق بإيذاء .. .

* * *

فعلي الزوجين الصالحين أن يلاحظا هذا ، حتى ينفذا أمر الله تعالى على أساس من المعرفة والشرع القويم .

مع ملاحظة : أنه إذا لم يكن الخادم أو الخادمة من العبيد والجوارى ، أو من التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، أو من الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء .. إلخ : فإنه لا يجوز أن ينظر الخادم إلى الزينة الخفية . فضلاً عن الخلوة بها ، أو النظر إلى ما هو أكبر من هذا .. وكذلك لا يجوز للزوج أن يخلو بخادمة تشتهى(١) .. لأن هذا منهى عنه شرعاً :

فعن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « إياكم والدخول علي النساء ، فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو؟ قال : الحمو الموت » رواه البخاري ومسلم .

والحمو : قريب الزوج كأخيه وابن عمه وابن خاله ، فإذا كان قريب الزوج موتاً وهلاكاً فكيف بالغرباء عنها . .

وعن ابن عباس رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم » رواه البخارى ومسلم .

وعن معقل بن يسار رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط(٢) من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له » . رواه الطبراني والبيهقي ورجاله رجال الصحيح .

* * *

وأيضاً أحب أن أذكر الزوجين الصالحين ببعض الأحاديث الصحيحة

---

(١) وقد يحدث هذا كثيراً أثناء غياب الزوجة عن بيتها ووجود الزوج وحده فيه مع وجود الخادمة .. التي قد تكون هى الأخرى عرضة لهذا الابتلاء ..

(٢) المخيط بكسر الميم وفتح الياء : ما يخاط به كالإبرة والمسلة .

المتعلقة بالخادم ذكراً كان أم أنثى حتى يلاحظاها في تعاملهما مع الخادم الذى أرجو أن يعامل معاملة حسنة ترضى الله ورسوله :

فقد قرأت في : « الأدب المفرد ــ للبخارى » ، ما نصه :

حدثنا محمد بن سلام ، قال : أخبرنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أبي مسعود ، قال : كنت أضرب غلاماً لى فسمعت من خلفي صوتاً[1] : « اعلم أبا مسعود .. لله[2] أقدر منك عليه » فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ . قلت : يا رسول الله .. فهو حر لوجه الله ، فقال : « أما إنه لو لم تفعل لمستك النار » أو « للفحتك النار » .

وحدثنا خالد بن مخلد ، قال : حدثنا سليمان بن بلال ، قال : حدثنى محمد بن عجلان ، قال : أخبرني أبي سعيد ، عن أبي هريرة ، عن النبى ﷺ ، قال : « إذا ضرب أحدكم خادمه ، فليتجنب الوجه » .

وحدثنا محمد بن يوسف وقبيصة ، قال : حدثنا سفيان ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن ميمون بن أبي شبيب ، عن عمار بن ياسر ، قال : لا يضرب أحد عبداً له وهو ظالم له ، إلا أقيد منه[3] يوم القيامة .

وحدثنا أبو عمر حفص بن عمر ، قال : حدثنا شعبة قال : حدثنى أبو جعفر ، قال : سمعت أبا ليلى ، قال : خرج سلمان فإذا علف دابته يتساقط من الآرى[4] ، فقال لخادمه : لولا أنى أخاف القصاص[5] لأوجعتك[6] .

وحدثنا آدم ، قال : حدثنا شعبة ، قال :حدثنا واصل الأحدب ، قال : سمعت المعرور بن سويد ، يقول : رأيت أبا ذر وعليه حلة ، وعلى غلامه حلة . فسألناه عن ذلك ، فقال : إنى سابيت رجلاً ، فشكانى إلى النبى ﷺ ، فقال لى النبى ﷺ : « أعيرته[7] بأمه ؟ قلت : نعم . ثم قال : إن إخوانكم[8]

---

(١) لم يعرف الصوت لأجل الغضب أو لاشتغاله بالضرب .
(٢) لله بفتح اللام : لام التوكيد : أى أن قدرة الله عليك أعظم من قدرتك عليه .
(٣) أقيد منه ، أى : أخذ منه القصاص .
(٤) الآرى بمد الهمز وراء مكسورة وتشديد الياء : مربط الدواب أو معلفها .
(٥) القصاص : أى في الآخرة .
(٦) أى ضربتك ضرباً وجيعاً .
(٧) قال له يا ابن السوداء .. وأعيرته بأمه : الاستفهام للتوبيخ .
(٨) قدم الأخوة لأنها هي الأصل من جهة آدم أو من جهة الإسلام أو من الجهتين ، والعبدية طارئة وهي =

خولكم(١) جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم(٢) ما يغلبهم(٣) ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » .

ففي هذا الحديث : النهى عن سب الرقيق وتعييرهم ، والحث على الإحسان إليهم والرفق بهم ، فإذا كان ذلك في الرقيق فبالأولى الأجير وغيره ، وفيه ترك الترفع على المسلم والاحتقار له .

* * *

فليذكر الأخ المسلم هذا ، وليذكر كذلك ، قول أنس رضى الله عنه :

خدمت النبى ﷺ عشر سنين . والله ما قال لى : أف قط ، ولا قال لشيء لم فعلت كذا ؟ وهلا فعلت كذا » .. رواه مسلم .

* * *

هذا .. وإذا كان الرسول ﷺ ، قد أوصى ابنته الزهراء رضى الله عنها في نهاية الوصية بقوله : «وإذا أخذت مضجعك : فسبحى ثلاثاً وثلاثين ، واحمدى ثلاثاً وثلاثين ، وكبرى أربعاً وثلاثين ، فتلك مائة » : ثم قال بعد ذلك : « فهو خير لك من خادم » : ثم كان جواب الابنة المؤمنة البارة ، هو : رضيت عن الله ورسوله :

فإن تعليقي على كل هذا إجمالاً ، هو : أن النبى ﷺ :

أولاً : بعد أن أوصاها بتقوى الله ، وأداء فرائضه ، والقيام بشئون البيت : أراد أن ينبه ابنته إلى خير يجب عليها أن تغتنمه ، وهو أن تختم يومها بخير .. وأن تنام على هذا الخير .. الذى هو التسبيح ، والتحميد ، والتكبير « مائة » .. ثم أخبرها بأن هذا : خير لها من خادم .. وهذا التحديد ، بكلمة « خادم » معناه أن النبى ﷺ يريد أن يقول لها : أن ما أوصيتك به .. خير لك من الخادم الذى تطلبينه .. وإلا فإن تسبيحة .. أو تهليلة .. أو تحميدة ..

= معرضة للزوال .

(١) الخول جمع خولى وهو الراعى الحسن القيام على المال ..

(٢) كلفه الشيء إذا أمر بما يشق عليه .

(٣) أى الأعمال التي تصير قدرتهم فيها مغلوبة ، أو لا يطيق الدوام عليها .

.. أو تكبيرة واحدة : خير من الدنيا وما فيها ــ كما علمنا قبل ذلك في قصة سيدنا سليمان عليه السلام .

وثانياً : إذا كان النبي ﷺ قد أوصاها ، بذلك قبل أن تنام ، وبعد أن قامت طوال اليوم بشئون بيتها : بهذا قد أراد أن ينفض عنها متاعب اليوم بذكر الله تعالى الذى به تطمئن القلوب، والذي بسببه سيذكرها الله تبارك وتعالى فى الملأ الأعلى ، وستكون في حفظ الله تعالى ورعايته إلى أن تستيقظ من نومها على خير إن شاء الله تعالى ما دامت قد نامت على ذكره ، وشكره وحسن عبادته .

وثالثاً : إذا كانت السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها ــ كما جاء في نص الوصية ــ قد قالت للرسول ﷺ بعد ذلك : رضيت عن الله ورسوله :

فتلك إجابة طبيعية لها .. لأنها : من آل بيت النبوة ، وزوجة الصحابي البطل التقى النقى على كرم الله وجهه ، ووالدة سبطى الرسول ﷺ الحسن والحسين .. وزينب البتول رضى الله عنهم أجمعين ، هذا بالإضافة إلى أنها ــ كما هو معلوم عنها ــ من أوائل الحريصين على الفوز بثواب الله الذي لن يكون إلا بالرضا عن الله ورسوله .

* * *

ثم إذا كان الرسول ﷺ بعد كل هذا ، لم يخدمها ــ أى لم يعطها خادما ــ كما جاء في نص الرواية الزائدة .

فقد قرأت في ذلك سبباً من أهم الأسباب الذى أرى أنه من الخير كذلك أن تقف عليه :

وهو أن فاطمة رضى الله عنها ، عندما ذهبت إلى أبيها صلوات الله وسلامه عليه .. تقول له : ألا ترى أثر الرحى بيدى ؟ .. كانت قد علمت أن النبى ﷺ كان قد أتى بثلاثة من السبى فأعطى .. وبقى واحد .. فطلبته منه لتستعين به على مهام أمورها ، وتتعاون معه فى تدبير بيتها .. فنظر الرسول ﷺ إليها نظرة تحمل كل معانى الرحمة والشفقة .. ولكن ماذا يفعل .. لقد تذكر وعداً كان قد وعده لأبي الهيثم بن التيهان ، وهو أن يعطيه خادماً .. ولهذا جعل يقول لها : « كيف وعدى لأبي الهيثم » .. وفعلاً آثره بالخادم براً بقوله : ووفاءً

بوعده ، مع معرفته بشدة حاجة ابنته إليه . فقد رأى — كما علمنا — أثر الرحى بيدها الكريمة .. « فما أكرمك يا رسول الله ؟ .. إنه الإيثار بلغ المرتبة العليا ، وجاوز موطن الثريا . وفاق بر الأولين والآخرين » :

بل إنه الدرس الكبير الذى لا بد أن نتعلمه من أستاذ البشرية جمعاء .. حتى لا نؤثر أولادنا على مصالح الآخرين ما دمنا قد التزمنا بها ، وأخذنا عهداً على أنفسنا بإنجازها والوفاء بها .. حتى نلقن أبناءنا من خلال ذلك درساً إيجابياً ينفعهم في حياتهم ، حتى يكونوا كذلك من الأوفياء .

لأنه كما يقول الشاعر :

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وعندما سنعود أبناءنا على الوفاء وحب الخير بصفة عامة : فإننا بهذا سنؤكد حبنا لهم ، وحرصنا عليهم .. والله ولى التوفيق .

* * *

الوصية الثانية والخمسون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي[1] وقرت عيني ، أنبئني عن كل شيء . قال :

كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنَ الْمَاءِ .

فقلت : أخبرني بشيء إذا عملته دخلت الجنة . قال :

أَطْعِمِ الطَّعَامَ ، وَأَفْشِ السَّلَامَ ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ ،[2] وَصَلِّ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ[3] تَدْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ .[4]

رواه أحمد وابن أبي الدنيا في كتابه التهجد ، وابن حبان في صحيحه واللفظ له ، والحاكم وصححه .

(١) طابت نفسى : رضيت واطمأنت واستراحت لرؤيتك .

(٢) أفش السَّلام : انشره وَأذِعـهُ بحيث تسلّم على كل من لقيتَه أو مررتَ عليه مِن المسلمين .

(٣) وَصِل الأرحَام : ذوى قرابتك الذين يجمعك وَإيّاهم رَحِم وَاحدة، بأن تعين فقيرهم وترشد جَاهلهم ، وتقضى حوَائجهم ، وتتفقد غائبهم ، وتعود مَريضهم ، وتشاركهم أفراحهم وأحزانهم .

(٤) وَصَلِّ بالليل وَالناسُ نيامٌ : أى قم الليل متهجِّدًا حتى تكون من الذين " تتجافى جنوبهم عن المضاجع " .

(٥) تدخل الجَنَّة بسَلام : أى مَصحوبًا بالسلامة من الآفات والمكاره . أو مُسَلَّمًا عَليك مِنَ اللهِ وَالملائكةِ .

فكن أخا الإسلام :

متصوراً معى هذا المشهد الروحي العظيم الذي لا بد أن نتصوره ونستفيد به ونتعلم منه الحب الصادق : كأحباب الرسول ﷺ ، وهو مشهد أبي هريرة رضى الله عنه ، وهو يقف بين يدي أستاذه وحبيبه ومثله الأعلى صلوات الله وسلامه عليه قائلاً له : يا رسول الله .. إنى إذا رأيتك طابت نفسى — أى : رضيت واطمأنت واستراحت لرؤيتك — ، وقرت عينى — أى شعرت بالبرودة[1] .

إن مشهد كهذا — كما قلت — لا بد أن نتخيل أبعاده ، حتى نعرف كيف كان أصحاب الرسول ﷺ يحبونه .. لدرجة أن أحدهم وهو أبو بكر الصديق رضى الله عنه كان يقول معبراً عن هذا الحب المنقطع النظير :

مرض الحبيب فعدته فمرضت من أسفى عليه
شفى الحبيب فزارنى فشفيت من نظرى إليه

وكان النبى ﷺ — كما يشير الصديق في هذين البيتين — قد مرض ، فلما زاره الصديق مرض هو الآخر من شدة حزنه عليه ﷺ ، ثم عندما شفي رسول الله ﷺ ذهب لزيارة أبي بكر ، فلما رآه الصديق فرح بشفائه وشفى هو الآخر.

وكان أبو هريرة رضى الله عنه كذلك .

ففي يوم رفع رسول الله ﷺ الدرة ليضربه بها ، فقال أبو هريرة : « لأن يكون ضربني بها أحب إلي من حمر النعم ، ذلك بأن أرجو أن أكون مؤمناً ، وأن يستجاب لرسول الله ﷺ دعوته »[2] .

وبينما كان المسلمون يحملون اللبن[3] ، إلى بناء المسجد ، ورسول الله ﷺ معهم ، رآه أبو هريرة وهو عارض لبنة على بطنه ، فظن أنها شقت على رسول الله ﷺ ، فاستقبله ، قائلاً : ناولنيها يا رسول الله ، فقال ﷺ : « خذ غيرها يا أبا هريرة ، فإنه لا عيش إلا عيش الآخرة »[4] .

---

(١) قال في مختار الصحاح : « قرت » عينيه تقر بكسر القاف وفتحها ضد سخنت .. فللسرور دمعة باردة .. بعكس الحزن .

(٢) البداية والنهاية : ٨ / ١٠٥ .

(٣) أي طوب اللبن .

(٤) مجمع الزوائد ص ٩ ج ٢ ، ورواه الإمام أحمد ، ورجاله رجال الصحيح .

وكان يحب من أحبه رسول الله ﷺ ، فقد لقى أبو هريرة الحسن بن على رضى الله عنهما ، فقال له : أرنى أقبل منك حيث رأيت رسول الله ﷺ يقبل ، فرفع القميص ، وقبل سرته(١) .

وقد كان أبو هريرة يشعر بالسعادة تخالط نفسه ، وبالإيمان يملأ قلبه لملازمته رسول الله ﷺ ، وكان كثيراً ما يشكر الله تعالى على هذه النعمة ، فيقول : « الحمد لله الذى هدى أبا هريرة للإسلام ، الحمد لله الذي علم أبا هريرة القرآن ، الحمد لله الذى من على أبي هريرة بمحمد ﷺ »(٢) .

وكان أبو هريرة ، يقول : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ ، كأن الشمس تجرى في وجهه(٣) :

وكان يصرح بهذا لرسول الله ﷺ ، ويؤكد له سروره وفرحه بحضور مجالسه ﷺ :

كما جاء في نص هذا الحديث العظيم الذى ندور حوله ، وهو :

« قلت : يا رسول الله .. إنى إذا رأيتك طابت نفسى ، وقرت عيني ، فأنبئني عن كل شيء ؟ فقال : كل شيء خلق من الماء ، فقلت : أخبرني بشيء إذا عملته دخلت الجنة ، قال : أطعم الطعام ، وأفش السلام ، وصل الأرحام ، وصل بالليل والناس نيام : تدخل الجنة بسلام » .

* * *

ففي هذا الحديث أجاب الرسول ﷺ على سؤال وجهه إليه أبو هريرة ، وهو : أنبئني عن كل شيء ؟ فكان الجواب هو : « كل شيء خلق من الماء » .

وإلى هذا يشير الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حى** ﴾(٤) .

وقد أشارالقرطبي في تفسيره لهذه الآية إلى ثلاثة تأويلات :

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٣ / ١٩٥ رقم ٧٤٥٥ وفيه : « فقال بالقميصة : يعنى رفع القميصة » .
(٢) تاريخ ابن عساكر ص ٥١١ ج ٤٧ .
(٣) أخرجه الترمذي في المناقب .
(٤) الأنبياء : ٣٠ .

أحدها : أنه خلق كل شيء من الماء ، قاله قتادة .

الثاني : حفظ حياة كل شيء بالماء .

الثالث : وجعلنا من ماء الصلب كل شيء حي ، قاله قطرب .

﴿ **وجعلنا** ﴾ بمعنى : خلقنا .

ثم ذكر القرطبي بعد ذلك الحديث الذي ندور حوله مستدلاً به على تأكيد هذا المعنى المشار إليه في الآية ، وهو : « كل شيء خلق من الماء » ..

وقيل : ــ كما ذكر أيضاً ــ الكل قد يذكر بمعنى البعض كقوله : ﴿ .. **وأوتيت من كل شيء ..** ﴾[1] .

ولكي نفهم المراد من هذه الآية .. لا بدّ أن نقرأ أولها ، وهو : ﴿ **أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون** ﴾[2] .

والخلاصة ، هي ما أشار إليه القرطبي في قول ثالث ، قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضاً فيما ذكر المهدوى :

أن السموات كانت رتقاً لا تمطر ، والأرض كانت رتقاً لا تنبت ، ففتق ــ سبحانه ــ السماء بالمطر ، والأرض بالنبات ، نظيره قوله عز وجل : ﴿ **والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع** ﴾[3] . واختار هذا القول الطبرى ، لأن بعده : ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون** ﴾ . ثم يقول القرطبي : قلت : وبه يقع الاعتبار مشاهدة ومعاينة ، ولذلك أخبر بذلك في غير ما آية ، ليدل على كمال قدرته ، وعلى البعث والجزاء . وقيل :

يهون عليهم إذا يغضبــو ن سخط العداة وإرغامها
ورتق الفتوق وفتـق الرتـو ق ونقض الأمور وإبرامها

* * *

وعلى هذا ، فإننا نستطيع من خلال تلك الإجابة الوقوف على قدرة الخالق سبحانه وتعالى وسر عظمته في هذا الماء الذى جعل منه ــ سبحانه ــ

---

(١) النمل : ٢٣ .

(٢) الأنبياء : ٣٠ .

(٣) الطارق : ١١ ، ١٢ .

كل شيء حي .

وحسب الإنسان بالذات إذا أراد تأكيداً لهذا ، أن يذكر أنه خلق من الماء ، كما يشير إلى هذا ، قول الله تعالى :

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب ﴾[1] .

وحسبه أن يعلم كذلك أنه لولا الماء لما كان هناك نبات .. كما يشير إلى هذا قوله تعالى :

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة ، إن الله لطيف خبير ﴾[2] .

وقوله : **﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار ﴾**[3] .

* * *

ولهذا .. فإننى أرى وباختصار أن نقرأ قصيدة للأستاذ الفاضل الشيخ الصاوى على شعلان رحمه الله تعالى ، تحت عنوان :

من دلائل قدرة الله

نشر الصبح على الدنيا سناه   وسقى الروض رحيقاً من نداه
واكتسى الروض من النور حلاه
النـــدى من فيض من ؟!   والضحى من نور من ؟!

* * *

---

(١) الطارق : ٥ ــ ٧ .
(٢) الحج : ٦٣ .
(٣) إبراهيم : ٣٢ ــ ٣٤ .

أقبلت في بسمة الفجر الطيور تسكب الألحان عطراً في الزهور
تصنع العش وتسعى في البكور
عيشهـا في رزق من ؟! وهـي أيضاً صنع من ؟!

* * *

حوت الأرض أفانين الشجر بين ألوان وطول وقصر
وغصون مورقـات وثمر
منبت الأشجار من ؟! راسم الألـوان من ؟!

* * *

وترى الشمس عروس المشرق وجمال البر عند الأفـق
سابحاً في الطيلسان الأزرق
الـدراري صنـع من ؟! والسمـوات لمن ؟!

* * *

داعب النحل من الزهر شذاه وأحال الورد شهداً في رباه
وبنت هندسة النمل قراه
مرشد النحلـة من ؟! ملهـم النملـة من ؟!

* * *

الجنين استقبل الرزق الجديد وتوالى وهو في المهد السعيد
قبل أن تنبت أسنان الوليد
أطعمتـه يد من ؟! صورتـه يد من ؟!

* * *

لم يا مخلوق آثرت الجحود ؟! كنت معدوماً فمن أين الوجود ؟!
أهي الصدفة أم رب ودود
قبله في الكـون من ؟! بعـده في الملك من ؟!

* * *

لو تناهيتم إلى سر الحياة وصنعتم كائناً حياً نراه
لم نزد إلا يقيناً بالإله

بل وحسب الأخ المسلم كذلك أن يقرأ هذا الحديث :

عن أبي موسى عن النبي ﷺ ، قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى(١) والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية(٢) قبلت الماء فأنبتت الكلأ(٣) والعشب(٤) الكثير وكانت منها(٥) أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها(٦) طائفة أخرى ، إنما هي قيعان(٧) لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك(٨) مثل من فقه(٩) في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً(١٠) ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »(١١) رواه الشيخان .

ففي هذا الحديث تشبيه للعلم بالمطر بجامع أن كلاً منهما فيه حياة ، ففي العلم حياة القلوب والأرواح ، وبالماء حياة الأراضي والنفوس ، وقد شبه الناس بالأرض .. لأن بعضها طيب يصيبه المطر فيفيض على الناس أنواع النبات والزروع ومن كل الثمرات ، وبعض الأرض يمسك الماء فينتفع به العباد شرباً وسقياً ، ومن الأرض بقاع لا خير فيها فلا تنبت شيئاً ولا تمسك ماء ، والناس كذلك ، فمنهم من تعلم العلم فعمل به ونفع العباد ، ومنهم من ليس كذلك .. والمراد به حث العلماء على أن يكونوا كالأرض الطيبة فينفعوا الناس فيحبهم الله ، فأحب العباد إلى الله أنفعهم لعباده .. أ . هـ(١٢) .

* * *

(١) بيان لما بعث به ﷺ وهو الشريعة .

(٢) أى أرض طيبة .

(٣) النبات رطباً ويابساً .

(٤) أى النبات الرطب .

(٥) من الأرض أجادب : جمع جدب كحدب وهى البقعة التى لا تشرب ماء ولا تنبت نباتاً .

(٦) أى الأرض .

(٧) جمع قاع وهو الأرض المستوية .

(٨) أى التقسيم

(٩) بضم ثانيه صار فقيهاً .

(١٠) لتكبره وعدم التفاته إليه .

(١١) هو الشريعة لم ينتفع بها إلا بالإسلام ، أو المراد لم يدخل في الدين ، فالحديث شبه العلم بالمطر .

(١٢) تعليق على الحديث بتصرف من التاج الجامع للأصول .

فلتكن أخا الإسلام كالماء الذى خلق الله تعالى منه كل شيء حي .

وذلك بطلب العلم النافع .. لأن العلم هو الحياة الحقيقية .. ولأن العلماء هم الأحياء الحقيقيون .

وإلى هذا يشير الشاعر في قوله :

النـــــــــــــاس موتى وأهـــل العلـــم أحيـــاء

* * *

ولتكن كذلك كالأرض الطيبة التى انتفعت بالماء الطيب .. حتى تكون حياة للقلوب والأرواح بما أوتيت من علم نافع :

فعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » رواه مسلم وأبو داوود والترمذي .

وعن أبي أمامة الباهلي ، قال : ذكر لرسول الله ﷺ رجلان : أحدهما عابد ، والآخر عالم ، فقال رسول الله ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » . ثم قال ﷺ : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير »[1] :

كمعلم القرآن ، والحديث والفقه ، ومن يرشد الناس إلى طاعة الله ، ولا رتبة أعلى من رتبة من يرحمه الله وتدعو له العباد .

وعن عثمان عن النبى ﷺ ، قال : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء »[2] .

وقد أعجبني تعليق على هذا الحديث الأخير في « التاج الجامع للأصول » ، جاء فيه ما نصه :

قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لفصل عباده : إنى لم أجعل علمى وحلمى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالي »[3] وفي رواية :

---

(١) رواه الترمذى (٢) رواه ابن ماجه بسند حسن . (٣) رواه الطبراني .

« يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يميز العلماء فيقول : يا معشر العلماء إنى لم أضع علمى فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم »(١) .

وفي رواية : « أفضل العبادة الفقه ، وأفضل الدين الورع »(٢) .

وهو أخذ الحلال الخالص وترك ما فيه شبهة .

وفي رواية : « إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة : مات وهو شهيد »(٣) .

وفي أخرى : « من جاءه أجله وهو يطلب العلم لم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة »(٤) .

وفي رواية : « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم يهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة »(٥) .

وفي رواية : « يبعث العالم والعابد ، فيقال للعابد : ادخل الجنة ، ويقال للعالم : اثبت حتى تشفع للناس بما أحسنت أدبهم »(٦) .

ثم يقول : وقد اختلف العقل والعلم ، فقال العقل : أنا أفضل لأن الله عرف بى ، وقال العلم : أنا أفضل لأن الله اتصف بى في الكتاب .. فوافقه العقل واعترف له بالفضل . ونظم بعضهم ذلك فقال :

علم العليم وعقل العاقل اختلفا	من ذا الذى منهما قد أحرز الشرفا
فالعلم قال أنا أحرزت غايته	والعقل قال أنا الرحمن بى عرفا
فأفصح العلم إفصاحاً وقال له	بأينا الله في قرآنه اتصفا
فبان للعقل أن العلم سيده	فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

* * *

ثم بعد ذلك يتحدث عن حكم تعلم العلم ، فيقول :

اعلم وفقنى الله وإياك ، أن العلم فرض عين على كل مكلف لقوله تعالى : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾(٧) .

---

(١) رواه الطبراني .
(٢) رواه الطبراني .
(٣) رواه الطبراني .
(٤) رواه الطبراني .
(٥) رواه الإمام أحمد .
(٦) رواه البيهقي .
(٧) محمد : ١٩ .

أى اعتقد أنه لا معبود بحق إلا الله ، واعرف أسماءه وصفاته التي وردت في الكتاب والسنة ، وهذا كاف في أصل المعرفة ، وأما كمالها فلا بد فيه من الدليل العقلي لأنه هو الذي يفيد المعرفة اليقينية الثابتة ، وبسط ذلك في علم التوحيد ، ولقوله تعالى : ﴿ .. **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾[١] .

ولقول رسول الله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وواضع العلم عند غير أهله : كمقلدالخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب » .

ولقوله ﷺ : « تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والوقار ، وتواضعوا لمن تعلمون منه » .

* * *

وتذكر في نهاية هذا العنصر الحيوى الهام ، قول على كرم الله وجهه : « من أمضى يومه في غير حق قضاه ، أو فرض أداه ، أو مجد بناه ، أو حمد حصله ، أو علم اقتبسه : فقد عق يومه وظلم نفسه » .

* * *

هذا . وإذا كان الرسول ﷺ ، قد أنبأ أبا هريرة بكل شيء — كما عرفنا — :

فقد أخبره بعد ذلك بالعمل الذي إن عمله دخل الجنة ، وهو ، كما جاء في نص الوصية :

إطعام الطعام

وهو خصلة من خصال المؤمنين الصادقين ، بل هو حق من حقوق الزائر على أخيه المؤمن :

فعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال : دخل على رسول الله ﷺ ، فقال : « ألم أخبر أنك تقوم الليل ، وتصوم النهار ؟[٢] قلت : بلى . قال : فلا تفعل ،قم ونم وصم وأفطر[٣] ، فإن لجسدك عليك حقاً[٤] ، وإن

---

(١) التوبة : ١٢٢ .

(٢) وهنا استفهام فيه رائحة الإنكار على عبد الله بن عمرو فيما جنح إليه من الغلو .

(٣) أى لا تدوم على القيام والصيام ، بل قم بعض الليل ونم بعضه .

(٤) فلا يجوز أن تعذبه وتشق عليه بإدامة السهر والجوع .

لعينك عليك حقاً[1] ، وإن لزورك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً »[2] .. الحديث رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم وغيرهما .

وقوله : « وإن لزورك عليك حقاً » :

أى : وإن لزوارك وأضيافك عليك حقاً ، يقال للزائر : زور بفتح الزاى سواء فيه الواحد والجمع .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » رواه البخارى ومسلم .

* * *

ولقد كان سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام يسمى : « أبو الضيفان » . وقد قرأت أنه سئل : لم اختارك الله خليلاً ؟ فقال : « لثلاث .. ما خيرت بين أمرين إلا اخترت الذي لله على غيره ، الثانى : ما اهتممت بشيء ضمنه الله لى من أمر رزقى ، الثالث : ما تغديت ولاتعشيت إلا مع الضيف » .

وحول هذا ، فقد قرأت : أن إبراهيم عليه السلام أول من أضاف الضيف ، وأول من ثرد الثريد ، وأطعم الطعام .

ويروى أن الله أوحى إلى إبراهيم : يا إبراهيم .. إنك لما سلمت مالك إلى الضيفان ، وابنك إلى القربان ، ونفسك إلى النيران ، وقلبك إلى الرحمن : اتخذناك خليلاً .

ومن مواقف إبراهيم عليه السلام في إكرام الضيف : أنه رأى ثلاثة رجال في البرية ، فاستقبلهم ورحب بهم كما هى عادته ، فمالوا إليه ، فصنع لهم طعاماً ، وذبح لهم عجلاً سميناً وسواه على النار ، وقدمه إليهم حنيذاً[3] قد أثرت فيه النار وجعلت لونه الحمرة . ودعاهم إلى تناول طعامه ، فلم تمتد

---

(١) فأعطهما حقهما من النوم والهجوع فإن مداومة السهر تضيبهما بالضعف والكلال .

(٢) ولا شك أن مداومة السهر والجوع تضعف الإنسان عن القيام بحق زوجته في المعاشرة وهو حق لها عليه .

(٣) قال في مختار الصحاح : حنذ الشاة أى شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ .

أيديهم إليه ، فارتاب في أمرهم ، وأوجس في نفسه خيفة منهم وخاطبهم في ذلك ﴿ **قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط** ﴾[1] ، فعلم أنهم ملائكة ، جاءوا لأمر خاص بنبى الله لوط وقومه .

* * *

ومن أجمل ما قرأت ، في كرم سيدنا إبراهيم عليه السلام :

أن مجوسيا أراد طعاماً من إبراهيم عليه السلام ، فقال له : إن آمنت بى أطعمتك .. فتركه المجوسى وانصرف ، حرصاً على دينه .. فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام : لم لم تطعمه إلا بتغيير دينه ، ونحن نطعمه سبعين عاماً على كفره ، ماذا عليك لو أطعمته ليلة ؟ .. فأخذ إبراهيم يعدو خلفه ، ويدعوه للضيافة . فقال له المجوسي : لن أرجع معك إلا بعد أن تخبرني عن السبب في إسراعك خلفي بعد أن رفضت إطعامى ؟ .. فأخبره سيدنا إبراهيم .. فاتعظ المجوسى ثم ندم .. وهو يقول : ياسبحان‌الله ، أهكذا يعاملنى ربي ، وأنا أعبد سواه .. ثم تاب وآمن وصدق في إيمانه .

* * *

ولقد كان النبى ﷺ ، أقوى الناس إيماناً بالله : لذلك كان أسخاهم بمال الله ، وأعطفهم على المعوزين من عباد الله ، إذ كانت ثقته بما في يد الله أشد من ثقته بما في يده ، فقد كانت كفه أجرى بالخير من الريح المرسلة .

فما عرف عنه ﷺ أنه رد سائلاً ، فإن لم يجد وجدا ــ أى غني ــ وعد ولم يرد ، وانتظر ما يفتح الله تعالى به .

وقد حمل إليه تسعون ألف درهم ، فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها ، فما رد سائلاً حتى فرغ منها .

وجاءه رجل فسأله ، فقال : « ما عندى شيء ولكن ابتع على ، فإذا جاء شيء قضيناه ، فقال عمر : يا رسول الله .. ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ! فكره النبى ﷺ ذلك ، فقال الرجل: أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالاً ، فتبسم النبى ﷺ وظهر السرور في وجهه » .

---

(١) هود : ٧٠ .

ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه ، إلى شجرة فخطفت رداءه ، فوقف رسول الله ﷺ ، وقال : « أعطونى ردائى ، لو كان لى عدد هذه العضاة نعما لقسمتها بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ، ولا كذاباً ، ولا جباناً » .

وقال صفوان بن أمية : « لقد أعطانى رسول الله ﷺ ما أعطانى ، وإنه لمن أبغض الناس إلى ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلى ، إنى أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبى »[1] .

وجاء فى صحيح البخارى «أنه ﷺ أتي بمال من البحرين ، فقال : « أنثروه » ــ وكان أكثر مال به إليه ــ فخرج ﷺ إلى المسجد ولم يلتفت إليه .. فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحداً إلاأعطاه، وما قام عليه الصلاة والسلام وثم منها درهم[2]».

وأتته امرأة ببردة ، فقالت : يا رسول الله .. أكسوك هذه .. فأخذها ﷺ محتاجاً إليها فلبسها ، فرآها عليه رجل من الصحابة ، فقال : يا رسول الله .. ما أحسن هذه !! فأكسنيها ، فقال : نعم ، فلما قام عليه الصلاة والسلام : لام الصحابة هذا السائل قائلين له : تعرف أن النبى ﷺ محتاج إليها ، وأنه لا يسأل عن شيء فيمنعه ؟ .

وقد شكت إليه ابنته فاطمة رضى الله عنها ما تلقى من خدمة البيت ، وطلبت منه خادماً يكفيها مؤونة البيت ، فأمرها ﷺ أن تستعين بالتسبيح ، والتحميد ، وقال : « لا .. أعطيك وأدع أهل الصفة طوى بطونهم من الجوع » ؟ .

وجاء رجل إليه ﷺ يسأله ، فقال : « سيرزقك الله . ثم جاء آخر ، ثم جاء آخر . فقال لهم : اجلسوا ، فجاء رجل بأربع أواق فأعطاها إياه : وقال : يا رسول الله .. إن هذه صدقة ، فدعا الأول فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثانى فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية ، وبقيت معه ﷺ أوقية

---

(١) إنما أعطاه النبى ﷺ هذا العطاء الكثير ، لأنه علم أن داءه لا يزول إلا بهذا الدواء ، فعالجه به حتى برىء من داء الكفر وأسلم .

(٢) أى وهناك منها درهم .

واحدة ، فعرض بها للقوم ، فما قام أحد . فلما كان الليل وضعها تحت رأسه ــ وفراشه عباءة ــ فجعل لا يأخذه النوم ، فيرجع فيصلي ، فقالت له عائشة رضوان الله عليها : يا رسول الله .. هل بك شيء ؟ قال : لا . قالت : فجاءك أمر من الله ؟ قال : لا . قالت : إنك صنعت الليلة شيئاً لم تكن تفعله فأخرجها ــ أي أخرج الأوقية ــ وقال : هذه هي التي فعلت بي ما ترين . إني خشيت أن يحدث أمر من الله ولم أمضها » .

وكان جوده عليه الصلاة والسلام كله لله ، وفي ابتغاء مرضاة الله ، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج ، وتارة ينفقه في سبيل الله ، وتارة يتألف به على من يقوى الإسلام بإسلامهم .

وكان ﷺ يكرم ضيفه : فقد روى « أن النبى ﷺ دخل بعض بيوته ، فدخل عليه أصحابه حتى اكتظ بهم المكان . فجاء جرير بن عبد الله البجلى ، فلم يجد محلاً ، فجلس عند الباب ، فلف رسول الله ﷺ ، رداءه وألقاه إليه ، وقال له : اجلس على هذا ، فأخذه جرير ووضعه على وجهه ، وجعل يقبله ويبكى ، ثم أعطاه للنبى ﷺ ، وقال له : ما كنت لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتنى . فنظر النبى ﷺ يميناً وشمالاً ، وقال : « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » .

وقال ابن الطفيل : « رأيت النبى ﷺ وأنا غلام، إذ أقبلت امرأة حتى دنت منه ، فبسط لها رداءه ، فجلست عليه ، فقلت : من هذه ؟ قالوا : أمه التى أرضعته » .

ووفد وفد للنجاشى ، فقام النبى ﷺ يخدمهم ، فقال له أصحابه ، نكفيك ، فقال : « إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإنى أحب أن أكافئهم » .

* * *

وعلى هذا ، فإننا نستطيع أن نقرر ــ على ضوء هذا الذى وقفنا عليه ــ ما أشار إليه الأستاذ الشيخ محمد الغزالى في كتابه : « خلق المسلم » ، تحت عنوان :

الجود والكرم

إن الإسلام دين يقوم على البذل والإنفاق ، ويضيع على الشح والإمساك

ولذلك حبب إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخية ، وأكفهم ندية ، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعي الإحسان ووجوه البر ، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم ، لا ينفكون عنه في صباح أو مساء . قال تعالى : **﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾**(١) .

وأنه من الواجب على المسلم أن يقتصد في مطالب نفسه حتى لا تستنفد ماله كله ، فإن عليه أن يشرك غيره فيما آتاه الله من فضله ، وأن يجعل في ثروته متسعاً يسعف به المنكوبين ويريح المتعبين .

قال رسول الله ﷺ : « يا ابن آدم .. إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف . وابدأ بمن تعول ، واليد العليا خير من اليد السفلى » رواه مسلم .

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى حين قرن النهى عن التبذير بأمر الإنفاق على القرابة والمساكين . فإن المبذر متلاف سفيه ، يضيع في شهواته الخاصة زبدة ماله . فماذا يبقى بعد للحقوق الواجبة والعون المفروض ؟؟

قال الله تعالى : **﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾**(٢) .

ويمضى السياق في التوصية بالمحتاجين وصيانة وجوههم ، فيأمر المسلم بأن يرجيهم الخير ، وأن يرد بميسور من القول إذا كان لا يملك إيتاءهم ما يبتغون ، فيقول تعالى : **﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾**(٣) .

وأن دعوة الإسلام إلى الجود والإنفاق مستفيضة مطردة ، وحربه على البخل موصولة متقدة :

ففى الحديث : « السخى قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد عن النار . والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار ، ولجاهل سخى أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل »

---

(١) البقرة :٢٧٤ (٢) الإسراء : ٢٦ ، ٢٧ (٣) الإسراء : ٢٨

رواه الترمذى .

إنه لم يوجد في الدنيا ــ ولن يوجد ــ نظام يستغنى البشر فيه عن التعاون والمواساة ، بل لا بد لا ستتباب السكينة وضمان السعادة من أن يعطف القوى على الضعيف ، وأن يرفق المكثر بالمقل . ما دامت طبيعة المجتمع البشرى أن تتجاوز فيه القوة والضعف والإكثار والإقلال ! ..

وأنه لو كان المال في وفرته وقدرته يتبع ما أوتى الناس من مواهب معنوية لاكتنز البعض الكثير ، وعاش البعض على الكفاف فتلك سنن الخليقة التى لا افتعال فيها ، وإنما يتسرب الشقاء إلى الناس عندما يحيون متقاطعين لا يعرفون إلا أنفسهم ومطالبها فحسب . مع أن الله عز وجل خلط الناس بعضهم ببعض ، وجعل اختلاطهم على اختلاف أحوالهم ، اختباراً عويصاً يمحص به الإيمان ويوزع به الفضل . قال تعالى : ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ، وكان ربك بصيراً** ﴾[1] .

ولن تنجح أمة في هذا المضمار إلا إذا وثقت الصلات بين أبنائها ، فلم تبق محروماً يقاسى ويلات الفقر ، ولم تبق غنياً يحتكر مباهج الغنى .

وفى الإسلام شرائع محكمة لتحقيق هذه الأهداف النبيلة ، من بينها تنشئة النفوس على فعل الخير وإسداء العون وصنائع المعروف . ونتائج هذه التنشئة السمحة لا يسعد بها الضعاف وحدهم . بل يرتد أمانها واطمئنانها إلى الباذلين أنفسهم . فتقيهم زلازل الأحقاد وعواقب الأثرة العمياء . قال تعالى : ﴿ **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء** ﴾[2] .

وإن الفقر معرة إذا لصقت بالإنسان أحرجته . وهبطت به دون المكانة التى كتب الله للبشر ، وأنها لتوشك أن تحرمه الكرامة التى فضل الله بها الإنسان على سائر الخلق ، وإنه لعزيز على النفس أن ترى شخصاً مشقوق الثياب ، تكاد فتوقه تكشف سوأته ، أو حافى الأقدام أبلى أديم الأرض كعوبه وأصابعه، أو جوعان يمد عينيه إلى شتى الأطعمة ثم يرده الحرمان وهو حسير .

والذين يرون هذه الصور الفاحشة ثم لا يكترثون بها ليسوا بشراً وليسوا

---

(١) الفرقان : ٢٠ .   (٢) محمد : ٣٨ .

مؤمنين . فبين البشر عامة رحم يجب أن توصل وألا تمزقها الفاقة .

وقضية الإيمان أن يرهب المرء ربه في أمثال أولئك البائسين .

ولقد حدث أن رأى رسول الله ﷺ أحد هذه المناظر الحزينة فشق عليه مرآها ، فجمع المسلمين ثم خطبهم ، فذكرهم بحق الإنسان على الإنسان وخوفهم بالله واليوم الآخر ، وما زال بهم حتى جمعوا ما أغنى وستر .

فعن جرير قال : كنا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ ، فجاءه قوم عراة ، مجتابي النمار ــ مشقوقي الملابس ــ عامتهم من مضر ، فتمعر وجه الرسول ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ــ تغير وحزن ــ فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ، ثم خطب فقال :

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، واتقوا الله الذين تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً ﴾(١) .

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد .. ﴾(٢) .

ثم قال : ليتصدق رجل من ديناره .. من درهمه .. من ثوبه .. من صاع بره(٣) .. من صاع ثمره .. حتى قال : ولو بشق تمرة .

قال : فجاءه رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل لقد عجزت ، ثم تتابع الناس . حتى رأيت كومين من طعام وثياب .. حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة(٤) ، فقال ﷺ :

«من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من حسناتهم شيء »(٥) .

«ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »(٥) .

وهذا الكلام البليغ دعوة إلى التنافس في الخير ، والتسابق في افتتاح

---

(١) النساء : ١ .　　(٢) الحشر : ١٨ .

(٣) المراد به الدقيق أو القمح .　　(٤) مذهبه : صفحة مطلية بالذهب .

(٥) رواه مسلم .

مشروعاته النافعة، وهو تحذير كذلك لأولئك الذين ينشئون التقاليد السيئة ويعقدون بها شئون الجماعة، ويتركون من بعدهم يضطرب في شرورها ومتاعبها.

إلى أن يقول « في خلق المسلم » :

والبذل الواسع عن إخلاص ورحمة يغسل الذنوب ويمسح الخطايا : قال الله تعالى : ﴿ **إن تبدوا الصدقات فنعما هي**[1] ، **وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حليم . عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم** ﴾[3] .

فإذا انزلق المسلم إلى ذنب وشعر بأنه باعد بينه وبين ربه ، فإن الطهور الذي يعيد إليه نقاءه ويرد إليه ضياءه ويلفه في ستار الغفران والرضا ، أن يجنح إلى مال عزيز عليه فينخلع عنه للفقراء والمساكين ، زلفى يتقرب بها إلى أرحم الراحمين :

عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ ، قال : « تعبد عابد من بني إسرائيل فعبد الله في صومعة ستين عاماً ، فأمطرت الأرض فاخضرت ، فأشرف الراهب من صومعته ، فقال : لو نزلت فذكرت الله فازددت خيراً !! فنزل ومعه رغيف أو رغيفان ، فبينما هو في الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ، ثم أغمي عليه .

فنزل الغدير يستحم ، فجاءه سائل ، فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين . ثم مات .. فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ، ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته ، فرجحت حسناته ، فغفر له »[4] .

ومن أروع الأمثلة في بيان ما للعطاء والجود من أثر في الغفران والنجاة ، ما أوحى الله به إلى نبيه يحيى ليعلمه أمته :

« .. وآمركم بالصدقة ، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه ، وقربوه ليضربوا عنقه ، فجعل يقول : هل لكم أن أفدي نفسي

---

(١) ثناء على إبداء الصدقة .

(٢) البقرة : ٢٧١ .

(٣) التغابن : ١٧ ، ١٨ .

(٤) رواه ابن حبان .

منكم ؟ وجعل يعطى القليل والكثير حتى فدى نفسه »[1] .

إلى أن يقول بعد ذلك « في خلق المسلم » :

وأقرباء المسلم أجدر الناس بالإفادة من فضول ماله ، ومن حقهم أن ينصرف إليهم-أى عطاء تجود به يده ، وذلك أول ما يتبادر إلى الفهم السليم ، فإنه إذا كان إلى جنب الإنسان محتاج فلا معنى لمجاوزته والذهاب بالخير إلى آخر قصى ، بل إن ذلك قد يزرع الضغينة في قلوب المحرومين ، ويشعرهم بأن إهمالهم متعمد للنكاية بهم والإزراء عليهم ، فإذا كان هذا التنكيل بذوى القربى -ما يقصده المعطى ، فإن صدقته ترد عليه وتتحول وبالاً : وفي الحديث :

« .. يا أمة محمد والذى بعثني بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صلته ويصرفها إلى غيرهم . والذى نفسي بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة »[1] .

وعن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن . قالت : فرجعت إلى عبد الله بن مسعود ، فقلت له : إنك رجل خفيف ذات اليد ، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة فأته فسله . فإن كان ذلك يجزيء عنى وإلا صرفتها إلى غيركم .. فقال عبد الله : بل ائته أنت !! قالت : فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار حاجتها حاجتى ، وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة ، فخرج علينا بلال . فقلت له : ائت رسول الله فأخبره أن امرأتين بالباب يسألانك ، أتجزيء الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما ؟ ولا تخبره من نحن .

قالت : فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله . فقال رسول الله ﷺ : من هما ؟ فقال : امرأة من الأنصار وزينب . فقال رسول الله ﷺ : أى الزيانب؟ قال : امرأة عبدالله بن مسعود . فقال : لهما أجر القرابة وأجر الصدقة»[3].

وقال رسول الله ﷺ : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى القريب صدقتان : صدقة وصلة »[4] .

---

(١) رواه الحاكم .
(٢) رواه الطبراني .
(٣) رواه البخاري .
(٤) رواه الترمذى .

فلتذكر أخا الإسلام كل هذا ، حتى تكون من المؤمنين الأسخياء ، الذين : ﴿ **يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً** ﴾(١) .

* * *

فقد ذكر القرطبي حول هذه الآيات الثلاث ، أقوالاً ، منها :

أنها نزلت في مطعم بن ورقاء الأنصارى نذر نذراً فوفي به .

وقيل : نزلت فيمن تكفل بأسرى بدر وهم سبعة من المهاجرين : أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ، وأبو عبيدة رضى الله عنهم . ذكره الماوردى .

وقال مقاتل : نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً .

وقال أبو حمزة الثمالى : بلغنى أن رجلاً قال : يا رسول الله .. أطعمنى فإنى والله مجهود ، فقال : « والذى نفسى بيده ما عندى ما أطعمك ولكن اطلب » فأتى رجلاً من الأنصار وهو يتعشى مع امرأته فسأله وأخبره بقول النبى ﷺ ، فقالت المرأة : أطعمه واسقه . ثم أتى النبى ﷺ يتيم ، فقال : يا رسول الله .. أطعمنى فإنى مجهود . فقال : « ما عندى ما أطعمك ولكن اطلب » فاستطعم ذلك الأنصارى ، فقالت المرأة : أطعمه واسقه ، فأطعمه . ثم أتى النبى ﷺ أسير ، فقال : يا رسول الله .. أطعمنى فإنى مجهود . فقال : « والله ما عندى ما أطعمك ولكن اطلب » . فجاء الأنصارى فطلب ، فقالت المرأة : أطعمه واسقه . فنزلت : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً** ﴾ . ذكره الثعلبى .

وقال أهل التفسير : نزلت في على وفاطمة رضى الله عنهما وجارية لهما اسمها فضة .

* * *

ثم يقول القرطبي بعد ذلك : قلت : والصحيح أنها نزلت في جميع

---

(١) الإنسان : ٧ — ٩ .

الأبرار ، ومن فعل فعلاً حسناً ، فهى عامة .

وقد ذكر النقاش والثعلبي والقشيري وغير واحد من المفسرين في قصة على وفاطمة وجاريتهما حديثاً لا يصح ولا يثبت ، رواه ليث عن مجاهد عن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾

ورواه أيضاً جابر الجعفي عن قنبر مولى علي ، قال : مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا أبا الحسن — رجع الحديث إلى حديث ليث بن أبي سليم — لو نذرت عن ولديك شيئاً ، وكل نذر ليس له وفاء فليس بشيء . فقال — على — رضى الله عنه : إن برأ ولداى صمت لله ثلاثة أيام شكراً . وقالت جارية لهم نوبية : إن برأ سيداى صمت لله ثلاثة أيام شكراً . وقالت فاطمة مثل ذلك .

وفي حديث الجعفي ، فقال الحسن والحسين : علينا مثل ذلك . فألبس الغلامان — الحسن والحسين — العافية ، وليس عند آل محمد قليل ولا كثير ، فانطلق على إلى شمعون بن حاريا الخيبرى وكان يهودياً فاستقرض منه ثلاثة أصواع من شعير ، فجاء به فوضعه ناحية البيت ، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته واختبزته ، وصلى على مع النبى ﷺ ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه .

وفي حديث الجعفى : فقامت الجارية إلى صاع من شعير فخبزت منه خمسة أقراص لكل واحد منهم قرص ، فلما مضى صيامهم الأول وضع بين أيديهم الخبز والملح والجريش ، إذ أتاهم مسكين فوقف بالباب وقال : السلام عليكم أهل بيت محمد — في حديث الجعفى — أنا مسكين من مساكين أمة محمد ﷺ ، وأنا والله جائع ، أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة . فسمعه على رضى الله عنه ، فأنشأ يقول :

فاطم ذات الفضل واليقين   يا بنت خير الناس أجمعين
أما ترين البائس المسكين   قد قام بالباب له حنين

يشكو إلى الله ويستكين يشكو إلينا جائع حزين
كل امرىء بكسبه رهين وفاعل الخيرات يستبين
موعدنا جنة عليين حرمها الله على الضنين
وللبخيل موقف مهين تهوى به النار إلى سجين
شرابه الحميم إلى غسلين من يفعل الخير يقم سمين
ويدخل الجنة أى حين

فأنشأت فاطمة رضى الله عنها تقول :

أمرك عندى يا ابن عم طاعة ما بى من لؤم ولا وضاعة
غديت في الخبز له صناعة أطعمه ولا أبالى الساعه
أرجو إذا أشبعت ذا المجاعة أن ألحق الأخيار والجماعة
وأدخل الجنة لى شفاعة

فأطعموه الطعام ، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح ، فلما أن كان في اليوم الثانى قامت إلى صاع فطحنته واختبزته ، وصلى على مع النبى ﷺ ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم فوقف بالباب يتيم فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد .. يتيم من أولاد المهاجرين استشهد والدى يوم العقبة .. أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة . فسمعه على فأنشأ يقول :

فاطم بنت السيد الكريم بنت نبى ليس بالزنيم
لقد أتى الله بذى اليتيم من يرحم اليوم يكن رحيم
ويدخل الجنة أى سليم قد حرم الخلد على اللئيم
ألا يجوز الصراط المستقيم يزل في النار إلى الجحيم
شرابه الصديد والحميم

فأنشأت فاطمة رضى الله عنها تقول :

أطعمه اليوم ولا أبالى وأوثر الله على عيالى
أمسوا جياعاً وهم أشبالى أصغرهم يقتل في القتال
بكربلاء[1] يقتل باغتيال يا ويل للقتال من وبال

---

(١) أى بكربلاء التى قتل فيها الحسين رضى الله عنه .

تهوى به النار إلى سفال وفي يديه الغل والأغلال
كبولة زادت على الأكبال

فأطعموه الطعام ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح ، فلما كانت في اليوم الثالث قامت إلى الصاع الباقى فطحنته واختبزته ، وصلى على مع النبى ﷺ ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم ، إذ أتاهم أسير فوقف بالباب ، فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد تأسروننا وتشدوننا ولا تطعموننا !.. أطعمونى فإنى أسير محمد . فسمعه على فأنشأ يقول :

فاطم يا بنت النبى أحمد بنت نبى سيد مسود
وسماه الله فهو محمد قد زانه الله بحسن أغيد
هذا أسير النبى المهتد مثقل في غله مقيد
يشكو إلينا الجوع قد تمدد من يطعم اليوم يجده في غد
عند العلى الواحد الموحد ما يزرع الزارع سوف يحصد
أعطيه لا تجعليه أقعد

فأنشأت فاطمة رضى الله تعالى عنها تقول :

لم يبق مما جاء غير صاع قد ذهبت كفى مع الذراع
ابناي والله هم جياع يا رب لا تتركهما ضياع
أبوهما للخير ذو اصطناع يصطنع المعروف بابتداع
عبل الذراعين شديد الباع وما على رأسى من قناع
إلا قناعاً نسجه أنساع

فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح ، فلما أن كان في اليوم الرابع ، وقد قضى الله النذر أخذ بيده اليمنى الحسن وبيده اليسرى الحسين وأقبل نحو رسول الله ﷺ وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع ، فلما أبصرهم رسول الله ﷺ : قال : « يا أبا الحسن .. ما أشد ما يسوءنى ما أرى بكم انطلق بنا إلى ابنتى فاطمة » فانطلقوا إليها وهى في محرابها ، وقد لصق بطنها بظهرها ، وغارت عيناها من شدة الجوع ، فلما رآها رسول الله ﷺ وعرف المجاعة في وجهها بكى وقال : « واغوثاه يا الله أهل

بيت محمد يموتون جوعاً » فهبط جبريل عليه السلام ، وقال : السلام عليك .. ربك يقرئك السلام ، يا محمد .. خذ هنيئاً في أهل بيتك . قال : وما آخذ يا جبريل » ؟ فأقرأه : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر** .. ﴾[1] إلى قوله : ﴿ .. **ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً** ﴾[2] .

* * *

والذي يعنينا الآن بعد أن وقفنا على هذا المضمون الذى أورده القرطبي ضمن الأقوال التى وردت حول تفسير الآيات الثلاث : هو التعليق الذى ذكره القرطبي بعد ذكر هذا المضمون الأخير ، والذى لا بد أن نستفيد به ، وهو :

قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول : فهذا حديث مزوق مزيف قد تطوف فيه صاحبه حتى تشبه علي المستمعين ، فالجاهل بهذا الحديث يعض شفتيه تلهفاً ألا يكون بهذه الصفة ، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم ، وقد قال الله تعالى في تنزيله : ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو** ﴾[3] :

وهو الفضل الذى يفضل عن نفسك وعيالك ، وجرت الأخبار عن رسول الله ﷺ متواترة ، بأن : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى » ، « وابدأ بنفسك ثم بمن تعول » .

وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم . وقال رسول الله ﷺ : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » .

أفيحسب عاقل أن علياً جهل هذا الأمر حتى أجهد صبياناً صغاراً من أبناء خمس أو ست على جوع ثلاثة أيام ولياليهن ؟! حتى تضوروا من الجوع ، وغارت العيون منهم لخلاء أجوافهم ، حتى أبكى رسول الله ﷺ ما بهم من الجهد .. إلخ . هذا النقد الذى لا بد كما قلت أن نستفيد منه حتى ندقق في مثل هذه الروايات التى لا أصل لها .. والتى كان لا بد أن نقف عليها حتى لا نفتن بها .

---

(1) الإنسان : ١ . (2) الإنسان : ٨ ، ٩ . (3) البقرة : ٢١٩ .

وأنا شخصياً أستريح إلى رأى القرطبي الذي قال فيه : والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار ، ومن فعل فعلاً حسناً ، فهى عامة .

* * *

ولهذا .. أخا الإسلام : فإننى أطالبك ونفسى بأن نكون من أهل البر المشار إليه في قول الله تعالى :

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ﴾[1] .

وإذا كنت أخا الإسلام ستستقبل في بيتك الأتقياء المساكين الذين ستطعمهم الحلال ، فإننى أرجو أن تلاحظ معى قول القائل :

قم إذا ما الضيف جاءك   وامنـــح الضيـــف غذاءك
واجعـل من وجـهك مرآة   يرى فيها صفـــــاءك
إن يهن عنـــدك ضيـــف   يكــــــن الهون جزاءك

* * *

وأما عن العنصر الثانى ، وهو :

إفشـــاء السلام

فهو المشار إليه في حديث الرسول ﷺ ، الذى ورد :

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا[2] ، أفلا أدلكم علي أمر إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام بينكم » رواه أبو داود والترمذي ومسلم .

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) أى لا تؤمنوا إيماناً كاملاً حتى يحب بعضكم بعضاً وحتى يحب لأخيه كما يحب لنفسه .

ففى هذا الحديث الشريف يشير النبى ﷺ إلى أن السلام إذا انتشر بين المؤمنين كان سببا في انتشار المحبة بينهم ، وكان سبباً في دخول الجنة إن شاء الله .

فعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « اعبدوا الرحمن ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام : تدخلوا الجنة بسلام » روا الترمذي بسند حسن .

هذا بالإضافة إلى الثواب المضاعف في الدنيا :

فعن عمران بن حصين رضى الله عنه ، قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال : السلام عليكم ، فرد عليه ثم جلس ، فقال النبى ﷺ : عشر[1] ، ثم جاء آخر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد عليه فجلس ، فقال : عشرون[2] ، ثم جاء آخر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد عليه فجلس ، فقال : ثلاثون »[3] رواه أبو داوود والترمذي .

وهو كذلك خير خصال الإسلام :

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : « أى الإسلام خير ؟[4] قال : تطعم الطعام[5] ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف[6] » رواه البخارى ومسلم وأبو داوود والنسائى وابن ماجه .

* * *

ولهذا .. نرى أن الله تعالى قد أمر المؤمنين إذا حيوا بتحية أن يحيوا بأحسن منها أو يردوها ، فقال تعالى مخاطباً إياهم :

﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ، إن الله على كل شىء حسيباً** ﴾[7] .

---

(١) أى له عشر حسنات على قوله : السلام عليكم .

(٢) أى له عشرون حسنة لأنه زاد عن الأول : ورحمة الله .

(٣) وهذه نهاية ألفاظ السلام وأكملها .

(٤) أى أعظم أجراً وأكثر ثواباً .

(٥) يعنى أن تطعم الطعام ، فحذفت « أن » فارتفع الفعل ، يعنى : أن تكثر من قرى الضيوف وتقديم الطعام لكل محتاج إليه .

(٦) يعنى من المسلمين .

(٧) أي محاسباً فيجازي عليه ، ومنه السلام ورده ــ والآية من سورة النساء : ٨٦ .

أى : ﴿ وإذا حييتم بتحية ﴾ بأن قال لكم قائل السلام عليكم ﴿ فحيوا بأحسن منها ﴾ بقولكم : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ﴿ أو ردوها ﴾ بأن تقولوا كما قال : فالواجب الرد بالمثل أو بالزيادة وهو أفضل .

* * *

هذا .. وقد وردت أحاديث كثيرة تتعلق بأحكام السلام .. فإليك بعض هذه الأحاديث الشريفة التي أرجو أن تقف من خلالها على هذه الأحكام[1] :

*** السلام قبل الكلام والسلام على الأهل :**

عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « السلام قبل الكلام » .

وعنه عن النبى ﷺ ، قال : « لا تدعو أحداً إلى الطعام حتى يسلم » رواهما الترمذى بسند واحد وهذا السند ضعيف .

لأن السلام مقدم على الكلام ، ولأنه أمان ولا كلام إلا بعد الأمان ، ولأن السلام في المرتبة الأولى من الكلام .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « يسلم الراكب علي الماشى ، والماشى على القاعد ، والقليل على الكثير » رواه الأربعة ، وهم : أبو داوود والترمذي والنسائى وابن ماجه .

وزاد في رواية : والصغير على الكبير ، وهذا خبر يراد به الأمر ، أى : ليسلم الصغير على الكبير لأنه من توقيره ، وليسلم القليل على الكثير لأن حقهم أعظم ، وأولى أن يبدأ بالسلام الراكب على الماشى لئلا يتكبر فيتواضع ، كما يبدأ الماشي على القاعد لشبهه بالداخل على غيره ، فالمفضول بنوع ما يبدأ الفاضل بالسلام ، أى الأولى ذلك وإلا فلو بدأ الفاضل لكفى .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : قال لى النبي ﷺ : « يا بنى .. إذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك » رواه الترمذى بسند حسن .

---

(١) كما جاء فى التاج الجامع للأصول ج ٥ ، نصاً وتعليقاً بتلخيص وتصرف .

فينبغي لمن دخل على أهله أن يسلم عليهم ، فإن ذلك بركة عليهم ، قال الله تعالى : ﴿ **فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون** ﴾(١) .

* **والسلام على الصبيان والنساء :**

عن سيار رضى الله عنه ، قال : « كنت أمشي مع ثابت البنانى(٢) فمر بصبيان فسلم عليهم ، وقال : كنت أمشى مع أنس رضى الله عنه فمر بصبيان فسلم عليهم » رواه الخمسة ، وهم : البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائى .

وهذا دليل على مشروعية السلام على الصبيان ، وهو مطلوب لطرح رداء الكبر وللتحلى بالتواضع ولتدريب الصبيان على آداب الشريعة .

وقال أنس رضى الله عنه : « انتهى إلينا رسول الله ﷺ وأنا غلام في الغلمان(٣) فسلم علينا ، ثم أخذ بيدي أو أذنى فأرسلنى برسالة وقعد في ظل جدار ، أو قال : إلى جدار حتى رجعت إليه » رواه أبو داوود وابن ماجه بسند صحيح .

وقالت أسماء بنت يزيد رضى الله عنها : « مر علينا النبى ﷺ في المسجد يوماً وعصبة(٤) من النساء قعود ، فألوى بيده بالتسليم ، وأشار عبد الحميد بيده » رواه الترمذى بسند حسن : ورواه أبو داوود ، ولفظه : مر علينا النبى ﷺ فى نسوة ، فسلم علينا ..

ففيه جواز التسليم على النساء الأجنبيات وجواز تسليمهن على الرجال بطريق القياس وهذا عند أمن الفتنة ، وقال المالكية : يجوز على العجوز دون الشابة سداً للذريعة ، أما المحارم : فلا خلاف في مشروعية السلام عليهن ومنهن ، والله أعلم .

---

(١) النور : ٦١ .
(٢) وهو من كبار علماء التابعين ومن خيار الزاهدين رضى الله عنه .
(٣) أى ألعب معهم .
(٤) العصبة : أى الجماعة .

* تبليغ السلام :

فعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : قال لى رسول الله ﷺ : « يا عائشة .. هذا جبريل يقرأ عليك السلام . قالت : قلت : عليك وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، ترى يا رسول الله ما لا نرى »(١) رواه الأربعة ، وهم : أبو داوود والترمذي والنسائى وابن ماجه .

فهذا دليل على أنه يجب رد السلام على الغائب وينبغى أن يشرك المبلغ كقوله : عليك وعليه السلام ، ومن السلام على لسان الغير ما جاء في مكتوب ، فيجب رده على لسان الغير أو بطريق الكتابة ، والله أعلم .

وعن غالب رضى الله عنه ، قال : كنا جلوس بباب الحسن رضى الله عنه إذ جاء رجل ، فقال : حدثنى أبي عن جدى ، قال : بعثنى أبي إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إيته ، فأقرئه السلام ، قال : فأتيته فقلت : إن أبي يقرئك السلام ، ، فقال : « عليك وعلى أبيك السلام » رواه أبو داوود .

* بيان ما يكره في السلام :

عن أبي جرى الهجيمى(٢) رضى الله عنه ، أتيت رسول الله ، فقلت : عليك السلام يا رسول الله ، فقال : « لا تقل عليك السلام ، فإن عليك السلام : تحية الموتى » رواه أصحاب السنن بسند صحيح ، وزاد الترمذى : ثم أقبل على ، فقال : « إذا لقى الرجل أخاه المسلم فليقل : السلام عليكم ورحمة الله » .

وذلك لأن : عليك السلام تحية الموتى في كلام كثير من العرب كقول بعضهم :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

وكقول من رثى عمر رضى الله عنه :

عليك سلام الله من أمير وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق

---

(١) وهو جبريل عليه السلام ، فقد ردت عليه السلام وهى لا تراه . وكفاها ذلك .

(٢) جرى الهجيمى بالتصغير فيهما نسبة إلى الهجيم بن عمرو بن تميم ، واسمه جابر بن سليم .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما : سلم رجل على النبى ﷺ ، وهو يبول ، فلم يرد عليه السلام .

رواه الترمذى بسند صحيح .. ورواه أبو داوود .

لم يرد الرسول ﷺ : لأنه كان في حال لا تسمح بالرد ..

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، قال : « ليس منا من تشبه بغيرنا ، لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى ، فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع ، وتسليم النصارى الإشارة بالأكف » رواه الترمذى بسند ضعيف .

وبيان هذا : أنه لو سلم باللسان وقرنه بإشارة اليد فلا شيء فيه لأن المكروه الإشارة فقط كعمل أهل الكتاب ، ومثلها ما جرت به عادتهم من قولهم : نهارك سعيد ، أو ليلتك سعيدة ، بخلاف صباح الخير ومساء الخير ولكنهما لا يقومان مقام السلام ، فاتضح من هذا أن السلام بالإشارة فقط ، والسلام على المشتغل بشيء كالتبول والصلاة ، ولفظ عليك السلام : كلهامكروهة ، فلا يجب الرد والله أعلم وعلمه أتم وأكمل .

* **السلام على أهل الكتاب**[1] :

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام ، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه [2] » رواه مسلم وأبو داوود .

وقال بعض أصحاب النبى له : يا رسول الله .. إن أهل الكتاب يسلمون علينا ، فكيف نرد عليهم ؟ قال : « قولوا وعليكم » رواه مسلم وأبو داوود .

---

(١) أى ما ورد في السلام منهم وعليهم .

(٢) أى إذا ازدحمت الطريق وإلا فلا .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ ، قال : « إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم : السام عليك ، فقل : وعليك » رواه الثلاثة ، وهم : أبو داوود والترمذى والنسائى .

وذلك لأن السام هو الموت ، فلهذا إذا علمنا أنهم يقولون : السام عليكم أو لم نعلم ما قالوا ، فنرد عليهم بقولنا : وعليكم ، أى الموت أيضاً ، فإنه مكتوب على الناس كلهم ، أو المراد : وعليكم ما تستحقون من الذم .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : دخل رهط(١) من اليهود على رسول ﷺ ، فقالوا : السام عليك . ففهمتها ، فقلت : عليكم السام واللعنة . فقال رسول الله ﷺ : « مهلاً يا عائشة .. فإن الله يحب الرفق في الأمر كله . فقلت : يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال : فقد قلت : وعليكم »رواه الشيخان والترمذي .

وفي رواية لمسلم : فسمعت عائشة فسبتهم . فقال رسول الله ﷺ : مه يا عائشة(٢) فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله** .. ﴾(٣) الآية .

وفي رواية : قد سمعت فرددت عليهم ، وإنا نجاب عليهمولا يجابون علينا

ويكره إلقاء السلام عليهم للحديث الأول : لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام ، ولأن السلام إعزاز للمسلّم عليه .ولا يجوز إعزازهم ، وقال النووي : ابتداؤهم بالسلام حرام ، وهذا ما لم تدع له ضرورة كمداراتهم ودفع شرهم وإلا جاز والله أعلم .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه « أن النبي ﷺ مر بمجلس وفيه أخلاط من المسلمين واليهود فسلم عليهم » رواه البخارى والترمذى .

---

(١) الرهط ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة .

(٢) أى كفى عن هذا القول الشديد .

(٣) المجادلة : ٨ .

ومعنى هذا : أنه يستحب إلقاء السلام على المجلس الذي فيه مسلم وغيره تغليباً للمسلم . والله أعلم .

* حكم السلام ورده :

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، قال : « خمس تجب على المسلم لأخيه : رد السلام ، وتشميت العاطس ، وإجابة الدعوة ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز » رواه الخمسة ، وهم : البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى ،

وعن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « يجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ، ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم » رواه أبو داوود بسند صحيح .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » رواه أصحاب السنن بسند حسن .

ويؤخذ من هذا : أن ابتداء السلام سنة عين من الواحد ، وسنة كفاية من الجماعة ، والرد فرض عين على الواحد ، وفرض كفاية على الجماعة فيسقط الطلب بالسلام والرد من واحد ، كشأن فروض الكفاية ، ولكن لا يؤجر إلا من سلم وكذا من رد . كما أشار الحديث الأول .

وأن السلام من الجماعة سنة كفاية والرد من الجماعة فرض كفاية ، ولكن لو سلم الجماعة كلهم كان أفضل كما لو رد الجماعة كلهم فينالون الثواب . كما في الحديث الثانى .

وأنه يستحب السلام على الحاضرين إذا قدم عليهم وإذا أراد فراقهم . كما في الحديث الثالث .

* حكم السلام على أهل الأهواء :

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ ، قال : « لا تسلموا على من يشرب الخمر ولا تعودوهم إذا مرضوا ولا تصلوا عليهم إذا ماتوا »(١) رواه سعيد ابن منصور هكذا ، والبخارى موقوفاً ولكن وصله في الأدب .

---

(١) هذا للزجر أو إذا استحلوا الخمر .

وعن عمار بن ياسر رضى الله عنه ، قال : قدمت على أهلي وقد تشققت يداى ، فخلقوني بزعفران ، فغدوت على النبى ﷺ ، فسلمت عليه فلم يرد وقال : « اذهب فاغسل عنك هذا » رواه أبو داوود في السنة بسند صحيح .

ومر على النبى ﷺ رجل عليه ثوبان أحمران فسلم على النبى ﷺ ، فلم يرد عليه . رواه أبو داوود والترمذى في اللباس بسند صحيح .

ومن هذا نفهم أنه لا يشرع السلام على فاسق وفاجر ومبتدع ونحوهم ، وبالأولى فإن قطع هؤلاء مطلوب وبغضهم محبوب ما داموا في أهوائهم .. « من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان » .

وإذا كان النبى ﷺ قد قال لعمار بن ياسر — كما جاء في الحديث الثانى — اذهب فاغسل عنك هذا : فلأنه ﷺ لم يرد السلام عليه لأنه لطخ يديه بالزعفران الذى هو طيب النساء ، وقد نهينا عن التشبه بالنساء ، ولعله كان هناك غيره يقوم مقامه ، وإلا إذا تعين للتداوى فلا شيء عليه .

وإذا كان النبى ﷺ كذلك لم يرد على لابس الثوبين الأحمرين — كما يشير الحديث الثالث — : فلعل لون الحمرة هذا كان من صبغ خاص بالنساء كزعفران ونحوه. وإلَّا فلبس الأحمر جائز للرجال .

* * *

فليذكر الأخ المسلم كل هذا ، حتى يكون مفشياً للسلام على أساس من هذا الفقه الذي وقف عليه إحياء للسنة .

وحسبه أن فعل هذا إن شاء الله أن يذكر كذلك حديث الرسول ﷺ الذى يقول فيه : « دب إليكم داء الأمم قبلكم : البغضاء والحسد ، والبغضاء هى الحالقة ، ليس حالقة الشعر ، ولكن حالقة الدين ، والذي نفسى بيده لاتدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أنبئكم بما يثبت لكم ذلك ؟(١) أفشوا السلام بينكم » رواه البزار بإسناد جيد .

* * *

---

(١) أى يحققه ويؤكده .

وإذا كان لنا أن ننتقل الآن إلى العنصر الثالث ، وهو :

صلة الأرحام

فهو كذلك من أهم ما يجب علينا أن نحققه كمسلمين أو كمؤمنين ، وذلك لأن الله تعالى قد أمر به ، فقال : ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً** ﴾[1] .

وقال : ﴿ **واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾[2] .

وقال : ﴿ **فهل عسيتم[3] إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** ﴾[4] .

وقال : ﴿ **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه[5] ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾[6] .

وقال : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون** ﴾[7] .

ففى الآية الأولى والثانية : يرغب النبى ﷺ في صلة الرحم .

وفى الآية الثالثة والرابعة والخامسة : يرهب النبى ﷺ من قطيعة الرحم .

وقد ورد مثل هذا في السنة الصحيحة :

فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه[8] ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » رواه البخارى ومسلم .

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « من أحب أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره : فليصل رحمه » رواه البخارى ومسلم .

---

(١) الإسراء : ٢٦ . (٢) النساء : ١ .

(٣) المعنى : هل المرجو منكم الإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام إذا توليتم مصالح الناس ؟! ومن فعل ذلك فهو من الذين لعنهم الله إلخ الآية .

(٤) محمد : ٢٢ ، ٢٣ . (٥) أى توثيقه وتوكيده .

(٦) الرعد : ٢٥ . (٧) البقرة : ٢٧ .

(٨) أى : فليحسن إلى ذوى قرابته فيعطى محتاجهم ويزور مريضهم ويواسى منكوبهم .

الأثر : الأجل .. والنسأ : التأخير .. ولعله كناية عن البركة في الأجل :

قال ابن التين : « ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى : ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون** ﴾(١) ، والجمع بينهما من وجهين :

أحدهما : أن هذه الزيادة من البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة ، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة ، وصيانته عن تضييعه في غير ذلك ، ومن جملة ما يحصل له من التوفيق : العلم الذي ينتفع به من بعده ، والصدقة الجارية عليه ، والخلف الصالح .

ثانيهما : أن الزيادة على حقيقتها ، وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر :

وأما الأول الذى دلت عليه الآية : فبالنسبة إلى علم الله تعالى .. والوجه الأول أليق بلفظ حديث الباب ، فإن الأثر ما يتبع الشيء ، فإذا أخر حسن أن يحمل على الذكر الحسن بعد فقد المذكور » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « من سره أن يبسط له في رزقه ، وأن ينسأ له في أثره : فليصل رحمه » رواه البخارى ، والترمذى ، ولفظه :

قال : « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرحم محبة في الأهل ، مثراة في المال ، منسأة في الأثر » .

وقال : حديث غريب ، ومعنى : منسأة في الأثر ، يعنى به الزيادة في العمر ، انتهى . رواه الطبراني من حديث العلاء بن خارجة كلفظ الترمذي بإسناد لا بأس به .

ومعنى تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم : أى ما يعينكم على صلة أرحامكم ، فإن الجهل بالأنساب يؤدى إلى قطع الرحم بين ذوى النسب الواحد ، وكم من قرابات قد أهملها أهلها وتقاطع أفرادها بسبب جهلهم بالنسب الذي يجمعهم .

ومعنى أن صلة الرحم محبة في الأهل ، مثراة في المال ، منسأة في الأثر : أى أن صلة الرحم تزيد في المحبة وتوثق الآلفة بين أفراد الاسرة الواحدة ، ومجلبة للمال الكثير والخير الواسع : وسبب في تأخير الأجل وإطالته .

---

(١) النحل : ٦١ .

وعن أبي أيوب رضى الله عنه ، أن أعرابياً عرض[1] لرسول الله ﷺ ، وهو في سفر ، فأخذ بخطام ناقته — أو بزمامها[2] — ثم قال : يا رسول الله — أو يا محمد[3] — أخبرني بما يقربني من الجنة ، ويباعدنى من النار ؟ قال : فكف النبى ﷺ ، ثم نظر في أصحابه ، ثم قال : لقد وفق أو لقد هدى ، وقال : كيف قلت ؟ قال : فأعادها ، فقال النبى ﷺ : « تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم . دع الناقة » .

وفي رواية : « وتصل ذا رحمك ، فلما أدبر[4] ، قال رسول الله ﷺ : إن تمسك بما أمرته به دخل الجنة » رواه البخارى ومسلم واللفظ له .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : فقال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى خلق الخلق[5] حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم[6] ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة[7] . قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟[8] قالت : بلى[9] . قال : فذاك لك ، ثم قال رسول الله ﷺ : اقرأوا إن شئتم : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم[10] أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم[11] ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** ﴾ » رواه البخاري ومسلم .

وحول كلام الرحم ، قال ابن أبي حمزة : « يحتمل أن يكون بلسان الحال ، ويحتمل أن يكون بلسان المقال ، قولان مشهوران .

والثانى أرجح ، وعلى الثاني ، فهل تتكلم كما هى أو يخلق الله لها عند كلامها حياة وعقلاً .. قولان أيضاً مشهوران والأول أرجح لصلاحية القدرة العامة لذلك » .

وقال : في الفتح : « قال عياض : يجوز أن يكون الذى نسب إليه القول

---

(١) يعنى اعترضه ووقف في طريقه . (٢ ، ٣) أو في اللفظين : شك من الراوى .

(٤) أى انصرف الرجل . (٥) أى جمع المخلوقات .

(٦) أى مثلت بين يدى الله جل شأنه .

(٧) يعنى هذا موقف المستجير بك المحتمى بجانبك من خوف القطيعة ، وهو الهجر وعدم الصلة .

(٨) قال ابن أبي حمزة : الوصل من الله كناية عن عظيم إحسانه على عبده وإسعافه بما يريد ومساعدته على ما يرضيه والقطع كناية عن الحرمان والإحسان .

(٩) يعنى رضيت بذلك . (١٠) أى أعرضتم عن الجهاد .

(١١) أى تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام

ملكاً يتكلم على لسان الرحم » وهو بعيد وأبعد منه قول القرطبي : « أي لو كانت الرحم ممن يعقل ويتكلم لقالت كذا ، وأنه تعالى أنزلها منزلة من استجار به فأجاره فأدخله في حمايته » .

وحول الآية الكريمة التي ختم بها الحديث ، قال ابن كثير : « وهذا نهى عن الإفساد في الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إن الرحم شجنة من الرحمن ، تقول : يا رب إنى قطعت ، يا رب إنى أسيء إلى ، يا رب إنى ظلمت ، يا رب ، فيجيبها ، ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك » رواه أحمد بإسناد جيد قوى ، وابن حبان في صحيحه .

قال القرطبي : « الرحم التى توصل عامة وخاصة :

فالعامة : رحم الدين ، وتجب مواصلتها بالتوادد والتناصح والعدل والإنصاف والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة . وأما الرحم الخاصة : فتزيد النفقة على القريب ، وتفقد أحوالهم ، والتغافل عن زلاتهم » .

وقال ابن حمزة : « تكون صلة الرحم بالمال وبالعون على الحاجة ، وبدفع الضر ، وبطلاقة الوجه ، وبالدعاء .. والمعنى الجامع : إيصال ما أمكن من الخير ، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة . وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة ، فإن كانوا كفاراً أو فجاراً فمقاطعتهم في الله هى صلتهم بشرط بذل الجهد في وعظهم ثم إعلامهم إذا أصروا أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى » .

وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، أنه قال : « الرحم حجنة[1] متمسكة بالعرش تكلم[2] بلسان ذلق[3] : اللهم صل من وصلنى ، واقطع من قطعنى ، فيقول الله تبارك وتعالى : أنا الرحمن الرحيم ، وإنى شققت للرحم من

---

(١) الحجنة بفتح الحاء المهملة والجيم وتخفيف النون : هى صنارة المغزل ، وهى الحديدة العقفاء التى يعلق بها الخيط ثم يفتل الغزل .

(٢) أى تتكلم فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً (٣) أى فصيح بليغ .

اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن بتكها بتكته »(١) رواه البزار بإسناد حسن .

وعن سعيد بن زيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، أنه قال: « إن من أربى الربا(٢) الاستطالة في عرض المسلم بغير حق(٣) ، وإن هذه الرحم شجنة(٤) من الرحمن عز وجل ، فمن قطعها حرم الله عليه الجنة(٥) » رواه أحمد والبزار ، ورواة أحمد ثقات .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ ، قال : « ليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها(٦) » رواه البخارى واللفظ له ، وأبو داوود والترمذي .

قال ابن حجر فى الفتح : « وقال شيخنا فى شرح الترمذي: المراد بالواصل في هذا الحديث : الكامل ، فإن المكافأة نوع صلة ، بخلاف من إذا وصله قريبه ولم يكافئه ، فإن فيه قطعاً بإعراضه عن ذلك ، وهو من قبيل : ليس الشديد بالصرعة ، وليس الغنى عن كثرة العرض » .

وقال الطيبى : « المعنى ليست حقيقة الواصل ومن يعتد بصلته : من يكافىء صاحبه بمثل فعله ولكن من يتفضل على صاحبه » :

* * *

ومن الآثار العظيمة التى قرأتها في كتاب « عيون الأخبار » ، تحت عنوان

باب القرابات والولد (٧)

حدثنى زيد بن أخزم ، قال حدثنا أبو داوود : قال حدثنا إسحاق بن سعيد القرشى من ولد سعيد بن العاص ، قال أخبرنى أبى ، قال : كنت عند ابن عباس ، فأتاه رجل فمت إليه برحم بعيدة ، فلان « من اللين » له وقال : قال رسول الله ﷺ : «اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم فإنه لا قرب بالرحم إذا قطعت وإن كانت قريبة ، ولا بعد بها إذا وصلت وإن كانت بعيدة » .

حدثنى شبابة قال : حدثنى القاسم بن الحكم عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن دينار ، قال : احذروا ثلاثاً ، فإنهن معلقات بالعرش : النعمة تقول : يا رب كفرت ، والأمانة تقول يا رب أكلت ، والرحم تقول : يا رب قطعت.

(١) أي من قطعها قطعته . (٢) يعني من أفحشه وأقبحه .

(٣) يعنى تناوله بالهجاء والذم على وجه الاعتداء والظلم .

(٤) شجنه ، يعنى قرابة مشتبكة العروق وفيها لغتان : شجنة بكسر الشين وبضمها وإسكان الجيم .

(٥) يعنى لا يدخلها ابتداء أو أبداً إن استحل ذلك .

(٦) يعنى ولكن الحقيق باسم الواصل من إذا جفت رحمه وتباعدت لم يقابلها بمثل ذلك بل يصلها ويبرها

(٧) بتصرف واختصار موضوعي .

حدثني أبو سفيان الغنوى عن عبد الله بن يزيد عن حيوة بن شريح عن الوليد بن أبي الوليد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ ، قال : « أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه » .

حدثني القومسي ، قال : حدثنا إسماعيل بن أبي أويس ، قال : حدثنا كثير بن زيد عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ ، قال : « ابن أخت القوم من أنفسهم ، ومولى القوم من أنفسهم ، وحليف القوم من أنفسهم » .

كتب عمر إلى أبي موسى : مر ذوى القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوزوا .

وقال أكثم بن صيفى : تباعدوا في الديار تقاربوا في المودة .

والعرب تقول في العطف على القرابة وإن لم يكن واداً : « أنفك منك وإن ذن »[1] ، ومثله : « عيصك[2] منك وإن كان أشبا » .

ويقال : القرابة محتاجة إلى المودة ، والمودة أقرب الأنساب . والبيت المشهور فى هذا :

فإذا القرابة لا تقرب قاطعاً وإذا المودة أقرب الأنساب

* * *

فاذكر أخا الإسلام كل هذا ، وكن وصولاً لأرحامك ، أى لذوى قرابتك التي تجمعك وإياهم رحم واحدة وذلك — كما عرفت — بأن تعين فقيرهم ، وترشد جاهلهم ، وتقضى حوائجهم ، وتتفقد غائبهم ، وتعود مريضهم ، وتشاركهم أفراحهم وأحزانهم :

حتى تفوز بهذا الخير الذى وقفت عليه ، والذى لا بد أن تفوز به كمسلم أو كمؤمن يرجو الله واليوم الآخر .

وحسبك في نهاية هذا العنصر الحيوى الهام أن تذكر وصية الرسول ﷺ التى يقول فيها : « أوصانى ربي بتسع أوصيكم بها : أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكراً

---

(١) ذن : سال مخاطه ، وفي مجمع الأمثال : « وإن كان أذن » .

(٢) العيص : الجماعة من السدر تجتمع في مكان واحد . والأشب : شدة التفاف الشجر حتى لامجاز فيه

ونطقي ذكراً ، ونظري عبرا » رواه رزين .

* * *

وأما عن العنصر الرابع ، وهو :

الصلاة بالليل والناس نيام

فقد كان فرضاً على النبي ﷺ وأصحابه ، لقوله تعالى :
﴿ **يأيها المزمل**[1] . **قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا** ﴾[2] .

ثم نسخ بقوله تعالى : ﴿ .. **علم آن لن تحصوه فتاب عليكم**[3] ، **فاقرأوا ما تيسر من القرآن** ﴾[4] :

قال ابن عباس في تفسيره : قم الليل يعنى قم الليل كله إلا قليلاً منه . فاشتد ذلك على النبي ﷺ وعلى أصحابه . وقاموا الليل كله ولم يعرفوا ما حد القليل ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ **نصفه أو انقص منه قليلاً** ﴾ ، فاشتد ذلك أيضاً عليهم وقاموا حتى انتفخت أقدامهم ، ففعلوا ذلك سنة ، فأنزل الله تعالى ناسختها ، فقال : ﴿ **علم أن لن تحصوه** ﴾ ، يعنى قيام الليل من الثلث والنصف ، وكان هذا قبل فرض الصلوات الخمس ا . هـ .

وعن عكرمة أن ابن عباس ، قال في سورة المزمل : ﴿ **قم الليل إلا قليلا . نصفه** .. ﴾ نسختها الآية التي فيها : ﴿ **علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن** ﴾ الأثر : إخرجه أبو داوود والبيهقي .

وعن سماك الحنفى أن ابن عباس قال : لما نزلت أول المزمل كانوا يقومون نحواً من قيامهم فى شهر رمضان حتى نزل آخرها . وكان بين أولها وآخرها سنة . أخرجه أبو داوود والبيهقي ومحمد بن نصر .

وبهذا .. صار قيام الليل مندوباً في حق النبي ﷺ وأمته .

ويؤيده قول سعد بن هشام : « انطلقت إلى ابن عباس فسألته عن الوتر فقال : ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قلت : من ؟ قال : عائشة رضى الله عنها فأتها فسلها ، ثم أعلمني ما ترد عليك . فانطلقت إليها فأتيت على حكيم بن أفلح فاستصحبته ، فانطلقنا إلى عائشة فاستأذنا

---

(١) أصله المتزمل قلبت التاء زاياً وأدغمت ، أى المتلفف في ثيابه ، وهو وصف للنبي ﷺ .
(٢) المزمل : ١ — ٣ .
(٣) أى خفف عنكم بإسقاط فرض قيام الليل ، فالمراد بالتوبة ، التوبة اللغوية وهي التخفيف .
(٤) المزمل : ٢٠ .

فدخلنا فقالت : من هذا ؟ قال : حكيم بن أفلح . فقالت : من هذا معك ؟ قلت : سعد بن هشام . قالت : ومن هشام ؟ قلت ابن عامر . قالت : نعم المرء كان عامر أصيب يوم أحد . قلت : يا أم المؤمنين .. أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ . فقالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . فهممت أن أقوم فبدا لى . فقلت : أنبئني عن قيام رسول الله ﷺ يا أم المؤمنين . قالت : ألست تقرأ : يأأيها المزمل ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله تعالى افترض القيام في أول هذه السورة ، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمتها اثنى عشر شهراً في السماء ، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً بعد أن كان فريضة» الحديث أخرجه مسلم والنسائي والبيهقي ، وهذا لفظه .

وبهذا قال الجمهور وحكى عن ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم .

وقال مالك : لم يزل قيام الليل فرضاً في حق النبى ﷺ .

وروى هذا أيضاً عن ابن عباس والشافعى لظاهر قوله تعالى : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك** ﴾[1] . أى : فريضة زائدة على الصلوات الخمس خاصة بك دون أمتك .

قال في الدين الخالص ـ ج ٥ ـ بعد ذلك :

« ولا يقال : إن الخطاب له ﷺ خطاب لأمته ، لأن محل هذا ما لم يقم دليل على الخصوصية كما هنا . فإن قوله تعالى : ﴿**نافلة لك**﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ **فتهجد** ﴾ دليل على أن الخطاب خاص به ﷺ دون أمته . قال ابن عباس : ذلك خاصة للنبى ﷺ ، أمر بقيام الليل وكتب عليه . أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه .

وأجاب الجمهور بأن المعنى : جعل التهجد نفلاً في حقك زيادة لدرجاتك وشكر أمتك لمولاك على ما أولاك . أما في حق الأمة فشرع تكفيراً للسيئات .

ثم يقول في الدين الخالص ، تحت عنوان :

فضل قيام الليل

هو في الفضل في المرتبة الرابعة بعد المكتوبة والرواتب وما تشرع فيه الجماعة كالعيد والكسوف والتراويح .

وبهذا قال الجمهور ، وعن أحمد وبعض الشافعية أنه يلي المكتوبة في الفضل.

(١) أمر للنبى ﷺ بالتهجد وهو الصلاة ليلاً بعد النوم ـ والآية من سورة الإسراء : ٧٩ .

قال ابن قدامة في المغنى : وتطوع الليل أفضل من تطوع النهار ، قال أحمد : ليس بعد المكتوبة عندى أفضل من قيام الليل ، والنبى ﷺ قد أمر بذلك . قال الله تعالى : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك** ﴾ .

عن أبي هريرة أن النبى ﷺ ، قال : « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم . وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » أخرجه مسلم وأبو داوود والنسائى وابن خزيمة .

وعن أبي هريرة أن النبى ﷺ ، قال : « أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة في جوف الليل ، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم » أخرجه مسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

وقال النووى في شرح مسلم : الحديث ـــ يعنى حديث أبي هريرة الأول ـــ حجة أبي إسحاق المروزي من أصحابنا ، ومن أصحابنا من وافقه على أن صلاة الليل أفضل من السنن الرواتب ، لأنها تشبه الفرائض .

وقال أكثر العلماء : الرواتب أفضل ، والأول أقوى وأوفق ، لنص هذا الحديث

قال الطيب : ولعمرى إن صلاة التهجد لو لم يكن فيها فضل سوى قوله تعالى : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾(1) .

وقوله تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾(2) وغيرهما من الآيات لكفاه مزية ا . هـ .

وحول هاتين الآيتين ، قال ـــ في الهامش ـــ فضيلة الشيخ أمين محمود خطاب رحمه الله تعالى معلقاً وشارحاً :

١ ـــ أى : تهجد لنعطيك يوم القيامة مقاماً يحمدك فيه الخلائق ، وهو مقام الشفاعة في فصل القضاء :

فقد قال أبو هريرة : سئل رسول الله ﷺ عن المقام المحمود ، فقال : « هو الشفاعة » أخرجه الترمذي ..

٢ ـــ ﴿ **تتجافى** ﴾ أى ترتفع جنوبهم عن مواضع النوم لتهجدهم ليلاً : ﴿ **يدعون ربهم** ﴾ أى يعبدونه ﴿ **خوفاً** ﴾ من وبال عقابه ﴿ وطمعاً ﴾ في جزيل ثوابه ، ويتصدقون مما أنعم الله عليهم . وسيدهم فى ذلك رسول الله ﷺ .

---

(1) الإسراء : ٧٩ .　　(2) السجدة : ١٦ ، ١٧ .

قال عبد الله بن رواحة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وعن أبي هريرة أن النبى ﷺ ، قال : قال الله تعالى : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .. قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم: ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين**﴾.

أخرجه الشيخان والترمذي . وزاد البخاري في رواية : وقال محمد بن كعب : إنهم أخفوا لله عملاً ، فأخفى لهم ثواباً ، فلو قدموا عليه أقر تلك الأعين .

فالآية واردة في قيام الليل وهو قول الجمهور .

* * *

وقد ورد فى فضل قيام الليل أحاديث ، منها ، ما ورد عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قام حتى تورمت قدماه أو ساقاه . فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » ؟ أخرجه أبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط بسند رجاله رجال الصحيح.

وعن أبي مالك الأشعرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « إن في الجنة غرفاً يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وقام بالليل والناس نيام » أخرجه أحمد وابن حبان والبيهقي في الشعب والطبراني في الكبير بسند رجاله ثقات .

وعن أبي هريرة أن النبى ﷺ ، قال : « إذا نام أحدكم عقد على رأسه ثلاث عقد بجرير(١) ، فإن قام فذكر الله عز وجل أطلقت واحدة ، وإن مضى فتوضأ أطلقت الثانية ، فإن مضى فصلى أطلقت الثالثة فإن أصبح ولم يقم شيئاً من الليل ولم يصل ، أصبح وهو عليه ، يعني الجرير » أخرجه الجماعة ، وهذا لفظ أحمد.

ولفظه عند الشيخين وأبي داوود ، عن أبي هريرة أن النبى ﷺ ، قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس(٢) أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب

---

(١) الجرير بفتح فكسر ، الحبل من جلد كالزمام . ويطلق على كل حبل مضفور ، ومنه الحديث : « ما من عبد ينام بالليل إلا على رأسه جرير معقود » ذكره في النهاية .

(٢) القافية : مؤخر العنق . وخص القفا بذلك ، لأنه محل القوة الواهمة ، وهى أطوع القوى للشيطان .

مكان كل عقدة عليك ليل طويل[1] فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة . فإن توضأ انحلت عقدة . فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » .

أى : إن لم يذكر ولم يتوضأ ولم يصل ونام حتى فاته التهجد أو صلاة الصبح : أصبح محزون القلب كثير الهم متحيراً في أمره ، غير منشرح الصدر متكاسلاً عن تحصيل مآربه لتركه فعل الخير وتمكن الشيطان منه .

وقد اختلف في هذا العقد ، فالظاهر أنه باق على حقيقته وهو الربط ، لما في رواية ابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ ، قال : « يعقد الشيطـان على قافيـة رأس أحدكم بالليل بحبل فيه ثلاث عقد » .. الحديث .

وفي رواية محمد بن نصر : على قافية رأس أحدكم بالليل حبل فيه ثلاث عقد.

وفي رواية ابن حبان : ما من ذكر ولا أنثى ألا ويعقد على رأسه بجرير وهو حبل من جلد . وقيل : إن العقد مجاز كأنه شبه فعل الشيطان بالنائم من منعه من الذكر والصلاة بفعل الساحر بالمسحور من منعه من مراده . فهو من عقد القلب ، فكأن الشيطان يوسوس في نفس النائم بأن عليك ليلاً طويلاً فيتأخر عن القيام . أو المراد به تثقيل القلب في النوم وإطالته ، فكأن الشيطان قد شد عليه شداً وعقده ثلاث عقد .

والمراد بالشيطان الجنس وفاعل ذلك هو القرين أو غيره ويحتمل أن يراد به رأس الشياطين وهو إبليس .

ولا يقال : إن الغافلين عن قيام الليل كثيرون ، فلا يستطيع أن يعقد عليهم ، لأنا نقول : لا مانع من ذلك ، لجواز أن يعطيه الله القدرة على ذلك .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام حتى لا تكون من الغافلين الذين يعقد الشيطان على قافية رأس كل واحد منهم بحبل فيه ثلاث عقد . أو يبول الشيطان في أذن كل واحد منهم :

ففي حديث يونس عن الحسن عن أبي هريرة أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : « إن فلاناً نام البارحة ولم يصل شيئاً حتى أصبح . فقال : بال الشيطان في أذنه » . قال يونس وقال الحسن : « إن بوله والله ثقيل » أخرجه أحمد ، وأخرج الشيخان نحوه عن ابن مسعود .

---

(١) وفي رواية للبخاري : يضرب على مكان كل عقدة ، أو يضرب بيده على العقدة تأكيداً وإحكاماً .

واعلم أنه إذا كانت نيتك القيام ، أو كانت عادتك التهجد فغلبتك عيناك فلا لوم عليك ، بل سيكتب الله لك ثواب ما كنت تفعله من الطاعة قبل ذلك ..

فعن عائشة أن النبى ﷺ ، قال : « ما من امرىء تكون له صلاة بليل يغلبه عليها نوم أو وجع إلا كتب له أجر صلاته ، وكان نومه عليه صدقة » أخرجه مالك وأبو داوود والنسائى والبيهقي .

واعلم كذلك أنه قد اتفق العلماء على أنه ليس لصلاة الليل عدد مخصوص ، وأن العبد كلما زاد فيها زاد أجره واختلفوا فيما فعله النبى ﷺ واختاره لنفسه ، والغالب من أحواله ﷺ أنه كان يصلى بالليل إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة بالوتر . وقد صلى تسعاً وسبعاً لما كبر سنه .

* * *

واعلم أن الأفضل في صلاة الليل أن تكون مثنى مثنى . ويسن أن تفتتح بركعتين خفيفتين لينشط بهما لما بعدهما ، ثم يطيل القراءة والركوع والسجود ، وهومخيراً في القراءة بين الأسرار والجهر وهو أفضل ما لم يهوش على مصل أو نائم .

* * *

وحسبك يا أخى أن تعلم أنك عندما ستتقرب إلى الله تعالى بكل هذا ، وهو : « إطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، وصلة الأرحام ، والصلاة بالليل والناس نيام » فإنك ستدخل الجنة ـــ إن شاء الله تعالى ـــ بسلام ..

أى : مصحوباً بالسلامة من الآفات والمكاره ، أو مسلماً عليك من الله تعالى والملائكة الكرام . كما يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين** ﴾[1] .

اللهم اجعلنا منهم ، واحشرنا فى زمرتهم .. آمين ..

---

(١) الزمر : ٧٣ ، ٧٤ .

الوصية الثالثة والخمسون

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ[1]، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ[2] قَبْلَكُمْ وَقُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ[3]، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ[4]، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ[5].

رواه ابن خزيمة والحاكم والبيهقي عن أبي أمامة وأحمد والترمذي والحاكم عن بلال بسند صحيح.

---

(١) عليكم بقيام الليل: أي الزموه وحافظوا عليه.

(٢) دأب الصالحين: أي عادتهم وشأنهم، من قولهم: دأب في العمل، إذا جد وتعب.

(٣) وقربة إلى ربكم : أى سَبب للقرب من الله عز وَجل لما فيه من هجر لذة النوم.

(٤) مكفرة للسيئات : أى يزيلها ويمحوهَا.

(٥) ومنهاة عن الإثم : أى ينهى صَاحبه ويزجره عن ارتكاب المعاصى. وَفى روَاية للطبَرانى فى الكبير :
ومطردة للداء عن الجَسد : أى أن الله تعالى يزيل به عن العبد ما ألَمَّ به من أدواء وأسقام.

★ ★ ★

فكن أخا الإسلام :

من المنتفعين بهذه الوصية العظيمة التى يرغبك الرسول ﷺ فيها بقيام الليل .. لأنه كما يقول صلوات الله وسلامه عليه فى نص الوصية : دأب الصالحين قبلنا ، أى : عادتهم وشأنهم .

كما يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى عن عبده داوود عليه السلام :

﴿ .. **واذكر عبدنا داوود ذا الأيد إنه أواب** ﴾(١) ، فقد قال القرطبي في تفسير معنى : ﴿ **ذا الأيد** ﴾ ، أي : ذا القوة في العبادة ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وذلك أشد الصوم وأفضله ، وكان يصلى نصف الليل ، وكان لا يفر إذا لاقى العدو ، وكان قوياً في الدعاء إلى الله تعالى . وقوله : ﴿ **عبدنا** ﴾ إظهاراً لشرفه بهذه الإضافة .. ثم ذكر معنى ﴿ **إنه أواب** ﴾ فقال : قال الضحاك : أى تواب . وعن غيره أنه كلما ذكر ذنبه أو خطر على باله استغفر منه .. فكان داوود رجاعاً إلى طاعة الله ورضاه في كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به ..

وقال على بن أبي طالب : شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خبز شعير فنام عن ورده حتى أصبح ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى .. أوجدت داراً خيراً من دارى ؟ أم وجدت جواراً خير لك من جوارى ؟ فوعزتى وجلالى يا يحيى لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب شحمك ، ولزهقت نفسك اشتياقاً ، ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لذاب شحمك ، ولبكيت الصديد بعد الدموع ، ولبست الجلد بعد المسوح .

وقد قرأت كذلك أن الخبيث إبليس تبدى ليحيى بن زكريا ، فقال : إنى أريد أن أنصحك ، فقال : كذبت أنت لا تنصحني ، ولكن أخبرنى عن بنى آدم ، قال : هم عندنا على ثلاثة أصناف .

أما الصنف الأول : وهو أشد الأصناف علينا : فإننا نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونستمكن منه ثم يفزع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركناه منه ، ثم نعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك من حاجتنا .

وأما الصنف الثانى : فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدى صبياننا نتلقفهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم .

وأما الصنف الثالث: فهم مثلك معصومون ولا نقدر منهم على شيء.

---

(١) سورة ص : ١٧ .

فقال له يحيى عليه السلام : هل قدرت منى على شيء؟ قال : لا .. إلا مرة واحدة فإنك قدمت طعاماً تأكله ، فلم أزل أشهيه إليك حتى أكلت أكثر مما تريد فنمت تلك الليلة ولم تقم إلى الصلاة كما كنت تقوم إليها .

فقال يحيى : لا جرم لا شبعت طعاماً أبداً حتى أموت ، فقال له الخبيث : لا جرم لا نصحت آدمياً بعدك أبداً .

* * *

ولهذا : كان لقمان الحكيم يقول لولده : « إذا امتلأت المعدة ، نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة » .

كما ورد كذلك في الأثر : «من أكل كثيراً نام كثيراً، وحرم من خير كثير» .

وذلك لأن الشبع هو أوسع أبواب إبليس ، وشرك من عظيم شراكه .

ومن أجل ذلك كان النبي ﷺ ، يقول : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه .

وإن صح الحديث الذى يقول فيه الرسول ﷺ : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » .

ففيه الكفاية التي يجب أن تكون دائماً وأبداً في ذاكرتك ونصب عينيك حتى لا يضحك الشيطان عليك ، وحتى « لا تكون أعجز من الديك الذي يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك » كما يقول لقمان الحكيم لولده محذراً إياه من الغفلة وعدم قيام الليل الذى هو دأب الصالحين ، كما قال صلوات الله وسلامه عليه .

وحسبك حتى تكون من أولى الألباب ، الذين يقومون الليل فاستحقوا بذلك رحمة الله تعالى ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿**والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً**﴾(١) .

حسبك أن تقتدى برسول الله ﷺ ، الذى ورد في صفة صلاته بالليل عدة أحاديث ، منها :

حديث كريب مولى ابن عباس أنه أخبره أنه بات عند ميمونة زوج النبى ﷺ وهى خالته ، قال : فاضطجعت فى عرض الوسادة واضطجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهله فى طولها ، فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ، استيقظ رسول الله ﷺ فجلس

---

(١) الفرقان : ٦٤ .

يمسح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر الآيات خواتيم سورة آل عمران[1] ثم قام إلى شن[2] معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ، ثم قام يصلى . قال ابن عباس : فقمت فصنعت مثل الذى صنع . ثم ذهبت فقمت إلى جنبه فوضع يده على رأسى وأخذ أذنى اليمنى ففتلها[3] فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر . ثم اضطجع حتى أتاه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح » رواه أحمد والشيخان .

وحديث سلمة بن كهيل عن كريب أن ابن عباس قال : « بت عند خالتي ميمونة ، فقام رسول الله ﷺ من الليل فأتى حاجته ثم غسل وجهه ويديه ، ثم قام فأتى القربة فأطلق شناقها[4] ثم توضأ وضوءاً بين الوضوءين ، لم يكثر وقد أبلغ ، ثم قام فصلى فقمت فتمطأت[5] كراهية أن يرى أنى كنت أرتقبه ، فتوضأت فقام يصلى فقمت عن يساره فأخذ بأذنى فأدارنى عن يمينه . فتتامت صلاة رسول الله ﷺ من الليل ثلاث عشرة ركعة ، ثم اضطجع فنام حتى نفخ ، وكان إذا نام نفخ . فأتاه بلال فآذنه بالصلاة ، فقام فصلى ولم يتوضأ[6] ، وكان يقول في دعائه : اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، ومن فوقى نوراً ، ومن تحتى نوراً ، ومن أمامى نوراً ، ومن خلفى نوراً ، وأعظم لى نوراً . قال كريب : وسبع فى التابوت[7] . قال سلمة : فلقيت بعض ولد العباس فحدثنى بهن فذكر عصبى ولحمى ودمى وشعرى وبشرى . قال : وذكر خصلتين »[8] أخرجه السبعة وهم : أحمد والبخارى ومسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

---

(١) العشر آيات من قوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ إلى آخر السورة (آل عمران : ١٩٠ ــ ٢٠٠) .

(٢) الشن ، بفتح الشن وشد النون : القربة الخلق .

(٣) ففتلها ليذهب عنه النعاس وليتنبه إلى مكان المأموم ..

(٤) الشناق ، بكسر ففتح ، الخيط يشد به فم القربة .

(٥) وفي رواية مسلم : فتمطيت ، أى تأخرت وتمددت من التمطى وهو مد اليدين في حال الكسل .

(٦) لأنه كان منتبهاً ولأن قلبه لا ينام ﷺ .

(٧) أى وسبع في قلبى قد نسيتها .

(٨) أى فحدثنى بهن ، أى بالخصال السبعة التى نسيها كريب (وذكر خصلتين) يعنى السادسة والسابعة ولم يصرح بهما سلمة ، لاحتمال أنه نسيها .

وقول صفوان بن المعطل السلمى : كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فرمقت صلاته ليلة فصلى العشاء الآخرة ثم نام . فلما كان نصف الليل استيقظ فتلا الآيات العشر آخر سورة آل عمران ، ثم تسوك ثم توضأ ثم قام فصلى ركعتين ، فلا أدرى أقيامه أم ركوعه أم سجوده أطول ؟ ثم انصرف فنام ، ثم استيقظ فتلا الآيات ثم تسوك ، ثم توضأ ثم قام فصلى ركعتين ، لا أدرى أقيامه أم ركوعه أم سجوده أطول ؟ ثم انصرف فنام ، ثم استيقظ ففعل ذلك ثم لم يزل يفعل كما فعل أول مرة(١) حتى صلى إحدى عشرة ركعة » أخرجه أحمد في زوائد المسند .

وحديث الحسن عن سعد بن هشام ، قال : قدمت المدينة فدخلت على عائشة ، فقلت : أخبريني عن صلاة رسول الله ﷺ ، قالت : إن رسول الله ﷺ كان يصلى بالناس صلاة العشاء ثم يأوى إلى فراشه فينام ، فإذا كان جوف الليل قام إلى حاجته(٢) وإلى طهوره فتوضأ ثم دخل المسجد فصلى ثمانى ركعات ، يخيل إلى أنه يسوى بينهن في القراءة والركوع والسجود ثم يوتر بركعة . ثم يصلى ركعتين وهو جالس . ثم يضع جنبه ، فربما جاء بلال فآذنه بالصلاة ثم يغفى وربما شككت أغفى أو لا(٣) حتى يؤذنه بالصلاة ، فكانت تلك صلاته حتى أسَنَّ أو لحم(٤) . أخرجه أبو داوود والنسائى .

* * *

وحتى تكون إن شاء الله من الحريصين على قيام الليل والتهجد فيه ، حتى يكون لك زاد ينفعك في سفرك الطويل إلى الله تبارك وتعالى ، كما يشير هذا الأثر الذى جاء في مضمونه : أن أبا ذر رضى الله عنه وقف ذات يوم أمام الكعبة ثم قال لأصحابه : أليس إذا أراد أحدكم سفراً يستعد به بزاد ؟ قالوا : نعم . قال : فسفر الآخرة أبعد مما تسافرون . فقالوا : دلنا على زاده . فقال : حجوا لعظائم الأمور ، وصلوا ركعتين فى ظلمة الليل لوحشة القبور ، وصوموا يوماً شديداً حره لطول يوم النشور .

* * *

(١) يحتمل أنه ﷺ صلى خمس مرات في كل مرة ركعتين ثم أوتر بواحدة ، ويحتمل أنه صلى أربع مرات في كل مرة ركعتين ثم أوتر بثلاث .

(٢) المراد بالحاجة البول ونحوه .

(٣) الإغفاء : هو النوم الخفيف .

(٤) أسن : أى كبر سنه ، ولحم : أى كثر لحمه .

وحتى تفوز بهذا الخير إن شاء الله تعالى ، إليك كذلك هذه الآثار التى سترى من خلالها كيف كان أصحاب الرسول ﷺ ومن على شاكلتهم من التابعين والسلف الصالحين ، ينشطون في قيام الليل ويحرصون عليه اقتداء بمثلهم الأعلى ، صلوات الله وسلامه عليه الذى أمرهم تعالى جميعاً بالاقتداء به فقال : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾(١) :

فقد روى أنه كان على عهد النبى ﷺ رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم ، وهدأت العيون ، قام يصلى ويقرأ القرآن ويقول : يا رب أجرنى منها ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال: «إذا كان ذلك فآذنوني(٢) ، فآتاه فاستمع فلما أصبح ، قال : يا فلان .. هلا سألت الله الجنة ؟ قال : يا رسول الله .. إنى لست هاك ، ولا يبلغ عملى ذلك ، فلم يلبث إلا يسيراً حى نزل جبريل عليه السلام ، قال : « أخبر فلاناً أن الله قد أجاره من النار وأدخله الجنة » .

ويروى أن جبريل عليه السلام ، قال للنبى ﷺ : « نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلى بالليل ، فأخبره النبى ﷺ بذلك ، فكان يداوم بعده على قيام الليل » قال نافع : كان يصلى بالليل ، ثم يقول : يا نافع أسحرنا(٣) فأقول : لا . فيقوم لصلاته ، ثم يقول : يا نافع اسحرنا ، فأقول : نعم ، فيقعد ، فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر(٤) .

وروى أن عمر رضى الله عنه ، كان يمر بالآية من ورده بالليل ، فيسقط حتى يعاد منها أياماً كثيرة كما يعاد المريض .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه : إذا هدات العيون قام فيسمع له دوى كدوى النحل حتى يصبح .

وكان طاووس رحمه الله إذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة

---

(١) الأحزاب : ٢١ . (٢) أى أخبروني .

(٣) أسحرنا : أى صرنا في وقت السحر .

(٤) قال في هامش الإحياء : الحديث متفق عليه .. وليس فيه ذكر لجبريل .

على المقلاة، ثم يثب ويصلي إلى الصباح، ثم يقول: طير ذكر جهنم نوم العابدين.

وقال الحسن رحمه الله : ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل ، ونفقة هذا المال ، فقيل له : ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً ؟ قال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره .

وقدم أحد الصالحين من سفره فمهد له فراش ، فنام عليه حتى فاته ورده ، فحلف ألا ينام بعدها على فراش أبداً .

وكان عبد العزيز بن أبي داوود : إذا جن الليل يأتي فراشه فيمر يده عليه ، ويقول : إنك للين ، ووالله إن في الجنة لألين منك ، ولا يزال يصلى الليل كله .

وقال الفضيل : إنى لأستقبل الليل من أوله فيهولنى طوله فأفتتح القرآن فأصبح وما قضيت نهمتي .

وقال الحسن : إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل .

وقال الفضيل : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار ، فاعلم أنك محروم ، وقد كثرت خطيئتك .

وكان صلة بن أشيم رحمه الله : يصلى الليل كله ، فإذا كان في السحر ، قال : إلهي ليس مثلي يطلب الجنة ، ولكن أجرني برحمتك من النار .

وقال رجل لبعض الحكماء : إنى لأضعف عن قيام الليل ، فقال له : يا أخى لا تعص الله بالنهار ولا تقم بالليل .

وكان للحسن بن صالح جارية فباعها من قوم ، فلما كان في جوف الليل قامت الجارية ، فقالت : يا أهل الدار الصلاة الصلاة . فقالوا : أصبحنا ؟ أطلع الفجر ؟ فقالت : وما تصلون إلا المكتوبة ؟ قالوا : نعم . فرجعت إلى للحسن، فقالت: يا مولاى بعتنى من قوم لا يصلون إلا المكتوبة، ردنى، فردها.

وقال الربيع : بت في منزل الشافعى رضى الله عنه ليالى كثيرة ، فلم يكن ينام من الليل إلا يسيرا .

وقال أبو الجويرية : لقد صحبت أبا حنيفة رضى الله عنه ستة أشهر ، فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض ، وكان أبو حنيفة يحيى نصف الليل ، فمر بقوم ، فقالوا : إن هذا يحيى الليل كله ، فقال : إنى أستحى أن أوصف بما لا أفعل ، فكان بعد ذلك يحى الليل كله ، ويروى أنه ما كان له فراش بالليل .

ويقال : إن مالك بن دينار رضى الله عنه : بات يردد هذه الآية حتى أصبح : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾[1] الآية .

وقال المغيرة بن حبيب : رمقت مالك بن دينار فتوضأ بعد العشاء ، ثم قام إلى مصلاه فقبض على لحيته فخنقته العبرة ، فجعل يقول : اللهم حرم شيبة مالك على النار ، إلهى قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ، فأى الرجلين مالك ؟ وأى الدارين دار مالك ؟ فلم يزل ذلك قوله حتى طلع الفجر .

وقال مالك بن دينار : سهوت ليلة عن وردى ونمت ، فإذا أنا في المنام بجارية كأحسن ما يكون وفي يدها رقعة ، فقالت لى : أتحسن تقرأ ؟ فقلت : نعم ، فدفعت إلى الرقعة فإذا فيها :

أألهتك اللذائذ والأماني ... عن البيض الأوانس في الجنان

تعيش مخلداً لا موت فيها ... وتلهو في الجنان مع الحسان

تنبه من منامك إن خيراً ... من النوم التهجد بالقرآن

ويروى عن أزهر بن مغيث وكان من القوامين ، أنه قال : رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء أهل الدنيا ، فقلت لها : من أنت ؟ قالت : حوراء . فقلت : زوجينى نفسك ، فقالت : أخطبنى إلى سيدى وأمهرنى ، فقلت : وما مهرك ؟ قالت : طول التهجد .

وقال يوسف بن مهران : بلغنى أن تحت العرش ملكاً في صورة ديك براثنه من لؤلؤ ، وصئصئه من زبرجد أخضر ، فإذا ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه وزقى وقال : ليقم القائمون ، فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحيه وزقى وقال : ليقم المتهجدون ، فإذا مضى ثلثا الليل ضرب بجناحيه وزقى ، وقال : ليقم المصلون ، فإذا طلع الفجر ضرب بجناحيه وقال : ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم .

---

(١) الجاثية : ٢١ .

وروى في بعض الكتب القديمة عن الله تعالى ، أنه قال : إن عبدى الذى هو عبدى حقاً الذى لا ينتظر بقيامه صياح الديكة .

فإذا كنت أخا الإسلام ـ بعد أن وقفت على كل هذه الآثار والأقوال ـ : ستعمل من جانبك على أن تكون متشبهاً بهؤلاء الرجال ، حتى تكون من أهل الفلاح ، كما يشير إلى هذا الشاعر في قوله :

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالرجال فلاح

* * *

إذا كنت ستفعل هذا إن شاء الله فإننى أرى أن أزودك بعد ذلك بكلام هام ، لا بد أن تقف عليه حتى يتيسر لك هذا بعون الله تعالى وتوفيقه .. وهو ما ذكره الإمام الغزالى رحمه الله تعالى في كتابه الإحياء(١) ، تحت عنوان :

بيان الأسباب التى بها يتيسر قيام الليل

فيقول رحمه الله ورضى عنه وأرضاه :

اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهراً وباطناً .

فأما الظاهرة: فأربعة أمور .

الأول : ألا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام ، كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول : معاشر المريدين لا تأكلوا كثيراً ، فتشربوا كثيراً ، فترقدوا كثيراً ، فتتحسروا عند الموت كثيراً ، وهذا هو الأصل الكبير وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام .

الثانى : ألا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التى تعيا بها الجوارح ، وتضعف بها الأعصاب ، فإن ذلك أيضاً مجلبة للنوم .

الثالث : ألا يترك القيلولة بالنهار فإنها سنة، للاستعانة على قيام الليل.

الرابع : ألا يحتقب الأوزار بالنهار ، فإن ذلك مما يقسى القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة :

---

(١) باختصار وتصرف .

قال رجل للحسن : يا أبا سعيد .. إنى أبيت معافى ، وأحب قيام الليل ، وأعد طهورى ، فما بالى لا أقوم ؟ فقال : ذنوبك قيدتك .

وكان الحسن رحمه الله : إذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم ، يقول : أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء فإنهم لا يقيلون .

وقال الثورى : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته ، قيل : وما ذاك الذنب ؟ قال : رأيت رجلاً يبكى ، فقلت في نفسى : هذا مراء .

وقال بعضهم : دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكى :، فقلت : أتاك نعى بعض أهلك ، فقال : أشد . فقلت : وجع يؤلمك ؟ قال : أشد . قلت : فما ذاك ؟ قال : بابى مغلق ، وسترى مسبل ، ولم أقرأ حزبى البارحة ، وما ذاك إلا بذنب أحدثته ، وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير ، والشر يدعو إلى الشر ، والقليل من كل واحد منهما : يجر إلى الكثير .

ولذلك قال أبو سليمان الدارانى : لا تفوت أحداً صلاة الجماعة إلا بذنب ، وكان يقول : الاحتلام بالليل عقوبة ، والجنابة بعد .

وقال بعض العلماء : إذا صمت يا مسكين ، فانظر عند من تفطر ، وعلى أى شىء تفطر ، فإن العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ، ولا يعود إلى حالته الأولى ، فالذنوب كلها تورث قساوة القلب ، وتمنع من قيام الليل ، وأخصها بالتأثير : تناول الحرام ، وتؤثر اللقمة الحلال في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يؤثر غيرها ، ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له .

ولذلك قال بعضهم : كم من أكلة منعت قيام ليلة ، وكم من نظرة منعت قراءة سورة ، وإن العبد ليأكل أكلة ، أو يفعل فعلة ، فيحرم بها قيام سنة ، وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات .

وقال بعض السجانين : كنت سجاناً نيفاً وثلاثين سنة ، أسأل كل مأخوذ بالليل ، أنه هل صلى العشاء في جماعة ، فكانوا يقولون : لا ، وهذا تنبيه على أن بركة الجماعة تنهى عن تعاطى الفحشاء والمنكر .

وأما الميسرات الباطنة فأربعة أمور :

الأول : سلامة القلب عن الحقد على المسلمين ، وعن البدع ، وعن فضول هموم الدنيا ، فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام ، وإن قام فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته، ولا يجول إلا في وساوسه، وفي مثل ذلك يقال:

يخبرني البـــواب أنك نائم وأنت إذا استيقظت أيضاً فنائم

الثانى : خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل ، فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة ، ودركات جهنم طار نومه ، وعظم حذره ، كما قال طاووس : إن ذكر جهنم طير نوم العابدين .

وكما حكى : أن غلاماً بالبصرة اسمه صهيب كان يقوم الليل كله ، فقالت له سيدته: إن قيامك بالليل يضر بعملك بالنهار ، فقال : إن صهيباً إذا ذكر النار لا يأتيه النوم .

وقيل لغلام آخر وهو يقوم كل الليل ، فقال : إذا ذكرت النار اشتد خوفى ، وإذا ذكرت الجنة اشتد شوقى ، فلا أقدر أن أنام .

وقال ذو النون المصرى رحمه الله :

منع القرآن بوعده ووعيـده مقل العيون بليلها أن تهجعا
فهموا عن الملك الجليل كلامه فرقابهـم ذلت إليه تخضعا

وأنشدوا أيضاً :

يا طويل الرقـاد والغفـلات كثرة النوم تورث الحسرات
إن في القبر إن نزلت به لرقـاداً يطـول بعـد الممـات
ومهـاداً ممهـــداً لك فيـــه بذنـوب عمـلت أو حسنـات
أأمنت البيات من ملك المو ت ، وكم نال آمناً ببيات

وقال ابن المبارك رحمه الله :

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفـر عنهم وهـم ركـوع
أطار الخوف نومهم فقامـوا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

الثالث : أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار ، حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه فيهجعه الشوق لطلب المزيد والرغبة في درجات الجنان ، كما حكى أن بعض الصالحين رجع من غزوته ، فمهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره ، فدخل المسجد ولم يزل يصلى حتى أصبح ، فقالت له زوجته : كنا ننتظرك مدة ، فلما قدمت صليت إلى الصبح .. قال : والله إنى كنت أتفكر في حوراء من حور الجنة طول الليل فنسيت الزوجة

والمنزل فقمت طول ليلتى شوقاً إليها .

الرابع : وهو أشرف البواعث : الحب لله وقوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج ربه ، وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه ، وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه ، فإذا أحب الله تعالى أحب لا محالة الخلوة به ، وتلذذ بالمناجاة ، فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام .

ولا ينبغى أن تستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والنقل .

فأما العقل : فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله ، أو لملك بسبب إنعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ به في الخلوة ومناجاته ، حتى لا يأتيه النوم طول ليله .

فإن قلت : إن الجميل يتلذذ بالنظر إليه وإن الله تعالى لا يرى[1] :

فاعلم أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر ، أو كان في بيت مظلم ، لكان المحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطمع في أمر آخر سواه ، وكان يتنعم بإظهار حبه عليه وذكره بلسانه بمسمع منه ، وإن كان ذلك أيضاً معلوماً عنده .

فإن قلت : أنه ينتظر جوابه ، ليتلذذ بسماع جوابه ، وليس يسمع كلام الله تعالى .

فاعلم أنه كان يعلم أنه لا يجيبه ويسكت عنه ، فقد بقيت له أيضاً لذة فى عرض أحواله عليه ، ورفع سريرته إليه ، كيف والموقن يسمع من الله تعالى كل ما يرد على خاطره في أثناء مناجاته ، فيتلذذ به ، وكذا الذى يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته في جنح الليل يتلذذ به في رجاء إنعامه ، والرجاء في حق الله تعالى أصدق ، وما عند الله خير وأبقى وأنفع مما عند غيره . فكيف لا يتلذذ بعرض الحاجات عليه في الخلوات .

وأما النقل : فيشهد له أحوال قوام الليل في تلذذهم بقيام الليل ، واستقصارهم له ، كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب ، حتى قيل لبعضهم : كيف أنت والليل ؟ قال ما راعيته قط ، يريني وجهه ثم ينصرف ، وما تأملته بعد .

وقال آخر : أنا والليل فرسا رهان ، مرة يسبقنى إلى الفجر ، ومرة يقطعنى عن الفكر .

---

(١) بضم الراء.. فالله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ (الأنعام : ١٠٣) .

وقيل لبعضهم : كيف الليل عليك ؟ فقال : ساعة ، أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته إذا جاء ، وأغتم بفجره إذا طلع ، ما تم فرحى به قط .

وقال على بن بكار : منذ أربعين سنة ما أحزننى شيء سوى طلوع الفجر .

وقال الفضيل بن عياض : إذا غربت الشمس فرحت بالظلام ، لخلوتى بربي ، وإذا طلعت حزنت لدخول الناس على .

وقال أبو سليمان : أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم ، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا .

وقال أيضاً : لو عوض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدون من اللذة لكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم .

وقال بعض العلماء : ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة .

وقال بعضهم : لذة المناجاة ليست من الدنيا ، إنما هى من الجنة ، أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم .

وقال ابن المنكدر : ما بقى من لذات الدنيا إلا ثلاث : قيام الليل ، ولقاء الإخوان ، والصلاة في الجماعة .

وقال بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنواراً ، فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم العوافى إلى قلوب الغافلين .

وقال بعض العلماء من القدماء : إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين : أن لى عباداً من عبادى أحبهم ويحبوننى ، ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ، ويذكروننى وأذكرهم ، وينظرون إلى وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك . قال : يا رب .. وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار ، كما يراعى الراعى غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها ، فإذا جن الليل ، واختلط الظلام ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، نصبوا إلى أقدامهم ، وافترشوا إلى وجوههم ، وناجونى بكلامى ، وتملقوا إلى بإنعامى ، فبين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاكٍ ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشتكون من حبى ..

أول ماأعطيهم : أقذف من نوري في قلوبهم ، فيخبرون عنى ، كما أخبر عنهم

والثانية : لو كانت السموات والسبع والأرضون السبع وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم .

والثالثة : أقبل بوجهى عليهم ، أفترى من أقبلت بوجهى عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ ..

وقال مالك بن دينار رحمه الله : إذا قام العبد يتهجد من الليل قرب منه الجبار عز وجل ، وكانوا يرون ما يجدون من الرقة والحلاوة في قلوبهم والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب .

وفي الأخبار عن الله عز وجل : أى عبدي ، أنا الله الذي اقتربت من قلبك ، وبالغيب رأيت نورى .

وشكا بعض المريدين إلى أستاذه طول سهر الليل ، وطلب حيلة يجلب بها النوم ، فقال أستاذه : يا بنى .. إن لله نفحات في الليل والنهار ، تصيب القلوب المتيقظة ، وتخطىء القلوب النائمة ، فتعرض لتلك النفحات ، فقال : يا سيدى تركتنى لا أنام بالليل ولا بالنهار .

واعلم أن هذه النفحات بالليل أرجى لما في قيام الليل من صفاء القلب واندفاع الشواغل ، وفي الخبر الصحيح .

عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه إياه » .

وفي رواية أخرى : « يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه » وذلك كله ليلة ، ومطلوب القائمين تلك الساعة، وهى مبهمة في جملة الليل كليلة القدر في شهر رمضان ، وكساعة يوم الجمعة ، وهى ساعة النفحات المذكورة ، والله أعلم .

وإتماماً للفائدة ، فإننى أرى أن أسوق إليك كذلك ما قاله في الإحياء بعد ذلك ، تحت عنوان :

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل

حيث يقول رحمه الله تعالى :

اعلم أن إحياء الليل من حيث المقدار له سبع مراتب :

الأولى : إحياء كل الليل : وهذا شأن الأقوياء الذين تجردوا لعبادة الله تعالى ، وتلذذوا بمناجاته ، وصار ذلك غذاء لهم وحياة لقلوبهم ، فلم يتعبوا بطول القيام ، وردوا المنام إلى النهار في وقت اشتغال الناس ، وقد كان ذلك

طريق جماعة من السلف كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء ، حكى أبو طالب المكي : أن ذلك حكى على سبيل التواتر والاشتهار عن أربعين من التابعين وكان فيهم من واظب عليه أربعين سنة ، قال : منهم سعيد بن المسيب ، وصفوان بن سليم المدنيان ، وفضيل بن عياض ، ووهيب بن الورد الميكان ، وطاووس ، ووهب بن منبه اليمانيان ، والربيع بن خيثم ، والحكم الكوفيان ، وأبو سليمان الداراني ، وعلى بن بكار الشاميان ، وأبو عبد الله الخواص وأبو عاصم العباديان ، وحبيب أبو محمد ، وأبو جابر السلماني الفارسيان ، ومالك بن دينار ، وسليمان التيمي ، ويزيد الرقاشي ، وحبيب بن أبي ثابت ، ويحيى البكاء ، البصريون ، وكهمس بن المنهال ، وكان يختم في الشهر تسعين ختمة ، وما لم يفهمه رجع وقرأه مرة أخرى ، وأيضاً من أهل المدينة أبو حازم ، ومحمد بن المنكدر في جماعة يكثر عددهم .

المرتبة الثانية : أن يقوم نصف الليل ، وهذا لا ينحصر عدد المواظبين عليه من السلف ، وأحسن طريق فيه أن ينام الثلث الأول من الليل ، والسدس الأخير منه ، حتى يقع قيامه في جوف الليل ووسطه فهو الأفضل .

المرتبة الثالثة : أن يقوم ثلث الليل ، فينبغي أن ينام النصف الأول والسدس الأخير ، وبالجملة نوم آخر الليل محبوب ، لأنه يذهب النعاس بالغداة ، وكانوا يكرهون ذلك ، ويقلل صفرة الوجه ، والشهرة به ، فلو قام أكثر الليل ، ونام سحراً قلت صفرة وجهه ، وقل نعاسه ، وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله ﷺ إذا أوتر من آخر الليل ، فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن ، وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال ، فيؤذنه للصلاة ، وقالت أيضاً رضى الله عنها : ما ألفيته بعد السحر إلا نائماً ، حتى قال بعض السلف : هذه الضجعة قبل الصبح سنة ، منهم أبو هريرة رضى الله عنه ، وكان نوم هذا الوقت سبباً للمكاشفة والمشاهدة من وراء حجب الغيب ، وذلك لأرباب القلوب وفيه استراحة تعين على الورد الأول من أوراد النهار ، وقيام ثلث الليل من النصف الأخير ، ونوم السدس الأخير قيام داوود ﷺ .

المرتبة الرابعة : أن يقوم سدس الليل أو خمسه ، وأفضله أن يكون في النصف الأخير وقبل السدس الأخير منه .

المرتبة الخامسة : ألا يراعى التقدير ، فإن ذلك إنما يتيسر لنبي يوحى إليه أو لمن يعرف منازل القمر ويوكل به من يراقبه ، ويواظبه ، ويوقظه ، ثم ربما

يضطرب في ليالى الغيم ، ولكنه يقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم ، فإذا انتبه قام، فإذا غلبه النوم عاد إلى النوم فيكون له في الليل نومتان ، وقومتان وهو من مكابدة الليل ، وأشد الأعمال وأفضلها وقد كان هذا من أخلاق رسول الله ﷺ ، وهو طريقة ابن عمر ، وأولى العزم من الصحابة ، وجماعة التابعين رضى الله عنهم ، وكان بعض السلف يقول : هى أول نومة ، فإذا انتبهت ثم عدت إلى النوم فلا أنام الله لى عيناً ، فأما قيام رسول الله ﷺ من حيث المقدار ، فلم يكن على ترتيب واحد بل ربما كان يقوم نصف الليل ، أو ثلثيه ، أو ثلثه ، أو سدسه ، يختلف ذلك في الليالي ، ودل عليه قوله تعالى في الموضعين من سورة المزمل : ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه** ﴾[1]. فأدنى من ثلثى الليل كأنه نصفه ، ونصف سدسه ، فإن كسر قوله : ونصفه وثلثه كان نصف الثلثين وثلثه فيقرب من الثلث والربع ، وإن نصب كان نصف الليل ، وقالت عائشة رضى الله عنها : كان ﷺ يقوم إذا سمع الصارخ يعنى الديك ، وهذا يكون السدس فما دونه ، وروى غير واحد ، أنه قال : راعيت صلاة رسول الله ﷺ في السفر ليلاً ، فنام بعد العشاء زماناً ، ثم استيقظ فنظر في الأفق ، فقال : ﴿ .. **ربنا ما خلقت هذا باطلاً** .. ﴾ حتى بلغ : ﴿ **إنك لا تخلف الميعاد** ﴾[2] ثم استل من فراشه سواكاً فاستاك به ، وتوضأ وصلى ، حتى قلت : صلى مثل الذى نام ، ثم اضطجع حتى قلت : نام مثل ما صلى ، ثم استيقظ فقال ما قال أول مرة وفعل ما فعل أول مرة .

المرتبة السادسة : وهى الأقل أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين ، أو تتعذر عليه الطهارة ، فيجلس مستقبل القبلة ساعة مشتغلاً بالذكر والدعاء ، فيكتب في جملة قوام الليل برحمة الله وفضله ، وقد جاء في الأثر : « صل من الليل ولو قدر حلب شاة » . فهذه طرق القسمة فليختر المريد لنفسه ما يراه أيسر عليه وحيث يتعذر عليه القيام في وسط الليل فلا ينبغى أن يهمل إحياء ما بين العشاءين ، والورد الذى بعد العشاء ، ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر فلا يدركه الصبح نائماً ، ويقوم بطرفي الليل وهذه هى الرتبة السابعة ، ومهما كان النظر إلى المقدار ، فترتيب هذه المراتب بحسب طول الوقت وقصره ، وأما في الرتبة الخامسة والسابعة لم ينظر فيهما إلى القدر فليس

(١) المزمل : ٢٠ .
(٢) آل عمران : ١٩١ ــ ١٩٤ .

يجرى أمرهما في التقدم والتأخر على الترتيب المذكور إذ السابعة ليست دون ما ذكرناه في السادسة ولا الخامسة دون الرابعة

ثم يقول الإمام الغزالى رحمه الله تعالى ، تحت عنوان :

بيان الليالى والأيام الفاضلة

اعلم أن الليالي المخصوصة بمزيد الفضل التى يتأكد فيها استحباب الإحياء في السنة خمس عشرة ليلة ، لا ينبغى أن يغفل المريد عنها ، فإنها مواسم الخيرات ، ومظان التجارات ، ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح . ومتى غفل المريد عن فضائل الأوقات لم ينجح ، فستٌ من هذه الليالي في شهر رمضان ، خمس في أوتار العشر الأخير ، إذ فيها تطلب ليلة القدر ، وليلة سبع عشرة من رمضان ، فهى ليلة صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، فيه كانت وقعة بدر ، وقال ابن الزبير رحمه الله : هى ليلة القدر ، وأما التسع الأخر : فأول ليلة من المحرم ، وليلة عاشوراء ، وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف منه ، وليلة سبع وعشرين منه ، وهى ليلة المعراج ، وفيها صلاة مأثورة ، فقد قال ﷺ : « للعامل في هذه الليلة حسنات مائة سنة ، فمن صلى في هذه الليلة اثنتى عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن ويتشهد في كل ركعتين ويسلم في آخرهن ، ثم يقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر مائة مرة ، ثم يستغفر الله مائة مرة ، ويصلى على النبى ﷺ مائة مرة ، ويدعو لنفسه بما شاء من أمر دنياه وآخرته ، ويصبح صائماً ، فإن الله يستجيب دعاءه كله إلا أن يدعو في معصية »[1] ، وليلة النصف من شعبان ، ففيها مائة ركعة ، يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص عشر مرات ، كانوا لا يتركونها كما أوردناه في صلاة التطوع ، وليلة عرفة ، وليلتا العيدين ، قال ﷺ : « من أحيا ليلتى العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب »[2]

وأما الأيام الفاضلة : فتسعة عشر ، يستحب مواصلة الأوراد فيها : يوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، ويوم سبعة وعشرين من رجب له شرف عظيم ، وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ ، قال : « من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهراً »[3] ، وهو اليوم الذي أهبط الله فيه

(١) جاء في هامش الإحياء أنه ضعيف جداً بل هو منكر . وهذا للعلم ..

(٢ ، ٣) الحديثان ضعيفان .. ولا مانع أن يعمل بهما في فضائل الأعمال إن وافقا سنة الرسول ﷺ وإلا فلا .. والله أعلم .

جبريل عليه السلام على محمد ﷺ بالرسالة ، ويوم سبعة عشر من رمضان ، وهو يوم وقعة بدر ، ويوم النصف من شعبان ، ويوم الجمعة ، ويوما العيدين ، والأيام المعلومات ، وهى عشر من ذى الحجة ، والأيام المعدودات ، وهى أيام التشريق .

وقد روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام ، وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة »[1] ، وقال بعض العلماء : من أخذ مهناة فى الأيام الخمسة في الدنيا لم ينل مهناة في الآخرة ، وأراد به العيدين ، والجمعة ، وعرفة ، وعاشوراء .

ومن فواضل الأيام في الأسبوع : يوما الخميس ، والإثنين ، ترفع فيهما الأعمال إلى الله تعالى ، ... والله أعلم ، وصلى الله على كل عبد مصطفى من كل العالمين .

فلا تنس كل هذا أخا الإسلام وكن منفذاً له ، حتى تكون من أولى الفضل الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ .. **فلاتعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[2] .

وحسبك أن تعلم في النهاية **أنك بقيامك الليل على هذا الأساس الذي** وقفت عليه : سيكون **قيامك هذا** :

قربة لك إلى ربك : أى سبباً لقربك من **الله عز وجل لما فيه من هجر لذة** النوم.

وسيكون مكفرة لسيئاتك : أى مزيلاً لها ، وسيكون منهاة لك عن الإثم ، أي زجراً لك عن ارتكاب المعاصى .

وفي رواية للطبرانى فى الكبير :

سيكون مطردة للداء عن الجسد : أى أن الله تعالى سيزيل به عنك ما ألم بك من أدواء وأسقام .

هذا .. وبالله التوفيق .:.

---

(١) هذا الحديث كذلك ضعيف .

(٢) السجدة : ١٧ .

الوصية الرابعة والخمسون

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضى الله عنها :

مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ : يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ [1] بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ [2] ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ [3].

رواه النسائى والبزار بإسناد صحيح ، والحاكم ، وقال صحيح على شرطهما .

---

(١) يَاحي يَاقيوم : مضمون اقتران هذين الاسمين الكريمين ، هو أن الحى : متضمن لسائر الكمالات الذاتية ، وَالقيوم : متضمن لسائر الكمالات فى الفعل ، فمن ذكرهمَا معًا فكأنما ذكرَ الله عزوجَل بكل صفات كمَاله ولهذا كان أكثر دعَائِهِ عليه الصَّلاة والسَّلام بهمَا .

(٢) برَحمتك استغيث : الاستغاثة برحمته سبحانه ليست استغاثة بمخلوق بل بصفة له غير مخلوقة .

(٣) ولاتكلنى إلى نفسى طرفة عين : هذا المعنى إجمَالاً ، هو غاية التفويض لله عزوَجَل . لأن الداعى به يطلب منه سبحانه وتعالى أن يتولى جميع أمره ، وأن لايَكِلَهُ لحظةً إلى نفسه .

فكن أخا الإسلام :

مستمعاً معى — بروحك وبكل مشاعرك — إلى هذه الوصية العظيمة التى أوصى بها الحبيب المصطفى ﷺ ابنته الزهراء رضى الله عنها .. وهى التى كان النبى ﷺ يحبها حباً شديداً .. وكان يقول : « إن فاطمة قطعة منى .. فمن أغضبها أغضبنى » ، وهي كذلك سيدة نساء أهل الجنة :

فعن حذيفة ، قال : قلت لأمي : « دعيني آتي النبي ﷺ فأصلي معه المغرب وأسأله أن يستغفر لى ولك ، فأتيت النبى ﷺ فصليت معه المغرب ، فصلى حتى صلى العشاء ثم انفتل فتبعته ، فسمع صوتى ، فقال : من هذا ؟ حذيفة ؟ .. قلت : نعم . قال : ما حاجتك ، غفر الله لك ولأمك ، .. إن هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة ، استأذن ربه أن يسلم على ويبشرنى بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » رواه الترمذى وقال : حسن غريب .

وكان النبى ﷺ يحب الحسن والحسين — حفيديه منها — حباً جماً :

فعن أسامة بن زيد رضى الله عنه ، قال : « طرقت النبى ﷺ ذات ليلة فى بعض الحاجة . فخرج النبى ﷺ وهو مشتمل على شىء لا أدرى ما هو ، فلما فرغت من حاجتى ، قلت : ما هذا الذى أنت مشتمل عليه ؟.. فكشفه ، فإذا الحسن والحسين على وركيه ، فقال : « هذان ابناى ، وابنا ابنتى اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما » رواه البخاري .

وعن أنس قال : « سئل رسول الله ﷺ : أى أهل بيتك أحب إليك ؟ قال : الحسن والحسين ، وكان يقول لفاطمة : ادعى لى ابنىَّ ، فيشمهما ويضمهما إليه » رواه الترمذى .

ولقد أخذ الإمام الشافعى — رضى الله عنه — بوجوب الصلاة على النبى ﷺ ، وعلى آله ، ولذلك قال في هذا المعنى مشيراً إلى وصفهم ، ومنبهاً على ما خصهم الله تعالى به من رعاية فضلهم ، ووجوب محبتهم ، وتحريم بغضهم الغليظ ، بقوله :

يا أهل بيت رسول الله حبكمو فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكمو من عظيم الأجر أنكمو من لم يصل عليكم لا صلاة له

* * *

فلاحظ أخا الإسلام هذا .. مع ملاحظة أن حب أهل بيت الرسول ﷺ

لا بد أن يكون صادقاً ، بمعنى أنه لا بد أن يكون متخلقاً بأخلاقهم ومتأدباً بآدابهم ، واقتداء بحبيبهم وحبيبنا صلوات الله وسلامه عليه ، وذلك حتى نحشر معهم ومعه صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً** ﴾(١) .

ولله در القائل :

إنا وإن كرمت أوائلنا لسنا على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

* * *

ثم كن معى كذلك أخا الإسلام : منفذاً لهذه الوصية العظيمة التى هى كما عرفت : من أدعية الصباح والمساء ، والتى جاء في تفسير مضمونها ، أن :

اقتران هذين الإسمين الكريمين ، وهما : يا حى يا قيوم ، معناه : هو أن الحى : متضمن لسائر الكمالات الذاتية ، والقيوم : متضمن لسائر الكمالات في الفعل .. فمن ذكرهما فكأنما ذكر الله عز وجل بكل صفات كماله ، ولهذا كان أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام بهما .

وقد قال ابن كثير في معنى : « الحى القيوم » : « أى الحى في نفسه الذى لا يموت أبداً ، القيوم لغيره ، وكان عمر يقرأ « القيام » ، فجميع الموجودات مفتقرة إليه ـــ سبحانه ـــ وهو غنى عنها ولا قوام لها بدون أمره » .

والحياة : صفة قديمة قائمة بالذات العلية تصحح لموصوفها الاتصاف بالعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر ، وما إلى ذلك من الصفات اللائقة به تعالى ، وحياته سبحانه ، ليست بروح ، ودليلها قوله تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾(٢) .

ومن أجمل ما قرأت حول تفسير هذا الجزء من آية الكرسي في القرطبي ، ما نصه :

« الحى القيوم » : نعت لله عز وجل ، وإن شئت كان بدلاً من « هو »

---

(١) النساء : ٦٩ .   (٢) البقرة : ٢٥٥ .

وإن شئت كان خبراً بعد خبر ، وإن شئت على إضمار مبتدأ . ويجوز في غير القرآن النصب على المدح . و « الحى » اسم من أسمائه الحسنى يسمى به ، ويقال : إنه اسم الله تعالى الأعظم . ويقال : إن عيسى ابن مريم عليه السلام كان إذا أراد أن يحيى الموتى يدعو بهذا الدعاء : « يا حى يا قيوم » .

ويقال : إن آصف بن برخيا(١) لما أراد أن يأتي بعرش بلقيس إلى سليمان دعا بقوله : « يا حى يا قيوم » .

ويقال : إن بنى إسرائيل سألوا موسى عن اسم الله الأعظم ، فقال لهم : أيا هيا شراهيا ، يعنى : « يا حى يا قيوم » .

ويقال : هو دعاء أهل البحر إذا خافوا الغرق يدعون به . قال الطبري عن قوم : إنه يقال حى قيوم كما وصف نفسه ، ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه .

وقيل: سمى نفسه حياً لصرفه الأمور مصاريفها وتقديره الأشياء مقاديرها .

وقال قتادة : الحى الذى لا يموت .

وقال السدى : المراد الحى الباقي .

وقال لبيد :

فأما ترينى اليوم أصبحت سالما　　فلست بأحيا من كلاب وجعفر

وقد قيل : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم . « القيوم » من قام ، أى القائم بتدبير ما خلق ، عن قتادة . وقال الحسن : معناه القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها بعملها ، من حيث هو عالم بما لا يخفى عليه شيء منها ، وقال ابن عباس : معناه الذي لا يحول ولا يزول ، قال أمية بن أبي الصلت :

لم تخلق السماء والنجوم　　والشمس معها قمر يقوم
قدره مهيمن قيوم　　والحشر والجنة والنعيم
إلا لأمر شأنه عظيم

قال البيهقي : ورأيت في « عيون التفسير » لإسماعيل الضرير في تفسير « القيوم » ، قال : ويقال : هو الذي لا ينام ، وكأنه أخذه من قوله عز وجل عقيبه في آية الكرسى : ﴿ **لا تأخذه سنة ولا نوم** ﴾ .

---

(١) وهو الذي عنده علم من الكتاب .

وقال الكلبي : القيوم الذي لا بدىء له[1] ، ذكره أبو بكر الأنبارى .. إلخ[2] .

* * *

قال الإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري ، في « شرح أسماء الله الحسنى »[3] :

وإذا علم العبد أنه سبحانه حي وعلم أنه تعالى : حى لا يموت ، وقديم لا يجوز عليه العدم ، صح توكله عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وتوكل على الحى الذي لا يموت** ﴾[4] ، أى : من اعتمد على مخلوق ، واتكل عليه ليوم حاجته اختل حاله وقت حاجته إليه فيضيع رجاؤه وأمله يديه :

وقيل : إن رجلاً كتب إلى آخر : إن صديقي فلاناً قد مات ، فمن كثرة ما بكيت عليه ذهب بصرى ، فكتب إليه : الذنب لك حيث أحببت الذي يموت ، هلا أحببت الحي الذي لا يموت حتى لم تحتج إلى البكاء عليه ؟ فمن علم أنه سبحانه حى أبداً علم أن نفسه لا بد من فنائها وهلاكها وإن طالت مدة بقائها وملكها .

وحكى أن المأمون لما قربت وفاته فرش الرماد ، وكان يتمرغ عليه ويقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه .

ثم يقول الإمام القشيري : بل من علم أنه الباقى ــ الذي ــ لا يزول : علم أنه سبحانه ــ فيه خلفاً من كل تلف .

بل من علم أنه لا يصل إلى مولاه إلا بعد موته اشتاق إلى وفاته .

قيل لبعضهم : إن الدنيا لا تساوي مع الموت شيئاً ، فقال : بل الدنيا لو لم يكن الموت ما كانت تساوي شيئاً .

* * *

(١) في الأصول : « لا بديل له » والتصويب عن اللسان .
(٢) ارجع إلى القرطبي ج ٨ طبعة دار الشعب ص ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ .
(٣) طبعة مجمع البحوث الإسلامية ، الكتاب الثالث والعشرون صفحة ٣٣٦ .
(٤) الفرقان : ٥٨ .

ومن أجمل ما قرأت كذلك في هذا ، ما كتبه فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى ، بارك الله فيه ، في كتابه « الإيمان والمؤمنون » تحت عنوان :

إحياء الأموات بالإيمان

ما نصه الذي أرجو أن نتعظ به :

شعر ولي الله وحجة الإسلام الإمام الغزالي ـــ رحمه الله ـــ بدنو أجله وقرب لقائه وذلك بنور قذفه الله في قلبه ، فاغتسل وطلب ثوباً جديداً لبسه ثم تطيب بالمسك وصلى ركعتين وقال لأصحابه : إني أريد الدخول على الملك ، ثم دخل حجرته وانتظر بها طويلاً ، فلما أبطأ عليهم دخلوا عليه فوجدوه مضطجعاً على جنبه الأيمن مستقبل القبلة وقد فارق الحياة وعند رأسه هذه الوصية :

قل لإخوان رأوني ميتا ... فبكوني ورثوني حزنا
أتظنون بأني ميتكم ... ليس ذاك الميت والله أنا
أنا في الصور وهذا جسدي ... كان بيتي وقميصي زمنا
أنا كنز وحجابي طلسم ... من تراب كان ضيقاً وعنا
أنا در قد حواه صدف ... لامتحاني فنفيت المحنا
أنا عصفور وهذا قفصى ... طرت عنه فبقى مرتهنا
أحمد الله الذى خلصنى ... وبنى لى في المعالى مسكنا
كنت قبل اليوم ميتاً بينكم ... فحييت وخلعت الكفنا
وأنا اليوم أناجي ملأ ... وأرى الله جهاراً .علنا
عاكف في اللوح أقرأ وأرى ... كل ما كان تناءى ودنا
وطعامى وشرابى واحد ... وهو رمز فافهموه حسنا
ليس خمراً سائغاً أو عسلا ... لا ولا ماء ولكن لبنا
فافهموا السر ففيه نبأ ... أى معنى تحت لفظى كمنا
فاهدموا بيتى ورضوا قفصى ... وذروا الطلسم يعلوه الفنا
قد ترحلت وخلفتكم ... لست أرضى داركم لى وطنا
لا تظنوا الموت موتاً إنه ... لحياة وهو غايات المنى
حى ذى الدار نؤوم مغرق ... فإذا مات أطار الوسنا
لا ترعكم هجمة الموت فما ... هو إلا انتقال من هنا
وخذوا الزاد جميعاً لا تنوا ... ليس بالعاقل منا من ونى
وأحسنوا الظن برب راحم ... شاكر للسعى وأتوا أمننا

ما أرى نفسي إلا أنتمو واعتقادي أنكم أنتم أنا
عنصر الأنفس منا واحد وكذا الجسم جميعاً عمنا
فارحموا وارحموا أنفسكم واعلموا أنكم في إثرنا
أسأل الله لنفسي رحمة رحم الله كريماً أمنا(١)

ثم يقول إمامنا المشتهري أكرمه الله وبارك فيه ، بعد ذلك معلقاً :

وهكذا المؤمن الصادق المخلص ، المستنير بنور الله ، يكون فناء جسمه ، غير مانع له من استمرار حياته ، التي ينفع فيها نفسه وغيره ، وتكون آخرته استمراراً لجهاد دنياه ، وتبقى آثاره حية باقية ناطقة بعلو شأنه ، ومظهراً لخلوده السرمدى : ﴿ **إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم** ﴾(٢) :

هذا في الوقت الذي يكون فيه الغافلون عن الله وهم أحياء في الدنيا بأجسادهم أمواتاً في واقع الأمر لا ينتفعون ولا ينفعون ، ألا فلتبق حياتنا خالدة بعد الموت ، بإقبالنا قبله على الله ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

* * *

ثم إذا كان لنا أن نقف على المعنى المراد من الاستغاثة برحمة الله تعالى ، كما يشير قوله ﷺ في نص الوصية : « .. برحمتك أستغيث » :

فإن الاستغاثة برحمته سبحانه وتعالى ليست استغاثة بمخلوق بل بصفة له غير مخلوقة .

أما الاستغاثة بالمخلوق(٣) وكذا الاستعانة به إن كان ذلك فيما يقدر عليه نحو الحيلولة بينه وبين عدوه ودفع الصائل عنه من لص أو سبع . وكأن يحمل معه متاعه أو يعلف دابته فلا ريب في جوازهما إذا كان ذلك مع اعتقاد ألا مغيث ولا معين على الإطلاق إلا الله تعالى . وإذا حصل شيء من ذلك على يد غيره فالحقيقة له سبحانه . أما ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى فلا يستغاث فيه إلا به كغفران الذنوب ، والهداية ، وإنزال المطر والرزق كما قال تعالى : ﴿ .. **ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾(٤) وقال : ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن**

---

(١) يريد أن يقول : رحم الله كريماً أمن على دعائي هذا .. فأنا أقول مؤمناً : آمين .. آمين .. آمين .
(٢) يس : ١٢ .
(٣) كما يقول الشيخ علي محفوظ رحمه الله في كتابه : « الإبداع في مضار الابتداع » صفحة ١٠١ .
(٤) آل عمران : ١٣٥ .

الله يهدي من يشاء ﴾[1].

والاستغاثة طلب الغوث ، وهو إزالة الشدة ، كالاستنصار ، وهو طلب النصرة ، فلا يكون إلا عند الشدائد بخلاف الاستعانة فإنها طلب المعونة في شدة أو غيرها . ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ .. **فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه** ﴾[2] .

وقوله : ﴿ **وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر** ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ .. **وتعاونوا على البر والتقوى** ﴾[4] .

* * *

وإذا كان موضوعنا هو الاستغاثة برحمته سبحانه وتعالى :

فإ الاستغاثة برحمته سبحانه وتعالى ، هي أعظم ما يستغاث به : لأن الله سبحانه وتعالى أرحم بعباده من الوالدة بولدها :

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : قدم رسول الله ، ﷺ ، فإذا امرأة من السبى تسعى ، إذ وجدت صبياً في السبى أخذته ، فألزقته ببطنها ، فأرضعته . فقال رسول الله ﷺ : « أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار » ؟ قلنا : لا والله . فقال : « لله أرحم بعباده من هذه بولدها » متفق عليه .

* * *

وإذا كنا نقرر هذا كحقيقة لا ريب فيها ، فإننا نحب أن نقرر كذلك أمراً آخر وأن نتفق عليه ، وهو : أن رحمة الله تعالى ليست إلا لمن كتبها الله تعالى لهم ، كما تشير الآية الكريمة التى قال الله تعالى فيها : ﴿ **واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك ، قال عذابي أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم**

---

(١) القصص : ٥٦ .

(٢) القصص : ١٥ .

(٣) الأنفال : ٧٢ .

(٤) المائدة .

الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[1] .

ففي هاتين الآيتين يشير الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء** ﴾ إلى العموم الذى لا نهاية له ، أى من دخل فيها لم تعجز عنه . وقيل : وسعت كل شيء من الخلق حتى أن البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها . قال بعض المفسرين : طمع في هذه الآية كل شيء حتى إبليس — عليه لعنة الله — فقال : أنا شيء ، فقال الله تعالى : ﴿ **فسأكتبها للذين يتقون** ﴾ . فقالت اليهود والنصارى : نحن متقون ، فقال الله تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ..** ﴾ الآية ، فخرجت الآية عن العموم ، والحمد لله . روى حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : كتبها الله عز وجل لهذه الأمة .

فلا بد إذن لكى نكون من هؤلاء الذين كتب الله لهم الرحمة : أن نتخلق بأخلاقهم ، التى ذكرها الله تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين ، والتى ذكرها الله تعالى كذلك في سورة الفرقان في قوله تبارك وتعالى عن عباده الذين يستحقون رحمته ، والذين سيجزون الغرفة بما صبروا : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقاماً . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً . والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً . أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية**

---

(١) الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧ .

وسلاماً . خالدين فيها ، حسنت مستقراً ومقاماً ﴾[1] :

فمن هذه الآيات القرآنية : يعلم أنه لا رحمة إلا لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بهذا الوصف الجامع للمؤمنين الكاملين .. الذين أضافهم الله تعالى إليه تشريفاً لهم ، وإلا فكل المخلوقات عباد الله ، أو يقال إضافتهم إليه من حيث كونه رحماناً لكونهم مظهر الرحمة وستختص بهم في الآخرة .

وقد ذكر القرطبي[2] ، في قوله تعالى : ﴿ **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا** ﴾ : ﴿ **أولئك** ﴾ خبر ﴿ **وعباد الرحمن** ﴾ — أى : ﴿ **وعباد الرحمن** ﴾ مبتدأ وما بعده — من الموصولات الثمانية التي أولها : ﴿ **الذين يمشون** ﴾ صفات له إلى ﴿ **أولئك يجزون ..** ﴾ غير المعترض فيه ، وهو قوله : ﴿ **ومن يفعل ذلك يلق آثاماً** ﴾ إلى قوله ﴿ **متاباً** ﴾ وهو ثلاث آيات ، وحاصل ما ذكره من الأوصاف أن بعضها متعلق بالخلق وبعضها متعلق بالخالق .

وهو أحسن ما قيل في هذا . وما تخلل بين المبتدأ وخبره أوصافهم من التحلى والتخلى ، وهى أحدى عشرة : التواضع ، والحلم ، والتهجد ، والخوف ، وترك الإسراف والإقتار ، والنزاهة عن الشرك ، والزنا والقتل ، والتوبة وتجنب الكذب ، والعفو عن المسيء ، وقبول المواعظ ، والابتهال إلى الله .

و ﴿ **الغرفة** ﴾ الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها ، كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا .. حكاه ابن شجرة .

وقال الضحاك : الغرفة الجنة : ﴿ **بما صبروا** ﴾ أى بصبرهم على أمر ربهم ، وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام . وقال محمد بن على بن الحسين : « بما صبروا » على الفقر والفاقة في الدنيا . وقال الضحاك : ﴿ **بما صبروا** ﴾ عن الشهوات .

﴿ **ويلقون فيها تحية وسلاماً** ﴾ ، قيل : التحية من الله والسلام من الملائكة ، وقيل : التحية البقاء الدائم والملك العظيم ، والأظهر أنهما بمعنى واحد ، وأنهما من قبل الله تعالى ، ودليله قوله تعالى : ﴿ **تحيتهم يوم يلقونه سلام** ﴾[3] .

﴿ **خالدين فيها** ﴾ أى لا يموتون ولا يخرجون ﴿ **حسنت مستقراً ومقاماً** ﴾ أى موضع إقامة لهم ..

---

(١) الفرقان : ٦٣ — ٧٦ .

(٢) وتفسير الجلالين وحاشية الصاوى عليه .

(٣) الأحزاب : ٤٤ .

فكن أخا الإسلام متذكراً لكل هذا ومنفذاً له ، حتى تكون إن شاء الله تعالى من عباد الرحمن ، أى الذين يستحقون رحمته سبحانه وتعالى .. في الدنيا والآخرة .. مع ملاحظة كذلك ما تشير إليه الأحاديث الشريفة الآتية :

عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » رواه البخارى ومسلم والترمذى ، ورواه أحمد وزاد : « ومن لا يغفر لا يغفر له » وهو في المسند أيضاً من حديث أبي سعيد بإسناد صحيح .

يعنى أن من قسا قلبه على عباد الله ، فلم يرحم من يحتاج إلى الرحمة من الضعفاء والأرامل واليتامى والبؤساء والمرضى وذوى العاهات ونحوهم ، فهذا لا تناله رحمة الله يوم القيامة .

وكذلك من لا يغفر للمسيء هفوته ، ويتجاوز عن إساءته لا يغفر الله له ذنبه .

وعن أبي موسى رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ ، يقول : « لن تؤمنوا حتى تراحموا . قالوا : يا رسول الله .. كلنا رحيم ؟ قال : إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه(١) ، ولكنها رحمة العامة »(٢) رواه الطبراني ، ورواته رواة الصحيح .

يعنى : لن يكمل إيمانكم حتى يرحم بعضكم بعضاً ، كما قال تعالى في وصف أصحاب نبيه ﷺ : ﴿ .. أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾(٣) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « من لم يرحم الناس لم يرحمه الله » رواه الطبراني بإسناد حسن .

وعن جرير رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « من لا يرحم من في الأرض لا يرحمه الله الذي في السماء .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن(٤) ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »(٥) رواه أبو داوود والترمذي بزيادة ، وقال : حديث حسن صحيح .

---

(١) أى قريبه وصديقه .
(٢) أى رحمة كل من يحتاج إلى الرحمة من خلق الله .
(٣) الفتح : ٢٩ .
(٤) فإنهم هم المستحقون لرحمته بسبب رحمتهم لعباده .
(٥) قوله : « يرحمكم » بالجزم جواب الأمر ، أى أن ترحموا من في الأرض يرحمكم الله الذي في السماء .

وعنه رضى الله عنه : أن النبى ﷺ ، قال : « ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم ، ويل لأقماع القول ، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون » رواه أحمد بإسناد جيد .

قال في النهاية : « الأقماع جمع قمع كضلع وهو الإناء الذي يترك في رؤوس الظروف لتملأ بالمائعات من الأشربة والأدهان شبه أسماع الذين يستمعون القول ولا يعونه ويحفظونه ولا يعملون به بالأقماع التى لا تعي شيئاً مما يفرغ فيها فكأنه يمر عليها مجازاً كما يمر الشراب في الأقماع اجتيازاً » أ . هـ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت الصادق الصدوق صاحب هذه الحجرة أبا القاسم ﷺ ، يقول : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » رواه أبو داوود واللفظ له ، والترمذي وابن حبان في صحيحه ، وقال الترمذي : حديث حسن ، وفي بعض النسخ حسن صحيح .

أى : كما يقول العلقمي : « إلا من قلب شقى » وهو ضد السعيد ، وهو إشارة إلى الشقاء في الآخرة ، وقد يكون في الدنيا ، رواية الترمذي : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله ، ومن لم يرحمه فهو شقي » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قبل رسول الله ﷺ الحسن أو الحسين بن على ، وعنده الأقرع بن حابس التيمى ، فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً قط ، فنظر إليه رسول الله ﷺ ، ثم قال : « من لا يرحم لا يرحم » رواه البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذي .

وفي بعض الروايات أنه قال له : « وماذا أملك لك إذا كان الله قد نزع الرحمة من قلبك » .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : جاء أعرابي(١) إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إنكم تقبلون الصبيان وما نقبلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أوأملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك » رواه البخارى ومسلم .

وعن معاوية بن قرة عن أبيه رضى الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله .. إنى لأرحم الشاة أن أذبحها(٢) ، فقال : « إن رحمتها رحمك الله »(٣) رواه الحاكم

---

(١) هو الأقرع بن حابس المذكور في الحديث المتقدم .

(٢) يعنى لا أجرؤ على ذبحها رحمة بها .   (٣) وفي هذا دليل على وجوب رحمة الحيوان .

وقال : صحيح الإسناد ، والأصبهاني : ولفظه : قال : يا رسول الله .. إنى آخذ شاة وأريد أن أذبحها فأرحمها ، قال : « والشاة إن رحمتها رحمك الله » ..

يعنى أن الله يثيب على رحمة الحيوان كما يثيب على رحمة الإنسان .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً أضجع شاة(١) ، وهو يحد شفرته(٢) ، فقال النبى ﷺ : « أتريد أن تميتها موتتين(٣) ، هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها » رواه الطبراني في الكبير والأوسط والحاكم ، واللفظ له ، وقال : صحيح على شرط البخارى .

وفي هذا الحديث إرشاد إلى وجوب الرحمة بالحيوان عند الذبح فلا يجر بعنف ولا تعرض عليه السكين فينظر إليها ولا تشحذ أمامه .. إلخ .

وفي الحديث الصحيح : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » رواه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه .

وفي حديث ابن عمر رضى الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ أمر أن تحد الشفار وأن توارى عن البهائم ، وقال : إذا ذبح أحدكم فليجهز » رواه أحمد وابن ماجه .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ ، قال : « ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها(٤) بغير حقها إلا يسأل الله عنها يوم القيامة(٥) . قيل يا رسول الله .. وما حقها ؟ قال : حقها أن تذبحها فتأكلها(٦) ، ولا تقطع رأسها فترمي به »(٧) رواه النسائى والحاكم ، وقال صحيح الإسناد .

وعن الشريد رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « من قتل عصفوراً عبثاً(٨) عج إلى الله(٩) يوم القيامة ، يقول : يا رب إن فلاناً قتلنى عبثاً ، ولم يقتلنى منفعة » رواه النسائى وابن حبان في صحيحه .

---

(١) أى أنامها على جنبها استعداداً لذبحها .
(٢) أى يشحذها ويرقها ، والشفرة ، أى السكين .
(٣) فإنها تحس أن تلك السكين إنما تحد لذبحها فتتمثل الموت فكأنها ماتت قبل موتها .
(٤) أى فما هو أكبر حجماً منها كالحمامة ونحوها .
(٥) أى يسأله الله سبحانه عن سبب قتلها . (٦) فإنها إنما خلقت للانتفاع بلحمها .
(٧) أى تلقيها ولا تنتفع به . (٨) أى بلا فائدة ولا غرض صحيح .
(٩) أى رفع صوته بالشكوى إلى الله يوم القيامة .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله ﷺ : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها[1] ، فلم تطعمها ، ولم تدعها[2] تأكل من خشاش الأرض »[3] .

وفي رواية : « عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت ، لا هي أطعمتها وسقتها ، إذ هي حبستها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض »رواه البخاري وغيره .

قيل : معناه : تدخل النار ، فعبر بصيغة الماضي لتحقق الوقوع ،والمراد استحقت دخول النار ، قال بعضهم : وهذا في حق امرأة كافرة ، فقد ورد : أن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها ، قالت لأبي هريرة : أنت الذي رويت حديث : « دخلت امرأة النار » ؟ فقال : نعم ، فقالت له : هذا وارد في امرأة كافرة وأنت لم تبين ذلك ، ولامته ، أى لأن المؤمن لا يعذب بالنار على مثل ذلك .

وقال النووى : الذي يظهر أنها كانت مسلمة وأنها دخلت النار بهذه المعصية . وقيل : كانت حميرية ، وقيل : إسرائيلية ، قال العلقمى : ولا تضاد بينهما لأن طائفة حمير كانوا قد دخلوا في اليهودية فنسبت إلى دينها تارة وإلى قبيلتها أخرى .

* * *

فلا تنس كل هذا أخا الإسلام وكن ملاحظاً له ، ومنفذاً لما جاء فيه من الجوانب الخيرية حتى تكون من أهل الرحمة ، وحتى إذا ما استغثت بالله تعالى أو برحمته ، أغاثك سبحانه وتعالى وكان عوناً لك .

* * *

وإياك إياك أن تيأس من رحمة الله ، لأنه كما يقرر الله تعالى في قرآنه : ﴿ .. **لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾[4] .

---

(١) أى بسبب هرة ربطتها وأرادت تعذيبها بذلك ، وفي رواية للبخارى : (حبستها) .
(٢) أى تتركها .
(٣) بفتح الخاء أشهر من كسرها ومن الضم ، أى من حشراتها ، سميت بذلك لاندساسها في التراب من قولهم : خش في الأرض : دخل .
(٤) يوسف : ٨٧ .

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه ، أن نبى الله ﷺ ، قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل ، قتل تسعة وتسعين نفساً(١) ، فسأل عن أعلم أهل الأرض(٢) فدُل على راهب ، فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا(٣) . فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُل على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، من يحول بينه وبين التوبة(٤) ؟ .. انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله . فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء(٥) ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق(٦) ، فأتاه ملك الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب(٧) ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط . فأتاهم ملك في صورة آدمى(٨) فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتهما كان أدنى(٩) فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة »(١٠) .

وفي رواية : « فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها » .

وفي رواية : « فأوحى الله إلى هذه أن تباعدى ، وإلى هذه أن تقربي(١١) . وقال : قيسوا بينهما(١٢) ، فوجدوه إلي هذه(١٣) أقرب بشبر فغفر له » .

---

(١) أى : أنه قتلها ظلماً بغير حق يوجب قتلها .

(٢) وذلك أنه أراد أن يستوثق من قبول توبته بعد قتل العدد الكبير .

(٣) وذلك من جهل هذا الراهب ، ظن أن قتله لهذا العدد الهائل مانع من قبول توبته .

(٤) « من » هنا اسم استفهام إنكاري معناه النفى ، أى لا يحول أحد بينه وبين التوبة .

(٥) وهنا يدل على ما للبيئة والمجتمع من تأثير على الأخلاق بالاستقامة أو الانحراف .

(٦) يعنى : صار في نصفه . (٧) أى تنازعوا أيهم يصعد بروحه .

(٨) لأن الله عز وجل أراد أن يخفي أمره عليهم فأرسله إليهم في صورة غير ملائكية .

(٩) يعنى أقرب ، فهو من الدنو بمعنى القرب .

(١٠) أى صعدت بروحه إلى الله عز وجل ، قال النووى : « هذا مذهب أهل العلم وإجماعهم على صحة توبة القاتل عمداً ، ولم يخالف أحد منهم إلا ابن عباس .. » .

(١١) ومعنى هذا أنه كان أقرب إلى القرية التى خرج منها ، ولكن تداركته رحمة الله ، فأمر القرية الصالحة أن تتقرب ، وأمر الأخرى أن تتباعد ليصير أقرب إلى التى قصد إليها .

(١٢) يعنى قيسوا ما بينه وبين كل من القريتين . (١٣) والإشارة إلى القرية الصالحة .

وفي رواية : قال قتادة ، قال الحسن : « ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى بصدره نحوها »(١) رواه البخارى ومسلم وابن ماجه بنحوه .

* * *

وليكن شعارك ، ولسان حالك ، في غدوك ورواحك ، وحلك وترحالك ، هو : ﴿ **وأفوض أمري إلى الله ..** ﴾(٢) .

وذلك بإعلانك هذا في بقية الدعاء الذي ندور حوله ، بقولك مناجياً ربك ومولاك سبحانه وتعالى : « أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » :

لأن هذا معناه إجمالاً : غاية التفويض لله عز وجل ، ولأن الداعى به يطلب منه سبحانه وتعالى أن يتولى جميع أمره ، وألا يكله لحظة واحدة إلى نفسه:

لأن النفس أمارة بالسوء كما يقرر الله تعالى في قرآنه على لسان امرأة العزيز : ﴿ **وما أبرىء نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم** ﴾(٣) :

﴿ **إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾ أى : مشتهية له « ألا ما رحم ربي » في موضع نصب بالاستثناء ، و ﴿ **ما** ﴾ بمعنى من ، أى إلا من رحم ربي فعصمه ، و « ما » بمعنى من كثير ، قال الله تعالى : ﴿ **.. فانكحوا ما طاب لكم من النساء** ﴾(٤) وهو استثناء منقطع ، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء .

وفي الخبر عن النبى ﷺ أنه قال : « ما تقولون في صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غاية ، وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية » قالوا : **يا رسول الله .. هذا** شر صاحب في الأرض ، قال : « **فوالذى نفسى بيده إنها لنفوسكم التي بين** جنوبكم » .

---

(١) أى مال بصدره إلى جهة القرية، فاعتبر بذلك أقرب إليها . (٢) غافر : ٤٤ .
(٣) يوسف : ٥٣ . (٤) النساء : ٣ .
(٥) النجم : ٣٢ .

وإن صح الحديث الذي يقول فيه الرسول ﷺ بعد عودته من غزوة كبيرة ضد أعداء الإسلام : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ألا وهو جهاد النفس » .

ففيه الكفاية .. وحسبك كذلك قول سيدنا سليمان عليه السلام : « إن من يقهر نفسه كمن يفتح المدينة وحده » .

* * *

واعلم أنك عندما ستستعين بالله تعالى على قهر نفسك سيعينك الله تعالى عليها ، فهو القائل :

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين ﴾(١) .

* * *

واعلم كذلك : أنك عندما ستفوض أمرك إلى الله ، وتحسن التوكل على الله ، وكلك ثقة فيه سبحانه : لن يضيعك الله ولن يكلك إلى نفسك طرفة عين .. ففي القرآن الكريم يقول سبحانه :

﴿ .. ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾(٢) .

وعن عمر رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطانا » رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن .

ومعناه : تذهب أول النهار خماصاً : أى : ضامرة البطون من الجوع ، وترجع آخر النهار بطاناً : أى : ممتلئة البطون .

وإذا كان الحديث قد ذكر أن الطير تغدو وتروح : فإن هذا معناه أننا لا بد أن نغدوا ونروح طلباً للرزق كما أمر الله تعالى في قوله : ﴿ .. فامشوا

---

(١) العنكبوت : ٦٩ .
(٢) الطلاق : ٢ ، ٣ .

في مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ﴾[1] :

وذلك حتى نكون من المتوكلين لا من المتواكلين :

لأن التوكل معناه : الأخذ بالأسباب مع تفويض الأمر إلى الله تبارك وتعالى .. بعكس التواكل الذى هو ترك العمل بدعوى الزهد الباطل الذى لا يقره عقل ولا دين .

وقد قرأت حول هذا المعنى : أن أحد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم : رأى قوماً من أهل اليمن .. فقال لهم : من أنتم ؟ فقالوا : متوكلين . فقال : كذبتم .. إنما المتوكل الذي ألقى حبة في الأرض وتوكل على الله .

كما قرأت كذلك: أن جماعة دخلوا على الإمام الجنيد رضي الله عنه.. فقال لهم : لماذا جئتم ؟ قالوا : جئنا نطلب الرزق . قال : إن علمتم في أي مكان هو فاطلبوه . قالوا : نسأل الله .. قال : إن علمتم أنه ينساكم فذكروه .. قالوا : نجلس في البيت ونتوكل على الله وننتظر ما يكون .. قال : التوكل على التجربة شك .. قالوا : وما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .. أى :

على المرء أن يسعى   وليس عليه إدراك النجاح

فأنت مطالب فقط بأن تأخذ بالأسباب طلباً للرزق .. أما ما بعد ذلك فعلى الله سبحانه وتعالى .. لأنه سبحانه قد تكفل بالأرزاق فقال : **﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها .. ﴾**[2] .

وقال : **﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾**[3] .

* * *

ومع هذا ، فقد كان النبى ﷺ يرغب في السعى على الرزق فيقول : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داوود ﷺ كان يأكل من عمل يده » رواه البخارى .

كما كان يقول صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله يحب العبد المحترف ، ومن كد على عياله كان كالمجاهد في سبيل الله عز وجل » روا أحمد .

ويقول ﷺ :

« من أمسى كالاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له » .

---

(١) الملك : ١٥ .   (٢) هود : ٦ .   (٣) الذاريات : ٥٨ .

« إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصلاة ولا الصدقة ولا الحج ، ويكفرها الهم فى طلب المعيشة » ابن بابويه والطبراني .

« طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » الطبراني والبيهقي .

« باكروا[١] في طلب الرزق والحوائج فإن الغدو بركة ونجاح » الطبراني والبزار .

* * *

وقد سئل أحد العلماء الحكماء : لماذا نعمل ما دام الله تعالى قد تكفل بأرزاقنا .. ولماذا لم يعطنا الله أرزاقنا بدون عمل ؟ فتلا قول الله تعالى :

﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض .. ﴾[٢] .

ثم فسر الآية هذه تفسيراً عظيماً فقال : لو رزق الله العباد من غير كسب لتفرغوا للفساد ، ولكن شغلهم بالكسب حتى لا يتفرغوا للفساد .

* * *

فليكن هذا هو مفهومك عن التوكل وتفويض الأمر إلى الله تعالى أيها الأخ المسلم .. حتى إذا ما دعوت الله تعالى بهذا الدعاء الذي ندور حوله كان على أساس من العلم .

وادع الله تعالى معي بهذا الدعاء ، الذى ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ، كان يقول : « اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت[٣] ، اللهم أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت أن تضلنى ، أنت الحى الذى لا تموت ، والجن والإنس يموتون » متفق عليه .

ثم أختم بعد ذلك بالدعاء ـــ موضوع الوصية التي درنا حولها ـــ والذي أرجو أن نكون قد فهمناه وحفظناه[٤] ، وهو :

« يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » : آمين .. آمين .. آمين ..

* * *

---

(١) أى بعد أن تصلوا الفجر .. فإنه وقت بركة .

(٢) الشورى : ٢٧ .

(٣) أى استسلمت لحكمك وأمرك ، و « أنبت » : رجعت إلى عبادتك والإقبال على ما يقرب منك ، و « بك خاصمت » أعداء الدين .

(٤) حتى ندعو به صباحاً ومساء وحتى نعلمه لغيرنا .

الوَصِيَّةُ الخَامِسَةُ وَالخَمْسُونَ

عَن ابن عمر رضي الله عنهما قال :
قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :

مَن اسْتَعَاذَكُمْ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ(1)، وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ(2)، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ(3)، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا(4) فَكَافِئُوهُ(5)، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا(6) مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ .

حديث صحيح .. رواه أبو داود والنسائي بأسانيد الصحيحين .

(١) من استعاذكم بالله فأعيذوه : أى من التجأ إليكم عائذًا بالله وطالبًا منكم الحماية والنجدة فأغيثوه .

(٢) ومن سألكم بالله فأعطوه : لأنه جعل اسم الله عز وجل واسطة فى السؤال .

(٣) ومن دعاكم فأجيبوه : أى من دعاكم إلى وليمة أو نحوها فأجيبوه ، لأن ذلك من حق المسلم على المسلم .

(٤) ومن صنع إليكم معروفًا : أى جميلاً وإحسانًا .

(٥) فكافئوه : قدموا له مكافأة على جميله ومعروفه .

(٦) فإن لم تجدوا : .. إلخ : أى إن عجزتم عن تقديم مكافأة من المال .. فأثيبوه على جميله بالدعاء الصالح .. حتى تروا أنكم قد كافأتموه .

فكن أخا الإسلام :

منفذاً لهذه الوصية المحمدية العظيمة التى سنرى من خلالها ووقوفنا على أبعادها : أنها من الوصايا التربوية النادرة التى يجدر بكل مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن يكون منتفعاً بها ، وبكل ما فيها من توجيهات وإرشادات إلى أن يلقى الله تبارك وتعالى .

وذلك حتى يكون قد استفاد بحياته الأولى لصالح حياته الثانية التي هي دار القرار .

وحسب الأخ المسلم أن يعلم أن النبى ﷺ ، في وصيته هذه ، يرغب كل مسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، في أهم أسباب الترابط والتراحم بين المسلمين .. وذلك حتى يكونوا قوة لا يستهان بها ، وحتى يكونوا كذلك أمة واحدة .. لأنه لن يتحقق هذا ولن يكون إلا بالتعاون والاتحاد الشامل الذي به يتحقق الاعتصام بحبل الله المتين ، كما تشير الآية الكريمة التي يقول الله تعالى فيها :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون على المنكر ، وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾(١) .

ومن أهم مظاهر هذا الاعتصام على أساس من تلك التوجيهات القرآنية : ما أوصى به النبى ﷺ ، والذى أوله : « من استعاذ بالله فأعيذوه » : وهو مظهر من مظاهر القوة التي لا بد أن يتميز بها المؤمن ولا سيما في مواجهة أعدائه الذين هم أعداء دينه .. كما يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾(٢) .

وكما يشير الحديث الشريف الذي يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف » .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ ــ ١٠٥ .

(٢) الأنفال : ٦٠ .

وإذا كان المعنى المراد من قول الرسول ﷺ : « منَ استعاذ بالله فأعيذوه » : أى من التجأ إليكم عائذاً بالله وطالباً منكم الحماية والنجدة فأغيثوه .. ما دامت استغاثته هذه على أساس من العدل لا الطغيان الذي نهى الله عنه في القرآن ، فقال :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ﴾(1) .

وقد حدث هذا ، في عهد الرسول ﷺ ، بعد الهجرة .

وقد ذكر الشيخ محمد الغزالى أكرمه الله في كتابه « فقه السيرة » ، تحت عنوان :

الفتح الأعظم

حيث يقول مشيراً إلى أسباب هذا :

شغل المسلمون بعد عهد الحديبية بنشر الدعوة وعرض تعاليم الإسلام على كل ذي عقل ، وكان وفاؤهم لقريش أمراً مقرراً فيما أحبوا وفيما كرهوا . ورأى الناس من ذلك الآيات البينات .. لكن قريشاً ظلت على جمودها القديم في إدارة سياستها غير واعية للأحداث الخطيرة التي غيرت مجرى الأحوال في الجزيرة العربية ، وتوشك أن تغيره في العالم كله .

وقد جرها فقدان هذا الوعى إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لغواً . وذلك أنها مع حلفائها من بنى بكر هاجموا خزاعة — وهى مع المسلمين في حلف واحد — وقاتلوهم فأصابوا منهم رجالاً . وانحازت خزاعة إلى الحرم ، إذ لم تكن متأهبة لحرب ، فتبعهم بنو بكر يقتلونهم ، وقريش تمدهم بالسلاح وتعينهم على البغى .

وأحس نفر من بنى بكر أنهم دخلوا الحرم — حيث لا يجوز قتال — فقالوا لرئيسهم نوفل بن معاوية : إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك . فقال نوفل : لا إله اليوم يا بنى بكر .. أصيبوا ثأركم !!..

وفزعت خزاعة لما حل بها ، فبعثت إلى رسول الله ﷺ عمرو بن سالم يقص عليه نبأها ، فلما قدم المدينة وقف على النبى وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس وأنشد يقول :

---

(1) النحل : ٩٠ .

يا رب إني ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والدا ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا أبيض مثل البحر يسمو صعدا
إن سيم خسفاً وجهه تربدا في فيلق كالبحر يجري مزبدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال له رسول الله : « نصرت يا عمرو بن سالم » ..

وأحست قريش — بعد فوات الأوان — خطأها . فخرج أبو سفيان إلى المدينة يصلح ما أفسده قومه ويحاول أن يعيد للعقد المهدر حرمته !

وبلغ المدينة فذهب إلى ابنته أم حبيبة ، وأراد أن يجلس على الفراش فطوته دونه . فقال : يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس ! قال : والله لقد أصابك بعدي شر ! ثم خرج حتى أتى رسول الله فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً .

واستشفع أبو سفيان بأبي بكر ليحدث النبي ﷺ في هذا الشأن فرفض . فتركه إلى عمر ، فقال عمر : أنا أشفع لكم عند رسول الله ؟ .. والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به .

فتركهما إلى علي فرد عليه : والله يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، ثم نصحه أن يعود من حيث جاء .. فقفل أبو سفيان إلى قومه يخبرهم بما لقي من صدود .

وأمر النبي الناس أن يتجهزوا ، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة ، وأوصاهم بالجد والبدار . وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها ! .

واستمع المسلمون لأمر نبيهم ، فمضوا يعبئون قواهم للقاء المنتظر ، وهم مدركون أن الساعة الفاصلة مع أهل مكة قد دنت .

* * *

وخلاصة ما حدث بعد ذلك، كما يقول الشيخ محمد الغزالي، أكرمه الله، أنه قد:

سرى القلق في ربوع مكة عقب أوبة أبي سفيان ، ورأى العباس بن عبد المطلب أن يسلم هو وعياله وأن يهجروا مكة إلى المدينة . فقابلوا الرسول في الطريق مقبلاً بجيشه على مكة . وخرج كذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أمية ، فلقيا النبى بالأبواء — وهما ابن عمه وابن عمته — وكانا من أشد الناس إيذاء له بمكة . فأعرض عنهما لما ذكر أساءاتهما .

لكن على بن أبي طالب أشار على ابن عمه أبي سفيان بوسيلة يترضى بها رسول الله ، قال له : ائته من قبل وجهه وقل له ما قال إخوة يوسف : ﴿ **تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين** ﴾[1] ، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جواباً . ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله : ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين** ﴾[2] .

والخلاصة بعد ذلك .. أنه علي حين كان الجيش الزاحف يتقدم ، ورسول الله على ناقته ، تتوج هامته عمامة دسماء . ورأسه خفيض من شدة التخشع لله .. إن الموكب الفخم المهيب الذي ينساب به حثيثاً إلى جوف الحرم ، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن ، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماضٍ طويل الفصول ، كيف خرج مطارداً وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيداً .. وأى كرامة عظمى حفه الله بها في هذا الصباح الميمون ، وكلما استشعر هذه النعماء ازداد لله تواضعاً ، وازداد على راحلته خشوعاً وانحناء ، ويبدو أن هناك عواطف أخرى كانت تجيش في بعض الصدور . فإن سعد بن عبادة زعيم الأوس ذكر ما فعل أهل مكة ، وما فرطوا في جنب الله ، ثم شعر بزمام القوة في يده فصاح : اليوم يوم الملحمة .. اليوم تستحل الحرمة .. اليوم أذل الله قريشاً ..

وبلغت هذه الكلمة مسامع الرسول ، فقال : بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً ، وأمر أن ينزع اللواء من سعد ويدفع إلى ابنه مخافة أن تكون لسعد صولة في الناس .

---

(١) يوسف : ٩١ .   (٢) يوسف : ٩٢ .

وسار رسول الله فدخل مكة من أعلاها وأمر قادة جيشه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم فدخلت سائر الفرق من أنحاء مكة الأخرى .

ودخل خالد بن الوليد من أسفل مكة . وكان هناك نفر من قريش غاظهم هذا التسليم فتجمعوا عند الخندمة يقودهم عكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، إلا أن الحقيقة الكبيرة صدمت غرورهم فبددته ! فإن خالداً حصدهم حصداً حتى لاذ القوم بالفرار . ومن طريف ما وقع أن حماس بن خالد من قبيلة بنى بكر كان قد أعد سلاحاً لمقاتلة المسلمين . وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ويتعهده تسأله : لماذا تعد ما أرى ؟ فيقول : لمحمد وأصحابه .. وقالت امرأته له يوماً : والله ماأرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء ! فقال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم .. ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فمالى علة هذا سلاح كامل وألة[1]
وذو غرارين سريع السلة

فلما جاء يوم الفتح ناوش حماس هذا شيئاً من قتال مع رجال عكرمة . ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد . فخرج منهزماً حتى بلغ بيته ، فقال لامرأته : أغلقى على الباب !..

فقالت المرأة لفارسها المعلم : فأين ما كنت تقول ؟! .. فقال يعتذر لها :

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وكر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ضرباً فلا يسمع إلا غمغمة
لهم نهيت خلفنا وهمهمة لم تنطقى باللوم أدنى كلمة !

وسكنت مكة ، واستسلم سادتها وأتباعها ، وعلت كلمة الله في جنباتها . ثم نهض رسول الله ﷺ إلى البيت العتيق فطوف به . وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله ، ويضربها بقوسه ظهراً لبطن فتقع على الأرض مهشمة متناثرة . كانت هذه الحجارة — قبل ساعة — آلهة مقدسة ، وهى الآن جص وتراب وأنقاض يهدمها نبى التوحيد وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ..

---

(١) أى : حربة .

ثم أمر بالكعبة ففتحت ، فرأى الصور تملؤها ، وفيها صورتان لإبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام ، فقال — ساخطاً على المشركين — : قاتلهم الله ، والله ما استقسما بها قط . ومحا ذلك كله . حتى إذا طهر المسجد من الأوثان أقبل على قريش وهم صفوف صفوف يرقبون قضاءه فيهم . فأمسك بعضادتي الباب — باب الكعبة — وهم تحته . فقال : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ..

ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً .. أخ كريم وابن أخ كريم ! قال : فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليك اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء ..

وعندما كان رسول الله ﷺ بالمسجد يجهز على الوثنية في عاصمتها الكبرى اقترب منه فضالة بن عمير يريد أن يجد له فرصة ليقتله . فنظر إليه النبي نظرة عرف بها طويته إلا أنه في غمرة النصر الذى أكرمه الله به لم يجد في نفسه على الرجل ، بل استدعاه ثم سأله : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء .. كنت أذكر الله !! فضحك النبي ، ثم قال : استغفر الله .

وتلطف معه الرسول فوضع يده على صدره . فانصرف الرجل وهو يقول : ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إليَّ منه .

وكان لفضالة في جاهليته هنات . فمر — وهو راجع إلى أهله — بامرأة لها معه شأن . فلما رأته قالت : هلم إلى الحديث . فانبعث يقول :

قالت: هلم إلى الحديث، فقلت: لا يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بينا والشرك يغشى وجهه الإظلام

وصعد بلال فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة ، وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنه حلم ، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالرعب فى أفئدة الشياطين فلا يملكون أمام دويها إلا أن يولوا هاربين أو يعودوا مؤمنين .

الله أكبر .. الله أكبر ..
الله أكبر .. الله أكبر ..

وهكذا أخا الإسلام : تم نصر الله والفتح .. بركة نصرة المظلومين الذين انتهكت حرماتهم ، وسلبت أموالهم ، وقتل أكثر أفرادهم ظلماً وعدواناً ، وفي داخل البيت الحرام ، الذي جعله الله تعالى مثابة للناس وأمنا .. والذى من المفروض أن : ﴿ .. **من دخله كان آمنا** ﴾(١) .

ولهذا كان لا بد أن نأخذ درساً من هذا الدرس العملى الإيجابي حتى نكون إن شاء الله تعالى من أهل القسط ، وحتى لا نكون من الظالمين ..

* * *

وحسبك أن تعلم أن الله تعالى حرم الظلم على نفسه وجعله بيننا محرماً :

فعن أبي ذر رضى الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال(٢) : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا .. » الحديث رواه مسلم والترمذي وابن ماجه .

فهذا صدر حديث قدسي عظيم قال فيه أحمد بن حنبل رحمه الله : لم يرو عن الشاميين أفضل منه ، وقيل : إن أبا مسلم الخولاني رحمه الله كان إذا روى هذا الحديث جثا على ركبتيه .

ففي هذا الحديث : خطاب عام لجميع المكلفين مؤمنهم وكافرهم بل للإنس والجن جميعاً ، فإن الخلق كلهم عباد الله بحكم ربوبيته لهم ونفوذ حكمه فيهم وتمام ملكه وسلطانه عليهم وقهره فوقهم :

فيقول سبحانه : « إنى حرمت الظلم على نفسى » ، أى : تقدست عنه وتعاليت ، إذ الظلم مجاوزة الحد أو التصرف في حق الغير بغير حق وكلاهما محال في حقه تعالى لأنه إنما يتصور في حق من تحدد له حدود فإن تعداها كان ظالماً ، والرب جل شأنه لا حاكم فوقه ولا مانع له ولا يسئل عما يفعل لكن لما كان تحريم الشيء يقتضى التباعد عند سمى تنزهه عن الظلم تحريماً لمشابهته له في تحقق التباعد والامتناع .

ثم يقول سبحانه : « وجعلته بينكم محرماً » : أى : حكمت بتحريمه في معاملة بعضكم لبعض ، فالمراد بالجعل الحكم « فلا تظالموا » : بتشديد الظاء كما يروى وأصله تتظالموا فأبدلت إحدى التاءين ظاء وأدغمت في الظاء الأخرى بعد تسكينها ، والمعنى : فلا يظلم بعضكم بعضاً فإنه لا بد من اقتصاصه

---

(١) آل عمران : ٩٧ — بلفظ : « .... ومن » . (٢) أى : في الحديث القدسي .

سبحانه وتعالى للمظلوم من ظالمه

* * *

ولهذا ، فقد حذرنا النبي ﷺ ، قال : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح(١) فإن الشح أهلك من كان قبلكم(٢) ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم »(٣) رواه مسلم وغيره .

فمعنى « اتقوا الظلم » : أى اجتنبوه وتباعدوا عنه ، قال ابن الجوزى : « الظلم يشتمل على معصيتين أخذ مال الغير بغير حق ومبارزة الرب بالمخالفة والمعصية فيه أشد من غيرها لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذى لا يقدر على الانتصار وإنما ينشأ الظلم من ظلمة القلب لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر ، فإذا سعى المتقون بنورهم الذى حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغنى عنه ظلمه شيئاً » . « فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » : فهذه الجملة كالتعليل للأمر باتقاء الظلم ، أى اتقوه لأنه يكون ظلمات تحيط بكم وتمنعكم من الاهتداء حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم .

* * *

ولهذا كان من الخير كما علمنا أن نكون من أهل العدل لا من أهل الظلم وأن نكون كذلك من المعينين للمظلوم على استرداد حقه إذا ما استعاذ بنا وألا نخذله ، أى نتخلى عنه ونتركه .

فعن جابر وأبي طلحة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ، قال : « ما من مسلم يخذل امرءاً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته(٤) وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرىء ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته ، إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته » رواه أبو داوود .

وهو حديث عظيم يحث على وجوب مناصرة المسلم والذب عن عرضه ، فإن المسلم أخو المسلم ومن شأن الأخ أن يرد غيبة أخيه وأن يشد أزره وينصره

---

(١) وهو البخل والإمساك ومنع الحقوق الواجبة في المال وشدة الحرص عليه .

(٢) يعنى الأمم التي سبقتكم .

(٣) هذا بيان لكيفية إهلاك الشح لهم وهو أنه هيج بينهم العداوة فتقاتلوا وجرأهم على استحلال المحرمات .

(٤) أى تضيع وتستباح .

في كل موطن يحتاج فيه إلى نصرته .

وعن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً(١) ، فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً ، أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟(٢) قال : تحجزه عن الظلم ، فإن ذلك نصره »(٣) .

رواه البخارى ومسلم في حديث عن جابر عن النبى ﷺ ، قال : « ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً ، وإن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصرة ، وإن كان مظلوماً فلينصره » .

وفي رواية للبخارى : « قالوا : يا رسول الله .. هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ فقال : تأخذ فوق يديه » .

قال في الفتح : « كنى به عن كفه عن الظلم بالفعل إن لم يكن بالقول ، وعبر بالفوقية إشارة إلى الأخذ بالاستعلاء والقوة » .

وقال ابن بطال : « النصر عند العرب : الإعانة ، وتفسيره لنصر الظالم بمنعه من الظلم من تسمية الشيء بما يئول إليه وهو من وجيز البلاغة » .

وقال ابن المنير : « فيه إشارة إلى أن الترك كالفعل في باب الضمان » .

وقال الحافظ في الفتح في باب نصر المظلوم : « هو فرض كفاية وهو عام في المظلومين وكذلك في الناصرين بناء على أن فرض الكفاية مخاطب به الجميع ، وشرط الناصر أن يكون عالماً بكون الفعل ظلماً ويقع النصر مع وقوع الظلم ، وهو حينئذ حقيقة وقد يقع قبل وقوعه كمن أنقذ إنساناً من يد إنسان طالبه بمال ظلماً وهدده إن لم يبذله وقد يقع بعد » .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، وإذكر كذلك هذا الحديث القدسي الذي جاء في نصه : أن داوود عليه السلام ناجى ربه ، فقال : « يا رب .. أى العباد أحب إليك ؟ فقال الله تعالى : يا داوود ، أحب عبادي إلى تقى القلب،

---

(١) يعنى انصره في كل واحدة من الحالتين فقوله « ظالماً » حال من أخاك و « مظلوماً » معطوف عليه.

(٢) يعنى أخبرني إذا كان هو الظالم كيف أنصره مع أن في ذلك إعانة له على الظلم .

(٣) يعني ، فإن ذلك هو معنى نصرك إياه إذا كان ظالماً .

نقى الكفين ، لا يأتي لأحد بسوء ، ولا يمشى بين الناس بالنميمة ، تزول الجبال ولا يزول ، أحبني وأحب من يحبنى ، وحببني إلى عبادي . قال داوود : يا رب .. وكيف يحببك إلى عبادك ؟ قال : يذكرهم بنعمى وآلائى .. يا داوود .. ما من عبد يعين مظلوماً أو يمشى لمعه في مظلمته إلا ثبت قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام » .

* * *

وإذا كنت أخا الإسلام مظلوماً ، وأردت أن تستعيذ بالله تعالى من شر هذا الظلم الذى تخاف الدخول عليه .. فحسبك أن تقرأ هذه الأدعية الواردة .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، قال : « إذا تخوف أحدكم السلطان(١) ، فليقل : اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم(٢) كن لى جاراً من شر فلان ابن فلان ــ يعنى الذي يريده ــ وشر الجن والإنس وأتباعهم أن يفرط على أحد منهم(٣) ، عز جارك(٤) ، وجل ثناؤك(٥) ، ولا إله غيرك » رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح إلا جنادة بن مسلم، وقد وثق، ورواه الأصبهانى، وغيره موقوفاً على عبد الله لم يرفعوه .

ورواه كذلك ابن السنى من حديث ابن عمر ولفظه : « إذا خفت من سلطان أو غيره ، فقل : لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم ، لا إله إلا أنت عز جاهك وجل ثناؤك » .. إلخ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : إذا أتيت سلطاناً مهيباً(٦) تخاف أن يسطو بك فقل : الله أكبر(٧) . الله أعز من خلقه جميعاً(٨) . الله أعز مما أخاف وأحذر(٩) . أعوذ بالله الذى لا إله إلا هو الممسك السموات أن يقعن

---

(١) أى خاف من ظلمه وغشمه وتسلطه .

(٢) فهو يدعوه بوصف الربوبية لتلك الأجرام العظيمة العلوية لا سيما العرش الذي هو أعلاها وأشرفها وأنورها .

(٣) أى يجهل وتسبق إلى بوادره .

(٤) أى امتنع من احتمى بك فلا يستطيع أحد أن يذله .

(٥) أى عظم ماتستحقه على عبادك من ثناء وحمد لعظيم صفاتك وكبير آلائك .

(٦) أى ذا هيبة وسطوة بحيث تخافه وتفرق منه .

(٧) أى أعظم وأجل من ذلك السلطان .

(٨) من ملائكة وجن وبشر بل له وحده العزة جميعاً ولا عزة لأحد إلا إذا أعزه هو سبحانه .

(٩) وهنا تخصيص بعد تعميم ، أى : الله أعز من هذا السلطان الذي أهابه وأخاف سطوته

على الأرض إلا بإذنه من شر عبدك فلان وجنوده وأتباعه وأشياعه من الجن والإنس ، اللهم كن لى جاراً من شرهم . جل ثناؤك وعز جارك : وتبارك اسمك(١) ، ولا إله غيرك (ثلاث مرات) . رواه ابن أبي شيبة موقوفاً ، وهذا لفظه وهو أتم ، ورواه الطبراني ، وليس عنده : ثلاث مرات ، ورجاله محتج بهم في الصحيح(٢) .

وعن أبي مجلز ، واسمه لاحق بن حميد رضى الله عنه ، قال : من خاف من أمير ظلماً ، فقال : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً وبالقرآن حكماً وإماماً نجاه الله منه .

رواه ابن أبي شيبة موقوفاً عليه ، وهو تابعى ثقة .

* * *

وليكن شعارك دائماً وأبداً ، هو : ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ ، حتى تكون كهؤلاء المشار إليهم في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم** ﴾(٣) .

فمعنى : ﴿ .. **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ : أى : كافينا الله . وحسب مأخوذ من الأحساب ، وهو الكفاية ، قال الشاعر :

فتملأ بيتنا أقطاً(٤) وسمنا وحسبك من غنى شبع ورى

روى البخارى عن ابن عباس ، قال في قوله تعالى : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم** ﴾ ــ إلى قوله : ــ ﴿ **وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ : قالها إبراهيم الخليل عليه السلام حين ألقي في النار . وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم . والله أعلم .

ثم يقول القرطبي : قوله تعالى : ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم** ﴾ : قال علماؤنا :

---

(١) أى تنزه وتقدس عن النقص والعيب .
(٢) ويظهر أنه من كلام ابن عباس نفسه .
(٣) آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٤) الأقط : شيء يتخذ من اللبن المخيض .

لما فوضوا أمورهم إليه ، واعتمدوا بقلوبهم عليه ، أعطاهم من الجزاء أربعة معان : النعمة ، والفضل ، وصرف السوء ، واتباع الرضا ، فرضوا عنه ، ورضي عنهم .

* * *

وفي حاشية الصاوى على الجلالين ، قرأت توضيحاً أكثر من هذا ، فقد قال : قوله : ﴿ **الذين قال لهم الناس ..** ﴾ : شروع في غزوة بدر الثالثة ، وتسمى بدر الصغرى وكانت في السنة الرابعة في شعبان وهو يوم موسم عظيم لقبائل العرب كل عام ، فخرج أبو سفيان حتى نزل مر الظهران فألقى الله الرعب في قلبه ، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي ، فقال أبو سفيان : يا نعيم .. إني قد واعدت محمداً أن نلتقي بموسم بدر ، وهذا عام جدب فأحب أن يكون الخلف منه لا مني ، فاذهب إلى المدينة فثبطهم عن الخروج ، ولك عندي عشرة من الإبل .. فانطلق نعيم إلى المدينة فوجد النبى وأصحابه يتجهزون ، فقال لهم : ما تريدون ؟ فقالوا : لميعاد أبي سفيان .. فقال لهم : لا تقدرون عليهم ، فإنهم قد جمعوا لكم فاخشوهم .. قال النبى : لأخرجن إليهم ولو وحدي ... فخرج النبى في ألف وخمسمائة مقاتل حتى بلغوا بدراً وكانت موضع سوق للعرب يجتمعون فيها كل عام ثمانية أيام فصادفوا الموسم وباعوا ما كان معهم من التجارات فربحوا في الدرهم درهمين ولم يأتهم أحد من المشركين فرجعوا بربح وأجر عظيمين وأسلم كثير من أهل القبائل حينئذ .

* * *

وفي ابن كثير — وحول هذا الموضوع — ذكر بعض الأحاديث الشريفة والأقوال التي أرجو كذلك أن تنتفع بها ، والتي منها :

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا حيوة بن شريح وإبراهيم بن أبي العباس قائلاً : حدثنا بقية ، حدثنا بحير بن سعد، عن خالد بن معدان ، عن سيف ، عن عوف بن مالك أنه حدثهم : أن النبى ﷺ قضى بين رجلين ، فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبى الله ونعم الوكيل . فقال رسول الله ﷺ : « ردوا عليَّ الرجل . فقال : ما قلت ؟ قال : قلت : حسبى الله ونعم الوكيل . فقال رسول الله ﷺ : إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس(١) ، فإذا غلبك أمر فقل : حسبي الله ونعم الوكيل » .

---

(١) الكيس بوزن الكيل : ضد الحمق .

يريد أن يقول له : لا تكن عاجزاً عن الأخذ بالأسباب .. وإنما كن آخذاً بها مع تفويض أمرك إلى الله تعالى ولا سيما إذا غلبك أمر . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسباط ، حدثنا مطرف ، عن عطية ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾[1] ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ، يسمع متى يؤمر فينفخ . فقال أصحاب محمد ﷺ : فما نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » . وقد روي هذا من غير وجه ، وهو حديث جيد .

وروي عن أم المؤمنين عائشة وزينب رضي الله عنهما ، أنهما تفاخرتا فقالت زينب : زوجني الله وزوجكن أهاليكن . وقالت عائشة : نزلت براءتي من السماء في القرآن . فسلمت لها زينب ، ثم قالت : كيف قلت حين ركبت راحلة صفوان بن المعطل ؟ فقالت : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل . فقالت زينب : قلت كلمة المؤمنين .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ ، أي : لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم ، فرجعوا إلى بلدهم : ﴿ بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ ، مما أضمر لهم عدوهم ﴿ واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم ﴾ :

قال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو بكر بن داوود الزاهد ، حدثنا محمد بن نعيم ، حدثنا بشر بن الحكم ، حدثنا مبشر بن عبد الله بن رزين ، حدثنا سفيان بن حسين ، عن يعلى بن مسلم ، عن عكرمة ، عن ابن عبّاس في قول الله تعالى : ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ﴾ ، قال : النعمة أنهم سلموا ، والفضل أن عيراً مرت وكان في أيام الموسم ، فاشتراها رسول الله ﷺ فربح فيها مالاً ، فقسمه بين أصحابه .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام حتى تكون :

---

(١) المدثر : ٨ .

أولا : عونا لأخيك المسلم إذا ما استعان بك وطلب نصرتك إذا كان مظلوما ، أو ظالما « فتحجزه عن الظلم » .

وثانيا : حتى تكون مستعينا بالله تعالى ومستعيذا به إذا كنت مظلوما وتخشى بطش ظالميك .. إلى آخر ما وقفنا عليه من التوجيهات الايجابية التى أرجو أن تكون حجة لنا لا علينا .

وحسبنا فى نهاية هذا الموضوع ، حتى لا نكون من الظالمين لغيرنا ، وحتى لا يكون غيرنا ظالما لنا : أن نذكر أنفسنا وغيرنا دائما وأبدا بهذين الحديثين الشريفين ، اللذين هما من أهم الأحاديث التي قالها النبي ﷺ لكي تكون منهجاً قويماً للأمة الإسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، حتى نكون بحق. ﴿ .. **خير أمة أخرجت للناس** ﴾[1] :

فعن أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا ضرر ولا ضرار » حديث حسن . رواه ابن ماجه والدارقطنى وغيرهما مسندا ، وورواه مالك فى الموطأ مرسلا عن عمرو بن يحى عن أبيه عن النبى ﷺ فأسقط أبا سعيد وله طرق يقوى بعضها بعضا .

فقوله ﷺ : « لا ضرر » ، أى : لا يضر بعضكم بعضاً بغير حق ولا جناية سابقة . وقوله ﷺ « ولا ضرار » ، أى : لا تضر من ضرك ، وإذا سابك أحد فلا تسبه ، وإن ضربك فلا تضربه ، بل اطلب حقك منه عند الحاكم من غير مسابة ، وإذا تساب رجلان أو تقاذفا لم يحصل التقاضى ، بل كل واحد يأخذ حقه عن طريق الحاكم . وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « للمتسابين ما قالا وعلى البادي منهما الإثم ما لم يعتد المظلوم بسب زائد[2] » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره ، التقوى ههنا ــ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ــ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » رواه مسلم .

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) كما يقول الإمام النووى فى شرح الأربعين النووية .

فقوله ﷺ : « لا تحاسدوا » : الحسد كما قال الغزالي ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أن يتمنى زوال نعمة الغير وحصولها لنفسه .

الثاني : أن يتمنى زوال نعمة الغير وإن لم تحصل له كما إذا كان عنده مثلها ولم يكن يحبها وهذا أشر من الأول .

الثالث : ألا يتمنى زوال النعمة عن الغير ولكن يكره ارتفاعه عليه في الحظ والمنزلة ويرضى بالمساواة ولا يرضى بالزيادة وهذا أيضاً محرم لأنه لم يرض بقسمة الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم** .. ﴾[1] الآية ، فمن لم يرض بالقسمة فقد عارض الله تعالى في قسمته وحكمته وعلى الإنسان أن يعالج نفسه ويحملها على الرضا بالقضاء ويخالفها بالدعاء لعدوه بما يخالف النفس .

ولله در القائل :

ألا قل لمن بات لى حاسدا ... أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله ... كأنك لم ترض لى ما وهب
فكان جزاؤك أن خصني ... وسد عليك طريق الطلب

وإذا كان هذا هو الحسد المذموم ، الذي ينبغي ألا تكون من أهله ، فإنني أرجو أن تكون من أهل الحسد المحمود المشار إليه في الحديث الصحيح الذي يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل : أعطاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » .

وقوله ﷺ : « ولا تناجشوا » ، فالنجش أصله الارتفاع والزيادة وهو أن يزيد في ثمن سلعة ليغر غيره وهو حرام لأنه غش وخديعة . « ولاتباغضوا » ، أى : لا تتعاطوا أسباب البغضاء فالبغض حرام إلا في الله تعالى فإنه واجب ، ومن كمال الإيمان ، ففى الحديث : « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » ، « ولا تدابروا » ، أى : لا يهجر أحدكم أخاه وإن رآه أعطاه دبره أو ظهره ، قال ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما

---

(١) الزخرف : ٣٢

الذي يبدأ بالسلام » .

وهجرة المسلم أخاه المسلم فوق ثلاثة بغير سبب شرعي : مكروهة في الثلاثة ، وفيما زاد : حرام إلا لضرورة .

وحكى أن رجلاً هجر أخاه فوق ثلاثة أيام فكتب إليه هذه الأبيات ، فقال :

يا سيدي عندك لي مظلمة فاستفت فيها ابن أبي خيثمة
فإنه يروى لنا عن جده ما قد روى الضحاك عن عكرمة
عن ابن عباس عن المصطفى نبينا المبعوث بالمرحمة
أن صدود الإلف عن ألفه فوق ثلاث ربنا حرمه

وقوله ﷺ : « ولا يبع بعضكم على بيع أخيه » ، فصورته أن يبيع أخوه شيئاً فيأمر المشترى بالفسخ ليبيعه مثله وأحسن منه بأقل من ثمن ذلك ، والشراء على الشراء حرام ، بأن يأمر البائع بالفسخ ليشتريه منه بأغلى ثمن ، وكذلك يحرم السوم على سوم أخيه .. وكل هذا داخل في الحديث لحصول المعنى وهو التباغض والتدابر ، وتقييد النهى ببيع أخيه يقتضى أنه لا يحرم على بيع الكافر ، وهو وجه لابن خالويه .. والصحيح لا فرق لأنه من باب الوفاء بالذمة والعهد .

« المسلم أخو المسلم » ، وهى أعظم أخوة .. والانتماء إلى أبوة الإسلام أعظم انتماء .. كما يقول أحدهم متباهياً بهذا :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ومن حق المسلم على أخيه المسلم أن : « لا يظلمه » أى : يأخذ حقوقه .. أو يكون سبباً في الإضرار به وبمصالحه وما إلى ذلك .

« ولا يخذله » ، أى : عند أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر أو عند مطالبته بحق من الحقوق .. بل ينصره ويعينه ويدفع عنه الأذى ما استطاع .

« ولا يكذبه » ، أى : لا يخبره بأمر على خلاف الواقع لأنه غش وخيانة

« ولا يحقره » ، أى : فلا يحكم على نفسه بأنه خير من غيره ، بل يحكم على غيره بأنه خير منه ، أو لا يحكم بشيء فإن العاقبة منطوية ولا يدري العبد بما يختم له ، فإذا رأى صغيراً مسلماً حكم بأنه خير منه باعتبار أنه أخف ذنوباً منه وإن رأى من هو أكبر سناً منه حكم بالخيرية باعتبار أنه أقدم هجرة منه في الإسلام .. وإن رأى كافراً لم يقطع له بالنار لاحتمال أنه يسلم فيموت مسلماً .

وقوله ﷺ : « التقوى ههنا » ويشير إلى صدره ثلاث مرات ، أي : لأن الصدر محل القلب الذي هو محل الخوف الحامل على التقوى : ﴿ **فإنها من تقوى القلوب** ﴾(١) وتكرار الإشارة « ثلاث مرات » للدلالة على عظم المشار إليه في الحقيقة وهو القلب ..

ففي الحديث الشريف : « .. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »(٢) : أي في الجسد مضغة إذا خشعت خشعت الجوارح ، وإذا طمحت طمحت الجوارح ، وإذا فسدت فسدت الجوارح . قال العلماء : البدن مملكة النفس ومدينتها ، والقلب وسط المملكة ، والأعضاء كالخدم ، والقوى الباطنة كضياع المدينة ، والعقل كالوزير المشفق الناصح به ، والشهوة كطالب أرزاق الخدام ، والغضب صاحب الشرطة وهو عبد مكار خبيث يتمثل بصورة الناصح ، ونصحه سم قاتل ، ودأبه أبداً منازعة الوزير الناصح ، والقوة المخيلة في مقدم الدماغ كالخازن ، والقوة المفكرة في وسط الدماغ ، والقوة الحافظة في آخر الدماغ ، واللسان كالترجمان ، والحواس الخمس جواسيس وقد وكل واحد منهم بصنيع من الصناعات ، فوكل العين بعالم الألوان ، والسمع بعالم الأصوات ، وكذلك سائرها فإنها أصحاب الأخبار .. ثم قيل هي كالحجبة توصل إلى النفس ما تدركه ، وقيل إن السمع والبصر والشم كالطاقات تنظر منها النفس ، فالقلب هو الملك ، فإذا صلح الراعي صلحت الرعية ، وإذا فسد فسدت الرعية . وإنما يحصل صلاحه بسلامته من الأمراض الباطنة كالغل والحقد والحسد والشح والبخل والكبر والسخرية والرياء والسمعة والمكر والحرص والطمع وعدم الرضا بالمقدور ، وأمراض القلب كثيرة تبلغ نحو الأربعين عافانا الله منها وجعلنا ممن يأتيه بقلب سليم : ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾(٣) .

وقوله ﷺ : « بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » ، أي : يكفيه منه ، وقوله « بحسب » بإسكان السين .. وفيه تحذير من الاحتقار ، قال الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا**

---

(١) الحج : ٣٢ (٢) الحديث رواه البخاري ومسلم (٣) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩

خيراً منهم ولا نساء من نساء عشى أن يكن خيراً منهن .. ﴾(١)، **والسخرية** النظر إلى المسخور منه بعين النقص ، فلا تحتقر غيرك عسى أن يكون عند الله خيراً منك وأفضل وأقرب ، وقد احتقر إبليس اللعين آدم عليه السلام فباء بالخسران الأبدى ، وفاز آدم بالعز الأبدي وشتان ما بينهما فلا تحتقر أحداً ولو كان عبدك ، فربما صار عزيزاً وصرت ذليلاً فينتقم منك .. تنبيه : مفهوم الخبر أن الكافر يجوز احتقاره إذ لا حرمة له بالكفر وإهانته على الله : **﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾**(٢) .

وقوله ﷺ :« كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، فقد جعل هذه الثلاثة كل المسلم وحقيقته لشدة اضطراره إليها لأن الدم به حياته ، والمال مادة الدم فهو مادة الحياة ، والعرض قيام صورته المعنوية .. واقتصر على هذه الثلاثة لأن ما سواها فرع راجع إليها ، لأنه إذا قامت البدنية والمعنوية فلا حاجة إلى غير ذلك .

* * *

فحسبك أخا الإسلام كل هذا الخير الذي وقفت عليه والذي أرجو أن تكون منتفعاً به .

ثم إذا كان الرسول ﷺ ، قد أوصانا ــ في نص الوصية ــ بعد قوله : من استعاذ بالله فأعيذوه ــ بقوله : « ومن سأل بالله فأعطوه » ، أى : بعد التحقق من عجزه وحاجته ، كما فعل الرسول ﷺ :

فعن عبد الله بن عدى رضى الله عنه : « أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبى ﷺ يسألانه عن الصدقة، فقلب فيهما البصر ورآهما جلدين ، فقال لهما : إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى » رواه أحمد وأبو داوود .

فإذا تبين لنا أنه فعلاً عاجز عن الكسب ، ومحتاج أعطيناه وإلا فلا .

بل قيل أن أعطاه وكان شاباً أو قوياً وليس عاجزاً : سيكون حراماً لأنه تعاون على الإثم لا على البر .

وأولى بنا بدل أن نعطيه لكى نشجعه على البطالة والتسول : أن نرغبه في السعي على الرزق .. بأن نذكره بقول الله تبارك وتعالى : **﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾**(٣) .

---

(١) الحجرات : ١١ (٢) الحج : ١٨ . (٣) الجمعة : ١٠

وقوله : ﴿ .. فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ﴾(١) .

وقوله : ﴿ .. وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله .. ﴾(٢) .

وبأن نذكره كذلك بالأحاديث الشريفة المرغبة في السعى على الرزق ، والتي منها ، ما ورد في صحيح البخارى عن المقدام بن معد يكرب الكندي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده . وأن نبى الله داوود — عليه السلام — كان يأكل من عمل يده » كان يضنع الدروع من الحديد ويبيعها لقومه .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه » .

وكذلك نذكره بهذا الحديث الشريف الذى أرجو أن يكون سبباً في بعده عن سؤال الناس ، وحرصه على طلب الرزق :

روى أبو داوود من حديث سهل بن الحنظلية أن رسول الله ﷺ ، قال : « من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم ، قالوا : يا رسول الله .. وما يغنيه ؟ قال : ما يغديه ويعشيه » .

* * *

ومن أجمل ما قرأت كذلك من الآثار حول هذا الموضوع(٣) ، أن : الناس ثلاثة : رجل شغله معاشه عن معاده : فهو من المفرطين الهالكين .

ورجل شغله معاده عن معاشه : فهو من المغالين المكروهين .

والأقرب إلى الاعتدال هو الثالث الذي : شغله معاشه لمعاده : فهو من المقتصدين المحبوبين . ففى الحديث الذي رواه أحمد وغيره يقول صلوات الله وسلامه عليه : « من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى » ، أى : لأن الانهماك فيها سيشغله عن طاعة

---

(١) الملك : ١٥ (٢) المزمل : ٢٠ .

(٣) من كتاب هداية المرشدين للشيخ على محفوظ رحمه الله باختصار وتصرف .

مولاه فيخسر الآخرة ، والانقطاع للآخرة يمنعه عن الكسب فيصير حملاً ثقيلاً على كاهل الأمة ، وفي الحكم المأثورة : « خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ، ولم يكن كَلًّا على الناس » ، فأفضل الأمرين التزام حد الوسط . وفي القرآن الكريم يوصينا الله تعالى بهذا ، فيقول : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾[1] .

روى أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً ، فقال : ما تصنع ؟ قال : أتعبد . قال : ومن يعولك ؟ قال : أخي . قال : وأين أخوك ؟ قال : في مزرعته . قال : أخوك أعبد منك .

وقال لقمان لابنه : يا بنى .. استغن بالكسب الحلال عن الفقر ، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : « رقة في دينه » وهو كناية عن قلته فإن الفقر قد يحمله على ما يوجب ذلك « وضعف في عقله » وذلك لكثرة ما يعتريه من الهموم والأفكار ، وهى لا شك تظلم العقل وتفسد الرأى . « وذهاب مروءته » ولا دين لمن لا مروءة له . وأعظم من هذه الثلاثة استخفاف الناس به ، واحتقارهم له ، وازدراؤهم لحاله .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : اطلبوا الغنى بإصلاح ما في أيديكم ، فإن الفقر مجمع العيوب .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقنى ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

وكان رضى الله عنه يقول : ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب إلى من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشترى .

وذات يوم : سمع عمر رضى الله عنه سائلاً بعد المغرب ، فقال لرجل من قومه : عش الرجل ، فعشاه ، ثم سمعه ـــ عمر ـــ ثانياً يسأل ، فقال : ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال : قد عشيته . فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً ، فقال : لست سائلاً لكنك تاجراً ، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى إبل الصدقة وضربه بالدرة ، وقال : لا تعد ـــ ولولا أن سؤاله كان حراماً ما ضربه ولا أخذ مخلاته .

---

(١) القصص : ٧٧ .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقول : « مكسبة في دناءة خير من سؤال الناس » .

وكان على بن أبي طالب رضى الله عنه ، يقول :

لحملى الصخر من قمم الجبال أحب إلى من منن الرجال
يقول الناس لي في الكسب عار فقلت العار في ذل السؤال

* * *

فليكن هذا مفهومك أخا الإسلام عن معنى إعطاء السائل إذا تأكد لك عجزه واحتياجه ولا سيما إذا جعل اسم الله عز وجل واسطة في السؤال .

مع ملاحظة ما رواه الإمام مالك في الموطأ ، من أنه ﷺ ، قال : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » .

فهذا الحديث : فيه مقال ، وعلى فرض صحته فهو محمول على تحقيق عجزه وحاجته . وهذا ما أردت أن أوقفك عليه حتى تكون من الدعاة إلى العمل المحاربين للبطالة التي هى الداء الكبير الذى لا بد أن نتخلص منه حتى يعود إلى الإسلام مجده وفخاره ، وحتى نفهم الإسلام فهماً إيجابياً لا سلبياً :

وحسبنا ما وقفنا عليه توضيحاً لكل هذا ..

* * *

ثم إذا كان الرسول ﷺ ، يقول بعد قوله : « ومن سأل بالله فأعطوه » .

« ومن دعاكم فأجيبوه » ، أى : من دعاكم إلى وليمة أو نحوها فأجيبوه ، لأن ذلك من حق المسلم على المسلم :

فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنازة ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » رواه البخارى ومسلم .

وروى مسلم : « حق المسلم على المسلم ست . قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » ورواه الترمذي والنسائى .

فإجابة الدعوة كما رأيت حق للمسلم على أخيه المسلم .. ولكن بشروط وآداب لا بد أن نقف عليها ، تحت عنوان :

حكم إجابة الدعوة

فهي كما عرفنا في نص الحديثين ، حق واجب على المسلم لأخيه المسلم : لأنها تحقق معنى الأخوة بينهما ، وتزيد الود ، وتضمن صفاء النفوس .

وقد حث الإسلام عليها ، واعتبر الممتنع عنها عاصياً :

فعن أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ست خصال واجبة للمسلم على المسلم ، من ترك شيئاً منهن فقد ترك حقاً واجباً : يجيبه إذا دعاه ، وإذا لقيه أن يسلم عليه ، وإذا عطس أن يشمته ، وإذا مرض أن يعوده ، وإذا استنصحه أن ينصح له » رواه ابن حبان .

والحق السادس والله أعلم ، هو : « إذا مات أن يتبعه » كما وردت به الأحاديث الصحاح .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب ، فإن شاء طعم وإن شاء ترك » رواه مسلم وغيره .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب : عرساً كان أو نحوه » رواه مسلم وغيره .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، أنه كان يقول : « شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء وتترك المساكين ، ومن لم يأت الدعوة فقد عصى الله ورسوله » متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من دعى فلم يجب فقد عصى الله ورسوله ، ومن دخل على غير دعوة دخل سارقاً وخرج مغيراً » — أى مختطفاً — رواه أبو داوود .

* * *

وحول حكم إجابة الدعوة :

قال النووى في شرح مسلم (ج ٩ ص ٢٣٤) : لا خلاف في أنه

مأمور به ، ولكن هل هو أمر إيجاب أو ندب ، فيه خلاف . والأصح في مذهبنا ــ الشافعية ــ أنه فرض عين على كل من دعى لكن يسقط بأعذار .

والثاني : أنه فرض كفاية .

والثالث : أنه مندوب ، هذا مذهبنا في وليمة العرس « الشافعية » .

وأما غيرها ــ أى غير وليمة العرس ــ ففيها وجهان لأصحابنا : أحدهما : كوليمة العرس . والثاني : أن الإجابة إليها ندب ، وإن كانت في العرس واجبة .

ونقل القاضي اتفاق العلماء على وجوب الإجابة في وليمة العرس . قال : واختلفوا في سواها .

فقال مالك والجمهور : لا تجب الإجابة إليها .

وقال أهل الظاهر : تجب الإجابة إلى كل دعوة من عرس وغيره ، وبه قال بعض السلف .

* * *

وهناك أحكام هامة تتعلق بإجابة الدعوة ، ذكرها صاحب كتاب « المجموع »[١] (ج ١٥ ص ٢٧٥) .

وقد رأيت أن أوقفك عليها بتصرف ، فإليك أهمها :

إذا دعى ــ المسلم ــ إلى وليمة كتابى ــ وقلنا : أتجب عليه الإجابة إلى وليمة الكتابى ؟ ففيه وجهان :

أحدهما : تجب عليه الإجابة لعموم الأخبار .

والثاني : لا تجب عليه الإجابة لأن النفس تعاف من أكل طعامهم ، ولأنهم يستحلون الربا ، ولأن الإجابة إنما جعلت لتأكد الأخوة والموالاة ، وهذا لا يوجد في أهل الذمة .

وإذا جاء الداعى ، فقال : أمرني فلان أن أدعوك فأجب : لزمه الإجابة . وإن قال : أمرنى فلان أن أدعو من شئت أو من لقيت فاحضر : لم تلزمه الإجابة .

قال الشافعى رحمه الله : بل استحب له أن يحضر إلا من عذر :

---

(١) وهو فضيلة الشيخ محمد نجيب المطيعي أكرمه الله وأثابه .

والأعذار التي يسقط معها فرض الإجابة : أن يكون مريضاً ، أو قائماً بمريض ، أو بميت ، أو بإطفاء حريق ، أو يخاف ضياع ماله ، أو له في طريقه من يؤذيه ، لأن هذه الأسباب أعذار في حضور الجماعة وفي صلاة الجماعة ، ففي هذا أولى .

وإن كانت الوليمة ثلاثة أيام فدعى في اليوم الأول : وجب عليه الإجابة ، وإن دعى في اليوم الثانى : لم تجب عليه الإجابة ولكن يستحب له أن يجيب ، وإن دعى في اليوم الثالث : لم يستحب له أن يجيب بل يكره له ، لما روى : أن النبى ﷺ ، قال : « الوليمة في اليوم الأول : حق ، وفي الثانى : معروف ، وفي اليوم الثالث : رياء وسمعة » رواه أحمد وأبو داوود والترمذي .

إذا دعاه اثنان إلى وليمتين ــ فإن سبق أحدهما ــ قدم إجابته ، وإن لم يسبق أحدهما أجاب أقربهما إليه داراً : لما روى أن النبى ﷺ ، قال : « إذا اجتمع داعيان فأجب أقربهما إليك باباً ، فإن أقربهما باباً أقربهما جواراً ، فإن سبق أحدهما فأجب الذي سبق » هكذا ذكر المحاملى وابن الصبغ .

وذكر الشيخ أبو إسحاق ، أنهما إذا استويا في السبق : أجاب أقربهما رحماً .

فإن استويا في الرحم : أجاب أقربهما داراً . وإذا ثبت الخبر فأقربهما أولى لأنه لم يفرق بين أن يكون أقربهما رحماً أو أبعد ، فإن استويا في ذلك أقرع[1] بينهما ، لأنه لا مزية لأحدهما على الآخر .

وإن دعى إلى موضع فيه دف : أجاب ، لأن الدف يجوز في الوليمة ، لما روى محمد بن حاطب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « فصل ما بين الحلال والحرام الدف » .

فإن دعى إلى موضع فيه منكر من زمر أو خمر ــ فإن قدر على إزالته ــ : لزمه أن يحضر لوجوب الإجابة لإزالة المنكر ، وإن لم يقدر على إزالته : لم يحضر ، لما روى :

« أن رسول الله ﷺ : نهى أن يجلس على مائدة تدار فيها الخمر » .

وروى نافع ، قال : « كنت أسير مع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه ، ثم عدل عن الطريق ، فلم يزل

---

(١) أى اقترع بينها .

يقول : يا نافع .. أتسمع ؟ حتى قلت : لا .·. فأخرج أصبعيه من أذنيه ثم رجع إلى الطريق ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعل » .

وإن حضر في موضع فيه تماثيل ــ فإن كانت كالشجر ــ : جلس ، وإن كانت على صورة حيوان ــ فإن كانت على بساط يداس أو وسادة يتكأ عليها ــ : جلس. وإن كانت على حائط أو ستر معلق: لم يجلس، لما روي عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« أتانى جبريل ، فقال : أتيتك البارحة فلم يمنعنى أن أكون دخلت إلا أنه كان على الباب تماثيل ، وكان في البيت قرام ستر فيه تماثيل ، وكان في البيت كلب .. فمر برأس التماثيل التى كانت بالبيت تقطع فتصير كهيئة الشجرة ، ومر بالستر فليقطع منه وسادتان منبوذتان توطآن ، ومر بالكلب فليخرج . ففعل رسول الله ﷺ ذلك » .

ولأن ما كان كالشجرة فهو كالكتابة والنقوش ، وما كان على صورة الحيوان على حائط وستر فهو كالصنم . وما يوطأ فليس كالصنم لأنه غير معظم .

ثم يقول بعد ذلك صاحب المجموع :

ومن حضر طعاماً ــ فإن كان مفطراً ــ ففيه وجهان : أحدهما : يلزمه أن يأكل لما روى أبو هريرة رضى الله عنه :

« أن النبى ﷺ ، قال : إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب ، فإن كان مفطراً فليأكل ، وإن كان صائماً فليصل »(١) .

والثانى : لا يجب ، لما روى جابر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب ، فإن شاء طعم وإن شاء ترك » .

وإن دعى وهو صائم لم تسقط عنه الإجابة للخير ، ولأن القصد التكثير والتبرك بحضوره ، وذلك يحصل مع الصوم ، فإن كان الصوم فرضاً لم يفطر لقول النبى ﷺ : « وإن كان صائماً فليصل » .

وإن كان تطوعاً فالمستحب أن يفطر ، لأنه يدخل السرور على من دعاه ، وإن لم يفطر جاز لأنه قربة فلم يلزمه تركها .

---

(١) بكسر الصاد ، أى : فليصل ولا يفطر .

والمستحب لمن فرغ من الطعام أن يدعو لصاحب الطعام ، لما روى عبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، قال : « أفطر رسول الله ﷺ ، عند سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فقال : أفطر عندكم الصائمون ، وصلت عليكم الملائكة ، وأكل طعامكم الأبرار » .

* * *

وفي كتاب : « إحياء علوم الدين » للإمام أبي حامد الغزالي (ج ٤) ، يقول رحمه الله تعالى ، تحت عنوان :

آداب إجابة الدعوة إلى الطعام

وللإجابة خمسة آداب :

الأول : ألا يميز الغنى بالإجابة عن الفقير ، فذلك هو التكبر المنهى عنه . ولأجل ذلك امتنع بعضهم عن أصل الإجابة ، وقال : « انتظار المرقة ذل » . وقال آخر : « إذا وضعت يدي في قصعة غيرى فقد ذلت له رقبتى » ، ومن المتكبرين من يجيب الأغنياء دون الفقراء ، وهو خلاف السنة : كان ﷺ : يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين .

ومر الحسن بن على رضى الله عنهما بقوم من المساكين الذي يسألون الناس على قارعة الطريق وقد نشروا كسراً على الأرض في الرمل ، وهم يأكلون ، وهو على بغلته ، فسلم عليهم ، فقالوا له : هلم إلى الغداء يا ابن بنت رسول الله ﷺ . فقال : نعم ، إن الله لا يحب المستكبرين . فنزل وقعد معهم على الأرض وأكل ، ثم سلم عليهم وركب ، وقال : قد أجبتكم فأجيبوني . قالوا : نعم . فوعدهم وقتاً معلوماً ، فحضروا ، فقدم إليهم فاخر الطعام ، وجلس يأكل معهم .

وأما قول القائل : إن من وضعت يدى في قصعته ، فقد ذلت له رقبتي ، فقد قال بعضهم هذا خلاف السنة ، وليس كذلك . فإنه ذل إذا كان الداعي لا يفرح بالإجابة ، ولا يتقلد بها منة ، وكان يرى ذلك يداً له على المدعو .

ورسول الله ﷺ لعلمه أن الداعي له يتقلد منه ، ويرى ذلك شرفاً وذخراً لنفسه في الدنيا والآخرة . فهذا يختلف باختلاف الحال . فمن ظن به أنه

يستثقل الإطعام ، وإنما يفعل ذلك مباهاة أو تكلفاً(١) ، فليس من السنة إجابته . بل الأولى التعلل .

ولذلك قال بعض الصوفية : لا تجب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك ، وأنه سلم لك وديعة كانت عنده ، ويرى لك الفضل عليه في قبول تلك الوديعة منه .

وإلى هذا يشير أحدهم في قوله :

من دعانا فأبينا فله الفضل علينا
وإذا نحن أجبنا رجع الفضل إلينا

وقال سرى السقطى رحمه الله : آه على لقمة ليس على الله فيها تبعة ، ولا لمخلوق فيها منة . فإذا علم المدعو أنه لا منة في ذلك ، فلا ينبغي أن يرد .

وقال أبو تراب النخشبى رحمة الله عليه : عرض على طعام فامتنعت ، فابتليت بالجوع أربعة عشر يوماً ، فعلمت أنه عقوبته .

وقيل لمعروف الكرخي رضى الله عنه : كل من دعاك تمر إليه ؟ فقال : أنا ضيف أنزل حيث أنزلونى .

الثاني : أنه لا ينبغي أن يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة ، كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه ، بل كل مسافة يمكن احتمالها في العادة لا ينبغي أن يمتنع .

لأجل ذلك يقال في التوراة أو بعض الكتب : « سر ميلاً عد مريضاً ، سر ميلين شيع جنازة ، سر ثلاثة أميال أجب دعوة ، سر أربعة أميال زر أخاً في الله » .

وإنما قدم إجابة الدعوة والزيارة ، لأن فيه قضاء حق الحى ، فهو أولى من الميت ، وقال ﷺ : « لو دعيت إلى كراع بالغميم لأجبت » وهو موضع على أميال بالمدينة ، أفطر فيه رسول الله ﷺ في رمضان لما بلغه وقصر عنده في سفره .

الثالث : ألا يمتنع لكونه صائماً(٢) ، بل يحضر ، فإن كان يسر أخاه إفطاره فليفطر ، وليحتسب في إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه ،

---

(١) ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ نهى عن طعام المتباهين والمتبارين .
(٢) صيام تطوع .

ما يحتسب في الصوم وأفضل ، وذلك في صوم التطوع . وإن لم يتحقق سرور قلبه ، فليصدقه بالظاهر ، وليفطر .

وإن تحقق أنه متكلف ، فليتعال . وقد قال ﷺ لمن امتنع بعذر الصوم : « تكلف لك أخوك وتقول : إنى صائم » . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار .

فالإفطار عبادة بهذه النية ، وحسن خلق ، ثوابه فوق ثواب الصوم .

ومهما لم يفطر ، فضيافته الطيب والمجمرة ، والحديث الطيب .

وقد قيل : الكحل والدهن أحد القراءين .

الرابع : أن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة ، أو الموضع أو البساط المفروش من غير حلال ، أو كان يقام في الموضع منكر ، من فرش وديباج ، أو إناء فضة أو تصوير حيوان على سقف أو حائط ، أو سماع شيء من المزامير والملاهى ، أو التشاغل بنوع من اللهو والعزف والهزل واللعب ، واستماع الغيبة والنميمة والزور والبهتان والكذب ، وشبه ذلك :

فكل ذلك مما يمنع الإجابة واستحبابها ، ويوجب تحريمها أو كراهيتها ، وكذلك إذا كان الداعى ظالماً ، أو مبتدعاً ، أو فاسقاً ، أو شريراً ، أو متكلفاً طلباً للمباهاة والفخر .

الخامس : ألا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن ، فيكون عاملاً في أبواب الدنيا . بل يحسن نيته ، ليصير بالإجابة عاملاً للآخرة ، وذلك بأن تكون نيته الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ في قوله : « لو دعيت إلى كراع لأجبت » .

وينوى الحذر من معصية الله لقوله ﷺ : « من لم يجب الداعى فقد عصى الله ورسوله » .

وينوى إكرام أخيه المؤمن اتباعاً لقوله ﷺ : « من أكرم أخاه المؤمن فكأنما أكرم الله » .

وينوى إدخال السرور على قلبه امتثالاً لقوله ﷺ : « من سر مؤمنا سر الله » . وينوى مع ذلك زيارته ، ليكون من المتحابين في الله إذ شرط رسول الله ﷺ فيه التزاور والتباذل لله . وقد حصل البذل من أحد الجانبين ، فتحصل الزيارة من جانبه أيضاً .

وينوى صيانة نفسه عن أن يساء به الظن في امتناعه ، ويطلق اللسان فيه ، بأن يحمل على تكبر أوسوء خلق، أواستحقار أخ مسلم، أوما يجرى مجراه.

* * *

فهذه ست نيات تلحق إجابته بالقربات آحادها ، فكيف مجموعها .

وكان بعض السلف يقول : أنا أحب أن يكون لي في كل عمل نية ، حتى في الطعام والشراب .

وفي مثل هذا قال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

والنية إنما تؤثر في المباحات والطاعات ، أما المنهيات فلا ، فإنه لو نوى أن يسر إخوانه بمساعدة على شرب الخمر ، أو حرام آخر ، لم تنفع النية . ولم يجز أن يقال : الأعمال بالنيات .

بل لو قصد بالغزو الذي هو طاعة ، المباهاة وطلب المال ، انصرف عن جهة الطاعة . وكذلك المباح المردد بين وجوه الخيرات وغيرها ، يلتحق بوجوه الخيرات بالنية . فتؤثر النية في هذين القسمين ، لا في القسم الثالث .

* * *

وتحت عنوان :

آداب الحضور لمنزل الداعى والجلوس فيه

يقول أيضاً أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه « إحياء علوم الدين » (ج ٤) ما نصه :

وأما الحضور فأدبه أن يدخل الدار ، ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن ، بل يتواضع ولا يطول الانتظار عليهم ، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة .

بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالف البتة ، فإنه قد يكون رتب في نفسه موضع كل واحد ، فمخالفته تشوش عليه ، وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراماً ، فليتواضع . قال ﷺ : « إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس » .

ولا ينبغي أن يجلس في مقابلة باب الحجرة التي للنساء وسترهم .

ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام، فإنه دليل على الشره.

ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذاجلس .

وإذا دخل ضيف للمبيت: فليعرفه(١) صاحب المنزل عند الدخول القبلة وبيت الماء وموضع الوضوء ، كذلك فعل مالك بالشافعي رضى الله عنهما ، وغسل مالك يده قبل الطعام قبل القوم ، وقال : الغسل قبل الطعام لرب البيت أولى ، لأنه يدعو الناس إلى كرمه ، فحكمة أن يتقدم بالغسل، وفي آخر الطعام يتأخر بالغسل ، لينتظر أن يدخل من يأكل فيأكل معه .

وإذا دخل فرأى منكراً غيره إن قدر ، وإلا أنكر بلسانه وانصرف .

والمنكر : فرش الديباج ، واستعمال أوانى الفضة والذهب ، والتصوير على الحيطان ، وسماع الملاهى والمزامير ، وحضور النسوة المتكشفات الوجوه ، وغير ذلك من المحرمات .

حتى قال أحمد رحمه الله : إذا رأى مكحلة رأسها مفضض ، ينبغي أن يخرج ، فإن ذلك تكلف لا فائدة فيه ، ولا تدفع حراً ولا برداً ، ولا تستر شيئاً .

وكذلك قال : يخرج إذا رأى حيطان البيت مستورة بالديباج كما تستر الكعبة ، وقال : إذا اكترى بيتاً(٢) فيه صورة ، أو دخل الحمام ورأى صورة ، فينبغي أن يحكها(٣) ، فإن لم يقدر خرج .

* * *

ثم يقول : وكل ما ذكره صحيح ، وإنما النظر في المكحلة وتزيين الحيطان بالديباج ، فإن ذلك لا ينتهي إلى التحريم ، إذ الحرير يحرم على الرجال . قال رسول الله ﷺ : « هذا حرام على ذكور أمتى حل لإناثها » . وما على الحائط ليس منسوباً إلى الذكور .

ولو حرم هذا لحرم تزيين الكعبة . بل الأولى إباحته لموجب قوله تعالى : ﴿ قل من حرم زينة الله .. ﴾(٤) لا سيما في وقت الانتفاع بالنظر إلى

---

(١) بضم الياء : أى فليخبره .
(٢) أى استأجر بيتاً
(٣) أى يزيلها .
(٤) الأعراف : ٣٢ .

الديباج ، مهما لبسه الجوارى والنساء . والحيطان في معنى النساء ، إذ لسن موصوفات بالذكورة .

* * *

فاذكر أخا الإسلام كل هذا حتى إذا لبيت دعوة أخيك المسلم ، كان هذا على أساس من تلك الأحكام والآداب .

وليكن كل هذا على أساس من العزة والكرامة .. وأعني بهذا ألا تدخل على قوم لتأكل من طعامهم إلا بدعوة منهم حتى لا تكون طفيلياً .. فقد قال الرسول ﷺ — كما قرأت قبل ذلك — : « من دخل على غير دعوة دخل سارقاً وخرج مغيراً ، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله » .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دعى أحدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن » .

وقد قال الأصمعى — في تعريف الطفيلي — : الطفيلي الداخل على القوم من غير أن يدعى مأخوذ من الطفل وهو إقبال الليل على النهار بظلمته وأرادوا أن أمره يظلم على القوم فلا يدرون من دعاه ولا كيف دخل عليهم . قال : وقولهم طفيلي منسوب إلى طفيل رجل بالكوفة من بني غطفان ، وكان يأتى الولائم من غير أن يدعى إليها وكان يقال له طفيل الأعراس والعرائس .

فلا تكن أخا الإسلام مثل هذا .. حتى تكون عزيزاً بين قومك .

وقد قال أحدهم مشيراً إلى هذا :

يا مبتغى العز والسلامة ... إلزم ثلاثاً تلقى الكرامة
لا تسأل المرء ما لديه ... ولا ترى آكلاً طعامه[1]
ولا ترى ذاكراً بسوء ... ما عشت خلقاً إلى القيامة
وزد لهذى الثلاث تقوى ... الإله تكمل لك السلامة

وكذلك كما يوصيك الشاعر ، محمد الهراوى رحمه الله في قوله الذي أرجو أن تنفذه :

لا تكن ضيفاً ثقيلاً ... يكره الناس لقاءك
ليس من ذنب أناس ... أن يكونوا أقرباءك

---

(١) أى بدون دعوة إليه كما عرفت .

أنت لا تدرى إلى كم تزعج الحل إزاءك
فعساه مستمداً لك من قوم عشاءك
وعساه مستعيراً لك من جار غطاءك
وتذكر أنت ضيفاً كيف إن جاءك ساءك
أن تزر فعليك غبا(١) ثم لا تكثر بقاءك
إن في الفندق مأوا ك وفي السوق غذاءك
رب من يلقاك هشا(٢) كسر « الزير » وراءك

* * *

ثم إذا كان الرسول ﷺ ، قد ختم وصيته التي ندور حولها ــ بعد ذلك ــ بقوله : « ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تروا أنكم كافأتموه » :

فإن هذا العنصر الأخير يحتاج منا إلى عدة وقفات لا بد منها ، حتى نفهم المعنى المراد ، من : صناعة المعروف ، والمكافأة ، والدعاء في هذا العنصر الأخير الذي وقفنا عليه والذى لا بد أن نفهمه حتى ننفذه على أساس سليم ، وبصورة إيجابية يريدها الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

فمعنى : « من صنع إليكم معروفاً » أى جميلاً وإحساناً :

وقد حكى أن الرشيد ، قال للأصمعى : هل تعرف كلمات جامعات لمكارم الأخلاق يقل لفظها ويسهل حفظها .. فقال : نعم يا أمير المؤمنين .. **دخل أكثم بن صيفى حكيم العرب على بعض ملوكها ، فقال له : أريد أن أسألك عن أشياء لا تزال بصدرى مختلجة(٣) ، والشكوك عليها والجة(٤) .. فقال : سألت خبيراً واستنبأت(٥) بصيراً ، والجواب يشفعه (٦) الصواب .. فاسأل عما بدا لك . فقال : ما السؤدد(٧) ؟ قال : اصطناع المعروف ، وإغاثة الملهوف . قال : فما الشرف ؟ قال : كف الأذى ، وبذل الندى(٨) . قال : فما المجد ؟قال : حمل المغارم ، وابتناء المكارم . قال : فما الكرم ؟ قال :**

---

(١) غبا : أى زيارة متفرقة .
(٢) هشا : أى فرحا مبتسماً .
(٣) أى مضطربة .
(٤) أى داخلة .
(٥) أى طلبت منه النبأ وهو الخبر .
(٦) أى يكون مقارناً له .
(٧) أى السيادة .
(٨) أى الفضل من المال وأصله المطر .

صدق الإخاء في الشدة والرخاء . قال : فما العز ؟ قال : شدة القصد ، وثروة العدد[1] . قال : فما السماحة ؟ قال : بذل النائل ، وإجابة السائل . قال : فما الغنى ؟ قال : الرضا بما يكفي ، وقلة التمنى . قال : فما الرأى ؟ قال : كل فكر أنتجته تجربة . قال له : قد أجبت وأجدت فاحتكم . قال : لكل كلمة هجمة[2] . قال : هى لك . قال الأصمعى : فقال لى الرشيد : ولك بكل كلمة بدرة[3] . فانصرفت بثمانين ألفاً .

فمن مكارم الأخلاق ، ومن السؤدد كما عرفت : أن تكون من أهل المعروف ، بمعنى : أن تكون من أهل البر الذين يتقربون إلى الله تبارك وتعالى دائماً وأبداً بكل خير يصلون به إخوانهم في الله حتى يكون الله تعالى في عونهم ، وحتى يسترهم في الدنيا والآخرة :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » رواه مسلم بهذا اللفظ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة والكلمة الطيبة صدقة وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبي ذر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » رواه مسلم .

---

(1) أى كثرة المال . **(2) الهجمة من الإبل أولها الأربعون إلى ما زاد .**
(3) البدرة ، هى عشرة آلاف درهم .

يعنى لا تستقلن أقل معروف تبذله لأحد من إخوانك ولو كان هذا المعروف لقاءك إياه بوجه منبسط متهلل .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك » رواه أحمد والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ، وصدره في الصحيحين من حديث حذيفة وجابر .

فمعنى ما جاء في هذا الحديث : أن كل ما يفعل من أعمال البر والخير فثوابه كثواب من تضدق بالمال .. وأنه من جملة المعروف أن تبش في وجه أخيك إذا لقيته ، وأن تصب من دلوك الماء في دلو أخيك فتقسم الماء بينكما .

وعن أبي ذر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تبسمك في وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ، ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال صدقة ، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة » رواه الترمذي وحسنه ، وابن حبان في صحيحه ، وزاد : « وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة » .

فمعنى ما جاء في هذا الحديث بالإضافة إلى ما عرفناه قبل ذلك : أن إرشادك لأى إنسان رجلاً كان أو امرأة في أرض الضلال .. بل العمران كذلك .. ما دام في حاجة إلى هذا الإرشاد لك صدقة ، وأن إزالتك من الطريق كل ما يؤذي المارة ويسبب لهم ضرراً كقشر الموز والقاذورات .. وما إلى ذلك لك صدقة ، وإن إفراغك من دلوك في دلو أخيك إذا احتاج إلى ما معك من الماء لك صدقة .. وأن بصرك للرجل الردىء البصر بأن طلب منك أن تقرأ له كتاباً ونحو ذلك لك صدقة .

وعن أبي موسى رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « على كل مسلم صدقة . قيل : أرأيت إن لم يجد ؟ قال : يعتمل بيديه ، فينفع نفسه ويتصدق . قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قال : قيل له : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : يأمر بالمعروف أو الخير . قال : أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : يمسك عن الشر ، فإنها صدقة » رواه البخارى ومسلم .

فمعنى ، يعتمل بيديه : أى إن لم يكن له مال يتصدق منه ، يعمل عملاً بيديه يكسب به المال من أى حرفة أو مهنة .. فينفع نفسه ويتصدق .

ومعنى يعين ذا الحاجة الملهوف : أى يأخذ بيده وينقذه من شدته .

وروى عن الحسن بن على رضى الله عنهما عن النبى ﷺ ، قال : « إن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم » رواه الطبراني في الكبير والأوسط .

أى : من الأمور التي تقتضى المغفرة وتستوجبها ، إدخالك السرور على أخيك المسلم بالكلمة الطيبة والعبارة الجميلة .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن أحب الأعمال إلى الله تعالى بعد الفرائض(١) : إدخال السرور على المسلم » رواه الطبراني في الأوسط والكبير .

وروى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت قال رسول الله ﷺ : « من أدخل على أهل بيت من المسلمين سروراً لم يرض الله له ثواباً دون الجنة »(٢) رواه الطبراني .

* * *

ولهذا .. فقد ورد في الآثار والأخبار والأشعار ما يرغب في قضاء حوائج الناس :

قال خالد بن صفوان : لا تطلبوا الحوائج في غير حينها ، ولا تطلبوها إلى غير أهلها ، ولا تطلبوا ما لستم له بأهل فتكونوا للمنع خلقاء .

قال بعض الشعراء :

إن الأمور إذا انسدت مسالكها ... فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجأ
لا تيأسن وإن طالت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

* * *

وقال آخر :

---

(١) أى بعد أداء الأعمال المفروضة من الصلاة والصيام والصدقة .
(٢) أى أقل منها .

إنى رأيت ، وللأيام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جد في أمر يطالبه واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وكانوا يستنجحون حوائجهم بركعتين يقولون بعدهما : اللهم إنى بك أستفتح ، وبك أستنجح ، وبمحمد نبيك إليك أتوجه ، اللهم ذلل لى صعوبته ، وسهل لى حزونته ، وارزقنى من الخير أكثر مما أرجو ، واصرف عنى من الشر أكثر مما أخاف .

وكان يقال : إذا أحببت أن تطاع ، فلا تسأل ما لا يستطاع .

ويقال : الحوائج تطلب بالرجاء ، وتدرك بالقضاء .

* * *

وفي كتاب « عيون الأخبار »(١) ، يقول تحت عنوان :

من يعتمد في الحاجة ويستسعى فيها

روى هشيم عن عبد الحميد بن جعفر عن محمد بن عبد الرحمن عن أبي مصعب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اطلبوا الحوائج إلى حسان الوجوه »(٢) .

وفي حديث آخر : « اعتمد لحوائجك الصباح الوجوه ، فإن حسن الصورة أول نعمة تتلقاك من الرجل » .

قالت امرأة من ولد حسان بن ثابت :

سل الخير أهل الخير قدما ولا تسل فتى ذاق طعم العيش منذ قريب

ومن المشهور قول بعض المحدثين :

حسن ظن إليك أكرمك الله دعانى فلا عدمت الصلاحا
ودعانى إليك قول رسول الله إذ قال مفصحاً إفصاحا
إن أردتم حوائجاً عند قوم فتنقوا لها الوجوه الصباحا

وقال آخر :

إذا سألنا قومنا فخيارهم من كان أفضلهم أبوه الأول
أعطى الذى أعطى أبوه قبله وتبخلت أبناء من يتبخل

---

(١) في كتاب الحوائج ج ٨ ص ١٢٣ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) في الجامع الصغير « أطلبوا الخير إلى حسان الوجوه » .

وقال خالد بن صفوان :

فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها ، وأشد من المصيبة سوء الخلف منها .

حدثنى أبو حاتم عن الأصمعى قال : قال مسلم بن قتيبة : لا تطلبن حاجتك إلى كذاب فإنه يقربها وهى بعيد ، ويبعدها وهى قريب ، ولا إلى أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، ولا إلى رجل له عند من تسأله الحاجة مأكلة ، فإنه لا يؤثرك على نفسه .

وقال ميمون بن ميمون : لا تطلبن إلى لئيم حاجة ، فإن طلبت فأجله حتى يروض نفسه .

قال بعض الشعراء :

لا تطلبن إلى لئيم حاجة ... واقعد فإنك قائماً كالقاعد

يا خادع البخلاء عن أموالهم ... هيهات تضرب في حديد بارد

وحول هذا المعنى أحفظ للإمام الشافعى رحمه الله تعالى ، قوله :

كن غنى القلب واقنع بالقليل ... مت ولا تطلب معاشاً من لئيم

لا تكن للعيش مجروح الفؤاد ... إنما الرزق على الله الكريم

* * *

كما يقول كذلك في « عيون الأخبار » باختصار وتصرف ، تحت عنوان :

الإجابة إلى الحاجة والرد عنها

قال رجل للعباس بن محمد : إنى أتيتك في حاجة صغيرة ، قال : اطلب لها رجلاً صغيراً . وهذا خلاف قول على بن عبد الله بن العباس لرجل قال له : إنى أتيتك في حاجة صغيرة ، فقال له على بن عبد الله : هاتها .. أن الرجل لا يصغر عن كبير أخيه ولا يكبر عن صغيره .

كان رسول الله ﷺ إذا سئل ما يجد أعطى ، وإذا سئل ما لا يجد ، قال : « يصنع الله » .

وكان رسول الله ﷺ ، لا يرد ذا حاجة إلا بها أو بميسور من القول .

وقال أسماء بن خارجة : ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة ، فإنه لا يخلو من أن يكون كريماً فأصونه ، أو لئيماً فأصون منه نفسي .

سأل رجل قوماً ، فقال له رجل منهم : اللهم هذا سائلنا ونحن سؤلك ، وأنت بالمغفرة أجود منا بالعطاء ، ثم أعطاه .

وسأل رجل رجلاً حاجة ، فقال : اذهب بسلام ، قال السائل : أنصفنا من ردنا في حوائجنا إلى الله عز وجل .

قيل لحبى المدينية : ما الجرح الذي لا يندمل ؟ قالت : حاجة الكريم إلى اللئيم ثم يرده . قيل لها : فما الذل ؟ قالت : وقوف الشريف بباب الدنىء ثم لا يؤذن له . قيل : فما الشرف ؟ قالت : اعتقاد المنن في رقاب الرجل .

قال معن بن زائدة : ما سألنى قط أحد حاجة فرددته إلا رأيت الغنى في قفاه .

* * *

كما يقول أيضاً باختصار وتصرف ، تحت عنوان :

الترغيب في قضاء الحاجة واصطناع المعروف

حدثني محمد بن داوود عن محمد بن جابر ، قال : قال ابن عيينة : ليس أقول لكم إلا ما سمعت : قيل لابن المنكدر : أى الأعمال أفضل ؟ قال : إدخال السرور على المؤمن . وقيل : أى الدنيا أحب إليك ؟ قال : الإفضال على الإخوان .

حدثنى أحمد بن الخليل عن محمد بن سعيد قال حدثنا ابن المبارك عن حميد ابن الحسن قال : لأن أقضى حاجة لأخ أحب إلى من أن أعتكف سنة .

قال ابن عائشة : كان عمرو بن معاوية العقيلي يقول : اللهم بلغنى عثرات الكرام .

وقال المأمون لمحمد بن عباد المهلبي : أنت متلاف ، فقال يا أمير المؤمنين .. منع الجود سوء ظن بالله ، يقول الله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين ﴾(١) .

وكان ابن عباس يقول : صاحب المعروف لا يقع ، فإن وقع وجد متكأ . هذا نحو قول النبى ﷺ : « المعروف يقى مصارع السوء » .

وكان ابن عباس يقول أيضاً : ما رأيت رجلاً أوليته معروفاً إلا أضاء ما بينى وبينه ، ولا رأيت رجلاً أوليته سوءاً إلا أظلم ما بينى وبينه .

---

(١) سبأ : ٣٩ .

وقال جعفر بن محمد : إن الحاجة تعرض قبلي فأبادر بقضائها مخافة أن يستغني عنها ، أو تأتيه وقد استبطأها فلا يكون لها عنده موقع .

وقرأت في كتاب للهند : من صنع المعروف لعاجل الجزاء ، فهو كملقي الحب ليصيد به الطير لا لينفعه .

قال ابن عباس : ثلاثة لا أكافئهم : رجل بدأني بالسلام ،ورجل وسع لي في المجلس ، ورجل اغبرت قدماه في المشي إليّ إرادة التسليم عليَّ ، فأما الرابع فلا يكافئه عنى إلا الله عزوجل ، قيل : ومن هو ؟ قال : رجل نزل به أمر فبات ليلته يفكر بمن ينزله ، ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزلها بي .

قيل لبزرجمهر : هل يستطيع أحد أن يفعل المعروف من غير أن يرزأ شيئاً ؟ قال : نعم ، من أحببت له الخير وبذلت له الود ، فقد أصاب نصيباً من معروفك .

قام رجل من مجلس خالد بن عبد الله القسري ، فقال خالد : إني لأبغض هذا الرجل وما له إلي ذنب ، فقال رجل من القوم : أوله أيها الأمير معروفاً ففعل ، فما لبث أن خف على قلبه وصار أحد جلسائه .

قال ابن عباس : لا يتم المعروف إلا بثلاث : تعجيله وتصغيره وستره ، فإنه إذا عجله هنأه ، وإذا صغره عظمه ، وإذا ستره تممه .

وقال الخزيمي في نحو هذا :

زاد معروفك عندي عظماً   أنه عندك محقور صغير
تتناساه كأن لم تأته   وهو عند الناس مشهور كبير

وفي بعض الحديث : « كل معروف صدقة ، وما أنفق الرجل على أهله ونفسه وولده صدقة ، وما وقى المرء في عرضه فهو صدقة ، وكل نفقة أنفقها فعلى الله خلفها مثلها إلا في معصية أو بنيان »(١) .

وفي الحديث المرفوع : « فضل جاهك تعود به على أخيك صدقة منك عليه ، ولسانك تعبر به عن أخيك صدقة منك عليه ، وإماطتك الأذى عن الطريق صدقة منك على أهله » .

---

(١) قال العزيزي في شرحه لهذا الحديث : أنه البنيان الذي لم يقصد به وجه الله تعالى .

وقال حماد عجرد :

إن الكريم ليخفى عنك عسرته حتى تراه غنياً وهو مجهود
إذا تكرمت أن تعطى القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود
وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود
أورق بخير ترجى للنوال فما ترجى الثمار إذا لم يورق العود
بث النوال ولا تمنعك قلته فكل ما سد فقراً فهو محمود

والعرب تقول : « من حقر حرم » .

وفي الحديث المرفوع : « أفضل الصدقة جهد المقل » .

وكان خالد بن عبد الله يقول على المنبر : أيها الناس .. عليكم بالمعروف ، فإن فاعل المعروف لا يعدم جوازيه ، وما ضعف الناس عن أدائه قوى الله على جوازيه ، والبيت المشهور في هذا قول الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال وهب بن منبه : إن أحسن الناس عيشاً من حسن عيش الناس في عيشه ، وإن من ألذ اللذة الإفضال على الإخوان .

وفي الحديث المرفوع : « إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت ، وما سوى ذلك فهو ملك الوارث » .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام حتى تكون من أهل اصطناع المعروف ، وحتى تكون كذلك إن شاء الله تعالى من الذين قدموا لأنفسهم خيراً ينفعهم هناك :

﴿ .. يوم ينظر المرء ما قدمت يداه .. ﴾[1] .

مع ملاحظة أن العطاء هذا ، أو المعروف الذى ستصل به أخاك ـــ لكى يكون مقبولاً عند الله ـــ لا بد أن يكون بعيداً عن المن والأذى ، كما يشير إلى هذا قول الله تعالى لعباده المؤمنين :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق

---

(١) النبأ : ٤٠ .

ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾(١) :

فالمن هو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ، ويرى أنه أوجب عليه حقاً ، والأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أسدى إليه ، ورئاء الناس : أى ابتغاء سمعتهم ، وصفوان : حجر أملس ، والوابل : المطر الشديد ، والصلد : الصلب الأملس ، وقوله : ﴿ **لا يقدرون على شيء** ﴾ أى لا يجدون له ثواباً في الآخرة كما لا يوجد على الصفوان شيء من التراب لإذهاب المطر إياه .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رجل : يا رسول الله .. إنى أقف الموقف أريد وجه الله وأريد أن يرى موطنى(٢) ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ حتى نزل : ﴿ .. **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾(٣) رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

وعن جندب بن عبد الله ، قال : قال النبى ﷺ : « من سمَّع سمَّع الله به ، ومن يراء يراء الله به »(٤) رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة ، قال سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » رواه الترمذي في التفسير من جامعه وابن ماجه .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لى عملاً أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذي أشرك »(٤) رواه ابن ماجه ورواته ثقات .

* * *

---

(١) البقرة : ٢٦٤ . (٢) الموطن المشهد من مشاهد الحرب .

(٣) الكهف : ١١٠ . (٤) سمع وراءى به : أى فضحه .

(٥) أى أن عمله للذي أشركه مع الله لأن الله برىء منه .

فلتكن أخا الإسلام مخلصاً في عطائك حتى يكون ثوابك مستمراً ، وحتى يدوم اتصالك لله وفي الله ، لأنه ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل(١) .

* * *

ولتكن في عونك لإخوانك الفقراء والمساكين ، في إخفائك للعطاء ، مثل : « جابر عثرات الكرام » وهو عكرمة الفياض والى الجزيرة العراقية ، الذي سمع أن خزيمة بن بشر وهو سيد من سادات العراق .. وكان قد أسرف في النفقة فأصابه الفقر فلزم داره لا يبرحها .

فلما علم خزيمة بحاله ، أسف له .. ثم في ليلة ذهب إليه متنكراً ، وأعطاه مالاً كثيراً أصلح به حاله ، ولم يعرفه بنفسه ، سوى أنه : « جابر عثرات الكرام » .

وهذه القصة تاريخية واقعية حدثت في أيام الدولة الأموية .

وقد صاغها الشاعر الأستاذ محمود غنيم رحمه الله ، في قالب شعري جميل رأيت من الخير أن أعرضه بنصه :

والمشهد : في منزل خزيمة ، وقد ظهر عليه الفقر والكآبة ، وخزيمة راقد على حصير بال ، وليس بجانبه إلا خادمه عمرو ، الذى يناجى نفسه قائلاً :

ويحى وويح سيدى ... أزرى به ضيق اليد(٢)
أطال من رقاده ... لكنه لم يرقد(٣)
كيف ينام وهو طا ... وى البطن لم يزود(٤)
قد لزم البيت ، لزو ... م راهب لمعبد(٥)

* * *

يا قصر كنت ملجأ ... رحباً لكل مجتدى
لقد هوى الفقر بعا ... لى ركنك المشيد

---

(١) كما ورد في الأثر .
(٢) ويحى : رحمة لى . وويح سيدى : رحمة له .. وضيق اليد : الفقر .
(٣) تناوم ولكنه لجوعه لم ينم .
(٤) طاوى البطن : جائع ، لم يزود : ليس لديه زاد .
(٥) الراهب : الزاهد العابد من النصارى . المعبد : مكان العبادة .

لو لاح لى الفقر بوجـــهه الكئـــيب الأسود
إذن أطـــحت رأسه بصارم مهنـــد
كى يستريح النــاس من هذا الشقــاء السرمــدى !

(صوت من مخدع خزيمة) : ياعمرو.

عمرو : لبيك يا مولاى !

خزيمة : خذ بيدى .. ويحى ! صروف الليالي أوهنت جلدى .

عمرو وهو ينهضه:

يا سيدى إننى من كل نازلة أفديك بالنفس قبل الأهل والولد

خزيمة ، وهو داخل المسرح :

لم يبق لى غير عمــرو هو الجديـــر بشكـــرى
باق على العهـــد واف في حال يسر وعسر
فوجهـــه وجــه عبـــد وفعلـــه فعـــل حر
كم من صديـــق وفى قد صد عنـــى لفقـــرى

عمرو يوجه كلامه إلى سيده خزيمة :

مولاى إنك في ضيق ومتربة لكن صحبك في النعماء يلهونا
امدد إليهم يداً ، كم فاض نائلها كم يا خزيمة واسيت المساكينا !

خزيمة في غضب :

حاشا يمد ابن بشر للسؤال يدا ولو تناول زقوماً وغسلينا

عمرو ، وقد بدا عليه الندم :

عفواً خزيمة ، إشفاقي عليك محا رشدي فأصبحت يامولاي مجنوناً!

خزيمة :

ياعمــرو ويحك ! هل أصبحت تمقتنا في الضيق ، هل أنت أيضاً زاهـدفينـا؟

خزيمة :

كلا لعمــرك ، لم أقصد ، يلـوح على ملامحى أننـــى مازلت مجنونـــا !

خزيمة :

ياعمـــرو لاتذكـــر لنـــاالجنونـــا هون علــيك الأمــر كى يهونـــا

ماذا لديك اليوم من عشاء لى مدة ما اقتت غير الماء

عمرو :

أعددت زاداً طيباً شهيا هيا بنا إلى العشاء هيا

خزيمة :

وما الذي أعددته يا عمرو ؟ .

عمرو : خبز ، وزيت دسم وتمر !

خزيمة :

من أين يا عمرو اشتريت الزيتا ؟ والتمر من أين به أتيتا ؟

عمرو :

بعت السراج سيدي بدرهم وقلت : يكفينا ضياء الأنجم
ثم اشتريت ذلك الطعاما ألست عبداً حاذقاً هماما ؟

(يهمان بتناول الطعام ، فيسمع طرق على الباب)

خزيمة : طارق بالباب !

عمرو وهو يفتح : من ذا يطرق ؟

سائل :

أنا مستجد فقير مملقاً جئت أستجدي ابن بشر درهما

عمرو : ترزق ! .

السائل :

لا تكن لحزاً شحيحاً يا فتى إن مولاك غمام مغدق

عمرو :

سيدي ليس هنا .

خزيمة : لا بل هنا .

حاضر ، ويحك هلا تصدق !

أعطه الزاد الذي هيأته ..

عمرو في دهشة :

سيدى نحن إليه أشوق

السائل :

لك شكرى يا بن بشر إنما أنت في الرقة بدر مشرق

وبعد أن ينصرف السائل شاكراً يقول خزيمة مخاطباً عمرو :

ذاك يا عمرو فقير جائع فإذا لم يعط زاداً يسرق
ما تعودت قديماً أن أرى منزلى في وجه عاف يغلق
يا إلهى لك أشكو علتى همة عليا ، وعيش ضيق !

(ثم يخاطب عمرو) :

أيا عمرو ويحك لا تعذل متى ضاق عن طارق منزلى
سأصبر صبر الجواد الكريم إلى أن أرى غمرتي تنجلى
أرى الحر مثل الحسام إذا لم يقلب على النار لم يصقل
لئن أك أصبحت من غير مال فإنى بمالى لم أبخل !
إذا ساء يومى صبرت وطاب رجائى في الزمن المقبل
إذا صد عنى الأخلاء فالأر ض لم تخل من ماجد مفضل

(يسمع طرقاً على الباب ، عمرو يفتح ويقول) :

عمرو :

من يدق الباب ؟ من ؟ ماذا جرى ؟ سائل ! أم شاعر يا هل ترى ؟

(يرى عكرمة متنكراً)

من أنت يا مولاى ؟

عكرمة (وهو متنكر مقنع) :

لست أدرى أين الفتى خزيمة بن بشر ؟

عمرو ، يلتفت إلى سيده ويقول :

مولاى .. زائر مخيف منظره أخوف ما أخافنى تنكره

خزيمة يسير نحو عكرمة :

هل لك حاجة فأقضيها لكا ؟

عكرمة يمد يده إليه بصرة مال :

خذ هذه أصلح بها أحوالكا

خزيمة مندهشاً ، لا يصدق ما يرى :

من أنت أيها الكريم المجزل ؟

عكرمة :

آسف ، لا جواب عما تسأل

خزيمة :

أقسمت لا قبلت ما منحتا   إلا إذا عرفتنى من أنتـا !

عكرمة :

خزيمة خطــبك عز(١) على   وذاد(٢) عن العين طيب المنام

بربك لا تفسدن صنيعــي(٣)   بهتك الحجاب وكشف اللثام

إذا رمت أن تعرف اسمى فإنى   أنــا جبر عثرات الكــرام(٢)

خزيمة :

بربك يا صاح زدني بياناً

عكرمة :

محال ، ومنى عليك السلام

خزيمة لعمرو بعد انصراف عكرمة :

يا عمرو أوقد السراج حالاً   حتى نعد هذه الأمـــوالا

عمرو :

أين السراج هل نسيت أننا   بعناه عصراً واشترينا قوتنا

ثم يأخذ عمرو الصرة ويقول :

أنا أعـد المال في الظـلام   عمرو غدا أبصر من حذام(٥)

إن بريق الـذهب الوهـاج   يشق جوف كل ليل داج(٦)

ويعد المال ويقول :

ألف وألف ، ثم ألف متبعة   من الدنـانير بألـف أربعــة

---

(١) عز : صعب .   (٢) ذاد : أى منع .

(٣) صنيعي : جميلي ومعروفي .

(٤) أى أنا المنقذ للكرام المفتقرين ، والآخذ بأيديهم ليصلحوا أحوالهم .

(٥) حذام : اسم امرأة تلقب بزرقاء اليمامة ، يضرب بها المثل في حدة البصر .

(٦) الوهاج : أى الساطع ، وليل داج : أى مظلم .

فيقول خزيمة متعجباً :

من ذا الذي جاد بها ! يا للعجب   ما سمعت بمثل ذاك العرب

* * *

فهذه القصة كما قرأنا : تصور شهامة العرب ، وحب الجود ، والكرم المطبوع فيهم ، وإقالتهم لمن يعثر منهم ، ولا سيما من اشتهروا بينهم بالشهامة والنجدة ، ليبقوا لهم شهامتهم وكرامتهم .

* * *

وكان حاتم الطائى من كبار المشهورين بالكرم في الجاهلية .. لدرجة — كما قيل عنه — أنه كان يوقد النار فوق الجبل ليراها الجائع ، وكان يقول لعبده : اذهب فإن أتيتنى بضيف فأنت حر .

وحتى يتضح لنا من هو هذا الرجل العربي الأصيل فإننى أحب — هنا — أن أذكر بما ذكره الأصبهانى في الأغانى حيث يقول(١) :

حدث الإمام على كرم الله وجهه ، قال : لما أتينا بسبايا طيىء ، كانت في النساء جارية جميلة — وهى سفانة(٢) بنت حاتم — فلما رأيتها أعجبت بها ، فقلت لأطلبنها إلى رسول الله ﷺ ليجعلها من فيئى ، فلما تكلمت أنسيت جمالها ، لما سمعت من فصاحتها ، فقالت :

« يا محمد .. هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت أن تخلى عنى ، فلا تشمت بي أحياء العرب ، فإنى بنت سيد قومى(٣) . كان أبي يفك العانى(٤) ، ويحمى الذمار ، ويقرى الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا بنت حاتم طيء » .

فقال لها رسول الله ﷺ : « يا جارية .. هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق

---

(١) كما جاء كذلك في جمهرة خطب العرب ج ١ ص ١٦٩ .

(٢) السفانة في الأصل : اللؤلؤة .

(٣) جواب الشرط محذوف وهذا تعليل له ، أى افعل فإني ..

(٤) العانى : أى الأسير .

والله يحب مكارم الأخلاق »[1] .

وقيل : إنها قبل أن تنصرف عائدة إلى قومها طلبت من النبى ﷺ أن يأذن لها بأن تدعو له بثلاث دعوات .. فلما أذن لها .. قال :

١ ــ ملكتك يد افتقرت بعد غنى .

٢ ــ ولا ملكتك يد غنيت بعد فقر .

٣ ــ لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة .

ثم عادت بعد ذلك إلى أخيها عدى بن حاتم ، وقالت له: جئتك من عند خير الناس .. ثم عادت ــ كما قيل ــ بعد ذلك معه إلى رسول الله ﷺ وأعلنا إسلامهما .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، حتى تكون إن شاء الله من أهل المعروف الذين يزرعون الجميل في كل مكان يقيمون فيه ، ولا سيما بين الأقرباء والأصدقاء الذين قد يكونون في أشد الحاجة إلى معروفك ، والذين لن يتأكد وفاؤك لهم إلا بمثل هذا .. كما يقول الإمام الشافعى رحمه الله :

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقي

وتلك هى الأخوة الصادقة المشار إليها في قول القائل :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان[2] صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

ولهذا قال علقمة بن لبيد يوصي ولده :

يا بنى .. إن احتجت إلى صحبة الرجال ، فاصحب من إن صحبته زانك ، وإن أصابتك خصاصة[3] أعانك ، وإن قلت سدد[4] قولك ، وإن صلت[5] قوى صولتك ، وإن بدت منك ثلمة[6] سدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن سألته أعطاك ، وأن نزلت بك إحدى المهمات واساك[7] ، من لا تأتيك منه البوائق[8] ، ولا تختلف عليك منه الطرائق .

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٩٣ (٢) ريب الزمان أى أهواله ،
(٣) خصاصة : أى فقر (٤) سدد قولك : أى وجهه (٥) صلت : أى وثبت
(٦) ثلمة : هى الخلل في الحائط وغيره ، والجمع ثلم مثل غرفة وغرف .
(٧) واساك : أى عاونك (٨) البوائق : جمع باقة وهى الداهية والشر الشديد .

ولما كان الزمان لا أمان له ، فإنني أحب أن ننتقل معاً الآن إلى صلب الموضوع الذي ندور حوله ، والذى كان ما وقفنا عليه تمهيداً له .. وهو أنه إذا كان العكس هو الصحيح ، وأعنى بهذا .. أنك إذا كنت في ضيق أو كرب .. أو كنت في حاجة إلى وقفة إنسانية أخوية من جانب إنسان تعرفه أو لاتعرفه ..فكان كما رجوت منه ، أو أملت فيه .. فإنه ينبغي عليك أن تقابل الإحسان بالإحسان ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾(١) .

وذلك بأن تشكره على هذا الصنيع الجميل ، شكراً إيجابياً .. بمعنى : أن تكافئه عليه .. وهذا أمر طبيعي .. حدث على سبيل المثال من جانب النمل عندما أراد أن يشكر سيدنا سليمان عليه السلام .

وخلاصة ما أريد التذكير به ، حول هذا الموضوع ، هو ما ذكره القرطبي حول قوله تعالى ، في سورة النمل :

﴿ حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك في عبادك الصالحين ﴾(٢) :

فقد قال القرطبي حول تفسير هاتين الآيتين ما خلاصته :

أن سليمان عليه السلام مر على وادي النمل بوادي السدير من أودية الطائف ، وقيل : بأرض الشام ، فقامت نملة تمشى وهى عرجاء تتكاوس مثل الذئب في العظم ، فنادت : ﴿ **ياأيها النمل ..** ﴾ فسمعها سليمان عليه السلام من على بعد ثلاثة أميال .. قال وهب : أمر الله الريح ألا يتكلم أحد بشيء إلا طرحته في سمع سليمان ، بسبب أن الشياطين أرادت كيده .. فلما سمعها سليمان عليه السلام : تبسم ضاحكاً من قولها .. ثم أمر الجند بأن يعسكروا بعيداً عن وادى النمل حتى يدخل مساكنه .. فلما فعل الجند هذا ، ذهبت النملة هذه لتشكره ، فقال لها معاتباً : لم حذرت النمل ؟ أخفت ظلمى ؟ أما علمت أنى نبى عدل ؟ فلم قلت : ﴿ **يحطمنكم سليمان وجنوده** ﴾ ؟ فقالت النملة : أما سمعت قولى : ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ ، مع أنى لم أرد حطم النفوس ، وإنما أردت

---

(١) الرحمن : ٦٠ .

(٢) النمل : ١٨ ، ١٩ .

حطم القلوب خشية أن يتمنين مثل ما أعطيت ، أو يفتتن بالدنيا، ويشتغلن بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر . فقال لها سليمان : عظيني . فقالت النملة : أما علمت لم سمى أبوك داوود ؟ قال : لا . قالت : لأنه داوى جراحة فؤاده ، هل علمت لم سميت سليمان ؟ قال : لا . قالت : لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك ، وإن لك أن تلحق بأبيك . ثم قالت : أتدرى لم سخر الله لك الريح ؟ قال : لا . قالت : أخبرك أن الدنيا كلها ريح . ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها ﴾ متعجباً ..

ثم مضت مسرعة إلى قومها ، فقالت : هل عندكم من شيء نهديه إلى نبى الله ؟ قالوا : وما قدر ما نهدى له ! والله ما عندنا إلا نبقة واحدة . قالت : حسنة ، ايتوني بها . فأتوها بها ، فحملتها بفيها[1] فانطلقت تجرها ، فأمر الله الريح فحملتها ، وأقبلت تشق الإنس والجن والعلماء والأنبياء على البساط ، حتى وقعت بين يديه ، ثم وضعت تلك النبقة من فيها في كفه ، وأنشأت تقول :

ألم ترنا نهدى إلى الله ماله وإن كان عنا ذا غنى فهو قابله
ولو كان يهدى للجليل بقدره لقصر عنه البحر يوماً وساحله
ولكننا نهدي إلى من نحبه فيرضى به عنا ويشكر فاعله
وما ذاك إلا من كريم فعاله وإلا فما في ملكنا ما يشاكله

فقال لها : بارك الله فيكم ، فهم بتلك الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله .

ولهذا ، قال ابن عباس رضى الله عنه : نهى النبى ﷺ عن قتل أربع من الدواب : « الهدهد ، والصرد ، والنملة ، والنحلة » أخرجه أبو داوود وصححه أبو محمد عبد الحق .

فالنملة : أثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه بأنهم لا يشعرون إن حطموكم ، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم ، فنفت عنهم الجور ، ولذلك نهى عن قتلها .

---

(١) أى بفمها .

وعن قتل الهدهد : لأنه كان دليل سليمان على الماء ورسوله إلى بلقيس .

وقال عكرمة : إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان باراً بوالديه .

والصرد يقال له الصوام . وروى عن أبي هريرة قال : أول من صام الصرد ، ولما خرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم في بناء البيت كانت السكينة معه والصرد ، فكان الصرد دليله على الموضع والسكينة مقداره .. إلخ .

* * *

فالهدية ، كما عرفنا مشروعة :

فقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقبل الهدية ، وفيه الأسوة الحسنة . ومن فضل الهدية مع اتباع السنة أنها تزيل حزازات النفوس ، وتكسب المهدي والمهدي إليه حبا في اللقاء والجلوس ، ولقد أحسن من قال :

هدايا الناس بعضهم لبعض   تولد في قلوبهم الوصالا
وتزرع في الضمير هوى وودا   وتكسبهم إذا حضروا جمالا

وقال آخر :

إن الهدايا لها حظ إذا وردت   أحظى من الابن عند الوالد الحدب

* * *

وقد أورد القرطبي ست مسائل في موضوع الهدية ، حول قوله تعالى : ﴿ وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾[1] ، إليك تلخيصها :

الأولى : أنها عندما قالت هذا ، كان من حسن نظرها وتدبيرها .. لأنها أرادت أن تجربه بها .. فإن كان ملكاً دنيوياً أرضاه المال وعملت معه بحسب ذلك ، وإن كان نبياً لم يرضه المال ولازمنا في أمر الدين .. فينبغي لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه .. فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس في تفصيلها :

(١) النمل : ٣٥ .

فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : أرسلت إليه بلبنة(١) من ذهب ، فرأت الرسل الحيطان من ذهب فصغر عندهم ما جاءوا به .

وقال مجاهد : أرسلت إليه بمائتي غلام ومائتي جارية .

وروى عن ابن عباس : باثنتي عشرة وصيفة مذكرين قد ألبستهم زى الغلمان ، واثنى عشر غلاماً مؤنثين قد ألبستهم زى النساء ، وعلى يد الوصائف أطباق مسك وعنبر ، وباثنتي عشرة نجيبة تحمل لبنة الذهب ، وبخرزتين إحداهما مثقوبة ، والأخرى مثقوبة ثقباً معوجاً ، وبقدح لا شيء فيه ، وبعصا كان يتوارثها ملوك حمير ، وأنفذت الهدية مع جماعة من قومها . وقيل : كان الرسول واحداً ولكن كان في صحبته أتباع وخدم . وقيل : أرسلت رجلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو ، وضمت إليه رجالاً ذوى رأى وعقل . والهدية مائة وصيف ومائة وصيفة ، قد خولف بينهم في اللباس ، وقالت للغلمان : إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث يشبه كلام النساء ، وقالت للجوارى : كلمنه بكلام فيه غلظ يشبه كلام الرجال ، فيقال : إن الهدهد جاء وأخبر سليمان بذلك كله ، وقيل : إن الله أخبر سليمان بذلك ، فأمر سليمان عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسع فراسخ بلبنات الذهب والفضة ، ثم قال : أى الدواب رأيتم أحسن في البر والبحر ؟ قالوا : يا نبى الله .. رأينا في بحر كذا دواب منقطة مختلفة ألوانها ، لها أجنحة وأعراف ونواصى ، فأمر بها فجاءت فشدت على يمين الميدان وعلى يساره ، وعلى لبنات الذهب والفضة ، وألقوا لها علوفاتها ، ثم قال للجن : على بأولادكم ، فأقمهم ـــ أحسن ما يكون من الشباب ـــ عن يمين الميدان ويساره .

ثم قعد سليمان عليه السلام على كرسيه في مجلسه ، ووضع له أربعة آلاف كرسى من ذهب عن يمينه ومثلها عن يساره ، وأجلس عليها الأنبياء والعلماء ، وأمر الشياطين والجن والإنس أن يصطفوا صفوفاً فراسخ ، وأمر السباع والوحوش والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله ، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ، ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم

---

(١) المراد قالب من الذهب .

أحسن منها تروث على لبنات الذهب والفضة ، تقاصرت إليهم أنفسهم ، ورموا ما معهم من الهدايا ..

وكانت قد عمدت إلى حقة من ذهب فجعلت فيها درة يتيمية غير مثقوبة ، وخرزة معوجة الثقب ، وكتبت كتاباً مع رسولها تقول فيه : إن كنتِ نبياً فميز بين الوصفاء والوصائف ، وأخبر بما في الحقة ، وغرفنى رأس العصا من أسفلها ، واثقب الدرة ثقباً مستوياً ، وأدخل خيط الخرزة ، واملأ القدح ماء من ندى ليس من الأرض ولا من السماء ، فلما وصل الرسول ووقف بين يدى سليمان أعطاه كتاب الملكة فنظر فيه ، وقال : أين الحقة ؟ فأتى بها فحركها ، فأخبره جبريل بما فيها ، ثم أخبرهم سليمان . فقال له الرسول : صدقت ، فاثقب الدرة ، وأدخل الخيط في الخرزة ، فسأل سليمان الجن والإنس عن ثقبها فعجزوا ، فقال للشياطين : ما الرأى فيها ؟ فقالوا : ترسل إلى الأرضة ، فجاءت الأرضة فأخذت شعرة في فيها حتى خرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت : تصير رزقي في الشجر ، فقال لها : لك ذلك . ثم قال سليمان : من لهذه الخرزة يسلكها الخيط ؟ فقالت دودة بيضاء : أنا لها يا نبى الله ، فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت : تجعل رزقي في الفواكه ، قال : ذلك لك ، ثم ميز بين الغلمان والجوارى . قال السدى : أمرهم بالوضوء ، فجعل الرجل يحدر الماء على اليد والرجل حدراً ، وجعل الجواري يصببن من اليد اليسرى على اليد اليمنى ، ومن اليمنى على اليسرى ، فميز بينهم بهذا .. ثم أرسل العصا إلى الهواء ، فقال : أى الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها ، وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها ، ثم رد سليمان الهدية .. فروي أنه لما صرف الهدية إليها وأخبرها رسولها بما شاهد ، قالت لقومها : هذا أمر من السماء .

المسألة الثانية : كان النبى ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما في نفسها ، على ما ذكرناه من كون سليمان ملكاً أو نبياً ، لأنه قال لها في كتابه :

﴿ **ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين** ﴾[1] وهذا لا تقبل فيه فدية ، ولا يؤخذ عنه هدية ، وليس هذا من الباب الذى تقرر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل ، وإنما هى رشوة وبيع الحق بالباطل ، وهى الرشوة التى لا تحل . وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال ، وهذا ما لم تكن من مشرك .

المسألة الثالثة : فإن كانت من مشرك ، ففى الحديث : « نهيت عن زبد المشركين » ، يعنى رفدهم وعطاياهم . وروى عنه عليه السلام أنه قبلها كما في حديث مالك عن ثور بن زيد الديلي وغيره ، فقال جماعة من العلماء بالنسخ فيهما ، وقال آخرون : ليس فيها ناسخ ولا منسوخ ، والمعنى فيها :

أنه كان لا يقبل هدية من يطمع بالظهور عليه وأخذ بلده ودخوله في الإسلام ، وبهذه الصفة كانت حالة سليمان عليه السلام ، فعن مثل هذا نهى أن تقبل هديته حملاً على الكف عنه ، وهذا أحسن تأويل للعلماء في هذا ، فإنه جمع بين الأحاديث، وقيل غير هذا .

المسألة الرابعة : الهدية مندوب إليها ، وهى مما تورث المودة وتذهب العداوة ، روى مالك عن عطاء بن عبد الله الخراسانى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تصافحوا يذهب الغل وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء » وروى معاوية بن الحكم، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تهادوا فإنه يضعف[2] الود ويذهب بغوائل الصدر » وقال الدارقطنى : تفرد به ابن بجير عن أبيه عن مالك ، ولم يكن بالرضى ، ولا يصح عن مالك ولا عن الزهرى . وعن ابن شهاب قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ ، قال : « تهادوا بينكم فإن الهدية تذهب السخيمة » قال ابن وهب : سألت يونس عن السخيمة ما هى ؟ فقال : الغل . وهذا الحديث وصله الوقاصى عثمان عن الزهرى وهو ضعيف ..

المسألة الخامسة : روى عن النبى أنه قال : « جلساؤكم شركاؤكم في الهدية » واختلف في معناه ، فقيل : هو محمول على ظاهره . وقيل : سشاركهم على وجه الكرم والمروءة ، فإن لم يفعل فلا يجبر عليه .وقال أبو يوسف : ذلك فى الفواكه ونحوها . وقال بعضهم : هم شركاء فى السرور

---

(1) النمل : ٣١ .

(2) أي يضاعفه .

لا في الهدية . والخبر محمول في أمثال أصحاب الصفة والخوانق والرباطات ، أما إذا كان فقيهاً من الفقهاء اختص بها فلا شركة فيها لأصحابه ، فإن أشركهم فذلك كرم وجود منه .

المسألة السادسة : قوله تعالى : ﴿ **فناظرة** ﴾ أى منتظرة ﴿ **بم يرجع المرسلون** ﴾(١) قال قتادة : يرحمها الله إن كانت لعاقلة في إسلامها وشركها ، قد علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس ..

وهذا المعنى الأخير ــ الوارد في نهاية المسألة السادسة ــ هو المراد من الهدية حتى يشعر المهدى إليه أن المهدي قريب من قلبه ، وأنه قد رضى بصنيعه فيه بتلك الصنورة التى عبر عنها بتلك الهدية ، التى لا يشترط أن تكون غالية الثمن ، وإنما بما يستطيع التعبير به عن شكره لهذا الذي قدم له تلك الخدمات المصلحية أو الاجتماعية أو الأسرية التي ربما كلفه تحقيقها الكثير من الوقت والنفقات التى قد لا يستطيع لضيق وقته أو كبر سنه ، أو قلة المال في يده : أن يحققها بسهولة ويسر وبدون عقبات .. إلخ .

على شريطة ألا تكون الهدية هذه رشوة مقنعة ، أو على حساب مصالح الآخرين ..

إن فعلاً مشيناً كهذا لا يمكن أبداً أن يكون حلالاً ، وإنما هو حرام حرام حرام .

قال الله تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون** ﴾(٢) .

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما :

هذا في الرجل يكون عليه مال ، وليس عليه فيه بينة ، فيجحد المال ، ويخاصم إلى الحكام ، وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام .

وقال غيره : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم .

وعلى هذا ، فلو ذهب فلان هذا الذى يريد أن يأكل أموال الناس بالباطل ــ وهو يعلم هذا ــ إلى فلان من الناس يعمل في نفس الحقل الذي فيه

---

(١) النمل : ٣٥ .　　(٢) البقرة : ١٨٨ .

مستندات القضية ، وأعطاه هدية — مقنعة — لكى يساعده في تحقيق مطلبه أو بغيته الآثمة : فإن الهدية هذه ستكون رشوة يحرم أخذها كما يحرم إعطاؤها .

وقد أعجبنى كلام كتبه صاحب كتاب « صوت المنبر » وهو الشيخ محمد الحجار من علماء حلب ، حيث يقول حول هذا الموضوع :

فالذى يقبل الرشوة من الموظفين العاملين على خدمة الجمهور ، يكون قد أخل بالأمن وأفسد نظام الحكم .

الراشى والمرتشى مجرمان أثيمان ، يدفع الأول أجراً على فساد العدل ، ويأخذ الثانى أجراً على الإخلال بالأمن .

والمال الذى يأخذه المرتشى سحت ونار يعاقب عليه عقاباً أليماً ، لأنه يهدم شريعة قام عليها ركن العدل بين الأمم .

ثم يضرب بعد ذلك الأمثال ، فيقول :

أضرب لك مثلاً : وظيفة خلت في أعمال الدولة وتقدم إليها الطالبون الذين يرون في أنفسهم الأهلية والكفاءة ، فإذا ساعد رئيس من رؤساء العمل الحكومى أحد المتقدمين : إما لقرابته ، أو لمال أخذه منه ، أو لقضاء مصلحة تعود عليه ، فهو ملعون آثم يحاسب على إثمه في الدنيا والآخرة .

كذلك إذا قبل موظف الإهمال في عمل من الأعمال ، أو غض بصره عن أمر من الأمور ، مقابل هدية(1) أو مال أخذه ، فهو آثم خائن ، لأنه بإهماله أضر بمصلحة عمله ، وخان أمته وضميره .

ثم يقول : وعلى هذا القياس كل من يقبل مالاً ، أو يأخذ هدية ، لقاء تفريط في عمل وجب عليه عمله ، أو لقاء نفع أحد لا يستحق النفع ، أو لقاء شفاعة من يستحق العقوبة ، فذلك كله من باب الرشوة .

ومتى انتشرت الرشوة في قوم من الأقوام ، أو شعب من الشعوب ، أفسدت أخلاقهم ، وأضاعت كرامتهم ، وهدمت أركان العدل فيما بينهم ، وبثت العداوة والبغضاء في أنفسهم .

فكم وكم من جرائم ارتكبت !! وكم من قتلى ضاع دمهم! وكم من حقوق

---

(1) قال أحد الحكماء : « إذا دخلت الهدية من الباب خرج الحق من الكوة » : أى خرج من النافذة .

طمست !! وما كان لذلك من سبب إلا الرشوة .

أما إذا عمت الأمانة الناس ، وعرفوا أن الرشوة حرام قد حرمها الإسلام ، وحرمها الحكام ، يعاقب عليها في الدنيا بالسجن والتعزير ، فضلاً عن الخزى في الآخرة ودخول النار .

إذا عرف الناس كل ذلك ارتدعوا وخافوا من الله تعالى في الدار الآخرة ، وكانوا حريصين في الدنيا على حفظ كرامتهم ، وصيانة دينهم ، وسلامة بلادهم .

المرتشى خسيس النفس ، وضيع القدر ، دنىء الهمة ، لأنه يأخذ أجراً خفياً ، ومالاً مختلساً كأنه سرقة .

والراشى طامع فيما لا يستحق ، راغب في شيء متوهم ، يريد أن ينال بالمؤامرة التى عقدها مع الموظف ما ليس له بحق .

ثم يقول بعد ذلك مشيراً إلى خطر الرشوة :

وباب الرشوة كثيراً ما يسلب الناس أموالهم ، ويفسد ضمائرهم ، ويضيع دينهم ، وهى فضلاً عن ذلك تقدم من يستحق الإقصاء والتأخير ، وتؤخر من يستحق القرب والتقديم . فالرشوة : فساد لميزان العدل الذي قامت عليه السموات والأرض ، وقام عليه عمران الكون والمجتمع .

كان المسلمون في الصدر الأول : يتحرون الصدق ، والعدل ، والأمانة في كل أمورهم ، أما نحن : فإذا رأينا من يتصف بالصدق ويتحرى العدل ولا يقبل الرشوة عددناه غريباً ، لأن الفضائل ذهبت أدراج الرياح ، وحلت محلها الرذيلة في أقبح مظاهرها ..

فهذا سمسار يخفى على الناس أثمان السلع ليشتريها دون ما تستحق ، ويأخذ هو الفرق زيادة على أجرته التى يأخذها .

وهذا رجل يدعى لشهادة حق قد رآه بعينه ، فما هى إلا أن يتصل به الظالم ، فيبدل الحق باطلاً ، أو يكتم الشهادة من أصلها ، ويتعامى عن الحق الأبلج الظاهر ، فيضيع حق المظلوم لقاء رشوة أخذها من الظالم ، أو لمجاملة صديق ، أو مداهنة صاحب أو قريب ، أو غير ذلك من الأسباب المعروفة التي أصبحت اليوم بين الناس مألوفة ..

وهذا يكتم الجرائم القبيحة كالسرقات ، وهتك الأعراض ، وسفك الدماء ، فلا يبلغها لذوى الشأن متى أخذ الرشوة ..

وهكذا انتشرت الرشوة انتشاراً واسعاً في الدوائر والدواوين ، لأن اللصوص الجالسين خلف المناضد عرفوا كيف يحولون بين جرائم المجرمين وبين المسئولين .

فكم من قتيل عرف قاتله وذهب دمه هدراً ، لأن القاتل قدم مالاً أو اشتغل لرئيس !!!

وكم من اختلاسات أتلفت وعرف متلفوها ، فذهبت ضحية الرشوة .

وكم من باطل ارتفع ، وكم من حق انخفض ، فكان الرافع والخافض هو الرشوة .

وكم وكم مما لا يأتي عليه العد ، ولا يحيط به الحصر .. فالبلاء كله من الرشوة .

فالرشوة هى : المعول الهدام للأخلاق ، وللأمن ، وللفضيلة ، وللدين .

وهى : شر مستطير ، وبلاء كبير وخطر عظيم ، فلعنة الله على الراشين والمرتشين — والرائشين(١) — والله لا يهدي كيد الخائنين .

فلا تنس كل هذا أخا الإسلام ، حتى لا تقع في هذا الجرم الكبير .. الذى قد تفعله — لجهلك بحقيقته — بحسن نية وأنت تحسب أنك تحسن صنعاً .

مع ملاحظة أن الذى سيعينك على هذا ، لن يفعل فيك معروفاً ، وإنما سيعينك على الإثم والعدوان الذى لا يصح ولا يجوز أن يكافأ عليه .. والله تعالى يقول :

﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب ﴾(٢) .

ولهذا ، فقد رأيت — أخا الإسلام — وبعد العرض السريع الذي أرجو أن يكون حجة لنا لا علينا : أن أذكرك ونفسى ببعض الأحاديث الشريفة المرهبة من الرشوة وأكل حقوق الناس بالباطل ، حتى تكون دائماً وأبداً نصب عينيك وفي حلك وترحالك حيثما كنت ..

(١) الرائش ، هو الواسطة بين الراشي والمرتشى ، وهو ملعون مثلهما ، كما ورد في الحديث الشريف .
(٢) المائدة : ٢ .

فإليك :

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال : « لعن رسول الله ﷺ : الراشى والمرتشى » رواه أبو داوود والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه ، ولفظه :

قال رسول الله ﷺ : « لعنة الله على الراشي والمرتشي » رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

قال في الترغيب والترهيب معلقاً على هذا الحديث — في الهامش — ما نصه :

أما الراشى فهو مستحق لذلك الوعيد إذا كان يريد بدفع الرشوة أن يعين على الباطل أو أخذ ما لا حق له فيه أو تقدما على من هو أولى منه . وإما ما يعطيه توصلاً إلى أخذ حق لا سبيل إلى تحصيله إلا بالرشوة أو توسلاً إلى دفع ظلم : فهذا غير داخل تحت الوعيد ، فقد روى أن ابن مسعود أخذ بأرض الحبشة في شيء فأعطى دينارين حتى أخلى سبيله .

وروى عن جماعة من أئمة التابعين قالوا : لا بأس أن يصانع الرجل عن نفسه وماله إذا خاف الظلم . ومنع ذلك الشوكانى ، وقال : « فالحق التحريم مطلقاً أخذاً بعموم الحديث ، ومن زعم الجواز في صورة من الصور فإن جاء بدليل مقبول وإلا كان تخصيصه رداً عليه فإن الأصل في مال المسلم التحريم » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : لعن رسول الله ﷺ : « الراشى والمرتشى في الحكم » رواه الترمذي وحسنه ، وابن حبان في صحيحه والحاكم(١) وزادوا : والرائش ، يعنى الذي يسعى بينهما .

الرائش : بالشين المعجمة : هو السفير بين الراشى والمرتشى .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : « الرشوة في الحكم كفر ، وهى بين الناس سحت » رواه الطبراني موقوفاً بإسناد صحيح .

سحت : أى حرام لا يحل أكله ، وسمى الحرام سحتاً لأنه يسحت البركة أى يهلكها .

هذا .. وإذا كان النبى ﷺ ، قد ختم وصيته — التى ندور حولها — بقوله : « فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه » ..

---

(١) وكذلك رواه أحمد رحمه الله .

فإن النبي ﷺ ، يريد أن يقول لنا : إن عجزتم عن تقديم مكافأة لمن صنع فيكم معروفاً .. فأثيبوه على جميله هذا ، بالدعاء الصالح .. حتى تروا أنكم قد كافأتموه .

وهذا معناه أن الحبيب المصطفى ﷺ يرغبنا في ضرورة أن نكافىء الذي صنع فينا معروفاً ولو بالدعاء له .. وخصوصاً بظهر الغيب :

روى مسلم وأبو داوود عن صفوان بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قدمت الشام فأتيت أبا الدرداء في منزله فلم أجده ، ووجدت أم الدرداء فقالت : أتريد الحج العام ؟ قلت : نعم . قالت : فادع الله لنا بخير ، فإن النبى ﷺ كان يقول : دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل ، كلما دعا لأخيه بخير ، قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل(١) . قال : فخرجت إلى السوق فلقيت أبا الدرداء . فقال لى مثل ذلك عن النبى ﷺ .

ولأبي داوود والترمذي : أن النبي ﷺ قال : « أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لغائب » .

ورويا عن عمر قال « استأذنت النبي ﷺ في العمرة فأذن لي وقال : « لاتنسنا يا أخي من دعائك » فقال عمر : « كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا » .

فإذا كنت أخا الإسلام ستدعو لأخيك المسلم الذي صنع فيك معروفاً بالخير : فإن هذا سيكون أعظم مكافأة له ، لأنه قد يكون في أشد الحاجة إلى دعائك له ، ولا سيما بظهر الغيب ـــ كما عرفت ـــ .

وإذا كان الوالدان والعلماء ، والأصدقاء الأوفياء ، والأبناء الصالحون .. قد صنعوا فينا خيراً : بتربيتهم ، وتوجيههم ، ووفائهم وبرهم لنا ..

فإنه لا يسعنا إلا أن ندعو لهم : بأن يجزيهم الله تعالى عنا خير الجزاء ، وأن يجمعنا بهم في مستقر رحمته سبحانه وتعالى ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .. آمين .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

* * *

---

(١) أى وأدعو لك بمثل ذلك .

الوصية السادسة والخمسون

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

إن الدنيا حلوة خضرة[1]، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون: فاتقوا الدنيا[2] واتقوا النساء[3]، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء.

رواه مسلم

(١) شبه النبى صلى الله عليه وسلم الدنيا من حيث الرغبة فيها والإقبال والتكالب عليها والميل بالكلية إليها بفاكهة (خضرة) المنظر (حلوة) المذاق .

(٢) فاتقوا الدنيا ، أى احذروها .

(٣) واتقوا النساء ، أى الافتتان بهن .

● هذا وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا التوجيه الجامع قد حذرنا من الدنيا والنساء ، فإنه بهذا صلوات الله عليه وسلامه قد أكد لنا خطورة الدنيا وخطورة النساء ، وذلك لأن الدنيا كما وصفها الله تعالى فى قرآنه : (... لعب ولهو وزينة وتفاخر) وهى متاع الغرور .
ولأن الافتتان بالمرأة غالباً ما يؤدى إلى الضياع فى الدنيا والآخرة .. والعياذ بالله .

فكن أخا الإسلام :

دارساً مدققاً في هذه الوصية العظيمة التي تحتاج منا جميعاً إلى طول تأن .. حتى نفهم المراد من قوله ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة » :

شبه النبي ﷺ — وهو أبلغ البلغاء — الدنيا من حيث الرغبة فيها والإقبال والتكالب عليها والميل بالكلية إليها بفاكهة « خضرة » المنظر « حلوة » المذاق .

هى الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار من بطشى وفتكى
فلا يغرركمـوا منـى ابـتسام فقولى مضحك والفعل مبكى

ولهذا ، فإن العبد العاقل هو الذي يفهم هذا عن الدنيا ، وهو الذي يتعامل معها أو فيها على أساسٍ من قول الله تبارك وتعالى عنها :

﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾(١) .

وقوله : **﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾**(٢) .

وقوله : **﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً . المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا ﴾**(٣) .

* * *

ففى تلك الآيات القرآنية : يخبرنا الله تعالى بحقيقة الدنيا ، ويضرب لنا

---

(١) الحديد : ٢٠ (٢) يونس : ٢٤ (٣) الكهف : ٤٥ ، ٤٦

الأمثال الموضحة لتلك الحقيقة التي يجب ألا تغيب أبداً عن أفكارنا حتى لا نغتر بالدنيا ونشغل بها عن الآخرة التي هى الدار الحقيقية ، كما يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان(١) ، لو كانوا يعلمون ﴾(٢) .

ويوم أن يشغل الإنسان بالدنيا عن الآخرة ، أو بالفانية عن الباقية ، فإن هذا سيكون معناه الضياع الكامل بل هو الخسران المبين ، المشار إليه في قول الله تبارك وتعالى :

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾(٣) .

وذلك لأن الدنيا قد استطاعت ببعض ما فيها ، أو بكل ما فيها من فتن ظاهرة أو باطنة أن تغرر بهم وتجعلهم من المشتغلين بها ، أو العاملين من أجلها بتلك الصورة التى ألهتهم عن الهدف الأسمى من وجودهم في هذه الحياة الأولى ، وهو المشار إليه في قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾(٤) .

وليست العبادة كما يتصور الجهلاء مجرد صلاة أو زكاة أو صيام أو حج .. ، وإنما هى كذلك مع كل تلك الأساسيات الدينية : تنفيذ كل ما أمر الله تعالى به ، والابتعاد عن كل ما نهى الله تعالى عنه .

وفي القرآن الكريم يأمرنا الله تبارك وتعالى بالعمل لدنيانا حتى في يوم الجمعة الذي يستريح فيه أكثرنا ، فيقول : **﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾(٥) .**

ويقول : **﴿ .. فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ﴾(٦) .**

---

(١) أى لهى الحياة الحقيقية
(٢) العنكبوت : ٦٤ .
(٣) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٤) الذاريات : ٥٦ ـــ ٥٨ .
(٥) الجمعة : ١٠ .
(٦) الملك : ١٥ .

وذلك حتى تعمر الأرض كما أرادها الله تعالى ، يوم أن قال للملائكة : ﴿ .. إني جاعل في الأرض خليفة .. ﴾(١) .

وهو أبونا آدم عليه السلام الذي أنزله تعالى من الجنة لكي يكون خليفة لله في الأرض فيعمرها هو وأولاده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإلى هذا يشير كتاب « قصص القرآن » في حديثه عن قصة أبينا آدم عليه السلام ، حيث يقول :

خلق الله الأرض في يومين ، وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها(٢) في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا : أتينا طائعين .

ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، ثم خلق ملائكته الذين يسبحون بحمده ، ويقدسون اسمه ، ويخلصون في عبادته .

ثم شاءت إرادته ، واقتضت حكمته أن يخلق آدم وذريته ، ليسكنوا الأرض ويعمروها ، فأنبأ ملائكته أنه سينشيء خلقاً آخر ، يسعون في الأرض ويمشون في مناكبها ، وينتشر نسلهم في أرجائها ، فيأكلون من نبتها ، ويستخرجون الخيرات من باطنها ، ويخلف بعضهم بعضاً فيها .. ا هـ .

* * *

وقد سخر الله سبحانه وتعالى للإنسان كل شيء في هذا الكون حتى يتيسر لهم عمارة الكون وتنفيذ أحكام الله فيه ، وفق ما أراده الله تعالى واقتضته حكمته ، وإلى هذا يشير الله سبحانه وتعالى ، في سورة النحل ، حيث يقول :

﴿ خلق السموات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرؤوف

---

(١) البقرة : ٣٠ (٢) أي أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم .

رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم ﴾(١) .

ويقول : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من في السموات والأرض ، كل له قانتون ﴾(٢) .

وكل هذا حتى يكون الإنسان أهلاً لخلافة الله في الأرض — وحتى لا تكون له حجة — وذلك لن يكون إلا بالإيمان الصادق الذى وعد الله أصحابه بالاستخلاف في الأرض والتمكين فيها ، كما يشير إلى هذا قول الله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم

(١) النحل : ٣ — ١٨ .
(٢) الروم : ٢٠ — ٢٦ .

وليبدلنهم من بعد خوف أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾(١) .

فإذا كان النبى ﷺ قد قال كما قرأنا في نص الوصية : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها » ثم قال : « فينظر كيف تعملون » : فلعلنا بعد أن عرفنا حقيقة الدنيا وعرفنا كذلك معنى الإستخلاف فيها : سنعمل بعد ذلك ومع ذلك على إثبات وجودنا فيها بصورة إيجابية ، يرانا الله سبحانه وتعالى فيها كما يحب ويرضى .

وذلك لن يكون إلا إذا اغتنمنا كل لحظة في تلك الحياة الأولى وتقربنا فيها إلى الله تعالى بعمل صالح .. يضمن لنا الفلاح في دنيانا وأخرانا .. قال تعالى : **﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾**(٢) والحياة الطيبة تكون في الدنيا والجزاء الحسن يكون في الآخرة .

ولهذا ، فإن العبد الموفق هو الذى تراه في هذه الدنيا عاملاً لآخرته التي فيها معاده والتي فيها سعادته الحقيقية التي لا بد أن يفوز بها .. بمعنى أن يجعلها مزرعة لآخرته .. فهى كما ورد فى الأثر : « ميراث المغرورين ، وميدان الفاسقين ، وسوق الراغبين ، ومسكن البطالين ، وسجن المؤمنين ، ومزبلة المتقين ، ومزرعة العاملين » ..

ذم رجل الدنيا عند على بن أبي طالب رضى الله عنه ، فقال على رضي الله عنه :

الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مهبط وحى الله ، ومصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومتجر أوليائه ، ربحوا منها الرحمة واحتسبوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ، ونادت بفراقها ، وشبهت بسرورها السرور وببلائها البلاء ترغيباً وترهيباً ، فيا أيها الذام الدنيا المعلل نفسه ، متى خدعتك الدنيا أم متى استذمت إليك !(٣) أبمصارع آبائك في البلى ! أم بمضاجع أمهاتك في الثرى !

---

(١) النور : ٥٥ .　　　　(٢) النحل : ٩٧ .

(٣) استذمت إليك : أى فعلت ما تذمها على فعله .

كم مرضت بيديك ، وعللت بكفيك ، تطلب له الشفاء ، وتستوصف له الأطباء ، غداة لا يغني عنه دواؤك ، ولا ينفعه بكاؤك ..

وقد ورد كذلك أنه رضى الله عنه كان يقول :

إن لله عباداً فطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحى وطنا
جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا

ويقول :

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
النفس ترغب في الدنيا وقدعلمت ... أن الزهادة فيها ترك ما فيها
فاغرس أصول التقى ما دمت مجتهداً ... واعلم بأنك بعد الموت لاقيها

* * *

ولهذا ، فقد ثبت أن النبي ﷺ قال في أول خطبة خطبها بالمدينة ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله :

« أما بعد : أيها الناس .. فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ؟ وآتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم . فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته » ذكرها ابن هشام في سيرته ، وأخرجها أيضاً البيهقي .

وفي خطبة أخرى يرويها علي رضى الله عنه ، يقول صلوات الله وسلامه عليه ، بعد أن حمد الله وأثني عليه بما هو أهله .

« أما بعد ، أيها الناس .. كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذي نشيع من الأموات سفر عما قليل

إلينا راجعون . نبوئهم أجداثهم(١) ونأكل من تراثهم كأنا مخلدون بعدهم . قد نسينا كل واعظة ، وأمنا كل جائحة(٢) طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس . طوبى لمن طاب كسبه ، وصلحت سريرته ، وحسنت علانيته ، واستقامت طويته . طوبى لمن تواضع لله في غير منقصة ، وأنفق مالاً جمعه في غير معصية ، وجالس أهل الفقة والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة ، طوبي لمن زكت نفسه وحسنت خليقته وطابت سريرته وعزل عن الناس شره . طوبي لمن أنفق الفضل(٣) من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة ولم تستهوه البدعة » ..

وفي رواية : « ولم يعد عنها إلى البدعة » أخرجه أبو نعيم وقد ورد بألفاظ متقاربة .

* * *

إنك أخا الإسلام إن فعلت هذا الذى رغبك فيه الرسول ﷺ في هاتين الخطبتين : ستكون قد أثبت وجودك في هذه الحياة الأولى بصورة إيجابية سيكافئك الله تعالى عليها ، لأنه سبحانه وتعالى يقول في قرآنه :

﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون ﴾(٤) .

كما يشير إلى هذا أيضاً قول الله تبارك وتعالى :

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب ﴾(٤) .

ثم يقول بعد ذلك :

﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ﴾(٥) .

---

(١) جمع جدث وهو القبر ، أي ننزلهم مقابرهم (٢) الجائحة : الآفة المهلكة .
(٣) أى الزائد من المال (٤) البقرة : ٢٥ .
(٥) آل عمران : ١٤ . (٦) آل عمران : ١٥ .

ثم يقول بعد ذلك متحدثاً عن مواصفات هؤلاء العباد الذين أعد لهم في جناته كل هذا الخير العظيم :

﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾(١) .

كما يشير إلى هذا أيضاً قول الله تبارك وتعالى :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك ، نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾(٢) .

* * *

ثم إذا كان النبى ﷺ قد قال بعد ذلك في نص الوصية : « فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت في النساء » :

فإنه بهذا صلوات الله وسلامه عليه يحذرنا أولاً من حب الدنيا بتلك الصورة التى كثيراً ما كانت سبباً في ضياع الكثيرين من هؤلاء الذين اغتروا بها ، وخدعوا بملذاتها وشهواتها .. حتى أصبحوا لا يفكرون إلا فيها ولا يعملون إلا من أجلها .. مع أنهم لو عرفوا حقيقتها لبصقوا في وجهها ولما استطاعت أبداً أن تصل إلى قلوبهم .. حتى تتربع عليها .

وقد قرأت في كتاب « عيون الأخبار » ما نصه :

حدثنى محمد بن داوود ، قال : حدثنا أبو الربيع عن حماد عن على بن زيد عن الحسن أن النبى ﷺ قال للضحاك بن سفيان « ما طعامك » قال : اللحم واللبن ، قال : « ثم يصير إلى ماذا » ؟ قال : ثم يصير إلى ما قد علمت . قال : « فإن الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا » قال : وكان بشير بن كعب يقول لأصحابه إذا فرغ من حديثه : انطلقوا حتى أريكم الدنيا ، فيجىء فيقف بهم على السوق ، وهى يومئذ مزبلة ، فيقول : انظروا إلى عسلهم وسمنهم وإلى دجاجهم وبطهم صار إلى ما ترون .

---

(١) آل عمران : ١٦ ، ١٧ .　　(٢) الكهف : ٣٠ ، ٣١ .

وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق ، والناس كنفتيه[1] فمر بجدى أسك ميت[2] ، فتناوله بأذنه ثم قال : « أيكم يحب أن له هذا بدرهم ؟[3] فقالوا : ما نحب أن لنا بشيء ، وما نصنع به ؟[4] قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حياً لكان عيباً فيه لأنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : والله للدنيا أهون[5] على الله عز وجل من هذا عليكم » رواه مسلم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : مر النبى ﷺ بشاة ميتة قد ألقاها أهلها[6] ، فقال : والذي نفسي بيده ، للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها » رواه أحمد بإسناد لا بأس به .

وعن أبي الدرداء رضى الله عنه ، قال : مر النبى ﷺ بدمنة[7] قوم فيها سخلة[8] فقال : « ما لأهلها فيها حاجة ؟[9] قالوا : يا رسول الله .. لو كان لأهلها فيها حاجة ما نبذوها[10] ، فقال : والله للدنيا أهون على الله من هذه السخلة على أهلها فلاألفينها[11] أهلكت أحداً منكم » رواه البزار والطبراني في الكبير من حديث ابن عمر بنحوه ، ورواتهما ثقات ، ورواه أحمد من حديث أبي هريرة ولفظه : أن رسول الله ﷺ مر بسخلة جرباء قد أخرجها أهلها ، قال : « أترون هذه هينة على أهلها ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : الدنيا أهون على الله من هذه على أهلها » .

ففي الأحاديث الثلاثة : يقسم صلوات الله وسلامه عليه ، بأن الدنيا بكل زخارفها ومتاعها أهون وأحقر عند الله من شاة ميتة على أهلها ، والمراد

---

(١) تثنية كنفه وهى الناحية ، أى عن يمينه وشماله .
(٢) أسك ميت : صفتان لجدى والمراد أنه ليس فيه ما يرغب فيه وهو صغير الأذن .
(٣) وفي بعض الروايات أن يكون له هذا بدرهم .
(٤) يعنى وأى شيء نصنعه به وهو ميت وقصير الأذن .
(٥) أى أشد هواناً وأحقر .
(٦) أى طرحوها في مزبلة من المزابل لتكون طعمة للكلاب .
(٧) أى مزبلة وجمعها دمن .
(٨) السخلة ولد الشاة والجمع سخل .
(٩) الكلام على الاستفهام يعنى أليس لأهلها فيها منفعة حتى طرحوها هكذا .
(١٠) النبذ طرح الشيء وإلقاؤه لعدم الاعتداد به .
(١١) يعنى فلا أجدنها .

أنها لا تساوى شيئاً أصلاً .

والدليل علي هذا أيضاً ، ما ورد :

عن سهل بن سعد رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا تعدل[1] عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء »[2] رواه ابن ماجه والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

وذلك حتى لا نحب الدنيا ونشغل بها عن الآخرة .. فقد ورد :

عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » رواه أحمد ورواته ثقات ، والبزار وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي في الزهد وغيره ، كلهم من رواية المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أبي موسى وقال الحاكم : صحيح على شرطهما .

* * *

ولهذا ، فقد ثبت أن النبى ﷺ كان يحذر أصحابه من زهرة الدنيا وزينتها :

فعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال : « إن مما أخاف عليكم ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » رواه البخارى ومسلم في حديث ، وكذلك رواه ابن أبي حاتم ، قال : « أنبأنا يونس أخبرني ابن وهب أخبرني مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن أبي سعيد ، أن رسول الله ﷺ ، قال : إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح لكم من زهرة الدنيا . قالوا : وما زهرة الدنيا ؟ قال : بركات الأرض » .

وحول تفسير معنى « زهرة الدنيا » قال قتادة والسدى : يعنى زينة الحياة الدنيا ، وعلى هذا فقوله « زينتها » عطف تفسير ، ويجوز أن يراد بالزهرة ما يتمتع به فيها من الشهوات .

* * *

---

(١) أى تزن .

(٢) وهذا دليل على حقارة الدنيا عند الله تعالى .

ولم يكن الرسول ﷺ ، يقول هذا لأصحابه محذراً إياهم من زهرة الدنيا وزينتها فحسب ، وإنما كان كذلك في نفس الوقت قدوة لهم في العزوف عن زهرة الدنيا وزينتها :

فعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، قال : خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ، ولم يشبع هو ولا أهله من خبز الشعير . رواه البزار بإسناد حسن .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية(١) فدعوه(٢) ، فأبى أن يأكل(٣) ، وقال : خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ، ولم يشبع من خبز الشعير . رواه البخارى والترمذي .

وقد علل أبو هريرة امتناعه عن الأكل بأنه يحب الاقتداء برسول الله ﷺ في زهده وتعففه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر(٤) وهو على حصير قد أثر في جنبه ، فقال : يا رسول الله .. لو اتخذت فراشا أوثر(٥) من هذا ؟ فقال : « مالى وللدنيا ، وما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف(٦) ، فاستظل تحت شجرة ساعة(٧) ثم راح وتركها » رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي .

نعم ..

وما دنياك إلا مثل ظل أظلك ثم آذن بارتحال

وهذا هو المعنى الذى لا بد أن نقف على أبعاده ، حتى نكون من العقلاء الذين عرفوا حقيقة الدنيا فاعتبروها قنطرة للآخرة :

فعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له » رواه أحمد والبيهقي ، وزاد : « ومال من لا مال له » وإسنادهما جيد .

---

(١) أى مشوية . (٢) أى عزموا عليه ليأكل معهم .
(٣) أى امتنع من إجابتهم تعففاً وزهداً واستكثاراً لهذا الطعام .
(٤) وكان هذا فيما روى عندما آلى رسول الله ﷺ من نسائه شهراً وأشيع أنه طلقهن فاستأذن عليه عمر رضى الله عنه ليسأله عن ذلك ، فلما دخل وجده نائماً على حصير .. إلخ .
(٥) أفعل تفضيل من قولهم : فراش وثير أى وطىء لين .
(٦) صائف : أى حار . (٧) أى بقدر ما تنكسر شدة الحر ويعتدل الجو .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد : مالى مالى ، وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى(١) ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فاقتنى ما سوى ذلك ، فهو ذاهب ، وتاركه للناس » رواه مسلم .

فمعنى « أو أعطى فاقتنى » أى : تصدق وأنفق فادخر ثواب ذلك عند الله عز وجل ، قال في المصباح : « أقناه أعطاه وأرضاه واقتنيته اتخذته لنفسى قنية ، والمعنى يشيد بماله المكارم لتبقي له ذخيرة في حياته وآخرته » .

وحسب الإنسان العاقل أن يلاحظ هذا دائماً وأبداً إلى آخر لحظة في حياته حتى تكون الدنيا مطية له ، وحتى يكون المال في يده لا في قلبه .

وذلك حتى لا يكون من أهل الطمع في الدنيا بتلك الصورة التى حذر النبى ﷺ منها ، في حديث قال فيه : « .. وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر »(٢) .

ولهذا فقد قال الشافعى رضى الله عنه مشيراً إلى هذا المعنى الكبير :

أمت مطامعى فأرحت نفسي ... فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكان ميتاً ... وفي إحيائه عرضي مصون
إذا طمع يحل بقلب عبد ... علته مهانة وعلاه هون

وكان رضى الله عنه يقول :

إنا إن عشت لست أعدم قوتاً ... أو إن مت لست أحرم قبرا
همتى همة الكرام ونفسى ... نفس حر ترى المذلة كفرا

وعن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « طوبى(٣) لمن هدى للإسلام ، وكان عيشة كفافاً وقنع » رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول ﷺ ، قال : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً(٤) ، وقنعه الله بما آتاه » رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

---

(١) « ما أكل فأفنى » إلخ بدل من ثلاث أى الذي أكله فأذهبه وغيبه .
(٢) جزء من حديث شريف سنده صحيح .
(٣) أى العافية الطيبة ، وقيل هي شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام .
(٤) الكفاف ، أى الذي ليس فيه فضل عن الكفاية .

ولهذا .. فقد رأيت بعد هذا العرض السريع الذي أرجو أن نكون من خلاله قد عرفنا لماذا حذرنا النبي ﷺ من حب الدنيا .. رأيت بالإضافة إلى هذا ، وحتى تتضح الصورة أكثر ، وأكثر ، أن أذكر بقصة ــ ذكرها الشيخ علي محفوظ رحمه الله ، في كتابه « هداية المرشدين » ــ حيث يقول في مضمونها :

روى أن عيسى عليه السلام كان مع صاحب له يسيحان فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية ، فقال لصاحبه : انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية ، وقام سيدنا عيسى يصلى ، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة ، فأبطأ عليه انصراف سيدنا عيسى ــ من الصلاة ــ فأكل رغيفاً ، فانصرف عيسى فقال : أين الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كانا إلا رغيفين ، فمرا على وجوههما حتى مرا بظباء ترعى ، فدعا عيسى عليه السلام ظبياً منها فذكاه ــ أى ذبحه ــ فأكلا منه ، ثم قال عيسى للظبى : قم بإذن الله ، فإذا هو يشتد ــ أى يقوم حياً ــ فقال الرجل : سبحان الله ! فقال له عيسى : بالذى أراك هذه الآية ، من صاحب الرغيف ــ الثالث ــ ؟ قال : ما كانا إلا اثنين . فمضيا فمرا بنهر عظيم فأخذ عيسى بيده فمشى به على الماء حتى جاوزا الماء . فقال الرجل : سبحان الله !! فقال عيسى : بالذى أراك هذه الآية ، من صاحب الرغيف ؟ فقال : ما كانا إلا اثنين ، فخرجا حتى أتيا قرية عظيمة خربة ، وإذا قريب منها لبن ثلاثة من ذهب ــ أى قوالب ثلاثة من الذهب ــ فقال عيسى عليه السلام : واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث ، فقال : أنا صاحب الرغيف ، فقال عيسى عليه السلام : هى لك كلها . وفارقه ، فأقام عليها ليس معه ما يحملها عليه ، فمر به ثلاثة نفر فقتلوه وأخذوا اللبن ــ قوالب الذهب ــ فقال اثنان منهم لواحد : انطلق إلى القرية فأتنا بطعام ، فذهب ، فقال أحد الإثنين الباقيين : نقتل هذا إذا جاء ونقسم هذا بيننا ، فقال الآخر : نعم ، وقال الذي ذهب يشتري الطعام ــ مخاطباً نفسه ــ أجعل في الطعام سماً فأقتلهما وآخذ اللبن وحدي ففعل . فلما جاء قتلاه وأكلا من الطعام الذي جاء به ، فماتا . فمر بهم بعد ذلك سيدنا عيسى ، فلما رآهم جميعاً صرعى حول الذهب . قال لمن معه من الحواريين : هكذا الدنيا تفعل بأهلها .

نعم .. هكذا الدنيا تفعل بأهلها .. وما حدث لهؤلاء الأربعة : صورة من تلك المشاهد الكثيرة التى تحدث كثيراً وكثيراً في كل زمان ومكان بسبب حب الدنيا .. لأن حب الدنيا كما ورد في الأثر : « رأس كل خطيئة » :

فمن أحب الدنيا أحب نفسه ، ومن أحب نفسه انفصل عن أسرته ، ومن انفصل عن أسرته انفصل عن المجتمع .. ومن انفصل عن المجتمع أصبح عدواً له بتلك الصورة التى غالباً ما تكون سبباً في ارتكاب الجرائم الأخلاقية والاجتماعية .. بل والأسرية .

وقد أعجبنى كلام ذكره فضيلة الشيخ على محفوظ رحمه الله ، في كتابه « هداية المرشدين » باختصار ، تحت عنوان :

النهى عن الانهماك في طلب الدنيا

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قال تعالى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا من مارزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون** ﴾[1] .

إن من نظر إلى الدنيا بعين البصيرة أيقن أن نعيمها ابتلاء ، وحياتها عناء ، وعيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، أما بنعمة زائلة ، أو بلية نازلة ، أو منية قاضية ، مسكين ابن آدم .. رضى بدار حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، إن أخذه من حلال حوسب عليه ، وإن أخذه من حرام عذب به . من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، من أحبها أذلته ، ومن أبصر إليها أعمته ، والناس فيها طائفتان :

طائفة فطناء ، علموا أنها ظل زائل ، ونعيم حائل ، وأضغاث أحلام ، بل فهموا أنها نعم في طيها نقم ، وعرفوا أن هذه الحياة الفانية ، إنما هى طريق إلى الحياة الباقية ، فرضوا منها باليسير ، وقنعوا فيها بالقليل ، فاستراحت قلوبهم وأبدانهم ، وسلم لهم منها دينهم ، وكانوا عند الله تعالى هم المحمودين ، لم

---

(١) المنافقون : ٩ ــ ١١ .

تشغلهم دنياهم عن طاعة مولاهم ، جعلوا النفس الأخير وما وراءَه نصب أعينهم ، وتدبروا ماذا يكون مصيرهم ، وفكروا كيف يخرجون من الدنيا وإيمانهم سالم لهم ، وما الذى يبقى معهم منها في قبورهم ، وما الذى يتركون لأعدائهم(١) في الدنيا ، ومن لا يغنيهم من الله شيئاً يوم لا ينفع مال ولا بنون ، ويبقى عليهم وباله ونكاله ، أدركوا كل هذا فتأهبوا للسفر ، وأعدوا الجواب للحساب ، وقدموا الزاد للمعاد « وخير الزاد التقوى » فطوبى لهم ، خافوا فأمنوا ، أحسنوا ففازوا .

وطائفة أخرى جهلاء : عمى البصائر لم ينظروا في أمرها ، ولم يتكشفوا سوء حالها ومآلها ، برزت لهم بزينتها ففتنتهم فإليها أخلدوا ، وبها رضوا ، ولها اطمأنوا ، حتى ألهتهم عن الله تعالى وشغلتهم عن ذكره وطاعته : ﴿ .. **نسوا الله فأنساهم أنفسهم** ﴾(٢) . جعلهم بسبب ذلك ناسين لها حتى لم يسمعوا ما ينفعها ، ولم يفعلوا ما يخلصها ، وسيرون يوم القيامة من الأهوال ما ينسيهم أرواحهم ويجعلهم حيارى ذاهلين ﴿ **يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾(٣) .

وفي مثل هؤلاء يقول الشيخ ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى : « اجتهادك فيما ضمن لك مع تقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك » . أقاموها فهدمتهم ، واعتزوا بها من دون الله فأذلتهم ، أكثروا فيها من الآمال ، وأحبوا طويل الآجال ، ونسوا الموت وما وراءه من أهوال ومخاوف فخاب أملهم وضل سعيهم وخسروا الدنيا ولم يدركوا الآخرة .

روى الترمذي من حديث أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **من كانت الآخرة همه : جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهى راغمة . ومن كانت الدنيا همه : جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له ، فلا يمسى إلا فقيراً ، ولا يصبح إلا فقيراً . وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه**

---

(١) من الأزواج والأولاد ، كما يشير إلى هذا قول الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم** ﴾ .. (التغابن : ١٤) .

(٢) الحشر : ١٩ . (٣) الحج : ٢ .

بالود والرحمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع » .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام حتى لا تفتن بالدنيا فتشغل بها عن الآخرة ، وحتى لا تكون بسبب ذلك — كما عرفت من خلال ما وقفت عليه — قد خسرت الدنيا والآخرة .

وحسبى في نهاية هذا التذكير والتحذير من فتن الدنيا : أن أذكرك ونفسي بخطبة من خطب الرسول ﷺ ، يقول فيها : « أيها الناس : إن لكم معالم[1] فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، إن المؤمن بين مخافتين ، بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله تعالى قاض عليه فيه . فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت . والذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب[2] ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » ذكره أبو بكر الباقلانى في كتابه « إعجاز القرآن » .

واذكر كذلك قول الله تعالى للدنيا[3] :

« يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تزينت لهم ، إنى قذفت في قلوبهم بغضك والصبر عنك ، ما خلقت خلقاً أهون على منك ، إنى قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومى لأحد ولا يدوم لك أحد » .

فاحرص أخا الإسلام على أن تكون من هؤلاء الأبرار حتى تسلم من شر الدنيا .. التى أولها بكاء وأوسطها عناء وآخرها فناء — كما وصفها على كرم الله وجهه — ، والتى وصفها رسول الله ﷺ كذلك ، بأنها : « .. دار التواء ، لا دار استواء ، ومنزل ترح ، لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء .. » .

إنما الدنيا فناء ليس للدنيا ثبوت

---

(١) جمع معلم كمذهب وهو في الأصل الدليل في الطريق ، والمراد به هنا حدود الشريعة المطهرة .
(٢) أى ليس بعد الموت استرضاء لأنه وقت جزاء لا وقت عمل .
(٣) أى في الحديث القدسي .

إنما الدنيـــا كبـــيت نسجتـــه العنكبـــوت
كل ما فيها لعمـــرى عن قريب سيمـــوت
ولقـــد يكفـــيك منها أيها العاقـــــل قوت

* * *

جدير بالتواضع من يموت وحسب المرء من دنياه قوت
فما للمرء يصبح ذا هموم وحرص ليس تدركه النعوت
فيا هذا سترحل عن قريب إلى قوم كلامهم السكوت

* * *

وأما عن التحذير من الافتتان بالنساء المشار إليه في قول الرسول ﷺ ، في نص الوصية بعد التحذير من فتن الدنيا :

« واتقوا النساء » :

فذلك ، لأنهن ــ كما ورد(١) ــ : حبائل الشيطان وفخوخه ، ولا دين لهن ولا عقل عندهن ، وإن كان القليل منهن عابدات صابرات قانتات تائبات ، غير أن الحكم عادة للغالب . ففي الحديث الشريف : « يا معشر النساء تصدقن وأكثرن من الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار ، فقالت امرأة منهن جزلة(٢) : ومالنا يا رسول الله أكثر أهل النار ؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن . قالت : يا رسول الله .. وما نقصان العقل والدين؟ قال : أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل . فهذا من نقصان العقل . وتمكث الليالي ما تصلي(٣) ، وتفطر في رمضان . فهذا من نقصان الدين » أخرجه ابن ماجه .

وفي رواية : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أسلب للب الرجل الحازم من إحداهن ، لو صنعت معها الدهر معروفاً ثم رأت منك إساءة واحدة ، قالت : ما رأيت منك خيراً قط » .

---

(١) كما يقول في هامش الدين الخالص ج ٤ ص ٢٤٣

(٢) بفتح فسكون : أى ذات رأى .

(٣) وذلك بسبب الحيض والنفاس وكذلك بالنسبة للإفطار في رمضان بسبب ذلك . وبعد الطهر تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة .

وعن وهب بن منبه ، قال : عاقب الله المرأة بعشر خصال : شدة النفاس ، وبالحيض ، وبالنجاسة في بطنها وفرجها ، وجعل ميراث امرأتين ميراث رجل واحد ، وشهادة امرأتين كشهادة رجل ، وجعلها ناقصة العقل والدين لا تصلى أيام حيضها ، ولا يسلم على النساء ، وليس عليهن جمعة ولا جماعة ، ولا يكون منهن نبى ، ولا تسافر إلا بولى .

وكان يقال : ما نهيت امرأة قط عن شيء إلا أتته .

وقال طفيل في هذا المعنى :

إن النساء كأشجار نبتن معا منها المرار وبعض المر مأكول
إن النساء متى ينهين عن خلق فإنه واقع لا بد مفعول

وعن رجاء بن حيوة قال : قال معاذ : إنكم ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم ، وإنى أخاف عليكم فتنة السراء ، وإن من أشد ذلكم عندى النساء ، إذا تحلين بالذهب، ولبسن ربط الشام(١) وعصب(٢) اليمن ، فأتعبن الغنى ، وكلفن الفقير ما لا يجد .

وقد ذكر في هامش « عيون الأخبار » كتاب النساء (ص ١١٣) ، الحديث الآتى تعليقاً على هذا القول السابق :

قال ﷺ : « أخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء . قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : إذا لبسن ربط الشام ، وحلل العراق ، وعصب اليمن ، وملن كما تميل أسنمة البخت ، فإذا فعلن ذلك كلفن المعسر ما ليس عنده . استعيذوا بالله من شر النساء ، وكونوا من خيارهن على حذر » .

وهذا الذي قاله الرسول ﷺ والذي وقفنا عليه في هذه الأخبار ، معناه كما عرفنا ، أن الرجل العاقل هو الذي يستعيذَ بالله من شر النساء ، ويكون من خيارهن على حذر ، وذلك حتى يسلم من كيدهن الذى أشار الله سبحانه وتعالى إليه في قوله : ﴿ .. **إن كيدكن عظيم** ﴾(٣) ، والكيد : المكر والحيلة .

قال في القرطبي : وإنما قال « عظيم » لعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن . وقال مقاتل عن يحيى بن كثير عن أبي هريرة قال : قال رسول

---

(١) أى كل ثوب رقيق .
(٢) وهو كل برد يصبغ غزله ثم ينسج ، لا يثنى ولا يجمع ، وإنما يثنى ويجمع ما يضاف إليه .
(٣) يوسف : ٢٨ .

الله ﷺ : « ان كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول : ﴿ **ان كيد الشيطان كان ضعيفا** ﴾(١) وقال : ﴿ **ان كيدكن عظيم** ﴾ .

* * *

ومن كيد امرأة العزيز بسيدنا يوسف .. ما أشار اليه سبحانه وتعالى فى قوله : ﴿ **وراودته التي هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين** ﴾(٢)

والخلاصة ـــ كما يقول القرطبى ـــ : وفى الخبر أنها قالت له : يايوسف .. ما أحسن صورة وجهك ! قال : فى الرحم صورنى ربى ، قالت : يايوسف .. ما أحسن شعرك ! قال : هو أول شيء يبلى منى فى قبرى ، قالت : يايوسف .. ما أحسن عينيك ! قال : بهما أنظر الى ربى . قالت : يايوسف .. ارفع بصرك فانظر فى وجهى ، قال : انى أخاف العمى فى آخرتى . قالت : يايوسف .. أدنو منك وتتباعد منى ؟ ! قال : أريد بذلك القرب من ربى . قالت : يايوسف .. القيطون(٣) فادخل معى ، قال : القيطون لا يسترنى من ربى . قالت : يايوسف .. فراش الحرير قد فرشته لك ، قم فاقض حاجتى ، قال : إذن يذهب من الجنة نصيبى ، إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها ، إلى أن هم بها .

وقد ذكر بعضهم : ما زال النساء يملن إلى يوسف ميل شهوة حتى نبأه الله ، فألقى عليه هيبة النبوة ، فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه . ثم يقول القرطبى :

واختلف العلماء فى همه ، ولا خلاف أن همها كان المعصية ، وأما يوسف فهم بها : ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ ، ولكن لما رأى البرهان ماهم ، وهذا لوجوب العصمة للأنبياء ، قال الله تعالى : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين** ﴾ فان فى الكلام تقديماً وتأخيراً ، أى لولا

---

(١) النساء : ٧٦ .

(٢) يوسف : ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) القيطون : المخدع ، أعجمى .

أن رأى برهان ربه لهم بها . قال أبو حاتم : كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله : ﴿ **ولقد همت به وهم بها** ﴾ الآية ، قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير ، كأنه أراد ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها ..

وقوله تعالى : ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ والجواب محذوف لعلم السامع ، أى لكان ما كان . وهذا البرهان غير مذكور في القرآن ، فروى عن على بن أبي طالب رضى الله عنه ، أن زليخة قامت إلي صنم مكلل بالدر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستحى من إلهى أن يرانى في هذه الصورة ، فقال يوسف : أنا أولى بأن أستحى من الله ، وهذا أحسن ما قيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل . وقيل : رأى مكتوباً في سقف البيت : ﴿ **ولا تقربوا الزنا ، إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا** ﴾[1] .

وقال ابن عباس : بدت كف مكتوب عليها : ﴿ **وإن عليكم لحافظين** ﴾[2] . وقال قوم : تذكر عهد الله وميثاقه . وقيل : نودى يا يوسف .. أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ؟! وقيل : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضاً على أنملته يتوعده فسكن ، وخرجت شهوته من أنامله ، قاله قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وأبو صالح وسعيد بن جبير . وروى الأعمش عن مجاهد قال : حل سراويله فتمثل له يعقوب ، وقال له : يا يوسف .. فولى هارباً . وروى سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبير ، قال : مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله ، قال مجاهد : فولد لكل واحد من أولاد يعقوب اثناعشر ذكراً إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان ، ونقص بتلك الشهوة ولده ، وقيل غير هذا . ثم يقول القرطبي :

وبالجملة : فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوى إيمانه، وامتنع عن المعصية .

* * *

---

(١) الإسراء : ٣٢ . (٢) الانفطار : ١٠ .

وإذا كان الكيد كما علمنا هو المكر ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله** ﴾[1] ، وتوضيحاً لهذا :

فقد حكى أن خدم بعض الملوك وجدوا طفلاً في الطريق فالتقطوه ، فأمر الملك بتربيته وضمه إلى أهل بيته وسماه أحمد اليتيم ، فلما نشأ ظهرت عليه أمارات النجابة والذكاء فهذبه وعلمه، ولما حضرته الوفاة ، أوصى به ــ الملك ــ ولى عهده ، فضمه إليه واصطفاه وأخذ عليه العهد أن يكون له وفياً وخادماً أميناً ، وبعد ذلك قدمه في أعماله فصار حاكماً على جميع حاشية الأمير ، ومتصرفاً في شئون قصره .

وفي أحد الأيام أمره أن يحضر شيئاً من بعض حجراته ، فذهب ليحضره فرأى بعض جواري الأمير الخاصة به مع شاب من الخدم يفسقان ويزنيان فتوسلت إليه الجارية أن يكتم هذا الخبر ووعدته بكل ما يطلب ، وراودته عن نفسه لتأمن شره ، فقال لها : معاذ الله أن أخون الأمير ، وقد أحسن إلى .. ثم تركها وانصرف على أن يكتم السر . لكن الجارية أوجست في نفسها خيفة وتوهمت أن أحمد اليتيم سيفشى أمرها للأمير ..فما كان منها إلا أن انتظرت الأمير حتى حضر إلى قصره ثم ذهبت إليه باكية شاكية فسألها ما خبرها ؟ فقالت : إن أحمد اليتيم راودها عن نفسها وكان يريد أن يقهرها على الزنا ، فلما سمع الأمير ذلك غضب واشتد غضبه ، وعزم على قتله .. ثم دبر قتله في الخفاء حتى لايعلم الناس بقتله وبسبب هذا القتل . فقال لكبير خدمه : إذا بعثت إليك أحداً بطبق يطلب منك كذا وكذا فاقطع رأسه وضع الرأس في الطبق ، وابعث به إلى .. فأجاب الخادم بالسمع والطاعة .

وفي يوم من الأيام أحضر الأمير أحمد اليتيم وقال له : اذهب إلى فلان الخادم ، وقل له يعطيك كذا وكذا .. فامتثل الأمر وذهب .. إلا أنه لقى في طريقه بعض الخدم ، فأرادوا أن يحكموه بينهم في أمر فاعتذر وقال : إنه مكلف بقضاء أمر الأمير .. فقالوا : نبعث فلاناً الخادم نائباً عنك ليحضر ما تطلبه حتى تفصل في شأننا .. فأجابهم إلى ما طلبوا ، فأرسلوا واحداً منهم وهو الشاب الذي سبق له الزنا بالجارية ، فلما ذهب أخذه رئيس الخدم إلى المكان الذي أعده ثم قطع رأسه على غرة ثم وضعها في الطبق وغطاه وجاء به إلى

(١) فاطر : ٤٣ .

الأمير .. فلما أبصر - الأمير - الطبق رفع غطاءه فرأى رأساً غير رأس أحمد اليتيم .. فأحضر الأمير أحمد اليتيم ، فسأله عما فعل ، فأخبره بما كان ، فقال الأمير : أتعرف لهذا الخادم ذنباً ؟ فقال : نعم ، إنه فعل كذا وكذا مع الجارية وقد سألاني بالله وبك أن أكتم الخبر ..

فلما سمع الأمير ذلك أمر بقتل الجارية ، وعاد إلى ما كان عليه من محبة أحمد وإكرامه ، وكانت هذه عاقبة الوفاء ، ونهاية الخيانة ﴿ **ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله** ﴾ !! صدق الله العظيم .

* * *

فعلى الأخت المسلمة : أن تذكر هذا حتى تبتعد عن المكر السيىء الذي لا يحيق إلا بأهله .. كما عرفنا ، وحتى تكون كذلك إن شاء الله من المسلمات المؤمنات القانتات التائبات العابدات السائحات ..

وحسبها إن أرادت لنفسها ولغيرها من الرجال خيراً : أن تبتعد عن أسلوب الإثارة للشهوات الغرائزية والذي كثيرا ما كان سبباً في فساد الكثيرين من الرجال الذين لم يستطيعوا بسبب ضعف إيمانهم وعدم غض أبصارهم كما أمرهم الله تعالى : أن يقاوموا هذا الأسلوب الغرائزى المشار إليه في الحديث الشريف الوارد :

عن أبي موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « كل عين زانية(١) ، والمرأة إذا استعطرت(٢) ، فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا ، يعنى زانية »(٣) رواه أبو داوود والترمذي ، وقال : حديث حصحيح .

ورواه النسائى ، وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحيهما ، ولفظه : قال النبى ﷺ : « أيما امرأة استعطرت ، فمرت على قوم ليجدوا ريحها(٤) ، فهى زانية(٥) ، وكل عين زانية » ورواه الحاكم أيضاً ، وقال : صحيح الإسناد .

---

(١) يعنى كل عين نظرت إلى أجنبية قصداً ، والمراد أنها كالزانية في الإثم .
(٢) يعنى وضعت العطر على بدنها وثيابها .
(٣) لأنها وجهت الأنظار إليها ، وحركت إليها شهوة الرجال .
(٤) يعنى أنها قصدت بالمرور عليهم أن يشموا ريحها .
(٥) وذلك لتعمدها جذب قلوب الرجال إليها وتحريك رغباتهم نحوها .

حتى ولو كانت المرأة ذاهبة إلى المسجد ، فإنه يجب عليها ألا تتطيب وإن فعلت ذلك ، فإنه يطلب منها أن ترجع ..

فعن أبي موسى بن يسار رضى الله عنه ، قال : مرت بأبي هريرة امرأة وريحها تعصف[١] ، فقال لها : أين تريدين يا أمة الجبار[٢] ، قالت : إلى المسجد . قال : وتطيبت ؟ قالت : نعم . قال : فارجعي فاغتسلي ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يقبل الله من امرأة صلاة خرجت إلى المسجد ، وريحها تعصف حتى ترجع فتغتسل » رواه ابن خزيمة في صحيحه . قال : باب إيجاب الغسل على المطيبة للخروج إلى المسجد ، ونفى قبول صلاتها إن صلت قبل أن تغتسل ، إن صح الخبر .

وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً ــ بصرف النظر عن موضوع الغسل وعدم صحة الصلاة ــ إلا أنه من الخير لها ولمن في الطريق والمسجد ألا تخرج من بيتها متطيبة حتى لا تلفت الأنظار والقلوب إليها .. وخير لها أن تصلى في بيتها :

فعن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدى رضى الله عنهما أنها جاءت إلى النبى ﷺ ، فقالت : يا رسول الله .. إنى أحب الصلاة معك[٣] ، قال : « علمت أنك تحبين الصلاة معي ، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك[٤] ، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك ، وصلاتك في دارك[٥] خير من صلاتك في مسجد قومك[٦] ، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي[٧] . قال : فأمرت فبني لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمته[٨] ، وكانت تصلي فيه حتى لقيت الله عز وجل » رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما .

---

(١) يعنى تفوح وتنتشر بشدة .

(٢) يريد أن يقول لها : يا أمة الجبار سبحانه وتعالى .. وقد سألها ليعرف وجهتها ليبين لها الحكم إن كانت ذاهبة إلى المسجد .

(٣) لأن صلاته عليه الصلاة والسلام أكمل صلاة وأتمها ، وقراءته أحسن قراءة وأجملها ..

(٤) المكان المعد للنوم وهو المخدع ولا شك أنه يكون في أقصى مكان من الدار فهو أبلغ في التستر .

(٥) وكذلك الحجرة أخص من الدار فالصلاة فيها أقرب إلى التخفي والاحتجاب .

(٦) فإن الدار لا يدخلها أحد إلا بالاستئذان وكل من معها في الدار من محارمها بخلاف المسجد .

(٧) فانظر كيف فضل صلاتها في مسجد قومها على صلاتها في مسجده مع أن الصلاة فيه بألف صلاة فيما سواه .

(٨) فهذا دليل على فضل ملازمة المرأة بيتها وصلاتها فيه وأنه أفضل لها من شهود الصلاة في المسجد جماعة .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ ، قال : « المرأة عورة وإنها إذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان ، وإنها لا تكون أقربَ إلى الله منها في قعر بيتها » رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح .

وحول موضوع أن المرأة عورة ، قال في النهاية : « جعلها نفسها عورة لأنها إذا ظهرت يستحيا منها كما يستحيا من العورة » أ هـ .

ثم يستكمل هذا ـــ شارح « الترغيب والترهيب[1] » فيقول :

والعورة الخلل في في ثغر البلاد وغيره يخاف فيه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن بيوتنا عورة ﴾[2] يعني ممكنة لمن أرادها غير محصنة ، والعورة من الجبال شقوقها ، ومن الشمس مشرقها ومغربها . والعورة أيضاً كل ممكن الستر وكل أمر يستحيا منه ، وكل شيء يستره الإنسان من أعضائه أنفة وحياء والجمع عورات ، قال تعالى : ﴿ ثلاث عورات لكم .. ﴾[3] أراد بها الأوقات الثلاثة التي نهى عن الدخول فيها للمماليك والصغار إلا بعد الاستئذان وهي نصف النهار وآخر الليل وبعد العشاء ، وقوله تعالى : ﴿ الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾[4] يعني لم يبلغوا الحلم .

ثم يقول حول معنى : « استشرفها الشيطان » : يقال : استشرف الشيء رفع بصره إليه باسطاً كفه فوق حاجبه ، ويقال استشرفه حقه ظلمه ، واستشرف الشاة .. تفقدها ليأخذها سالمة العيوب ، ومعنى استشرفها الشيطان : لازمها في خروجها وأغرى الرجال بالتطلع إليها .

وفي رواية عند الطبراني ، قال : « النساء عورة ، وإن المرأة لتخرج من بيتها وما بها بأس[5] فيستشرفها الشيطان[6] ، فيقول : إنك لا تمرين بأحد إلا أعجبته[7] ، وإن المرأة لتلبس ثيابها[8] ، فيقال : أين تريدين ؟ فتقول :

---

(١) وهو فضيلة الشيخ خليل الهراس رحمه الله . (٢) النور : ٥٨ .
(٣) النور : ٥٨ . (٤) النور : ٣١ .
(٥) يعني أنها تخرج سليمة النية طاهرة الذيل بعيدة عن وساوس الشيطان .
(٦) أي يركبها ويصاحبها .
(٧) فيحملها على التزين عند الخروج ليزداد نظر الرجال إليها وإعجابهم بها .
(٨) يعني تتهيأ للخروج .

أعود مريضاً[1] : أو أشهد جنازة[2] ، أو أصلي في مسجد[3] ، وما عبدت امرأة ربها مثل أن تعبده في بيتها » وإسناده حسن .

وذلك لأن عبادة المرأة في بيتها حيث السكن والستر والسلامة من الفتنة أفضل من خروجها ولو لعمل من أعمال الخير التي مثل لها بعيادة المريض وشهود الجنازة والصلاة في المسجد .

ولأنها تكون — في بيتها — حينئذ في حرز من نظر الرجال إليها وفي مأمن من الفتن ، فلا غرو تكون أقرب إلى العفة والفضيلة وبالتالي تكون أقرب إلى الله عز وجل لتخلقها بالأخلاق التي يحبها .

ومع هذا كله ، فإن النبى ﷺ لم يأمر أصحابه بمنع نسائهم من الصلاة في المساجد ، وإنما نهاهم عن منعهن ..

فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن » رواه أبو داوود .

وفي رواية : « لا تمنعوا إماء الله وليخرجن تفلات » .

وفي أخرى : « إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها » :

أي إذا كانت ستلتزم[4] بأدب الإسلام ، الذي سيخرجها عن : حد التبرج : الذي لخصه صاحب كتاب « الحلال والحرام في الإسلام »[5] تحت عنوان :

ما يخرج المرأة عن حد التبرج

حيث يقول : والذي يخرج المرأة المسلمة عن حد التبرج ويسمها بأدب الإسلام أن تلتزم الآداب الآتية :

أ — غض البصر : فإن أثمن زينة للمرأة هي الحياء ، وأبرز عنوان للحياء هو غض البصر . قال تعالى : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ﴾ النور : ٣١ .

---

(١) أى أزور مريضاً من مرضى المسلمين رغبة في حصول الثواب .

(٢) أى أحضر جنازة مسلم وأتبعها .

(٣) يعني أشهد الصلاة في المسجد جماعة .

(٤) سواء أكان خروجها إلى المسجد أو إلى الطريق لقضاء أى مصلحة مشروعة .

(٥) وهو الدكتور يوسف القرضاوي أثابه الله .

ب ــ عدم الاختلاط بالرجال اختلاط تلاصق وتماس ، كما يحدث في دور السينما ومدرجات الجامعات وقاعات المحاضرات ومركبات النقل ونحوها في هذا الزمان . وقد روى معقل بن يسار عن رسول الله ﷺ ، قال : « لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد ، خير له من أن يمس امرأة لا تحل له »(١) .

المخيط : ما يخاط به كالإبرة والمسلة ونحوهما .

جـ ــ أن تكون ملابسها موافقة لأدب الشرع الإسلامي . واللباس الشرعي هو الذي يجمع الأوصاف التالية :

١ ــ أن يغطي جميع الجسم ، عدا ما استثناه القرآن .. وهو على الأرجح : الوجه والكفان .

٢ ــ ألا يشف ويصف ما تحته . فقد أخبر النبي ﷺ : « أن من أهل النار نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات .. لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها » ، ومعنى كاسيات عاريات : أن ثيابهن لا تؤدي وظيفة الستر فتصف ما تحتها لرقتها وشفافيتها .

دخلت نسوة من بني تميم على عائشة ــ رضى الله عنها ــ وعليهن ثياب رقاق ، فقالت عائشة : « إن كنتن مؤمنات فليس هذا بثياب المؤمنات » .

وأدخلت عليها امرأة عروس عليها خمار رقيق شفاف ، فقالت : لم تؤمن بسورة « النور » امرأة تلبس هذا .

٣ ــ ألا يحدد أجزاء الجسم ، ويبرز مفاتنه ، وإن لم يكن رقيقاً شفافاً ، كتلك الثياب التي رمتنا بها حضارة الجسد والشهوة ــ أعني الحضارة الغربية ــ التي يتسابق مصممو الأزياء فيها في تفصيل الثياب التي تبرز النهود والخصور والأرداف ونحوها ، بصورة تهيج الغرائز وتثير الشهوات الدنيا ، فلابساتها كاسيات عاريات أيضاً ، وهي أشد إغراء وفتنة من الثياب الرقيقة الشفافة .

٤ ــ ألا يكون مما يختص بلبسه الرجال كالبنطلون في عصرنا ، وذلك لأن النبي ﷺ لعن المتشبهات من النساء بالرجال ، كما لعن المتشبهين من الرجال بالنساء ، ونهى المرأة أن تلبس لبسة الرجل ، والرجل أن يلبس لبسة المرأة .

(١) قال المنذري : رواه الطبراني والبيهقي ورجال الطبراني ثقات . رجال الصحيح .

ه ـــ ألا يكون لباساً اختص بلبسه الكافرات من اليهوديات والنصرانيات والوثنيات ، فإن قصد التشبه بهؤلاء محظور في الإسلام الذي يريد لرجاله ونسائه التميز والاستقلال في المظهر والمخبر ، ولهذا أمر بمخالفة الكفار في أمور كثيرة . وقال الرسول ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم » .

د ـــ أن تلتزم الوقار والاستقامة في مشيتها وفي حديثها وتتجنب الإثارة في سائر حركات جسمها ووجهها ، فإن التكسر والميوعة من شأن الفاجرات لا من خلق المسلمات . قال تعالى : ﴿ **فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض** ﴾ الأحزاب : ٣٢

هـ ـــ ألا تتعمد جذب انتباه الرجال إلى ما خفى من زينتها بالعطور أو الرنين أو نحو ذلك . قال تعالى : ﴿ **ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن** ﴾ النور : ٣١ .

فقد كانت المرأة في الجاهلية حين تمر بالناس تضرب برجلها ، ليسمع قعقعة خلخالها فنهى القرآن عن ذلك ، لما فيه من إثارة لخيال الرجال ذوى النزعات الشهوانية ، ولدلالته على نية سيئة لدى المرأة في لفت أنظار الرجال إليها وإلى زينتها .

ومثل هذا في الحكم ما تستعمله المرأة من ألوان الطيب والعطور ذات الروائح الفائحة ، لتستثير الغرائز ، وتجذب إليها انتباه الرجال ، وفي الحديث : « المرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا ، يعني زانية »

ومن هنا نعلم أن الإسلام لم يفرض على المرأة ـــ كما يقال ـــ أن تظل حبيسة البيت ، لا تخرج منه إلا إلى القبر ، بل أباح لها الخروج للصلاة وطلب العلم وقضاء الحاجات ، وكل غرض ديني أو دنيوي مشروع . كما كان يفعل ذلك نساء الصحابة ومن بعدهم من خير القرون .

وكان منهن من يخرج للمشاركة في القتال والغزو مع رسول الله ﷺ ومن بعده من الخلفاء والقواد . وقد قال عليه الصلاة والسلام لزوجة سودة : « قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن »(١) وقال : « إذا استأذنت امرأة أحدكم إلى المسجد فلا يمنعها »(٢) وفي حديث آخر: « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله .. »(٣) .

---

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح . (٢) رواه البخاري . (٣) رواه مسلم .

وقد ذهب بعض العلماء المتشددين إلى أن المرأة يحرم عليها أن تنظر إلى أي جزء من الرجل ، مستدلين بمارواه الترمذي عن نبهان مولى أم سلمة أن النبي ﷺ ، قال لها ولميمونة ، وقد دخل عليهما ابن أم مكتوم : « احتجبا » فقالتا : إنه أعمى . قال: «أفعمياوتان أنتما ؟ ألستما تبصرانه »؟ ولكن المحققين قالوا : إن هذا الحديث غير صحيح عند أهل النقل ، لأنه رواية أم سلمة عن نبهان مولاها وهو ممن لا يحتج بحديثه .

وعلى تقدير صحته فإن ذلك منه عليه السلام تغليظ علي أزواجه لحرمتهن ، كما غلظ عليهن أمر الحجاب ، كما أشار إليه أبو داوود وغيره من الأئمة .. ويبقى معنى الحديث الصحيح الثابت ، وهو أن النبى ﷺ أمر فاطمة بنت قيس أن تقضي عدتها في بيت أم شريك ثم استدرك فقال : « تلك امرأة يغشاها أصحابي ، اعتدى عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى ، تضعين ثيابك ولا يراك »(٤) .

ثم يقول بعد ذلك في « الحلال والحرام في الإسلام » : تحت عنوان : خدمةالمرأة ضيوف زوجها :

وأوضح من ذلك أن للمرأة أن تقوم بخدمة ضيوف زوجها في حضرته ، ما دامت متأدبة بأدب الإسلام في ملبسها وزينتها وكلامها ومشيها ، ومن الطبيعي أن يروها وتراهم في هذه الحال ، ولا جناح في ذلك إذا كانت الفتنة مأمونة من جانبها وجانبهم .

روى الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد الأنصارى ، قال : « لما أعرس أبو أسيد الساعدي ، دعا النبى ﷺ وأصحابه ، فما صنع لهم طعاماً ولا قدم إليهم إلا امرأته أم أسيد ، بلت تمرات في تور — أي إناء — من حجارة ، من الليل ، فلما فرغ النبى ﷺ من الطعام أماثته له — أى مرثته بيدها — فسقته ، تتحفه بذلك » .

ففي هذا الحديث — كما قال شيخ الإسلام ابن حجر — : جواز خدمة المرأة زوجها ومن يدعوه .. ولا يخفي أن محل ذلك عند أمن الفتنة ، ومراعاة ما يجب عليها من الستر ، وجواز استخدام الرجل امرأته في مثل ذلك . فإذا لم تراع المرأة ما يجب عليها من الستر — كأكثر نساء هذا الزمن — فإن ظهورها للرجال يصير حراماً .

---

(٤) انظر تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٢٢٨ .

فعلى الأخت المسلمة أن تلاحظ كل هذا وتنفذه حتى تكون مسلمة بمعنى الكلمة ، وحتى لا تكون فتنة للرجال .. كما يشير الحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء »[1] : أى أشد ضرراً .

وعليها كذلك إذا أرادت أن تدخل الجنة أن تنفذ ما ذكر في هذا الحديث الشريف الذي يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه :

« إذا أدت المرأة فرضها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها : دخلت الجنة » .

وحسبها أن تعلم ــ في النهاية ــ أنها إن نفذت كل هذا ستفوز فوزاً عظيماً .. كما يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى :

﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ الأحزاب : ٣٥ .

وأن تعلم كذلك أنها بسبب تنفيذ كل هذا إن شاء الله : ستكون ريحانة لا شيطانة ، وستكون عوناً لزوجها ولكل أفراد أسرتها على الخير لا على الشر :

فقد قرأت أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، سمع رجلاً يقول :

إن النساء شياطين خلقن لنا ... نعوذ بالله من شر الشياطين

فرد عليه رضى الله عنه ، بقوله :

إن النساء رياحين خلقن لنا ... وكلنا يشتهي شم الرياحين

كما قرأت دعاء لداوود عليه السلام يقول فيه : « اللهم إني أسألك أربعاً وأعوذ بك من أربع : أسألك : لساناً صادقاً ، وقلباً خاشعاً ، وبدناً صابراً ، وزوجة تعينني على أمر دنياي وأمر آخرتي .

وأعوذ بك : من ولد يكون علي سيداً ، ومن زوجة تشيبني قبل وقت المشيب ، ومن مال يكون مشبعة لغيري بعد موتى ويكون حسابه في قبري ، ومن جار سوء إن رأى حسنة كتمها وإن رأى سيئة أذاعها وأفشاها » .

أسأل الله تعالى أن يتقبل منا جميعاً هذا الدعاء كما تقبله من عبده داوود عليه السلام : آمين .. آمين .. آمين ..

---

(١) ورد هذا في حديث رواه مسلم والنسائي ، بلفظ : « فما تركت بعدي ... » الحديث .

الوصية السابعة والخمسون

عن أبى أمامة صُدَىّ بن عجلان الباهلى رضى الله عنه قال: سمعت رسولَ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم يخطب فى حجة الوداع فقال:

اتَّقُوا اللَّهَ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ[1] وَصُومُوا شَهْرَكُمْ[2]، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ[3]، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ.

رواه الترمذى فى آخر كتاب الصلاة. وقال حديث حسن صحيح.

(١) وَصَلوا خمسَكم : أى الصلوات الخمس المفروضة.
(٢) وصوموا شهركم : أى شهر رَمضَان.
(٣) وأطيعوا ذا أمْرِكُم : أى ولاة أموركم.

● وهذا الذى أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم هو أهم ثمار التقوى، لأن التقوى كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الوصية الثالثة - هى رأس الأمر كله.. ولهذا حسب العبد العاقل أن يكون تقياً حتى يكون معتاداً تلقائياً تنفيذ ما أوصانا به الرسول صلى الله عليه وسلم. وبهذا سيكون من كبار الموفقين الناجين فى الدنيا والآخرة.

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي بدأها صلوات الله وسلامه عليه ــ كعادته في أغلب وصاياه ــ بتقوى الله تعالى .. لأنها ــ كما عرفنا قبل ذلك ــ رأس الأمر كله ، كما جاء في نص وصية أخري لرسول الله ﷺ قال فيها لأبي ذر رضى الله عنه : « أوصيك بتقوي الله فإنها رأس الأمر كله »(١) : أي أن التقوي بالنسبة للعبادة كالرأس بالنسبة للجسد ، فكما أنه لا حياة للإنسان بدون رأس كذلك لا معنى للعبادة بدون تقوى .

ولعل هذا السر في أن الله تعالى قد أوصانا بالتقوى كما أوصى بها الأمم السابقة ، كما يشير إلى هذا قوله تعالى :

﴿ .. ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله .. ﴾(٢) .

قال القرطبي : الأمر بالتقوى كان عاماً لجميع الأمم .. **﴿ وإياكم ﴾** عطف على **﴿ الذين ﴾** . **﴿ أن اتقوا الله ﴾** في موضع نصب ، قال الأخفش : أى بأن اتقوا الله . وقال بعض العارفين : هذه الآية هى رحى القرآن ، لأن جميعه يدور عليها .

* * *

وإذا أردنا أن نعرف حقيقة التقوى ، ومكانة أهلها عند الله تبارك وتعالى : فحسبنا أن نقرأ ما قاله القرطبي ، حول قوله تبارك وتعالى : **﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ﴾**(٣) : فقد قال ما خلاصته :

خص الله تعالى المتقين بهدايته ، وإن كان هدى للخلق أجمعين تشريفاً لهم ، لأنهم آمنوا وصدقوا بما فيه .

---

(١) ارجع إلى الوصية الثالثة من وصايا الرسول ﷺ .

(٢) النساء : ١٣١ .   (٣) البقرة : ٢ .

وروى عن أبي روق أنه قال : هدى للمتقين ، أى كرامة لهم ، يعني إنما أضاف إليهم إجلالاً لهم وكرامة لهم وبياناً لفضلهم . وأصل : للمتقين : للموتقيين بياءين مخففتين حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم في اجتماع الواو والتاء وأدغمت التاء فصار للمتقين .

ثم يقول : التقوى يقال أصلها في اللغة : قلة الكلام ، حكاه ابن فارس . قلت : ومنه الحديث : « التقى ملجم والمتقى فوق المؤمن والطائع » وهو الذي يتقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى ، مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزاً بينك وبينه ، كما قال النابغة :

سقطت النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولتـــه واتقتنـــا باليـــد

وقال آخر :

فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كف ومعصم

وخرج أبو محمد عبد الغني الحافظ من حديث سعيد بن زربى أبي عبيدة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود ، قال : قال يوماً لابن أخيه : يا ابن أخي .. ترى الناس ما أكثرهم ؟ قال : نعم ، قال : لا خير فيهم إلا تائب أو تقى ، ثم قال : يا ابن أخي .. ترى الناس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ، قال : لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم . وقال أبو يزيد البسطامي : المتقى من إذا قال قال لله ، ومن إذا عمل عمل لله .

وقال أبو سليمان الداراني : المتقون الذين نزع عن قلوبهم حب الشهوات .

وقيل : المتقى الذي اتقى الشرك وبرىء من النفاق . قال ابن عطية : وهذا فاسد لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق .

وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أُبيًّا عن التقوى ، فقال : هل أخذت طريقاً ذا شوك ؟ قال : نعم ، قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمرت وحذرت ، قال : فذاك التقوى .

فأخذ هذا المعنى المعتز فنظمه :

خل الذنـ صغيرهـــا وكبيرهـــا ذاك التقـــى

واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

ثم يقول القرطبي : التقوى ، فيها جماع الخير كله ، وهى وصية الله في الأولين والآخرين ، وهى خير ما يستفيده الإنسان ، كما قال أبو الدرداء — رضى الله عنه — وقد قيل له : إن أصحابك يقولون الشعر وأنت ما حفظ عنك شيء ، فقال :

يريد المرء أن يؤتى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالى وتقوى الله أفضل ما استفادا

وروى ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة عن النبى ﷺ أنه كان يقول : « ما استفاد المرء(١) بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة أن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله » .

والأصل في التقوى : وقوى على وزن فعلى ، فقلبت الواو تاء من وقيته أقيه أى منعته ، ورجل تقى أى خائف ، أصله وقى ، وكذلك تقاة كانت في الأصل وقاة كما قالوا : تجاه وتراث ، والأصل وجاء ووراث .أ . هـ .

* * *

وأجمع وصف للتقوى ، قول الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه عندما سئل عن التقوى فقال : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، والرضا بالقليل .

ولهذا ، حسبنا إذا أردنا أن نكون من المتقين حقاً : أن ننفذ هذا الوصف الذي وصفه على كرم الله وجهه للتقوى ، والذي معناه أن علياً كرم الله وجهه كان من كبار المتقين .. وكيف لا ، وهو الذي تربى في أحضان الرسول ﷺ وأخذ عنه الكثير والكثير من الإيمان والتقوى .. حتى صار جديراً بأن يقول وهو صادق : « سلوني ، وسلوني ، وسلوني عن كتاب الله ما شئتم .. فوالله ما من آية من آياته إلا وأنا أعلم أنزلت في ليل ، أم في نهار » .

---

(١) في الجامع الصغير : « المؤمن » بدل المرء .

ولهذا كما رأينا ، فقد وصف التقوى وصفاً دقيقاً على أساس من القرآن والسنة ، وعلى أساس من معايشته لها في حياة الرسول ﷺ القولية والفعلية التي كانت خلقاً عظيماً يحتذى به إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإذا كان قد بدأ الوصف بقوله : « هي الخوف من الجليل » ، فالجليل هو الله سبحانه وتعالى الذي يجب علينا أن نكون على وجل منه سبحانه إلى أن نلقاه ، لأنه سبحانه وتعالى هو الذي يعلم حقيقة كل واحد منا .. وهو وحده الذي يقرر إذا كان « فلان » من الأتقياء أم لا . فهو القائل سبحانه :

﴿ فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى ﴾[1] .

ولهذا كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه — وهو من هو — إذا مُدح يقول : اللهم اجعلني خيراً مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون .

وذلك حتى لا يتسرب الغرور إلى قلبه فيكون سبباً في غفلته ، أو تكاسله في طاعة الله .. اعتماداً على هذا المدح الذي سمعه من هؤلاء المداحين الذين لا يعرفون عنه غير الظاهر فقط :

الله يدري كل ما تضمر يعلم ما تخفي وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

وفي الحديث القدسي ، يقول الله تبارك وتعالى : « لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين ، إذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة » رواه ابن المباك عن الحسن مرسلاً . ورواه أبو نعيم عن شداد بن أوس موصولاً بلفظ : « إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي » .

والحديث ذكره السيوطي في الجامع الصغير باللفظ الثاني وعزاه إلى الحلية ، قال المصنف في شرحه : ورواه البزار ، والبيهقي عن أبي هريرة .

والمعنى — كما يقول في شرح « الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية »[2] — : أن الله سبحانه يخبرنا أنه لا يجمع على عبده خوفين

---

(١) النجم : ٣٢ .
(٢) وهو الشيخ محمد منير الدمشقي رحمه الله تعالى .

ولا أمنين ، فمن خاف الله تعالى في الدنيا بأن تباعد عن الذنوب والآثام وأقبل على الطاعات والمندوبات : فإن الله لم يخفه يوم القيامة من أهوالها وشدائد أحوالها ، وكذلك من أمن عذاب الله في الدنيا واطمأن بسبب ما يسوله الشيطان له من عظيم عفو الله تعالى فيركن إليه ويسبح في غمرات الشهوات ويتمتع في لذات الدنيا ومناهيها ، فإن الله سبحانه وتعالى لا يؤمنه يوم القيامة يوم العرض عليه بل يخيفه يوم جمع الناس وعرضهم .

ولا شك أنه كلما اشتد خوف العبد من الله في الدنيا ، كان أبعد عن ارتكاب ما يخل به عقلاً وشرعاً وعادة ، وكلما قل خوفه كثرت جرأته على المخالفات وإتيانها ، فمن كان خوفه في حياته الدنيا شديداً كان أمنه يوم القيامة أكثر وبالعكس ، وهذا معنى قل بعض العارفين : لأن الشخص لما صلى[1] حر مخالفة الهوى في الدنيا لم يذقه الله كرب الحر في العقبى .

قال القرطبي : فمن استحى من الله تعالى مما يصنع ، استحى الله عن سؤاله يوم القيامة ولم يجمع عليه حياءين كما لا يجمع عليه خوفين . وقال : الحر إلى نار الحق في الدنيا للمعترف رحمة من عذاب النار تفديه من نار السطوة في الآخرة ، ومحمد عليه الصلاة والسلام يعطي الأمن يوم القيامة حتى يتفرغ للشفاعة ، وما ذاك إلا من الخوف الذي كان عليه أيام الدنيا فلم يجتمع عليه خوفان ، فكل من كان له حظ من اليقين فعاين منه ما ذاق من الخوف بقدر ما ذاق هنا ، قال العارفون : الخوف خوفان ، خوف عقاب وخوف جلال ، والأول يصيب أهل الظاهر ، والثاني يصيب أهل القلوب ، والأول يزول والثاني لا يزول . والله أعلم ..

وأما العنصر الثاني ، في وصف التقوى ، وهو : « العمل بالتنزيل » ، فالمراد بالتنزيل ، أى القرآن الكريم الذي أنزله الله تبارك وتعالى على محمد صلوات الله وسلامه عليه لكى يكون دستوراً دائماً للأمة الإسلامية ، ومنهجاً قويماً ينفذ كل ما فيه من أوامر ، ويجتنب كل ما فيه من منهيات .. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. لأن القرآن الكريم هو مأدبة الله التي أمرنا الرسول ﷺ بأن نتعلم منها ، ونأخذ منها ما شئنا لما شئنا :

---

(١) أي ذاق مثل قوله في القرآن ﴿ سيصلى ناراً حامية ﴾ .

ففي مقدمة تفسير القرطبي ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن هو حبل الله المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن رد أحدكم ، فاتلوه فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول ألم حرف ، ولا ألفين أحدكم واضعاً إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة ، فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة ، إن أصفر البيوت من الخير ، البيت الصفر — أى الخالي — من كتاب الله » .

وروى الترمذي ، وقال حديث صحيح ، عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول : يا رب حله ، فيلبس تاج الكرامة ، ثم يقول : يا رب زده ، فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : يا رب ارض عنه فيرضى ، فيقول له : اقرأ وارق ويزاد بكل آية حسنة » .

وروى أبو داوود عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » أ هـ . القرطبي بتصرف .

فاذكر أخا الإسلام كل هذا ، حتى تكثر من تلاوة القرآن بتدبر .. وحتى يتكون مع ذلك إن شاء الله من العاملين به في كل موقع كنت فيه .. حتى يكون حجة لك لا عليك .

ففي القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، إنه غفور شكور** ﴾(١) .

ويقول : ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾(٢) .

---

(١) فاطر ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) الإسراء : ٩ .

هذا هو القرآن نبراس الهدى دستورك الأسمى المنير المشرق
آياته نبع العلوم جميعها من قال لا فهو الغبى الأخرق
علم الطبيعة والحياة وحكمة الإيجاد من تبيانه تتدفق
وسياسة الدنيا بأقوم شرعة بين الورى بسواه لا تتحرك
ففيه القضاء لحل كل قضية عن حلها أهل السياسة أخفقوا
عودوا إلى القرآن عودة باحث ترك الهوى والعقل حر مطلق
وخذوا دساتير الحياة جميعها من آيه وعلى الخليقة أشفقوا
فهو الدواء لكل أدواء الورى وهو الطبيب لكل سقم صدقوا
فالغرب لما سار سار بنوره وعلا وقبل الغرب سار المشرق
يا قوم أحمد مجدكم قرآنكم فهو الكتاب العالمي الأصدق

* * *

فلهذا كان من التقوى أن نعمل بالتنزيل، لأنه كما عرفنا :

« كتاب الله .. فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا : ﴿ **إنا سمعنا قرآناً عجباً. يهدي إلى الرشد** ﴾(١) **من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم** » حديث شريف رواه الترمذي .

* * *

وأما عن العنصر الثالث في وصف سيدنا علي كرم الله وجهه للتقوى، وهو : « الاستعداد ليوم الرحيل » : إلى الله تبارك وتعالى، فهو كذلك من أهم ما يجب علينا أن نلاحظه ونكون على أتم استعداد لاستقباله .. لأنه آت لا ريب فيه إن عاجلاً وإن آجلاً :

---

(١) الجن : ١، ٢ .

سيصير المرء يومــــــاً جسداً ما فيـــــه روح
بين عينـــــي كل حي علــــم الموت يلــــوح
كلنــــــا في غفلـــــــة والموت يغــدو ويـــــروح
نُح على نفســــــــك يا مسكين إن كنت تنوح
لتموتـــــن وإن عمــــــرت ما عمــــــر نوح

ولهذا ، فقد قال أبو العتاهية كذلك مشيراً ومذكراً بتلك الحقيقة التي يجب ألا تغيب أبداً عن قلوبنا حتى نستعد دائماً وأبداً لما بعدها :

أنلهــــو وأيامنـــــا تذهب ونلعب والموت لا يلعب ؟
عجبت لذي لعب قد لها عجبت ومالى لا أعجب ؟
أيلهو ويلعب من نفسه تموت ومنزلــــه يخرب ؟
نرى كل ما ساءنا دائماً على كل ما سرَّنا يغلب ؟
نرى الليل يطلبنا والنهار ولم ندر أيهما أطــلب ؟
أحاط الجديدان جمعاً بنا فليس لنا عنهما مهرب ؟
وكل له مدة تنـــــقضي وكل له أثـــر يكـتب ؟

* * *

فالموت كما رأينا وكما هو معلوم لنا جميعاً حق لا ريب فيه ولا مفر منه « الموت الموت .. ليس منه فوت .. إن أقمتم أخذكم .. وإن فررتم أدرككم .. الموت معقود بنواصيكم »(١) .

ولكنه سيأتيك بغتة ، ولن يكون هناك موعد محدد بينك وبينه .. فقد يأتيك وأنت في الطريق ، وقد يأتيك وأنت في بيتك ، أو في عملك ، أو في غربة .

وقد قرأت أثراً في مضمونه : أن رجلاً كان يجلس مع سيدنا سليمان عليه السلام في قصره ببلاد الشام .. فنظر الرجل إلى باب المكان الذى يجلس فيه ، فرأى من ينظر من الباب ثم يختفي .. فسأل سليمان عليه السلام عن هذا الذي ينظر ثم يختفي ؟ .. فقال له : يبدو أنه ملك الموت .. فارتعد الرجل وظن أن

---

(١) من كلام سيدنا على كرم الله وجهه .

ملك الموت قد جاء من أجله .. ولهذا طلب من سليمان عليه السلام بحق ما بينه وبينه من أخوة وصداقة : أن يأمر الريح بنقله إلى أقصى بلاد الهند بعيداً عن ملك الموت .. — وكان سليمان عليه السلام يعلم مسبقاً أنه لن يستطيع أبداً أن يفر من ملك الموت .. فأراد أن يثبت له ولغيره هذا — فأمر الريح فعلاً فنقلته إلى بلاد الهند .. وبعد فترة وجيزة من الزمان .. عاد ملك الموت إلى سليمان عليه السلام .. فسأله : لم كنت هنا من فترة وجيزة ثم ذهبت ثم عدت ؟ فقال له ملك الموت عليه السلام : عندما أتيت إلى هنا في المرة الأولى ورأيت الرجل يجلس معك هنا في بلاد الشام ، تعجبت !.. لأنني كنت قد أُمرت بقبض روحه بعد لحظات في أقصى بلاد الهند .. فرأيته هو بنفسه يطلب نقله إلى أقصى بلاد الهند وهو يظن أنه يهرب .. مع أنه كان يسهل ما كلفت به!!.

وإلى هذا يشير الشاعر في قوله :

إذا ما حِمام(1) المرء كان ببلدة ... دعته إليها حاجة فيطير

وصدق الله العظيم فهو القائل :

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾(2) .

ومن أجمل ما قرأت كذلك ما جاء في مضمونه : أن رجلاً من الصالحين رأى ملك الموت عليه السلام في منامه ، فسأله : متى سأموت ؟ فبسط له ملك الموت كفه اليمنى بأصابعها الخمسة .. فانتبه من نومه يفكر في هذه الرؤيا وهو يتساءل بينه وبين نفسه : هل سأموت بعد خمسة أعوام أو شهور أو أسابيع أو أيام أو ساعات أو دقائق أو لحظات ؟ .. ولكنه لم يقتنع بتلك التساؤلات .. فذهب إلى أحد الصالحين — وقيل إلى الإمام مالك رحمه الله — وقص عليه الرؤيا .. ثم طلب منه تفسيراً مقنعاً لها .. فقال له الإمام مالك : إن ملك الموت عليه السلام يذكرك — ببسطه لكفه — بالآية الكريم التي يقول الله تبارك وتعالى فيها :

﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت .. ﴾(3) .

---

(1) الحمام بكسر الحاء هو الموت .

(2) النساء : 78 .

(3) لقمان : 34 .

وقد تكون هناك رسل للموت تسبقه إلى « فلان » قرب انتهاء أجله .. حتى ينتبه ويبادر بالتوبة إلى الله قبل فوات الأوان .. كما جاء في مضمون هذا الأثر الذي يحكي :

أن ملك الموت عليه السلام كان مؤاخياً ليعقوب عليه السلام .. فقال له سيدنا يعقوب ذات يوم : أريد منك مطلباً أرجو أن تحققه لي بحق ما بيننا من أخوة وصداقة .. قال : وما هو ؟ قال : أن تخبرني إذا دنا أجلي .. فقال له ملك الموت : لك مني هذا ، ولن أرسل إليك رسولاً واحداً ، وإنما سأرسل إليك رسولين أو ثلاثة .. وبعد أن اتفقا على هذا ، انصرف ملك الموت ، ثم عاد بعد مدة من الزمان .. فقال له سيدنا يعقوب : أزائراً جئت أم قابضاً ؟ فقال : بل قابضاً .. فتعجب سيدنا يعقوب ـــ لأنه إلى تلك اللحظة التي عاد إليه فيها لم يأته رسول واحد من تلك الرسل الثلاثة التي اتفق معه على إرسالها ـــ ولهذا قال له مذكراً ومعاتباً : وأين رسلك الثلاثة ؟ قال : قد فعلت .. بياض شعرك بعد سواده ، وضعف بدنك بعد قوته ، وانحناء جسمك بعد استقامته ..

هذه رسلي يا يعقوب إلى بني آدم .

* * *

وقد يقول الأخ الشاب : إذا كان الأمر كذلك .. فإننا نستطيع أن نلهو ونلعب كما نشاء إلى أن يأتينا الرسل الثلاثة أو بعضها .. وحينئذ نتوب إلى الله ونكثر من فعل الخيرات إلى أن نلقي الله .

فأقول لقائل هذا : إن الموت يا أخي لا يترك صغيراً ولا كبيراً .. ما دام قد استوفيا أجلهما .. لأن الله تعالى يقول : ﴿ .. **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون** ﴾[1] .

وإذا كنا نذكر بهذا الأثر الموضوعي ، فلأننا نريد أن يعلم أن الشيخ المسن أنه عندما يبيض شعره ، ويضعف بدنه ، وينحني ظهره .. فإن هذا سيكون معناه أن الموت قد أصبح على بعد خطوات أو لحظات منه . وذلك حتى يكون

---

(١) النحل : ٦١ .

دائماً وأبداً مستعداً ليوم الرحيل بتلك الأعمال الصالحة التي من الخير له أن يختم له بها .. ففي الحديث الشريف يقول صلوات الله وسلامه عليه : « إذا أراد الله خيراً استعمله ، قيل : وكيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه » .

ولهذا كان من الخير — كما علمنا — أن يكون الاستعداد للموت من جانب الكبير والصغير مستمراً حتى إذا ما انتهت حياة الإنسان هذا — سواء أكان صغيراً أم كبيراً — كان فرحاً بلقاء الله تبارك وتعالى كبلال رضى الله عنه الذي روى أنه وهو يحتضر كانت ابنته تبكي بجواره وهي تقول : واأبتاه ، واكرباه ، واحزناه .. فانتبه وهي تقول هذا .. فزجرها ونهرها وهو يقول لها : لا تقولي ذلك .. لا كرب على أبيك بعد اليوم .. اليوم نلقى الأحبة محمداً وحزبه .

* * *

ثم إلي الشباب والشيوخ أقدم — في نهاية هذا العنصر الثالث — هذه الأبيات :

تزود من التقوى فإنك لا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من صحيح مات من غير علة وكم من عليل عاش حيناً من الدهر
وكم من صغار يرتجي طول عمرهم وقد دخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من فتى يمسى ويصبح لاهياً وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت روحها ليلة القدر

* * *

وأما عن العنصر الأخير في وصف سيدنا على كرم الله وجهه للتقوى ، وهو : « الرضا بالقليل » ، أى القناعة به ، كما يشير إلى هذا قول أحد الحكماء :

كن غنى القلب واقنع بالقليل مت ولا تطلب معاشاً من لئيم
لا تكن للعيش مجروح الفؤاد إنما الرزق على الله الكريم

وهذا الرضا بالقليل معناه الرضا عن الله ، أو بما قسم الله تعالى ، الذي سيكون معناه الغنى الحقيقي عن جميع الناس ، أو إن شئت فقل : الذي

به ستكون أغنى الناس كما يشير إلى هذا قول الرسول ﷺ : « إرض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » .

وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس وإن الله عز وجل يؤتى عبده ما كتب له من الرزق ، فأجملوا في الطلب ، خذوا ما حل ودعوا ما حرم »رواه أبو يعلي وإسناده حسن إن شاء الله .

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال : بيت يكنه ، وثوب يواري عورته ، وجلف الخبز والماء » رواه الترمذي والحاكم وصححاه ، والبيهقي ولفظه :

قال رسول الله ﷺ : « كل شيء فضل(١) عن ظل بيت ، وكسر خبز ، وثوب يواري عورة ابن آدم : فليس لابن آدم فيه حق » : قال الحسن : فقلت لحمران : ما يمنعك أن تأخذ ؟ وكان يعجبه الجمال ، قال : يا أبا سعيد .. إن الدنيا تقاعدت بي ..

فمعنى « بيت يكنه » : أى يؤويه ويقيه الأذى والسرقة ، قال في النهاية : « السكن ما يرد الحر والبرد من الأبنية والمسكن ، وقد كننته أكنه كنا ، والاسم السكن واستكن استتر » .

ومعنى « فضل عن ظل بيت » : أى زاد ، والفضل الزيادة ، تقول أعطنى من فضل مالك ، أى : مما زاد عن حاجتك .

و « الجلف » بكسر الجيم وسكون اللام بعدهما فاء : هو غليظ الخبز وخشنه ، وقال النضر بن شميل : هو الخبز ليس مع إدام .

ويطلق « الجلف » أيضاً عى حرف الرغيف وعلى كسر الخبز اليابسة .

وروى الطبراني من حديث فضالة عن أبي أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ياأيها الناس .. هلموا إلى ربكم ، فإن ما قل وكفي خير مما كثر وألهى ، ياأيها الناس إنماهما نجدان ، نجد خير ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » ؟ .

---

(١) أى زاد .

« النجد » هنا في هذا الحديث : الطريق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾[1] أى الطريقين : طريق الخير وطريق الشر .

و « ما » في قوله ﷺ : « فما جعل .. » : استفهامية ، يعني : أى شيء جعل نفوسكم تميل إلى نجد الشر وتؤثره على نجد الخير .

وعن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ ، يقول : « طوبي لمن هدى للإسلام ، وكان عيشه كفافاً وقنع » رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ، والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، وقال شارح الجامع الصغير : أنه حديث صحيح .

فمعنى « طوبى » أى : العاقبة الطيبة ، وقيل: هى شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام . وقوله : « لمن هدى للإسلام » يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾[2] . وقد سئل النبى ﷺ عن علامة ذلك فقال : « التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » .

وحول قول الرسول ﷺ : « .. وقنع » ، قال في النهاية : « وقد قنع يقنع قنوعاً بالكسر إذا رضى وقنع بالفتح قنوعاً إذا سأل ، ومنه الحديث : « القناعة كنز لا ينفد » لأن الإنفاق منها لا ينقطع كلما تعذر عليه شيء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضى ، ومنه الحديث الآخر : « عز من قنع وذل من طمع » لأن القانع لا يذله الطلب ، فلا يزال عزيزاً ، وقد تكرر ذكر القنوع والقناعة في الحديث .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ، قال : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » رواه مسلم والترمذي وابن ماجه .

و « الكفاف » أى الذي ليس فيه فضل عن الكفاية . ومعنى قوله : « وقنعه الله بما آتاه » ، أى : وجعله قانعاً وراضياً بما أعطاه سبحانه من الرزق اليسير .

---

(١) البلد : ١٠ .   (٢) الأنعام : ١٢٥ .

وذلك حتى لا يكون من هؤلاء الذين استطاعت الدنيا أن تتربع على قلوبهم ، حتى أنستهم الله فأنساهم أنفسهم .. وحسبنا إذا أردنا أن نقف على أبعاد هذا .. بل إذا أردنا أن نقف على فضيلة هذا الكفاف أن نقرأ هذا الحديث الشريف :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً ـــ وفي رواية ـــ كفافاً » رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه .

قال في النهاية موضحاً معنى القوت أو الكفاف : « أي بقدر ما يمسك الرمق من المطعم » :

وذلك حتى لا ينسوا الله سبحانه وتعالى ، وحتى يكونوا دائماً وأبداً على صلة بالله تبارك وتعالى بسؤالهم إياه أن يرزقهم وأن يكلأهم برعايته وفضله .

ولعلنا نلاحظ أن كثيراً من أغنياء الدنيا لا يسألون الله تعالى ولا يتضرعون إليه بدعوى أنهم لا يريدون شيئاً .. مع أنهم لو كانوا من العقلاء حقاً لعلموا أن الدنيا لا أمان لها ولا دوام لعزها .. فهي كما يقول القائل : « إذا حلت أوحلت ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا دنت أودنت .. » وكم من أناس كانوا يملكون الآلاف .. بل والملايين من أموالها ... ثم أصبحوا الآن لا يملكون شيئاً من تلك الأموال ، وكم من أناس كانوا لا يملكون وأصبحوا الآن يملكون ويحكمون .. وتلك سنة الله في خلقه وفي تلك الحياة الأولى التي يعز الله فيها من يشاء ويذل من يشاء ، والتي يرفع فيها أقواماً ويخفض آخرين .

ولهذا كان لا بد لكي يكونوا من الأكياس الذين ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة : أن يتعرفوا على الله في الرخاء حتى يعرفهم في وقت الشدة .

وذلك بالتضرع إلى الله تعالى وسؤالهم من فضله، وكذلك بشكرهم لله تبارك وتعالى بالإنفاق بشيء من فضله على الفقراء والمساكين الذين هم إخوانهم في الإنسانية والدين ، والذين قد يكونون منهم في يوم من الأيام إذا ما أراد الله تبارك وتعالى هذا .

وإذا كنت أقول هذا ، فلأنني أريد أن يعلم الأخ المسلم أن القناعة من

صميم التقوى .. لأنها ستمنعه من الظلم لغيره والاستيلاء على قوته بسبب الطمع الذي كثيراً ما كان سبباً في ظلم الآخرين والتطلع إلى ما في أيديهم من متاع الحياة الدنيا للاستيلاء عليه ظلماً وعدواناً .

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد : مالي مالي ، وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فاقتنى ، ما سوى ذلك فهو ذاهب ، وتاركه للناس » رواه مسلم .

فلا داعي إذن للطمع وعدم القناعة لأن كل هذا سيؤدي إلى ما لا يحمد عقباه .. وخير لنا جميعاً أن نكون من الراضين بما قسم الله تعالى .

مع ملاحظة أنه لا مانع شرعاً أن تبتغى فضلاً من ربك .. كما يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى :

﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾(1) ، حتى ولو أدى هذا إلى السفر إلى أبعد مكان طلباً للرزق ، كما يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾(2) .

على شريطة ألا يكون هذا سبباً في ضياع الحقوق التي أنت مكلف بأدائها والحرص على تحقيقها وتيسيرها ، ولا سيما حقوق جسدك ، وزورك ، وزوجك ، وأولادك :

فعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال : دخل على رسول الله ﷺ ، فقال : « ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار » ؟ قلت : بلى ، قال : « فلا تفعل ، قم ونم ، وصم وأفطر ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لزورك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً » رواه البخارى .

فقياساً على هذا الحديث الصحيح ، نقول لك : إذا كنت ستبتغي فضل ربك ـــ بالإضافة إلى أعمالك الأساسية أو الوظيفية بعد فراغك ـــ لا مانع ما دمت ستؤدي لكل ذي حق حقه . وما دمت كذلك لن تشغل به عن أداء فريضة الصلاة وفي أوقاتها .. ففي وصية من وصايا الرسول ﷺ ، يقول

---

(1) البقرة : 198 .   (2) النساء : 100 .

لرجل سأله أن يوصيه عندما رآه مشغولاً بدنياه : « لا تتشاغل عما فرض عليك بما ضمن لك : فإنه ليس بفائتك ما قسم لك ، ولست بلاحق ما زوى عنك » .

وحسبك يا أخي إذا أردت أن تكون رجلاً بمعنى الكلمة : أن تكون من هؤلاء الذين تحدث الله عنهم في قوله : ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾[1] .

* * *

والآن .. وبعد أن شرحت لك وصف سيدنا علي كرم الله وجهه للتقوى ـــ بما أفاض الله علي به ـــ وبما هو ثابت في كتاب الله وسنة رسوله : أريد أن أجمل لك موضوع التقوى ، حتى لا تنساه إن شاء الله ، وحتى تكون من المتقين الصادقين ، أو الصادقين المتقين :

وذلك بتذكيرك بآية كريمة جمع الله تعالى فيها أهم صفات المتقين ، فقال :

﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون** ﴾[2] :

فهذه الآية الكريمة ـــ على إيجازها ـــ صورت جميع مكارم الأخلاق .

فقد جمعت بين الإيمان والعمل ، وبين حقوق الله وحقوق العباد ، وبين جهاد النفوس وجهاد الأعداء ، وبين صلاح الأفراد والجماعات .

وإذا كان الله تعالى قد قال في آخرها بعد ذكر صفات أهل البر :

﴿ **أولئك الذين صدقوا ..** ﴾ ، أى : في إيمانهم وادعاء البر .

والصدق في الآية كذلك : هو الإخلاص الذي يطلب في العبادات والمعاملات .

---

(١) النور : ٣٧ ، ٣٨ .　　(٢) البقرة : ١٧٧ .

﴿ **وأولئك هم المتقون** ﴾ ، أى : الكاملون في التقوى ، التي هى الخوف من الله تعالى ، فإذا امتلأ بها قلب العبد أخلص لربه في السر والعلن ، والغضب والرضا ، والحب والبغض ، واليسر والعسر .

* * *

ولهذا .. فقد أوصانا الرسول ﷺ في نص الوصية التي ندور حولها بتقوى الله تعالى ، فقال : « اتقوا الله » ثم قال : « وصلوا خمسكم » ، أى : الصلوات الخمس المفروضة عليكم ، في كل يوم وليلة خمس مرات ، والتى فرضها الله تعالى عليكم في ليلة الإسراء والمعراج[1] وبدون واسطة ومن فوق سبع سموات كهدية من الله تبارك وتعالى لهذه الأمة المحمدية التي جعلها الله تبارك وتعالى : ﴿ .. **خير أمة أخرجت للناس** .. ﴾ .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال لمعاذ حين أرسله إلى اليمن : « إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله تعالى قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة » .. الحديث ، أخرجه البخارى ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائى وابن ماجه .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « فرضت على النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم الصلوات ليلة أسرى به خمسين ، ثم نقصت حتى جعلت خمساً ، ثم نودى : يا محمد .. إنه لا يبدل القول لدى ، وإن لك بهذه الخمس خمسين » . أخرجه أحمد والنسائى والترمذي وصححه .

وفي الصحيحين : « هي خمس وهي خمسون » أى أنها خمس في العدد وخمسون في الأجر : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾[2] ..

وقد أشار الله تعالى في قرآنه الكريم ، إلى تحديد كل وقت من أوقات الصلوات الخمس ، فقال : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل** ﴾[3] .

---

(١) قبل الهجرة بسنة ونصف . (٢) الأنعام : ١٦٠ .
(٣) هود : ١١٤ .

فطرفا النهار : أوله وآخره ، فيشمل صلاة الصبح والظهر والعصر ، على التحقيق . ﴿ **وزلفاً من الليل** ﴾ أى : وفي أوائله ، فيشمل المغرب والعشاء .

وقال تعالى : ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾[1] .

فدلوك الشمس في اللغة : ميلها عن وسط السماء ، جهة الغرب ، على الأصح .. ويستمر الدلوك إلى الغروب ، فيشمل صلاة الظهر وصلاة العصر .

وغسق الليل : أى ظلمته ، فيدخل فيه المغرب والعشاء .

وقرآن الفجر : أى صلاة الفجر . وقد سميت الصلاة قرآناً لكثرة ما يقرأ فيها منه .

قال القرطبي : ذكر الله سبحانه في كتاب الصلاة ، بركوعها ، وسجودها ، وقيامها ، وقراءتها ، وأسمائها ، فقال : ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس ..** ﴾[2] .

وقال : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون** ﴾[3] .

وقال : ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها** ﴾[4] .

وقال : ﴿ **.. اركعوا واسجدوا ..** ﴾[5] .

وقال : ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾[6] .

وقال : ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾[7] .

وقال : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ..** ﴾[8] .. أى بقراءتك . وهذا كله مجمل ، أجمله ــ سبحانه ــ في كتابه ، وأحال على نبيه في بيانه فقال جل ذكره :

﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾[9] ، فبين ﷺ

---

(١) الإسراء : ١٦٠
(٢) الإسراء : ٧٨ .
(٣) الروم : ١٧ ، ١٨
(٤) طه : ١٣٠ .
(٥) الحج : ١٧ ، ١٨ .
(٦) البقرة : ٢٣٨ .
(٧) الأعراف : ٢٠٤ .
(٨) الإسراء : ١١٠ .
(٩) النحل : ٤٤ .

مواقيت الصلاة ، وعدد الركعات ، والسجدات ، وصفة جميع الصلوات : فرضها وسننها ، وعددها ، وما لا تصح الصلاة إلا به من الفرائض ، وما يستحب فيها من السنن والفضائل ، فقال كما ورد في صحيح البخارى : « صلوا كما رأيتموني أصلى » ، ونقل ذلك عنه الكافة ، عن الكافة ، على ما هو معلوم ، ولم يمت النبى ﷺ حتى بين جميع ما بالناس الحاجة إليه . فكمل الدين ، وأوضح السبيل ، قال الله تعالى : ﴿ .. **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ..** ﴾[١] انتهى[٢] .

* * *

وتحت عنوان :

حكمة تفريق الصلوات الخمس
على ساعات النهار والليل

أعجبني ما كتبه صاحب كتاب « الفقه الواضح »[٣] ، حيث يقول :

لعل الله عز وجل فرق الصلوات الخمس على سائر ساعات النهار والليل ليكون العبد على اتصال دائم بخالقه ، ورازقه ، ومدبر أمره ، فلا تتخطفه الشياطين ، ولا تتفرق به السبل ، ولا تلعب به الأهواء ، ولا تطغى عليه الشهوات ، ولا تلهيه شواغل الدنيا ، عن ذكر ربه تعالى ، ولكي يتزود الإنسان من الصلاة إلى الصلاة بطاقة روحية ، تجدد فيه الأمل والرجاء ، في رحمة رب الأرض والسماء ، وتبعث فيه الحيوية والنشاط .

وقد فرق ــ الله سبحانه ــ الصلوات الخمس على ساعات النهار والليل ــ أيضاً ــ ، تيسيراً على عباده ، فلو جمعها عليهم في وقت واحد ، لكان عليهم في أدائها عسر ومشقة ، والله يريد بعباده اليسر .

ولو جمع الله الصلاة في وقت واحد ــ كذلك ــ لفات كثيراً من الناس حضور الجماعة ، إذ ليس كل الناس يفرغ من عمله في وقت واحد ، ولو

---

(١) المائدة : ٣ .
(٢) انتهى أى ما قاله القرطبي في تفسيره ص ١١٢ وما بعدها ج ٩ ، طبعة دار الكتب المصرية .
(٣) وهو الشيخ محمد بكر إسماعيل . أكرمه الله .

تفرغوا في وقت واحد لتعطل كثير من الأعمال .

وبتفريق الصلاة على هذا النحو ، يتيح للعبد إذا فاتته صلاة في جماعة ، أن يدرك الأخرى ، فيحصل له ثواب الجماعة ، ولا تفوته مزاياها .

وهناك حكمة أخرى ، لا ينبغي أن تغيب عنا ، وهي : أن الصلوات الخمس كفارات للخطايا ، والعبد يخطيء الفينة(١) بعد الفينة ، فإذا ما أخطأ ، جاءت الصلاة ، فمحت هذا الخطأ كما يمحو الماء وسخ الثياب .

روى الطبراني ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تحترقون(٢) ، فإذا صليتم الصبح غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم الظهر غسلتها ، ثم تحترقون ، فإذا صليتم العصر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم المغرب غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم العشاء غسلتها ، ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا » .

* * *

هذا بالإضافة ، إلى أن :

الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر

أى تدفع العبد إلى طاعة الله عز وجل ، وتقوده إلى رضوانه ، وتنأى به — أى تبتعد — عن المعاصى والمنكرات ، وتبغضه في كل عمل يغضب الله تعالى ، الذي يقول : ﴿ **أتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ..** ﴾(٣) .

وإنما تنهى الصلاة صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، إذا أداها بخشوع ، وخضوع ، وإخلاص ، وحافظ عليها في أوقاتها ، وأتم ركوعها ، وسجودها ، ولم ينقرها كنقر الغراب ، ووجد فيها روحه وريحانه ، ولم يدخلها وهو كاره لها ، أو متثاقل في أدائها .

---

(١) أى الوقت بعد الوقت .

(٢) أى تفعلون من الذنوب ما يوجب احتراقكم في النهار ، وكرر كلمة تحترقون للتأكيد ، وفي هذا التأكيد إشارة إلى كثرة ما يقع منا من الذنوب . والله أعلم .

(٣) العنكبوت : ٤٥ .

قال القرطبي : لاسيما وإن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله ، وهذا أبلغ في المقصود ، وأتم في المراد ، فإن الموت ليس له رسن محدود ، ولا زمن مخصوص ، ولا مرض معلوم ، وهذا مما لا خلاف فيه . وروى عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد ، واصفر لونه ، فكلم في ذلك ، فقال : إني واقف بين يدي الله تعالى . وحق لى هذا مع ملوك الدنيا ، فكيف مع ملك الملوك ؟ .. فهذه صلاة تنهى — ولا بد — عن الفحشاء والمنكر ، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء(١) ، لا خشوع فيها ، ولا تذكر ، ولا فضائل ، كصلاتنا — وليتها تجزىء — فتلك صاحبها من منزلته حيث كان ، فإن كان على طريقه معاص تبعده من الله تعالى ، تركته الصلاة يتمادى على بعده ، وعلى هذا يخرج الحديث المروى عن ابن عباس ، وابن مسعود ، والحسن ، والأعمش ، قولهم : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم تزده من الله إلا بعداً ، ولم يزدد بها إلا مقتاً »(٢) انتهى(٣) .

﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ أي : أن ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم ، أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم .. وهذا القول هو قول ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي الدرداء ، وجمع من الصحابة — رضي الله عنهم — وهو اختيار الطبري .

ويؤيده ما روى مرفوعاً إلى النبى ﷺ ، من حديث موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أن النبى ﷺ ، قال في قول الله عز وجل : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال : « ذكر الله إياكم ، أكبر من ذكركم إياه » .

وإذا صح هذا الحديث عن النبي ﷺ ، فالقول ما قاله .. وكل قول خالف قول النبى ﷺ ، لا يعد شيئاً .

ويؤيد هذا الحديث — إن صح — قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فاذكروني

---

(١) أي يقصد منها إسقاط الفرض وكفي ، دون النظر إلى مرضاة الله تعالى ، والتقرب إليها بها .
(٢) أي بغضاً وسخطاً .
(٣) أي كلام القرطبي في تفسيره ج ١٣ ص ٣٤٨ طبعة دار الكتب المصرية .
(٤) ﴿ .. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .. ﴾ (العنكبوت : ٤٥) .

أذكركم ﴾(١) .

* * *

ثم يشير بعد ذلك في الفقه الواضح ، إلى فائدة أخرى من فوائد الصلاة ، فيقول متسائلاً :

لِمَ كانت الصلاة دون غيرها من العبادات ، تنهى عن الفحشاء والمنكر ؟

ثم يجيب قائلاً : لأن الصلاة ذكر ، بل هي الذكر الأكبر . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾(٢) .

ولا ريب أن القلوب المطمئنة بذكر الله ، مستنيرة بنور الله ، فلا يكون للشيطان إليها سبيل ، لأن الشيطان لا يدخل قلباً قد استنار بنور الله . قال تعالى : ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، وكفي بربك وكيلاً** ﴾(٣) .

ثم إن القلب المستنير بنور الله يرى الأشياء على حقيقتها : يرى الحق حقاً فيتبعه ، والباطل باطلاً ، فيبتعد عنه .. والله أعلم .

ثم يتابع بعد ذلك قوله : فيقول تحت عنوان :

الصلاة مكفرة للذنوب

والصلاة التي يُقبل العبد فيها على ربه ، بقلب خالص ، ويؤديها كما ينبغي : تكفر الذنوب ، وتمحو الخطايا ، وترفع الدرجات .. قال تعالى :

﴿ **وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾(٤) .

والمراد بالحسنات ــ هنا ــ الصلوات الخمس .

والمراد بالسيئات : الصغائر .

أقول : والصغائر يكفرها الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة : بدليل

---

(١) البقرة : ١٥٢ . (٢) الرعد : ٢٨ .

(٣) الإسراء : ٦٥ . (٤) هود : ١١٤ .

قوله ﷺ : «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة : كفارة لما بينهن، ما لم تغش الكبائر » رواه مسلم .

ويكفرها كذلك الاستغفار وقراءة القرآن ، والصدقات .. وكل عمل صالح تتقرب به إلى الله تعالى بصدق وإخلاص :

على شريطة ــ كما يشير الحديث ــ أن تجتنب الكبائر ، وهى ما ورد فيها تحذير شديد ، وغلظت عقوبتها ، وأكبر الكبائر : الشرك بالله ، ويليه : قتل النفس بغير حق ، والزنا ، والسرقة ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وشرب الخمر ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف ــ أى من ميدان المعركة ضد أعداء الإسلام ــ وعمل السحر ، والكذب ، وقول الزور ، وتبذير المال في غير محله ، والقذف ، وهو : رمى العفيف أو العفيفة بالزنا ..

* * *

وقد جمع أبو طالب المكى رحمه الله تعالى ــ الكبائر ــ على النحو التالي:

أربع في القلب ، وهى : الشرك بالله تعالىٰ ، والإصرار على معصية الله تعالى ، والقنوط من رحمة الله تعالى ، والأمن من مكر الله تعالى .

وأربع في اللسان ، وهى : شهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، واليمين الغموس ، والسحر .

وثلاث في البطن ، وهى : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا وهو يعلم .

واثنتان في اليدين ، وهما : القتل ، والسرقة .

واثنتان في الفرج ، وهما : الزنا ، واللواط .

وواحدة في الرجل وهى : الفرار من الزحف .

وواحدة في جميع البدن ، وهى : عقوق الوالدين .

فيشترط ــ كما عرفت ــ أن تجتنب هذه الكبائر ، إذا أردت أن يغفر الله تعالى لك الصغائر التي يكفرها كذلك الوضوء :

فعن عبد الله الصنابحى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « إذا توضأ العبد فمضمض خرجت الخطايا من فيه ، فإذا استنثر(١) خرجت الخطايا

---

(١) أخرج الماء من أنفه ، ويكون بعد الاستنشاق الذي هو جذب الماء إلى الأنف .

من أنفه ، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه(١) ، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه ، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه(٢) ، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه ، ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة » ــ أى زائدة ــ رواه مالك والنسائى ، وابن ماجه والحاكم وقال : صحيح على شرطهما ، ولا علة له ، والصنابحى : صحابى مشهور . وقال الشوكاني في « نيل الأوطار » الحديث رجاله رجال الصحيح .

* * *

فلاحظ أخا الإسلام هذا الشرط ــ وهو اجتناب الكبائر ــ لأن الله تعالى قد اشترطه أساساً في قرآنه ، فقال : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً** ﴾(٣) .

مع ملاحظة كذلك أن الكبائر لا يكفرها إلا التوبة الصادقة ، وبتلك الشروط التي ذكرها الإمام النووي في كتابه « رياض الصالحين » حيث يقول :

إذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى ولا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

الثاني : أن يندم على فعلها .

الثالث : أن يعزم على ألا يعود إليها أبداً . فإذا فقد أحد الثلاثة لا تقبل توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة : هذه الشروط الثلاثة السابقة ، وأن يبرأ من حق صاحبها :

---

(١) أى من تحت جفونهما ..

(٢) وهذا دليل على أن الأذنين من الرأس ، وأنهما يمسحان معه ببقية ماء الرأس ، وهو مذهب سفيان الثورى وأبي حنيفة ، وذهب مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور إلى أنه يؤخذ لهما ماء جديد .

(٣) النساء : ٣١ .

فإن كان مالاً أو نحوه رده إليه ، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه ، أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها(١) .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب .. فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقى عليه الباقى .

* * *

وأختم الموضوع هذا بأن النبى ﷺ قد شبه الصلوات الخمس في محوها للذنوب ، بنهر جار ، يغتسل منه المسلم في اليوم والليلة خمس مرات ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم ، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء !! قال : فكذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا » رواه البخاري ومسلم .

وقد روى مسلم — في صحيحه — عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « ما من امرىء تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها ، وخشوعها ، وركوعها : إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله » .

* * *

فلتكن أخا الإسلام متذكراً لكل هذا ، حتى تكون مؤدياً للصلوات الخمس وفي أوقاتها بكل أدب وخشوع يضمن لك الفلاح المشار إليه في قول الله تبارك وتعالى :

﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾(٢) ، ولن يتحقق الخشوع هذا إلا إذا كان المصلى خاشعاً في صلاته وبين يدي الله تبارك وتعالى : بقلبه قبل قالبه ، وإلا كا مصليًا لاهيًا ، كما يشير إلى هذا قول المرزباني رحمة الله تعالى عليه :

يحتاج المصلى إلى أربع خصال حتى ترتفع صلاته :

---

(١) أى طلب منه المسامحة .

(٢) المؤمنون : ١ ، ٢ .

حضور القلب ، وشهود العقل ، وخضوع الأركان ، وخشوع الجوارح :

فمن صلى بلا حضور قلب : فهو مصل لاهٍ ، ومن صلى بلا شهود عقل: فهو مصل ساهٍ ، ومن صلى بلا خضوع الأركان : فهو مصل جاف ، ومن صلى بلا خشوع الجوارح : فهو مصل خاطىء ، ومن صلى بهذه الأركان : فهو مصل واف .

* * *

ولتكن كذلك منفذاً لما أوصاك الرسول ﷺ ــ بعد ذلك ــ في نص الوصية ، بقوله الموجه إلينا جميعاً نحن المؤمنين إن شاء الله :

« وصوموا شهركم » ، أى : شهر رمضان المبارك ، الذي كتب ــ أى فرض ــ الله تعالى علينا صيامه كما كتبه على الذين من قبلنا ، فقال تعالى : **﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾**(١) .

* * *

وحول هذه الآية الكريمة ، أشار القرطبي في تفسيره لها إلى عدة ملاحظات ، منها : باختصار وتصرف :

أن الله تعالى كتب على المؤمنين المكلفين الصيام وألزمهم إياه ، وأوجبه عليهم ، ولا خلاف فيه ، بدليل هذه الآية الكريمة ، وبدليل قوله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه ابن عمر : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج » .

وأن الصيام في اللغة : الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال . ويقال للصمت صوم ، لأنه إمساك عن الكلام ، قال الله تعالى مخبراً عن مريم عليها السلام : **﴿ . . إنى نذرت للرحمن صوماً ﴾**(٢) أى سكوتاً عن الكلام .

---

(١) البقرة : ١٨٣ . (٢) مريم : ٢٦ .

وأن الصوم في الشرع : الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، وتمامه وكماله باجتناب المحظورات ، وعدم الوقوع في المحرمات ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه من أجله » .

وأن فضل الصوم عظيم ، وثوابه كبير ، جاءت بذلك أخبار كثيرة صحاح وحسان ذكرها الأئمة في مسانيدهم .: ويكفيك الآن منها في فضل الصوم أن خصه الله بالإضافة إليه كما ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال مخبراً عن ربه : « يقول الله تبارك وتعالى : كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .. الحديث . وإنما خص الصوم بأنه له ، وإن كانت العبادات كلها له لأمرين باين الصوم بهما سائر العبادات ، أحدهما : أن الصوم يمنع من ملاذ النفس وشهواتها ما لا يمنع منه سائر العبادات . الثاني : أن الصوم سر بين العبد وبين ربه لا يظهر إلا له ، فلذلك صار مختصاً به . وما سواه من العبادات ظاهر ربما فعله تصنعاً ورياء فلهذا صار أخص بالصوم من غيره . وقيل غير هذا.

وأن قوله تعالى : ﴿ كما كتب .. ﴾ ، الكاف — فيه — في موضع نصب على النعت ، والتقدير كتاباً كما ، أو صوماً كما . أو على الحال من الصيام ، أى كتب عليكم الصيام مشبهاً كما كتب على الذين ....

وقال بعض النحاة : الكاف في موضع رفع نعتاً للصيام ، إذ ليس تعريفه بمحض ، لمكان الإجمال الذي فيه بما فسرته الشريعة ، فلذلك جاز نعته بـ « كما » إذ لا ينعت بها إلا النكرات ، فهو بمنزلة : كتب عليكم صيام . وقد ضعف هذا القول . .و « ما » في موضع خفض وصلتها : ﴿ كتب على الذين من قبلكم ﴾ والضمير في كتب يعود على « ما » . واختلف أهل التأويل في مواضع التشبيه ، وهي :

قول الشعبي وقتادة وغيرهما : أن التشبيه يرجع إلى وقت الصوم وقدر الصوم ، فإن الله تعالى كتب على موسى وعيسى — عليهما السلام — صوم رمضـان فغير أحبارهم وزادوا عشـرة أيام ، ثم مرض بعض أحبارهم فنذر إن شفاه الله أن يزيد في صومهم عشرة أيام ففعل ، فصار صوم النصارى خمسين يوماً ، فصعب عليهم في الحر فنقلوه إلى الربيع . واختار هذا القول

النحاس وقال : وهو أشبه بـ « ما » في الآية . وفيه حديث يدل على صحته أسنده عن دغفل بن حنظلة عن النبي ﷺ ، قال : « كان على النصارى صوم شهر فمرض رجل منهم ، فقالوا : لئن شفاه الله لنزيدن عشرة ، ثم كان ملك آخر فأكل لحماً فأوجع فاه ، فقالوا لئن شفاه الله لنزيدن سبعة ، ثم كان ملك آخر ، فقالوا : لنتمن هذه السبعة الأيام ، ونجعل صومنا في الربيع ، قال : فصار خمسين » .

وقال مجاهد : كتب الله عز وجل صوم شهر رمضان على كل أمة . وقيل : أخذوا بالوثيقة[1] فصاموا قبل الثلاثين يوماً وبعدها يوماً قرنا بعد قرن ، حتى بلغ صومهم خمسين يوماً ، فصعب عليهم في الحر فنقلوه إلى الفصل الشمسي ، قال النقاش : وفي ذلك حديث عن دغفل بن حنظلة والحسن البصري والسدى .

ثم يقول القرطبي : قلت : ولهذا ــ والله أعلم ــ كره صوم يوم الشك والستة من شوال بأثر يوم الفطر متصلاً به . قال الشعبي : لو صمت السنة كلها لأفطرت يوم الشك ، وذلك أن النصارى فرض عليهم صوم شهر رمضان كما فرض علينا فحولوه إلى الفصل الشمسي لأنه قد كان يوافق القيظ ــ أى الحر ــ فعدوا ثلاثين يوماً . ثم جاء بعدهم قرن فأخذوا بالوثيقة لأنفسهم فصاموا قبل الثلاثين يوماً وبعدها يوماً . ثم لم يزل الآخر يستن بسنة من كان قبله حتى صاروا إلى خمسين يوماً ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **كما كتب على الذين من قبلكم** ﴾ .

وقيل التشبيه راجع إلى أصل وجوبه على من تقدم لا في الوقت والكيفية .

وقيل : التشبيه واقع على صفة الصوم الذي كان عليهم من منعهم من الأكل والشرب والنكاح ، فإذا حان الإفطار فلا يفعل هذه الأشياء من نام . وكذلك كان في النصارى أولاً وكان في أول الإسلام ، ثم نسخه الله تعالى بقوله : ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم** ﴾[2] .. قاله السدي وأبو العالية والربيع .

---

(١) الوثيقة : الأحكام في الأمر . والذي في الطبري فأخذوا بالثقة من أنفسهم .
(٢) البقرة : ١٨٧ .

وقال معاذ بن جبل وعطاء : التشبيه واقع على الصوم لا على الصفة ولا على العدة وإن اختلف الصيامان بالزيادة والنقصان . المعنى : كتب عليكم الصيام أى في أول الإسلام ثلاثة أيام من كل شهر ويوم عاشوراء ، كما كتب على الذين من قبلكم وهم اليهود — في قول ابن عباس — ثلاثة أيام ويوم عاشوراء . ثم نسخ هذا في هذه الأمة بشهر رمضان . وقال معاذ بن جبل : نسخ ذلك بـ ﴿ **أياماً معدودات** ﴾ ثم نسخت الأيام برمضان .

وأن معنى قوله تعالى : ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ : فقيل : معناه هنا تضعفون ، فإنه كلما قل الأكل ضعفت الشهوة ، وكلما ضعفت الشهوة قلت المعاصى . وهذا وجه مجازى حسن . وقيل : لتتقوا المعاصى . وقيل : هو على العموم ، لأن الصيام كما قال النبى ﷺ : جُنة ووجاء وسبب تقوى لأنه يميت الشهوات .

أقول : ولهذا فقد أوصى به الرسول ﷺ الشباب بصفة خاصة فقال : « يا معشر الشباب . من استطاع منكم الباءة[1] فليتزوج فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[2] .

وأن معنى قوله تعالى : ﴿ **أياماً معدودات** ﴾ : أياماً ، مفعول ثان بكتب ، قاله الفراء ، وقيل : نصب على الظرف لكتب ، أى : كتب عليكم الصيام في أيام . والأيام المعدودات : شهر رمضان ، وهذا يدل على خلاف ما روى معاذ ، والله أعلم .

* * *

ثم ينتقل « القرطبي » بعد ذلك إلى الأحكام الفقهية المتعلقة بالصيام ، من خلال قول الله تبارك وتعالى :

﴿ .. **فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيراً فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم ، إن كنتم تعلمون** ﴾[3] فيقول : قوله تعالى :

---

(١) الباءة : أى المنزل أو النفقة وأعباء الزواج .

(٢) رواه البخارى ومسلم واللفظ له .

(٣) البقرة : ١٨٤ والتي أولها : ﴿ **أياماً معدودات** ﴾ .

﴿ مريضاً ﴾ ، للمريض حالتان : إحداهما : ألا يطيق الصوم بحال فعليه الفطر واجباً . الثانية : أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة ، فهذا يستحب له الفطر ولا يصوم إلا جاهل . قال ابن سيرين : متى حصل الإنسان في حال يستحق بها اسم المرض صح الفطر قياساً على المسافر لعلة السفر وإن لم تدع إلى الفطر ضرورة . قال طريف بن تمام العطاردي : دخلت على محمد بن سيرين في رمضان وهو يأكل ، فلما فرغ قال : إنه وجعت أصبعي هذه .

وقال جمهور من العلماء : إذا كان به مرض يؤلمه ويؤذيه أو يخاف تماديه أو يخاف تزايده صح له الفطر . قال ابن عطية : وهذا مذهب حذاق أصحاب مالك وبه يناظرون . وأما لفظ مالك فهو المرض الذي يشق على المرء ويبلغ به . وقال ابن خويز منداد : واختلفت الرواية عن مالك في المرض المبيح للفطر ، فقال مرة : هو خوف التلف من الصيام . وقال مرة : شدة المرض والزيادة فيه والمشقة الفادحة . وهذا صحيح مذهبه وهو مقتضى الظاهر ، لأنه لم يخص مرضاً من مرض فهو مباح في كل مرض ، إلا ما خصه الدليل من الصداع والحمى والمرض اليسير الذي لا كلفة معه في الصيام . وقاله النخعي . وقالت فرقة : لا يفطر بالمرض إلا من دعته ضرورة المرض نفسه إلى الفطر ومتى احتمل الضرورة معه لم يفطر . وهذا قول الشافعي رحمه الله تعالى .

ثم يقول القرطبي مرجحاً : قلت : قول ابن سيرين أعدل شيء في هذا الباب إن شاء الله تعالى . قال البخاري : اعتللت أى مرضت — بنيسابور علة خفيفة وذلك في شهر رمضان ، فعادني إسحاق بن راهويه في نفر من أصحابه ، فقال لى : أفطرت يا أبا عبد الله ؟ فقلت : نعم . فقال : خشيت أن تضعف عن قبول الرخصة . قلت : حدثنا عبدان عن ابن المبارك عن ابن جريج قال : قلت : لعطاء : من أى المرض أفطر ؟ قال : من أى مرض كان ، كما قال الله تعالى : ﴿ فمن كان منكم مريضاً ﴾ قال البخاري : وهذا الحديث لم يكن عند إسحاق . وقال أبو حنيفة : إذا خاف الرجل على نفسه وهو صائم إن لم يفطر أن تزداد عينه وجعاً أو حماه شدة أفطر .

وقوله تعالى : ﴿ أو على سفر ﴾ : اختلف العلماء في السفر الذي يجوز فيه الفطر والقصر — في الصلاة الرباعية — بعد إجماعهم على سفر الطاعة كالحج والجهاد ، ويتصل بهذين صلة الرحم وطلب المعاش الضروري . وأما

سفر التجارات والمباحات فمختلف فيه بالمنع والإجازة ، والقول بالجواز أرجح . وأما سفر العاصي فيختلف فيه بالجواز والمنع ، والقول بالمنع أرجح ، ـــ قاله ابن عطية .

ومسافة الفطر عند مالك : حيث تقصر الصلاة . واختلف العلماء في قدر ذلك ، فقال مالك : يوم وليلة . ثم رجع فقال : ثمانية وأربعون ميلاً قال ابن خويز منداد : وهو ظاهر مذهبه ـــ وقال مرة : اثنان وأربعون ميلاً . وقال مرة : ستة وثلاثون ميلاً . وقال مرة : مسيرة يوم وليلة . وروى عنه يومان ، وهو قول الشافعي . وفصل مرة بين البر والبحر فقال : في البحر مسيرة يوم وليلة ، وفي البر ثمانية وأربعون ميلاً ، وفي المذهب ثلاثون ميلاً . وفي غير المذهب ثلاثة أميال . وقال ابن عمر وابن عباس والثورى : الفطر في سفر ثلاثة أيام ، حكاه ابن عطية .

ثم يقول القرطبي بعد ذلك : قلت : والذي في البخاري : وكان ابن عمر وابن عباس يفطران في أربعة برد ، وهى ستة عشر فرسخاً .

وقد اتفق العلماء على أن المسافر في رمضان لا يجوز له أن يبيت الفطر ، لأن المسافر لا يكون مسافراً بالنية بخلاف المقيم ، وإنما يكون مسافراً بالعمل والنهوض ، والمقيم لا يفتقر إلى عمل ، لأنه إذا نوى الإقامة كان مقيماً في الحين لأن الإقامة لا تفتقر إلى عمل فافترقا . ولا خلاف بينهم أيضاً في الذي يؤمل السفر أنه لا يجوز أن يفطر قبل أن يخرج ، فإن أفطر فقال ابن حبيب : إن كان قد تأهب لسفره وأخذ في أسباب الحركة فلا شيء عليه . وحكى ذلك عن أصبغ وابن الماجشون . فإن عاقه عن السفر عائق كان عليه الكفارة ، وحسبه أن ينجو إن سافر . وروى عيسي عن ابن القاسم أنه ليس عليه إلا قضاء يوم ، لأنه متأول في فطره . وقال أشهب : ليس عليه شيء من الكفارة سافر أو لم يسافر وقال سحنون : عليه الكفارة سافر أو لم يسافر ، وهو بمنزلة المرأة تقول : غداً تأتيني حيضتي فتفطر لذلك . ثم رجع إلى قول عبد الملك وأصبغ وقال : ليس مثل المرأة ، لأن الرجل يحدث السفر إذا شاء ، والمرأة لا تحدث الحيضة .

ثم يقول القرطبي : قلت : قول ابن القاسم وأشهب في نفي الكفارة حسن ، لأنه فعل ما يجوز له فعله والذمة بريئة فلا يثبت فيها شيء إلا بيقين

ولا يقين مع الاختلاف ، ثم إنه مقتضى قوله تعالى : ﴿ أو على سفر ﴾ .

وقال أبو عمر : هذا أصح أقاويلهم في هذه المسألة ، لأنه غير منتهك لحرمة الصوم بقصد إلى ذلك وإنما هو متأول ، ولو كان الأكل مع نية السفر يوجب عليه الكفارة لأنه كان قبل خروجه ما أسقطها عنه خروجه . وقد روى الدارقطني حدثنا أبو بكر النيسابوري حدثنا إسماعيل بن إسحاق بن سهل بمصر قال : حدثنا ابن أبي مريم حدثنا محمد بن جعفر أخبرني زيد بن أسلم ، قال : أخبرني محمد بن المنكدر عن محمد بن كعب أنه قال : أتيت أنس بن مالك في رمضان وهو يريد السفر وقد رحلت دابته ولبس ثياب السفر وقد تقارب غروب الشمس ، فدعا بطعام فأكل منه ثم ركب . فقلت له : سنة ؟ قال : نعم .

وروى عن أنس أيضاً قال : قال لي أبو موسى ،: ألم أنبأ أنك إذا خرجت خرجت صائماً ، وإذا دخلت دخلت صائماً ؟ فإذا خرجت فاخرج مفطراً وإذا دخلت فادخل مفطراً . وقال الحسن البصري: يفطر إن شاء في بيته يوم يريد أن يخرج . وقال أحمد : يفطر إذا برز عن البيوت . وقال إسحاق : لا ، بل حين يضع رجله في الرحل . قال ابن المنذر : قول أحمد صحيح ، لأنهم يقولون لمن أصبح صحيحاً ثم اعتل : إنه يفطر بقية يومه ، وكذلك إذا أصبح في الحضر ثم خرج إلى السفر فله كذلك أن يفطر . وقالت طائفة : لا يفطر يومه ذلك وإن نهض في سفره . كذلك قال الزهري ومكحول ويحيى الأنصاري ومالك والأوزاعي والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي . واختلفوا إن فعل ، فكلهم قال : يقضي ولا يكفر . قال مالك : لأن السفر عذر طارىء فكان كالمرض يطرأ عليه . وروى عن بعض أصحاب مالك أنه يقضي ويكفر ، وهو قول ابن كنانة والمخزومي وحكاه الباجي عن الشافعي .

واختاره ابن العربي وقال به . قال: لأن السفر عذر طرأ بعد لزوم العبادة ويخالف المرض والحيض ، لأن المرض يبيح له الفطر والحائض يحرم عليها الصوم ، والسفر لا يبيح له ذلك فوجبت عليه الكفارة لهتك حرمته ، قال أبو عمر : وليس هذا بشيء ، لأن الله سبحانه قد أباح له الفطر في الكتاب والسنة . وأما قولهم لا يفطر ، فإنما ذلك استحباب لما عقده فإن أخذ برخصة الله كان عليه القضاء ، وأما الكفارة فلا وجه لها ، ومن أوجبها فقد أوجب

ما لم يوجبه الله ولا رسوله ﷺ . وقد روى عن ابن عمر في هذه المسألة : يفطر إن شاء في يومه ذلك إذا خرج مسافراً ، وهو قول الشعبي وأحمد وإسحاق .

ثم يقول القرطبي بعد ذلك : قلت : وقد ترجم البخاري رحمه الله على هذه المسألة « باب من أفطر في السفر ليراه الناس » وساق الحديث عن ابن عباس قال : خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فصام حتى بلغ عسفان(١) ، ثم دعا بماء فرفعه إلى يديه ليراه الناس فأفطر حتى قدم مكة وذلك في رمضان . وأخرجه مسلم أيضاً عن ابن عباس وقال فيه : ثم دعا بإناء فيه شراب شربه نهاراً ليراه الناس ثم أفطر حتى دخل مكة . وهذا نص في الباب فسقط ما خالفه وبالله التوفيق .

وفيه أيضاً حجة على من يقول : إن الصوم لا ينعقد في السفر . روى عن عمر وابن عباس وأبي هريرة وابن عمر ، قال ابن عمر : من صام في السفر قضى في الحضر . وعن عبد الرحمن بن عوف : الصائم في السفر كالمفطر في الحضر . وقال به قوم من أهل الظاهر ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ .. **فعدة من أيام أخر** ﴾ على ما يأتي بيانه ، وبما روى عن كعب بن عاصم ، قال : سمعت النبي ﷺ ، يقول : « ليس من البر الصيام في السفر » .

وفيه أيضاً حجة على من يقول : إن من بيت الصوم في السفر فله ان يفطر وإن لم يكن له عذر . وإليه ذهب مطرف وهو أحد قولى الشافعي وعليه جماعة من أهل الحديث . وكان مالك يوجب عليه القضاء والكفارة ، لأنه كان مخيراً في الصوم والفطر ، فلما اختار الصوم وبيته لزمه ولم يكن له الفطر ، فإن أفطر عامداً من غير عذر كان عليه القضاء والكفارة . وقد روى عنه أنه لا كفارة عليه ، وهو قول أكثر أصحابه إلا عبد الملك فإنه قال : إن أفطر بجماع كفّر لأنه يقوى بذلك على سفره ولا عذر له ، لأن المسافر إنما أبيح له الفطر ليقوى بذلك على سفره .

وقال سائر العلماء بالعراق والحجاز : أنه لا كفارة عليه ، منهم الثورى

---

(١) عسفان ـــ بضم العين وسكون السين المهملتين ـــ : قرية بينها وبين مكة ثمانية وأربعون ميلاً .

والأوزاعي والشافعي وأبو حنيفة وسائر فقهاء الكوفة ، قاله أبو عمر .

واختلف العلماء في الأفضل من الفطر أو الصوم في السفر ، فقال مالك والشافعي في بعض ما روى عنهما : الصوم أفضل لمن قوى عليه ، وجعل مذهب مالك التخيير، وكذلك مذهب الشافعي . قال الشافعي ومن اتبعه : هو مخير ، ولم يفضل وكذلك ابن عطية ، لحديث أنس ، قال : سافرنا مع النبى ﷺ في رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم . أخرجه مالك والبخاري ومسلم . وروى عن عثمان عن أبي العاص الثقفي وأنس بن مالك صاحبى رسول الله ﷺ أنهما قالا : الصوم في السفر أفضل ، لمن قدر عليه . وهو قول أبي حنيفة وأصحابه .

وروى عن ابن عمر وابن عباس : الرخصة أفضل . وقال به سعيد بن المسيب والشعبي وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة والأوزاعي وأحمد وإسحاق . فكان هؤلاء يقولون : الفطر أفضل لقول الله تعالى : ﴿ .. **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** .. ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **فعدة من أيام أخر** ﴾ : في الكلام حذف ، أى : من يكن منكم مريضاً أو مسافراً فأفطر فليقض . والجمهور من العلماء على أن أهل البلد إذا صاموا تسعة وعشرين يوماً وفي البلد رجل مريض لم يصم فإنه يقضى تسعة وعشرين يوماً . وقال قوم منهم الحسن بن صالح بن حى : أنه يقضي شهراً بشهر من غير مراعاة عدد الأيام . قال الطبري : وهذا بعيد ، لقوله تعالى : ﴿ **فعدة من أيام أخر** ﴾ ولم يقل فشهر من أيام أخر . وقوله : ﴿ **فعدة** ﴾ يقتضي استيفاء عدد ما أفطر فيه ، ولا شك أنه لو أفطر بعض رمضان وجب قضاء ما أفطر بعدده . كذلك يجب أن يكون حكم إفطار جميعه في اعتبار عدده .

وقوله تعالى : ﴿ **فعدة** ﴾ : مرفوع على خبر الابتداء ، تقديره فالحكم أو فالواجب عدة . ويصح فعليه عدة . وقال الكسائي : ويجوز فعدة ، أى : فليصم عدة من أيام . وقيل : المعنى ، فعليه صيام عدة . فحذف

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

المضاف وأقيمت العدة مقامه . والعدة فعلة من العد وهي بمعنى المعدود ، كالطحن بمعنى المطحون ، تقول : أسمع جعجعة ولا أرى طحناً . ومنه عدة المرأة ..

واختلف الناس في وجوب تتابعها على قولين ذكرهما الدارقطني في « سننه » فروى عن عائشة رضى الله عنهما ، قالت : نزلت : « فعدة من أيام أخر متتابعات » فسقطت « متتابعات » . قال: هذا إسناد صحيح . وروى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان عليه صوم من رمضان فليسرده ولا يقطعه » . في إسناده عبد الرحمن بن إبراهيم ضعيف الحديث . وأسنده عن ابن عباس في قضاء رمضان « صمه كيف شئت » وقال ابن عمر : « صمه كما أفطرته » . وأسند عن أبي عبيدة بن الجراح وابن عباس وأبي هريرة ومعاذ بن جبل وعمرو بن العاص . وعن محمد بن المنكدر ، قال : بلغني أن رسول الله ﷺ سئل عن تقطيع صيام رمضان فقال : « ذلك إليك .. أرأيت لو كان على أحدكم فقضى الدرهم والدرهمين ألم يكن قضاه ؟ .. فالله أحق أن يعفو ويغفر » إسناده حسن إلا أنه مرسل ولا يثبت متصلاً . وفي موطأ مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول : يصوم رمضان متتابعاً من أفطره متتابعاً من مرض أو في سفر . قال الباجي في « المنتقي » : يحتمل أن يريد الإخبار عن الوجوب ، ويحتمل أن يريد الإخبار عن الاستحباب . وعلى الاستحباب جمهور الفقهاء . وأن فرقه أجزأه ، وبذلك قال مالك والشافعي . والدليل على صحة هذا قوله تعالى : ﴿ **فعدة من أيام أخر** ﴾ ولم يحص متفرقه من متتابعه . وإذا أتى بها متفرقة فقد صام عدة من أيام أخر ، فوجب أن يجزيه . ابن العربي : إنما وجب التتابع في الشهر لكونه معيناً وقد عدم التعيين في القضاء فجاز التفريق .

ثم يقول القرطبي : لما قال تعالى : ﴿ **فعدة من أيام أخر** ﴾ : هل ذلك على وجوب القضاء من غير تعيين لزمان ، لأن اللفظ مسترسل على الأزمان ولا يختص ببعضها دون بعض . وفي الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : يكون على الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان . الشغل من رسول الله . أو برسول الله ﷺ في رواية . وذلك لمكان رسول الله ﷺ .

وهذا نص وزيادة بيان للآية . وذلك يرد على داوود قوله : أنه يجب عليه قضاؤه ثاني شوال . ومن لم يصمه ثم مات فهو آثم عنده ، وبنى عليه أنه لو وجب عليه عتق رقبة فوجد رقبة تباع بثمن فليس له أن يتعداها ويشترى غيرها ، ولو كانت عنده رقبة فلا يجوز له أن يشتري غيرها ، ولو مات الذي عنده فلا يبطل العتق . كما يبطل فيمن نذر أن يعتق رقبة بعينها فماتت يبطل نذره ، وذلك يفسد قوله .

وقال بعض الأصوليين : إذا مات بعد مضى اليوم الثاني من شوال لا يعصى على شرط العزم . والصحيح أنه غير آثم ولا مفرط . وهو قول الجمهور ، غير أنه يستحب له تعجيل القضاء لئلا تدركه المنية فيبقى عليه الفرض .

ثم يقول : من كان عليه قضاء أيام من رمضان فمضت عليه عدتها من الأيام بعد الفطر أمكنه فيها صيامه فأخر ذلك ثم جاءه مانع منعه من القضاء إلى رمضان آخر فلا إطعام عليه ، لأنه ليس بمفرط حين فعل ما يجوز له من التأخير . هذا قول البغداديين من المالكيين ويرونه قول ابن القاسم في المدونة .

فإن أخر قضاءه عن شعبان الذي هو غاية الزمان الذي يقضى فيه رمضان ، فهل يلزمه لذلك كفارة أو لا ، فقال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق : نعم : وقال أبو حنيفة والحسن والنخعي وداوود : لا .

قال القرطبي : وإلى هذا ذهب البخارى لقوله ، ويذكر عن أبي هريرة مرسلاً وابن عباس أنه يطعم . ولم يذكر الله الإطعام إنما قال : ﴿ **فعدة من أيام أخر** ﴾ .

ثم يقول : قد جاء عن أبي هريرة مسنداً فيمن فرط في قضاء رمضان حتى أدركه رمضان آخر ، قال : يصوم هذا مع الناس ، ويصوم الذي فرط فيه ويطعم لكل يوم مسكيناً . أخرجه الدارقطني وقال : إسناده صحيح . وروى عنه مرفوعاً إلى النبى ﷺ في رجل أفطر في شهر رمضان من مرض ثم صح ولم يصم حتى أدركه رمضان آخر قال : « يصوم الذي أدركه ثم يصوم الشهر الذي أفطر فيه ويطعم لكل يوم مسكيناً » في إسناده ابن نافع وابن وجيه ضعيفان .

فإن تمادي به المرض فلم يصح حتى جاء رمضان آخر ، فروى الدارقطني عن ابن عمر أنه يطعم مكان كل يوم مسكيناً مدا من حنطة ثم ليس عليه قضاء . وروى أيضاً عن أبي هريرة أنه قال : إذا لم يصح بين الرمضانين صام عن هذا وأطعم عن الثاني ولا قضاء عليه . وإذا صح فلم يصم حتى أدركه رمضان آخر صام عن هذا وأطعم عن الماضي ، فإذا أفطر قضاه . إسناده صحيح . قال علماؤنا : وأقوال الصحابة على خلاف القياس قد يحتج بها . وروى عن ابن عباس أن رجلاً جاء إليه ، فقال : مرضت رمضانين ، فقال له ابن عباس : استمر بك مرضك أو صححت بينهما ؟ فقال : بل صححت ، قال صم رمضانين وأطعم ستين مسكيناً . وهذا بدل من قوله : إنه لو تمادى به مرضه لا قضاء عليه . وهذا يشبه مذهبهم في الحامل والمرضع أنهما يطعمان ولا قضاء عليهما ، على ما يأتي :

واختلف : في من أوجب عليه الإطعام في قدر ما يجب أن يطعم ، فكان أبو هريرة والقاسم بن محمد ومالك والشافعي يقولون : يطعم عن كل يوم مدا . وقال الثوري : يطعم نصف صاع عن كل يوم .

واختلفوا : فيمن أفطر أو جامع في قضاء رمضان ماذا يجب عليه ؟ فقال مالك : من أفطر يوماً من قضاء رمضان ناسياً لم يكن عليه شيء غير قضائه ، ويستحب له أن يتمادى فيه للاختلاف ثم يقضيه ، ولو أفطره عامداً أثم ولم يكن عليه غير قضاء ذلك اليوم ولا يتمادى ، لأنه لا معنى لكفه عما يكف الصائم ههنا إذ هو غير صائم عند جماعة العلماء لإفطاره عامداً . وأما الكفارة فلا خلاف عند مالك وأصحابه أنها لا تجب في ذلك . وهو قول جمهور العلماء . قال مالك : ليس على من أفطر يوماً من قضاء رمضان بإصابة أهله أو غير ذلك كفارة ، وإنما عليه قضاء ذلك اليوم ..

والجمهور على أن من أفطر في رمضان لعلة فمات من علته تلك ، أو سافر فمات في سفره ذلك أنه لا شيء عليه . وقال طاووس وقتادة في المريض يموت قبل أن يصح : يطعم عنه .

واختلفوا فيمن مات وعليه صوم من رمضان لم يقضه ، فقال مالك والشافعي والثوري : لا يصوم أحد عن أحد . وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور

والليث وأبو عبيد وأهل الظاهر : يصام عنه ، إلا أنهم خصصوه بالنذر ، وروى مثله عن الشافعي . وقال أحمد وإسحاق في قضاء رمضان : يطعم عنه . احتج من قال بالصوم بما رواه مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ ، قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » . إلا أن هذا عام في الصوم ، يخصصه ما رواه مسلم أيضاً عن ابن عباس قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله .. إن أمي قد ماتت وعليها صوم نذر — وفي رواية : صوم شهر — أفأصوم عنها ؟ قال : « أرأيت لو كان على أمك دين فقضيتيه أكان يؤدي ذلك عنها ؟ قالت : نعم ، قال : **فصومي عن أمك** » . احتج مالك ومن وافقه بقوله سبحانه : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾[1] .

وقوله : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾[2] .

وقوله : ﴿ **ولا تكسب كل نفس إلا عليها** ﴾[3] وبما أخرجه النسائي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يصلي أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة » .

ثم يقول القرطبي : وهذا الحديث عام فيحتمل أن يكون المراد بقوله: « لا يصوم أحد عن أحد » صوم رمضان . فأما صوم النذر فيجوز ، بدليل ابن عباس وغيره ، فقد جاء في صحيح مسلم أيضاً من حديث بريدة نحو حديث ابن عباس ، وفي بعض طرقه : صوم شهرين أفأصوم عنها ؟ قال : « صومي عنها » قالت : إنها لم تحج قط أفأحج عنها ؟ قال : « حجي عنها » . فقولها : شهرين ، يبعد أن يكون رمضان . والله أعلم . وأقوى ما يحتج به لمالك أنه عمل أهل المدينة ويعضده القياس الجلي وهو أنه عبادة بدنية لا مدخل للمال فيها فلا تفعل عمن وجبت عليه كالصلاة . ولا ينقض هذا بالحج لأن للمال فيه مدخلاً ..

معنى قوله تعالى : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾[4] ، فقد قال ابن عباس كما روى أبو داوود : كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصوم ، أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكيناً ، والحبلى والمرضع ، إذا خافتا على أولادهما أفطرتا وأطعمتا .

---

(1) الأنعام : ١٦٤ .
(2) النجم : ٣٩ .
(3) الأنعام : ١٦٤ .
(4) البقرة : ١٨٤ .

وخرج الدارقطني عنه أيضاً قال : رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً ولا قضاء عليه ، هذا إسناد صحيح . وروى عنه أيضاً أنه قال : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام ..** ﴾ ليست بمنسوخة ، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما ، فيطعما مكان كل يوم مسكيناً . وهذا صحيح . وروى عنه أيضاً أنه قال لأم ولد له ـــ حبلى أو مرضع ـــ : أنت من الذين لا يطيقون الصيام ، عليك الجزاء ولا عليك القضاء . وهذا إسناد صحيح . وفي رواية :كان له أم ولد ترضع من غير شك فأجهدت ، فأمرها أن تفطر ولا تقضي . هذا صحيح .

يقول القرطبي : فقد ثبت بالأسانيد الصحاح عن ابن عباس أن الآية ليست بمنسوخة وأنها محكمة في حق من ذكر ..

وقال الحسن البصري وعطاء بن أبي رباح والضحاك والنخعي والزهري وربيعة والأوزاعى وأصحاب الرأى : الحامل والمرضع يفطران ولا إطعام عليهما ، بمنزلة المريض يفطر ويقضى . وبه قال أبو عبيد وأبو ثور ، وحكى ذلك أبو عبيد عن أبي ثور ، واختاره ابن المنذر . وهو قول مالك في الحبلى إن أفطرت . فأما المرضع إن أفطرت فعليها القضاء والإطعام . وقال الشافعي وأحمد : يفطران ويطعمان ويقضيان ، وأجمعوا على أن المشايخ والعجائز الذين لا يطيقون الصيام أو يطيقونه على مشقة شديدة أن يفطروا ، واختلفوا فيما عليهم ، فقال ربيعة ومالك : لا شيء عليهم . غير أن مالكاً قال : لو أطعموا عن كل يوم مسكيناً كان أحب إلى . وقال أنس وابن عباس وقيس بن السائب وأبو هريرة : عليهم الفدية ، وهو قول الشافعي وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق اتباعاً لقول الصحابة رضى الله عن جميعهم . وقوله تعالى : ﴿ **فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾(١) .

ثم قال : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ وهؤلاء ليسوا بمرضى ولا مسافرين ، فوجب عليهم الفدية . والدليل قول مالك : أن هذا مفطر لعذر موجود فيه وهو الشيخوخة والكبر فلم يلزمه إطعام كالمسافر والمريض . وروى هذا عن الثورى ومكحول واختاره ابن المنذر .

---

(١) البقرة : ١٨٤ .

واختلف من أوجب الفدية على من ذكر في مقدارها ، فقال مالك : مد بمد النبي ﷺ عن كل يوم أفطره . وبه قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : كفارة كل يوم صاع تمر أو نصف صاع بر . وروى عن ابن عباس نصف صاع من حنطة . ذكره الدارقطني . وروى عن أبي هريرة قال : من أدركه الكبر فلم يستطع أن يصوم فعليه لكل يوم مد من قمح . وروى عن أنس بن مالك أنه ضعف عن الصوم عاماً فصنع جفنة من طعام ثم دعا بثلاثين مسكيناً فأشبعهم .

وقوله تعالى : ﴿ **فمن تطوع خيراً فهو خير له** ﴾[1] قال ابن شهاب : من أراد الإطعام مع الصوم . وقال مجاهد : من زاد في الإطعام على المد . ابن عباس : « فمن تطوع خيراً .. » قال : مسكيناً آخر فهو خير له . ذكره الدارقطني وقال : إسناده صحيح ثابت . و « خير » الثاني صفة تفضيل ، وكذلك الثالث و « خير » الأول . وقرأ عيسى بن عمر ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي : ﴿ **تطوع خيراً** ﴾ مشدداً وجزم العين علي معنى يتطوع . الباقون « **تطوع** » بالتاء وتخفيف الطاء وفتح العين على الماضي .

وقوله تعالى : ﴿ **وأن تصوموا خير لكم ، إن كنتم تعلمون** ﴾[2] : أى والصيام خير لكم . وكذا قرأ أبيّ أى من الإفطار مع الفدية وكان هذا قبل النسخ ، وقيل : وأن تصوموا في السفر والمرض غير الشاق ، والله أعلم . وعلى الجملة فإنه يقتضى الحض على الصوم أى فاعلموا ذلك وصوموا .

وعلى هذا ، فإننا نستطيع ــ بعد هذا الفقه الذي كان لا بد أن نقف عليه[3] ــ : أن نقول أن صيام شهر رمضان بالإضافة إلى أنه سيكون سبباً في تحقيق التقوى فينا وفي جميع عباداتنا ومعاملاتنا .. كما أشار إلى هذا قول الله تعالى : ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ ، وذلك لأن التقوى ــ كما علمنا قبل ذلك ــ خير زاد : ﴿ **فإن خير الزاد التقوى** ﴾[4] :

---

(١) البقرة : ١٨٤ .　　(٢) البقرة : ١٨٤ .

(٣) والذي شرحناه شرحاً وافياً في الجزء الرابع من وصايا الرسول ﷺ ، والذي تستطيع أن تزود نفسك به من كتب الفقه المطولة ..

(٤) البقرة : ١٩٧ .

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

* * *

الموت بحر طامح موجـــه تذهب فيه حيلة السابح
يا نفس إني قائل فاسمعي مقالة من مشفـــق ناصح
لا يصحب الإنسان في قبره غير التقى والعمل الصالح

ولهذا ، فقد قال الله تعالى : ﴿ .. **واتقون يا أولى الألباب** ﴾(١) :

ففي الصيام بالإضافة إلى هذا الخير العظيم ــ وهو تحقيق التقوى ــ : ما أشار إليه الحديث الشريف الذي ورد :

عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « **من صام رمضان إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه** » متفق عليه .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « **إن في الجنة باباً يقال له « الريان » يدخل منه الصائمون ، فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم ، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد** » متفق عليه .

وفي رواية للترمذي : « **فمن كان من الصائمين دخله ومن دخله : لم يظمأ أبداً** » وقال : حسن صحيح .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام ، فإنه لي وأنا أجزي به . والصيام جنة(٢) ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث(٣) ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله ، فليقل : إني صائم . والذي نفس محمد بيده لخلوف(٤) فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقي ربه فرح بصومه** » متفق عليه .

---

(١) البقرة : ١٩٧ .
(٢) جنة ــ بضم الجيم ــ أى : وقاية من النار أو المعاصي .
(٣) الرفث : الكلام الفاحش . والصخب ــ بفتح الخاء ــ : أى اللغط .
(٤) الخلوف ــ بضم الخاء واللام وسكون الواو بالفاء ــ : أى التغير .

وهذا لفظ رواية البخاري . وفي رواية له : « يترك طعامه ، وشرابه ، وشهوته ، من أجلي ، الصيام لى وأنا أجزي به ، والحسنة بعشر أمثالها » .

وفي رواية لمسلم : « كل عمل ابن آدم يضاعف : الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال الله تعالى : « إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به : يدع شهوته وطعامه من أجلي . للصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه . ولخلوف فيه(١) أطيب عند الله من ريح المسك » .

ولهذا ، فقد ورد كذلك :

عن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ ، كان إذا رأى الهلال ــ هلال رمضان(٢) ــ قال :

« اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، ربي وربك الله ، هلال رشد(٣) وخير » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

كما ورد كذلك أن النبى ﷺ كان يرغب أصحابه في صيام رمضان إذا حضر .

فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ : « قد جاءكم رمضان شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه : تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغل فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر . من حُرم خيرها فقد حُرم » أخرجه أحمد والنسائي والبيهقى .

وهذا معناه(٤) : أن فائدة فتح أبواب الجنة في رمضان هو توقيف الملائكة على عمل الصائمين ، وحمدالله لهم ، وأن ذلك من الله بمنزلة عظيمة ، وأيضاً إذا علم المكلف الموقن بهذا الخبر الصادق يزيد في نشاطه ويتلقاه بصدر منشرح واهتمام كامل ، وهذا يدل على أن أبواب الجنة تغلق في غير رمضان(٥) ، ولا ينافيه قوله تعالى : ﴿ .. **وإن للمتقين لحسن مآب . جنات عدن مفتحة**

---

(١) أى فمه .

(٢) هلال كل شهر عربي وهلال رمضان بصفة خاصة .

(٣) الرشد ــ بضم فسكون وبفتحتين ــ : ضد الغى .

(٤) كما يقول في هامش الدين الخالص ج ٨ ص ٢٨٤ معلقاً على هذا الحديث الأخير .

(٥) تغلق وتفتح في غير رمضان إلا باب التوبة فإنه لا يغلق .

هم الأبواب﴾(١) : لأن هذا مع كونه في الآخرة لا يقتضي دوام كونها مفتحة الأبواب ، وتعليق أبواب النار في رمضان يقتضي أنها تفتح في غيره ولا ينافيه قوله تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ﴾(٢) : لأن هذا في الآخرة ولا ينافي أن يكون هناك غلق قبل ذلك ، وغلق أبوابها في رمضان لا ينافي موت الكفرة فيه وتعذيبهم بالنار إذ يكفي فيه فتح باب صغير من القبر إلى النار غير الأبواب المغلقة « وتغل فيه الشياطين » لتعجيزهم عن الإغواء وتزيين الشهوات . ولا ينافيه وقوع المعاصي والشرور في رمضان لأن لذلك أسباباً غير الشياطين كالنفوس الخبيثة وشياطين الإنسان فلا يلزم أن تكون كل معصية بوسوسة شيطان . فهذا إبليس لم يسبقه شيطان آخر وسوس له بل كانت معصيته من قبل نفسه .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين » أخرجه البخارى ومسلم والنسائي وعندهما : فتحت أبواب الرحمة ، بدل : أبواب السماء .

والمراد : بـ « أبواب السماء »(٣) : ما يصعد منها إلى الجنة لأنها فوق السماء وسقفها عرش الرحمن كما ثبت بالكتاب والسنة . و « أبواب الرحمة » : تطلق على أبواب الجنة لحديث أبي هريرة أن النبى ﷺ ، قال « تحاجت النار والجنة ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . وقالت الجنة : فمالى لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم(٤) وعجزهم ؟ فقال الله للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي . وقال للنار : أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي . ولكل واحدة منكما ماؤها » الحديث أخرجه مسلم .

ولله در الشاعر الشيخ « محمد الأسمر » شاعر الأزهر . رحمه الله ، فلقد قال :

---

(١) سورة ص : ٤٩ ، ٥٠ . (٢) الزمر : ٧١ .

(٣) كما يقول أيضاً في الدين الخالص ج ٨ ص ٢٨٥ معلقاً على هذا الحديث الأخير .

(٤) بفتح السين والقاف ، أى : ضعفاؤهم والمحتقرون منهم . وعجزهم بفتحتين : جمع عاجز أى العاجزون عن طلب الدنيا والتمكن فيها .

رعى الله شهر الصوم . أما نهاره فغاف . وأما ليله فهو ساهر
وحيا رجالاً حين لاح هلاله مشت بينهم مشى النسيم البشائر
بطان إذا ما الشمس أرخت قناعها خماص إذا ما أقبلت وهى سافر
خضوعاً لمن فوق السموات عرشه ويعلم منهم ما تكن السرائر
هو « الله » فاعبده العبادة كلها إذا راح يلهو بالعبادة فاجر

فكن أخا الإسلام من هؤلاء الرجال المؤمنين الموفقين ، و :

لا تجعلن رمضان شهر فكاهة تلهيك فيه من القبيح فنونه
واعلم بأنك لا تنال قبوله حتى تكون تصومه وتصونه

وتأمل كذلك قول القائل :

إذا لم يكن في السمع منى تصامم وفي بصري غض وفي مقولي صمت
فحظي إذن من صومي الجوع والظمأ وإن قلت : إنى صائم يوماً فما صمت

وتأمل كذلك قول الآخر :

جاء الصيام فجاء الخير أجمعه ترتيل ذكر وتحميد وتسبيح
فالنفس تدأب في قول وفي عمل صوم النهار ، وبالليل التراويح

* * *

وحسبك أن تعلم كذلك أخا الإسلام ، أن الصوم بالإضافة إلى ما فيه من الثواب العظيم الذي وقفنا على بعضه : فيه علاج عظيم من أمراض تصيب إنسان العصر الحديث[1] نتيجة لزيادة كميات غذائه وماأدخله من وسائل صناعية لتنويع أصنافه وتغيير طعمه، ، وغير أنه يستعمل كعلاج ، فهو وقاية من أمراض أخرى : أشار إليها الدكتور « عبد العزيز إسماعيل » كبير الأطباء في زمانه ، في كتابه : « الإسلام والطب الحديث » عن الأسرار الطبية ، حيث يقول :

« من الناس من يتوهم أن صيام رمضان وهو من أركان الإسلام مضرة تلحق بالصائم لما يصيب الجهاز الهضمي خاصة وغيره عامة ولما يكون من

---

(١) كما جاء في كتاب « صوم رمضان » للأستاذ عبد الرزاق نوفل .

بعض الصائمين من انفعال وغضب .. وهذا خطأ لأن ما ذهبوا إليه ليس من الصيام في شيء ولكنه من ترك الاعتدال في طعام الإفطار والسحور ، ولأنهم لم يراعوا وقت الإفطار ما يتناسب مع خلو المعدة النهار كله ، ولأن السحور يجب أن يقتصر على بضع لقيمات لأنه لا ضرر من الجوع في ذاته . ولقد ظهر أن الصيام يفيد في حالات كثيرة وهو العلاج الوحيد في أحوال أخرى ، وهو أهم علاج إن لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من أمراض كثيرة . مثل :

١ ـــ اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر في المواد الزلالية والنشوية وهنا ينجح الصيام وخصوصاً عدم شرب الماء بين الأكلتين وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان . وممكن أخذ الغذاء المناسب على حسب حالة التخمر . وهذه الطريقة أنجع طريقة لتطهير الأمعاء .

٢ ـــ زيادة الوزن الناشئة من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا أنجع من كل علاج مع الاعتدال وقت الإفطار في الطعام والاكتفاء بالماء في السحور .

٣ ـــ زيادة الضغط الذاتي وهو آخذ في الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ، ففي هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة وخاصة إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعي لمثله .

٤ ـــ البول السكرى ، وهو منتشر انتشار الضغط ويكون في مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوباً غالباً بزيادة في الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً إذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ويهبط السكر في الدم بعد الأكل بخمس ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي في حالات البول السكري الخفيف وبعد عشر ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي بكثير ، ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهم علاج في هذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين خصوصاً إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعي ولم يكن هناك لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام .

٥ ـــ التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

٦ ــ أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ ــ التهابات المفاصل المزمنة خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمن كما يحدث عند السيدات غالباً بعد سن الأربعين ، وقد شوهدت حالات تتمشي في شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث .

ورب سائل يقول : ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج إلى إرشاد طبيب في كل مرض على حدة ، والصيام الذي كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء ؟ وهذا صحيح ولكن فائدة الصيام للأصحاء هي الوقاية من هذه الأمراض وبخاصة أمراض الاضطرابات المعوية وزيادة الوزن ، وزيادة الضغط ، والبول السكري ، والتهابات المفاصل .

وهذه الأمراض كلها تبتدىء في الإنسان تدريجياً بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض ، فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض لأن الطب لم يتقدم بعد إلى الحد الذي يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها ، ولكن من المؤكد طبياً أن الوقاية من كل هذه الأمراض إنما هى في الصيام بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور أعراض المرض بوضوح ، وقد ظهر بإحصاءات لاتقبل الشك أن زيادة السمنة يصحبها استعداد للبول السكري وزيادة ضغط الدم الذاتي والتهاب المفاصل المزمن وغير ذلك . ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها وهذا هو السر في أن شركات التأمين لا تقبل تأميناً على الأشخاص الذين يزيد وزنهم إلا بشروط تثقل كلما زاد الوزن . والصيام مدة شهر كل سنة وقاية من كل هذه الأمراض ، وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف ، فقد انتشرت في أوروبا أكثر من الأول .

ويغلب على الظن أن ذلك هو السّر في أن الصيام في الإسلام أشد منه في الأديان السابقة ، لأن الإسلام وهو آخر الشرائع السماوية جاء في زمن نحتاج فيه إلى وقاية من أمراض تزداد كلما ازداد الترف » .

وفي كتاب « نحن المعمرون » للأستاذ « حسن عبد السلام » نقرأ كذلك النص الآتي : « وفائدة الصوم أنه يريح الجهاز الهضمي ويتيح لأغشية الجسم فرصة تتخلص فيها مما يتجمع حولها من النفايات والمواد الحامضية والتوكسينات

التي تتولد باستمرار في الجسم . كما أنه يعطي الأنسجة والأعضاء المصابة بشيء من التقيح أو الاحتقان أو الالتهاب مجالاً للشفاء . ومن المعلوم أن كل امرىء معرض للإصابة ببعض البؤرات الصديدية التي تتكون داخل الجسم وتلوثه بما تصبه من توكسينات في مجرى الدم . وهذه البؤرات قد يكون أثرها ضعيفاً في بادئ الأمر فلا يحس المرء بنتائجها ويشعر كأنه في كامل صحته ، غير أنه بمرور الزمن يتراكم الأثر الضار الذي ينجم عن وجود هذه البؤرات ، وفجأة يصاب الإنسان بمرض جسيم أو اختلال صحى يصعب الشفاء منه . وخير طريقة لتجنب الإصابات بالبؤرات الصديدية إنما هو الصوم من حين لآخر ، لأنه في خلال فترة الصوم يتغذى الجسم بأنسجته الداخلية ، فإن كان شيء من الاحتقان أو التقيح أو الالتهاب قد بدأ يصيب الأنسجة فإن أول ما يتهدم منها الخلايا المصابة فتتأكسد ويتخلص الجسم منها .

كما أن الصوم يذيب ما قد بدأ يتكون من الحصيات والرواسب الكلسية والزوائد اللحمية وأنواع البروز والنمو الخبيث . ويشيد مشاهير الأطباء في أمم الغرب بفائدة الصوم أعظم إشادة وكذلك ينصحون به لتجنب ويلات المرض وللشفاء منه في كثير من الحالات ، ويشيرون به بوجه خاص للمصابين بالديابيطس السكري وتضخم الكبد والتهاب الكلى والبدانة وارتفاع ضغط الدم وبعض الأمراض التي تنجم عن الإفراط في الأكل وإصابة الجسم بشيء من الحموضة وبوجه عام للمحافظة على صحة الجسم وتجديد حيويته » .

ويقول الدكتور « محمد الظواهري » أخصائي الأمراض الجلدية :

« إن كرم رمضان يشمل مرضى الأمراض الجلدية إذ تتحسن بعض الأمراض الجلدية بالصوم . وعلاقة التغذية بالأمراض الجلدية متينة إذ أن الامتناع عن الغذاء أو الشراب مدة ما يقلل من الماء في الجسم والدم وهذا بدوره يدعو إلى قتله في الجدار وحينئذ تزداد مقاومة الجلد للأمراض الجلدية المعدية والميكروبية ، ومقاومة الجسم في علاج الأمراض المعدية هى العامل الأول الذي يعتمد عليه في سرعة الشفاء .

وإن الجسم الذي لا يقاوم الميكروبات ويدفعها ينهار . ويضعف تأثير الدواء المبيد للميكروبات مع الجسم القليل المقاومة . وقلة الماء في الجلد تقلل

أيضاً من حدة الأمراض الجلدية الالتهابية والحادة والمنتشرة بمساحات كبيرة في الجسم ، وأفضل علاج لهذه الحالات من وجهة الغذاء إنما هو الامتناع عن الطعام والشراب لفترة ما ، ولا يسمح إلا بالقليل من السوائل البسيطة ، وقلة الطعام تؤدي إلى نقص الكمية التي تصل منه إلى الأمعاء . وهذا بدوره يريحها ويقلل من تكاثر الميكروبات الكامنة بها وما أكثرها ، وعندئذ يقل نشاط تلك الميكروبات المعوية ويقل إفرازها للسموم ومن ثم يقل امتصاص تلك السموم من الأمعاء . وهذه السموم تسبب العدد الكبير من الأمراض الجلدية . وإن الأمعاء لبؤرة خطرة من البؤر العفنة التي تشع سمومها عند كثير من الناس وتؤذي الجسم والجلد وتسبب لهما أمراضاً لا حصر لها .

وشهر الصيام هو شهر الهدنة والراحة من تلك السموم وأضرارها ، والصيام كذلك علاج لأمراض زيادة الحساسية وأمراض البشرة الدهنية » .

وبهذا أخا الإسلام يتأكد لك المعنى المراد من قول الله تبارك وتعالى : **﴿ وأن تصوموا خير لكم ، إن كنتم تعلمون ﴾**[1] .

وقد علمنا هذا — كما رأينا — على ألسنة المتخصصين الذين تبين لنا من خلال ما قالوه ضرورة الصيام ، ولا سيما صيام : **﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾**[2] .

وكما يقول الحسن البصري ، رحمه الله : « إن الله تعالى جعل رمضان مضماراً لخلقه يتسابقون فيه بطاعته إلى مرضاته . فسبق قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا !! فالعجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر المبطلون !! أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ، ومسيء بإساءته » .

* * *

فلتكن أخا الإسلام — إن شاء الله — من الذين سبقوا ففازوا .. ولا تكن من الذين تخلفوا فخابوا .

---

(١) البقرة : ١٨٤ .

(٢) البقرة : ١٨٥ .

وليكن صيامك إن شاء الله تعالى صياماً صحيحاً على أساس :

من آداب الصيام

التي أرجو إن شاء الله أن تكون منفذاً لها حتى يقبل الله تعالى منك صيامك ، وهي[1] :

إذا رأيت هلال رمضان أو هلال غيره فقل كما كان الرسول ﷺ يقول : « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ، ربي وربك الله ، هلال رشد وخير » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وأن تستقبل رمضان بنية أن تصوم لله إيماناً واحتساباً ، وافتتح أول ساعة منه ، صفحة جديدة في سجل أعمالك ، ومعك العزم الأكيد على التزود فيه بصالح الأعمال ، فمن أدركه رمضان فلم يغفر له ، فقد خاب وخسر ! يقول ﷺ : « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ، صفدت الشياطين ، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب ، وينادي مناد : يا باغي الخير أقبل ، ويا باغي الشر أقصر » رواه النسائي والترمذي بنحو هذا اللفظ ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .

وليكن منهجك في الصوم : التخلي عن الرذائل ، والتحلي بالحلم والوقار والسكينة ، واجتناب الرفث وهو الفحش من القول ، والعبارات البذيئة النابية ، وترك الصخب ، وهو الصياح ورفع الصوت ، فذلك علامة السفه والطيش ، فعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « من صام رمضان ، وعرف حدوده ، وتحفظ مما ينبغي له أن يتحفظ ، كفر ما قبله » رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي بسند جيد .

وإذا صدرت من غيرك إساءة لك ، فقابل السيئة بالحسنة ، وادفع بالتي هي أحسن ، وذكر نفسك بأدب الإسلام ، والتزم خلق الصائم ، وردد ما أمرك الرسول الكريم به في هذا الموقف : « فإن شاتمه أحد أو قاتله ، فليقل: إني صائم .. إني صائم » من حديث رواه أحمد ومسلم والنسائي .

وأقبل على تلاوة القرآن في رمضان ، في ليله ونهاره ، في الصلاة وخارج

---

(١) كما قرأت في ملحق « الوعي الإسلامي » رسالة الصيام والزكاة .

الصلاة ، فهو شهر القرآن .. ففي الحديث المتفق عليه : « كان رسول الله ﷺ ، أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة » .. والصيام والقرآن يشفعان للمؤمن يوم القيامة ، يقول الصيام : « أى رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعني فيه .. فيشفعان » رواه أحمد بسند صحيح .

ولا تجعل شهر الصوم شهر فتور وكسل ، فمن الإساءة لفريضة الصوم أن تكون مدعاة للتراخي عن العمل ، وضعف الإنتاج ، فهو شهر جلد وصبر ، يتسلح فيه المؤمن بقوة الإرادة ، ومضاء العزيمة ، فينشط إلى العمل ، وينطلق في ميادين الكفاح يملؤها بالجد المثمر ، والسعي البناء .. عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال يوماً وقد حضر رمضان : « أتاكم رمضان شهر بركة ، يغشاكم الله فيه ، فينزل الرحمة ، ويحط الخطايا ، ويستجيب فيه الدعاء ، ينظر الله إلى تنافسكم فيه ، ويباهي بكم ملائكته ، فأروا الله من أنفسكم خيراً ، فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله عز وجل »رواه الطبراني ورواته ثقات .

وقدم لغيرك ما استطعت من الخير في رمضان ، فإن الثواب يضاعف فيه ، وإسداء المعروف ، وإطعام الجائع في هذا الشهر الكريم ، يقع في ميزان الله أعظم موقع ، وقد كان رسول الله ﷺ أجود ما يكون في رمضان ويقول ﷺ في حديثه عن مزايا هذا الشهر الكريم : « هو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزاد في رزق المؤمن فيه ، من فطر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شي » ، قالوا : يا رسول الله .. ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم ، فقال ﷺ : « يعطى الله هذا الثواب لمن فطر صائماً على تمرة ، أو شربة ماء ، أو مذقة لبن » — أى حسوة أو جرعة من اللبن — رواه البيهقي وابن خزيمة في صحيحه ثم قال : صح الخبر .

وحتى يكون صومك صحيحاً يؤتي ثمرته ، ويظهر أثره في سلوكك

وأخلاقك ، تجنب قول الزور ، من الكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والمراء ، وشهادة الزور ، والسخرية بالناس ، وتتبع عوراتهم ، والأيمان الفاجرة التي تدع الديار بلاقع ! وتجنب أيضاً عمل الزور : وهو يشمل المعاصي البدنية جميعها ، وبذلك تكون جوارح الصائم كلها في مأمن من الرذائل التي تضر بالفرد ، وتدمر المجتمع ! وما أبلغ قول المعصوم ﷺ وهو يضع دستوراً للصائم في كلمات تنأى به عن مواقع السوء ومزالق الهوى : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » رواه البخاري .

وتناول إفطارك عقب غروب الشمس مباشرة وقبل صلاة المغرب ، على تمرات وتراً أو على أى شراب حلو ، فإن لم يتيسر لك ذلك ، فعلى الماء ، فإن الماء طهور ، وذلك لتكسر حدة الجوع ، وتطفىء حرارة العطش ، فإن لبدنك عليك حقاً ، وحتى تقبل على صلاة المغرب غير معجل . هذه سنة نبيك عليه أفضل الصلاة والسلام ، فعن سهل بن سعد أن النبى ﷺ ، قال : « لا يزال الناس بخير ، ما عجلوا الفطر » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : أحب عبادي إلى أعجلهم فطراً » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وعند الإفطار ، توجه إلى الله بالدعاء لنفسك وللمسلمين ، ففي هذه اللحظة دعوة مقبولة إن شاء الله ، يقول ﷺ : « إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد » رواه ابن ماجه .

وثبت أنه ﷺ كان يقول : « ذهب الظمأ ، وابتلت العروق ، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى » .

وروى مرسلاً أنه ﷺ ، كان يقول : « اللهم إنى أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي » .

وتناول سحورك قريباً من الفجر ، ففي ذلك عون على النشاط في النهار ، وتحمل مشاق الصوم ، والوقت المناسب للسحور ، قبل الفجر بنصف ساعة ، وبذلك يجتمع لك فضلان : تحقيق السنة بتأخير السحور ، وإدراك صلاة الصبح جماعة في وقتها .. عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله

ﷺ : « تسحروا فإن في السحور بركة » متفق عليه .

وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه : قال : « تسحرنا مع رسول الله ﷺ ، ثم قمنا إلى الصلاة ، قيل كم بينهما ؟ قال : خمسون آية » متفق عليه .

وتجنب الإفراط في الأكل والشرب ، فإن من حكم الصوم ، التخفيف على المعدة . وتنقية البدن من رواسب الطعام المتراكمة في داخله طول العام ، وإن عدداً كبيراً من الأمراض : الشديدة والعلل المنهكة : ينشأ من اكتظاظ المعدة بما لا تطيق هضمه ، وقد جاء في الحديث : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » رواه الترمذي .

وقد أمرنا الله تبارك وتعالى بترك الإسراف في الأكل والشرب ، في رمضان وغيره فقال عز من قائل : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين** ﴾(١) .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام ، ونفذه .. ونفذ كذلك ما أوصانا به الرسول ﷺ ، بعد ذلك في نص الوصية ، وهو : « وأدوا زكاة أموالكم » :

تنفيذاً لأمر الله تعالى الذي يقول : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون** ﴾(٢) .

ويقول : ﴿ **إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾(٣) .

ففي الآية الأولى يأمرنا سبحانه وتعالى ـــ كمؤمنين ـــ بإيتاء الزكاة : ﴿ .. **للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم** ﴾(٤) :

وتلك هى :

---

(١) الأعراف : ٣١ . (٢) النور : ٥٦ . ـ (٣) الذاريات : ١٥ ـــ ١٨ .
(٤) التوبة : ٦٠ .

مصارف الزكاة

كما حددتها وبينتها الآية الكريمة ، وهي على ثمانية :

١ ، ٢ ـــ الفقراء والمساكين :

وهم المحتاجون الذين لا يجدون كفايتهم ، ويقابلهم الأغنياء وهم المكفيون ما يحتاجون إليه ، والقدر الذي يصير الإنسان به غنياً : هو قدر النصاب الزائد عن الحاجات الأصلية له ولأولاده ومن تلزمه نفقتهم من مأكل ، ومشرب ، وملبس ، ومسكن ، ومركب ، وآلة حرفة ، ونحو ذلك ، فكل من عدم هذا القدر فهو فقير يستحق الزكاة وليس هناك فرق بين الفقراء وبين المساكين من حيث الحاجة والفاقة ومن حيث استحقاقهم للزكاة ، والمساكين : هم قسم من الفقراء لهم وصف خاص بهم .

وقد جاء في الحديث ما يدل على أن المساكين هم الفقراء الذين يتعففون عن السؤال ولا يتفطن إليهم الناس .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ، قال : « ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان .. إنما المسكين الذي يتعفف ، اقرأوا إن شئتم : ﴿ **لا يسألون الناس إلحافاً** ﴾[١] . رواه الإمام مالك والإمام أحمد قريباً من هذا المعنى وحكى بعضهم الاتفاق عليه .

٣ ـــ العاملون عليها :

وهم الذين يوليهم الإمام أو نائبه العمل على جمع الزكاة من الأغنياء ، ويدخل فيهم الحفظة لها والرعاة لأنعامها والكتبة لديوانها ، ويجب أن يكونوا من المسلمين وألا يكونوا ممن تحرم عليهم الصدقة ويجوز أن يكونوا من الأغنياء .

٤ ـــ المؤلفة قلوبهم :

وهم الجماعة الذين يراد تأليف قلوبهم وجمعها على الإسلام أو تثبيتها عليه لضعف إسلامهم أو كف شرهم عن المسلمين أو جلب نفعهم في الدفاع عنهم .

---

(١) البقرة : ٢٧٣ .

٥ ــ في الرقاب :

ويشمل المكاتبين ــ من العبيد ــ ، فيعان المكاتبون بمال الزكاة لفك رقابهم من الرق ويشتري به العبيد ويعتقون .

٦ ــ الغارمون :

وهم الذين تحملوا الديون ، وتعذر عليهم أداؤها كمن التزم في ذمته ديناً ليدفعه في إصلاح ذات البين أو ضمن ديناً فلزمه ، أو استدان لحاجته إلى الاستدانة ، فهؤلاء يأخذون من الزكاة ما يفي بديونهم . ومن استدان لإصلاح ذات البين يأخذ من الزكاة ولو كان غنياً .

٧ ــ في سبيل الله :

وسبيل الله هو الطريق الموصل إلى مرضاته .. وجمهور العلماء على أن المراد به هنا الغزو . وأن سهم سبيل الله يعطى للمتطوعين من الغزاة الذين ليس لهم مرتب من الدولة ، فهؤلاء لهم سهم من الزكاة فيعطونه ولو كانوا من الأغنياء. قال في المنار : يجوز الصرف من هذا السهم على تأمين طريق الحج وتوفير الماء ، والغذاء وأسباب الصحة للحجاج إن لم يوجد لذلك مصرف آخر .

وسبيل الله يشمل سائر المصالح الشرعية العامة وفي مقدمتها الاستعداد للحرب بشراء الأسلحة وأغذية الجند وأدوات النقل وتجهيز الغزاة ، ويشمل إنشاء المستشفيات ، وشق الطرق ، ومد الخطوط العسكرية وإعداد الدعاة إلى الإسلام .

٨ ــ ابن السبيل :

وهو المسافر الذي نفد ماله وأصبح في حاجة إلى مال ينفق منه حتي يصل ماله أو يصل إلى بلده .

* * *

وحول توزيع الزكاة :

فقد اختلف الفقهاء في توزيع الزكاة على الأصناف الثمانية السابقة ..

والراجح أنه لا يجب توزيعها على الأصناف كلها ، وأنه يجوز توزيعها على جنس واحد ، وللمزكي أن يعطي بعض الجنس دون بعضه ، إذ المقصود من الزكاة هو سد الحاجة وهذا يقتضي تقديم أهل الحاجة على غيرهم .

* * *

مع ملاحظة : أن الأصناف الآتية لا تستحق الزكاة ولا تحل لهم ولا يجزيء صرفها إليهم ، وهم :

١ ـــ الكفرة والملاحدة :

وقد أجمع الأئمة على عدم جواز صرف شيء من الزكاة الواجبة ـــ غير زكاة الفطر ـــ إلى غير المسلم ، لأن الرسول ﷺ صرح بقصرها على فقراء المسلمين ، وذلك في حديثه لمعاذ رضى الله عنه حين بعثه الى اليمن ، وقال له : « فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة من أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم » رواه البخارى .

أما زكاة الفطر فقد أجاز أبو حنيفة وحده صرف شيء منها لغير المسلم بينما منع الباقون من الأئمة ذلك ، وأما صدقة التطوع وهى غير الواجبة : فجمهور الأئمة يجيز توزيع بعضها على المحتاج غير المسلم ممن بيننا وبينهم صلة وعهد ، باعتبار أن برهم والإحسان إليهم لم يمنعنا الاسلام منه علما بأن دفعها للمسلم أفضل وأكثر ثوابا ، والأمر فى ذلك يرجع إليك وإلى تقديرك للظروف التي حولك .

وأهم شيء يجدر بنا أن نراعيه هو حاجة أقاربنا وجيراننا وأهل بلدتنا ، ومن لهم بنا صلة ، ومن هم أشد حاجة إلى الزكاة ـــ أو الصدقة بصفة عامة ـــ من غيرهم .

٢ ـــ آل البيت من بني هاشم وبني المطلب :

ففي الحديث : « إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس » رواه مسلم . وعن أبي هريرة ، قال : أخذ الحسن تمرة من تمر

الصدقة ، فقال النبي ﷺ : « كخ .. كخ[1] — ليطرحها — أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة » متفق عليه .

٣ — الآباء والأبناء ويشمل الأجداد والأمهات والجدات وأبناء الأبناء والبنات :

فقد اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز إعطاء الزكاة إلى الآباء والأجداد والأمهات والجدات والأبناء وأبناء الأبناء والبنات وأبنائهن ، لأنه يجب على المزكي أن ينفق على آبائه وإن علوا ، وأبنائه وإن نزلوا إن كانوا فقراء : فهم أغنياء بغناه ، فإذا دفع الزكاة إليهم فقد جلب لنفسه نفعاً بمنع وجوب النفقة عليه .

وقد استثنى مالك : الجد ، والجدة ، وبني البنين ، فأجاز دفعها إليهم لسقوط نفقتهم[2] .. هذا في حالة ما إذا كانوا فقراء ، فإن كانوا أغنياء وغزوا متطوعين في سبيل الله فله أن يعطيهم من سهم سبيل الله ، كما له أن يعطيهم من سهم الغارمين ، لأنه لا يجب عليه أداء ديونهم ويعطيهم كذلك من سهم العاملين إذا كانوا بهذه الصفة .

٤ — الزوجة :

لأن نفقتها واجبة على الزوج .. قال ابن المنذر : أجمع أهل العلم على أن الرجل لا يعطى زوجته من الزكاة . وسبب ذلك أن نفقتها واجبة عليه فتستغني بها عن أخذ الزكاة مثل الوالدين إلا إذا كانت مدينة فتعطى من سهم الغارمين لتؤدي دينها .

قال في فقه السنة :

لا يجوز صرف الزكاة إلى القرب التي يتقرب بها إلى الله تعالى غير ما ذكر في آية : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين** ﴾ : فلا تدفع لبناء المساجد

---

(١) كخ بفتح أو كسر فسكون الخاء مخففاً أو مثقلاً وبكسرها منونة وغير منونة : كلمة لردع الصبي عن تناول ما لا ينبغي .

(٢) يرى ابن تيمية أنه يجوز دفع الزكاة إلى الوالدين إذا كان لا يستطيع أن ينفق عليهما وكانا في حاجة إليها .

والقناطر ، وإصلاح الطرقات ، والتوسعة على الأضياف ، وتكفين الموتى وأشباه ذلك .

قال أبو داوود : سمعت أحمد — وسئل : يكفن الموتى من الزكاة ؟ قال : لا ، ولا يقضي من الزكاة دين الميت[1] . وقال : يقضي من الزكاة دين الحى ، ولا يقضي منها دين الميت ، لأن الميت لا يكون غارماً . قيل : فإنما يعطي أهله . قال : إن كانت على أهله فنعم .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام ، وأد الزكاة التي أوجبها الله تعالى عليك : كمسلم حر مالك للنصاب من أى أنواع المال الذي تجب فيه الزكاة ، وهو : الذهب ، والفضة ، والزروع ، والثمار ، وعروض التجارة ، والسوائم ، والمعدن ، والركاز .

ويشترط في النصاب — الذي سنقف عليه بعد ذلك — :

١ — أن يكون فاضلاً عن الحاجات الضرورية التي لا غني للمرء عنها كالمطعم والملبس والمسكن والمركب وآلات الحرفة .

٢ — وأن يحول عليه الحول الهجري ، ويعتبر ابتداؤه من يوم أن ملك النصاب ولا بد من كماله في الحول كله . فلو نقص أثناء الحول ثم كمل اعتبر ابتداء الحول من يوم كماله . قال النووي : مذهبنا ومذهب مالك وأحمد والجمهور أنه يشترط في المال الذي تجب الزكاة في عينه ، ويعتبر فيه الحول كالذهب ، والفضة ، والماشية وجود النصاب في جميع الحول ، فإن نقص النصاب في لحظة من الحول انقطع الحول ، فإن كمل بعد ذلك استؤنف الحول من حين يكمل النصاب .

وقال أبو حنيفة : المعتبر وجود النصاب في أول الحول وآخره ولا يضر نقصه بينهما ، حتى لو كان معه مائتا درهم تلفت كلها في أثناء الحول إلا درهما ، أو أربعون شاة فتلفت في أثناء الحول إلا شاة ، ثم ملك في آخر الحول تمام المائتين وتمام الأربعين وجبت زكاة الجميع .

---

(١) لأن الغارم هو الميت ولا يمكن الدفع إليه وإن دفعها للغريم صار الدفع إلى الغريم لا إلى الغارم .

وهذا الشرط لا يتناول زكاة الزروع والثمار ، فإنها تجب يوم الحصاد ، قال الله تعالى : ﴿ .. **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾[١] . وقال العبدرى : أموال الزكاة ضربان أحدهما ما هو نماء في نفسه ، كالحبوب والثمار ، فهذا تجب الزكاة فيه لوجوده . والثاني : ما يرصد للنماء . كالدراهم والدنانير وعروض التجارة والماشية ، فهذا يعتبر فيه الحول فلا زكاة في نصابه حتى يحول عليه الحول ، وبه قال الفقهاء كافة ، انتهى . من المجموع للنووى .

* * *

والزكاة عبادة فيشترط لصحتها النية ، وذلك أن يقصد المزكي عند أدائها وجه الله ، ويطلب بها ثوابه ويجزم بقلبه أنها الزكاة المفروضة عليه ، قال الله تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾[٢] .

وفي الصحيح أن النبي ﷺ ، قال : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » . واشترط مالك والشافعي : النية عند الأداء أو عند عزل الواجب . وجوز أحمد تقديمها على الأداء زمناً يسيراً .

ويجب إخراج الزكاة عند وجوبها ، ويحرم تأخير أدائها عن وقت الوجوب إلا إذا لم يتمكن من أدائها فيجوز له التأخير حتى يتمكن ، لما رواه أحمد والبخاري عن عقبة بن الحارث ، قال : صليت مع رسول الله ﷺ العصر ، فلما سلم قام سريعاً فدخل على بعض نسائه ، ثم خرج ، ورأى ما في وجوه القوم من تعاجبهم لسرعته ، قال : « ذكرت وأنا في الصلاة تبرا[٣] عندنا ، فكرهت أن يمسي أو يبيت عندنا ، فأمرت بقسمته » .

وروى الشافعي والبخاري في التاريخ عن عائشة أن النبي ﷺ ، قال : « ما خالطت الصدقة مالاً قط إلا أهلكته » رواه الحميدي وزاد ، قال : « يكون قد وجب عليك في مالك صدقة فلا تخرجها ، فيهلك الحرام الحلال » .

* * *

---

(١) الأنعام : ١٤١ . (٢) البينة : ٥ .

(٢) التبر : قال الجوهري : لا يقال إلا للذهب . وقد قال بعضهم في الفضة .

ويجوز تعجيل الزكاة وأداؤها قبل الحول ولو لعامين ، فعن الزهري أنه كان لا يرى بأساً أن يعجل الرجل زكاته قبل الحول . وسئل الحسن عن الرجل أخرج ثلاث سنين يجزيه ؟ قال : يجزيه . قال الشوكاني : وإلى ذلك ذهب الشافعي ، وأحمد ، وأبو حنيفة ، وبه قال الهادي والقاسم ، قال المؤيد بالله : وهو أفضل . وقال مالك وربيعة وسفيان الثورى وداوود وأبو عبيد الحارث . ومن أهل البيت الناصر : أنه لا يجزيء حتى يحول الحول ، واستدلوا بالأحاديث التي فيها تعلق الوجوب بالحول وقد تقدمت ، والتسليم بذلك لا يضر من قال بصحة التعجيل ، لأن الوجوب متعلق بالحول فلا نزاع ، وإنما النزاع في الإجراء قبله . انتهى . قال ابن رشد : وسبب الخلاف هل هي عبادة أو حق واجب للمساكين .. فمن قال أنها عبادة وشبهها بالصلاة لم يجز إخراجها قبل الوقت ، ومن شبهها بالحقوق الواجبة المؤجلة أجاز إخراجها قبل الأجل على جهة التطوع ، وقد احتج الشافعي لرأيه بحديث على أن النبى ﷺ استسلف صدقة العباس قبل محلها ، انتهى .

* * *

والآن أخا الإسلام ، وبعد أن وقفت معى على تلك الأساسيات التي كان لا بد أن تكون على علم بها ، حتى تؤدي زكاتك على أساس من الفقه ، فإليك :

*** زكاة الذهب والفضة :**

عن على بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « إذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحول ففيها خمسة دراهم . وليس عليك شيء — يعني في الذهب — حتى يكون لك عشرون ديناراً . فإذا كانت لك عشرون ديناراً وحال عليها الحول ففيها نصف دينار . والدينار وزنه مثقال » رواه أبو داوود .

بهذا الحديث تحدد المقدار الذي تجب فيه الزكاة وهو ما يسمى « نصاباً » كما تحددت قيمة الزكاة وهي في الإثنين ربع العشر .

وهل المثقال الذي كان يتعامل به الناس في عهد الرسول ﷺ ، هو المثقال المعروف لنا الآن ، أو غيره وكذلك الدرهم ؟..

ليس بين أيدينا الآن ، ما يعطينا الجواب الصحيح ولذلك فنحن نقدم لك هذه المعلومات على أساس وزن المثقال والدرهم الآن ، وإن كان وزن المثقال نفسه الآن متغيراً حسب البلاد .. فقد أفادنا تجار الذهب بالكويت أن المثقال العجمي = ٨ , ٤ جرامات والمثقال العراقي = ٥ جرامات وبينهما فرق ضئيل .

وعلى هذا فلا مناص لنا من أن يحسب كل واحد زكاته على أساس المثقال المتعامل به عنده حتى نعثر على تحقيق دقيق لما يساويه العشرون مثقالاً في عهد الرسول ﷺ من موازيننا الآن ، وكذلك الدراهم .. فإذا كنت تملك ذهباً أو فضة على شكل سبائك أو عملة تتعامل بها ، فإن بلغ وزن الذهب عشرين مثقالاً أو بلغت الفضة مائتي درهم فقد وجبت فيها الزكاة « ربع العشر » ـــ ٥ , ٢ ٪ ـــ وما زاد على هذا المقدار فبحسابه فتخرج عن كل زائد ربع عشره .

وإن كان أبو حنيفة لا يرى إلى الزائد زكاة حتى يبلغ خمس النصاب فيكون فيه ربع العشر . فمن يملك مائتى درهم فضة فزكاته قدرها خمسة دراهم ، ويحسب قيمة الزكاة بالعملة الجارية ويوزعها ، فإذا كانت زكاته مثلاً خمسة دراهم فضة أخرج قيمة هذه الدراهم بالعملة السائدة في بلده ، وحسب السعر الجاري وكذلك الأمر في الذهب ..

* زكاة العملات الجارية :

التعامل الجاري الآن لا يتم غالباً بالعملة الذهبية أو الفضية ، وكل دولة من الدول لها عملتها ونقودها السائدة وهى قد تكون من نحاس أو نيكل أو ألمونيوم أو ورق والعملة الورقية هى الغالبة كما نعرف . ولنفرض أن إنسانـــا عنده عشرات أو مئات الأكياس من العملة النحاس أو النيكل أو ما شـــابههما من المعادن فهل يزكى عنها ؟ مع العلم بأن قيمة هذه العملات مرتبطة بالجنيه ، ومن الممكن تحويلها إليه ، لهذا كله نرى أن فيها زكاة كبقية العملات الجارية . فيزكي عليها إذا بلغ ما عنده منها قيمة النصاب فيخرج عنها ربع العشر . وما دامت هذه العملة وحدة من وحدات الجنيه ويمكن تحويلها إليه فإنه تحسب على أساس ما يحسب به الجنيه الورق المتعامل به .

* **زكاة أوراق البنكنوت :**

إذا بلغ ما يملكه المسلم منها ما قيمته عشرون مثقالاً من الذهب فنحسب البنكنوت على أساس نصاب الذهب لأن لها مقابلاً ذهبياً في بنك الدولة هو ما يسميه الاقتصاديون بالغطاء الذهبي .

ويجب أن نلاحظ بعناية أن قيمة الذهب والفضة تختلف من زمن إلى زمن ومن بلد إلى بلد كما هو معروف .

وعلى هذا يجب أن يراعي كل إنسان القيمة السائدة للذهب في بلده وقت إخراج الزكاة ، قد يختلف في الكويت مثلاً ، عنه في السعودية .. في مصر .. في العراق .. إلخ . وذلك حسب سعر الذهب فيها .

كما أن المبلغ الذي تجب فيه الزكاة قد يختلف أيضاً من سنة إلى سنة في البلد نفسه وذلك حسب اختلاف سعر الذهب . وهذا ما يجب أن يتنبه إليه الناس جيداً ولا سيما المفتون من العلماء وألا يعتمدوا على أرقام المبالغ التي دونت في الكتب من قبل لأنها حسبت على حساب سعر الذهب والفضة في زمنهم ، والأسعار متغيرة كما نعرف ، وما دام الوزن ثابتاً حسب النص ، فإنه من الممكن حساب قيمته كل سنة حسب الأسعار في نهاية السنة عند إخراج الزكاة .

* **كيف تحسب زكاة العملة ؟**

إذا كانت بلدك تتعامل بالمثقال وبالدرهم فاعرف كم يساوي العشرون مثقالاً من الذهب بالعملة الجارية ، فإذا وجدت أن عندك قيمةالعشرينمثقالاً من ورق البنكنوت ، أو من العملة المعدنية كالنحاس والنيكل ، فإنك تكون حنئذ قد ملكت النصاب .

وعليك أن تعرف اليوم الذي بدأ فيه ملكك له ليكون بدء سنة الزكاة ..

أما إذا لم تكن بلدك تتعامل بالمثقال ولا يمكنك معرفته ، فإننا نضع أمامك ما وصلنا إليه بعد الرجوع إلى تجار الذهب في الكويت :

قالوا : إن عندنا نوعين من المثاقيل ، هما :

المثقال العجمي = ٤,٨٠ جرام ، فالعشرون مثقالاً تساوي ٩٦ جراماً .

المثقال العراقي = ٥ جرامات ، فالعشرون مثقالاً تساوي ١٠٠ جرام .

والتفاوت بسيط على كل حال ، وعلينا أن نعتمد على الأقل وهو ٩٦ من باب الاحتياط . ومن السهل بعد ذلك أن يعرف كل إنسان من سوق بلده ما تساويه الـ ٩٦ جراماً من الذهب بالجنيهات الورقية ويحسب زكاته .

بقي عندنا سؤال يقوم في الأذهان .. وهو : لنفرض أن النصاب توافر في وقت من الأوقات كان بدء سنة الزكاة ولكن هذا المبلغ نقص أثناء السنة ثم زاد حتى بلغ نصاباً أو أكثر عند تمام السنة ، فما الحكم في هذه الحالة ؟..

الإمام أبو حنيفة يرى أنه لا يضر النقصان عن النصاب أثناء السنة إذ أن العبرة عنده بوجوده في أولها وعند نهايتها ، وعلى ذلك يرى وجوب الزكاة في هذه الحالة

أما غيره ، فيرى أنه لا بد من وجود النصاب طول السنة بحيث لو نقص في يوم من أيامها انقطعت السنة ، فإذا زاد حتى بلغ النصاب في يوم من الأيام بدأ حساب سنة جديدة من وقت بلوغه النصاب .

وبعض من لا دين عندهم يحاولون أن يفلتوا من الزكاة ويظنون أنهم يتعاملون مع أفراد لا مع الله الذي يعلم ما في الصدور فيتهربون من إخراج الزكاة ، ولكن إذا تهربوا في الدنيا وضنوا بحق الله ، فأين يهربون من الله في الآخرة يوم لا ملجأ منه إلا إليه ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾[1] ؟ ..

هذا هو الضابط وهو الفرق بين ما يفرضه الله على عباده ، وما يفرضه العباد على العباد خارجاً عن شرع الله .

* زكاة الحلي :

اعتاد الناس أن يتخذوا من الذهب والفضة حلياً للزينة ، كما اعتاد بعضهم أن يستعمل بعض الأدوات المتخذة منهما ــ من الذهب والفضة ــ

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

كالملاعق ، والشوك ، والأطباق ، والتحف ، وما إلى ذلك .. فهل تكون عليها زكاة ؟..

قال جمهور الأئمة : إن كانت الحلي مباحة فلا زكاة عليها .

وقال الإمام أبوحنيفة : بل تجب في الحلي المباحة زكاة .

ومن المعلوم أن المرأة هي التي يباح لها فقط التحلي بالذهب والفضة ، ولا يباح للرجل التحلي بالذهب مطلقاً ، ولا بالفضة إلا بقدر خاتم صغير منها ، أما استعمال الأواني والتحف من الفضة أو الذهب فحرام على الرجل والمرأة معاً . وعلى هذا تجب الزكاة على ما يتخذه الرجل من زينة ذهبية أو فضية وعلى كل الأواني المصنوعة منهما المملوكة للرجل أو المرأة وتحسب على أساس نصاب الذهب أو الفضة كما قدمنا .

وعلى رأي من قال بعدم الزكاة على حلى المرأة يجيء ما يذهب إليه بعض الناس من اتخاذ حلى المرأة مادة ادخار حتى لنجدهاأحياناًزائدة عن حد الزينة لمثلها فما يكون الرأى في هذه الحالة ؟ .

نرى أن الإنصاف في هذه الحالة يقضي بوجوب فرض زكاة عليها لأنها خرجت عن الغرض المقصود منها وهي الزينة إلى الادخار .

* الحلى من الجواهر :

وقد اعتاد البعض التحلي بخواتم أو بعقود من الماس أو اللؤلؤ أو غيرها من الأحجار الكريمة الغالية الثمن حتي ليصل ثمن الخاتم إلى عدة آلاف كما يصل ثمن العقد إلى عشرات الألوف ، فهل في هذه الحلى زكاة ؟ .

والجواب أن هذه الحلى لم يرد النص بتحريمها ، ومن ثم فهي مباحة ، كما لم يرد نص بالزكاة عليها ، ومن ثم لم يقل أحد من الفقهاء أن عليها زكاة حتى الذين قالوا أن في حلى الذهب والفضة المباحة زكاة كالإمام أبي حنيفة ، ومع ذلك فإنها لو اتخذت حلياً بقصد الادخار فإنه يكون لها شأن آخر إذ أنه يمكن القول في هذه الحالة بأن عليها زكاة على حسب قيمتها في آخر كل عام .

وقد جاء في فتاوي الشيخ شلتوت عن زكاة الحلى من الذهب والفضة ما يأتي :

« حلي المرأة إن كان المقصود من اتخاذه التزين ، كان من الحاجة الأصلية للمرأة ولهذا لا تتعلق به زكاة ، وأما إذا اتخذته كنزاً وادخاراً باسم الحلي وإنما وضعته في يدها حفظاً له من الضياع ، فقد صار نقداً لم تتعلق به حاجة أصلية لصاحبته ، وبهذا تجب فيه زكاة » .

* **زكاة الدين :**

للأئمة والفقهاء المجتهدين آراء وتفصيلات كثيرة حول زكاة الدين مذكورة في كتب الفقه . ومن خلال هذه الآراء والتفصيلات يمكن أن نختار لك هذا الموجز :

فالدين الذي لك على آخر أو آخرين إما أن يكون :

١ ـــ ديناً حياً ، وهو ما كان المدين معترفاً به مستعداً لسداده في وقته أو عند طلبه .

٢ ـــ أو ديناً على معسر لا يرجى منه السداد أو على مماطل أو جاحد له غير معترف به .

والقسم الأول ، وهو الدين الحي : يرى جمهور الأئمة أن على الدائن زكاة ماله بالشروط السابقة في زكاة المال إلا أنه لا يجب عليه إخراج زكاته إلا بعد قبضه ويزكي عن المدة الماضية كلها سنة أو أكثر .

أما إذا كان الدين من النوع الثاني وهو ما يكون على معسر أو مماطل أو جاحد : فأكثر الأئمة على أنه لا زكاة فيه ،وإن كان الإمام مالك يرى أنه إذا قبضه فإنه يزكي عنه لعام واحد فقط ولو مكث عنده الدين أعواماً .

ومن كان عليه دين يستغرق كل ماله أو بعضه، فهل عليه زكاة ؟

قال الشافعية : نعم عليه زكاة فيما تحت يده من مال لو بلغ نصاباً .

وقال الحنفية : لا زكاة عليه فيما تحت يده من مال إلا زكاة الزروع والثمار، فإنها تجب .

وقال المالكية : لا زكاة عليه فيما تحت يده من مال إلا زكاة الزروع والثمار والماشية فإنها تجب .

وقال الحنابلة بمثل ذلك ..

ونحن نميل إلى الأخذ برأي الذين يقولون لا زكاة عليه في المقدار الذي يساوى الدين الذي عليه .

* **زكاة عروض التجارة :**

إذا كان الإنسان يتاجر في أية سلعة من السلع وجب عليه أن يخرج الزكاة إذا بلغت قيمة السلعة الجارية نصاباً عند تمام الحول .

والدليل على ذلك ما رواه أبو داوود والبيهقي عن سمرة بن جندب ، قال : أما بعد .. فإن النبى ﷺ كان يأمرنا أن نخرج الصدقة« الزكاة » ما نعده للبيع .

وما رواه أبو عمرو بن حماس عن أبيه ، قال : كنت أبيع الأدم « الجلد » والجعاب « الخفاف » فمر بي عمر بن الخطاب ، فقال : أد صدقة مالك . فقلت : يا أمير المؤمنين إنما هو الأدم . قال : قومه ثم أخرج صدقته .

فكل سلعة يتاجر فيها الإنسان سواء أكانت أصلاً من الأصناف التى تزكي كالحبوب والماشية أم لم تكن كالأقمشة والأشياء المصنوعة ، والأرض . والعقارات والأسهم وغيرها: تجب الزكاة فيها بالشروط الآتية :

١ ـــ أن تكون عنده نية التجارة فيها .

٢ ـــ أن تبلغ قيمة السلعة أو السلع التي ملكها ويتاجر فيها نصاباً عند تمام السنة التجارية .

٣ ـــ والنصاب المعتبر هنا هو النصاب المذكور في زكاة الذهب والفضة ، فيأتي آخر العام ويجري جرداً عاماً لممتلكاته التي يتاجر فيها ، ويحسب قيمتها وقت الجرد ، ولا يدخل في ذلك قيمة الأثاث والأجهزة الموجودة في المحل اللازمة للتجارة ، فإن بلغت قيمتها حسب سعر السوق نصاباً أو زادت زكاها بإخراج ربع عشرها وإلا فلا زكاة ، وكل تاجر في بلده يخرج زكاته على أساس قيمة النصاب المالي فيها كما قلنا في زكاة الذهب والفضة . ولا يضر نقصان قيمة التجارة عن النصاب أثناء الحول إذ العبرة بالقيمة عند تمامه . وتقويم السلع التجارية يكون على أساس العملة الجارية في بلده .

وإذا كانت له عدة محال تجارية فإنها تضم بعضها إلى بعض وتحسب قيمة ما في هذه المحال ويخرج عنها الزكاة وهى ربع العشر .. وإذا كان يملك أرضاً أو عقاراً أو مثل ذلك ثم نوى فيه التجارة بدأت سنة الزكاة من حين نيته التجارة فيها ..

ويلاحظ أن الربح يضم إلى رأس المال عند الجرد السنوي الختامي وتؤدي الزكاة عن الجميع ، فلو بدأت التجارة مثلاً بمائة دينار وفي آخر العام بلغت خمسمائة دينار فالزكاة واجبة على الخمسمائة دينار ، بل ولو كان رأس المال والربح نصاباً أو كثر زكى عليه ..

ومعلوم أن التاجر عندما يعمل حسابه الختامي في آخر العام يحسب ماله من الديون على الآخرين وما عليه للآخرين ويعرف بعد ذلك قيمة ما يمتلكه ويضم إليه ماله المدخر إن كان وعلى هذا تكون الزكاة . اللهم إلا إذا كان له دين على تاجر مفلس أو عميل لا ينتظر منه السداد فلا يحسب فيما تجب فيه الزكاة .

*** زكاة التأمين النقدي :**

التأمين النقدي الذي يدفعه المستأجر للمالك مال مملوك للمستأجر مودع عند المالك ضماناً لسداد الأجرة في مواعيدها ، فتجب زكاته على مالكه لا على المؤجر إذا توافرت شروط الوجوب .

*** زكاة العقار :**

العقار الذي يتجر فيه صاحبه بالبيع والشراء حكمه حكم السلع التجارية ويزكي زكاة عروض التجارة ، والعقار الذي يسكنه صاحبه ، أو يكون مقراً لعمله كمحل للتجارة ومكان للصناعة لا زكاة فيه ، والعقار الذي يستعمله مالكه بالإيجار لا زكاة في عينه ، ولكن غلته تخضع للزكاة بشروطها إذا توافرت من النصاب الزائد عن حاجته والحول .

*** زكاة الأسهم :**

يرى بعض الفقهاء المعاصرين أن الأسهم التي تتخذ للتجارة تجري فيها زكاة عروض التجارة ، ومقدارها : ربع العشر في قيمتها بعد حولان الحول .

أما الأسهم التي لا يقصد صاحبها التجارة فيها ، فتجب الزكاة في غلاتها ، بعد كل النفقات ، والقدر الواجب إخراجه هو عشر الصافي من الغلة .

*** زكاة الزروع والثمار :**

وردت آيات من القرآن الكريم تأمر المؤمنين بالإنتفاق مما أخرجته الأرض ، ومنها أخذ الفقهاء وجوب إخراج زكاة الزروع ، والثمار ، وإن اختلفت وجهة نظرهم في الأصناف التي تؤخذ عليها زكاة ، والأصناف التي لا تؤخذ عليها ، يقول الله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ **وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾[1] .

ويقول تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون** ﴾[2] .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « فيما سقت السماء والعيون أو كان عثرياً العشر وفيما سقى بالنضح نصف العشر » رواه الجماعة إلا مسلماً .

والعثرى بفتح العين والثاء وكسر الراء : الذي يشرب بجذوره لأنه عثر على الماء في باطن التربة فلم يعد في حاجة إلى سقى . أما النضح فهى آلة السقى كالساقية والماكينة ونحوهما .

*** الأصناف التي تزكى :**

والذي يتتبع آراء الأئمة حول الأصناف التي تجب فيها الزكاة يجدهم مختلفين في وجهات نظرهم حولها .

فيرى الأحناف أن الزكاة واجبة في كل ما يستنبته الإنسان من الأرض ، لا فرق بين حبوب وخضر وثمار وفواكه ، فكل ما يزرعه الإنسان عليه زكاة ، مع استثناء نحو الحطب والقصب الفارسي والأشجار غير المثمرة وهي واجبة عنده في القليل والكثير .

---

(١) الأنعام : ١٤١ . (٢) البقرة : ٢٦٧ .

أما جمهور الأئمة فيرون أن الزكاة واجبة في ثمار النخل والكرم وفي كل ما يزرع للقوت بشرط أن يكون صالحاً للادخار كالقمح ، والشعير ، والأرز ، والذرة ، واللوبيا ، والحمص ، والعدس ونحو ذلك ، ويزيد الإمام أحمد على هذا أنه لا يشترط أن يكون ما يدخر صالحاً للأكل فيوجب الزكاة على ما يدخر ولو كان غير صالح للأكل كحب الفجل والفواكه والقطن والكتان وما شابه ذلك ..

وتجب الزكاة في الثمار عند نضجها واستطابة أكلها كما تجب في الزروع بعد قوتها واشتدادها وتصفيتها ، فإذا قطعت قبل نضجها أو بدون صلاحها واشتدادها فلا زكاة عليها .

* **نصاب الزكاة :**

وقد سبق أن عرفت أن الإمام أبا حنيفة يوجب الزكاة في القليل والكثير ولا يشترط بلوغها نصاباً .

أما الآخرون فإنهم يشترطون مع ما تقدم أن تبلغ الثمار أو الزروع النصاب . وهو خمسة أوسق حسب نص الحديث السابق ، وذلك بعد تصفية نحو الأرز من قشره ومن الطين والتراب وبعد جفاف الثمر .

والوسق قدره الرسول ﷺ بستين صاعاً بصاع المدينة في عهده ﷺ ، فيكون النصاب ثلاثمائة صاع ، والصاع قدح وثلث .

ولا شك أن المكاييل تغيرت الآن عما كانت عليها في عهد الرسول ﷺ، وقد قدر بعض العلماء النصاب حسب المكاييل الحاضرة بأربعة أرادب وكيليتين .. والأردب اثنتا عشرة كيلة ..

وعلى هذا فمن يعرفون عندهم الآن مقدار الصاع المدني فأمامهم مقدار النصاب بالصيعان ، ومن لا يعرفونه فأمامهم قدر النصاب حسب الكيل المعمول به في مصر الآن ..

وقد قدر بعض العلماء النصاب بالوزن فقالوا : أنه يبلغ بالرطل البغدادي قديماً (وهو نحو ١٢٩ درهماً) ١٦٠٠ رطل بغدادي وبالرطل المعمول به الآن ١٤٢٩ رطلاً .

ولكن لو لجأنا إلى الوزن فسنجد أن الحبوب بعضها ثقيل كالأرز مثلاً وبعضها خفيف كالشعير ، فلو اتخذنا الوزن مقياساً فسيختلف المقدار في الكيل وعلي هذا فإن علينا أن نعتبر في النصاب الكيل كما ورد في الحديث .

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية المجلد (١٤ ص ١٠٥) **أن مد** النبى ﷺ يساوي ٧٥ لتراً على وجه التقريب فيكون الصاع على **هذا ثلاثة** ألتار كيلا تقريباً ، واللتر معروف لدى معظم الدول الإسلامية .

المقدار الواجب إخراجه :

نص الحديث الوارد الذي ذكرناه من قبل : بين لنا هذا ، ففي كل زرع يسقى بماء المطر أو بماء الأنهار دون تكلفة من الزارع فزكاته العشر ، أما إذا سقى بالساقية أو الماكينة أو الشادوف أو نحو ذلك مما يتكلف الزارع في سقيه ، فزكاته نصف العشر .

وإذا سقى نصف المدة بهذا ونصفها الآخر بذاك : فزكاته ثلاثة ارباع العشر ، والمرجع في هذا ضمير الزارع ووازعه الديني .

*** ضريبة الأرض والزكاة :**

تفرض الحكومات عادة ضريبة على الأرض الزراعية تختلف قيمتها حسب جودة الأرض أو عدم جودتها ، وهذه الضريبة تتقاضاها الدولة نظير ما تقوم به من شق الترع والمصارف والطرق والسدود وتوفير الوسائل لتحسين الزراعة والنهوض بها كتعيين المشرفين والمرشدين الزراعيين وغير ذلك ، فهل يمكن اعتبار هذه الضريبة زكاة ؟ ..

بالنظرة الأولى لوظيفة الضريبة ومصارفها نجد أنها غير الزكاة ومصارفها ، ومن هنا اختلف الغرض من كل منهما ولا يصح بالتالى أن تقوم الضريبة مقام الزكاة أو تغني عنها ، ومعلوم أن الضريبة تؤخذ سنوياً ، أما الزكاة فتؤخذ من الزراعة عند نضجها سواء نضجت في شهور أم سنة ..

*** زكاة الأنعام :**

الأصناف التي تجب فيها الزكاة ، هى : الإبل ، والبقر ، والجاموس ، والغنم ، والماعز . ولا يزكي عنها إلا بشروط أربعة :

١ ــ أن تكون سائمة ، أى ترعى الكلأ المباح أكثر السنة ، وهذا الشرط عند الجمهور ، أما المالكية فإنهم لا يشترطون السوم في وجوب زكاة النعم ، بل تجب سواء أكانت معلوفة أم سائمة .

٢ ــ أن تتخذ الماشية للدر والنسل والتسمين لا للعمل . وهذا أيضاً على رأى الجمهور بخلاف المالكية ، فإنهم لا يشترطون هذا الشرط بل يرون أن الزكاة واجبة في النعم سواء أكانتت عاملة أم غير عاملة .

٣ ــ أن تبلغ نصاباً معيناً كما سنوضحه فيما بعد .

٤ ــ أن يحول عليها الحول إلا ما تولد منها أثناء العام ، فإنه لا يشترط لوجوب الزكاة فيه مرور عام جديد ولكن يزكى مع الكبار عند تمام عامها .

وإليك بعد هذا النصاب والمقدار الواجب في كل نوع .

*** نصاب زكاة البقر :**

النصاب	القدر الواجب
من ٣٠ إلى ٣٩	تبيع أو تبيعه وهو ما له سنة .
من ٤٠ إلى ٥٩	مسنة وهي ما لها سنتان .
من ٦٠ إلى ٦٩	تبيعان .
من ٧٠ إلى ٧٩	مسنة وتبيع .
من ٨٠ إلى ٨٩	مسنتان .
من ٩٠ إلى ٩٩	ثلاثة أتباع .
من ١٠٠ إلى ١٠٩	مسنة وتبيعان .
من ١١٠ إلى ١١٩	مسنتان وتبيع .

وما زاد على ذلك ففي كل ثلاثين منه تبيع ، وفي كل أربعين مسنة .

*** نصاب زكاة الإبل :**

النصاب	القدر الواجب
من ٥ إلى ٩	شاة .
من ١٠ إلى ١٤	شاتان .
من ١٥ إلى ١٩	ثلاث شياة .

من ٢٠ إلى ٢٤	أربع شياه .
من ٢٥ إلى ٣٥	بنت مخاض(١) .
من ٣٦ إلى ٤٥	بنت لبون(٢) .
من ٤٦ إلى ٦٠	حقة(٣) .
من ٦١ إلى ٧٥	جذعة(٤) .
من ٧٦ إلى ٩٠	بنتا لبون .
من ٩١ إلى ١٢٠	حقتان .

فإذا زادت ، ففي كل أربعين ابنة لبون ، وفي كل خمسين حقة .

* **نصاب زكاة الغنم :**

النصاب	القدر الواجب
من ٤٠ إلى ١٢٠	شاة لها سنة .
من ١٢١ إلى ٢٠٠	شاتان .
من ٢٠١ إلى ٣٠٠	ثلاث شياة .

فإذا زادت بعد ذلك ، ففي كل مائة شاة .

هذا ويجوز إخراج الذكور في الزكاة اتفاقاً ، إذا كان نصاب الغنم كله ذكوراً ، فإن كان إناثاً فقط أو إناثاً وذكوراً ، جاز إخراج الذكور عند الأحناف ، وتعينت الأنثى عند غيرهم .

* * *

والآن أخا الإسلام وبعد أن وقفت على هذه الأحكام المتعلقة بالزكاة وأنواعها ، والتي كان لا بد أن نقف عليها حتى تؤدى زكاتك على أساس من الفقه الذي به تكون عالماً لا جاهلاً :

---

(١) وهي التي دخلت في سنتها الثانية ، وسميت بذلك لأن أمها عادة تصبح من المخاض أى الحوامل .

(٢) وهي التي دخلت في الثالثة ، وسميت بذلك لأن أمها عادة تصبح في هذه المدة ذات لبن نتيجة الحمل بعدها والولادة .

(٣) وهي التي دخلت في الرابعة وسميت بذلك لأنها استحقت أن يطرقها الفحل .

(٤) وهي التي دخلت في الخامسة ، وسميت بذلك لأنها أجذعت ، أى : سقط مقدم أسنانها .

بعد أن وقفت علي كل هذا ، أرجو ألا تنسى الآية الثانية ، التي أخبرنا الله تعالى فيها ، بأن في أموالنا حق معلوم : ﴿ **للسائل والمحروم** ﴾(١) :

وذلك حتى نحرص على أن نكون من هؤلاء الذين يريدون وجه الله كما تشير الآية الكريمة التي يقول الله تعالي فيها :

﴿ **فآت ذا القربي حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون . وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** ﴾(٢) .

فحول هاتين الآيتين ، قال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ **فآت ذا القربي حقه** ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى : لما تقدم أنه سبحانه وتعالى يبسط الرزق ويقدر(٣) أمر من وسع عليه الرزق أن يوصل إلى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغنى . والخطاب للنبى ﷺ والمراد هو أمته ، لأنه قال : ﴿ **ذلك خير للذين يريدون وجه الله** ﴾(٤) . وأمر بإيتاء ذي القربي لقرب رحمه ، وخير الصدقة ما كان على القريب ، وفيها صلة الرحم . وقد فضل رسول الله ﷺ الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب ، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدة : « أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لك في أجرك » .

الثانية : واختلف في هذه الآية ، فقيل : إنها منسوخة بآية المواريث . وقيل : لا نسخ ، بل للقريب حق لازم في البر على كل حال ، وهو الصحيح . قال مجاهد وقتادة : صلة الرحم فرض من الله عز وجل ، حتى قال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة . وقيل : المراد بالقربي أقرباء النبى ﷺ .

---

(١) المعارج : ٢٥ .

(٢) الروم : ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) أنه يشير إلى الآية : ٣٧ في سورة الروم التي قبل هاتين الآيتين ، وهي : ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ : أى يوسع الخير في الدنيا لمن يشاء أو يضيق ، فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط .

(٤) الروم : ٣٨ .

والأول أصح ، فإن حقهم مبين في كتاب الله عز وجل في قوله : ﴿ **فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى** ﴾(١) .

وقيل : إن الأمر بالإيتاء لذي القربي على جهة الندب . قال الحسن : ﴿ **حقه** ﴾ المواساة في اليسر ، وقول ميسور في العسر .

﴿ **والمسكين** ﴾ ، قال ابن عباس : أى أطعم السائل الطواف ، ﴿ **وابن السبيل** ﴾ الضيف ، فجعل الضيافة فرضاً .

الثالثة : ﴿ **ذلك خير للذين يريدون وجه الله** ﴾ ، أي إعطاء الحق أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجه الله والتقرب إليه .

﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ أى الفائزون بمطلوبهم من الثواب في الآخرة .

* * *

ثم يقول القرطبي بعد ذلك — بإيجاز وتصرف — : قوله تعالى : ﴿ **وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** ﴾(٢) ، فيه أربع مسائل :

الأولى : لما ذكر ما يراد به وجهه ويثيب عليه ، ذكر غير ذلك من الصفة وما يراد به أيضاً وجهه . وقرأ الجمهور « آتيتم » بالمد بمعنى أعطيتم . وقرأ ابن كثير ومجاهد وحميد بغير مد بمعني ما فعلتم من ربا ليربو ، كما تقول: أتيت صواباً وأتيت خطأً . وأجمعوا على المد في قوله : ﴿ **وما آتيتم من زكاة** ﴾ . والربا الزيادة ، وقد مضى في سورة « البقرة » معناه ، وهو هناك محرم ، وهنا حلال . وثبت بهذا أنه قسمان : منه حلال ومنه حرام . قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ **وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس** ﴾ : قال : الربا ربوان ، ربا حلال ، وربا حرام ، فأما الربا الحلال فهو الذي يهدي ، يلتمس ما هو أفضل منه . وعن الضحاك في هذه الآية : هو الربا الحلال الذي يهدي ليثاب ما هو أفضل منه ، لا له ولا عليه ، ليس له أجر وليس عليه فيه إثم . وكذلك

---

(١) الأنفال : ٤١ .

(٢) الروم : ٣٩ .

قال ابن عباس. ﴿ **وما آتيتم من ربا** ﴾ يريد هدية الرجل الشيء يرجو أن يثاب أفضل منه ، فذلك الذي لا يربو عند الله ولا يؤجر صاحبه ولكن لا إثم عليه ، وفي هذا المعنى نزلت الآية . قال ابن عباس وابن جبير وطاووس ومجاهد : هذه آية نزلت في هبة الثواب . قال ابن عطية : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازي عليه كالسلام وغيره فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى . وقاله القاضي أبو بكر بن العربي . وفي كتاب النسائي عن عبد الرحمن بن علقمة ، قال : « قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ ومعهم هدية ، فقال : أهدية أم صدقة ؟ فإن كانت هدية فإنما يبتغي بها وجه رسول الله ﷺ وقضاء الحاجة ، وإن كانت صدقة فإنما يبتغي بها وجه الله عز وجل » قالوا : لا بل هدية ، فقبلها منهم وقعد معهم يسائلهم ويسألونه .

وقال ابن عباس أيضاً وإبراهيم النخعي : نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضل عليهم ، وليزيدوا في أموالهم على وجه النفع لهم . وقال الشعبي : معنى الآية أن ما خدم الإنسان به أحداً وخف له لينتفع به في دنياه فإن ذلك النفع الذي يجزي به الخدمة لا يربو عند الله . وقيل : كان هذا حراماً على النبي ﷺ على الخصوص ، قال الله تعالى : ﴿ **ولا تمنن تستكثر** ﴾(١) ، فنهى أن يعطى شيئاً فيأخذ أكثر منه عوضاً . وقيل: أنه الربا المحرم، فمعنى ﴿ **فلا يربو عند الله** ﴾ على هذا القول لا يحكم به لآخذه بل هو للمأخوذ منه . قال السدي : نزلت هذه الآية في ربا ثقيف ، لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش .

إلى آخر تلك المسائل(٢) التي يعنينا منها بعد ذلك ما أشار إليه في المسألة الرابعة ، حيث يقول : قوله تعالى : ﴿ **وما آتيتم من زكاة** ﴾ قال ابن عباس : أى من صدقة . ﴿ **تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** ﴾ أى ذلك الذي يقبله ويضاعفه له عشرة أضعاف أو أكثر .

كما قال : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة** ﴾(٣) .

---

(١) المدثر : ٦ .

(٢) التى تستطيع أن ترجع إليها بتوسع في القرطبي حول تفسير الآية ..

(٣) البقرة : ٢٤٥ .

وقال : ﴿ **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة** ﴾[1] .

وقال : ﴿ **فأولئك هم المضعفون** ﴾ ولم يقل فأنتم المضعفون لأنه رجع من المخاطبة إلى الغيبة ، مثل قوله : ﴿ **حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم** ﴾[2] .

وفي معنى المضعفين قولان : أحدهما : أنه تضاعف لهم الحسنات . والثاني : أنهم قد أضعف لهم الخير والنعيم ، أى هم أصحاب أضعاف .

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نتفق على أنه من الخير لنا أن نكون من هؤلاء الذين يريدون وجه الله .. وأنه من الشر أن نكون — والعياذ بالله — من هؤلاء البخلاء بما آتاهم الله من فضله ..

* * *

وحسبنا ترهيباً لنا من هذا أن نقرأ قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير** ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾[4] .

* * *

بل وحسبنا ترهيباً لنا أن نقرأ كذلك هذين الحديثين الشريفين :

روى أحمد والشيخان عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب كنز[5] لا يؤدي زكاته إلا أحمى عليه في نار جهنم فيجعل صفائح ، فتكوي بها جنباه وجبهته حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان

---

(1) البقرة : ٦ . (2) يونس : ٢٢ .

(3) آل عمران : ١٨٠ . (4) التوبة : ٣٤ ، ٣٥ .

(5) الكنز مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد ، وأما ما أخرجت زكاته فليس بكنز مهما كثر .

مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، وما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا بطح[1] لها بقاع قرقر[2] كأوفر ما كانت[3] تستن عليه[4] كلما مضى[5] عليه أخراها ردت عليه أولاها حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، وما من صاحب غنم لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت فتطؤه بأظلافها[6] ، وتنطحه بقرونها ليس فيها عقصاء[7] ولا جلحاء[8] كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، قالوا : فالخيل يا رسول الله ؟ قال : الخيل في نواصيها — أو قال : الخيل معقود في نواصيها — الخير إلى يوم القيامة ، الخيل ثلاثة : هى لرجل أجر ، ولرجل ستر ، ولرجل وزر ، فأما التي هي له أجر فالرجل يتخذها في سبيل الله ، ويعدها له فلا تغيب شيئاً في بطونها إلا كتب الله له أجراً ، ولو رعاها فى مرج[9] فما أكلت من شيء إلا كتب الله له بها أجرا ، ولو سقاها من نهر كان له بكل قطرة تغيبها في بطونها أجر ، حتى ذكر الأجر في أبوالها وأرواثها ولو استنت شرفا[10] أو شرفين كتب له بكل خطوة يخطوها أجر . وأما الذي هي له ستر فالرجل يتخذها تكرماً وتجملاً لاينسى حق ظهورها وبطونها في عسرها ويسرها . وأما التي هي عليه وزر فالذي يتخذها أشرا وبطرا وبذخا[11] ، ورياء الناس ، فذلك عليه الوزر . قالوا : فالحمر يا رسول الله ؟ قال : ما أنزل الله علي فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة[12] : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[13] .

وروى الشيخان عن أبي هريرة عن النبى ﷺ ، قال : « من آتاه الله مالاً

---

(1) أى بسط ومد .
(2) أى المستوى الواسع من الأرض .
(3) أى كأعظم ما كانت .
(4) أى تجري عليه .
(5) أى كلما مر .
(6) الظلف للغنم كالحافر للفرس .
(7) عقصاء : أى ملتوية القرنين .
(8) أى التي لا قرن لها .
(9) المرج : أى المرعى .
(10) أى العالي من الأرض .
(11) الأشر : كفر النعمة بعدم شكرها ، والبطر كذلك ، والبذخ بنفس المعنى .
(12) أى المتناولة لكل خير وبر .
(13) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

فلم يؤد زكاته مثل له(١) يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان(٢) يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه — يعني شدقيه — ثم يقول : أنا كنزك أنا مالك . ثم تلا هذه الآية : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله** .. ﴾(٣) الآية .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام حتى تكون مؤدياً لزكاتك ، التي سميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات . فإنها مأخوذة من الزكاة وهي النماء والطهارة والبركة ، كما يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾(٤) .

هذا بالإضافة إلى أنها — أساساً — أحد أركان الإسلام الخمسة ، وقد قرنت بالصلاة في اثنتين وثمانين آية . وقد فرضها الله تعالى بكتابه وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع أمته .

وحسبك في النهاية أن تذكر دائماً وأبداً قول الله تبارك وتعالى :

﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله** .. ﴾(٥) . أى أن الجماعة التي يباركها الله تعالى ويشملها برحمته : هى الجماعة التي تؤمن بالله ، ويتولى بعضها بعضاً بالنصر والحب ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتصل ما بينها وبين الله بالصلاة ، وتقوى صلاتها ببعضها بإيتاء الزكاة .

* * *

ونفذ كذلك بعد ذلك ما أوصانا به الرسول ﷺ ، في آخر الوصية — التي ندور حولها — وهو :

---

(١) مثل له : أى صور .

(٢) الشجاع : الذكر من الحيات والأقرع ، أى الذي ذهب شعره من كثرة السم ، وقوله : له زبيبتان : أى نقطتان سوداوان فوق عينيه .

(٣) آل عمران : ١٨٠ (٤) التوبة : ١٠٣ (٥) التوبة : ٧١ .

« وأطيعوا أمراءكم » ، أى : ولاة أموركم في جميع شئون حياتكم العامة منها والخاصة ، والدنيوية والأخروية ، وسواء أكان هذا على مستوى الأسرة أو المجتمع الذي نعيش فيه .. ما دامت أوامرهم ستكون في حدود طاعة الله ، واجتناب نواهيه .. وعلى أساس من الكتاب والسنة وإجماع الأمة : لأنه كما نعلم جميعاً كمسلمين : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وقد أعلن أبو بكر الصديق رضى الله عنه هذا بعد البيعة ، ولما ولى الخلافة :

فقد قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس .. فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل . ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله ، فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » ذكره الحافظ ابن كثير في البداية بسند صحيح . وابن الأثير في الكامل . وكذا أبو بكر الباقلاني في إعجاز القرآن ، بلفظ :

قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد .. فإني وليت أمركم ولست بخيركم ولكن نزل القرآن وسن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعلمنا فعملنا . واعلموا أن أكيس الكيس التقي ، وأن أحمق الحمق[1] الفجور ، وأن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وأن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق . أيها الناس : إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن زغت[2] فقوموني » .

وخطب رضى الله عنه في ثاني يوم البيعة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس إنما أنا مثلكم ، وإنى لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان

---

(١) الحمق بضم فسكون وبضمتين : قلة العقل . والكيس بفتح فسكون : ضد الحمق .
(٢) زغت بكسر فسكون : أى ملت .

رسول الله ﷺ يطيق ، إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات ، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن استقمت فتابعوني ، وإن زغت فقوموني ، وإن رسول الله ﷺ قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة(١) ضربة سوط فما دونها ، ألا وإنكم تغدون وتروحون في أجل قد غُيِّبَ عنكم علمه ، فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله ، فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال ، فإن قوماً نسوا آجالهم وجعلوا أعمالهم لغيرهم ، فإياكم أن تكونوا أمثالهم . الجد الجد ، والنجاء النجاء ، والوحا الوحا(٢) فإن وراءكم طالباً حثيثاً ، أجلا مره سريع . احذروا الموت واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به(٣) الأموات » ذكره ابن كثير في البداية والطبري في تاريخه .

* * *

هذا .. وإذا كنا قد عرفنا أن الأمراء هم ولاة أمورنا ..

فإنني أرى ـــ استناداً إلى هذا ـــ أن نفهم المراد من قول الله تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾(٤) .

فحول هذه الآية الكريمة ، قال القرطبي ، فيها ثلاث مسائل :

الأولى : لما تقدم إلى الولاة في الآية المتقدمة ـــ وهي :

﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيرا ﴾(٥) .

وبدأ بهم فأمرهم بأداء الأمانات وأن يحكموا بين الناس بالعدل ، تقدم في هذه الآية ـــ التي ندور حولها ـــ إلى الرعية بطاعته عز وجل أولاً ، وهي

---

(١) المظلمة بكسر اللام ما أخذه الظالم ، وبفتحها : مصدر ظلم .

(٢) النجاء والوحا : الإسراع ، يقال وحي وتوحى : أسرعْ .

(٣) الغبطة : تمنى مثل ما للغير من غير أن يريد زوال نعمته عنه .

(٤) النساء : ٥٩ . (٥) النساء : ٥٨ .

امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ثم بطاعة رسوله ثانياً فيما أمر به ونهى عنه ، ثم بطاعة الأمراء ثالثاً ، على قول الجمهور وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم . قال سهل بن عبد الله التسترى : أطيعوا السلطان في سبعة : ضرب الدراهم والدنانير ، والمكاييل والأوزان ، والأحكام والحج والجمعة والعيدين والجهاد . قال سهل : إذا نهى السلطان العالم أن يفتي فليس له أن يفتي ، فإن أفتى فهو عاص ، وأن كان أميراً جائراً .

وقال ابن خويز منداد : وأما طاعة السلطان فتجب فيما كان لله فيه طاعة ، ولا تجب فيما لله فيه معصية ، ولذلك قلنا : إن ولاة زماننا لا تجوز طاعتهم ولا معاونتهم ولا تعظيمهم !! ويجب الغزو معهم متى غزوا ، والحكم من قبلهم ، وتولية الإمامة والحسبة ، وإقامة ذلك على وجه الشريعة . وإن صلوا بنا وكانوا فسقة من جهة المعاصي جازت الصلاة معهم ، وإن كانوا مبتدعة لم تجز الصلاة معهم إلا أن يخافوا فيصلي معهم تقية ـــ أى حماية لنفسه من شرهم ـــ وتعاد الصلاة .

ثم يقول القرطبي : قلت : روى عن على بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال : حق على الإمام أن يحكم بالعدل ، ويؤدي الأمانة ، فإذا فعل ذلك وجب على المسلمين أن يطيعوه ، لأن الله تعالى أمر بأداء الأمانة والعدل ثم أمر بطاعته .

وقال جابر بن عبد الله ومجاهد : « أولو الأمر » أهل القرآن والعلم ، وهو اختيار مالك .

ونحوه قول الضحاك ، قال : يعني الفقهاء والعلماء في الدين . وحكى عن مجاهد : أنهم أصحاب محمد ﷺ خاصة . وحكى عكرمة : أنها إشارة إلى أبي بكر وعمر رضى الله عنهما خاصة .. وقال ابن كيسان : هم أولو العقل والرأى الذين يدبرون أمر الناس .

ثم يقول القرطبي : قلت : وأصح هذه الأقوال الأول والثاني ، أما الأول ، فلأن الأصل الأمر منهم والحكم إليهم .

وروى في الصحيحين عن ابن عباس قال : نزل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ..** ﴾[1] : في عبد الله بن

---

(١) النساء : ٥٩ .

حذافة بن قيس بن عدى السهمى إذ بعثه النبي ﷺ في سرية . قال أبو عمر : وكان في عبد الله بن حذافة دعابة معروفة ، ومن دعابته أن رسول الله ﷺ أمّره على سرية فأمرهم أن يجمعوا حطباً ويوقدوا ناراً ، فلما أوقدوها أمرهم بالتقحم فيها ــ أى باقتحامها ــ فقال لهم : ألم يأمركم رسول الله ﷺ بطاعتى ؟! وقال : « من أطاع أميري فقد أطاعني » فقالوا : ما آمنا بالله واتبعنا رسوله إلا لننجو من النار ! فصوب رسول الله ﷺ فعلهم ــ أى وافقهم عليه ــ وقال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، قال الله تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم** ﴾(1) . وهو حديث صحيح الإسناد مشهور .

وأما القول الثاني فيدل على صحته قوله تعالى : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول** ﴾(2) فأمر سبحانه برد المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وليس للعلماء معرفة كيفية الرد إلى الكتاب والسنة . ويدل على صحة كون سؤال العلماء واجباً ، وامتثال فتواهم لازماً . قال سهل بن عبد الله : لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء ، فإذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم ، وإذا استخفوا بهذين فسدت دنياهم وأخراهم .

وأما القول الثالث فخاص ، وأخص منه القول الرابع .

وأما القول الخامس فيأباه ظاهر اللفظ وإن كان المعنى صحيحاً ، فإن العقل لكل فضيلة أس ، ولكل أدب ينبوع ، وهو الذي جعله الله للدين أصلاً وللدنيا عماداً ، فأوجب الله التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه ، والعاقل أقرب إلى ربه تعالى من جميع المجتهدين بغير عقل . وروى هذا المعنى عن ابن عباس . وزعم قوم أن المراد بأولي الأمر علي والأئمة المعصومون . ولو كان كذلك ما كان لقوله : ﴿ **فردوه إلى الله والرسول** ﴾ معنى ، بل كان يقول : فردوه إلى الإمام وأولي الأمر ، فإن قوله عند هؤلاء هو المحكم على الكتاب والسنة . وهذا قول مهجور مخالف لما عليه الجمهور . وحقيقة الطاعة امتثال الأمر ، كما أن

---

(1) النساء : ٢٩ .   (2) النساء : ٥٩ .

المعصية ضدها وهي مخالفة الأمر . والطاعة مأخوذة من أطاع إذا انقاد . والمعصية مأخوذة من عصى إذا اشتد ..

الثانية : قوله تعالى : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء** ﴾ أى تجادلتم واختلفتم ، فكأن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويذهبها . والنزع الجذب . والمنازعة مجاذبة الحجج ، ومنه الحديث : « وأنا أقول مالى ينازعني القرآن »(١) .

وقال الأعشى :

نازعتم قضب الريحان متكئاً وقهوة مزة راووقها(٢) خضل

﴿ **في شيء** ﴾ أى من أمر دينكم ﴿ **فردوه إلى الله والرسول** ﴾ أى ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله أو إلى الرسول بالسؤال في حياته ، أو بالنظر في سنته بعد وفاته ﷺ ، هذا قول مجاهد والأعمش وقتادة وهو الصحيح . ومن لم ير هذا اختل إيمانه لقوله تعالى : ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ . وقيل : المعنى قولوا : الله ورسوله أعلم ، فهذا هو الرد . وهذا كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل . والقول الأول أصح ، لقول على رضى الله عنه : ما عندنا إلا ما في كتاب الله وما في هذه الصحيفة(٣) ، أو فهم أعطيه رجل مسلم . ولو كان كما قال هذا القائل لبطل الاجتهاد الذي خص به هذه الأمة والاستنباط الذي أعطيها ، ولكن تضرب الأمثال ويطالب المثال حتى يخرج الصواب . قال أبو العالية : وذلك قوله تعالى : ﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾(٤) . نعم ، أما ما كان مما استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه فذلك الذي يقال فيه : الله أعلم .

وقد استنبط على رضى الله عنه مدة أقل الحمل — وهو ستة أشهر — من قوله تعالى : ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾(٥) ، وقوله تعالى :

---

(١) في نهاية ابن الأثير ولسان العرب : « ما لى أنازع القرآن » وينازعني : يجاذبني في القراءة ، ذلك أن بعض المأمومين جهر خلفه فنازعه قراءته فشغله ، فنهاه عن الجهر بالقراءة في الصلاة خلفه .

(٢) الراووق المصفاة ، والخضل المبتل المندى .

(٣) لعل الصحيفة هذه كان فيها بعض أحاديث الرسول ﷺ الشريفة .. والله أعلم .

(٤) النساء : ٨٣ . (٥) الأحقاف : ١٥ .

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾(1) : فإذا فصلنا الحولين من ثلاثين شهراً بقيت ستة أشهر ، ومثله كثير . وفي قوله تعالى : ﴿ وإلى الرسول ﴾ دليل على أن سنته ﷺ يعمل بها ويمتثل ما فيها . قال ﷺ : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم » أخرجه مسلم . وروى أبو داوود عن أبي رافع عن النبي ﷺ ، قال : « لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول لا ندري ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » . وعن العرباض بن سارية أنه حضر رسول الله ﷺ يخطب الناس وهو يقول : « أيحسب أحدكم متكئاً(2) على أريكته وقد يظن أن الله لم يحرم شيئاً ألا ما في هذا القرآن ألا وإني والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر .

وأخرجه الترمذي من حديث المقدام بن معديكرب بمعناه وقال : حديث حسن غريب . والقاطع قوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ﴾(3) الآية .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ ذلك خير ﴾ أى ردكم ما اختلفتم فيه إلى الكتاب والسنة خير من التنازع .

﴿ وأحسن تأويلا ﴾ أى مرجعاً ، من آل يئول إلى كذا أى صار . وقيل : من ألت الشيء إذا جمعته وأصلحته . فالتأويل جمع معانى ألفاظ أشكلت بلفظ لا أشكال فيه ، يقال : أول الله عليك أمرك أى جمعه . ويجوز أن يكون المعنى : وأحسن من تأويلكم .

* * *

---

(1) البقرة : ٢٣٣ .

(2) قوله : « متكئاً على أريكته » جالساً على سريره المزين ، وهذا بيان لحماقته وسوء أدبه كما هو دأب المتنعمين المغرورين بالمال . وقال الخطابي : أراد به أصحاب الترفه والدعة الذين لزموا البيوت ولم يطلبوا بالأسفار الحديث من أهله فيرده حيث لا يوافق هواه . (عن ابن ماجه) .

(3) النور : ٦٣ .

والآن أخا الإسلام وبعد أن وقفت معك على تلك الأساسيات الهامة المتعلقة بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر .. أريد أن أنبهك ونفسي إلى شيء هام ، وهو :

أن الله تعالى هو ولي جميع أمورنا ــ أولاً وأخيراً ــ وهو المتكفل بأرزاق جميع مخلوقاته .. كما يشير إلى هذا قوله تعالى :

﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ..** ﴾(١) .

ولهذا ، كان لا بد أن نطيع الله تبارك وتعالى .. وذلك بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه .. إذا أردنا أن نكون فعلاً من عباده الشاكرين له سبحانه وتعالى على نعمائه التي لا تحصى ولا تعد ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾(٢) .

وإذا أردنا كذلك أن نؤكد حبنا له سبحانه وتعالى .. وذلك لن يكون إلا بطاعتنا له والبعد عن معاصيه :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه	هذا لعمرى في القياس بديع
لو كنت حقاً صادقاً لأطعته	إن المحب لمن يحب مطيع

* * *

وحبنا لله تعالى لن يكون حقيقة إلا باتباعنا لرسوله المصطفى صلوات الله وسلامه عليه .. كما يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى لنبيه ، حتى يبلغنا ويرشدنا : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** ﴾(٣) .

لأن الخير كله في الاتباع ، والشر كله في الابتداع .

وفي الحديث الشريف : « اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم » رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود .

لأن الله تعالى ، قال : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾(٤) .

---

(١) هود : ٦ . (٢) النحل : ١٨ .
(٣) آل عمران : ٣١ . (٤) المائدة : ٣ .

أى أن النبى ﷺ لم يترك الدنيا إلا بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهدى الأمة وكشف الغمة ، وإلا بعد أن أنزل الله تعالى عليه هذه الآية الكريمة .. التي معناها أن النبى ﷺ ما ترك خيراً إلا وأمر به ، وما ترك شراً إلا ونهى عنه .

ومن أجل هذا ، فقد قال الأئمة الأعلام :

من استحسن بدعة فقد زعم أن محمداً خان الرسالة .

ولهذا ، كان لا بد أن نطيع رسول الله ﷺ في كل ما بلغه عن الله تعالى .. وعندما سنفعل ذلك إن شاء الله فإننا سنكون قد أطعنا الله .. قال تعالى : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله ..** ﴾(١) .

وقال : ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا ..** ﴾(٢) .

* * *

ثم إذا كان آباؤنا هم ولاة أمورنا ــ بصفة خاصة ــ فإننا نريد أن نفهم المراد من قوله تعالى : ﴿ .. **وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون** ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ..** ﴾(٤) .

فهذه الآية والتي قبلها نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ، لما أسلم .. فقد قالت له أمه ــ وهى حمنة بنت أبي سفيان ابن أمية ــ : أليس قد أمر الله بالبر ؟ والله لا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر ، قال(٥) : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا(٦) فاها فنزلت هذه الآية : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وإن جاهداك لتشرك بي ..** ﴾(٧) الآية ..

---

(١) النساء : ٨٠ . (٢) النور : ٥٤ .

(٣) العنكبوت : ٨ . (٤) لقمان : ١٥ .

(٥) كما في رواية الترمذي عن سعد بن أبي وقاص .. وهو حديث حسن صحيح . كما قال أبو عيسي .

(٦) أى أدخلوا في فمها عوداً من الشجر حتى يفتحوه به .

(٧) العنكبوت : ٨ .

وروى عن سعد أنه قال : كنت باراً بأمي فأسلمت ، فقالت : لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي ، ويقال : يا قاتل أمه ، وبقيت يوماً ويوماً ، فقلت : يا أماه .. لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا ، فإن شئت فكلي ، وإن شئت فلا تأكلي ، فلما رأت ذلك أكلت ، ونزلت : ﴿ **وإن جاهداك لتشرك بي** ﴾ .. الآية .

وإذا كان الله تعالى قد قال في الآية الثانية : ﴿ **وصاحبهما في الدنيا معروفاً** ﴾ فهو نعت لمصدر محذوف ، أى مصاحباً معروفاً .. والآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين ، وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق . وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق للنبى ﷺ ، وقد قدمت عليها خالتها ، وقيل أمها من الرضاعة ، فقالت : يا رسول الله .. إن أمى قدمت على وهي راغبة(١) أفأصلها ؟ قال : « نعم » .

* * *

وإذا كان الأصل في موضوعنا ــ هذا ــ هو طاعة أمرائنا المسلمين الذين يأمروننا بطاعة الله لا بمعصيته ، فإنني أضيف إلى كل ما وقفنا عليه ، أن النبي ﷺ ، قد رغبنا في هذا :

فعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ ، قال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » متفق عليه .

وعنه قال : كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا : « فيما استطعتم » متفق عليه .

وعن أبي الوليد عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط(٢) والمكره ، وعلى أثرة علينا(٣) ، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفراً بواحاً(٤) عندكم من

---

(١) أى عن الإسلام .. قال ابن عطية : والظاهر عندي أنها راغبة في الصلة ، وما كانت تقدم على أسماء لولا حاجتها .

(٢) المنشط والمكره بفتح ميمها : أى في السهل والصعب (٣) الأثرة : الاختصاص بالمشترك .

(٤) بواحاً : بفتح الباء الموحدة بعدها واو ثم ألف ثم حاء مهملة : أى ظاهراً لا يحتمل تأويلاً .

الله تعالى فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني » متفق عليه .

وعن أبي بكرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أهان السلطان أهانه الله » رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ، قال : « من كره من أميره شيئاً فليصبر ، فإنه من خرج من السلطان شبراً(١) مات ميتة جاهلية » متفق عليه .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ ، قال : « من خلع يداً من طاعة(٢) لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »(٣) رواه مسلم .

وفي رواية له : « ومن مات وهو مفارق للجماعة ، فإنه يموت ميتة جاهلية » .

* * *

ومن حق أمرائنا علينا ـــ بالإضافة إلى ما رغبنا فيه الرسول ﷺ بالنسبة لهم ـــ أن ننصحهم ـــ بالحكمة والموعظة الحسنة ـــ بما نراه خيراً لهم ولنا ، وأن ندعو لهم بالتوفيق والسداد في ولايتهم لأمورنا ورعايتهم لمصالحنا وأن نتعاون معهم ـــ بالبر والتقوي لا بالإثم والعدوان ـــ على تحقيق آمال الأمة وحماية ثغورها من جميع الأعداء .

وحسبي أن أذكر بحديث صحيح رواه مسلم جاء في نصه :

عن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضى الله تعالى عنه أن النبي صلى الله

---

(١) أى خرج من طاعته ولو قليلاً ، فهو كناية عن القلة .

(٢) أى خرج عنها بالخروج على الإمام ، وعدم الانقياد له في غير معصية .

(٣) أى مات على الضلالة ، كما يموت أهل الجاهلية عليها ، فإنهم كانوا لا يدخلون تحت طاعة أمير ويرون ذلك عيباً .

عليه وآله وسلم ، قال : « الدين النصيحة ، قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

قال الخطابي : النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له ، وقيل : النصيحة مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه ، فشبهوا فعل الناصح بما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسد من خلل الثوب ، وقيل : إنها مأخوذة من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع ، شبهوا تخليص القول من الغش بتخليص العسل من الخلط .

وحول معنى النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، فقد قال العلماء :

أما النصيحة لله تعالى : فمعناها ينصرف إلى الإيمان بالله ونفي الشرك عنه ، وترك الإلحاد في صفاته ، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها وتنزيهه سبحانه وتعالى عن جميع أنواع النقائص ، والقيام بطاعته ، واجتناب معصيته ، والحب فيه ، والبغض فيه ، ومودة من أطاعه ، ومعاداة من عصاه ، وجهاد من كفر به ، والاعتراف بنعمته وشكره عليها ، والإخلاص في جميع الأمور ، والدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة والحث عليها والتلطف بجميع الناس أو من أمكن منهم ، وحقيقة هذه الأوصاف راجعة إلى العبد نفسه ، والله تعالى غني عن نصح الناصح .

وأما النصيحة لكتاب الله تعالى : فالإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله ، لا يشبهه شيء من كلام الناس ولا يقدر على مثله أحد من الخلق ، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها والخشوع عندها ، وإقامة حروفه في التلاوة ، والذب عنه لتأويل المحرفين وتعريض الطاعنين ، والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأمثاله والاعتبار بمواعظه ، والتفكر في عجائبه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم لمتشابهه ، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه ونشر علومه ، والدعاء إليه وإلى ما ذكرناه من نصيحته .

وأما النصيحة لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم : فتصديقه على الرسالة والإيمان بجميع ما جاء به وطاعته في أمره ونهيه ونصرته حياً وميتاً ، ومعاداة من عاداه ، وموالاة من والاه ، وإعظام حقه وتوقيره ، وإحياء طريقته وسنته وبث

دعوته ونشر سنته ونفي التهم عنها ونشر علومها والفقه بها والدعاء لها والتلطف في تعلمها وتسليمها وإعظامها وجلالها والتأدب عند قراءتها والإمساك عن الكلام فيها بغير علم ، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه ، ومحبة أهل بيته وأصحابه ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه ونحو ذلك .

وأما النصيحة لأئمة المسلمين : فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به ونهيهم وتذكيرهم برفق وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين ، وترك الخروج عليهم وتأليف قلوب المسلمين لطاعتهم :

قال الخطابي : ومن النصيحة لهم ، الصلاة خلفهم ، والجهاد معهم ، وأداء الصدقات إليهم ، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة ، وألا يغروا بالثناء الكاذب عليهم ، وأن يدعى لهم بالصلاح ..

* * *

ومن أجمل الوصايا التي قرأتها في هذا المقام : وصية الإمام الحسن البصري ــ رحمه الله ــ لأمير المؤمنين « عمر بن عبد العزيز » رضي الله عنه ، حيث قال له :

يا أمير المؤمنين .. الإمام العادل : هو قوام كل مائل عن الحق ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف .

والإمام العادل ، يا أمير المؤمنين .. كالراعي الشفيق على ما يرعى ، وكالأب الحاني على ولده ، وكالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده .

والإمام العادل : هو القائم بين الله ، وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين ، فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال !!!

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك وأنصارك عنده . واذكــر إذا بعثر ما في القبــور ، وحصل ما في الصدور ، فالأسرار ظاهــرة ،

والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، لا تحكم بحكم الجاهلين ، ولا تسلك سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين !!!

ولا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله تعالى ، في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين : ﴿ **وعنت الوجوه للحي القيوم ، وقد خاب من حمل ظلماً** ﴾(١) .

وقال الزهري : ما سمعت بأحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان بن عبد الملك ، فقال : يا أميرَ المؤمنين : اسمع مني أربع كلمات فيهن صلاح دينك وملكك وآخرتك ودنياك . قال : لا تعد أحداً عدة وأنت لا تريد إنجازها ، ولا يغرنك مرتقى سهل إذا كان المنحدر وعراً ، واعلم أن الأعمال جزاء فاحذر العواقب ، والدهر تارات فكن على حذر .

وروى أن الحجاج جمع بعض علماء العراق وفيهم الحسن البصري والشعبي ، وجعل يحادثهم فذكر على بن أبي طالب رضى الله عنه فنال منه ، وجاراه من معه تقرباً له ، وأمناً من شره ، إلا الحسن البصري فصمت على مضض وعض على إبهامه إذ غلى مرجل غضبه ، فالتفت إليه الحجاج وقال : يا أبا سعيد ، مالى أراك ساكتاً ، قال : سمعت الله جل ذكره يقول : ﴿ **وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ، وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾(٢) فعلى ممن هدى الله من أهل الإيمان ، فأقول : ابن عم النبى ﷺ وختنه(٣) على ابنته ، وأحب الناس إليه ، وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله ، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ، ولا يحول بينه وبينها ، وأقول : إن كانت لعلى هنات فالله حسبه ، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا ، فبسر وجه الحجاج وتغير وقام عن السرير مغضباً فدخل بيتاً خلفه ، وخرج الجمع . فقال عامر

---

(١) طه : ١١١ .　　　(٢) البقرة : ١٤٣ .

(٣) الختن : كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ وهم الأختان .. عند العرب .

الشعبي : أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره . فقال : إليك عني يا عامر هلا اتقيت إن سئلت فصدقت ، أو سكت فسلمت ، قال الشعبي : يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها . قال الحسن : فذلك أعظم في الحجة عليك وأشد في التبعة .

وبعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال : أنت الذي تقول : قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدراهم ؟ قال : نعم . قال : ما حملك على هذا ؟ قال : ما أخذه الله علي العلماء من المواثيق : « .. ليبيننه للناس ولا يكتمونه »(١) ، قال : يا حسن .. أمسك عليك لسانك وإياك أن يبلغني عنك ما أكره ، فأفرق بين رأسك وجسدك .

ودخل ابن السماك يوماً على أمير المؤمنين هارون الرشيد ، فوافق أن وجده يرفع الماء إلى فمه ليشرب ، فقال : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تنتظر به قليلاً . فلما وضع الماء ، قال له : أستحلفك بالله تعالى لو أنك منعت هذه الشربة من الماء فبكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي . قال : اشرب هنأك الله ، فلما شرب ، قال : أستحلفك بالله تعالى يا أمير المؤمنين لو أنك منعت خروجها من جوفك بعد هذا فبكم كنت تشتريها ؟ قال : بملكي كله ، فقال : يا أمير المؤمنين إن ملكاً تربو عليه شربة ماء لخليق ألا ينافس فيه ، فبكى هارون حتى ابتلت لحيته . فقال الفضل بن الربيع ــ وكا واقفاً بين يدي الأمير ــ مهلاً يا ابن السماك فأمير المؤمنين أحق من رجا العاقبة عند الله بعدله في ملكه وحسن قيامه بحق ربه . فقال ابن السماك : يا أمير المؤمنين .. والله إن هذا ليس معك في قبرك غدا ، فانظر لنفسك فأنت بها أخبر وعليها أبصر ، وأما أنت يا فضل فمن حق أمير المؤمنين عليك في تقريبه إياك وبره بك ، أن تكون يوم القيامة من حسناته لا من سيئاته ، فذلك أكفأ ما تؤدي به حقه عليك ، والسلام .

وقدم هشام بن عبد الملك حاجاً أيام خلافته ، فقال : ايتوني برجل من الصحابة . فقيل : قد تفانوا . قال : فمن التابعين ، فأتى بطاووس اليماني ، فلما دخل عليه خلع نعله بحاشية بساطه ، ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ، بل قال :

---

(١) على نسق قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه .. ﴾ (آل عمران : ١٨٧) .

السلام عليك . ولم يكنه ، وجلس بإزائه ، وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضباً شديداً ، وقال : يا طاووس .. ما الذي حملك علي ما صنعت ؟ فقال : وما صنعت ؟ فازداد غضباً ، وقال : خلعت نعلك بحاشية بساطي ، ولم تسلم علي بإمرة المؤمنين ، ولم تكنني ، وجلست بإزائي . فقال طاووس : أما خلع نعلي بحاشية بساطك ، فإني أخلعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات فلا يغضب علي لذلك ، وأما قولك : لم تسلم علي بأمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فكرهت أن أكذب ، وأما قولك : لم تكنني ، فإن الله تعالى سمى أولياءه ، فقال : يا داوود يا يحيى ، يا عيسى ، وكنى أعداءه فقال : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾(١) . وأما قولك : جلست بإزائي ، فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال هشام : عظني . فقال طاووس : سمعت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أن في جهنم حيات كالتلال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ، ثم قام عنه وانصرف .

وقال الفضل بن الربيع : حج هارون الرشيد فبينما أنا نائم إذ سمعت قرع الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعاً فإذا أنا به أمير المؤمنين ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إلى أتيتك . فقال : ويحك ، قال حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالم ، أنظر لي رجلاً أسأله . فقلت : ههنا الفضيل بن عياض . فقال : امض بنا إليه . فأتيناه وإذا هو قائم يصلي في غرفته ، يتلو آية من كتاب الله ويرددها ، فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : مالي ولأمير المؤمنين . فقلت : سبحان الله أما عليك طاعته ؟ فقال : أوليس قد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس للمؤمن أن يذل نفسه » . ثم نزل ففتح الباب ، ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كفي كف الرشيد إليه . فقال : أواه من كف ما ألينها أن نجت من عذاب الله تعالى . قال : فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام تقي من قلب تقي . فقال . فقال : جدلنا ما جئنا له ، يرحمك الله . قال : وفيم جئت ؟ حملت على نفسك وجميع من

---

(١) المسد : ١ .

معك حملوا عليك حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك شقصاً من ذنب ما فعلوا . ولكان أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك .
ثم قال : إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي . فعد الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة . فقال سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك فيها على الموت . وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله غداً فليكن كبير المسلمين لك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم ولداً . فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة من عذاب الله غداً فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك . وإني لأقول لك هذا وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام . فهل معك يرحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا !..

فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشي عليه . فقلت : أرفق بأمير المؤمنين . فقال : يا ابن أم الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا ؟ ثم أفاق ، فقال : زدني . فقال : يا أمير المؤمنين .. إن العباس عم رسول الله ﷺ جاءه فقال : يا رسول الله .. أمرني على إمارة . فقال رسول الله ﷺ : « يا عباس .. — عم النبي ﷺ — نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها ، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل » . فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال : زدني يرحمك الله . قال : يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك فإن النبي ﷺ ، قال : « من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة » . فبكى هارون الرشيد ، ثم قال : عليك دين ؟ قال : نعم ، دين لربي لم يحاسبني عليه ، فالويل لي إن سألني ، والويل لي أن ناقشني ، والويل لي إن لم يلهمني حجتي . قال هارون : إنما أعني دين العباد ، قال : إن ربي لم يأمرني بهذا ، وأمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره ، فقال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس

إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[1] . فقال له : هذه ألف دينار فأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك ، قال : سبحان الله .. أنا أدلك على النجاة وتكافئني بمثل هذا ، سلمك الله ووفقك ، ثم صمت . فلم يكلمنا فخرجنا من عنده ، فقال هارون الرشيد : هذا سيد المسلمين اليوم .

وعن عبد الله بن مهران ، قال : حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياماً ثم ضرب بالرحيل فخرج الناس وخرج بهلول المجنون فيمن خرج ، فخرج في مجلس وأخذ الصبيان يؤذونه ، حتى إذا أقبلت هوادج هارون فكف الصبيان عن العبث به ، فلما جاء هارون نادى بأعلى صوته : يا أمير المؤمنين ، فكشف هارون السجاف ــ الستر ــ بيده وقال : لبيك يا بهلول . فقال : يا أمير المؤمنين ، حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري ، قال : « رأيت النبي ﷺ يمضي على جمل وتحته رحل رث ، فلم يكن ضرب ولا طرد ، ولا إليك إليك ، وتواضعك في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك ، فبكى هارون حتى سقطت دموعه على الأرض ، وقال : زدنا يا بهلول يرحمك الله ، فقال بهلول :

هب أنك قد ملكت الأرض طرا ... وأن لك العباد فكان ماذا
أليس غداً مصيرك جوف قبر ... ويحثو التراب هذا ثم هذا

فبكى هارون ثم قال : أحسنت يا بهلول ، هل غيره ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين .. رجل آتاه الله مالاً وجمالاً فأنفق من ماله وعف في جماله كتب في خالص ديوان الله من الأبرار . فقال هارون له : أحسنت يا بهلول . ثم أمر له بجائزة ، فقال بهلول : اردد الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة لي فيها . قال : يا بهلول إن يكن عليك دين قضيناه ؟ قال : يا أمير المؤمنين لا يقضي دين بدين ، اردد الحق إلى أهله ، واقض دين نفسك يا أمير المؤمنين بنفسك ، قال : يابهلول ..فنجرى عليك ما يكفيك . فرفع بهلول رأسه إلى السماء وقال : يا أمير المؤمنين .. أنا وأنت من عيال الله تعالى ، فمحال أن يذكرك وينساني ، فأسبل هارون السجاف ومضى إلى شأنه .

---

(١) الذاريات : ٥٦ ــ ٥٨ .

وقال سفيان الثوري : لما خج المهدي ، قال : لا بد لي من سفيان ، فوضعوا لى الرصد حول البيت فأخذوني بالليل ، فلما مثلت بين يديه أدناني ثم قال : لأى شيء لا تأتينا فنستشيرك في أمرنا ، فما أمرتنا من شيء صرنا إليه ، وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه ؟ فقلت له : كم أنفقت في سفرك هذا ؟ قال : لا أدري ، لى أمناء ووكلاء . قلت : فما عذرك غداً إذا وقفت بين يدى الله تعالى فسألك عن ذلك ؟ لكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما حج قال لغلامه : كم أنفقت في سفرنا هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ثمانية عشر ديناراً . قال : ويحك ، أجحفنا بيت مال المسلمين .

ولما دخل ابن السماك على هارون الرشيد ، قال له : عظني ، قال : يا أمير المؤمنين إن الله لم يرض لخلافته في عباده غيرك ، فلا ترضى لنفسك من نفسك إلا بما رضى الله به ، فإنك ابن عم رسول الله ﷺ وأنت أولى الناس بذلك يا أمير المؤمنين ، من طلب فكاك رقبته من مهلة من أجله كان خليقاً أن يعتق نفسه . يا أمير المؤمنين من ذوقته الدنيا حلاوتها بركون منه إليها أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها ، يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن تقدم إلى جنة عرضها السموات والأرض وقد دعيت إليها وليس لك فيها نصيب . يا أمير المؤمنين إنك تموت وحدك وتحاسب وحدك ، وإنك لا تقدم إلا على نادم مشغول ، ولا تخف إلا مفتوناً مغروراً ، وإنك وإيانا في دار سفر وجيران ظعن(١) .

ولما حج سليمان بن عبد الملك ودخل المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأعرج ، وعنده ابن شهاب ، فلما دخل قال له : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال : في الخروج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا بحقها ، ولا تضعها إلا في أهلها ، قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من الأمر ما قلدك . قال : عظنى يا أبا حازم . قال : يا أمير المؤمنين .. إن هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك . ثم قال : يا أمير المؤمنين .. نزه ربك في عظمته عن أن يراك حيث نهاك ،

---

(١) أى على سفر مستمر إلى الله تبارك وتعالى .

أو يفقدك حيث أمرك . قال : يا أبا حازم أشر علي . قال : يا أمير المؤمنين .. إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر ، فاعتبر لنفسك أيهما شئت . قال : فمالك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع بإتيانك ؟ إن أدنيتني فتنتني ، وإن أقصيتني أحزنتني ، وليس عندي ما أخافك عليه ، ولا عندك ما أرجوك له . قال : فارفع إلينا حوائجك قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها، فما أعطاني منها قبلت، وما منعني منها رضيت. يقول الله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾(١) فمن ذا الذي يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله ويزيد في قليل ما قسم الله ؟ فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال رجل من جلسائه : أسأت إلى أمير المؤمنين . فقال أبو حازم : اسكت فإن الله تعالى أخذ ميثاق العلماء : «ليبيننه للناس ولا يكتمونه» . ثم خرج من عنده فلما وصل إلى منزله بعث إليه بمال فرده وقال للرسول قل له : والله ما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسي ؟ ..

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام سواء أكنت حاكماً أو محكوماً حتى لا تكون من الذين غضب الله تعالى عليهم فجعلهم عباداً للدنيا وما فيها من متاع زائل :

مع ملاحظة ما قاله صاحب كتاب « هداية المرشدين »(٢) تحت عنوان :

وعظ العلماء للأمراء

حيث يقول : لا ينبغي للمرشد أن يتهاون مع ذوي السلطان فيما يخالف الدين ويضاد الحق ، موافقة لرأيهم ومتابعة لهواهم ، فربما زلت أقدام المتزلفين في ذلك رغبة أو رهبة فضلوا وأضلوا مع سوء العاقبة ، وقبح الأحدوثة . وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال هذه الأمة بخير تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمال قراؤها أمراءها ، ولم يترك صلحاؤها فجارها ، ولم يمار أخيارها أشرارها ، فإذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط

---

(١) الزخرف : ٣٢ .
(٢) وهو الشيخ علي محفوظ رحمه الله تعالى .

عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب ، وضربهم بالفقر والفاقة ، وملأ قلوبهم رعباً » .

ثم يقول : علم هذا علماء السلف وأردفوا العلم بالعمل ، فكان لهم مع الأمراء وذوى السلطان مواقف مشرفة ، خلدت لهم أحسن الذكرى وأجمل الآثار ، أعانهم على ذلك ما امتلأت به قلوبهم من الثقة بالله مع ما يعلمونه من سلطان الدين على نفوس الأمراء وذوى السلطان ..

على شريطة — كما عرفت ، وكما قرأت في تلك النماذج — أن تكون مخلصاً في وعظك وإرشادك .. وعلى نفس الدرجة العلمية والفقهية كهؤلاء الرجال الذين وقفنا على بعض مواعظهم التي ستظل للحاكم والمحكوم نبراساً مضيئاً على طريق الله وفى جميع ميادين الحياة الشريفة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

* * *

وحسبك يا أخي أن تعلم بأنك عندما ستنفذ كل ما أوصاك به الرسول ﷺ في هذه الوصية — التى ندور حولها — : ستفوز بالجزاء الأوفى في جنة — جنة الله — التي أعد الله تعالى فيها لعباده : المتقين ، المصلين ، الصائمين ، المزكين ، المطيعين لأمرائهم : ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وهذا هو ما أشار إليه الرسول ﷺ في نهاية الوصية حيث يقول مرغباً ومبشراً : « تدخلوا جنة ربكم » .

وهى جنة الخلد والملك الذي لا يبلى .. وهي دار الثواب ، والنعيم المقيم : للذين آمنوا وعملوا الصالحات .. وللمتقين المجاهدين لأنفسهم .. والمسارعين إلى مغفرة الله تعالى طمعاً فى رحمته .. قال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا** ﴾(١) .

وقال : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين** ﴾(٢) .

---

(١) الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨ . (٢) الشعراء : ٩٠ .

وقال : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى** ﴾(١) .

وقال : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾(٢) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾(٣) » أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائى وابن ماجه وأحمد ، وزاد البخارى في رواية : وقال محمد بن كعب : إنهم أخفوا لله عملاً فأخفى لهم ثواباً ، فلو قدموا عليه ، أقر تلك الأعين .

وعن أسامة بن زيد « أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ذات يوم لأصحابه : ألا مشمر للجنة ؟ فإن الجنة لا خطر لها(٤) وهى ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز(٥) ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وفاكهة كثيرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، حلل كثيرة في مقام أبداً(٦) في حبرة(٧) ونضرة(٨) في دور عالية سليمة بهية . قالوا : نحن المشمرون لها يارسول الله . قال : قولوا : إن شاء الله . ثم ذكر الجهاد وحض عليه » أخرجه ابن ماجه وابن حبان .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا جميعاً بمشيئته سبحانه وتعالى وتوفيقه من المشمرين للجنة كأصحاب رسوله المصطفي صلوات الله وسلامه عليه ، حتى نكون أهلاً لها ، ومن الخالدين فيها أبدا : آمين .. آمين .. آمين .

* * *

---

(١) النازعات : ٤٠ ، ٤١ .

(٢) آل عمران : ١٣٣ .

(٣) السجدة : ١٧ .

(٤) لا خطر لها : أى لا مثل لها .

(٥) تهتز : أى تتحرك بهبوب الريح .

(٦) أى خالدين فيها أبدا .

(٧) أى النعمة وسعة العيش .

(٨) أى البهية الحسن .

الوصية الثامنة والخمسون

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قَارِبُوا وَسَدِّدُوا[1] ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَن يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنكُمْ بِعَمَلِهِ قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ[2] اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ .

رواه مسلم وابن ماجه

---

(١) قاربوا وسددوا : المقاربة القصد الذى لا غلو فيه ولا تقصير ، والسداد أى الاستقامة والإصابة .

(٢) يتغمدنى : يلبسنى ويسترنى .

فكن أخا الإسلام :

منتفعاً بهذه الوصية العظيمة التي يوصينا فيها صلوات الله وسلامه عليه بالوسطية والاعتدال في جميع شئون الحياة الدنيوية والأخروية .

وقد قيل لابن عباس رضى الله عنهما : إن العرب تقول : حب التناهي شطط ، خير الأمور الوسط .. فهل هذا موجود في القرآن ؟ قال : نعم في أربعة مواضع : في قوله تعالى في وصف بقرة موسى : ﴿ **قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ، قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولابكر عوان بين ذلك** ﴾(١) ، أى وسط بين الكبر والصغر في السن .

وفي قوله تعالى : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ..** ﴾(٢) ، أى فتوسط بين الأمرين في الإنفاق .

وفي قوله تعالى : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا** ﴾(٣) ، وهذا السبيل هو الوسط في القراءة .

وفي قوله تعالى في مدح المعتدلين من كرماء المؤمنين : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾(٤) ، أى وسطاً في المعيشة .

ومن هذا يتبين لنا أنه ليس من الإسلام التشدد في غير موضعه ، وإنما الإسلام يدعونا إلى عكس ذلك وهو — كما علمنا — الوسطية والاعتدال .

وقد ورد كذلك في الأحاديث الشريفة ما يشير إلى هذا :

فعن أبي وائل شقيق بن سلمة ، قال : « كان ابن مسعود رضى الله عنه يذكرنا في كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم ، فقال : أما أنه يمنعني من ذلك أنى أكره أن أملكم وإني أتخولكم بالموعظة ، كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا(٥) بها مخافة السآمة علينا » متفق عليه .

---

(١) البقرة : ٦٨   (٢) الإسراء : ٢٩   (٣) الإسراء : ١١٠
(٤) الفرقان : ٦٧ .   (٥) يتخولنا : أي يتعهدنا .

وعن مجيبة الباهلية عن أبيها أو عمها ، أنه أتى رسول الله ﷺ ، ثم انطلق فأتاه بعد سنة ، وقد تغيرت حاله وهيئته ، فقال : يا رسول الله .. أما تعرفني ؟ قال : « وما أنت » ؟ قال : أنا الباهلي الذي جئتك عام الأول . قال : « فما غيرك ، وقد كنت حسن الهيئة » ؟ قال : ما أكلت طعاماً منذ فارقتك إلا بليل . فقال رسول الله ﷺ : « عذبت نفسك » ! ثم قال : « صم شهر الصبر(١) ، ويوماً من كل شهر » قال : زدني ، فإن بي قوة . قال : « صم يومين » قال : زدني ، قال : « صم ثلاثة أيام » قال : زدني ، قال : « صم من الحرم واترك ، صم من الحرم واترك ، صم من الحرم واترك » وقال بأصابعه الثلاث فضمها ، ثم أرسلها ـــ رواه أبو داوود(٢) .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا ـــ بها ـــ كأنهم تقالّوها(٣) ، وقالوا : أين نحن من النبى ﷺ وقدغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبداً ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ إليهم ، فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟!.. أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب(٤) عن سنتى فليس مني » متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة » رواه البخارى .

وفي رواية له : « سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا ، وشيء من الدلجة ، القصد القصد تبلغوا » .

---

(١) وهوشهر رمضان المبارك .

(٢) ومجيبة ، قال الذهبي : لا تعرف ، وباقي رجاله ثقات . قوله : « صم من الحرم » أى أشهر الحرم ، وهي : شهر رجب ، وذي القعدة ، وذي الحجة ، والمحرم .

(٣) تقالوها : أى عدوها قليلة .

(٤) أي أعرض عنها .

قوله : « الدين » مرفوع على مالم يسم فاعله . وروى منصوباً ، وروى : « لن يشاد الدين أحد » . وقوله ﷺ : « إلا غلبه » ، أى غلبه الدين وعجز ذلك المشاد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه . « والغدوة » : سير أول النهار . « والروحة » : آخر النهار . « والدلجة » : آخر الليل . وهذا استعارة وتمثيل ، ومعناه : استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال في وقت نشاطكم ، وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون ، وتبلغون مقصودكم ، كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها ، فيصل المقصود بغير تعب ، والله أعلم .

* * *

فلاحظ كل هذا أخا الإسلام حتى تكون من أهل الوسطية والاعتدال ، وحتى لا تكون من المتنطعين المشار إليهم في الحديث الذي ورد :

عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « هلك المتنطعون » قالها ثلاثاً — رواه مسلم .

و« المتنطعون » : أى المتعمقون المشددون في غير موضع التشديد .

ولهذا ، فقد ورد كذلك في الحديث الشريف : « خير الأمور أوساطها » رواه البيهقي .

« أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » رواه الترمذي والبيهقي .

« الهوا والعبوا فإنى أكره أن يكون في دينكم غلظة » رواه البيهقي .

« روحوا[1] قلوبكم ساعة فساعة » رواه أبو داوود .

« إن الله يحب أن تقبل رخصه كما يحب العبد مغفرة ربه » رواه الطبراني .

* * *

وحتى يتضح لنا هذا .. فإنني أرى كذلك أن أزودك ببعض الآثار التي قرأتها في « عيون الأخبار » ، تحت عنوان :

---

(١) المقصود به اللهو المباح .

التوسط في الأشياء
وما يكره من التقصير فيها والغلو

* **باب التوسط في الدين :**

حدثني الزيادي ، قال : حدثنا عبد العزيز الدراوردي قال : حدثني محمد بن طحلاء عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة ، قالت : قال النبي ﷺ : « اكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا ، وإن أفضل العمل أدومه وإن قل » .

حدثني القومسي عن أحمد بن يونس عن زهير عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الدين الحسن والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة » .

حدثني محمد بن عبيد عن معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن مسلم بن يسار أن رفقة من الأشعريين كانوا في سفر ، فلما قدموا ، قالوا : يا رسول الله .. ليس أحد بعد رسول الله أفضل من فلان ، يصوم النهار ، فإذا نزلنا قام يصلي حتى نرتحل ، قال : « من كان يمهن له أو يكفيه أو يعمل له » ؟ قالوا : نحن ، قال : « كلكم أفضل منه » .

وروى وكيع عن محمد بن قيس عن عمرو بن مرة ، قال : قال حذيفة : خياركم الذين يأخذون من دنياهم لآخرتهم ، ومن آخرتهم لدنياهم .

وفي بعض الحديث المرفوع : « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، والآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » ، وقال : « إن الله بعثني بالحنيفية السهلة ، ولم يبعثني بالرهبانية المبتدعة ، سنتي الصلاة والنوم ، والإفطار والصوم ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وفي الحديث : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

وفي بعض الحديث : أن عيسى بن مريم لقي رجلاً ، فقال : ما تصنع ؟ قال : أتعبد . قال : من يعود عليك ؟ قال : أخي ، قال : أخوك أعبد منك .

* باب التوسط في المدارة والحلم :

قرأت في كتاب للهند : بعض المقاربة حزم ، وكل المقاربة عجز كالخشبة المنصوبة في الشمس تمال فيزيد ظلها ، ويفرط في الإمالة فينقص الظل .

ومن أمثال العرب في هذا : « لا تكن حلواً فتسترط ، ولا مراً فتلفظ » .

وقال أبرويز لابنه : اجعل لاقتصادك السلطان على إفراطك ، فإنك إن قدرت الأمور على ذلك وزنتها بميزان الحكمة وقومتها تقويم الثقات ، ولم تجعل للندامة سلطاناً على الحلم .

وقال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوة أن يكدرا

وقال آخر :

ولا خير في عرض امرىء لا يصونه ولا خير في حلم امرىء ذل جانبه

وقال أكثم بن صيفي : الانقباض من الناس مكسبة للعداوة ، وإفراط الأنس مكسبة لقرناء السوء .

* باب التوسط في العقل والرأى :

روي في الحديث أن زياد بن أبي سفيان كان كاتباً لأبي موسى الأشعري ، فعزله عمر عن ذلك ، فقال له زياد : أعن عجز عزلتني يا أمير المؤمنين أم خيانة ؟ فقال : لا عن ذاك ولا عن هذا ، ولكني كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك .

ويقال : إفراط العقل مضر بالجد .

ومن الأمثال المبتذلة : استأذن العقل على الجد فقال : اذهب لا حاجة بي إليك .

هذا ، وإذا كان الرسول ﷺ ، قد قال : ــ بعد أن رغبنا في الوسطية والاعتدال ــ « واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله » .. إلخ الحديث :

فإن هذا معناه أن النبى ﷺ أراد أن يلفت قلوبنا إلى أمر خطير كلنا كمؤمنين عاملين لابد أن نتنبه له حتى لانغتر بأنفسنا ولانتكل على أعمالنا .. وهو أننا لن ننجو من عذاب الله ، ولن ندخل الجنة ــ أساسا ــ بأعمالنا قلت أم كثرت .. ولكن برحمة الله وفضلة .. وليس هذا بالنسبة لنا فحسب بل كذلك بالنسبة لخير خلق الله صلوات الله وسلامه عليه الذي قال كما قرأنا في نص الحديث عندما سألوه : « .. ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » :

ولهذا : فإننى قد رأيت كمدخل لهذا الموضوع الذي كما قلت : من أخطر المواضيع التى لا بد أن نتنبه لها ، ونلتفت إليها .. رأيت أن أذكر بوصية من وصايا الإمام الغزالى ــ رحمه الله ــ قرأتها في كتاب « مع الله » للشيخ محمد الغزالي أكرمه الله ، تحت عنوان :

من رسالة تضمنت وعظ ملك

أما بعد .. فالنصيحة هى هدية العلماء .. وإنه لن يهدي ــ أحد ــ إلى هدية أكرم من قبولها ، وإصغائه بقلب فارغ من ظلمات الدنيا إليها ..

وقد قيل لرسول الله ﷺ : « من أكرم الناس ؟ فقال : أتقاهم . فقيل : من أكيس الناس ؟ فقال : أكثرهم للموت ذكراً ، وأشدهم له استعداداً » .

وقال ﷺ : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .. والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني » .

وأشد الناس غباوة وجهلاً ، من تهمه أمور الدنيا التي تختطف منه عند الموت ، ولا يعرف أهو من أهل الجنة أو هو من أهل النار ، وقد عرفه الله تعالى ذلك حيث قال : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾[1] ، ﴿ وإن الفجار لفى جحيم ﴾[2] ، ﴿ فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي

(١) الانفطار : ١٣ .　　(٢) الانفطار : ١٤ .

المأوى ﴾(١) ، ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى ﴾**(٢) .

وإنى أوصيه أن يصرف إلى هذا المهم .. همته .. وأن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب .. وأن يراقب سريرته وعلانيته ، وأقواله ، وأفعاله .. أهى مقصورة على ما يعمر دنياه بالمكدرات والهموم ، ثم يختمها والعياذ بالله بالشقاوة .. فليفتح عن بصيرته : ﴿ **ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾**(٣) ، وليعلم أنه لا مشفق عليها ولا ناظر في أمرها سواه .. وليتدبر ما هو بصدده .. فإن كان مشغولاً بعمارة ضيعة فلينظر .. كم من قرية أهلكها الله وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها بعدعمارها!.. وإن كان مقبلاً على استخراج ماء أو عمارة نهر فلينظر كم من بئر معطلة بعد عمارها ؟ وإن كان مهتماً بتأسيس بناء فلينظر : كم من قصور مشيدة البنيان محكمة القواعد والأركان أظلمت بعد سكانها ؟.. وإن كان مشغولاً بخدمة سلطان فليتذكر ما ورد في الخبر : أنه ينادي مناد يوم القيامة : أين الظلمة وأعوانهم ؟ فلا يبقى أحد مد لهم دواة أو برى لهم قلماً فما فوق ذلك إلا أحضر .. فيجمعون في تابوت من نار فيلقون في جهنم .

وإن كان في طلب المال وجمعه .. فليتأمل قول عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين .. مسرة في الدنيا ، مضرة في الآخرة .. بحق أقول لكم .. لا تدخل الأغنياء ملكوت السماء .

ثم بعد ذلك يسوق حديثاً شريفاً هو شاهدي في هذا الموضوع ، وهو : قال النبى ﷺ : « يحشر الأغنياء أربع فرق : رجل جمع مالا من حرام وأنفقه في حرام .. فيقال : اذهبوا به إلى النار ..

ورجل جمع مالا من حرام وأنفقه في حلال .. فيقال : اذهبوا به إلى النار ..

ورجل جمع مالاً من حلال وأنفقه في حرام .. فيقال : اذهبوا به إلى النار ..

---

(١) النازعات : ٣٧ ـــ ٤٩ . (٢) النازعات : ٤٠ ، ٤١ .
(٣) الحشر : ١٨ .

ورجل جمع مالاً من حلال وأنفقه في حلال .. فيقال : قفوا هذا وسلوه :

لعله ضيع بسبب غناه فيما فرضناه عليه ، أو قصر في الصلاة ، أو في وضوئها ، أو في ركوعها ، أو في سجودها ، أو في خشوعها ؟ .. أو ضيع شيئاً من فرض الزكاة والحج ..

فيقول الرجل : جمعت مالى من حلال ، وأنفقته في حلال ، وما ضيعت شيئاً من حدود الفرائض ، بل أتيت بتمامها .

فيقال لعلك باهيت بمالك ، واختلت في شيء من ثيابك ؟ فيقول : يا رب .. ما باهيت بمالي ، ولا اختلت في شيء من ثيابي .

فيقال : لعلك فرطت فيما أمرناك من صلة الرحم وحق الجيران والمساكين ، وقصرت في التقديم والتأخير والتفصيل والتعديل .. ويحيط به هؤلاء فيقولون : ربنا .. أغنيته بين أظهرنا وأحوجتنا إليه فقصر في حقنا .. فإن ظهر تقصيره ذهب به إلى النار .. وإلا قيل له : قف ! .. هات الآن شكر كل نعمة .. وكل شربة .. وكل أكله .. وكل لذة .. فلا يزال يسأل وسيسأل » .

ثم بعد ذلك يعلق الإمام الغزالى على هذا .. بقوله :

فهذه حال الصالحين المصلحين القائمين بحقوق الله .. فكيف حال المفرطين المنهمكين في الحرام والشبهات ؟ ..

وهذا التساؤل الحيوي ، هو ما نريد جميعاً أن نفكر فيه ونشغل به وذلك حتى نعمل ليوم الحساب ألف حساب .. كآبائنا وأجدادنا الصالحين الذين سبقونا بالإيمان والذين منهم على سبيل المثال لا الحصر :

سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد قرأت أنه كان دائم البكاء لدرجة أنك كنت ترى على وجهه خطين أسودين من كثرة انحدار الدموع .. وكنت تشم من فمه رائحة الكبد المشوى من شدة الخوف من الله تبارك وتعالى .

وقرأت في كتاب « الزهد »(١) للإمام عبد الله بن المبارك رضى الله عنه :

أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب : خوفنا يا كعب ! فقال : والله إن لله لملائكة قياماً منذ خلقهم الله ما ثنوا أصلابهم ، وآخرين ركوعاً ما رفعوا أصلابهم ، وآخرين سجوداً ما رفعوا رؤوسهم حتى ينفخ في الصور النفخة الآخرة . فيقولون جميعاً : سبحانك وبحمدك ما عبدناك ككنه(١) ما ينبغي لك أن تعبد ، ثم قال : والله لو أن لرجل يومئذ كعمل سبعين نبياً لاستقل عمله من شدة مايرى يومئذ ، والله لو دلى من غسلين دلو واحد في مطلع الشمس لفلت منه جماجم قوم في مغربها ، والله لتزفرن جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا غيره إلا خر جاذياً أو جاثياً على ركبتيه يقول : نفسي نفسي ، وحتى نبينا وإبراهيم وإسحاق يقول رب أنا خليلك إبراهيم . قال : فأبكي القوم حتى نشجوا . فلما رأى ذلك عمر ، قال : يا كعب .. بشرنا ، فقال : أبشروا فإن لله تعالى ثلاثمائة وأربع عشرة شريعة لا يأتي أحد بواحد منهن مع كلمة الإخلاص(٣) إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته ، والله لو تعلمون كل رحمة الله تعالى لأبطأتم في العمل . والله لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت من هذه السماء الدنيا في ليلة ظلماء مغدرة(٤) لأضاءت لها الأرض أفضل مما يضيء القمر ليلة البدر ، ولوجد ريح نشرها جميع أهل الأرض ، والله لو أن ثوباً من ثياب أهل الجنة نشر اليوم في الدنيا لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم(٥) .

وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، قال : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ تبنة من الأرض فقال : يا ليتني هذه التبنة ، ليتني لم أك شيئاً ، ليت أمى لم تلدني ، ليتني كنت نسياً منسياً .

وقرأت أنه رضى الله عنه ، قال ذات يوم : ليتني شعرة في صدر أبي بكر :

---

(١) باب تعظيم ذكر الله عز وجل .

(٢) أى كحقيقة ما ينبغي وكنه الشيء قدره وحقيقته وغايته .

(٣) وهي لا إله إلا الله . (٤) ليلة مغدرة ، أى مظلمة .

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية ..

وذلك حتى يدخل الجنة معه .. مع أن الصديق رضى الله عنه كان هو الآخر — وهو من هو — يخاف من الله تعالى خوفاً شديد .. مع أنه قد ورد في الأثر أن النبى ﷺ ، قال في شأنه : « لو وضع إيمان أبي بكر في كفة وإيمان الأمة في كفة لرجح إيمان أبي بكر » ، وكان مع هذا يقول : — كما ورد كذلك عنه — : لو كانت إحدى رجلي في الجنة والأخرى على بابها ما أمنت من مكر الله .

وكان إذا مدح — أى سمع أحداً يثني عليه — يقول مناجياً ربه : اللهم .. اجعلني خيراً مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون .

* * *

وقرأت في كتاب « التذكرة » للقرطبي : أن يزيد الرقاشي كان يقول لنفسه : ويحك يا يزيد ، من ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟ ثم يقول : أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم ؟ من الموت طالبه ، والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه ، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله ؟ ثم يبكى حتى يسقط مغشياً عليه .

وروى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان يجمع العلماء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وذات يوم قالت له جاريته : يا أمير المؤمنين .. لقد رأيت الليلة في المنام ، كأن الصراط قد مد على جهنم وهى تزفر على أهلها .. ثم قالت : ورأيتك يا والجارية تصرخ في أذنه قائلة له : رأيتك والله قد نجوت .. رأيتك والله قد نجوت .. **رأيتك والله قد نجوت .**

* * *

وكل هذا ما كان إلا بسبب الخوف من الله تعالى .. وهذا أمر طبيعي بالنسبة للمؤمن الذي لا بد أن يظل خائفاً من الله تعالى حتى يلقاه ولا سيما

إذا كان عالمـــا عاملاً ، كما تشير الآية الكريمة التي يقول الله تبارك وتعالى فيها : ﴿ .. إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[1] .

قال القرطبي معلقاً على هذا الجزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر .. مبيناً ما ورد حول حقيقة العالم : يعني بالعلماء الذين يخافون قدرته ، فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية ، كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور ﴾ ، قال : الذين علموا أن الله على كل شيء قدير . وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله تعالى فليس بعالم. وقال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل. وعن ابن مسعود : كفي بخشية الله تعالى علماً وبالاغترار جهلاً .

وقيل لسعد بن إبراهيم : من أفقه أهل المدينة ؟ قال : أتقاهم لربه عز وجل . وعن مجاهد ، قال : إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل . وعن علي رضي الله عنه ، قال : إن الفقيه حق الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ، إنه لا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا علم لا فقه فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها . وأسند الدارمي أبو محمد عن مكحول ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ــ ثم تلا هذه الآية : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ إن الله وملائكته وأهل سماواته وأهل أرضيه والنون[2] في البحر يصلون على الذين يعلمون الناس الخير »[3] .

فمن هذا السياق الذي ساقه القرطبي يتبين لنا أهمية الخشية من الله تبارك وتعالى ، الذي قال متحدثاً عن نفسه سبحانه وتعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير ﴾[4] .

قال ابن عباس : ﴿ غافر الذنب ﴾ لمن قال لا إله إلا الله ﴿ وقابل التوب ﴾ ممن قال : لا إله إلا الله ﴿ شديد العقاب ﴾ لمن لم يقل : لا إله إلا الله .

---

(١) فاطر : ٢٨ .
(٢) النون : أي الحوت ، كما يشير قول الله تعالى : ﴿ وذا النون ﴾ .
(٣) الخبر مرسل .
(٤) غافر : ٣ .

وقال ثابت البناني : كنت جالساً إلى سرادق مصعب بن الزبير في مكان لا تمر فيه الدواب ، قال : فاستفتحت : ﴿ **حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم** ﴾(١) فمر على رجل على دابة ، فلما قلت : ﴿ **وقابل التوب** ﴾ قال : قل : يا قابل التوب تقبل توبتي ، فلما قلت : ﴿ **شديد العقاب** ﴾ قال : قل : يا شديد العقاب اعف عنى ، فلما قلت : ﴿ **ذي الطول** ﴾(٢) قال : قل : يا ذا الطول طل على بخير ، فقمت إليه فأخذ ببصري ، فالتفت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً .

ومن بركات هذه الآية ، ما ذكره القرطبي بعد ذلك ، حيث يقول : وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام ، فقيل له : تتابع في هذا الشراب ، فقال عمر لكاتبه : اكتب ، من عمر إلى فلان ، سلام عليك ، وأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير** ﴾(٣) ثم ختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً ، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة ، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول : قد وعدني الله أن يغفر لي ، وحذرني عقابه ، فلم يبرح يرددها حتي بكى ثم نزع(٤) فأحسن النزوع وحسنت توبته . فلما بلغ عمر أمره ، قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم زل زلة فسددوه وادعو الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه .

ومعنى : ﴿ **ذي الطول** ﴾ أي ذي الغنى عمن لا يقول : لا إله إلا الله . وقال عكرمة : ﴿ **ذي الطول** ﴾ ذي المن .. وقال محمد بن كعب : ﴿ **ذي الطول** ﴾ ذي التفضل . ومعنى : ﴿ **لا إله إلا هو ، إليه المصير** ﴾ أى المرجع .

* * *

---

(١) غافر : ١ ، ٢ .

(٢) الطول : (المن) والعطاء .

(٣) غافر : ١ — ٣ .

(٤) أى رجع إلى الله تعالى بصدق وإخلاص .

فلا بد إذن من الخوف من الله تعالى ولكن على شريطة ألا يكون هناك يأس من رحمة الله .. لأن الله تعالى يقول :

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾[1] .

ويقول : ﴿ .. إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾[2] .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : كان رجل[3] يسرف على نفسه[4] فلما حضره الموت قال لبنيه : إذا أنا مت فأحرقوني ثم اطحنوني[5] ثم ذروني في الريح ، فوالله لئن قدر الله ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً ، فلما مات فعل به ذلك ، فأمر الله الأرض ، فقال : اجمعى ما فيك ، ففعلت ، فإذا هو قائم ، فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : خشيتك يا رب ، أو قال : مخافتك ، فغفر له .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ ، قال : « قال رجل لم يعمل حسنة قط[6] لأهله : إذا مات فحرقوه ثم اذروا نصفه في البر ونصفه في البر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين ، فلما مات الرجل عملوا ما أمرهم ، فأمر الله البر فجمع ما فيه ، وأمر البحر فجمع ما فيه ، ثم قال : لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يا رب وأنت أعلم ، فغفر الله تعالى له » .

رواه البخارى ومسلم ، ورواه مالك والنسائي ونحوه .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « يقول الله عز وجل : أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام » رواه الترمذي والبيهقي ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

ومعنى هذا الحديث الأخير[7] : أن الله سبحانه وتعالى يخاطب الملائكة يوم القيامة ويأمرهم بإخراج من دخل النار من عباده المؤمنين وكان ذكر الله عز وجل يوماً ما من أيام حياته أو خاف الله تعالى في مقام مدة عمره .

---

(١) الزمرة : ٥٣ . (٢) يوسف : ٨٧ .
(٣) أى فيمن كانوا قبلنا والظاهر أنه من بني إسرائيل .
(٤) أى يتجاوز حده في ارتكاب المعاصي والشرور .
(٥) أى اجعلوا جسمي كالدقيق المطحون الناعم .
(٦) أى في كل أيام عمره . (٧) كما جاء في هامش الترغيب والترهيب .

وقد اختلف المفسرون في تأويل المقام في قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾(١) فقيل هو مصدر ميمي بمعني القيام مضاف إلى الفاعل ، أى ولمن خاف قيام ربه وكونه مهيمناً عليه مراقباً له حافظاً لأحواله وهذا مروى عن مجاهد وقتادة وقيل هو اسم مكان والمراد به مكان وقوف الخلق يوم القيامة للحساب .

والإضافة إليه تعالى على معني اللام لإفادة الاختصاص لأن الملك كله في هذا اليوم له وحده ، وقيل مقامه سبحانه وتعالى هو الموقف الذي يقفه العباد للحساب كما في قوله تعالى : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾(٢) فالمقام مصدر بمعني القيام ، والمراد بالذكر في الحديث ذكر وعيده سبحانه عند الإقدام على معصية ، وبالخوف كف الجوارح عن المعاصى وتقييدها بالطاعات خوفاً من مقامه بين يدي ربه .

كما قال تعالى : ﴿ **ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** ﴾(٣) . والحديث يدل على فضل الذكر والخوف من الله تعالى .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه جل وعلا أنه قال : « وعزتي لا أجمع علي عبدي خوفين وأمنين . إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة ، وإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة » رواه ابن حبان في صحيحه .

وعن أبي هريرة أيضاً رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، **ألا إن** سلعة الله الجنة » رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، وكذلك رواه الحاكم وقال : صحيح .

قال العلقمي : « يقال أدلج بالتخفيف إذا سار من أول الليل ، وأدلج بالتشديد إذا سار من آخره» وهذا الحديث من باب الكناية ، والمعنى أن من خاف الله تعالى أدلج أى سبق غيره إلى منازل الأبرار بالجد في العبادة .

---

(١) الرحمن : ٤٦ (٢) المطففين : ٦ (٣) إبراهيم : ١٤

والمعنى كذلك : أن من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة ، والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفاً من القواطع والعوائق .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة[1] ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة[2] ما قنط من رحمته أحد » رواه مسلم .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : قال الله تعالى : « يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ، ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان[3] السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب[4] الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : قال الله عز وجل : « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني » .. الحديث رواه البخاري ومسلم .

يعني : أنا أكون له على حسب ظنه بي ، فإن ظن بي خيراً وجد خيراً ، وإن ظن بي سوءاً وجد سوءاً .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « حسن الظن من حسن العبادة » رواه أبو داوود وابن حبان في صحيحه واللفظ لهما والترمذي والحاكم ولفظهما ، قال : « إن حسن الظن من حسن عبادة الله » .

أى : من جملة العبادات الحسنة التي يتقرب بها إلى الله تعالى ، فإضافة « حسن » إلى العبادة من إضافة الصفة للموصوف .

قال بعضهم : « وفائدة هذا الحديث الإعلام بأن حسن الظن عبادة من العبادات الحسنة ، كما أن سوء الظن معصية من معاصي الله تعالى ، وقيل معناه : من حسنت عبادته حسن ظنه ، كما قيل في قوله ﷺ : « لا يموتن

---

(١) يعني لأهل معصيته . (٢) يعني لأوليائه وأهل طاعته .
(٣) هو بفتح العين السحاب وبكسرها اللجام . (٤) أى بما يقارب ملء الأرض خطايا .

أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » .

وإطلاق الحديث يقتضي أن حسن الظن بالمسلم المستور حاله من حسن العبادة سواء أكان مصيباً في ظنه أم مخطئاً .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام حتى تكون حسن الظن بالله تعالى وحتى تكون أهلاً لرحمته سبحانه وتعالى .. مع ملاحظة ما جاء في مضمون هذا الحديث القدسي الذي يقول الله تعالى فيه : « ما أقل حياء من يطمع في جنتي بغير عمل !! كيف أجود برحمتي على من بخل بطاعتي ؟ » .

وذلك حتى تعمل إن شاء الله تعالى بكل ما أوتيت من إيمان وإخلاص على أن تكون من أهل الرحمة المشار إليهم في قول الله تعالى : ﴿ .. **ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ..** ﴾[1] الآية .

* * *

وأخيراً أخا الإسلام ، وحتى يكون هناك مع الخوف من الله تعالى رجاء فيه سبحانه .. إليك بعض ما ذكره الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه « إحياء علوم الدين » ، في كتاب الخوف والرجاء ، حيث يقول بتصرف وإيجاز :

أما بعد .. فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان ، مع كونه بعيد الأرجاء ، ثقيل الأعباء ، محفوفاً بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء ، إلا أزمة الرجاء ولا يصدر عن نار الجحيم والعذاب الأليم ، مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف .. ثم يقول تحت عنوان :

---

(١) الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧ .

فضيلة الرجاء والترغيب فيه

أعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف : لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له ، والحب يغلب بالرجاء ، واعتبر ذلك بملكين ، يخدم أحدهما خوفاً من عقابه ، والآخر رجاء لثوابه ، ولذلك ورد في الرجاءوحسن الظن رغائب ، لا سيما في وقت الموت ، قال تعالى : ﴿ .. لا تقنطوا من رحمة الله ﴾(١) ، فحرم أصل اليأس . وفي أخبار يعقوب عليه السلام ، أن الله تعالى أوحى إليه : أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت : أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . لم خفت الذئب ولم ترجني ، ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له ؟ .. وقال ﷺ : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى »(٢) . وقال ﷺ : « يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء »(٣) ، ودخل ﷺ على رجل وهو في النزع ، فقال : « كيف تجدك » ؟ فقال : أجدني أخاف ذنوبي ، وأرجو رحمة ربي . فقال ﷺ : « ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف »(٤) .

وقال على رضى الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : يا هذا .. يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك .

وقال سفيان : من أذنب ذنباً فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه ، غفر الله له ذنبه ، قال : لأن الله عز وجل عير قوماً فقال : ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بورا ﴾(٦) .

وفي الخبر الصحيح : « إن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغنى ويتجاوز

---

(١) الزمر : ٥٣ (٢) رواه مسلم من حديث جابر .

(٣) رواه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله « فليظن بي ما شاء » .

(٤) رواه الترمذي وقال غريب ، والنسائي في الكبري وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي إسناده جيد .

(٥) فصلت : ٢٣ . (٦) الفتح : ١٢ .

عن المعسر ، فلقي الله ولم يعمل خيراً قط ، فقال الله عز وجل : من أحق بذلك منا » فعفا عنه لحسن ظنه ، ورجائه أن يعفو عنه ، مع إفلاسه من الطاعات .

وفي الخبر : « إذا أذنب العبد ذنباً فاستغفر الله ، يقول الله عز وجل لملائكته : انظروا إلى عبدي أذنب ذنباً فعلم أنه له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب ، أشهدكم أني قد غفرت له »[1] .. إلخ .

* * *

فاذكر كل هذا أخا الإسلام حتى لا تيأس من رحمة الله تعالى وحتي تكون من أهل الرجاء في الله تعالى الذي ﴿ .. **يغفر الذنوب جميعاً** .. ﴾[2] .

والذي يقول : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[3] .

وادع الله تعالى معى بهذا الدعاء الجامع الذي أسأل الله تعالى أن يتقبله منا جميعاً كما تقبله من حبيبه محمد ﷺ الذي قال له : « سل » ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني غير مفتون ، **وأسألك حبك وحب من يحبك ، وحب كل عمل يقربني إلى حبك** »[4] .. آمين .. آمين .. آمين .

* * *

(١) الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ : « إن عبداً أصاب ذنباً فقال : أى رب أذنبت ذنباً فاغفر لي » ..

(٢) الزمر : ٥٣ .

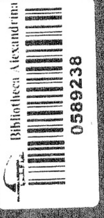
(٣) النساء : ٤٨ .

(٤) من حديث أخرجه الترمذي والحاكم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه .



رقم الايداع بدار الكتب
١٩٨٥/٥١٠٤

دار النصر للطباعة الاسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١


Bibliotheca Alexandrina
05889238